

رحلة ابن بطوطة
تحفة النظائر
في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار

تأليفه وأعدّه فهماؤنا
الأستاذ مصطفى القصاص

قدم له وحققته
الشيخ محمد عبد المنعم العريان

أرقام الصفحات

الجزء الثاني..... 403

فهرس الأجزاء..... 777

يليه: رحلة ابن بطوطة دراسة

بيئية.. 800

الكتاب كامل في ملف واحد

الكتب المدمجة

دمج وفهرسة الكتب ذات الأجزاء المتعددة

رحلة ابن بطوطة

تحفة النظائر
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

الجزء الأول

رأبته وأعدت فهارسه
الأستاذ مصطفى القصاص

قدم له وحقته
الشيخ محمد عبد المنعم العريان

دار احياء العلوم
سبوت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

حقوق الطبع محفوظة لدار إحياء العلوم
ص.ب: ٥٧٥١ - بيروت، لبنان

رحلة ابن بطوطة

تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بین یدی الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه الطيبين الطاهرين، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فقد خلق الله آدم عليه السلام، وصوره فأحسن تصويره، ونفخ فيه من روحه، وأودع فيه من المواهب والقوى، والقدرات والاستعدادات ما يتمكن معه من أداء الدور، والقيام بالمهام، وتحقيق الأهداف التي خلق من أجلها.

وقد ميزه الله على غيره من الكائنات بالعقل، وعلمه الأسماء كلها: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ «البقرة / ٣١ - ٣٣»، وجعله خليفة له في الأرض، وأمر بالسجود له: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ «ص / ٧٣ - ٧٤».

ومن بعد آدم كان بنوه خلفاء الله في الأرض، كرمهم، وحملهم في البر

والبحر، ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير من خلقه، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه .

ومنذ وجد الإنسان وفي نفسه الرغبة الملحة في التنقل والارتحال؛ لأنه مفطور على حب الاستطلاع والتشوف والتشوق إلى معرفة كنه المجهول، والبحث وراء الخفيات، للتعرف على أسرارها، والإحاطة بشأنها، والإفادة مما يكتسب من المعرفة .

وبدأ الإنسان يجوب البحار، ويقطع العوامر والقفار، ويجول في آفاق الأرض ويمشي في مناكبها، ساعياً وراء رزقه، أو متأملاً في ما خلق الله - متطلباً الدلائل على عظيم قدرته، وبديع صنعته، ليطمئن منه القلب، ويزداد لديه اليقين - أو مرضياً لأشواق نفسه إلى المعرفة .

والله - جل وعلا - قد حث عباده على السير في الأرض؛ لتحصيل أرزاقهم، وللتعرف على الإبداع في خلق الكون، وإيجاده من العدم؛ ليؤمنوا بقدرته على البعث للموتى، وإحياء من في القبور، ولمشاهدة آثار الذين خلوا من قبلهم ليكون لهم فيها موضع العظة والاعتبار: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ «الملك / ١٥» .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «العنكبوت / ٢٠» .

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «الروم / ٩» .

وقد عدَّ الله تعالى، ما وفق إليه قريشاً - من الرحلة إلى اليمن في فصل

الشتاء، وإلى الشام في فصل الصيف؛ للتجارة، وابتغاء فضله - من جلائل النعم، وعظيم المنن التي تستوجب الإيمان بالمنعم - جل وعلا -، وإفراده بالعبادة؛ شكراً له على هذه الأفضال.

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ «سورة قريش».

وكما عرفت الأمم الانتقال والترحال عرفت أمتنا العربية والإسلامية التنقل والترحال، بل لقد فاقت غيرها من الأمم، وبزتها في هذا المضمار، إذ تحولت الرحلة والتنقل إلى سجية من سجاياهم، وجزء من حياتهم اليومية، فهم بين مرتحلين في طلب الماء، والمرعى الخصب، أو مغيرة بعض قبائلهم على بعضها الآخر، أو ناقلين للتجارة، أو قائمين بحمايتها وخفارتها.

ثم زاد اعتناقهم للإسلام، وإيمانهم بتعاليمه من رسوخ تلك السجية، وثباتها واستقرارها، فتنقلوا وارتحلوا؛ دعاة إلى هذا الدين، ناشرين لمبادئه، مجاهدين في سبيله، متعرفين إلى إخوانهم في الدين، ومشاركينهم في العقيدة، محققين الأخوة التي وصفهم الله بها، مبرزين لآثار هذه الأخوة التي ذكرها المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثه.

• ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ «الحجرات / ١٠».

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ «الحجرات / ١٣».

وقد وعت الذاكرة مما حفظنا في الصغر تلك الأبيات المنسوبة إلى الإمام محمد

ابن إدريس الشافعي رضي الله عنه ، والتي يحث فيها على السفر والارتحال ، مبيناً
مزاياها ، وفضلها فيقول :

سافر تجد عوضاً عما تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب ما قنصت
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لملأها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في معادنه
والعود في أرضه نوع من الخطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وإن أقام فلا يعلو على رتب

ولقد فتح الله على المسلمين، ومكن لهم في الأرض، فأتسعت رقعة دولتهم
شرقاً وغرباً، وامتدت أملاكهم طولاً وعرضاً، وأصبحت تضم أكثر الأجزاء
المعمورة من الأرض.

وانطلق الرحالة المسلمون يجوبون أقطار الدنيا، يتعرفون إليها، ويلمون
بأخبارها، وذلك إلى جوار قيامهم بأداء ما افترض الله عليهم من الحج إلى بيته
الحرام، وما تهفو إليه نفوسهم من زيارة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وكان على رأس أولئك الرحالة أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي المولود في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، والمتوفى في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م)، وقد زار بلاد المشرق الإسلامي ثلاث مرات فيما بين سني ٥٧٨ و ٥٨١ الهجريتين، وخلف لنا من بعده الكتاب الرائع: رحلة ابن جبير.

وكان من بين الرحالة المسلمين، أو قل: أميرهم - كما تلقبه جمعية «كمبردج» في كتبها وأطالسها: «Prince of moslems travellers»

- أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، وقد بدأ رحلته هذه في شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ وانتهت بوصوله إلى فاس في ذي الحجة سنة ٧٥٤ هـ (أي: أنها استغرقت تسعة وعشرين عاماً ونصف العام تقريباً)، وهي في الحقيقة مجموعة من الرحلات، وليست رحلة واحدة، وإنما أطلق عليها رحلة؛ لأنه لم يعد إلى موطنه في المغرب إلا بعد انتهائها، ليستقر فيه، ويلقي عصا التسيار، ويقر عيناً بالإياب، وقد طوف في هذه الرحلات بأكثر بلدان العالم المعروف في عصره، وزار بلدان قارتي آسيا وإفريقيا، وبعضاً من بلدان قارة أوروبا، ولم يزر الأمريكتين وأستراليا لأنها لم تكونا قد عرفتوا واكتشفتا بعد.

وقد دون رحلته هذه، وتحدث فيها عن البلدان التي زارها، والشعوب التي عرفها، متحدثاً عن مواقع البلدان، والمسافات بينها، وعن أحداث من تاريخها، وعن العادات والتقاليد السائدة فيها، والعلاقات بينها، كما وصف مظاهر العمران، وألوان الحضارة، مما لا نعتبر معه مغالين، ولا مبالغين إذا قلنا: إنها تكاد أن تكون دائرة معارف مصغرة لهذا العصر الذي عاش فيه ابن بطوطة.

ولذلك لقيت من عناية الباحثين ما هو جدير بها من الاهتمام، فطبعت عدة طبعات، وترجمت إلى الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، كما ترجمت فصول منها إلى الألمانية، ونشرت بها، فضلاً عن نشر الترجمة الإنجليزية.

إلا أن الكمال لله وحده، فلم تخل أي طبعة منها من بعض الهنات، والأخطاء، مطبعية في بعض الأحيان، وراجعة في البعض الآخر إلى عدم الإحاطة بمعرفة البلدان، بالنسبة إلى من ليس من أهلها، ومن الأمثلة على ذلك: تسمية القرية التي زارها ابن بطوطة بعد خروجه من الإسكندرية قاصداً زيارة الشيخ أبي عبد الله المرشدي، فقد ذكر أنها: فروجه، وليس اسمها كذلك، بل اسمها: تروجة، أو: تروجي، وهي إحدى قرى محافظة البحيرة في مصر، وبها آثار رومانية. كذلك تعقيب بعض المعلقين على الرحلة بأن مدينة منوف كانت تسمى: ممفيس، مع أن منوف غير ممفيس، فهي إحدى مدن محافظة المنوفية في مصر، وإليها تنسب المحافظة، أما ممفيس فهي مدينة منف عاصمة الدولة القديمة في مصر، ومكانها الآن قرية البدرشين في محافظة الجيزة.

لذلك صحت النية، وقوي العزم على إصدار طبعة مصححة يتلافى فيها - ما أمكن - تلك الأخطاء، وتشرح فيها بعض الكلمات الغامضة ويعلق على ما يدعو الأمر إلى التعليق عليه، وتبين أرقام الآيات القرآنية، والسور التي جاءت فيها، وتضبط بعض الكلمات التي تحتاج إلى ضبط، حتى يسهل فهم المراد منها، وتسند بعض الأحاديث الواردة فيها - إن تيسر ذلك - .

كما ألحقنا بالكتاب فهرسين أحدهما للأعلام والآخر للأماكن لتعين القارئ على البحث والقراءة والاطلاع.

وها هي الرحلة بين يدي القارئ نقدمها إليه، راجين أن يصفح عما يجد من زلات، وما تقع عليه عينه من أخطاء، فذلك مبلغ جهدنا.

والله نسأل أن ينفع به، وأن يجعله من العلم المنتفع به، وهو - سبحانه - من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

في يوم الخميس

٢٦ من ذي القعدة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٣١ من تموز (يوليو) ١٩٨٦ م

محمد عبد المنعم العريان

من علماء الأزهر الشريف

وعضو بعثة الأزهر في

لبنان - بيروت

ابن بطوطة

بالرغم من هذا العمل الرائع العظيم الذي حققه ابن بطوطة، وبالرغم من أهمية هذه الرحلة لم تثبت له ترجمة في كتب معاصريه، اللهم إلا الترجمة المحدودة، التي لا تتجاوز الأسطر المعدودة، التي جاء بها الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه: « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة »، وإلا ما كتبه العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المشهورة - لكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر »، وهو تعليق وجيز لم يترجم فيه لابن بطوطة، بل ذكر خبر عودته من رحلته، ووروده على المغرب في زمن السلطان أبي عنان، وما تحدث به من الغرائب، وما أثارته من الاستنكار والتكذيب له، وما تحدث به إليه في شأن هذه الأخبار الوزير فارس، مبيناً رأيه فيها، (وسنثبت نص ما كتبه ابن خلدون عقيب هذه الترجمة لابن بطوطة ومدون رحلة ابن جزي).

ويبدو - والله أعلم - أن المترجمين للأعلام اكتفوا برحلة ابن بطوطة، كأتم ترجمة له، لا يكون بعدها بحاجة إلى الترجمة له .

- وإن كان غيره من الأعلام قد ترجم لنفسه وتحدث عن حياته، ومع هذا حظي بتراجم عديدة كتبت له، مثل الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي، فقد ترجم لنفسه في كتابه « المنقذ من الضلال » وتكاثر المترجمون له، حتى لم يغفل التعريف به واحد من المؤرخين والكتابين عن الأعلام ..

وقد جاء ذكر ابن بطوطة في كتاب « الأعلام » لخير الدين الزركلي .

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي (نسباً إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر).

مولده:

كان مولد ابن بطوطة في مدينة طنجة، وهي إحدى مدن المغرب العربي، وتقع على الشاطئ الإفريقي لبحر العدو (بحر الزقاق) الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، والذي يعرف الآن باسم: مضيق جبل طارق. وكانت ولادته - كما ذكر ابن جزري - في يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٧٠٣ هـ (٢٥ شباط «فبراير» سنة ١٣٠٤ م).

واللقب الذي اشتهر به (ابن بطوطة) ليس خاصاً به، بل كانت تلقب به أسرته، ويستفاد هذا مما ذكره هو في الجزء الثاني من الكتاب، فقد ذكر أن قاضي رندة ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى ابن بطوطة، ويظهر أن هذا اللقب ظل يطلق على أفراد هذه الأسرة على توالي أجيالها - وإن حدث له بعض التحريف - فقد ذكر خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» أن في مدينة نابلس في فلسطين أسرة تدعى ببيت بطوط - وتعرف أيضاً ببيت المغربي، وبيت كمال - تقول: إنها من نسل ابن بطوطة.

وقد ولد لأسرة تولى كثير من أفرادها القضاء، ولذلك تعهده والداه بالرعاية، وعملاً على تعليمه، ليتيها لتولي القضاء كما تولاه غيره من أفراد أسرته، ولكنه ما إن أمّ الثانية والعشرين من سني حياته حتى هفت نفسه إلى أداء فريضة الحج، فابتدأ رحلته.

وكان مولد ابن بطوطة في عهد السلطان أبو يوسف ابن عبد الحق أحد سلاطين الدولة المرينية.

بنو مرين:

وبنو مرين سلالة من البربر حكمت مراكش من سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) إلى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٨ م)، وقد قامت دولتهم على أنقاض دولة الموحدين، فاحتلوا مراكش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) وغزوا الأندلس، وكانت عاصمتهم مدينة فاس. ومدينة فاس أسسها إدريس بن عبد الله، وابنه إدريس بن إدريس، وخضعت بعد الأدارسة للأمويين في الأندلس، حيث احتلها بربر زناتة.

ثم استولى عليها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين، ووقعت بعد ذلك في يد الموحدين، وظلت تحت سلطانهم، حتى استولى عليها المرينيون، واتخذوها عاصمة لهم، وقد ازدهر بلاطها في عهدهم، ولمع فيه من أعلام الفكر الإسلامي لسان الدين بن الخطيب، وابن بطوطة، وابن خلدون، وابن جزي الكلبي، وغيرهم، والمرينيون هم الذين أسسوا في فاس جامع القرويين.

رحلة ابن بطوطة:

ورحلة ابن بطوطة - أو رحلاته - التي استغرقت تسعة وعشرين سنة ونصف السنة - على وجه التقريب - والتي بدأت في يوم الخميس ٢ من رجب عام ٧٢٥ هـ، وانتهت بوصوله إلى مدينة فاس عاصمة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة عام ٧٥٤ هـ، قد زار فيها كل بلاد العالم المعروفة في عصره، وطوف فيها بقارتي إفريقية وآسية وجزء من قارة أوروبا، فقد جاب فيها المغرب العربي، أقصاه (المغرب، وموريتانيا)، وأوسطه (الجزائر)، وأدناه (تونس) كما زار ليبيا، وزار مصر بدءاً بالإسكندرية، ومروراً بشمال الدلتا، ووسطها حتى وصل القاهرة، وزار صعيد مصر، واتجه إلى ساحل البحر الأحمر منتهياً إلى ميناء عيذاب، وعاد أدراجه إلى القاهرة، واتجه منها إلى صحراء مصر

الشرقية، فسينا، ودخل فلسطين فزار أهم مدنها، وزار بيروت وسهل البقاع، وطرابلس، وجبل لبنان، وبعلبك، وزار مدينة دمشق، وحصص، وحاة، ومعة النعمان، وحلب، كما زار الساحل السوري، ومدنه، وحصون الإسماعيلية، ومن دمشق اتجه إلى الحجاز ماراً بالأردن، وأدى فريضة الحج في موسم عام ٧٢٦ هـ، وغادر الحجاز إلى بلاد العراق حيث زار مدائنها الهامة مثل: الكوفة، والبصرة، وبغداد، وتكريت، والموصل، وخرج إلى الحجاز مرة ثانية مع الراكب العراقي، فحج للمرة الثانية سنة ٧٢٧ هـ، وجاور بمكة عام ٧٢٨ هـ، وأدى مناسك الحج للمرة الثالثة، كما جاور عام ٧٢٩ هـ، وأدى مناسك الحج للمرة الرابعة، وجاور كذلك عام ٧٣٠ هـ وفي الموسم وقعت فتنة تحدث عنها، وذكر أنه خرج في تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن، ويفهم من كلامه أنه لم يحج عام ٧٣٠ هـ، ومن جدة أبحر في البحر الأحمر ماراً بشواطئ السودان، وزار اليمن ومنه توجه إلى شرق إفريقيا، فزار الصومال وكينيا، وتانزانيا، وعاد أدراجه إلى جزيرة العرب، فزار ظفار في اليمن الجنوبي، ومدن عُمان، ومن سلطنة عمان توجه إلى إيران، ثم عبر الخليج، وزار البحرين، والقطيف، والحسا، واليمامة بالملكة العربية السعودية، وتوجه إلى مكة، فحج للمرة الخامسة في موسم عام ٧٣٢ هـ، ومن مكة رحل إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن، متجهاً إلى بلاد الهند، لكن لم تيسر له تلك الرحلة، وكأنما أراد الله أن يتوجه إلى الهند عن طريق آخر، ليتسنى له زيارة بلدان أخرى، ليطرف قارئي الرحلة بأوصافها، وأخبارها، فاجتاز البحر الأحمر من جدة إلى عيذاب، متوجهاً إلى القاهرة، ثم بلاد الشام، فزار غزة، والخليل، وبيت المقدس، والرملة، وعكا، وطرابلس، وجبله، واللاذقية، (وقد سبق له زيارة معظم هذه المدن)، ومن اللاذقية يم شطر آسيا الصغرى (تركيا) فزار مدنها، وطاف جميع أنحائها، وزار بعد ذلك مدينة القرم، (في جنوبي روسيا)، كما زار مدينة السرا عاصمة ملك

السلطان محمد أوزبك (والسرا تقع على نهر الفولغا) ، وزار مدينة بلغار (وكان موقعها في جنوب مدينة قازان ، قريباً من الشاطئ الشرقي لنهر الفولغا) ، وقد حاول بعد وصوله إلى بلغار أن يزور أرض الظلّمة (ويقصد بتلك التسمية: المناطق في شمال قارة آسيا ، أي مناطق سيبيريا وما يتصل بها) ، وحين لم يتيسر له ذلك عاد من بلغار إلى مدينة الحاج ترخان (استراخان حالياً) ، ثم رحل إلى القسطنطينية ، فرارها ، وعاد منها إلى جبال القوقاز ، ومنها يم شطر آسيا الوسطى ، فزار المناطق الإسلامية التي تقع الآن ضمن حدود الإتحاد السوفيتي ، ومن مدن تلك المناطق التي زارها : خوارزم ، وبخارى ، وسمرقند ، ونسف ، وترمد ، ومن ترمذ توجه لزيارة مدن خراسان : (خراسان الآن هي أفغانستان ، وشرقي إيران) فزار بلخ ، وهراة ، والجام ، وطوس ، وسرخس ، ونيسابور ، وبسطام ، ثم توجه إلى كابل ، وغزنة ، ثم إلى بلاد الهند ، حيث أقام بها تسعة أعوام تقريباً ، وحظي فيها بالرضا والقبول لدى سلطانها محمد شاه ، الذي عينه قاضياً للمذهب المالكي ، ثم أرسله سفيراً عنه لتبليغ رسالة منه إلى ملك الصين ، وفي طريقه من دهلي عاصمة الهند إلى بلاد الصين زار مدن وسط الهند مثل : كالپور ، ثم زار مدينة دولة آباد ، ومدن ساحل المليبار مثل : هنور ، وأبو سرور ، وفاكتور ، ومنجورور ، وهيلي ، وجورفتن ، وده فتن ، وبدفتن ، وقالقوط (ميناء كلكتا حالياً) ، ومن قالقوط أبحر لزيارة جزائر ذبية المهل (جزر المالديف حالياً) ، وقد أقام في هذه الجزر ، وتزوج ، وأكره على تولي القضاء ، وبتقييم في وظيفة القضاء مدة عام ونصف العام ، وغادر جزر المالديف إلى جزيرة سرنديب (سيلان ، وهي الآن جمهورية سرى لانكا) ، فزارها ، وزار سواحل المعبر بالهند ، وعاد إلى ساحل المليبار ، فزاره مرة ثانية ، ومنه إلى جزائر ذبية المهل ، ومنها رحل إلى بنجاله (بنجلادش) ، وجبال كامرو (ولاية آسام الهندية حالياً) ، وذهب بعد ذلك فزار بلاد البرهنكار (بورما) ، ومنها توجه إلى بلاد

الجاوة (إندونيسيا حالياً)، وقد أطلق عليها اسم أكبر جزرها، وهي جزيرة جاوة، وكانت عاصمة الجزر في جزيرة سومطرة، وكانوا يطلقون عليها: (جاوة الصغرى)، ومن بلاد الجاوة اتجه إلى مل جاوة (شبه جزيرة الملايو، وهي جزء من جمهورية ماليزيا الآن)، ثم رحل إلى الصين، فزار في جنوبها مدن الزيتون (شوان شوفو) وصين كلان، وقنجنفو، والخنسا (هانك شو)، ومنها توجه إلى بلاد الخطا (شمال الصين)، فوصل العاصمة خان بالق (تسمى أيضاً: خانقو، وهي مدينة بكين حالياً)، ولما وصل إليها لم يتمكن من القيام بسفارته، لخروج ملك الصين لقتال ابن عمه الخارج عليه، وانتهى القتال بمقتل الملك، وتولى ابن عمه الملك، وقد اتخذ له عاصمة جديدة، فشبث الفتن ضده، وعاد ابن بطوطة أدراجه دون أن يؤدي رسالته بناء على نصيحة بعض المخلصين له، فارتحل من الصين إلى سومطرة، ومنها إلى مدينة كولم بساحل المليبار، ثم إلى قالقوطة.

وفي قالقوطة تدبر ابن بطوطة في أمره، فخشى أن يغضب عليه سلطان الهند إن عاد إليه، ولم يتم سفارته، فقرر أن يعود إلى بلده في المغرب العربي، فأبحر في المحيط الهندي من قالقوطة، فوصل ظفار في شهر المحرم سنة ٧٤٨، ومن ظفار اتجه إلى مسقط، والقريات في سلطنة عمان، ومنها إلى هرمز بإيران، ومنها إلى البصرة، فالكوفة، فالحلة، فبغداد، ومن بغداد توجه إلى الأنبار قاصداً بلاد الشام ماراً ببيت، والحديثة، وعانة، والرحبة، والسخنة، وتدمر، ووصل دمشق، وكان مغيبه عنها - كما ذكر - عشرين سنة كاملة^(١).

ومن دمشق توجه إلى حصص فحاة، فمعرة النعمان، فحلب، وعاد ثانية إلى

(١) كان مغيبه عن دمشق في الختبة أكثر من اثنين وعشرين سنة؛ إذ غادرها مع ركب الحج الشامي في شوال سنة ٧٢٦ هـ، وعاد إليها في أواخر سنة ٧٤٨ هـ، أو أوائل سنة ٧٢٩ هـ.

حصص، فدمشق، ومنها إلى عجلون (الأردن)، فبيت المقدس، فالخليل، فغزة، ومن غزة سافر بالبر إلى دمياط، ثم فارسكور، فسمنود، فأبي صير، فالمحلة الكبرى، وإيبار، ودمنهور، ووصل الإسكندرية، فزارها لثاني مرة، وعاد منها إلى القاهرة، واجتاز مدن الصعيد حتى وصل عيذاب، فاجتاز البحر الأحمر منها إلى جدة، وذهب إلى مكة المكرمة حيث حج للمرة السادسة والأخيرة، في موسم سنة ٧٤٩ هـ، ومن مكة توجه إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، فنعم بالزيارة، وغادرها إلى تبوك، فبيت المقدس، فالخليل، فغزة، ومن غزة اجتاز سينا، وصحراء مصر الشرقية إلى القاهرة.

وفي القاهرة عرف بتولي أبي عنان فارس السلطنة في الدولة المرينية، فشد رحاله للقياه، والتمتع بأرض وطنه الحبيب، فغادر الإسكندرية بجرأ في صفر سنة ٧٥٠ هـ، ووصل جربة، ومنها إلى قابس، فصفاقس، فبليانة، ومنها سافر بالبر إلى تونس، وأبحر منها إلى جزيرة سردينية، ومن سردينية توجه إلى تنس، فهازونة، فمستغانم، فتملسان، فتازي، ووصل في أواخر شعبان سنة ٧٥٠ هـ إلى فاس.

وقد تحدث ابن بطوطة فأفاض في الثناء على بلاد المغرب مفضلاً لها على غيرها من البلدان عمارة ورخاء، كما تحدث مثنياً ومادحاً لسلطانها أبي عنان.

وبعد مكثه زمناً في فاس توجه إلى مدينة طنجة مسقط رأسه، ومنها إلى سبتة حيث عبر بحر العدو، وزار جبل الفتح (جبل طارق) ورندة، ومريلة، وسهيل ومالقة وبلش، ثم غرناطة، وارتحل من الأندلس عائداً مرة ثانية إلى المغرب، فوصل سبتة، ومنها إلى أصيلا، فسلا، فمدينة مراکش، ووصل إلى فاس، ومن فاس انطلق مسافراً إلى بلاد السودان^(١)، فوصل سجلماسة، ومنها إلى تغازي (١) ليس المقصود بالسودان جمهورية السودان الحالية؛ ولكن يقصد بها البلاد التي يسكنها السود، وقد زار من هذه البلاد مالي والنيجر.

(في جمهورية مالي)، ثم ابوالاتن (في جمهورية موريتانيا)، ثم إلى مدينة مالي (اندثرت هذه المدينة، وكانت مقرّاً لملك السودان، وتسمى جمهورية مالي الحالية باسمها)، وقد أقام بها سنة واحدة وسبعة شهور تقريباً، وغادرها في ٢٢ من المحرم سنة ٧٥٤ هـ، وقصد بعد مغادرتها ميمة، فتنبكتو، فكوكو، ومن كوكو إلى مدينة تكدا (في جمهورية النيجر)، ومنها إلى بلاد قبيلة بردامة البربرية، ثم إلى بلاد الهكار، وهم من البربر، واتجه إلى سجلماسة، ومنها رحل إلى مدينة فاس فوصلها في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٤ هـ، وكانت عودته إجابة لأمر السلطان أبي عنان الذي وصل إليه وهو في تكدا .

وقد سجل ابن بطوطة تفاصيل هذه الرحلات الطويلة من ذاكرته، فلم يكن يدون أحداثها كيوميات، ولكن بالرغم من اعتماده على ذاكرته لم تخنه ذاكرته - إلا قليلاً - فلو طبق خط سير الرحلات كما ذكرها ابن بطوطة - على خرائطنا لما وجدنا كبير اختلاف بينهما، وإن كان يلتبس عليه الأمر في بعض الأحيان في حديثه عن البلدان التي زارها أكثر من مرة، فيخلط بين هذه الرحلات المتعددة، ولا يميز إحداها عن الأخرى تمييزاً دقيقاً، فيضع بعض الأحداث في غير موضعها .

وابن بطوطة دقيق الملاحظة، بارع في وصف ما شاهده، ورواية ما سمعه، وإن لم يقف مما رواه موقف الناقد، فهو جامع أخبار، وليس ناقداً، ولذلك كان موقف الكثيرين من أخبار رحلته موقف المستغرب، ودفع ذلك البعض إلى تكذيبه .

كما يلاحظ على ابن بطوطة صوفيته المغرق فيها إلى حد التعصب - والتي دفعته للتجني والتحامل في بعض الأحيان، والبعد عن الإنصاف .

وهو كغيره من قدامى كتاب الرحلات والمؤرخين لا يسوي الشعوب .

وتطورها، وعاداتها، وتقاليدها اهتماماً إلا من خلال حديثه عن الملوك والسلطين كما يُلاحظ عليه المديح المبالغ فيه للملوك والسلطين - خاصة سلطين الدولة المرينية - مما يكاد يصل إلى حد الملق، وإن كان يعتذر عنه بأن هذا كان العادة الجارية، والسنة المتبعة في تلك الأزمان.

لكن هذه الملاحظات لا تنقص، ولا تقلل من قيمة هذا العمل العظيم الذي خلفه من بعده، فأفاد به الفكر العالمي كله، وكفاه فخاراً أن هناك بعضاً من بقاع العالم لم تعرف الشعوب الأخرى عنها شيئاً إلا من خلال رحلته، فكان أول من كتب عنها، وعرف بها، ومن بين تلك البقاع جزر المالديف.

كتابة رحلة ابن بطوطة:

أمر السلطان أبو عنان فارس المريني ابن بطوطة أن يدون تلك الرحلة ويقيدها، فاستجاب للأمر، وانتهى من تقييدها - كما ذكر في نهايتها في ٣ من ذي الحجة سنة ٧٥٦ هـ، وعهد السلطان إلى كاتبه محمد بن أحمد بن جزري بتقييدها، وصياغتها صياغة أدبية، فأتم ذلك في صفر سنة ٥٧٧ هـ.

مقدمة الرحلة:

يخطيء البعض: فينسب المقدمة التي في بداية الكتاب إلى ابن جزري، وليست الحقيقة كذلك، فالذي يقرأ المقدمة يامعان يدرك أن ابن بطوطة قد كتب جزءاً منها، وأضاف ابن جزري جزءاً آخر، فما كتبه ابن بطوطة يبدأ بالحمد لله، وينتهي بدعائه للسلطان أبي عنان، وثنائه عليه، وآخر كلامه تلك الجملة: «والعمل المفيد بالإخلاص والأعمال بالنيات»، ويبدأ ما كتبه ابن جزري بهذه الجملة - عقب الجملة السابقة - وهي: «ولما كانت حضرة العلية مطمح الآمال»، وينتهي بنهاية المقدمة، فيها قد اشتركا في كتابتها، كتب ابن بطوطة

الجزء الأول منها ، وأضاف ابن جزى الجزء الأخير ، فنسبتها كلها إلى ابن جزى من قبيل الخطأ .

نهاية ابن بطوطة :

لا يعرف الكثير عن ابن بطوطة بعد الانتهاء من رحلته وتدوينها ، وجماع ما ذكره المترجمون له أن بعد انتهاء رحلته تولى القضاء في الدولة المرينية بقية حياته ، وأنه كان جواداً محسناً ، وأنه توفي في سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) رحمه الله .

ابن جزى

أورد لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة»، والمقري في «نفع الطيب» وابن حجر في «الدرر الكامنة» تراجم لابن جزى فذكروا أنه: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى الكلبي، واختلفوا في ضبط كلمة جزى على أقوال ثلاثة:

أولها: أنه على وزن علي، بفتح الجيم وكسر الزاي وتشديد الياء.

وثانيها: أنه على وزن سُمي، بضم الجيم، وفتح الزاي وتشديد الياء.

وثالثها: أنه مضموم الجيم مفتوح الزاي، وبعدها ياء ساكنة وهمزة (كأنه تصغير لكلمة: جزء).

وذكروا أنه يكنى بأبي القاسم، وأنه من أهل غرناطة، وأنه شيخ لسان الدين ابن الخطيب، وأنه فقيه من العلماء بالأصول واللغة، وأن له مؤلفات في مجالات عدة: في الفقه، والأصول، والعقائد، واللغة، والتراجم، والحديث، والقراءات وعلوم التنزيل، وأن له شعراً صوفياً كثيراً، وأن من أعظم مؤلفاته: القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، الذي اشتهر باسم قوانين ابن جزى.

ولم يتحدث أي منهم عن علاقة ابن جزى هذا بابن جزى الذي لخص رحلة ابن بطوطة، وصاغها في صورتها التي بين أيدينا.

وقد أوقع ذلك بعض محققي كتاب ابن بطوطة في الوهم، فظنوا أن المترجم

له صاحب قوانين ابن جزى هو كاتب الرحلة، ولو أنهم تمعنوا ومحصوا لأدركوا أن هذا غير ذلك، فالمترجم له ولد في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م)، وتوفي وهو يشارك في الدفاع عن شبه جزيرة طريف سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م)، وكاتب رحلة ابن بطوطة انتهى من كتابتها في صفر سنة ٧٥٧ هـ، فهل يا ترى قد لقي ابن بطوطة في غرناطة، وخدم السلطان أبا عنان، وكلفه بعد انتهاء ابن بطوطة من تقييد رحلته في نهاية عام ٧٥٦ هـ، أن يلخصها ويصوغها، وهو بين الأموات.

إن العقل لا يتصور هذا، ولا يتقبله، والحق أن هذا غير ذلك، والأقرب إلى التصور أن يكون ابن جزى الثاني (كاتب رحلة ابن بطوطة) ابناً لابن جزى الأول (صاحب القوانين الفقهية).

والله وحده الذي يعلم الحقيقة، وهو الذي يهدي إلى سواء السبيل.

محمد عبد المنعم العريان

تعليق ابن خلدون على رحلة ابن بطوطة

ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة لكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ما يلي بالنص :

« ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان، من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة، يعرف بابن بطوطة، وكان قد رحل عنها منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق، واليمن، والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، واتصل بملكها لذلك العهد، وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب، واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل: أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال، والنساء، والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود، يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون وينصب أمامه في ذلك الحقل منجنيقات على الظهر، يرمي بها شكاثر الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل ديوانه، وأمثال هذه الحكايات، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس ابن ودرار، البعيد الصيت،

ففاوضه في هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل، لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال الوزير فارس: «إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن».

وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه، فمكث في السجن سنين، ربي فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها، فإذا قال له أبوه: «هذا لحم الغنم» يقول: «وما الغنم؟»، فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها، فيقول: «يا أبت تراها مثل الفأر؟»، فينكر عليه ويقول: «أين الغنم من الفأر؟»، وكذا في لحم البقر والإبل، إذ لم يعاين في محبسه إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر، وهذا كثيراً ما يعترى الناس في الأخبار، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب - كما قدمناه أول الكتاب - فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء، فإذا نظرنا أصل الشيء، وجنسه، وفصله، ومقدار عظمه، وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه».

رحلة

ابن بطوطة

المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه وكرمه آمين.

الحمد لله^(١) الذي ذلل الأرض لعباده لیسلكوا منها سبلاً فجاجاً، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتاً وإعادة وإخراجاً. دحاها بقدرته فكانت مهاداً للعباد، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد، وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر. وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً، ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات. وأنبت فيها من كل الثمرات. وفطر أقطارها بصنوف النبات، وفجر البحرين عذباً فراتاً، وملحاً أجاجاً، وأكمل على خلقه الإنعام بتذليل مطايا الأنعام، وتسخير المنشئات كالأعلام لتمتطوا من صهوة القفر و متن البحر أثجاجاً. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجاً. وطلع نور هدايته وهاجاً. بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتماً للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وأيده بالمعجزات الباهرات، وأنطق

(١) هذه المقدمة من إملاء أبي عبد الله ابن بطوطة، وصياغة محمد بن محمد بن جزى إلى قوله: «وأوليائها الأبرار»، وبهذه العبارة ينتهي كلام ابن بطوطة ليبدأ كلام ابن جزى بقوله: «فأمل من ذلك ما فيه نزعة الخواطر» إلى نهاية المقدمة.

بتصديقه الجمادات، وأحيا بدعوته الذمم الباليات، وفجر من بين أنامله ماء
ثجاجاً. ورضي الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحاباً وآلاً وأزواجاً،
المقيمين تقاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجاً، فهم الذين آزره على جهاد
الأعداء، وظاهره على إظهار الملة البيضاء، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة
والنصرة والإيواء، واقتحموا دونه نار البأس حامية، وخاضوا بحر الموت
عجاجاً، ونستوهب الله تعالى لمولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب
العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله - أي عنان فارس ابن موالينا
الأئمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصراً يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجاً، وسعداً
يكون لزمانة الزمان علاجاً، كما وهبه الله نأ. آ وجوداً لم يدع طاغياً ولا محتاجاً،
وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجاً. وبعد، فقد قضت العقول، وحكم
المعقول والمنقول، بأن هذه الخلافة العلية، المجاهدة المتوكلية الفاسية. هي ظل
الله الممدود على الأنام، وحبلة الذي به الاعتصام، وفي سلك طاعته يجب
الانتظام، فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله، وأغمدت سيف العدوان عند
انسلاله، وأصلحت الأيام بعد فسادها، ونفقت سوق العلم بعد كسادها،
وأوضحت طرق البر عند انتهاجها، وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها،
وأحيت سنن المكارم بعد ممانتها، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها، وأخذت نار
الفتنة عند اشتعالها، وأنقضت حكام البغي عند استقلالها، وشادت مباني الحق
على عماد التقوى، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى، فلها العز
الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء، والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء،
والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه، والعدل الذي على أهل الإيمان مد يد
أطنابه، والوجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار، والبأس الذي فيه غمامة الدر
الموار، والنصر الذي تفض كتائبه الأجل، والتأييد الذي بعض غنائمه الدول،
والبطش الذي سبق سيفه العذل، والأناة التي لا يميل عندها الأمل، والحزم الذي

يسد على الأعداء وجوه المسارب، والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب،
والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب، والرفق الذي جمع على محبته بنات
القلوب، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المفيد بالإخلاص
والأعمال بالنيات.

ولما كانت حضرته العلية: مطمح الآمال، ومسرحة همم الرجال، ومحط
رحال الفضائل، ومثابة أمن الخائف، ومنية السائل، توخى الزمان خدمتها ببدائع
تحفه، ورائع طرفه، فانشال عليها العلماء انشبال جودها على الصفات، وتسابق إليها
الأدباء تسابق عزماتها إلى العداة، وحج العارفون حرماها الشريف، وقصد
السائحون استطلاع معناها المنيف، ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جناها،
واستجارت الملوك بخدمة أبوابها، فهي القطب الذي عليه مدار العالم، وفي القطع
بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم، وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح
الآثار كل مسلم، وبإكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم، وكان ممن وفد على
بابها السامي، وتعدى أوशल البلاد إلى بجرها الطامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة
الصدوق، جوال الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبدالله محمد
ابن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد
الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار
مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسير سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار
بهذه الحضرة العليا، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا، وطوى
المشارك إلى مطلع بدرها بالغرب، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على التبر،
اختياراً بعد طول اختبار البلاد والخلق، ورغبة للحاق بالطائفة المثلى، التي على الحق
فغمره من إحسانه الجزيل، وامتنانه الحفي الحفيل، ما أنساه الماضي بالحال، وأغناه عن
طول الترحال، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه، وحقق لديه ما كان من فضله
يتوهمه، فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول

الإرتياد، ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجبية أطرف بانتحائها. وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم. محمد ابن محمد بن جزي الكلبي، أعانه الله على خدمتهم، وأوزعه شكر نعمتهم، أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملاً في تصنيف يكون على فوائد شتملاً، ولنيل مقاصده مكماً، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف. فامتثل ما أمر به مبادراً، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً، ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدتها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظه على وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبُحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرهما بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أنفع في التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكنتني شرحه من الأسماء العجمية، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس، ويخطيء في فك معناها معهود القياس، وإنا نترجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي، أيده الله بمحل القبول، وأبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول، فعوائدهم في السماح جميلة، ومكارمهم بالصفح عن هفوات كفيفة، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين.

بدء الرحلة والخروج من طنجة

قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمئة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فعزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والداي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً، ولقيت كما لقياً من الفراق نصباً وسني يومئذ اثنتان وعشرون سنة. قال ابن جزري: أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمئة.

وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رويت أخبار جوده موصولة الإسناد بالإسناد، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد، وتحلت الأيام بجلى فضله، ورتع الأنام في ظل رفقته وعدله، الإمام المقدس أبي سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمهم، وأطفأت نار الكفر جداول صارمه، وفتكت بعباد الصليب كتائبه، وكرمت في إخلاص الجهاد مذهبهم، الإمام المقدس أبي يوسف ابن عبد الحق، جدد الله عليهم رضوانه، وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهنانه، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين، وأبقى الملك في

عقبهم إلى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر أسن بن زيان . ووافقت بها رسولي ملك إفريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله ، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر علي بن إبراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي - بضم الزاي نسبة إلى قرية بساحل المهدية ، وهو أحد الفضلاء وكانت وفاته عام أربعين . وفي يوم وصولي إلى تلمسان ، خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار علي بعض الاخوان بمرافقتها ، فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء مآربي ، وخرجت أجد السير في آثارها ، فوصلت مدينة مليانة ، وأدركتها بها ، وذلك في إبان القيظ . فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرأ ، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منها ، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثاً وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة فقبروه بها . وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العدولي ، ومحمد بن الحجر ، فوصلنا مدينة الجزائر ، وأقمنا بخارجها أياماً ، إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله ، وابن القاضي . فتوجهنا جميعاً على منبجة جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي ، ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر ، وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب ، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره ، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ، ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانترعها من يده ، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم . ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته ،

أصابني الحمى، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء مني، فأبيت وقلت إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز. فقال لي أما إن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع، وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفاً، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق، ففعلت هذا، وأعاري ما وعد به، جزاه الله خيراً وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألفاظ الإلهية في تلك الوجهة الحجازية. وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينية^(١)، فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود فاضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك. فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر، فأمر بغسلها في داره. وكان الإحرام منها خلقاً، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيماً وصرّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب. فكان ذلك أول ما فتح به علي وجهتي. ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها أياماً، ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل الخوف في الطريق، وتجردنا للسير، وواصلنا الجد، وأصابني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفاوي، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم علي أحد، لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي، فشرع بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بمديته حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين. قال ابن جزري: أخبرني شيخني قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد إبراهيم السلمي هو ابن الحاج البلفيقي أنه جرى له مثل هذه الحكاية. قال قصدت مدينة بلش

(١) تعرف الآن باسم: قسنطينة، مجذف الياء الأخيرة منها.

من بلاد الأندلس في ليلة عيد، برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبدالله ابن الكهاد، وحضرت المصلى مع الناس، فلما فرغت الصلاة والخطبة، أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام، وأنا في ناحية لا يسلم علي أحد، فقصد إليّ شيخ من أهل المدينة المذكورة، وأقبل علي بالسلام والإيناس، وقال: نظرت إليك، فرأيتك منتبذاً عن الناس، لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحببت إيناسك جزاه الله خيراً

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله. وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء، منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل، ثم التونسي هو ابن الغماز، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع، وولي أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول، ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قدامح الهواري، وولي أيضاً قضاءها وكان من أعلام العلماء. ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة، ويستفتيه الناس في المسائل. فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك، وأظنني بتونس عيد الفطر، فحضرت المصلى، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم، وبرزوا في أجل هيئة وأكمل شارة. ووافى المسجد السلطان أبو يحيى المذكور ركباً وجميع أقاربه وخواصه، وخدم مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب، وصليت الصلاة، وانقضت الخطبة، وانصرف الناس إلى منازلهم. وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه ويعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من

بلاد إفريقية، وأكثره المصامدة. فقدموني قاضياً بينهم، وخرجنا من تونس في
 أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل، فوصلنا إلى بلدة سوسة، وهي
 صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلاً، ثم
 وصلنا إلى مدينة صفاقس وبجارج هذه البلدة قبر الإمام أبي الحسن اللخمي
 المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه. قال ابن جزى في بلدة صفاقس: يقول
 علي بن حبيب التنوخي:

سقياً لأرض صفاقس	ذات المصانع والمصلى
محمى القصير إلى الخليج	فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حين	تـزوره أهلاً وسهلاً
وكأنه والبحر يحس	مر تارة عنه ويملا
صَبَّ يريد زيارة	فإذا رأى الرقباء ولّى

وفي عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من
 المجيدين الكثيرين:

صفاقس لا صفا عيش لساكنها	ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها	عانى بها العادين الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوباً بضاعته	وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها	فكلما همَّ أن يدنو لها هربا

ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها عشرًا لتوالي نزول
 الأمطار، قال ابن جزى في ذكر قابس: يقول بعضهم:

لهفي على طيب ليال خلت	بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها	جذوة نار بيد القابس

ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيد، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب، وتحامت مكانهم، وعصمنا الله منهم، وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل. وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس، فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس، فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين، ومعني أهلي، وفي صحبتي جماعة من المصامدة، وقد رفعت العلم، وتقدمت عليهم، وأقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر، وتجاوزنا مسلاتة ومسرارة وقصور سرت. وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة، وحالت دون ما راموه من أذيتنا، ثم توسطنا الغابة، وتجاوزناها إلى قصر برصيصة العابد، إلى قبة سلام، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس، ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتاً لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية، وأولت وليمة حبست لها الركب يوماً وأطعمتهم، ثم وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة في تجلي سناها، والخريدة تجلي في حلاها، الزاهية بجبالها الممغرب، والجامعة لمفترق المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهؤها. وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا وحسب المشرف^(١) إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك.

(١) في بعض طبعات الكتاب: وحسب المشوق إلى ذلك.

ذكر أبوابها ومراسها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب: باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوت ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها.

ذكر المنار

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً. وصفته أنه بناء مربع، ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فاذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة. وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع. ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت من إتمامه.

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها، المسمى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل. وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً. وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه. قال ابن جزي: أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره، فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته، وطال العجب منه، وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً، أو طالب حاجة، فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به. وكيفية احتياله في صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد بفوقها^(١) خيطاً طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه، ووقعت من الجهة الموازية للرامي، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود، ف جذبته حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط، فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى، واستقر بأعلاه وجذب الحبل، واستصحب من احتمله، فلم يهتد الناس لحيلته، وعجبوا من شأنه. وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني. وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية، وأجرى له مائة درهم في كل يوم. وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالإسكندرية توفي اللحياني المذكور، وولده الإسكندري وبقي المصري

(١) الفوق: موضع الوتر من السهم أ. هـ. من القاموس المحيط.

بها. قال ابن جزى: من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فهات الإسكندري بها، وعاش المصري دهرًا طويلاً بها وهي من بلاد مصر. وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية، وتوفي هنالك بجزيرة جربة.

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي، إمام من أئمة علم اللسان. وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعائم لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيتها يوماً قاعداً في صدرٍ محراب، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم.

حكاية

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي من أهل ريغة، واشتغل بطلب العلم، ثم رحل إلى الحجاز، فوصل الإسكندرية بالعشي. وهو قليل ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالاً حسناً فقعد قريباً من بابها، إلى أن دخل جميع الناس. وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه، وقال متهكماً أدخل يا قاضي فقال: قاض إن شاء الله، ودخل إلى بعض المدارس، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء، فعظم صيته، وشهر اسمه، وعرف بالزهد والورع، واتصلت أخباره بملك مصر. واتفق أن توفي قاضي الإسكندرية وبها إذ ذاك الجسم الغفير من الفقهاء والعلماء، وكلهم متشوف للولاية، وهو من بينهم، لا يتشوف، لذلك فبعث إليه السلطان بالتقليد، وهو ظهير القضاء، وأتاه البريد بذلك، فأمر خديمه أن ينادى في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس. فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل

منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه. وحضر لذلك أحد الخدّاق من المنجمين فقال لهم: لا تفعلوا ذلك فإنّي عدلت طالع ولايته، وحققته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة. فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته. ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات.

كرامة له

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله ﷺ في النوم. فقال يا خليفة: زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة، وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيا المسجد، وسلم على رسول الله ﷺ، وقعد مستنداً إلى بعض سواري المسجد، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة، وأنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمر، فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية وأقيمت في ضيافته ثلاثاً.

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوماً فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ بمخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند

والصين. فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين. فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه. ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة. ولم أحتج بعد إلى إنفاقها، إلى أن سلبها مني كفار الهنود، فيما سلبوه لي في البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي، من أفراد الرجال. وهو تلميذ أبي العباس المرسي. وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية.

كرامة لأبي الحسن الشاذلي: أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبا الحسن كان يحج في كل سنة، ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج، ويزور القبر الشريف، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده. فلما كان في بعض السنين، وهي آخر سنة خرج فيها، قال لخديمه: استصحب فأساً وقفه وحنوطاً، وما يجهز به الميت. فقال له الخديم: ولم ذا يا سيدي؟ فقال له: في حيثرا سوف ترى. وحيثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب، وبها عين ماء زعاق. وهي كثيرة الضباع. فلما بلغا حيثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن، وصلى ركعتين، وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته، ودفن هناك. وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن علي رضي الله عنه.

ذكر حزب البحر المنسوب إليه: كان يسافر في كل عام كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة، فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم، وتلامذته إلى الآن يقرؤنه في كل يوم، وهو هذا: يا الله يا علي يا عظيم يا حلیم يا علم، أنت ربي وعلیک حسبي، فنعم الرب ربي، ونعم الحسب حسبي، تنصر من تشاء،

ينصرون ﴿ حم تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ العليمِ غافرِ الذنبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ذي الطَّولِ لا إلهَ إلاَّ هو إليه المصيرُ ﴾ (١) باسمِ الله بابتنا، تبارك حيطاننا يس سقنا. كهيعص كفايتنا. حم عسق حمايتنا: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) ستر العرش مسبول علينا، وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يقدر علينا ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مَحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (٣) ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٤) ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (٥) ﴿ فَان تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦) بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

حكاية

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين. وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله، أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة. وكان والي الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي. فذهب إلى حامية الروم، وأمر المسلمين فحضرُوا بين فصيلي باب المدينة. وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم. فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلى منزل الوالي، فتحصن منهم، وقتلهم من أعلاه، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر، فبعث أميراً يعرف بالجمالي، ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان، جباراً قاسي القلب متهاً في دينه. يقال: إنه كان يعبد الشمس. فدخل إسكندرية، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها، كأولاد الكوبك وسواهم. وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت في عنق عماد

(٤) يوسف: ٦٤.

(٥) الأعراف: ١٩٦.

(٦) التوبة: ١٢٦.

(١) غافر: ١ - ٣.

(٢) البقرة: ١٣٧.

(٣) البروج: ٢٠ - ٢٢.

الدين القاضي جامعة حديد. ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً. وجعلوا كل رجل قطعتين، وصلبواهم صفين وذلك في يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم. فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم. وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة. وكان له قاعة معدة للسلاح. فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة. وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثرة من أهلها. فزل لسانه وقال للأميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به، وأحوظ على السلطان مرتبات العساكر والرجال. فأنكر الأميران قوله، وقالوا: إنما تريد الثورة على السلطان وقتلاه. وإنما كان قصده رحمه الله إظهار النصيح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام إقامتي بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي، وهو من كبار الأولياء المكاشفين وأنه منقطع بمنية بني مرشد له هنالك زاوية، هو منفرد فيها، لا خديم له ولا صاحب. ويقصده الأمراء والوزراء، وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم، فيطعمهم الطعام. وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى فيأتي لكل واحد بما نواه، وربما كان ذلك في غير إبانة. ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة، فيولي ويعزل، وذلك كله أمر مستفيض متواتر. وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه. فخرجت من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به، ووصلت قرية تروجه (وضبطها بفتح التاء الفوقية وواو وجيم مفتوحة)^(١)، وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية. وهي قرية كبيرة بها قاضي ووالٍ وناظر، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة. صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من

(١) صحة ضبط «تروجه» أنها بفتح التاء، وضم الراء، وواو ساكنة، بعدها جيم مفتوحة وهاء، وهي إحدى قرى محافظة البحيرة، وبها آثار رومانية.

أهلها يسمى بمبارك، وينعت بزین الدین ونزلت بها علی رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب. وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ وسألني عن بلدي وعن مجباه، فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفاً من دينار الذهب. فعجب وقال لي: رأيت هذه القرية فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً. وإنما عظمت مجاي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال. ثم خرجت من هذه القرية، فوصلت مدينة دمنهور، وهي مدينة كبيرة، جبايتها كثيرة، ومحاسنها أثرية، أم مدن البحيرة بأسرها، وقطبها الذي عليه مدار أمرها، (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية، وتولى قضاء الإسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها^(١). وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرّفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالإسكندرية. ثم رحلنا إلى مدينة فوا. وهذه المدينة عجيبة المنظر، حسنة المخبر، بها البساتين الكثيرة، والفوائد الخطيرة الأثرية، (وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو)^(٢). بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم، خبير تلك البلاد، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة. يفصل بينها خليج هنالك. فلما وصلت، تعديتها، ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر، وسلمت عليه، ووجدت عنده الأمير سلف الدين يلملك، وهو من الخاصكية. وأول اسمه ياء وآخر الحروف كاف، ولامه الأولى مسكنة، والثانية مفتوحة، مثل الميم، والعامّة تقول فيه

(١) لم يسبق لابن بطوطة أن قص علينا الواقعة التي كانت سبباً في عزل قاضي الاسكندرية عماد الدين بن مسكين، وذلك سهو من ابن جزّي، وجل من لا يسهو.
(٢) وتعرف الآن ببقوة (بضم الفاء وواو مفتوحة مشددة، وتاء مربوطة) وهي من مدن محافظة كفر الشيخ.

الملك فيخطئون. ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلي وعانقني، وأحضر طعاماً فواكلني. وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة إماماً، وكذلك لكل ما حضرني عنده حين إقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لي: إصعد إلى سطح الزاوية فم هنالك وذلك أوان القipzig فقلت للأمر: بسم الله. فقال لي: وما منا إلا له مقام معلوم. فصعدت السطح، فوجدت به حصيراً ونطعاً^(١) وآنية للوضوء، وجرة ماء وقدحاً للشرب فتمت هنالك.

كرامه هذا الشيخ: رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة. يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء، ويتركني بها. فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت في نفسي: إن كاشفني الشيخ برؤيائي فهو كما يحكى عنه. فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إماماً لها. ثم أتاه الأمير يلملك فوادعه وانصرف. ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغاراً. ثم سبحت سبحة الضحى. ودعاني وكاشفني برؤيائي، فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي ﷺ، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها دلشاد الهندي، ويخلصك من شدة تقع فيها. ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت. ومنذ فارقت لم ألق في أسفاري إلا خيراً، وظهرت علي بركاته. ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولي سيدي محمداً الموله بأرض الهند. ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية، وهي رحبة الفناء، حديثة البناء، أسواقها حسنة الرؤية، (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين)، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي،

(١) النطع: بفتح النون، وسكون الطاء، وفتحها: بساط من الجلد.

وولده في خدمة ملك الهند، وسنذكره. وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر إلى العراق، وولي قضاء البلاد الغربية، وله هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلت منها إلى مدينة أبيار، وهي قديمة البناء، أرجة الأرجاء كثيرة المساجد، ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف والفاء وراء)، وهي بمقربة من النحرارية. ويفصل بينها النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلق قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها. ومن الغريب قرب النحرارية منها. والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها. ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي، وهو كريم الشائل كبير القدر. حضرت عنده مرة يوم الركبة، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان. وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة. فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه، تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه قائلاً: بسم الله، سيدنا فلان الدين^(١) فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به. فإذا تكاملوا هنالك، ركب القاضي وركب من معه أجمعون، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره، ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة. ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهي

(١) هذه العبارة غير واضح معناها، ويبدو أن المراد منها: سيدنا فلان، ويضيف إليه النقيب لقباً مضافاً إلى الدين مثل: عز الدين، وفخر الدين، وهكذا، والله أعلم.

جليلة المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، واسمها بيّن. وهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاية وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد، وهو عز الدين بن الأشميرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم ابن بنون المالكي التونسي، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف. وأقمنا عنده يوماً، وسمعت منه، وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو، وهي بلاد الصالحين، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات. فقصدت تلك البلاد، ونزلت بزواية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبورى ومدينتهم تسمى ملطين^(١)، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس^(٢). ونسترو بمقربة منها. نزلت هنالك بزواية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين، وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً، وهي الآن خراب. قال ابن جزى (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهملة)، وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح ابن وكيع، وهو القائل في خليجها:

قم فاسقني والخليج مضطرب والريح تثني ذوائب القصب
 كأنها والرياح تعطفها صب قنا سندسية العذب
 والجو في حلة مُمسّكة قد طرّزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن)، والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة، وقيد بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام^(٣). وقيد أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين - وهو على البحر ومن

(١) وتعرف هذه المدينة الآن باسم: بلطيم.

(٢) تعرف بحيرة تنيس الآن باسم: بحيرة البرلس.

(٣) وهكذا ينطقها الناس اليوم.

غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه أن قاضي البرلس، وكان رجلاً صالحاً، خرج ليلة إلى النيل. فبينما اسبغ الوضوء، وصلى ما شاء الله أن يصلي، إذ سمع قائلاً يقول:

لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سَحَرًا لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال: فتجوزت في صلاتي، وأدرت طرفي، فما رأيت أحداً، ولا سمعت حساً، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى. ثم سافرت في أرض رملة إلى مدينة دمياط. وهي مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجبية الترتيب، آخذة من كل حسن بنصيب. والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال. وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي. وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال، ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره. وهو أعرف بضبط اسم بلده. ومدينة دمياط على شاطئ النيل، وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر في المراكب. وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار. ولهذا يقال في دمياط: سورها حلوى، وكلابها غنم. وإذا دخلها أحد، لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي فمن كان من الناس معتبراً، طبع له في قطعة كاغد، يستظهر به لحراس بابها. وغيرهم يطبع على ذراعه، فيستظهر به. والطيور البحري بهذه المدينة كثير، متناهي السمن. وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر. وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ. بها مسجد وزاوية، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه

جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار . قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً .
ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الإفرنج على عهد الملك
الصالح . وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي ، قدوة الطائفة المعروفة
بالقلندرية^(١) ، وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم . ويسكن الزاوية في هذا العهد
الشيخ فتح التكروري .

حكاية

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه
أنه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلمت به امرأة من أهل ساوة ، وكانت
تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها ، وهو يمتنع ويتهاون ، فلما أعيأها أمره
دست له عجزاً تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد ، ويدها كتاب
مختوم . فلما مر بها قالت له : يا سيدي أتحسن القراءة ؟ قال : نعم . قالت : له
الكتاب وجهه إليّ ولدي ، وأحب أن تقرأه علي . فقال لها ، نعم . فلما فتح
الكتاب ، قالت له : يا سيدي إن لولدي زوجة ، وهي بأسطوان الدار ، فلو
تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك . فلما توسط بين
البابين غلقت العجوز الباب ، وأخرجت المرأة حواريتها فتعلقن به ، وأدخلنه إلى
داخل الدار . وراودته المرأة عن نفسه ، فلما رأى أن لا خلاص له ، قال لها : إني
حيث تريدان . فأريني بيت الخلاء . فأرته إياه . فأدخل معه الماء . وكانت عنده
موسى جديدة ، فحلق لحيته وحاجبيه ، وخرج عليها ، فاستقبحت هيئته ،
واستنكرت فعله ، وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك ، فبقى على هيئته فيما بعد ،
وصار كل من يسلك طريقته أن يخلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

(١) القلندرية : طريقة صوفية أسسها قلندر يوسف ببلاد الأندلس ، وجاء بها إلى دمياط الشيخ

جمال الدين الساوي .

كرامة لهذا الشيخ: يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها . وكان بها قاض يعرف بابن العميد . فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة . فقال له : أنت الشيخ المبتدع . فقال له : وأنت القاضي الجاهل ، تمر بدابتك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الانسان ميتاً كحرمة حياً . فقال له القاضي : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك . فقال له : إياي تعني . وزعق الشيخ ، ثم رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداء ، عظيمة . فعجب القاضي ومن معه ، ونزل إليه عن بغلته . ثم زعق ثانياً فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثاً ورفع رأسه . فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضي يده ، وتلمذ له ، وبني له الزاوية الحسنة^(١) ، وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ . فدفن بزاويته . ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره . وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية . وله أيام في السنة معلومة لذلك . وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان . قصدت زاويته وبنت عنده . وكان بدمياط أيام إقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل . بنى مدرسة على شاطئ النيل بها . كان نزولي في تلك الأيام . وتأكدت بيني وبينه مودة . ثم سافرت إلى مدينة فارسكور ، وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذي في اسمها مضموم) . ونزلت بخارجها . ولحقني هنالك فارس وجهه إليّ الأمير المحسني ، فقال لي : إن الأمير سأل عنك ، وعرف بسيرتك ، فبعث إليك بهذه النفقة . ودفع إليّ جملة دراهم ، جزاه الله خيراً . ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان ، (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجم) . ونسبت إلى الرمان لكثرتها بها . ومنها يحمل إلى مصر . وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج

(١) في بعض طبعات الكتاب : زاوية حسنة بدون تعريف بالألف واللام .

النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذا البلد قاضي القضاة ووالي الولاية. ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود، وهي على شاطئ النيل، كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهملة والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل). ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر، ما بين مدائن وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد. لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ، نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد. ثم وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون^(١) ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة، وجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديله لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي أجل خطرهما، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها،

(١) مدينة مصر في زمن ابن بطوطة هي مدينة القاهرة، وتتكون من أربع مدن أنشئت في العصر الإسلامي هي الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر، والعسكر، وأنشأها صالح بن علي من بني العباس، والقطائع التي أنشأها أحمد بن طولون، والقاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، وعلى هذا فلم يسكنها فرعون من فراهة مصر الأقدمين، ويظهر أنه أراد بفرعون: حاكم مصر. وكلمة فرعون كانت تطلق على كل حكام مصر، ومعناها في اللغة المصرية القديمة: ملك.

وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير . كريمة التربة ، مؤنسة لذوي الغربة . قال ابن جزي : وفيها يقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما مِصرٌ بِمِصرٍ وإِنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصَّرُ
فأولادها الولدان والخور عِينُها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطيء مصر جنّة ما مثلها من بلد
لا سيمًا مُذْ زُخِرْفَتُ بنيلها المطّرد
وللرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة ما مسّها داوُدُها بمبرد
سائلة هواؤها يرعد عاري الجسد
والفلك كالأفلاك بي من حادر ومُصْعِد

ويقال : إن بمصر من السقائين على الجبال اثني عشر ألف سقاء ، وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة . وأهل مصر ذوو طرب وسرور وهو . شاهدت بها مرة فرجة بسبب براء الملك الناصر من كسر أصاب يده . فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بجوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر، تقام فيه الجمعة. والطريق يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي. وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمصرها لكثرتها: وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه. وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر. يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم: وأما الزوايا فكثيرة. وهم يسمونها الخوانق. واحدها خانقة^(١). والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم. وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام. فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرفق في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين. ولهم الحلوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزب. وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترك عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح، وسورة الملك، وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة؛ فيأخذ كل فقير جزءاً، ويختمون القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق. ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر. ومن

(١) صفة هذا المفرد: خانقاه، وهو كلمة تركية الأصل.

عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وييمناه العكاز، ويسراه الإبريق. فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج إليه، ويسأله من أي البلاد أتى، وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية، وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي إلى سجادته، فيحل وسطه، ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك. ويخرجون مجتمعين، ومعهم شيخهم فيأتون المسجد، ويصلي كل واحد على سجادته. فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عاداتهم. ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم.

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها. وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره، لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة. وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان. ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرجون كل ليلة جمعة إلى المبيت بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواق بصنوف المأكّل. ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليها السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء، على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضاً. كذلك، وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم. ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام. وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة. وهذه التربة أنيقة البناء، مشرقة الضياء،

عليها رباط مقصود. ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وعليها رباط كبير. ولها جراية ضخمة. وبها القبة الشهيرة البديعة الإتيقان، العجيبة البنيان، المتناهية الإحكام، المفرطة السمو، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً. وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر. وبها عدد جم من الصحابة، وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم، مثل عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، وأصبع بن الفرغ، وابني عبد الحكم، وأبي القاسم بن شعبان، وأبي محمد عبد الوهاب. لكن ليس لهم بها اشتهار، ولا يعرفهم إلا من بهم عناية. والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته، فظهر من أمره مصداق قوله:

الجد يدفي كل أمر شائع والجد يفتح كل باب مغلق

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة. والمدن والقرى بصفته منتظمة، ليس في المعمور مثلها. ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل. وليس في الأرض نهر يسمى بجرأ غيره. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ﴾^(١) فسماه يَمًّا وهو البحر. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى، فإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان. فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. وفي الحديث أيضاً النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة. ويجرى النيل من الجنوب إلى

(١) القصص: ٧.

الشمال خلافاً لجميع الأنهار. ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها. ونهر السند مثله في ذلك، وسيأتي ذكره. وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان. فإن زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع، وأعقب الوباء. وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين استسقى الناس، وكان الضرر الشديد. والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار، وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون. وتماثلها أنهار خمسة أيضاً: نهر السند ويسمى ينج اب ونهر الهند ويسمى الكنك، وإليه تحج الهنود. وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه. ويقولون هو من الجنة. ونهر الجون بالهند أيضاً، ونهر اتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السرا، ونهر السرو بأرض الخطا، وعلى ضفته مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين، وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله. والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً. وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا مد أترعها ففاضت على المزارع.

ذكر الأهرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور. وللناس فيها كلام كثير، وخوض في شأنها، وأولية بنائها. ويزعمون أن العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى اخنوخ وهو ادريس عليه السلام. وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية، والجواهر العلوية، وأول من بنى الهياكل، ومجد الله تعالى فيها، وأنه أنذر الناس بالطوفان، وخاف

ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة. ويقال: إن دار العلم والملك بمصر مدينة منف^(١)، وهي على بريد من الفسطاط. فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها، وصارت دار العلم والملك. إلى أن أتى الإسلام فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد. والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت، متناهي السمو مستدير متسع الأسفل، ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها. ومما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل، لتكون مستودعاً للعلوم، ولجثث الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع، فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه، ومبلغ الإنفاق في فتحه. فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه، واشتد في البناء، فأتمه في ستين سنة. كتب عليها بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البناء. فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها، فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلجّ في ذلك، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار، ثم يرشونها بالخل، ويرمونها بالمنجنيق، حتى فتحت الثلثة التي بها إلى اليوم، ووجدوا بإزاء النقب مالاّ أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب، فوجدهما سواء. فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً.

(١) كانت منف مدينة العلم والملك بمصر في عهد الدولة القديمة، ثم خلفتها في هذه المكانة مدن أخرى مثل طيبة (الأقصر حالياً)، وبعد هذه المدن بنيت الاسكندرية.

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي. وكان قلاوون يعرف بالألني لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً وأصله من قفجق. وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفاً انتاؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجبال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي. وبني زاوية عظيمة بسرياقص^(١) خارج القاهرة. لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين، خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنقله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره، وأظهره، وسنى له الفتح المبين ويسره، بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور، في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله. وسيأتي ذكر ما عمره أيد الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه.

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقى الملك الناصر، وهو الأمير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلولة مضمومة وآخره راء)، وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم، وسيذكر ذلك، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدودار، وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة، (وضبط اسمه بفتح الهمزة وإسكان الراء وضم الغين المعجمة)، ومنهم طشط المعروف بممص أخضر، (واسمه بطاءين مهملين

(١) تعرف حالياً بسرياقوس.

مضمومين وبينهما شين معجم). وكان من خيار الأمراء . وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن. وله الإحسان العظيم للحرافيش، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة^(١). وسجنه الملك الناصر مرة، فاجتمع من الحرافيش آلاف، ووقفوا بأسفل القلعة، ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس، يعنون الملك الناصر، أخرجه فأخرجه من محبسه، وسجنه مرة أخرى. ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه. ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجيم. ومنهم بدر الدين بن البابه. ومنهم جمال الدين نائب الكرك. ومنهم تَقْرُدُومور (واسمه بضم التاء المعلوَة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء)، ودمور بالتركية الحديد. ومنهم بهادر الحجازي (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهملة وآخره راء). ومنهم قوصون^(٢) (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم). ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوَة مفتوحة). وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه فخر الدين القبطي، وكان نصرانياً من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل. ومن عاداته أن يجلس عشية النهي في مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليهِ المسجد، فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتي بالطعام. ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائناً من كان. فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين، واسمه لؤلؤ، يصحبه إلى خارج الدار، وهناك خازنه معه صرر الدراهم

(١) الدعارة: الفجور وسوء الخلق والخبث والفسق والفساد، وإنما وصف الحرافيش بها لشدة جرأتهم وجسارتهم وتجاوزهم الحد في التعامل مع الحاكمين وغيرهم.

(٢) يجري اسمه على ألسنة الناس: قيسون بالياء بدلاً عن الواو.

فيعطيه ما قدر له . ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي إليها

فمنهم قاضي القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزهم ، وهو القاضي الإمام بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك . ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصالح تقي الدين الإخنائي . ومنهم قاضي القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري ، وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم . وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لي ان الملك الناصر قال يوماً لجلسائه . إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري . ومنهم قاضي القضاة الحنبلية . ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكاية

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس . ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين (١) أيده الله في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه ، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم ، وعرضه بين يديه المستقيمة أبي الله أن يحضرها سواء ، أدام الله أيامه . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس : قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية . فلما

(١) يقصد به أبا عنان فارس ، وهكذا يفعل ابن بطوطة وابن جزري في كل مناسبة يقارنان فيها بينه وبين غيره من الملوك والأمراء ، تزلفاً إليه .

توفي شمس الدين الحريري، وولي مكانه برهان الدين عبد الحق الحنفي أشار
 الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا أن العادة جرت
 بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي
 الدين بن دقيق العيد، فأمر الناصر بذلك. فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن
 شهود المجلس أنفة من ذلك، فأنكر الملك الناصر مغيبه، وعلم ما قصده، فأمر
 بإحضاره. فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده، وأقعده حيث نفذ أمر
 السلطان، مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك.

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات، ومنهم شرف الدين
 الزواوي المالكي، ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع
 الصالح، ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسي من الأئمة في المعقولات، ومنهم
 شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية، ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير،
 ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، وهو أعلمهم
 بالنحو، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي، ومنهم برهان الدين
 الصفاقسي، ومنهم قوام الدين الكرمانلي، وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر،
 وله جماعة من الفقهاء والقراء، يلازمونه ويدرسون فنون العلم، ويفتي في
 المذاهب، ولباسه عباءة صوف خشنة، وعمامة صوف سوداء ومن عاداته أن
 يذهب بعد صلاة العصر إلى موضع الفرج والنزهات، منفرداً عن أصحابه،
 ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء، ومنهم
 شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الأقصري، نسبة إلى أقصرا، من بلاد
 الروم، ومسكنه سرياقص، ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي. والحويزا على
 مسيرة ثلاثة أيام من البصرة، ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف

المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعي مجد الدين بن حرمي، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرقي من كبار الفقهاء، وله بمصر رياة عظيمة وجاه.

ذكر يوم المحمل

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعاً باب القلعة، دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة، ومعه عسكريه والسقاؤون على جاههم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحدادة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات، وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد. ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف. فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين، وهو رباط عظيم بناء على مفاخر عظيمة، وآثار كريمة، أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله ﷺ، والميل الذي كان يكتحل به، والدرفش وهو الأشفا الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه. ويقال: إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم، وبني الرباط، وجعل فيه الطعام للوارد والصادر، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور، ومررت بمنية القائد، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل. ثم سرت منها إلى مدينة بوش

(وضبطها بضم الباء الموحدة وواحدة شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كِتَانًا، ومنها يجلب إلى سائر الدنيا المصرية، وإلى إفريقية. ثم سافرت منها، فوصلت إلى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهملة)، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضاً، كمثل التي ذكرناها قبلها. ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية. ثم سافرت منها إلى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة). ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا، وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، (وضبط اسمها بفتح الموحدة وإسكان الهاء وفتح النون والسين). وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة. ومن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين، وهو كريم النفس فاضل. ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي، ونزلت عنده وأضافني. ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب^(١). وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل. وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل. بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب.

حكاية خصيب

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر. فآلى أن يولي عليهم أحقر عبده، وأصغرهم شأنًا، قصداً لإرذالهم والتنكيل بهم. وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه، وأمره على مصر، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء، ويقصدهم بالإذاية، حسبا هو اليهود ممن ولي عن غير عهد بالعز. فلما استقر خصيب بمصر، سار في أهلها أحسن سيرة. وشهر بالكرم والإيثار. فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه، فيجزل العطاء

(١) تعرف الآن بمدينة المنيا، وهي عاصمة محافظة المنيا في صعيد مصر.

لم، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم. وأن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه، فسأله عن مغيبه، فأخبره أنه قصد خصبياً. وذكر له ما أعطاه خصب. وكان عطاء جزيلاً. فغضب الخليفة، وأمر بسمل عيني خصب، وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح في أسواقها. فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله وكانت بيده ياقوته عظيمة الشأن فخبأها عنده، وخطأها في ثوب له ليلاً وسملت عيناه، وطرح في أسواق بغداد. فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصب: «إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر. مادحاً لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها. فقال: كيف سماعها وأنا على ما تراه؟ فقال: إنما قصدي سماعك لها. وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيراً قال فافعل فأنشد:

أنت الخصب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له: افتق هذه الخياطة، ففعل ذلك. فقال له: خذ الياقوتة. فأبى، فأقسم عليه أن يأخذها. فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهرين. فلما عرضها عليهم قالوا له إن هذه لا تصلح إلا للخليفة. فرفعوا أمرها إلى الخليفة، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة، فأخبره بخبرها. فتأسف على ما فعله بخصب وأمر بمثوله بين يديه، وأجزل له العطاء، وحكّمه فيما يريد. فرغب أن يعطيه هذه المنية، ففعل ذلك، وسكنها خصب إلى أن توفي وأورثها عقبه إلى أن انقضوا. وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النويري المالكي، ووالها شمس الدين أمير خير كريم. دخلت يوماً الحمام بهذه البلدة، فرأيت الناس بها لا يستترون. فعظم ذلك علي وأتيته، فأعلمته بذلك. فأمرني ألا أبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكتبت عليهم العقود، أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر، فإنهم يؤاخذون على ذلك. واشتد عليهم أعظم الاشتداد. ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصب إلى

مدينة منلوي^(١) وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح اللام وكسر الواو). وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي. وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بنى أحدهم جامعاً أنفق فيه صميم ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر - ومن عوائدهم أنهم لا يمينون فقيراً من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة، فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكرًا فينصرف بها. وسافرت من منلوي المذكورة إلى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها، مؤنق بناؤها على ضفة النيل، شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل).

حكاية: أخبرني أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله، أمر بعمل منبر عظيم، محكم الصنعة بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفاً وتعظيماً. فلما تم عمله، أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح. فعجب الناس من شأنه أشد العجب، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم المركب. فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر رحمه الله، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك. وقد عاينته بها، ويصنع في هذه المدينة شبه العسل، يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا. يباع بأسواق مصر. وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط. وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء آخر الحروف واو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب

(١) تعرف الآن باسم: ملوى بإدغام اللام، وهي إحدى مدن محافظة المنيا بصعيد مصر.

(بجاصل ما ثم)، لقب اشتهر به وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها، فيعطيه ما قدر له. فكان القاضي إذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم^(١) أي لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه. وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ، أضافني بزأوته. وسافرت منها إلى مدينة أخميم، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان عجيبية الشأن، بها البري المعروف باسمه، وهو مبني بالحجارة، في داخله نقوش وكتابة للأوائل، لا تفهم في هذا العهد، وصور الأفلاك والكواكب. ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب. وبها صور الحيوانات وسواها. وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها. وكان بأخميم رجلٌ يعرف بالخطيب، أمر على هدم بعض هذه البرابي، وابتنى بجارتها مدرسة. وهو رجل موسر معروف باليسار. ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي. ونزلت من هذه المدينة بزأوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر، وبها تربة جده عبد الظاهر. وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين. ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده، وقاضي المدينة الفقيه مخلص، وسائر أهلها، فيجتمعون للقرآن، ويذكرون الله إلى صلاة العصر. فإذا صلوا، قرأوا سورة الكهف، ثم انصرفوا. وسافرت من أخميم إلى مدينة (هُو): مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء). نزلت منها بمدرسة تقي الدين ابن السراج. ورأيتهم يقرأون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزياً من القرآن، ثم يقرأون أورااد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسيني من كبار الصالحين. كرامة له: دخلت الى هذا

(١) ثمَّ هنا ظرف مكان بمعنى هنا، والمراد ما هنا من الحاصل شيء حتى أعطيكه.

الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه، فسألني عن قصدي، فأخبرته أنني أريد البيت الحرام على طريق جدة. فقال لي: لا يحصل لك هذا في هذا الوقت، فارجع. وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي. فانصرفت عنه، ولم أعمل على كلامه. ومضيت في طريقي حتى وصلت إلى عيذاب. فلم يتمكن لي السفر، فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام. وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي، حسبما أخبرني الشريف نفع الله به. ثم سافرت إلى مدينة قنا، وهي صغيرة حسنة الأسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون). وبها قبر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه. ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده شهاب الدين أحمد. وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص (وهي بضم القاف). مدينة عظيمة لها خيرات عميمة، بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارس الأثرية، وهي منزل ولاية الصعيد. وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، وزاوية الأفرام^(١)، وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة، ومن علمائها القاضي جمال الدين بن السديد، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك، لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطي، وسيقع ذكرهما، ومنهم الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسي، له زاوية عالية. ثم سافرت إلى مدينة الأقصر^(٢) (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل)، وهي صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري. وعليه زاوية، وسافرت منها إلى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة

(١) في إحدى طبقات رحلة ابن بطوطة: زاوية الأفرام.

(٢) تعرف الآن بالأقصر بضم الهمزة والصاد وسكون القاف.

ونون ساكنة وتاء فوقية)، وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل. أضافني قاضيها، وأنسيت اسمه. ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون)، مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع، لها أسواق حسان، وبساتين ذات أفنان. قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين. أضافني وأكرمني، وكتب إلى نوابه بإكرامي. وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين علي، والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص. ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو^(١) (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الفاء). وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطواني، ومنها أكثرينا الجبال. وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السيل. وفي بعض منازلها نزلنا حيثما حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها. وأرضها كثيرة الضباع. ولم نزل ليلة ميبتنا بها نحارب الضباع. ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به، واجتزت منه جراب تمر، وذهبت به. فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه. ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر. وأهلها البجاة^(٢)، وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء، ويشدون على رؤوسهم عصابات يكون عرض العصابة أصعباً وهم لا يورثون اثنيات. وطعامهم ألبان

(١) يضبط اسم مدينتي: إسنا وإدفو بكسر الهمزة الآن كما هو متداول بين الناس.

(٢) ويقال لهم أيضاً: البجّة، وهم قبائل تعيش بين النيل والبحر الأحمر وبين القاهرة وحدود السودان، يعيش بعضهم في جمهورية مصر العربية، وبعضهم في جمهورية السودان، ومعظمهم لا يتكلمون العربية.

الإبل ويركبون المهاري، ويسمونها الصهب. وثالث المدينة للملك الناصر وثلاثها ملك البجاة، وهو يعرف بالحدري (بفتح الحاء المهمل وإسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة. رأيتُه وتبركت به. وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي. زعم أنه ابن المرتضى ملك مراکش، وأن سنه خمس وتسعون سنة. ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدري سلطان البجاة يجارِب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا في البحر. فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين أكثرنا الجبال منهم إلى صعيد مصر، فوصلنا إلى مدينة قوص التي تقدم ذكرها، وانحدرنا منها في النيل، وكان أوان مده، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر، فبت بمصر ليلة واحدة، وقصدت بلاد الشام. وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت إلى مدينة بليس^(١)، (وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة)، وهي مدينة كبيرة، ذات بساتين، كثيرة، ولم ألق بها من يجب ذكره. ثم وصلت إلى الصالحية. ومنها دخلنا الرمال^(٢)، ونزلنا منازلها، مثل السوادة والورادة والمطيب والعريش والخروبة. بكل منزل منها فندق. وهم يسمونه الخان. ينزله المسافرون بدوابهم. وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته. ومن منازلها قَطِيًا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف. والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث). وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث. وفيها الدواوين والعمال والكتاب، والشهود.

(١) المتداول بين الناس في نطقها الآن: بليس بكسر الباء بين الأولى والثانية، وبينها لام ساكنة، وهي مدينة تابعة لمحافظة الشرقية.

(٢) يقصد بالرمال: شبه جزيرة سيناء.

ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا براءة من مصر. ولا إلى مصر إلا براءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس، وتوقياً من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه. فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه، فلا يفوتهم فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء، وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الداراقماري من خيار الأمراء، أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي. وبين يديه عبد الجليل المغربي والوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لثلا يلبس عليهم، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا. ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار، كثيرة العمارة حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة والأسوار عليها. وكان بها جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الأمير المعظم الجاولي. وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم. وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس. ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً، وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر، في بطن وادٍ، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت. في أحد أركانها صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً. ويقال إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس. فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم. ويقابلها قبور ثلاثة، هي قبور أزواجهم. وعن يمين المنبر، بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق،

يفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة. ويقال: إنها محاذية لها. وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك، وهو الآن مسدود. وقد نزلت بهذا الموضوع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه: المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أسند فيه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم فقال: انزل فصل ركعتين. فإن هنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مرّ بي على بيت لحم وقال: انزل فصل ركعتين، فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام. ثم أتى بي الصخرة» وذكر بقية الحديث. ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبري، أحد الصلحاء المرضيين، والأئمة المشهورين. سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي: كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه، ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى الغار، ووقف عند قبر سارة؛ فدخل شيخ فقال له: أي هذه القبور هو قبر إبراهيم؟ فأشار له إلى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له إليه. ثم دخل صبي فسأله أيضاً فأشار له إليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر إبراهيم عليه السلام لا شك. ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد. وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف عليه السلام. وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام. وهي تل مرتفع، يشرف منه غور الشام. وعلى قبره أبنية حسنة. وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه. وهنالك بحيرة لوط^(١)، هي أجاج. يقال إنها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع له نور

(١) وتعرف الآن باسم: البحر الميت، لعدم وجود حياة فيه، لشدة ملوحة مائه.

وإشراق ليس لسواه ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمه . وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيء فيه صورة محراب ، لا يسع إلا مصلياً واحداً ، ويقال : إن ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط ، فتحرك موضع سجوده ، وساخ في الأرض قليلاً . وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذراً وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء . وفي رسول الله أسوة . هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه . وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر . وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه بالرغم مني بين التراب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس . فزرت في طريقي إليه تربة يونس عليه السلام ، وعليها أبنية كبيرة ومسجد . وزرت أيضاً بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى عليه السلام ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة . والنصاري يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به ، ثم وصلنا إلى بيت المقدس ، شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ، ومعرجه إلى السماء . والبلدة كبيرة مبنية بالصخر المنحوت . وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً ، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها . ثم استنقض الملك الظاهر ^(١) هدمه خوفاً أن

(١) يبدو - والله أعلم - أن المراد : وأتم الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيمنعوا بها ، والملك الظاهر هو : ركن الدين بيبرس البندقداري رابع سلاطين دولة المماليك البحرية بمصر .

يقصدها الروم فيتمنعوا بها . ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق .

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً. وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبالية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى فهو مسقف في النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواء مسقفة.

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً. قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام. ولها أربعة أبواب. والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً محكم الصنعة، وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة^(١) ورائق الصنعة ما يعجز الواصف. وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي تتلأأ أنواراً، أو تلمع لمعان البرق. يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائبها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار. فإن النبي ﷺ عرج منها إلى السماء. وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة. وتحتها مغارة مقدار بيت صغير.

(١) الزواقة مقصود بها: التزيق والتجميل والتزيين.

ارتفاعها نحو قامة أيضاً ينزل إليها على درج. وهناك شكل محراب. وعلى الصخر شباكان اثنان محكما العمل، يغلقان عليها أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب. وفي القبة درقة كبيرة من حديد، معلقة هنالك. والناس يزعمون أنها درقة حزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد، على تل مرتفع هنالك، بنية يقال: إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء. ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية، منسوبة إلى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها. وهناك أيضاً كنيسة أخرى معظمة، يحجها النصارى، وهي التي يكذبون عليها، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها. وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين. وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه. وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به.

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي (بفتح الغين)، وهو من أهل غزة وكبرائها. ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي. ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين. ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي. ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن

مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي. صحبته ولبست منه خرقة التصوف. ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة نغر عسقلان، وهو خراب. قد عاد رسوماً طامسةً، وأطلالاً دارسة. وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعه عسقلان إتقاناً وحسن وضع، وأصالة مكان، وجمعاً بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام، قبل أن ينقل إلى القاهرة، وهو مسجد عظيم سامي العلو، فيه جبّ للماء أمر ببنائه بعض العبيد، وكتب ذلك على بابه وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها أسطوانة حراء عجيبة، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم، ثم فقدوها، فوجدت في موضعها بعسقلان. وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام، ينزل إليها في درج متسعة، ويدخل منها إلى بيوت، وفي كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة. وماؤها عذب، وليس بالغزير. ويذكر الناس من فضائلها كثيراً. وبظاهر عسقلان وادي النمل، ويقال: إنه المذكور في الكتاب العزيز. وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرتهم، أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور. وله جراية يجريها له ملك مصر، مع ما يصل إليه من صدقات الزوار. ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهي في فلسطين مدينة كبيرة، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق. وبها الجامع الأبيض. ويقال: إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء، مدفونين عليهم السلام. وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي. ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتوناً. ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق. وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها. وكيفية عملها: أن يطبخ الخروب، ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الرّب فتصنع منه

الخلواء. ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام. وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع في نهاية من الإتيقان والحسن. وفي وسطه بركة ماء عذب. ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة)، وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة. ويشقها نهر ماؤه عذب. ثم سافرت منها بقصد اللاذقية، فمررت بالغور، وهو وادٍ بين تلال به قبر أبي عبيدة ابن الجراح أمين هذه الأرض رضي الله عنه، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل. وبتنا هنالك ليلة، ثم وصلنا إلى القصير، وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه، تبركت أيضاً بزيارته. ثم سافرت على الساحل، فوصلت إلى مدينة عكة^(١)، وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى، وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال: إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام. وينزل إليها في درج. وكان عليها مسجد بقي منه محرابه. وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام. ثم سافرت منها إلى مدينة صور، وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء. فأقى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه، فأخذت عليه في فعله فقال لي: إن البناء إنما يكون ابتداءه من الأساس. ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة. لأن البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان أحدهما للبر، والثاني للبحر. ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبنائها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه، لأن البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها. وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت

(١) وتعرف الآن بعكا بالألف بدلاً عن التاء المربوطة، وهي إحدى مرفئيه فلسطين المحتلة - حررها الله وأعادها إلى الإسلام -

السور، وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك، ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل، ولا يخرج خارج، إلا على علم منهم. وكان لعكة أيضاً ميناء مثلها، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار، ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر: نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس. ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية. وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها، وعظم شأنها. وبها الحمامات العجيبة؛ لها بيتان أحدهما للرجال، والثاني للنساء. ومأوها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة، طولها نحو ستة فراسخ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء، فيه قبر شعيب عليه السلام، وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام، وقبر سليمان عليه السلام، وقبر يهودا، وقبر روييل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم. وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام، وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية. والجب كبير عميق، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضاً. ثم سرنا إلى مدينة بيروت وهي صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن ويحلب منها إلى ديار مصر الفواكه. وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب. وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد. ويقال: إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف. وقيل السلطان نور الدين وكانوا من الصالحين. ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها.

حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور

يحكي أنه دخل مدينة دمشق، فمرض بها مرضاً شديداً، وأقام مطروحاً بالأسواق. فلما برىء من مرضه، خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستاناً يكون حارساً له. فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين، وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان، وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمان يأكل منه السلطان، فأتاه برمان. فوجده حامضاً، فأمره أن يأتي بغيره، ففعل ذلك. فوجده أيضاً حامضاً. فقال له الوكيل: أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: إنما أستأجرتني على الحراسة لا على الأكل، فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك فبعث إليه الملك، وكان قد رأى في المنام أنه يجتمع مع أبي يعقوب، وتحصل له منه فائدة، فتفرس أنه هو. فقال له: أنت أبو يعقوب؟ قال: نعم. فقام إليه، وعانقه، وأجلسه إلى جانبه، ثم احتمله إلى مجلسه، فأضافه بضيافة من الخلال المكتسب بكده يمينه، وأقام عنده أياماً. ثم خرج من دمشق فاراً بنفسه في أوان البرد الشديد، فأتى قرية من قراها. وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل. وصنع له مرقة، وذبح دجاجة فأتاه بها، ونخب شعير فأكل من ذلك، ودعا للرجل، وكان عنده جملة أولاد، منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها. ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها، ويكون معظم الجهاز أواني النحاس، وبه يتفخرون، وبه يتبايعون. فقال أبو يعقوب للرجل: هل عندك شيء من النحاس؟ قال: نعم، قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت، قال اثنتي به. فأتاه به. فقال له: استعر من جيرانك ما أمكنتك منه، ففعل، وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران. وأخرج صرة

كانت عنده فيها الإكسير^(١). فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهباً، وتركه في بيت مقفل وكتب كتاباً إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك. وينبئه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء، ويوقف عليه الأوقاف، ويبني الزوايا بالطرق، ويرضي أصحاب النحاس، ويعطي صاحب البيت كفايته، وقال له في آخر الكتاب: وإن كان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فأنا قد خرجت من ملك المغرب، وعن هذه الصنعة والسلام. وفرّ من حينه، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين، فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب، بعد أن أرضى أصحاب النحاس، وصاحب البيت. وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر. فعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله. ثم وصلت إلى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام. تخرقها الأنهار، وتحفها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمراقفه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة. والبحر على ميلين منها. وهي حديثة البناء. وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت، واتخذت هذه الحديثة. وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك. وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء. ومسكته منه بالدار المعروفة بدار السعادة. ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الأمراء والعساكر، ويخرج إلى ظاهر المدينة، فإذا عاد إليها، وقارب الوصول إلى منزله، ترجل الأمراء، ونزلوا عن دوابهم، ومشوا بين يديه، حتى يدخل منزله، وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتوقد المشاعل. ومن كان بها من الأعلام كاتب السرباء الدين بن غانم

(١) وهو مادة كيميائية كانوا يتوهمون أنها تحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، وذلك محض وهم وخيال لا ظل له في الحقيقة.

أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم، وأخوه حسام الدين هو شيخ
القدس الشريف، وقد ذكرناه، وأخوها علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم
وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال. ومنهم قاضي قضاتها
شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام. وبهذه المدينة حمامات حسان منها
حمام القاضي القرمي. وحمام سندمور. وكان سندمور أمير هذه المدينة. ويذكر
عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات. منها أن امرأة شكت إليه بأن أحد
مماليكه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه، ولم تكن لها بيعة. فأمر
به فوسط فخرج اللبن من مصرانه. وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد
أمرء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب. واتفق مثلها للملك كبك سلطان
تركستان. ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد، وهو بلد صغير كثير
الأشجار والأنهار بأعلى تل. وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض
كبراء الأمراء. ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه. ثم سافرت إلى مدينة
حصص وهي مدينة مليحة، أرجاؤها مونقة، وأشجارها مورقة، وأنهاها متدفقة،
وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحسن الجامع، وفي وسطه ماء. وأهل
حصص عرب لهم فضل وكرم. وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله
ورسوله، وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء. وقاضي هذه المدينة
جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة. ثم سافرت منها إلى
مدينة حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق،
والجمال الفائق، تحفها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات،
يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي. ولها ربح سمي بالمنصورية أعظم من المدينة،
فيه الأسواق الخافلة، والحمامات الحسان، وبجاة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش
اللوزي، إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة. قال ابن جزى: وفي
هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال نور الدين أبو

الحسن علي بن موسى بن سعيد العباسي العامري الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر
رضي الله عنه :

حَمَى اللهُ مِنْ حَمَاةٍ مَنَاطِرًا وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكْرَ وَالطَّرْفَا
تَغْنَى حَمَامٍ أَوْ تَمِيلُ خَائِلٌ وَتَزْهَى مَبَانِي تَمْنَعُ الْوِاصِفَ الْوَصْفَا
يَلُومُونَنِي أَنْ أَعْصِيَ الصَّوْنَ وَالنَّهْيَ بِهَا وَأَطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهُوَ وَالْقَصْفَا
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهْرُ عَاصٍ فَكَيْفَ لَا أَحَاكِيهِ عَصِيانًا وَأَشْرِبُهَا صِرْفَا
وَأَشْدُو لَدَى تِلْكَ النُّوَاغِرِ شَدْوَهَا وَأَغْلِبُهَا رَقْصًا وَأَشْبِهُهَا غَرْفَا
تَتَنُّ وَتَذْرِي دَمْعَهَا فَكَأَنَّهَا تَهْمُ بِمَرَاها وَتَسْأَلُهَا الْعَطْفَا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهباً مذهب التورية :

وَنَاعُورَةٌ رَقَّتْ لِعِظْمِ خَطِيئَتِي وَقَدْ عَايَنْتُ قَصْدِي مِنَ الْمَنْزِلِ الْقَاصِي
بَكَتْ رَحْمَةً لِي ثُمَّ بَاخَتْ بِشَجْوِهَا وَحَسْبُكَ أَنْ الْحُشْبَ تَبْكِي عَلَى الْعَاصِي

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية :

يَا سَادَةَ سَكَنُوا حَمَاةً وَحَقِّكُمْ مَا حِلْتُ عَنْ تَقْوَى وَعَنْ إِخْلَاصِ
وَالطَّرْفُ بَعْدَكُمْ إِذَا أذْكَرَ اللَّقَا يَجْرِي الْمَدَامِعَ طَائِعًا كَالْعَاصِي

ثم سافرت إلى مدينة المعرة، التي ينسب إليها الشاعر أبو العلاء
المعري، وكثير سواه من الشعراء. قال ابن جزي: وإنما سميت بمعرة النعمان لأن
النعمان بن بشير الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ توفي له ولد أيام إمارته على
حصص، فدفنه بالمعرة، فعرفت به. وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور. وقيل:
إن النعمان جبل مطل عليها سميت به.

والمعرة مدينة كبيرة حسنة، أكثر شجرها التين والفسق ومنها يحمل
إلى مصر والشام. وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد

العزير. ولا زاوية عليه ولا خديم له. وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنفٍ من الرافضة أرجاس، يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم، ولعن مبغضهم، ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه - ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين. وهي حسنة كثيرة البساتين، وأكثر شجرها الزيتون. بها يصنع الصابون الأجري، ويجلب إلى مصر والشام. ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي، ويصبغونه بالحمرة والصفرة. ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها. وأهلها صابون يبغضون العشرة. ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سمارتهم بالأسواق على السلع، فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد. وحضر بها بعض الأتراك يوماً فسمع سمساراً ينادي تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال: قل عشرة بالدبوس. وبها مسجد جامع فيه تسع قباب. ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم القبليح - ثم سرنا إلى مدينة حلب، المدينة الكبرى والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين بن جبير في وصفها: قدرها خضير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح وسلّ عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع منحوتة الأجزاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعوام، ووسعت الخواص والعوام، أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ فني جميعهم، ولم يبق إلا بناؤها. فيا عجباً لبلاد تبقى ويذهب ملاكها، ويهلكون ولا يقضي هلاكها، وتخطب بعدهم فلا يتعذر أملاكها، وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها. هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت صرف الزمان بالمكان. أنث اسمها، فتحلت بجليّة الغوان، وأنت بالعدر فيمن دان وانجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان. هيهات سيهرم شبابها، ويعدم خطابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها. وقلعة حلب تسمى

الشهباء . وبداخلها جبلان ينبع منها الماء ، فلا تخاف الظأ ويظيف بها سوران .
وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متداني الأبراج وقد انتظمت بها
العلاي العجيبة المفتحة الطيقان . وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه
القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال : إن الخليل عليه
السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على
الفرات بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه
القلعة أياماً ، ونكص عنها خائباً ، قال ابن جزى : وفي هذه القلعة يقول الخالدي
شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها
يجرُّ عليها الجوُّ جيبَ غمامة
إذا ما سرى برقُ بدت من خلاله
فكم من جنودٍ قد أمتت بغصة
بمرقبتها العالي وجانبها الصعب
ويلبسها عقداً بأنجمة الشهب
كما لاحت العذراء من خلل السحب
وذي سطوات قد أبانت على عقب
وفيهما يقول أيضاً وهو من بديع النظم :

وقلعة عانق العنقاء سافلها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها
إذا الغمامة راحت غاض ساكنها
يعدُّ من أنجم الأفلاك مرقبها
وجاز منطقة الجوزاء عاليها
أرضاً توطأ قطرته مواشها
حياضها قبل أن تهمي عواليها
لو أنه كان يجري في مجاريها
ونصرت لدواهيهم دواهيها
وفيهما يقول جمال الدين علي ابن أبي المنصور :

كادت ليون سموها وعلوها
وردت قواطنها المجرّة منها
تستوقف الفلك المحيط الدائرا
ورعت سوابقها النجوم زواهرا

وَيَظَلُّ صَرَفُ الدَّهْرِ مِنْهَا خَائِفًا وَجِلًّا فَمَا يُمْسِي لَدَيْهَا حَاضِرًا

ويقال: في مدينة حلب حَلَبُ إِبْرَاهِيمَ، لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها. وكانت له الغنم الكثيرة. فكان يسقي الفقراء والمساكين، والوارد والصادر من ألبانها، فكانوا يجتمعون ويسألون: حلب إبراهيم، فسميت بذلك، وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع، وإتقان الترتيب، واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود وقياسريتها لا تماثل حسناً وكبراً، وهي تحيط بمسجدها وكل سباط منها محاذٍ لباب من أبواب المسجد. ومسجدها الجامع من أجل المساجد في صحنه بركة ماء، ويظف به بلاط عظيم الاتساع. ومنبرها بديع العمل، مرصع بالعاج والآبنوس. وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع، وإتقان الصنعة. تُنسب لأمرأ بني حمدان، وبالبلد سواها، ثلاث مدارس، وبها مارستان. وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض، به المزارع العظيمة، وشجرات الأعناب منتظمة به، والبساتين على شاطئ نهرها. وهو النهر الذي يمر بجماة، ويسمى العاصي^(١)، وقيل: إنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو. والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطها لا يكون في سواها، وهي من المدن التي تصلح للخلافة. قال ابن جزى: أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب، وذكر داخلها وخارجها. وفيها يقول أبو عبادة البحرى:

يا برقُ أسفرَ عن قُوَيْقَ فطرَّتِي
عن منبت الورد المَعْصَفِرِ صَبْعَةٌ
حلبٍ فأعلى القصر من بطياسِ
في كل ضاحية ومَجْنَى الآسِ
حشدت علي فأكثرت إيناسي
أرض إذا استوحشتكم بتذكيرِ

(١) هذا وهم من ابن بطوطة، إذ إن نهر العاصي لا يمر بحلب، إنما النهر الموجود فيها هو نهر قويق يمر في الشتاء وينضب في الصيف.

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري :

سَقَى حَلْبُ الْمَزْنِ مَعْنَى حَلْبِ فكم وصلتَ طرباً بالطربِ
وكم مستطابٍ من العيشِ لذِّ بها إذ بها العيش لم يُستطَبِ
إذا نَشَرَ الزهْرُ أعلامَه بها ومطارفُه والعذبُ
غداً وحواشيه من فضَّةٍ تروقُ وأوساطُه من ذهبِ

وقال فيها أبو العلاء المعري :

حلب للوارد جنةٌ عدنٍ وهي للغادرين نارُ سعيرِ
والعظيمُ العظيمُ يكْبُرُ في عيِّ نيِّه منها قدرُ الصغيرِ الصغيرِ
فَقُويقُ في أنفُسِ القومِ بحرُ وحصاةٌ منه مكانَ ثبيرِ

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس :

يا صاحبي إذا أعيأكم سقمي فلقياي نسيمَ الريحِ من حلبِ
من البلادِ التي كان الصِّبا سكناً فيها وكان الهوى العذري من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم :

وما أمتعتُ جارها بلدةً كما أمتعتُ حلبَ جارها
بها قد تجمَّع ما تشتهي فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي :

حادي العيسِ كم تُنيخُ المطايا سقُ فروحي منْ بُعديهم في سياقِ
حلبٍ إنها مقرُّ غرامِي ومرامي وقبلةُ الأشواقِ
لا خلا جوشنُ بطياسَ والعبدِ من كلِّ وابلٍ غيِّدِاقِ
كم بها مرتعٌ لَطرفِ وقلبِ فيه سقيُّ المني بكأسِ دهاقِ

وتغنى طوره لارتباح وتثنى غصونه للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت أنجم الأفق حولها كالنطاق

ويجلب ملك الأمراء أرغون الدوادر، أكبر أمراء الملك الناصر. وهو من الفقهاء، موصوف بالعدل، لكنه بخيل. والقضاة يجلب أربعة للمذاهب الأربعة. فمنهم القاضي كمال الدين بن الزملكاني، شافعي المذهب، عالي المهمة، كبير القدر، كريم النفس، حسن الأخلاق، متفنن بالعلوم. وكان الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه، فلم يقض له ذلك، وتوفي ببليس، وهو متوجه إليها. ولما ولي قضاء حلب، قصده الشعراء من دمشق وسواها. وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها:

أَسِفْتُ لِفَقْدِكَ جَلَّقُ الْفِيحَاءُ وَتَبَاشَرْتُ لِقَدُومِكَ الشَّهْبَاءُ
وَعَلَى دِمَشْقٍ وَقَدْ رَحَلْتَ كَابَةً وَعَلَا رَبِّي حَلَبَ سَنَاءً وَسَنَاءُ
قَدْ أَشْرَقَتْ دَارٌ سَكَنْتَ فِنَاءَهَا حَتَّى غَدَتْ وَلِنُورِهَا لِأَلَاءِ
يَا سَائِرًا سَقِي الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى تَمَنِّي بِيَخْلُ عِنْدَهُ الْكِرْمَاءُ
هَذَا كِمَالُ الدِّينِ لُذُّ بَجْنَائِهِ تَنَعَّمْ فَتَمَّ الْفَضْلُ وَالنِّعْمَاءُ
قَاضِي الْقَضَاةِ أَجَلٌ مِنْ أَيَامِهِ تُعْنَى بِهَا الْإِيْتَامُ وَالْفُقَرَاءُ
قَاضٍ زَكَأً أَصْلًا وَفَرَعًا فَاعْتَلَى شَرُفَتْ بِهِ الْأَدْبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ
مَنْ أَلَاهُ عَلَى بَنِي حَلَبٍ بِهِ لِلَّهِ وَضَعُ الْفَضْلِ حَيْثُ يَشَاءُ
كَشَفَ الْمُعَمَّى فَهْمُهُ وَبَيَانُهُ فَكَأَنَّمَا ذَاكَ الذِّكَاةُ ذُكَاةُ (١)

(١) ذُكَاةُ هِيَ: الشَّمْسُ، شَبَّهَ ذِكَاةَهُ الَّذِي يَكْشِفُ الْمَعْمِيَاتِ بِالشَّمْسِ الَّتِي تَذْهَبُ الظَّلَامَ، وَتَكْشِفُ مَا أَخْفَاهُ وَعَمَّاهُ عَلَى الرَّائِيْنَ.

يا حاكم الحكام قدرك سابق
عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التي
في الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضائل مشهورة
كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها
والفضل ما شهدت به الأعداء

وهي أزيد من خمسين بيتاً. وأجازه عليها بكسوة ودرهم. وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت. قال ابن جزي: وليس كلامه في هذه القصيدة بذاك وهو في المقطعات أجود منه في القصائد وإليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد، في جميع بلاد المشرق. وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباته، منشاء الخطب الشهيرة، ومن بديع مقطعاته في التورية قوله:

عَلَّقْتَهَا غِيْدَاءَ حَالِيَةِ الْعَلِيِّ تَجْنِي عَلَى عَقْلِ الْمَحَبِّ وَقَلْبِهِ
بَجَلَّتْ بِلَوْلُؤِ نَغْرِهَا عَنِ لَائِمٍ فَعَدَّتْ مَطْوِوْقَةً بِمَا بَجَلَّتْ بِهِ

ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الإمام المدراس ناصر الدين بن العديم، حسن الصورة والسيرة، أصيل مدينة حلب:

تراه إذا ما جئتُه مهتلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية، لا أذكره. كان من الموثقين بمصر. وأخذ الخطة عن غير استحقاق. ومنهم قاضي قضاة الحنابلة، لا أذكر اسمه، وهو من أهل صالحية دمشق، ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء. ومن فقهاؤها شرف الدين بن العجمي، وأقاربه هم كبراء مدينة حلب، ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين^(١). وهي على طريق قنسرين (وضبط اسمها بقاء معلومة مكسورة وياء

(١) وهي قرية من نواحي حلب، كانت من أعمال قنسرين، ثم صارت في عهد الرشيد من العواصم مثل منبج، ورغم أنها تقع في جهة قنسرين تماماً، فليس هناك ما يمنع أن يسافر إليها ابن بطوطة عن طريق قنسرين وهي طريق غير مباشرة، وقد لوحظ ذلك في أسفاره.

مد وزاي مكسورة وياء مد ثانية ونون)، وهي حديثة اتخذها التركمان. وأسراقها حسان، ومساجدها في نهاية من الإتقان. وقاضيها بدر الدين العسقلاني. وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة، ثم خربت، ولم يبق إلا رسومها، ثم سافرت إلى مدينة أنطاكية. وهي مدينة عظيمة أصيلة وكان عليها سور محكم، لا نظير له في أسوار بلاد الشام. فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها. وأنطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء، كثيرة الأشجار والمياه. وبخارجها نهر العاصي. وبها قبر حبيب النجار رضي الله عنه. وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وشيخها الصالح المعمر محمد بن علي سنه ينيف على المائة، وهو ممتع بقوته، دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطباً، ورفع على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة، ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين، إلا أنه محدودب الظهر، لا يستطيع النهوض، ومن يراها يظن الوالد منها ولداً، والولد والداً - ثم سافرت إلى حصن بُغراس، (وضبط اسمه بياء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل)، وهو حصن منيع لا يرام، عليه البساتين والمزارع، ومنه يدخل إلى بلاد سيس، وهي بلاد كفار الأرمن، وهم رعية للملك الناصر، يؤدون إليه مالاً ودراهم فضة خالصة تعرف بالبغلية. وبها تصنع الثياب الدبيلية^(١). وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني. وله ولد فاضل اسمه علاء الدين، وابن أخ اسمه حسام الدين، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرضص (بضم الراء والصاد المهمل الأول)، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

(١) نسبة إلى دبيل بفتح أوله وكسر ثانيه، وهي مدينة بأرمينية تناخم أزان فتحها حبيب بن مسلمة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وغلب عليها وعلى قراها، وصالح أهلها وكتب لهم كتاباً.

حكاية

شكا الأرمن مرة إلى الملك الناصر من الأمير حسام الدين، وزوروا عليه أموراً لا تليق. فأنفذ أمره لأمر الأُمراء بجلب أن يخنقه. فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقاً له من كبار الأُمراء فدخل على الملك الناصر وقال: يا خوند إن الأمير حسام الدين هو من خيار الأُمراء، ينصح للمسلمين، ويحفظ الطريق، وهو من الشجعان، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين، فيمنعهم ويقهرهم. وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله. ولم يزل به حتى أنفذ أمراً ثانياً بسراحه والخلع عليه وردّه لموضعه. ودعا الملك الناصر بريدياً يعرف بالأفوش، وكان لا يُبعث إلا في مهم، أمره بالإسراع والجدّ في السير. فسار من مصر إلى حلب في خمس. وهي مسيرة شهر. فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس، فخلصه الله تعالى، وعاد إلى موضعه. ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي، بموضع يقال له: العمق، متوسط بين أنطاكية وتيزين وبغراس، ينزله التركمان بمواشيهم، لخصبه وسعته. ثم سافرت إلى حصن القصير: تصغير قصر، وهو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردي، وقاضيه شهاب الدين الأرمني من أهل الديار المصرية، ثم سافرت إلى حصن الشُغرُبُكَّاس، (وضبط اسمه بضم الشين المعجم وإسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة)، وهو منيع في رأس شاهق، أميره سيف الدين الطنطاش فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة، من أصحاب ابن تيمية. ثم سافرت إلى مدينة صهيون، وهي مدينة حسنة بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف بالإبراهيمي، وقاضيه محيي الدين الحمصي، وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله، وقد

زرت قبره. ثم سافرت منها، فمررت بحصن القَدْمُوس، (وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل)، ثم بحصن المَيْتَقَة، (وضبط اسمه بفتح الميم وإسكان الياء وفتح النون والقاف)، ثم بحصن العليقة، واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة)، ثم بحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم: الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية. ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يدعو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده. ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله. وربما لم تصح حيلهم فقتلوا. كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور. فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدرُوا عليه لأخذه بالحزم.

حكاية

كان قراسنقور من كبار الأمراء، ومن حضر قتل الملك الأشرف أخي الملك الناصر، وشارك فيه. ولما تمهد الملك للملك الناصر، وقربَه القرار، واشتدت أواخي سلطانه، جعل يتتبع قتلة أخيه، فيقتلهم واحداً واحداً، إظهاراً للأخذ بثأر أخيه، وخوفاً أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه. وكان قراسنقور أمير الأمراء مجلب. فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم. وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعهم مجلب، ونزولهم عليها، حتى يقبضوا عليه. فلما فعلوا ذلك، خاف قراسنقور على نفسه، وكان له ثمانمائة مملوك، فركب فيهم، وخرج على العساكر صباحاً، فاخترقهم وأعجزهم به نقاً. وكانوا في عشرين ألفاً، وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى، وهو على مسيرة يومين من حلب. وكان مهنا في قنص له، فقصد بيته، ونزل عن فرسه، وألقى العمامة

في عنق نفسه، ونادى الجوارى يا أمير العرب، وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا
 وبنيت عمه فقالت له: قد أجرناك وأجرنا من معك. فقال: إنما أطلب أولادي
 ومالي. فقالت له: لك ما تحب، فانزل في جوارنا. ففعل ذلك. وأتى مهنا،
 فأحسن نزله وحكمه في ماله. فقال: إنما أحب أهلي ومالي الذي تركته بجلب.
 فدعا مهنا بإخوته وبني عمه، فشاورهم في أمره. فممنهم من أجابه إلى ما أراد،
 ومنهم من قال: كيف نحارب الملك الناصر، ونحن في بلاده بالشام؟ فقال لهم
 مهنا: أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريد، وأذهب معه إلى سلطان العراق. وفي
 أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سبوا على البريد إلى مصر.
 فقال مهنا لقراسنقور: أما أولادك فلا حيلة فيهم، وأما مالك فنجتهد في
 خلاصه. فركب فيمن أطاعه من أهله، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين
 ألفاً، وقصدوا حلب، فأحرقوا باب قلعتها، وتغلبوا عليها، واستخلصوا منها
 مال قراسنقور ومن بقي من أهله، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك. وقصدوا ملك
 العراق، وصحبهم أمير حصص الأفرم. ووصلوا إلى الملك محمد خدابنده سلطان
 العراق، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة
 والغين المعجمة)، وهو ما بين السلطانية وتبريز، فأكرم نزلهم، وأعطى مهنا عراق
 العراق، وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم، وتسمى دمشق
 الصغيرة، وأعطى الأفرم همدان. وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم. وعاد
 مهنا إلى الملك الناصر بعد موثيق وعهود، أخذها منه. وبقي قراسنقور على
 حاله. وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة، فممنهم من يدخل عليه
 داره فيقتل دونه، ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه. وقتل بسببه
 من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبداً، ولا ينام إلا في بيت العود
 والحديد. فلما مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر
 الجوبان، كبير أمرائه، وفرار ولده الدمرطاش إلى الملك الناصر. ووقعت

المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد، واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمراطاش. فبعث الملك الناصر برأس الدمراطاش إلى أبي سعيد، فلما وصله أمر بمحمل قراسنقور إليه، فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتماً كان له مجوفاً، في داخله سم ناقع، فنزع فسه، وامتص ذلك السم فمات لحينه، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر، ولم يبعث له برأسه. ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار، البحر على نحو ميل منها. وبها قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وهو الذي نبذ الملك، وانقطع إلى الله تعالى، حسبها شهر ذلك. ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس إنما ورث الملك عن جده أبي أمه. وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين.

حكاية أدهم

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى، وتوضاً من بعض الأنهار التي تتخللها، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر. فقال: هذه لا خطر لها. فأكلها، ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان، ففرع باب البستان فخرجت إليه جارية. فقال: أدعي لي صاحب المنزل فقالت: إنه لامرأة. فقال: استأذني لي عليها، ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة. فقالت له: إن هذا البستان نصفه لي، ونصفه للسلطان، والسلطان يومئذ ببلخ، وهي على مسيرة عشرة من بخارى وأحلتها المرأة من نصفها، وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فأخبره الخبر، واستحله. فأمره أن يعود إليه من الغد. وكان للسلطان بنت بارعة الجمال، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت إليها العبادة وحب الصالحين. وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا. فلما عاد

السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أروع من هذا ، يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة . فرغبت في تزوجه . فلما أتاه من الغد ، قال : لا أحلك إلا أن تتزوج ببنتي . فانقاد لذلك بعد استعصاء ، وتمنع ، فتزوج منها ، فلما دخل عليها وجدها متزينة . والبيت مزين بالفرش وسواها . فعمد إلى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح ، ولم يزل كذلك سبع ليال . وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك . فلما كان الليل واقعها ، ثم اغتسل ، وقام إلى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتاً رحمه الله ، وحملت منه ، فولدت إبراهيم . ولم يكن لجدته ولد فأسند الملك إليه . وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر . وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد وخدمها إبراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثاً . ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم ، فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخدمها شمعة ، فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة . وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله ، وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه . وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن إلى الصلاة فيقولون لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير .

حكاية

ذكر لي أن رجلاً مجهولاً وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهداية ، وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام ، وكان يعين لهم البلاد ،

يأمرهم بالخروج إليها، ويعطيهم من ورق الزيتون، ويقول لهم: استظفروا بها، فإنها كالأوامر لكم فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له: إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد، فيقول له: أين الأمر فيخرج ورق الزيتون. فيضرب ويحبس. ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفاً عند القتال فغدروا مدينة جبلة، وأهلها في صلاة الجمعة، فدخلوا الدور، وهتكوا الحرم. وثار المسلمون من مسجدهم، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية، فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعساكره، وطيرت الحمام إلى طرابلس، فأتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفاً، وتحصن الباقون بالجبال. وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه ديناراً عن كل رأس، إن هو حاول إبقاءهم. وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر. وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف. فراجعه ملك الأمراء، وألقى له أنهم عمال المسلمين في حراثة الأرض، وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمون لذلك، فأمر بالإبقاء عليهم. ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر. يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً. وكنت إنما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الإسكندري - فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف. فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوي، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء، أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم، وكان قد عمر لها زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر. وقاضيهما الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها.

حكاية

كان باللادقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه، متهم في دينه، مستخف يتكلم بالقبايح من الإلحاد. فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء، فلم يقضها له. فقصده مصر، وتقول أموراً شنيعة، وعاد إلى اللادقية. فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين أن يتحيل في قتله بوجه شرعي، فدعاه القاضي إلى منزله وباحته واستخرج كامن إلحاده، فتكلم بعظائم أسرها يوجب القتل، وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب ليكتبوا عقداً بمقاله، وثبت عند القاضي وسجن، وأعلم ملك الأمراء بقضيته، ثم أخرج من السجن، وخنق على بابيه، ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان أن عزل عن طرابلس، ووليها الحاج قرطية من كبار الأمراء، ومن تقدمت له فيها الولاية، وبينه وبين طيلان عداوة، فجعل يتبع سقطاته، وقام لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين، فأمر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بخنقهم، وأخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس، وأجلس كل واحد تحت مخنقته، ونزعت عائمهم. ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الأمير سبقاً على فرسه إلى حيث المأمور بقتله، ثم يعود إلى الأمير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثاً، فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر، فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء في المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم وقالوا: أيها الأمير هذه سبة في الإسلام يقتل القاضي والشهود. فقبل الأمير شفاعتهم وخلي سبيلهم. وبخارج اللادقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان، ويقصده النصراني من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين. فالنصراني يضيفونه. وطعامهم الخبز والجبين والزيتون والخل البكر. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد، ولا يخرج منها حتى

تخط له السلسلة. وهي من أحسن المراسي بالشام. ثم سافرت إلى حصن المرقب، وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك. ومبناه على جبل شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته. وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون، وعليه ولد ابنه الملك الناصر. وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائمهم، ثم سافرت إلى الجبل الأقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر، وسكانه التركمان. وفيه العيون والأنهار. وسافرت منه إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه.

حكاية

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال: كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد، فأوقدنا ناراً عظيمة، وأحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين: يصلح لهذه النار ما يشوى فيها. فقال أحد الفقراء ممن تزدرية الأعين ولا يعبأ به: إني كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم، فرأيت بمقربة منه حار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب، وأظنه لا يقدر على الحراك، فلو ذهبتم إليه لقدرم عليه وشويتم لحمه في هذه النار. قال: فقمنا إليه في خمسة رجال، فلقيناه كما وصف إلينا، فقبضناه وأتيناه به أصحابنا، وذبحناه وشوينا لحمه في تلك النار، وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده، ولا وقعنا له على أثر، فطال عجبنا منه. ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك. وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية. وبها من حب الملوك (١)

(١) ثمار الكرز.

ما ليس في سواها . وبها يصنع الدبس المنسوب إليها وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها ، فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس . وهي كثيرة الألبان ، وتجلب منها إلى دمشق ، وبينها مسيرة يوم للمجدّة وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني ، كثيرة الفواكه ويغدون منها إلى دمشق ، ويصنع ببعلك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره ، ويصنع بها أواني الخشب ، وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، وهم يسمون الصحف بالدسوت . وربما صنعوا الصحف وصنعوا صحيفة أخرى تسع في جوفها ، وأخرى في جوفها ، إلى أن يبلغوا العشرة ، يخيل لرائيها أنها صحيفة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون منهن عشرة ، واحدة في جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل في حزامه ، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعة ، وكان دخولي لبعلبك عشية النهار . وخرجت منها بالغد ، ولفرط اشتياقي إلى دمشق وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابية ، ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جلالاً ، وكل وصف ، وإن طال ، فهو قاصر عن محاسنها . ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال : وأما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام متى استقريناها^(١) ، وعروس المدن التي اجتلبناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلّت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجل تزين ،

(١) تتبناها لمعرفة خواصها ومزاياها .

وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى ربوة منها ذات قرار ومعين^(١) وظل ظليل، وماء سلسبيل: تنساب مذانبه انسياب الأرقام بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، وقد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظماء. فتكاد تناديك بها الصم والصلاب: اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب. وقد أهدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والآكام بالثمر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، وكل موضع لحظت بجهااتها الأربع نصرته اليانعة قيد البصر ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي تسامياها وتحاذيها. قال ابن جزري: وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال:

إن تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور فاغتمها عشية وضحاها

وذكر شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي، نزيل تونس: نص كلام ابن جبير، ثم قال: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد. وتتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا وإن لم تكن له بها إقامة. فيعرب عنها بحقيقة وعلامة. ولا وصف ذهبيات أصيلها. وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان جفولها المنوعات. ولا أوقات شرورها المنبهات، وقد اختص من قال: ألفتيتها كما تصف الألسن. وفيها ما

(١) القول بأن دمشق هي الربوة ذات القرار والمعين التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة «المؤمنون» في الآية رقم ٥ هو أحد أقوال أربعة بقيتها أنها مصر أو الرملة أو بيت المقدس، وأظهر الأقوال وأرجحها هو الأخير.

تشتهيه الأنفـس وتلذ الأعين. قال ابن جزي: والذي قالته الشعراء في وصف
محاسن دمشق لا يحصر كثرة. وكان والدي رحمه الله كثيراً ما ينشد في وصفها
هذه الأبيات، وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى:

دمشق بنا شوق إليها مبرح وإن لـج واشٍ أو ألح عذولُ
بلاد بها الحصباءُ دُرٌّ وتربها عبيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شمولُ
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصحّ نسيم الروض وهو عليلُ

وهذا من النمط العالي من الشعر. وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي:

الشام شامة وجنة الدنيا كما إنسانٌ مقلتها الغضيفة جلقُ
من أسها لك جنة لا تنقضي ومن الشقيق جهنم لا تحرقُ
وقال أيضاً فيها:

أما دمشق فجناتٌ معجّلةٌ للطالبيين بها الولدانُ والحورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمرٌ إلا يغنيه قُمريٌّ وشحرورُ
يا حبذا ودروعُ الأء تنسجها أناملُ الريحِ إلا أنها زورُ

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك. وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف
الأسدي:

سقى دمشق الله غيثاً مُحسناً من مستهلّ ديمة دهاقها
مدينة ليس يُضاهي حُسْنُها في سائر الدنيا ولا آفاقها
توَدُّ زوراءَ العراقِ أنها منها ولا تُعزّي إلى عراقها
فأرضها مثلُ السماء بهجةٌ وزهرها كالزهرِ في إشراقها
نسيمُ روضها متى ما قد سرى فكأخا الهموم من وثاقها

قد رتع الربيع في ربوعها وسيقت الدنيا إلى أسواقها
لا تسأم العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا استنشاقها
ومما يناسب هذا للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي فيها من قصيدة، وقد
نسبت أيضاً لابن المنير:

يا برق هل لك في احتمال تحية عذبت فصارت مثل مايك سلسلا
باكر دمشق بمشق الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلاً
وأجر بجيرون ذيولك واختصص مغنى تازر بالعلا وتسربلاً
حيث الحيا الربيعي محلول الحيا والوابل الربيعي مفري الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور
الدين:

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا مكماً وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها لكنهما بظلال الدوح تستر
وكل واد به موسى يفجره وكل روض على حافته الخضر
وقال أيضاً فيها:

خيم بجلق بين الكاس والوتر في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في أمراى محاسنه وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها واسمع إلى نغمة الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشراً دعني فإنك عندي سوقة البشر
وقال أيضاً فيها:

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب

لله أيامُ السبوتِ بها ومنظرها العجيبُ
أنظر بعينك هل ترى إلا محبباً أو حبيبُ
في موطنٍ غنّى الحمام به على رقص القضيّبُ
وغدتُ أزاهرُ روضه تختالُ في فرح وطيبُ

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، إنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار، بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل، وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع إلى كلام الشيخ أبي عبد الله.

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه، وكان الذي تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان. ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع، فبعث إليه اثني عشر ألف صانع. وكان موضع المسجد كنيسة. فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف، فانتهى إلى نصف الكنيسة. ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحاً، فانتهى إلى نصف الكنيسة. فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة. فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم أن يبيعوا له كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض، فأبوا عليه. فانتزعها من أيديهم. وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجن، فذكروا ذلك للوليد فقال: أنا أول من يجن في سبيل الله، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه. فلما رأس المسلمون

ذلك تتابعوا على الهدم. وأكذب الله زعم الروم. وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفيسفاء، تخالطها أنواع الأصبغة الغربية الحسن، وذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، وهي ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وعدد شمسات الزجاج الملون الذي فيه أربع وسبعون. وبلاطاته الثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة. وقد قامت على أربع وخسين سارية، وثمانى أرجل حصية، تتخللها، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها. وهي ثقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرًا طائرًا، والقبة رأسه، وهي من أعجب مباني الدنيا.

ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلد، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية، سعة كل بلاط منها عشر خطى. وبها من السواري ثلاث وثلاثون، ومن الأرجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع، وهو من أجل المناظر وأتمها حسنًا، وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا، فمن قارىء ومحدث وذاهب. ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة وإذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبًا له أسرع كل منها نحو صاحبه وقتل رأسه. وفي هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها في غربيه، وهي أكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين. وهي قائمة على ثماني سواري من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص.

ويقال: إن مال الجامع كان يخترن بها. وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة. والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى، إلا أنها أصغر منها قائمة على ثمان من سواري الرخام، وتسمى قبة زين العابدين. والقبة الثالثة في وسط الصحن، وهي صغيرة

مثمثة من رخام عجيب محكم الإلصاق، قائمة على أربع سوارٍ من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس، يمج الماء إلى علو، فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين. وهم يسمونهم قفص الماء. ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب. وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال: إن عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنالك.

وفي قبة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيه المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام. وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهناك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئاً. وعن يسار المقصورة محراب الصحابة. ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع في الإسلام - وفيه يؤم إمام المالكية - وعن يمين المقصورة محراب الخنفية وفيه يؤم إمامهم، يليه محراب الخنابلة وفيه يؤم إمامهم. ولهذا المسجد ثلاث صوامع إحداها بشرقيه، وهي من بناء الروم. وبابها داخل المسجد، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضأون.

والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم.

والصومعة الثالثة بشماله، وهي من بناء المسلمين. وعدد المؤذنين به سبعون مؤذناً. وفي شرقي المسجد صومعة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزبالعة السودان. وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم فيه مكتوب بالأبيض: ﴿يا زكريا إنا

نشارك بسلام اسمه يحيى ﴿١﴾ وهذا المسجد شهير الفضل. وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة. وفي الأثر عن النبي ﷺ أنه قال: « يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة ». ويقال: إن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام، وأن قبره به. وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له: الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر ﷺ. ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلاً من الزمان، كما سنذكره. والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سبعاً من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن. وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجري لهم وهم نحو ستمائة إنسان. ويدور عليهم كاتب الغيبة، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته. وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر، لا يفترقون عن ذلك. ويتوضأون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها. وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك، وفي هذا المسجد أربعة أبواب: باب قبلي يعرف باب الزيادة، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم، ومنه يذهب إلى دار الخيل. وعن يسار الخارج منه سباط الصفارين، وهي سوق عظيمة تمتد مع جدار المسجد القبلي، من أحسن أسواق دمشق. وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه، وكانت تسمى الخضراء. فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقاً. وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد، ويسمى باب جيرون. وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم

(١) مريم: ٧.

طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال. وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه. وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبه ماء جارٍ. وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجدوع طوال وبجانبها هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم. وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهرين والكتيبين وصناع أواني الزجاج العجيبة. وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود، منها دكان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب. يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للأنكحة من قبل القاضي، وسائر الشهود مفترقون في المدينة. وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد. وفي الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها، تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة، منظره عجيب. وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً. ويقال: إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات. والباب الغربي يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية. وله دهليز فيه حوانيت للشاعين، وسماط لبيع الفواكه. وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء. وتحت الدرج سقائتان عن يمين وشمال مستديرتان. والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين، وله دهليز عظيم. وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية، في وسطها صهريج ماء. ولها مظاهر يجري فيها الماء. ويقال: إنها

كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة .

ذكر الأئمة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر إماماً . أولهم الشافعية ، وكان في عهد دخولي إليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد ، وسكنه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية . وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية ، بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت ديناً عليه بدمشق . وإذا سلم إمام الشافعية من صلواته أقام للصلاة إمام مشهد علي ، ثم إمام مشهد الحسين ثم إمام مشهد الكلاسة ثم إمام مشهد أبي بكر ثم إمام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ثم إمام المالكية . وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي ، القرطبي الأصل ، الغرناطي المولد ، نزيل دمشق . وهو يتناوب الإمامة مع أخيه رحمهما الله . ثم إمام الحنفية ، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ، وهو من كبار الصوفية . وله شياخة الخانقاه الخاتونية ؛ وله أيضاً خانقاه بالشرف الأعلى . ثم إمام الحنابلة وكان ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراء بدمشق . ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل ، وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر الجامع المبارك .

ذكر المدرسين والمعلمين به

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم. والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة. وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً. وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقي الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً. ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك زاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره. ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي، ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح. ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه إلى أبي اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق، فامتنع من ذلك. ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء. هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفاً من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوي وهو من كبار الفقهاء. ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين علي السخاوي رحمة الله عليهم أجمعين.

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني. وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين، خطيب الفيوم، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء. وهو شيخ شيوخ الصوفية، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي، ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية. وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني. وكان شديد السطوة. وإليه تحاكم النساء

وأزواجهن. وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الخنفي أنصف من نفسه قبل الوصول إليه. وأما قاضي الخنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله ﷺ لما توجه للحجاز الشريف.

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الخنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون. إلا أن في عقله شيئاً. وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظمهم على المنبر. وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء، ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله. فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً. وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه البحر المحيط، في نحو أربعين مجلداً. ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية. وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرت يوم الجمعة^(١) وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل

(١) يظهر من خلال كلام ابن بطوطة تحامله الشديد على شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، وتضاربه في كلامه، فبينما يصفه بأنه من كبار الفقهاء الخنابلة يقول: إلا أن في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، فكيف يتفق أن يكون من كبار فقهاء الخنابلة وموضع تعظيم أهل دمشق مع أن في عقله شيئاً؟ ثم إنه يزعم أنه حضره يوم الجمعة يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم وأن من جملة كلامه: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، يزعم هذا رغم أنه لم يصل دمشق إلا في يوم الخميس تاسع رمضان، وابن تيمية اعتقل وسجن بقلعة دمشق - باتفاق المؤرخين - في يوم الإثنين سادس عشر شعبان، جنبنا الله الزلل.

درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به. فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك. فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم. فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمر منكرة، منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمة إلا طلقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيباً لا يقصر الصلاة، وسوى ذلك ما يشبهه، وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة، فسجن بها حتى مات في السجن

مرحومكم له السلام كمالى عرض عنك . سرتمنى ابن المولى

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس، أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة. وتقابلها المدرسة الظاهرية، وبها قبر الملك الظاهر، وبها جلوس نواب القضاة. ومن نوابه فخر الدين القبطي وكان والده من كتاب القبط وأسلم. ومنهم جمال الدين بن جملة، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك، وعزل لأمر أوجب عزله.

حكاية

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي. وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه. فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء، وحضر القضاة الأربعة. فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية. فقال

له ظهير الدين: كذبت. فأنف القاضي من ذلك وامتعض له. فقال للامير: كيف يكذبني بحضرتك؟ فقال له الأمير: احكم عليه، وسلمه إليه وظنه انه يرضى بذلك فلا يناله بسوء. فأحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط، وطيف به على حمار في مدينة دمشق، ومنادٍ ينادي عليه، فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة، وهكذا العادة عندهم. فبلغ ذلك ملك الأمراء، فأنكره أشد الإنكار، وأحضر القضاة والفقهاء، فأجمعوا على خطأ القاضي، وحكمه بغير مذهبه. فإن التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد. وقال قاضي المالكية شرف الدين: قد حكمت بتفسيقه فكتب إلى الملك الناصر بذلك، فعزله. وللحنفية مدارس كثيرة. وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين، وبها يحكم قاضي الحنفية. وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية، وبها سكن قاضي قضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، والمدرسة الشراشبية عمرها شهاب الدين الشراشبي التاجر، وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها النجمية.

ذكر ابواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب، منها باب الفراديس، ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير. وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء، فمن بعدهم.

قال محمد بن جزي: لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله:

دمشق في أوصافها جنة خلدٍ راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين باب الحايية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية، وقبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم أجمعين، وقبر أويس القرني، وقبر كعب الأحبار رضي الله عنها. ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة إلى الشام، فتوفي في أثناء الطريق في بركة لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره، فنزلوا، فوجدوا حنوطاً وكفنوا وماء، فعجبوا من ذلك، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه. ثم ركبوا فقال بعضهم: كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر. قال ابن جزي: ويقال: إن أويساً قتل بصفين مع علي عليه السلام، وهو الأصح إن شاء الله ويلي باب الحايية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله ﷺ، وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب.

حكاية في سبب تسميته بذلك

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط، وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة. ويقال: إن كل واحد منها كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساءً فيرد عليه الآخر. وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته، فلما كان في إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقاً منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعاً بالموقف الكريم بعرفة. ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان، فتفاوضا الكلام. وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له أرسلان عن أمرك ياسيدي آتية به. فأذن له. فذهب من حينه وأتاه به ووضع بين أيديها،

فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازاً أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء. وبغري دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء. فيها قبر أبي الدرداء وزوجة أم الدرداء، وقبر فضالة بن عبيد، وقبر وائلة بن الأسقع، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضي الله عنهم أجمعين. وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد ابن عبادة رضي الله عنه، وعليه مسجد صغير حسن البناء، وعلى رأسه حجر مكتوب عليه هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا وبقرية قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام. ويقال: إن اسمها زينب وكنها النبي ﷺ، أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وعليه مسجد كبير، وحوله مساكن، وله أوقاف. ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم. وقبر آخر يقال: إنه قبر سكينه بنت الحسين بن علي عليه السلام. وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشرقيته قبر يقال: إنه قبر أم مريم عليها السلام. وبقرية تعرف بداريتا، غرب البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخولاني، وقبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما. ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام، وهو في قبلي دمشق، على ميلين منها، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة، ويعظمه أهل دمشق تعظيمًا شديدًا. والأقدام التي ينسب إليها هي أقدام مصورة في حجر هناك يقال: إنها أثر قدم موسى عليه السلام. وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى ﷺ في النوم فيقول له ها هنا قبر أخي موسى عليه السلام. وبمقربة من هذا المسجد موضع يعرف بالكثيب الأخضر، وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود.

حكاية

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية، كان آخرها يوم الخميس. ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع، حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلّ وذاكر وداعٍ، ثم صلوا الصبح، وخرجوا جئعاً على أقدامهم، وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة. وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى يانجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، وصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم عندما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد - وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد - وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال إنها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم.

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات، وداخلها أملح من داخل دمشق، لأجل الضيق الذي في سككها. وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية، وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول. وتجري لهم ولن يعلمهم كفايتهم من المآكل

والملابس وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحة كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون: جبل في شمال دمشق، والصالحية في سفحه وهو شهير البركة، لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام. ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق، عليه مسجد كبير، وله صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبا ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه. وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف بِرُص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهملة)، ما بين الحلة وبغداد يقال: إن مولد إبراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام، وبها قبره. ومن مشاهده بالغرب منه، مغارة الدم، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً محرراً وهو الموضع الذي قتله أخوه به، واجتره إلى المغارة. ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر أنه أوى إليها سبعون من الانبياء عليهم السلام، وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم، وكل منهم يؤثر صاحبه به، حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم، وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج توقد فيه ليلاً ونهاراً ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعائة نبي، وبعضهم يقول سبعين ألفاً، وخارج المدينة المقبرة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين

وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال: إنها مدفون سبعين نبياً وقد عادت قراراً للواء ونزهت من أن يدفن فيها أحد^(١).

ذكر الربوة والقرى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين، ومأوى المسيح عيسى وأمه عليها السلام. وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك، مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير، وإزاءها بيت يقال: إنه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس إلى الصلاة فيها. وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وساقية حسنة، ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بمحوض من رخام، ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق، وبها منابع مياهها، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار، كل نهر أخذ في جهة، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم، وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة، وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد، كالغار الكبير، وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة، وهي مخاطرة

(١) لا أدري كيف انساق ابن بطوطة وراء الخرافات والأكاذيب التي تتناقلها العوام عن دمشق، وذكر ما يزعمون من ولادة إبراهيم الخليل عليه السلام فيها ومولده بالعراق لا في دمشق وذكر كذلك ما يزعمون من كهف آدم، ومغارة الدم وصلاة عدد من الأنبياء فيها: ومدفن الآلاف الكثيرة من الأنبياء في جامع قاسيون، إن مكة أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله ليس لها من المناقب وليس بها من المشاهد ما زعموه في دمشق، وكان عليه ألا يكون حاطب ليل يجمع ويسجل كل ما يصل إلى سمعه، كان عليه أن يحص وينقد، ويستخدم فكره قبل إيراد ما أورده.

عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها . وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى ، فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف . ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع ، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد وبأسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتداننت أشجارها فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيه سقاية رائعة الحسن ومطهرة ، فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة إلى قبيلة كلب ابن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت إقطاعاً لهم وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزري وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب ، وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم ، وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الأهبة وكانت فيها كنيسة يقال : إن آزر كان يجلب فيها الأصنام فيكسرهما الخليل عليه السلام ، وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التثام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون

ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورسفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

حكاية

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم، إجمع شقفها واحلها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا. وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد، يجيء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق، تجري له النفقة والكسوة فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزرى بالمروءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب آخر، من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبتة فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من

التجار وكبار السوق^(١) صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم او في مسجد، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعاً ، ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني أن أفطر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليالٍ ثم أصابني الحمى فغبت عنه ، فبعث في طلبي ، فاعتذرت بالمرض ، فلم يسعني عذراً^(٢) فرجعت إليه وبت عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي : احسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيب وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهي الطبيب من دواء أو غذاء ، وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني .

وقد كان ما عندي من النفقة نغد ، فعلم بذلك فاكترى لي جالاً وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم ، جزاه الله خيراً . وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عاداته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته . وكان يلزمه منهم جماعة . وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره .

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي ، له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار ، وهو ذو مال عريض وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسامه اذ ذاك بالصاحب . ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت

(١) المراد بالسوق هنا : العاملون في الأسواق : وليس الرعاع كما يتبادر إلى الذهن .

(٢) أي : لم يقبل اعتذاري .

أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم، ويخفى قبره. وعين أوقافاً عظيمة لقراء يقرأون سبعاً من القرآن الكريم في كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبداً، وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلداً ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتجئين البركة، ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات، ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهاال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحاج، باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه، ولهم أيضاً في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة، والقراء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك، فإذا أموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنة. ولأهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضاً زائدة على ذلك، وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة، ويكسى القبر

بالأكسية الفاخرة، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والأترج، ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها، ويجعلون صيواناً يظلل الناس نحوه، ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون، ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءاً، فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعوا القاضي ويقوم قائماً ويخطب خطبة معدة لذلك، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه، ويذكر السلطان داعياً له، وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم إلى سمت الجهة التي بها السلطان، ثم يقعد القاضي، ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صباً يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين، ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولاً بالماء فيسقون الناس منه، ويبدأون بالقاضي ومن يليه، ثم يؤتى بالتنبول، وهم يعظمونه ويكرمونه من يأتي لهم به، فإذا أعطى السلطان أحداً منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع. وإذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا في ذلك اليوم، فيأخذ القاضي، أو من يقوم مقامه، أوراقاً منه فيعطئها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذٍ وسيأتي ذكر التنبول إن شاء الله تعالى.

ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها

سمعت بجامع بني أمية، عمره الله بذكره جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الأصاغر بالأكابر، شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين، مقرئ الصالحي، المعروف بابن الشحنة الحجازي، في أربعة عشر مجلساً، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه، بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ

الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي ، الإشبيلي الأصل ،
 الدمشقي ، في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغرل بن عبدالله بن الغزال
 الصيرفي ، سماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب ، من الشيخ الإمام
 سراج الدين أبي عبدالله الحسين ابن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن
 المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي ، في أواخر شوال وأوائل ذي
 القعدة من سنة ثلاثين وستائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ،
 وبإجازته في جميع الكتاب من الشيخين : أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن
 الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ ، وعلي بن أبي بكر بن عبدالله بن روبة
 القلانسي العطار البغدادي ومن باب غيرة النساء ووجدهن ، إلى آخر الكتاب من
 أبي المنجا عبدالله بن عمر بن علي بن زيد الليثي الخزاعي البغدادي ، بسماع
 أربعتهم من الشيخ شديد الدين أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن
 إبراهيم السجزي الهروي الصوفي ، في سنة ثلاث وخسين وخمسة ببيغداد قال :
 أخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن
 محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادبي قراءة عليه ، وأنا
 أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة ، قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد
 ابن حوبة بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءة عليه ، وأنا اسمع في صفر سنة
 إحدى وثمانين وثلاثمائة ، قال : أخبرنا عبدالله بن يوسف بن مطر بن صالح بن
 بشر بن إبراهيم الفربري قراءة عليه ، وأنا اسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر ،
 قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، رضي الله عنه سنة
 ثمان وأربعين ومائتين بفربر ، ومرة ثانية بعدها ، وبعدها سنة ثلاث وخسين . ومن
 أجازني من أهل دمشق إجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور ، سبق إلى
 ذلك وتلفظ لي به - ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن
 محمد المقدسي ، ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخسين وستائة - ومنهم الشيخ

الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي - ومنهم إمام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن ابن يوسف المزني الكلي، حافظ الحفاظ، ومنهم الإمام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشفاعي، والشيخ الإمام الشريف محيي الدين بن يحيى بن علي العلوي، ومنهم الشيخ الإمام المحدث مجد الدين القاسم بن عبدالله بن أبي عبدالله بن المعلی الدمشقي، ومولده سنة أربع وخمسين وستائة. ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الإسكندري. ومنهم الشيخ الإمام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبدالله ابن تمام والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبدالله، ابنا ابراهيم بن عبدالله بن أبي عمر المقدسي، والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراي، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق. ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الراكب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة، فأخذت في الحركة معهم، وكان أمير الراكب سيف الدين الجوبان، من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الأذرعى الحوراني، وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين العماري، وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة، أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة^(١) وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى، وهي صغيرة ومن عادة الراكب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه - وإلى

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان أن أسماها: الزراعة، وأن موقعها بين حران وقلعة جعبر، وتعرف اليوم باسم أزرع، وهي جنوبي الصنمين تبعد عنها ١٥ ميلاً.

بصري وصل رسول الله ﷺ قبل البعث في تجارة خديجة، وبها مبرك ناقته قد بني عليه مسجد عظيم، ويجتمع أهل حوران بهذه المدينة، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا)^(١)، ويقيمون عليها يوماً، ثم يرحلون إلى اللجون، وبها الماء الجاري ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب. والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك، وإليه يلجؤون في النوائب وله لجأ الملك الناصر، لأنه ولي الملوك وهو صغير السن، فاستولى على التدبير مملوكه سلالر النائب عنه، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج، ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج، فلما وصل عقبة أيلة، لجأ إلى الحصن، وأقام به أعواماً إلى أن قصده أمراء الشام، واجتمعت عليه المماليك وكان الملك في تلك المدة بيبرس الششكير^(٢)، وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر، وهو الذي بنى الخانقاه البيرسية، بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر، ففر بيبرس إلى الصحراء، فتبعته العساكر وقبض عليه، وأتي به إلى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل. وقبض على سلالر، وحبس في جب حتى مات جوعاً. ويقال: إنه أكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك. وأقام الراكب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية، وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود. وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج، وهي حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به، ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله ﷺ. وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء. فلما نزلها رسول الله

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان أن اسمها: زيزاء، وهي من قرى البلقاء.

(٢) يعرف في كتب التاريخ بالجماشكير.

ﷺ وتوضأ منها، جادت بالماء المعين. ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله
 ﷺ. ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك، أخذوا أسلحتهم،
 وجرّدوا سيوفهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخل بسيوفهم، ويقولون: هكذا
 دخلها رسول الله ﷺ. وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم،
 ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمل واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين
 العلا وتبوك. ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين، ولهم
 أحواض مصنوعة من جلود الجواميس، كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمل،
 ويملأون الرّوايا والقرب. ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال
 أصحابه، ويملأ رواياهم. وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جملة
 وملء قربته، بشيء معلوم من الدراهم. ثم يرحل الركب من تبوك، ويجدون
 السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية. وفي وسطها الوادي الأخضر: كأنه
 وادي جهنم، أعادنا الله منها. وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب
 ريح السموم التي تهب، فانتشفت المياه، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار، ومات
 مشترها وبائعها. وكتب ذلك في بعض صخر الوادي. ومن هنالك ينزلون بركة
 المعظم، وهي ضخمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب. ويجتمع بها ماء
 المطر في بعض السنين، وربما جف في بعضها، وفي الخامس من أيام رحيلهم عن
 تبوك يصلون إلى بئر الحجر حجر ثمود، وهي كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد
 من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله ﷺ حين مر بها في غزوة
 تبوك، فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد. ومن عجن به أطعمه الجمل.
 وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة، لها عتب منقوشة يظن
 رائيتها أنها حديثة الصنعة، وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت. إن في ذلك
 لعبرة، ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك، وبينها أثر مسجد
 يصلي الناس فيه، وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه. والعلا قرية كبيرة

حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أصحاب أمانة، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام، لا يتعدونها، ويباعون الحجاج الزاد وسواه. ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة. هتت السنين على الركب فلم يخلص منها إلا اليسير. وتعرف تلك السنة سنة الأمير الياقي، ومنه ينزلون هدية، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به، فيخرج الماء وهو زعاق. وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف.

طَيِّبَةُ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرَفٌ وَكِرَامٌ

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حنّ إلى رسول الله ﷺ، وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً، وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما. وانصرفنا إلى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيعة، داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها، وأن يجعلنا ممن قبّلت زيارته، وكُتبت في سبيل الله سفرته.

ذكر مسجد رسول الله ﷺ وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرية به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبليّة مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله. وهي منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان. وفي الصفة القبليّة منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم. وهنالك يقف الناس مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة، فيسلمون وينصرفون يميناً إلى وجه أبي بكر الصديق، ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله ﷺ، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب، ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنها. وفي الجوفي من الروضة المقدسة، زادها الله طيباً، حوض صغير مرخم، في قبلته شكل محراب، يقال: إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسليماً، ويقال أيضاً: هو قبرها، والله أعلم. وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الأرض، مقفلة على سرداب له مدرج يفضي إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد، وعلى ذلك السرداب كان طريق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى داره، ولا شك أنه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث، وأمر النبي ﷺ بإبقائها، وسد ما سواها. وبإزاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر، ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وبشرقي المسجد الكريم دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، وبمقربة من باب السلام سقاية، ينزل إليها على درج، مأوها معين، وتعرف بالعين الزرقاء.

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الإثنين ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الأول، فنزل على بني عمرو بن عوف، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة، وقيل أربع عشرة ليلة، وقيل أربع ليالٍ، ثم توجه إلى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده. وكان موضع المسجد مربداً لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار. وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين. وقيل: كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه، فابتاع رسول الله ﷺ ذلك المريد، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه. وقيل: إنهما وهباه لرسول الله ﷺ فبنى رسول الله ﷺ المسجد، وعمل فيه مع أصحابه، وجعل عليه حائطاً، ولم يجعل له سقفاً ولا أساطين، وجعله مربعاً، طوله مائة ذراع، وعرضه مثل ذلك. وقيل: إن عرضه كان دون ذلك. وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة. فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في تسقيفه. فأقام له أساطين من جذوع النخل، وجعل سقفه من جريدها. فلما أمطرت السماء وكف المسجد. فكلم أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ في عمله بالطين. فقال: كلا عريش كعريش موسى، أو ظله كظلة موسى، والأمر أقرب من ذلك.

قيل: وما ظلة موسى؟ قال ﷺ: كان إذا قام أصاب السقف رأسه. وجعل للمسجد ثلاثة أبواب. ثم سد باب الجنوب منها حين حولت القبلة، وبقي المسجد على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وحياة أبي بكر رضي الله عنه. فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله ﷺ. وقال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ينبغي أن نزيد في المسجد ما زدت فيه. فأنزل أساطين الخشب، وجعل مكانها أساطين اللبن، وجعل

الأساس حجارة إلى القامة، وجعل الأبواب ستة، منها في كل جهة ما عدا القبلة بابان، وقال: في باب منها ينبغي أن يترك هذا للنساء فما رُمي فيه. حتى لقي الله عز وجل، وقال: زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة، لم يزل مسجد رسول الله ﷺ وأراد عمر أن يدخل في المسجد موضعاً للعباس عم رسول الله ﷺ ورضي عنها، فمنعه منه. وكان فيه ميزاب يصب في المسجد، فنزعه عمر. وقال: إنه يؤدي الناس، فنازعه العباس، وحكماً بينهما أبي بن كعب رضي الله عنها، فأتيا داره فلم يأذن لهما إلا بعد ساعة، ثم دخلا إليه، فقال: كانت جاريتي تغسل رأسي، فذهب عمر ليتكلم، فقال له أبي: دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله ﷺ، فقال العباس، خطة خطها لي رسول الله ﷺ، وبنيتها معه، وما وضعت الميزاب إلا ورجلاي على عاتقي رسول الله فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها في المسجد. فقال أبي: إن عندي من هذا علماً. سمعت رسول الله ﷺ يقول: أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس. وكان فيه بيت لثيمين فراودها على البيع فأبى. ثم راودها فباعاه. ثم قاما بالغين فردا البيع، واشتراه منها. ثم رداه كذلك. فاستعظم داود الثمن. فأوحى الله إليه إن كنت تعطي من شيء فهو لك؛ فأنت أعلم. وإن كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا. وإن أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لي، وقد حرمت عليك بناءه.

قال: يا رب فأعطه سليمان. فأعطاه سليمان عليه السلام. فقال عمر: من لي بأن رسول الله ﷺ قاله؟ فخرج أبي إلى قوم من الأنصار، فأثبتوا له ذلك. فقال عمر رضي الله عنه أما إني لو لم أجد غيرك أخذت قولك، ولكنني أحببت أن أثبت. ثم قال للعباس رضي الله عنه: والله لا ترد الميزاب إلا وقدماك على عاتقي. ففعل العباس ذلك. ثم قال: أما إذا أثبتت لي، فهي صدقة لله، فهدمها عمر، وأدخلها في المسجد. ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه، وبناه بقوة وباشره بنفسه، فكان يظل فيه نهاره، وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من

جهاته إلا جهة الشرق منها، وجعل له سواري حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص، وسقفه بالساج، وصنع له محراباً.

وقيل: إن مروان هو أول من بنى المحراب. وقيل: عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد - ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك. تولى ذلك عمر بن عبد العزيز، فوسعه وحسنه وبالغ في إتقانه، وعمله بالرخام والساج المذهب. وكان الوليد بعث إلى ملك الروم: أريد أن أبني مسجد نبينا ﷺ، فأعني فيه. فبعث إليه الفعلة، وثمانين ألف مثقال من الذهب. وأمر الوليد بإدخال حجر أزواج النبي ﷺ فيه، فاشترى عمر من الدور ما زاد في ثلاث جهات من المسجد. فلما صار إلى القبلة، امتنع عبید الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة، ودار بينهما الكلام، حتى ابتاعها عمر، على أن له ما بقي منها، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقاً إلى المسجد، وهي الخوخة التي في المسجد، وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه، وكانت إحداها مطلة على دار مروان. فلما حج سليمان ابن عبد الملك نزل بها، فأطل عليه المؤذن حين الأذان. فأمر بهدمها، وجعل عمر للمسجد محراباً.

ويقال: هو أول من أحدث المحراب. ثم زاد فيه المهدي بن أبي جعفر المنصور. وكان أمرهم بذلك، ولم يقض له، وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق، ويقول: إنه إن زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم. فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه. فكتب إليه: إني قد عرفت الذي أردت، فاكفف عن دار عثمان وأمر أبو جعفر أن يطلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب، تكون في الصحن، لتكن المصلين من الحر، وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع. فبلغه المهدي إلى ثلاثمائة ذراع، وسوى المقصورة بالأرض، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين، وكتب اسمه على مواضع من المسجد. ثم أمر الملك

المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام - فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر. وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت، وأجرى إليها الماء. وأراد أن يبنى بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك، فلم يتم له، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة. وسذكر إن شاء الله. قبله مسجد رسول الله ﷺ، قبله قطع لأنه ﷺ أقامها. وقيل: أقامها جبريل عليه السلام. وقيل: كان يشير جبريل له إلى سمتها وهو يقيمها. وروي أن جبريل عليه السلام أشار إلى الجبال، فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة. فكان ﷺ يبنى وهو ينظر إليها عياناً. وبكل اعتبار فهي قبله قطع وكانت القبلة أول ورود النبي ﷺ المدينة إلى بيت المقدس. ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً. وقيل: بعد سبعة عشر شهراً.

ذكر المنبر الكريم

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد، فلما صنع له المنبر وتحول إليه حنّ الجذع حين الناقه إلى حوارها^(١). وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً نزل إليه فالتزمه فسكن. وقال: لو لم ألتزمه لحنّ إلى يوم القيامة. واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم. فروي أن تميم الداري رضي الله عنه هو الذي صنعه. وقيل: إن غلاماً للعباس رضي الله عنه صنعه، وقيل: غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك في الحديث الصحيح. وصنع من طرفاء الغابة، وقيل من الأثل. وكان له ثلاث درجات. فكان رسول الله ﷺ يقعد على علياهن، ويضع رجليه الكريميتين في وسطاهن. فلما ولي أبو بكر الصديق

(١) الحوار بضم الحاء: ولد الناقه من وقت ولادته إلى وقت فطامه، وجمعه: أخوذة، وجران.

رضي الله عنه قعد على وسطاهن ، وجعل رجله على أولاهن . فلما ولي عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجله على الأرض ، وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدراً من خلافته ، ثم ترقى إلى الثالثة . ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام ، فضج المسلمون . وعصفت ريح شديدة ، وخسفت الشمس ، وبدت النجوم نهراً ، وأظلمت الأرض ، فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلكه ، فلما رأى ذلك معاوية تركه ، وزاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات

ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله ﷺ

وكان الإمام بالمسجد الشريف في عهد دخولي إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ ، عز الدين الواسطي ، نفع الله به ، وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري .

حكاية

يذكر أن سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ، ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر ، فرأى رسول الله ﷺ في النوم ثلاث مرات ، في كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك وخرج ، فمات بموضع يقال له : سويس^(١) ، على مسيرة ثلاث من مصر ، قبل أن يصل إليها ، نعوذ بالله من سوء الخاتمة . وكان ينوب عنه الفقيه

(١) هي الآن مدينة السويس إحدى محافظات مصر .

أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله، وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة: أبو محمد عبد الله مدرس المالكية، ونائب الحكم، وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس، ولهم بها حسب وأصالة. وتولي الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي من أهل مصر، وكان قبل ذلك قاضياً بمحصر الكرك.

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان، وصور نظاف، وملابس ظراف، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو في هيئة الأمراء الكبار، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتى إليهم بها في كل سنة، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدث الفاضل جمال الدين المطري، من مطرية^(١) قرية بمصر، وولده الفاضل عفيف الدين عبدالله، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس، قديم المجاورة، وهو الذي جب نفسه خوفاً من الفتنة.

حكاية

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطي كان خديماً لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي، وكان الشيخ حسن الظن به، يطمئن إليه بأهله، ويتركه متى سافر بداره، فسافر مرة، وتركه على عادته بمنزله، فعلمت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه، فقال: إني أخاف الله ولا أخون من ائتمني على أهله وماله.

(١) هي الآن مدينة المطرية بمحافظة الدقهلية بمصر.

فلم تنزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة فجبّ نفسه، وغشي عليه، ووجده الناس على تلك الحالة، فعالجوه حتى برىء، وصار من خدام المسجد الكرام، ومؤذناً به، ورأس الطائفين به. وهو باقٍ بقيد الحياة إلى هذا العهد.

ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، صابراً محتسباً، وكان ربما جاور بمكة المعظمة، رأيتُه بها في سنة ثمانٍ وعشرين، وهو أكثر الناس طوافاً وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف، والمطاف مفروش بالحجارة السود: وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحمأة. ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه. وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين، ورأيتُه يوماً يطوف، فأحببت أن أطوف معه فوصلت المطاف، وأردت استلام الحجر الأسود، فلحقني لهب تلك الحجارة، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر، فما وصلته إلا بعد جهد عظيم، ورجعت فلم أطف ورجعت أجعل نجادي على الأرض وأمشي عليه، حتى بلغت الرواق. وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد ابن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي. وكان يطوف كل اسبوع سبعين طوافاً، ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر. وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه. ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف، ومنهم أبو مهدي بمكة عيسى بن حزر بن المكناسي.

حكاية

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين، وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين، فلما سعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً ونزلوا عنه، تأخر أبو مهدي عن الجماعة، ورأى طريقاً في الجبل، فظنه قصيراً فسلك عليه، ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانظروه فلم يأت، فتطلعوا فيما حوهم فلم يروا له أثراً فظنوا أنه سبقهم. فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى، ومضى عيسى في طريقه، فأفضى به إلى جبل آخر، وتاه عن الطريق، وأجده العطش والحر، وتمزقت نعله، فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه إلى أن ضعف عن المشي، واستظل بشجرة أم غيلان^(١). فبعث الله أعرابياً على جمل، حتى وقف عليه: فأعلمه بحاله، فأركبه وأوصله إلى مكة، وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه إليه، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه، وذهبت جلدهما ونبتت لهما جلدة أخرى. وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي أذكره إن شاء الله. ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين، وجاور بمكة في السنة المذكورة. وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد الظهر، وأمّ في التراويح. وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها، وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي.

حكاية: يذكر أن أبا العباس الفاسي تكلم يوماً مع بعض الناس فأنتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب، وعدم حفظه للسانته مركباً صعباً عفا الله عنه، فقال الحسين بن علي بن أبي طالب عليها السلام لم يعقب. فرفع كلامه إلى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جاز الحسني^(٢)، فأنكر

(١) أم غيلان: شجرة السم، من القاموس المحيط.

(٢) في بعض طبعات الكتاب: الحسيني.

كلامه، وبحق إنكاره، وأراد قتله. فكلم فيه فنفاه عن المدينة. ويذكر أنه بعث من اغتاله وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله.

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جاز. وكان قد قتل عمه مقبلاً. ويقال: إنه ترضاً بدمه. ثم إن كبيشاً خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه، فأدركتهم القائلة في بعض الأيام، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وأبناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون: يا لثارات مقبل، فقتلوا كبيش بن منصور صبراً، ولعقوا دمه. وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور، الذي ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسي.

ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقية الغرقد، وهو بشرقي المدينة المكرمة، ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع. فأول ما يلقي الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه، وأمامها قبر إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها وهو المعروف بأبي شحمة، وبإزائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبر عبدالله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبإزائهم روضة فيها قبور أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ويليهما روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وهي قبة

ذاهبة في الهواء بديعة الإحكام، عن يمين الخارج من باب البقيع، ورأس الحسن إلى رجلي العباس عليهما السلام، وقبراهما مرتفعان عن الأرض، متسعان مغشيان بألواح بديعة الالتصاق، مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل. وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم. إلا أنها لا يعرف أكثرها. وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنها وعن ابنها.

ومن المشاهد الكريمة قباء، وهو قبلي المدينة، على نحو ميلين منها والطريق بينهما في حدائق النخل، وبه المسجد الذي أسس على التقوى والرضوان. وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي ﷺ، يتبرك الناس بالصلاة فيه، وفي الجهة القبليّة من صحنه محراب على مصطبة، وهو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ. وفي قبلي المسجد دار كانت لأبي أيوب الأنصاري. ويليهما دور تنسب لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم. وبإزائه بئر أريس، وهي التي عاد ماؤها عذباً لما تفل فيه النبي ﷺ، بعد أن كان أجاجاً، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه.

ومن المشاهد فيه حجر الزيوت بخارج المدينة الشريفة. يقال: إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي ﷺ. وإلى جهة الشمال منه بئر بضاعة. وبإزائها جبل الشيطان، حيث صرخ يوم أحد وقال: قد قتلت نبيكم. وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ عند تحزب الأحزاب، حصن خرب يعرف بحصن العزاب. يقال: إن عمر بناه لعزاب المدينة. وأمامه إلى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين ألفاً^(١). ومن المشاهد

(١) اشترى عثمان رضي الله عنه نصف بئر رومة أولاً لما غالى مالكمها اليهودي في ثمنها، ودعا عثمان =

الكريمة أحد ، وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً :
« إن أحداً جبل يحبنا ونحبه » وهو بجوار المدينة الشريفة ، على نحو فرسخ منها ،
وإبازاته الشهداء المكرمون رضي الله عنهم . وهناك قبر حمزة عم رسول الله ﷺ
ورضي الله عنه ، وحوله الشهداء المستشهدون في أحد رضي الله عنهم ، وقبورهم لقبلي
أحد . وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسجد
ينسب إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة
الفتح على رسوله ﷺ . وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجة أربعة
أيام : وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلّقوا في صحنه حلّقاً ،
وأوقدوا الشمع الكبير . وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونّه ، وبعضهم
يذكرون الله ، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة ، زادها الله طيباً ،
والحداة بكل جانب يترغمون بمدح رسول الله ﷺ . وهكذا دأب الناس في تلك
الليالي المباركة ، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين . وكان
في صحبتي في هذه الوجة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل
يعرف بمنصور بن شكل ، وأضافني بها . واجتمعنا بعد ذلك بجلب وبخارى .
وكان في صحبتي أيضاً قاضي الزيدية شرف الدين قاسم بن شنان ، وصحبني
أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة ، يسمى بعلي بن حجر الأموي .

= رضي الله عنه المسلمين أن يستقوا من البئر في الأيام الخاصة به ، فأخذ المسلمون حاجتهم من
الماء في الأيام الخاصة بعثمان ، ولم يعودوا بحاجة إلى شراء الماء من اليهودي ، فاضطر إلى بيع
نصفها الآخر لعثمان رضي الله عنه بثمان معقول ، فاشتراه ، ووهبها جميعاً للمسلمين .

حكاية

لما وصلنا إلى المدينة كرمها الله، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، ذكر لي علي بن حجر المذكور أنه رأى تلك الليلة في النوم قائلاً يقول له: اسمع مني واحفظ عني:

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه أمتم به يومَ المعادِ من الرّجسِ
وصلتم إلى قبرِ الحبيبِ بطيبةٍ فطوبى لمن يُضحى بطيبةٍ أو يُمسي

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة. ثم رحل إلى مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند، في سنة ثلاث وأربعين، فنزل في جوازي. وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند، فأمر بإحضاره، فحضر بين يديه، وحكى له ذلك، فأعجبه واستحسنه، وقال له كلاماً جميلاً بالفارسية، وأمر بإنزاله، وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب. ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار، وأعطاه فرساً محلي بالسرج واللجام، وخلعة، وعين له مرتباً في كل يوم. وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة، ومولده ببجاية، يعرف هنالك بجمال الدين المغربي. فصحبه علي بن حجر المذكور، وواعده على أن يزوجه بنته. وأنزله بدويرة خارج داره، واشترى جارية وغلماً. وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد. فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب. وأخذاه وهرباً. فلما أتى الدار لم يجد لها أثراً، ولا للذهب. فامتنع من الطعام والشراب، واشتد به المرض أسفاً على ما جرى عليه، فعرضت قضيته بين يدي الملك، فأمر أن يخلف له ذلك، وبعث إليه من يعلمه بذاك، فوجدوه قد مات رحمه الله تعالى. وكان رحيلنا من المدينة، نريد مكة شرفها الله تعالى. فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله ﷺ، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادي العقيق. وهنالك تجردت من مخيط

الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامي وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مفرداً .
ولم أزل مُلبياً في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيت شعب علي عليه
السلام ، وبه نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء ، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم . ويقال : إن
علياً عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء . وهو وادٍ معمور ، فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر
يسكنه الشرفاء الحسينيون وسواهم ، وفيها حصن كبير ، وتواليه حصون كثيرة
وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ، ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ ، وأنجز وعده الكريم ،
واستأصل صنائيد المشركين . وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن
منيع يُدخل إليه من بطن وادٍ بين جبال . وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع
القليب الذي سبج به أعداء الله المشركون . هو اليوم بستان . وموضع الشهداء
رضي الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه
إلى الصفراء ، وبإزائه جبل الطبول ، وهو شبه كتيب الرمل ممتد . ويزعم أهل
تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع
عريش رسول الله ﷺ الذي كان به يوم بدر ، يناشد ربه جلّ وتعالى ، متصل
بسفح جبل الطبول ، وموضع الواقعة أمامه ، وعند نخل القليب مسجد يقال له
مبرك ناقة رسول الله ﷺ . وبين بدر والصفراء نحو بريد في وادٍ بين جبال تطرد
فيه العيون ، وتتصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء ، وهي برية يضل بها
الدليل ، ويذهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاث وفي منتهها وادي رابع ، يتكون

فيه المطر غدراناً يبقى بها الماء زمناً طويلاً، ومنه يحرم^(١) حجاج مصر والمغرب، وهو دون الجحفة. وسرنا من رابع ثلاثاً إلى خليص، ومررنا بعقبة السويق، وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلطاً بالسكر. والأمراء يملأون منه الأحواض، ويسقونها الناس ويذكرون أن رسول الله ﷺ مر بها، ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشربه سويقاً. ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، لها حصن مشيد في قنة جبل. وفي البسيط حصن خرب، وبها عين فوارة صنعت لها أخاديد في الأرض، وسربت إلى الضياع. وصاحب خليص شريف حسني النسب. وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والأدام. ثم رحلنا إلى عسفان، وهي في بسيط من الأرض، بين جبال، وبها آبار ماء معين، تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه. والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليص، وهو مضيق بين جبلين. وفي موضع منه بلاط على صورة درج، وأثر عمارة قديمة. وهنالك بئر تنسب إلى علي عليه السلام، ويقال: إنه أحدثها. وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير. ثم رحلنا من عسفان، ونزلنا بطن مرّ، ويسمى أيضاً مر الظهران^(٢)، وهو وادٍ مخصب كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية. ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة

(١) كان الميقات الأصلي الذي يحرم منه حجاج مصر والمغرب والشام الذين يأتون عن طريق مصر هو الجحفة، وحين خربت بدعوة رسول الله ﷺ أن ينقل الله حمى المدينة إليها انتقل الميقات إلى رابع.

(٢) مر الظهران - بفتح الميم - ويقال له: مرظهران: موضع على مرحلة من مكة بينه وبينها خمسة أميال، وقيل: المر: اسم القرية، والظهران: اسم الوادي.

شرفها الله تعالى . ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك، والنفوس مستبشرة ببلوغ
آمالها مسرورة مجالها ومآلها، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله
تعالى، فوردنا منها على حرم الله تعالى، ومبواً خليله إبراهيم، ومبعث صفيه محمد
ﷺ . ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمناً من باب بني شيبه،
وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيماً، وهي كالعروس تجلي على منصة
الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة
الرضوان . وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلينا ركعتين
بمقام إبراهيم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود،
حيث يستجاب الدعاء، وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له حسبا ورد عن
النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً، ثم سعينا بين الصفا والمروة، ونزلنا هنالك بدار،
بمقربة من باب إبراهيم - والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت
الكريم، وجعلنا ممن بلغنا دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتع أعيننا بمشاهدة
الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم .

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد
المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب،
فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه، ولا يفارقها إلا أسفاً لفراقها، متوهماً
لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفاة عليها، فأرضها المباركة
نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب. حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة
خليله عليه السلام .

والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه
من المشاق ويعانيه من العناء . وكَم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، ويشاهد
التلف في طريقها . فإذا جمع الله بها شمله، تلقاها مسروراً مستبشراً، كأنه لم

يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصباً. إنه لأمر إلهي، وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه. وتعز في بصيرة المستبصرين، وتبدو في فكرة المتفكرين - ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوَّله خير الدارين: الدنيا والأخرى. فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوَّله، ويديم الحمد على ما أولاه. جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته، وربحت في قصدها تجارتها، وكتبت في سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره، بمَنته وكره.

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة، في بطن وادٍ تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان، وهو في جهة الغرب منها. وفي الشمال منها الجبل الأحمر. ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر، وأجياد الأصغر، وهما شعبان والخندمة، وهي جبل، وستذكر. (والمناسك كلها: منى وعرفة والمزدلفة) بشرقي مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها، ويعرف أيضاً بباب العمرة، وهو إلى جهة المغرب، وعليه طريق المدينة الشريفة، ومصر والشام وجدة. ومنه يتوجه إلى التنعيم، وسيذكر ذلك، وباب المسفل، وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم فتح مكة شرفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكياً عن نبيه الخليل بوادٍ غير ذي زرع. ولكن سبقت لها الدعوة المباركة، فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبي لها. ولقد أكلت بها من الفواكة العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة، واللحوم بها

سهان لذيذات الطعوم. وكل ما يفترق في البلاد من السلع، فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر، لطفاً من الله بسكان حرمة الأمين ومجاوري بيته العتيق.

ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد. وهو متسع الساحة. طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمئة ذراع، حكي ذلك الأزرقى، وعرضه يقرب من ذلك. والكعبة العظمى في وسطه. ومنظره بديع. ومرآه جميل. لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله. وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعاً؛ وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف، بأتقن صناعة وأجلها. وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاماً عجيباً كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمئة وإحدى وتسعون سارية ما عدا الجصية التي في دار الندرة المزیدة في الحرم، وهي داخلية في البلاط الآخذ في الشمال. ويقابلها المقام مع الركن العراقي. وفضاؤها متصل، يدخل من هذا البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي^(١) (حنايا) يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون. وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها. وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا. وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوارى جصية. وللخليفة المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنها آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه. وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة.

(١) جمع قوس، وفسرها ابن جزى بالحنايا.

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيماً وتكريماً

والكعبة مائلة في وسط المسجد، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخسون شبراً وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً والطواف إنما هو خارج الحجر وبنائها بالحجارة الصم السمري، قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه، فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجاب الدعاء. وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار، وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة وعضاداته^(١) وعتبه العليا مصفحات بالفضة، وله نقارتان كبيرتان من فضة عليها قفل، ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد النبي ﷺ ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسيّاً شبه المنبر، له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلاً بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما

(١) عضادات الباب: خشبته من جانبيه.

يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة، ودخل البيت وحده، وسد الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل سائر الشيبين، ويسدون الباب أيضاً، ويركعون، ثم يفتح الباب، ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيدي مبسوطة إلى الله، فإذا فتح كبروا ونادوا: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خُطاً وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود، مكتوب فيها بالأبيض، وهي تتلأأ عليها نوراً وإشراقاً، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح، والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير، لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا جاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فأما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

ذكر الميزاب المبارك

والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحجر، وهو من الذهب، وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين. والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة

الدعاء . وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام ، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب ، متصلة برخامة خضراء مستديرة ، وكلتاها سعتها مقدار شبر ، وكلتاها غريبة الشكل رائقة المنظر . وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام ، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسود فارتفاعة عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله ، والصغير يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال : إن القرمطي لعنه الله كسره وقيل : إن الذي كسره سواه ، ضربه بدبوس فكسره ، وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة . وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتنجلي منه العيون حسناً باهراً ، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ، ويود لائمهم أن لا يفارق لثمه ، خاصية مودعة فيه ، وعناية ربانية به وكفى قول النبي ﷺ إنه يمين الله في أرضه^(١) ، نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق^(٢) إليه . وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه ، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة ، كأنها خال في تلك الصحيفة البهية وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله

(١) قال الصنعاني في سبل السلام : وروى الأزرقى بإسناد صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنها : قال : « إن هذا الركن يمين الله عز وجل في الأرض يصافح به عباده مصافحة الرجل أخاه » وأخرج عنه : « الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من امرئ مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه إياه » .

(٢) أي : مشتاق متشوف إليه .

فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاومة الشديدة، وكذلك يصنعون عند دخول الحرم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً وجعل الكعبة الشريفة عن يساره، ومضى في طوافه، ثم يلقي بعده الركن العراقي، وهو إلى جهة الشمال، ثم يلقي الركن الشامي، وهو إلى جهة الغرب، ثم يلقي الركن اليماني، وهو إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الحجر الأسود، وهو إلى جهة الشرق.

ذكر المقام الكريم

إعلم أن بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعاً طوله اثنا عشر شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك، وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى، وبقي ذلك الموضع شبه الحوض، وإليه ينصب ماء البيت الحرام إذا غسل، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه. وموضع المقام الشريف يقابل ما بين الركن العراقي والباب الشريف، وهو إلى الباب أميل، وعليه قبة تحتها اشباك حديد متجاف عن المقام الشريف قدر ما تصل أصابع الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق، والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا، ثم أتى المقام فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (١) وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى إمام الشافعية في الحطيم الذي هنالك.

ذكر الحجر والمطاف

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبراً من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة

(١) البقرة: ١٢٥.

أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر. وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان. وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبراً، وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي، وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته، كما جاءت الآثار الصحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامي، وسعته أيضاً ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبراً وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطاً إلا في الجهة التي تقابل المقام الشريف، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.

ذكر زمزم

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة. ومن ركنها إليه عشر خُطاً. وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتنور البئر المباركة في وسط القبة، مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة. وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص. ودوره أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارت بداخل سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه، وبابها إلى جهة الشمال. وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق، وكل دورق له

مقبض واحد وترك بها ليبرد فيها الماء ، فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة ، والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع ، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه ، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً . وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف ، وفتحوا باب الكعبة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم ، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف ، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته ، وتغمدهم بلطفه . ويلى قبة العباس رضي الله تعالى عنه على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية .

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر باباً ، وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة ، فمنها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قديماً يعرف بباب بني مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج إلى المسعى ، ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبه ، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامها أمير المؤمنين المهدي رحمه الله ، علماً على طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ، ومنها باب أجياد الأصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ، ومنها باب النبي ﷺ مفتح على بابين ، ومنها باب بني شيبه ، وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال ، أمام باب الكعبة الشريفة متياسراً ، وهو مفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بني عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء ، ومنها باب صغير إزاء باب بني شيبه لا اسم له ، وقيل : يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط السدرة ، ومنها باب

الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب: اثنان منتظان، والثالث في الركن الغربي من دار الندوة، ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعاً في الحرم مضافاً إليه، وهي تقابل الميزاب، ومنها باب صغير لدار العجلة محدث، ومنها باب السدرة واحد، وباب العمرة واحد، وهو من أجل أبواب الحرم، وباب إبراهيم واحد، والناس مختلفون في نسبه، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم، وباب الحزورة مفتوح على بابين، وباب ثالث ينسب إليه مفتوح على بابين، ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين.

وصوامع المسجد الحرام خمس: إحداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا، والأخرى على ركن باب بني شيبه، والثالثة على باب دار الندوة، والرابعة على ركن باب السدرة، والخامسة على ركن أجياد. وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن، وهو كان يكسو الكعبة، إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون - وبخارج باب إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو، قد صنع في داخلها من غرائب صنع الحص ما يعجز عنه الوصف. وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشيري، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته، وعنده أيضاً دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه. وبمقربة منه رباط الموفق، وهو من أحسن الرباطات، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة. وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرائي، ودخل يوماً إلى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجداً مستقبلاً الكعبة الشريفة ميتاً من غير مرض كان به

رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحواً من أربعين سنة. وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوماً فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصر فقلت له في ذلك فقال لي: أستر على ما رأيت.

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم، وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام، ودور لها أبواب تفضي إلى الحرم، منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين، ومنها دار العجلة، ودار الشراي وسواها. ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربة من باب الرسول ﷺ وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام، وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز، طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال: إنه كان يسلم على النبي ﷺ ويذكر أن النبي ﷺ سأل عن رجل فنطق ذلك الحجر، وقال: يا رسول الله إنه ليس بمحاضر.

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا الذي هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة علياها كأنها مسطبة، وبين الصفا والمروة أربعائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة، والميلان

الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمْلُ^(١) ذاهباً وعائداً، وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه. والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لآزدحام الناس على حوانيت الباعة، وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البزازون والعطّارون عند باب شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه، وهي الآن رباط يقطنه المجاورون عمّره الملك الناصر رحمه الله، وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور والآخر في العطارين. وعليها ربع يسكنه خدامها، وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال، وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي غمي وسنذكره.

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارجة باب المعلّى، ويعرف ذلك الموضع بالحجون وإياه عنى الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدودُ العوائرُ

وبهذه الجبانة مدفن الجسم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء، إلا أن مشاهدتهم دثرت، وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل، فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين، ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي ﷺ، كلهم ما عدا إبراهيم، وجدة السبطين الكريمين

(١) الرمل: المرولة.

صلوات الله وسلامه على النبي ﷺ وعليهم أجمعين. وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين، وفيها الموضع الذي صُلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنها. وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير^(١) من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب، يقال إنه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذهاب إلى الطائف وإلى العراق.

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحجون وقد ذكرناه، ويقال أيضاً: إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب، وهو أيضاً الأبطح، وهو يلي الجبانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله ﷺ، ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصاحص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجراً بين الحل والحرم. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة، ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك. ومنها ثنية كُدَي (بضم الكاف)، وهي بأعلى مكة، ومنها دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف)، ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة، ومنها خرج رسول الله ﷺ عام الوداع، وهي بين جبلين. وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق، وكل من يمر به يرمه بحجر. ويقال: إنه قبر أبي لُب وزوجه حمالة الخطب. وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن

(١) المبير، أي: المهلك، وإنما كان اللعن يلحق حجاج الطائف استنكاراً لما صنعه الحجاج بن يوسف الثقفي - وهو من أهل الطائف - من رمي الكعبة بالمنجنيق، وصلب عبدالله بن الزبير رضي الله عنها.

منى، وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد يازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر، كان فيه نقش فدر رسمه. يقال: إن النبي ﷺ قعد بذلك الموضع مستريحاً عند مجيئه من عمرته. فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه. ومنها التنعيم، وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتمر أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرم، ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وأمره أن يعمرها من التنعيم. وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها. وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كسبه في كل يوم رغبة في الأجر والثواب. لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافياً. وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة، ومنها الزاهر، وهو على نحو ميلين من مكة، على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق.

وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء، يملأها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهي بعيدة القعر جداً. والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء، وذو طوى يتصل بالزاهر.

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله، وهو أحد الأخشبين، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله، ويقابل ركن الحجر الأسود. وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة. وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره. وهو مظل على الحرم الشريف، وعلى جميع البلد. ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة. ويذكر أن جبل أبي قبيس

هو أول جبل خلقه الله تعالى ، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان . وكانت قريش تسمية الأمين لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام . ويقال : إن قبر آدم عليه السلام به . وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر . ومنها قعيقان ، وهو أحد الأخشبين ، ومنها الجبل الأحمر ، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ، ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجناد الأكبر وأجناد الأصغر ، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم ، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم ساء حسبما نص الله في كتابه العزيز ، عليه أعلام من حجارة ، ومنها جبل حراء ، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ، ذاهب في الهواء عالي القنة . وكان رسول الله ﷺ يتعبد فيه كثيراً قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي ، وهو الذي اهتزت تحت رسول الله ﷺ فقال ﷺ : أثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد^(١) ، واختلف فيمن كان معه يومئذ . وروي أن العشرة كانوا معه .

وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحته أيضاً ، ومنها جبل ثور ، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن ، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله ﷺ حين خروجه مهاجراً من مكة شرفها الله ، ومعه الصديق رضي الله عنه ، حسب ما ورد في الكتاب العزيز . ذكر الأزرق في كتابه : أن الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ وقال : إليّ يا محمد إليّ إليّ ، فقد آويت قبلك سبعين نبياً . فلما دخل رسول الله ﷺ الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه ، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار ، وصنعت الحمامة عشاً وفرخت فيه

(١) روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أهدأ وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان .

ياذن الله تعالى ، فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار ، فقالوا ها هنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة ، فقالوا : ما دخل أحد هنا ، وانصرفوا . فقال الصديق : يا رسول الله لو لجوا علينا منه ، قال : كنا نخرج من هنا . وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب بقدرة الملك الوهاب^(١) .

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك ، فيرومون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ تبركاً بذلك . فمنهم من يتأتى له ، ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه ، حتى يتناول بالجذب العنيف ، ومن الناس من يصلي أمامه ولا يدخله . وأهل تلك البلاد يقولون : إنه من كان لرشدة دخله ، ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله . ولهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح . قال ابن جزى : أخبرني بعض أشياخنا المهجاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول إليه هو أن بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجراً كبيراً معترضاً . فمن

(١) ذكر الإمام أبو الفداء ابن كثير في السيرة النبوية أن الصديق رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال له الرسول ﷺ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، وذكر أن هذا مخرج في الصحيحين ، وقال بعد ذلك : وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ : « لو جاءونا من ها هنا لذهبنا من هنا » ، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر وإذا البحر قد اتصل به ، وسفينة مشدودة إلى جانبه .

وقد ورد هذا كذلك في السيرة النبوية لأحمد زيني وحلان منسوباً إلى بعض أهل السير ، ولم يحدد الإمام ابن كثير ، أو زيني وحلان من هم أهل السير الذين قالوا ذلك ، وقال ابن كثير بعد ذلك « وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف ، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا ، ولكن ما صحح أو حسن سنده قلنا به » .

وقال أحمد زيني وحلان : « وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ، ولا بمستبعد بالنسبة لمعجزاته العميمة ﷺ ، وإن كان الذي ذكره ما ذكر له إسناداً متصلاً ، لكن حسن الظن بالأئمة يقتضي أنهم لا يذكرون مثل ذلك إلا بتوقيف » .

دخل من ذلك الشق منبطحاً على وجهه وصل رأسه إلى ذلك الحجر ، فلم يمكنه التولج ، ولا يمكنه أن ينطوي إلى العلو ، ووجهه و صدره يليان الأرض . فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجذب إلى خارج ومن دخل منه مستلقياً على ظهره أمكنه ، لأنه إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه ، واستوى قاعداً ، فكان ظهره مستنداً إلى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائماً بداخل الغار .

حكاية

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي : أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الأفريقي التوزري ، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسي الوادي آشي ، أنهما قصدا (الغار) في حين مجاورتها بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وذهبا منفردين ، لم يستصحبا دليلاً عارفاً بطريقه ، فتاها وضلاً طريق الغار وسلكا طريقاً سواها منقطعة ، وذلك في أوان اشتداد الحر وحى القيظ ، فلما نفذ ما كان عندهما من الماء ، وهما لم يصلا إلى الغار ، أخذوا في الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى ، فوجدا طريقاً فاتبعاه وكان يفضي إلى جبل آخر ، واشتد بها الحر ، وأجهدهما العطش ، وعابنا الهلاك ، وعجز الفقيه أبو محمد عبد الله بن فرحان عن المشي جملة ، وألقى بنفسه إلى الأرض ، ونجا الأندلسي بنفسه . وكان فيه فضل قوة ، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد ، فدخل إلى مكة شرفها الله تعالى ، وقصدني ، وأعلمني بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل ، وكان ذلك في آخر النهار . ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادي نخلة ، وكان إذ ذاك بمكة ، فأعلمته بما جرى على ابن عمه ، وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به ،

فأعلمته بخبره، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه، وكان من أمر عبد الله التوزري أنه لما فارقه رفيقه، لجأ إلى حجر كبير، فاستظل بظله، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه، وتنتظر موته. فلما انصرم النهار، وأتى الليل، وجد في نفسه قوة وأنعشه برد الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشياً إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها، فوجد خيمة للعرب. فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض، فرأته صاحبة الخيمة، وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو، وأركبه حماراً له، وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثاني متغيراً كأنه قام من قبر.

ذكر أميرِ مكة

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الأجلين الأخوين: أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نغمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسينيين. ورميثة أكبرهما سناً، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة، لعدله ولرميثة من الأولاد أحمد وعجلان، وهو أمير مكة في هذا العهد، وتقية وسند وأم قاسم. ولعطيفة من الأولاد محمد ومبارك ومسعود. ودار عطيفة عن يمين المروة، ودار أخيه رميثة برباط الشراي عند باب بني شيبة، وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم.

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم

وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم. فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهياً له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبثاً. ولأهل مكة عوائد حسنة وغيره سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلماؤها وصلحاتها

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محي الدين الطبري، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق كثير

الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة، يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة، وخصوصاً في مولد رسول الله ﷺ، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين. وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيراً، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تُجرى على يديه. وولده شهاب الدين فاضل، وهو الآن قاضي مكة شرفها الله. وخطيب مكة الإمام بمقام إبراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان. وذكر لي أنه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد. وإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن، وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه. وأهله من بلاد الجريد من إفريقية، ويعرفون بها ببني حيون من كبارها، ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله، وهو أحد الكبار من أهل مكة، بل واحداً وقطبها ياجع الطوائف على ذلك، مستغرق العبادة في جميع أوقاته، حيي كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة، لا يرد من سأله خائباً.

حكاية مباركة

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله، وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية، النبي ﷺ في النوم، وهو قاعد بمجلس التدريس في المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة، والناس يبائعونه، فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل يده في يد رسول الله ﷺ، وقال: أبايعك على كذا وكذا، وعدد أشياء منها، وأن لا أرد من بيتي مسكيناً خائباً، وكان ذلك آخر كلامه، فكنت أعجب من قوله، وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه، مع كثرة

فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام. وكنت أراه حين ذلك لابساً جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان، كان يلبسها في بعض الأوقات، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياي فسر بها وبكى، وقال لي تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي، فأنا ألبسها تبركاً. وما رأيته بعد ذلك يرد سائلاً خائباً. وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به إليّ بعد صلاة العصر من كل يوم. وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت. ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر. ولذلك صحت أبدانهم، وقلّت فيهم الأمراض والعاهات. وكان الشيخ خليل متزوجاً بنت القاضي نجم الدين الطبري، فشك في طلاقها وفارقها. وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين، وهو من صعيد مصر. وأقامت عنده أعواماً وسافر بها إلى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق، ففارقها على ضنانه بها، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة. ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلائها، يطعم المجاورين وأبناء السبيل. وهو أكرم فقهاء مكة. ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفاً، فيؤديها الله عنه. وأمراء الأتراك يعظمونه ويمسنون الظن به، لأنه إمامهم. ومنهم إمام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكي المولد، وهو نائب القاضي نجم الدين، والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري، والناس يهابونه لسطوته.

حكاية

كان تقي الدين المصري محتسباً بمكة، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه. فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة،

قد سرق بعض الحجاج. فأمر بقطع يده فقال له تقي الدين: إن لم تقطعها، بحضرتك، وإلا غلب أهل مكة خدامك عليه. فاستنقذوه منهم وخلصوه، فأمر بقطع يده في حضرته فقطعت. وحقدتها لتقي الدين. ولم يزل يتربص به الدوائر، ولا قدرة له عليه لأن له حساباً من الأميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جواراً لمن أعطيته، ولا تزول حرمتها، معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة. فأقام تقي الدين بمكة أعواماً، ثم عزم على الرحلة، وودع الأميرين، وطاف طواف الوداع، وخرج من باب الصفا. فلقيه صاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله، وطلب منه ما يستعين به على حاجته. فانتهره تقي الدين وزجره. فاستل خنجراً له يعرف عندهم بالجنبية، وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه. ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري، شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والإحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي، من فضلاء مكة، وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي، ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس. رأيته يوماً يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية، فيغسل ويكرر، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة. وكان إذا أراد الصلاة ربما صلى الإمام الشافعي، وهو يقول: نويت نويت، فيصلي من غيره وكان كثير الطواف والاعتبار والذكر.

ذكر المجاورين بمكة

فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير بالياضي، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار. وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهداً

للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجراً، أو ينام يسيراً، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح. وكان متزوجاً ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان، وكانت صغيرة السن. فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقت. ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوني. كان قاضياً ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى، وجاور بالحرم الشريف. وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتماداً على ما في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»^(١). ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين، توفي بمكة، ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف، أقام بمكة أعواماً لا يتكلم فيها. ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب. والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي. والفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجوري من أهل قطر طنجة

(١) الحديث روى معناه بلفظ آخر أبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنها، ورواه كذلك بلفظه البخاري والنسائي وابن ماجه، وليس فيه لفظ: معي، ورواه مسلم بروايتين في إحداها لفظ معي، والأخرى بدونها، كما رواه ابن حبان في صحيحه، وقد روي بروايات مختلف لفظاً وتفق معنى.

من كبار الصالحين جاور بمكة سنين وبها وفاته . كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة . ومتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا . وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهراً ويأوي بالليل إلى مسكنة برباط ربيع ، وهو من أحسن الرباطات بمكة ، بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة ، وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيماً شديداً وينذرون له النذور ، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه . ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العُشر لهذا الرباط . ويوصلون ذلك إليه على جاهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان . ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابها الجوائح .

حكاية في فضيلة

أتى يوماً غلمان الأمير أبي نمي صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر ، فلما عادوا بالخيال إلى مراتبها أصابها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها . واتصل الخبر بالأمير أبي نمي ، فأتى باب الرباط بنفسه ، واعتذر إلى المساكين الساكنين به ، واستصحب واحداً منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ، ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير . ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله . وسكن رباط ربيع ، ووفاته بمكة . ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة ، كان خديماً للشيخين المذكورين ، فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما . ومنهم الصالح السابح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني . ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلاله .

حكاية

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه، فأعطاه مالا عظيماً قدم به مكة. فسجنه الأمير عطيفة، وطلبه بأداء المال، فامتنع فعدَّب بعصر رجله، فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة، وعاد إلى بلاد الهند. ورأيته بها، ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن عيسى بن مهنا أمير عرب الشام. وكان غدا ساكناً ببلاد الهند متزوجاً بأخت ملكها، وسيدكر أمره. فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال، وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا، وجَّه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه، ووجه معه أموالاً وتحفاً منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته، وهي من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب، ومرصعة بالجواهر، بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجواهر عليها، وبعث معها خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق. فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل، واشترى سلعاً بما عندهما من الأموال. فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب إليها الصبر السقطري، خرج عليها لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً، مات فيه من الفريقين جملة. وكان وشل رامياً فقتل منهم جماعة، ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلًا طعنة مات منها بعد ذلك. وأخذوا ما كان عندهم، وتركوا لهم مركبهم بألة سفره وزاده. فذهبوا إلى عدن، ومات بها وشل. وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحداً إلا حين القتال ولا يغرقونه، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء. ولا يأخذون الممالك لأنهم من جنسهم. وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده، كمثّل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه، مثل السلطان شمس الدين للمش واسمه (بفتح اللام الأولى وإسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم)، وولده ناصر الدين. ومثّل السلطان جلال الدين فيروز شاه،

والسلطان غياث الدين بلين. وكانت الخلع تأتي إليهم من بغداد. فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر، وأعلمه بالأمر. فكتب له كتاباً بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند. فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سوداً، وركب البحر إلى الهند. فلما وصل كنبات، وهي على مسيرة أربعين يوماً من دهلي حاضرة ملك الهند، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدم الشيخ سعيد، وأن معه أمر الخليفة وكتابه. فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرماً. فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه، فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر، فقبله ووضع على رأسه، ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكسا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبدالعزيز ابن الخليفة المنتصر العباسي، وكان مقياً عنده، وسيذكر خبره. وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبله الملقب بالملك الكبير، وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب. وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه، وأركبه على الفيل، ودخل المدينة كذلك، والسلطان أمامه على فرسه، وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساها الخلعين العباسيين. والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب. كل قبة منها أربع طبقات، في كل طبقة طائفة من المغنين رجالاً ونساء، والراقصات، وكلهم مماليك السلطان. والقبة مزينة بشباب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حُلّ فيه الجلاب، يشربه كل وارد وصادر، لا يمنع منه أحد. وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة، فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حرمة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام. ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له

ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان. وأنزل بدار تقرب من دار الملك. وبعث له أموالاً طائلة. وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب، وخدام الأحواض وغيرهم. وهكذا فعلهم من قدم السلطان من سفر. وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة، وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة. فوصل كنبات، وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر. وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولاً إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعي، أحد شيوخ الصوفية، وأصله من مدينة القرم من صحراء قفجق، وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار. وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند، ويبعث له سواه من يظهر. هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية. وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمر سيف الدين الكاشف. فلما وصل رجب إلى الخليفة أبي أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر. فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه، وهو ثلاثمائة ألف درهم، أربعة أحجار. وحضر بين يدي الملك الصالح، ودفع له الكتاب، وأحد الأحجار، ودفع سائرها لأمرائه. واتفقوا على أن يكتب ملك الهند بما طلب. فوجهوا الشهود إلى الخليفة وأشهد على نفسه أنه قدمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها، وبعث الملك الصالح رسولاً من قبله، وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي، ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية، وركبوا بحر فارس من الأبلّة إلى هرمز، وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه. فأكرم مثواهم، وجهازهم مركباً إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبات والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلنكي، أحد خواص ملك

الهند . فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له ان الشيخ سعيد إنما جاءكم بالتزوير . والخلع التي ساقها إنما اشتراها بعدن ، فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم وهو السلطان . فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا إلا بأمره . ولكني أبعثه معك ليرى فيه السلطان رأيه . وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان ، وكتب به أيضاً صاحب الأخبار فوقع في نفس السلطان تغير ، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشهاد ، بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر ، فمنع رجب من الدخول عليه ، وزاد إكرام الشيخ سعيد ، ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام إليه وعانقه وأكرمه وكان متى دخل إليه يقوم إليه . وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظماً مكرماً . وبها تركته سنة ثمان وأربعين . وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون ، وأمره غريب وشأنه عجيب . وكان قبل ذلك صحيح العقل خديماً لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته .

حكاية

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل ، وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً ، يكثر الطواف ، ولا يراه بالنهار . فلقية ذلك الفقير ليلة ، وسأله عن حاله ، وقال يا حسن : إن أمك تبكي عليك ، وهي مشتاقة إلى رؤيتك ، وكانت من إماء الله الصالحات ، أفتحب أن تراها قال له : نعم ، ولكني لا قدرة لي على ذلك . فقال له : نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى - فلما كانت الليلة المقبلة ، وهي ليلة الجمعة ، وجده حيث واعدته - فطافا بالبيت ما شاء الله ، ثم خرج ، وهو في أثره ، إلى باب المعلّى . فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك . ثم قال : بعد ساعة : أتعرف بلدك ؟ قال نعم . قال : ها هو هذا . ففتح عينيه ، فإذا به على دار أمه ، فدخل عليها ، ولم يعلمها بشيء مما جرى ، وأقام عندها نصف شهر ،

وأظن أن بلده مدينة أسفي^(١). ثم خرج إلى الجبانة، فوجد الفقير صاحبه، فقال له: كيف أنت؟ فقال: يا سيدي، إني اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين؛ وكنت خرجت على عادتي، وغبت عنه هذه الأيام، وأحب أن تردني إليه. فقال له: نعم، وواعده الجبانة ليلاً. فلما وافاه بها، أمره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله، من تغميض عينيه والإمساك بذيله ففعل ذلك، فإذا به في مكة شرفها الله. وأوصاه أن لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى، ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين، قال له: أين كنت يا حسن في غيبتك؟ فأبى أن يخبره. فعزم عليه، فأخبره بالحكاية. فقال: أرني الرجل، فأتي معه ليلاً، وأتى الرجل على عادته. فلما مر بها قال له: يا سيدي هو هذا. فسمعه الرجل فضربه بيده على فمه وقال اسكت اسكتك الله. فخرس لسانه، وذهب عقله، وبقي بالحرم مولهاً يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة، والناس يتبركون به ويكسونه، وإذا جاع خرج إلى السوق التي بين الصفا والمروة، فيقصد حانوتاً من الحوانيت، فيأكل منها ما أحب، لا يصدده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئاً، وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه. ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم إليه، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده، لما جربوه من بركته. كذلك فعله مع السقائين، متى أحب أن يشرب. ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين، فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك، فاستصحبه معه إلى ديار مصر، فانقطع خبره نفع الله تعالى به.

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم ان يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له

(١) أسفي، بفتح الهمزة والنسب وكسر الفاء مدينة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب،

هنالك بديع . وجهور الناس بمكة على مذهبه . والحطيم خشبتان موصل ما بينها بأذرع شبه السلم ، تقابلها خشبتان على صفتها ، وقد عقدت على أرجل مجصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج . فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع . وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع ، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد ، كل إمام يصلي بطائفته ، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي . وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لثلا يدخل عليه السهو .

ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة

وعاداتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة ، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ، ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم . فإذا خرج الخطيب ، أقبل لابساً ثوب سواد ، معتماً بعمامة سوداء ، وعليه طيلسان أسود . كل ذلك من كسوة الملك الناصر . وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين ، يمسكها رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة ، في يده الفرقعة ، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون إعلماً بخروج الخطيب . ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ، ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمي ، وهو رئيس المؤذنين بين يديه ، لابساً السواد

وعلى عاتقه السيف ممسكاً له بيده، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر. فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى. فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، ووقف داعياً بدعاء خفي، مستقبل الكعبة. ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد. ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد. فإذا فرغ الأذان، خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي ﷺ، ويقول في أثنائها: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم. اللهم صلّ على محمد وآل محمد ما وقف بعرفة واقف. ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبي ﷺ وسبطيه وأمهها وخديجة جدتها، على جميعهم السلام. ثم يدعو للملك الناصر، ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول، ثم للسيد الشريفي الحسين أمير مكة. سيف الدين عطيفة، وهو أصغر الأخوين، ويقدم اسمه لعدله، وأسد الدين رميثة، ابني أبي نجي بن أبي سعيد بن علي بن قتادة. وقد دعا لسلطان العراق مرة، ثم قطع ذلك. فلما فرغ من خطبته وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة، ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم.

ذكر عاداتهم في استهلال الشهور

وعاداتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر، وقواده يحفون به، وهو لابس البياض معتم متقلد سيفاً وعليه السكينة والوقار، فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر، ويشرع في طواف اسبوع^(١). ورئيس المؤذنين على

(١) يظهر - والله أعلم - أن المراد بهذه العبارة، أنه يشرع في الطواف سبعة أشواط.

أعلى قبة زمزم. فعند ما يكمل الأمير شوطاً واحداً، ويقصد الحجر لتقبيله، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له، والتهنئة بدخول الشهر، رافعاً بذلك صوته، ثم يذكر شعراً في مدحه ومدح سلفه الكريم. ويفعل به هكذا في السبعة أشواط. فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين، ثم انصرف. ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفراً وإذا قدم من سفر أيضاً.

ذكر عاداتهم في شهر رجب

وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعاراً بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكباً، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً، على ترتيب عجيب، وكلهم بالأسلحة، يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بجراهم إلى الهواء، ويلقفونها، والأمير رميثة والأمير عطيفة معها أولادها وقوادها مثل محمد بن إبراهيم، وعلي وأحمد ابني صبيح، وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب، وعليهم السكينة والوقار. ويسرون حتى ينتهوا إلى الميقات، ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت، والمؤذن الزممي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط، على ما ذكرناه من عاداته، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم، وصلى عند المقام وتمسح به، وخرج إلى المسعى فسعى راكباً والقواد يحفون به، والحرابة بين يديه، ثم يسير إلى منزله. وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك.

ذكر عمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله، وهي متصلة ليلاً ونهاراً. وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة، وخصوصاً أول يوم منه، ويوم خمسة عشر، والسابع والعشرين. فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام. شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه، وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع. كل واحد يفعل بقدر استطاعته، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة. ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج، والنيران مشعلة بجنتي الطريق، والشمع والمشاعل أمام الهوادج، والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين، فترق النفوس، وتنهمل الدموع. فإذا قضوا العمرة، وطافوا بالبيت، خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل، والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعات على هودجهنّ، والمسجد الحرام يتلأأ نوراً. وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية، لأنهم يجرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة، على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه. والأصل في هذه العمرة أن عبدالله بن الزبير رضي الله عنها لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً، ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها، وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى، من حيث دخل المسلمون يوم الفتح. فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد، وكان عهد عبدالله المذكوراً أهدى فيه بدنأ كبيرة، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم. وأقاموا أياماً يطعمون ويطعمون شكراً لله على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم، على الصفة التي كانت عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه. ثم لما قتل ابن الزبير

نقض الحجاج الكعبة، وردّها إلى بنائها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بنائها، وأبقاها رسول الله ﷺ على ذلك، لحدثان عهدهم بالكفر. ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تجعل البيت ملعبة للملوك، متى أراد أحدهم أن يغير فعل. فتركه على حاله سداً للذريعة وأهل البلاد الموالية لمكة، مثل بجيلة وزهران وغامد، يبادرون لحضور عمرة رجب ويحلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز، فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمم المرافق، ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش. ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم، ولم يأتوا بهذه الميرة أجذبت بلادهم ووقع الموت في مواشيهم. ومتى أوصلوا الميرة أخضبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم. فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها، اجتمعت نسائهم فأخرجتهم. وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأغناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد. وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية يتصدع لرقتها القلوب: وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم. ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر، لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود. وإذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم، ومن صحبهم من الزوار حد صحبتهم. وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم، وأثنى عليهم خيراً وقال: علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء. وكفاهم شرفاً دخولهم في عموم قوله ﷺ «الإيمان يمان والحكمة يمانية»^(١). وذكر أن عبدالله بن عمر رضي الله عنها كان

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركاً بدعائهم. وشأنهم عجيب كله، وقد جاء في أثر: زاحومهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً.

ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة، يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفراداً والاعتبار. ويجتمعون في المسجد الحرام جماعة، لكل جماعة إمام. ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل. ويقابل ذلك ضوء القمر فتتألأ الأرض والسماء نوراً ويصلون مائة ركعة، يقرأون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص، يكررونها عشرأ وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف، وبعضهم قد خرجوا للاعتبار.

ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم

وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة. ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام، من تجديد الحصر، وتكثير الشمع والمشاعل، حتى يتلأأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً. وتتفرق الأئمة فرقاً. وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة، فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين. ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفرداً. والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً، وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة، وهي عشرون ركعة، يطوف إمامهم وجماعته. فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، كان ذلك

إعلاماً بالعودة إلى الصلاة. ثم يصلي ركعتين، ثم يطوف أسبوعاً هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسخير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور، وهكذا يفعلون في سائر الصوامع. فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض، قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان، فإذا قرب الفجر وقع الإيدان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان، وابتدأ المؤذنون بالأذان. وأجاب بعضهم بعضاً. ولديار مكة شرفها الله سطوح. فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر. حتى إذا لم يبصرها ألقع عن الأكل. وفي ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يجتمعون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء. ويكون الذي يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة. فإذا ختم، نصب له منبر مزين بالحريز، وأوقد الشمع، وخطب. فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر. وأعظم من تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين. واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم. وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام، توصل بالحطيم، وتعرض بينها ألواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات، وعليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يغطي الأبصار شعاع الأنوار، ويتقدم الإمام، فيصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم يبتدىء قراءة سورة القدر. وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمك جميع الأئمة عن التروايح تعظيماً لختمه المقام، ويحضرونها متبركين، فيختم الإمام في تسليمتين، ثم يقوم خطيباً مستقبلاً المقام، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانفض الجميع. ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر

مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب .

ذكر عاداتهم في شوال

وعاداتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع، على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان. وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسييح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد، ولبسوا أحس ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، به يصلون صلاة العيد، لأنه لا موضع أفضل منه. ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبون فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم في عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه، ويطوف بالبيت أسبوعاً، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقة أمامه، وهو لابس السواد، فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة. ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى، تبركاً بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون.

ذكر إحرام الكعبة

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشرم أستار الكعبة، زادها الله تعظيماً، إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صوتاً لها من الأيدي

أن تنتهبها. ويسمون ذلك إحرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف. ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة.

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان في أول يوم شهر ذي الحجة، تضرب الطبول والدبابت في أوقات الصلوات بكرة وعشية، إشعارها بالموسم المبارك. ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات. فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثاني بكر الناس بالصعود إلى منى. وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع. ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائماً. فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة. فيمرون في طريقهم بوادي محسر، ويهزولون، وذلك سنة. ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحولها مصانع وصهاريج للماء، مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد. وبين منى وعرفة خمسة أميال، وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال. ولعرفة ثلاثة أسماء وهي، عرفة^(١) وجمع والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح، تحديق به جبال كثيرة. وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف، وفيما حوله، والعلمان قبله بنحو ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم. وبمقربة منها مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه، ويجب التحفظ منه، ويجب أيضاً الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس. فإن

(١) جمع: تطلق على المزدلفة والمشعر الحرام، ولا تطلق على عرفة. من: معجم البلدان لياقوت الحموي.

الجمّالين ربما استحثوا كثيراً من الناس، وحذروهم الزحام في النفر، واستدروهم إلى أن وصلوا بهم بطن عرنة، فيبطل حجهم. وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض، وفي أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفي قبله جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس، وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام، وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ﷺ عندها، وحول ذلك صهاريج وجبات للماء، وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر، وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الأراك وبه أراك اخضر يمتد في الأرض امتداداً طويلاً، وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكي بيده، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض، وترجف الجبال. فياله موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه. وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين، وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر. وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر ابن أرغون^(١) كور. وحجت فيها زوجة الملك الناصر والمسماة بالخوندة، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا^(١) وخوارزم، وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان. ولما وقع النفر بعد غروب الشمس، وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعاً بينها حسبما جرت سنة رسول الله

(١) السرا: تعرف بسرا بركة، وهي حضرة السلطان أوزبك، وتقع على مقربة من المدينة المعروفة الآن باسم: تساريف، وهي شمالي مدينة الحاج ترخان على بعد ٢٢٥ ميلاً، وتعرف الآن بالمسرا الجديدة.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . ومزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسَّر ، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار ، وذلك مستحب . ومنهم من يلقتها حول مسجد الخيف . والأمر في ذلك واسع . ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جرة العقبة ، ثم نَحَرُوا وذبجوا ، ثم حلقوا وحلّوا من كل شيء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . لما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبجوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة . ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني . وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله ، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة .

ذكر كسوة الكعبة

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم ، فوضعت في سطحه ، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبون في إسبائها على الكعبة الشريفة . وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً ﴾^(١) الآية . وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صوتاً من أيدي الناس . والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج له الحرم

(١) المائدة: ٩٧ .

الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة، وربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهماً نقرة، لكثرة ما تصدقوا به من الذهب. وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم.

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفي الموفى عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الخويج بجاءين مهملين، وهو من أهل الموصل. وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر، وكان شهاب الدين سخياً فاضلاً عظيم الحرمة عند سلطانه، يخلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية. ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الأمير البهلوان المذكور اكرى لي شقة محارة^(١) إلى بغداد، ودفع إجارته من ماله، وأنزلي في جواره. وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مر^(٢)، في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم، لا يحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجاً، وينسرون سير السحاب المتراكم. فمن خرج عن الركب لحاجة، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه، ضل عنه

(١) المحارة: شبه الهودج - القاموس المحيط.

(٢) مر الظهران، وقد سبق ذكره.

لكثرة الناس . وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الراد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ؛ وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه . وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي . كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه . قال ابن جزي : كرم الله هذه الكنية الشريفة ، فما أعجب أمرها في الكرم ، وحسبك بمولانا بجر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قانع الكفار والآخذ للإسلام بالثار أمير المسلمين يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر إلى يوم الدين .

وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات ، فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهراً ساطعاً ثم رحلنا من بطن مر إلى عسفان ثم إلى خليص ، ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادي السمك ، ثم رحلنا خمساً ، ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثنتان في اليوم : إحداها بعد الصبح والأخرى بالعشي ، ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء ، وأقمنا بها يوماً مستريحين ، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث . ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله ﷺ ، وحصلت لنا زيارة رسول الله ﷺ ثانياً ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام ، واستصبحنا منها الماء لمسيرة ثلاث ، ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس ، فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الأرض ، فينبطون ماء عذباً معيناً ، ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض على مد البصر ، فتسمننا نسيمه الطيب الأرج ، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة ، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهي

مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا
الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في
كل فصل، ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجز، وفيه مصانع للماء، وربما جفت
فحفر عن الماء في الجفار. ثم رحلنا ونزلنا سميرة، وهي أرض غائرة في بسيط فيه
شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار، إلا أنه زعاق^(١) ويأتي عرب تلك الأرض
بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحاجج بالثياب الخام، ولا يبيعون بسوى
ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق، وهو في بيدا من الأرض، وفي أعلاه
ثقب نافذة تخرقه الريح ثم رحلنا منه إلى وادي الكروش ولا ماء به ثم أسرينا ليلاً
وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه
ربض، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة. وهناك يترك
الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى، فإذا
عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة
اثني عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع، ومن عادة الركب أن يدخلوا
هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب، ارهاباً للعرب المجتمعين هنالك، وقطعاً
لأطعامهم عن الركب وهنالك لقينا أميري العرب، وهما فياض وحيار واسمه
(بكسر الحاء واهماله وياء آخر الحروف)، وهما ابنا الأمير مهنا بن عيسى،
ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منها المحافظة على
الحاج والرحال والحوطة لهم، وأتى العرب بالجبال والغنم فاشترى منهم الناس ما
قدروا عليه، ثم رحلنا ونزلنا الموضع الأجر، ويشتهر باسم العاشقين: جميل
وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء، ثم نزلنا زرود، وهي بسيط من الأرض فيه رمال
منهالة وبه دور صغار، قد أداروها شبه الحصن، وهنالك آبار ماء ليست

(١) الزعاق: الماء المر الغليظ لا يطاق شربه - القاموس المحيط.

بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية، ولها حصن خرب بإزائه مصنع هائل ينزل إليه في درج، وبه من ماء المطر ما يعم الركب. ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن. ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة، وكل من مر به رجه ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضياً، فسافر مع الركب يريد الحج، فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة، فسب بعض الصحابة، فقتلوه بالحجارة. وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب، ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك، وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها، وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذا الطريق التي بين مكة وبغداد، فهي من كريم آثارها جزاها الله خيراً، ووفى لها أجرها. ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحد، ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشقوق، فيه مصنعان بها الماء العذب الصافي، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منها. ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالتنانير، وفيه مصانع تمتلئ بالماء، ثم أسرينا^(١) منه واجتزنا ضحوة^(٢) بزماله، وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة، وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين، وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة، ثم نزلنا موضعاً يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء، معمور بالعرب، وهو آخر مناهل هذا الطريق، وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه، ويهنيء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة ثم نزلنا موضعاً يعرف بلورة، فيه مصنع

(١) في بعض طبعات الكتاب: ثم رحلنا منه..

(٢) أي: في وقت الضحى.

كبير للماء ثم نزلنا موضعاً يعرف بالمساجد ، فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعاً يعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيدا من الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ، ثم نزلنا موضعاً يعرف بالعذيب ، وهو واد منحصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر. ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم ، وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق النخل وبها مشاريع من ماء الفرات ، ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه بالنجف ، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية ثم سوق العطارين ثم الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام ، وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن .

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر ، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ، ويقولون عن أمرم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الرضة العلية ، فإن أذنتم له وإلا رجع ، وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم اهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة ،

وكذلك العضادتان، ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة، منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب، عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسمرة بمسامير الفضة، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة، وفوقها ثلاثة من القبور، يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركاً. وللقبة باب آخر عتبه أيضاً من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب، عتباتها فضة وعليها ستور الحرير، وأهل هذه المدينة كلهم رافضية. وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها أن في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا، يؤتى إلى تلك الروضة بكل مُقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك. فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس، والناس ينتظرون قيامهم، وهم ما بين مصل وذاكر وتالٍ ومشاهد للروضة فإذا مضى من الليل نصفه، أو ثلثاه أو نحو ذلك، قام الجميع أصحاب من غير سوء، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات. ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال: أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان، وهم مقعدون، فاستخبرتهم عن شأنهم، فأخبروني أنهم لم يدركوا ليلة المحيا، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر. وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد، ويقيمون سوقاً عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم

ولا مكاس ولا والٍ، وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف وأهلها تجار يسافرون في الأقطار، وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم. صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم، لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه، ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذراً إذا برىء، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضة ويأتي به إلى الروضة، فيجعله النقيب في الخزانة، وكذلك اليد والرجل وغيرها من الأعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرتة.

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين، ومنزلته رفيعة، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأبطال، وتضرب الطبلخانة عند بابه مساءً وصباحاً، وإليه حكم هذه المدينة، ولا والي بها سواه، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره. وكان النقيب في عهد دخولي إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي، نسبة إلى بلده آوة من عراق العجم، أهلها رافضة، وكان قبله جماعة، يلي كل واحد منهم بعد صاحبه، منهم جلال الدين بن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاوس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهري من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها، ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا بن ججاز بن شيحة الحسيني المدني.

حكاية

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك، وكان بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن ججاز أمير المدينة، ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة، فمات

النقيب قوام الدين بن طاوس فانفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد فأمضاه ونفذ له اليرليغ، وهو الظهير بذلك، وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق، فغلبت عليه الدنيا، وترك العبادة والزهد، وتصرف في الأموال تصرفاً قبيحاً فرجع أمره إلى السلطان، فلما علم بذلك أعمل السفر، مظهراً أنه يريد خراسان، قاصداً زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطوس، وكان قصده الفرار. فلما زار علي ابن موسى قدم هراة، وهي آخر بلاد خراسان، وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند، فرجع أكثرهم عنه، وتجاوز هو أرض خراسان إلى السند فلما جاوز وادي السند المعروف ببنج آب ضرب طبوله وأنفاره فراح ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم، وأجفلوا إلى المدينة المسماة بأوجا، وأعلموا أميرها بما سمعوه، فركب في عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع، فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجاعة من التجار والرجال ممن صحب الشريف في طريقه، معهم الأبطال والأعلام، فسألوهم عن شأنهم، فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافداً على ملك الهند، فرجع الطلايع إلى الأمير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده. ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة، تضرب الأبطال على باب داره غدوة وعشية، وكان مولعاً بذلك. ويذكر أنه كان في أيام نقابته بالعراق تضرب الأبطال على رأسه، فإذا أمسك النصار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك: وكتب صاحب مدينة أوجا إلى ملك الهند يخبر الشريف وضربه الأبطال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشياً ورفعه الأعلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علماً ولا يضرب طبلًا إلا من أعطاه الملك ذلك، ولا يفعله إلا في السفر، وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل إلا على باب الملك خاصة، بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب الأمراء، فلما بلغ

خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه، ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك، وكان الأمير كشيلى خان، والخان عندهم أعظم الأمراء، وهو الساكن بملتان، كرسي بلاد السند، وهو عظيم القدر عند ملك الهند، يدعو بالعم، لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه، قد قدم على حضرة ملك الهند، فخرج الملك إلى لقائه فاتفق أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم، وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأبطال، فلم يرعه إلا السلطان في موكبه، فتقدم الشريف إلى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره، ومضى السلطان حتى لقي الأمير كشيلى خان وعاد إلى حضرته، ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره.

وكان الملك عازماً على السفر إلى مدينة دولة أباد، وتسمى أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلو التي بينهما) وتسمى أيضاً بالدونجر (دوكير)، وهي على مسيرة أربعين يوماً من مدينة دهلي حاضرة الملك.

فلما شرع الملك في السفر بعث إلى الشريف بخمسمائة دينار دراهم، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً، وقال لرسوله إليه: قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاده، وإن أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق، وإن أراد الإقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع، فاغتم الشريف لذلك، وكان قصده أن يجزل له العطاء، كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان، وتعلق بالوزير أحمد بن أياس المدعو بخواجة جهان وبذلك سماه الملك، وبه يدعو هو، وبه بدعوة سائر الناس، فإن من عادتهم أنه متى سمى الملك أحداً باسم مضاف إلى الملك من عماد أو ثقة أو قطب، أو باسم مضاف إلى الجهان من صدر وغيره، فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس، ومن خاطبه، بسوى ذلك لزمته العقوبة

فتأكدت المودة بين الوزير والشريف ، فأحسن إليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه ، وأمر له بقريتين من قرى دور أباد ، وأمره أن تكون إقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء ، والإحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعبارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيماً ، ثم أراد الخروج ، فلم يمكنه ، فإنه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج إلا بإذنه وهو محب في الغرباء ، فقليلاً ما يأذن لأحدهم في السراح ، فأراد الفرار من طريق الساحل فردّ منه ، وقدم الحضرة ، ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه ، فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند ، وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ، فأتى بها في بدرة ، فجعلها تحت فراشه ونام عليها ، لمحبتته في الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها ، فإنه كان بخيلاً ، فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاذه عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره إلى ان توفي بعد عشرين يوماً من وصول البدرة إليه . أوصى بذلك المال للشريف حسن الجرائي ، فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بداهلي من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند ، لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه ، إنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه . وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم ، سكن غرناطة مدة ، وبها تزوج بنت الشريف أبي عبدالله بن إبراهيم الشهرير بالمكي ، ثم انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى ان استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره ، خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس ، وترك ولدين هما في كفالة ربيهما الشريف الفاضل أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي

الشهير ببلاد المغرب وبالعراق ، وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما ، وهو محسن لها جزاه الله خيراً .

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الراكب إلى بغداد ، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة ، وهم أهل تلك البلاد ، وهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار الا في صحبتهم فاكترت جلاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجنا من مشهد علي عليه السلام ، فنزلنا الخورنق ، موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء ، وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في قضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعاً يعرف بقائم الوثائق ، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته ، ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار ، وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادي ، وهم قطاع الطريق رافضية المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا ، فسلبوهم حتى النعال والكشاكل . وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم ، والسباع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل ، ثم وصلنا مدينة واسط

مدينة واسط

وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والاشجار ، بها أعلام يهدي الخير شاهدهم ، وتُهدى الاعتبار مشاهدهم ، وأهلها من خيار أهل العراق ، بل هم خيرهم على الاطلاق . أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، وإليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك . وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ ، وبها مدرسة عظيمة حافلة وفيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم

القرآن. عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي، وهو من كبار أهلها وفقهائها. ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة، ويجري له نفقته كل يوم، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة، وقد لقيته وأصافني وزودني تمرًا ودراهم. ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثاً بخارجها للتجارة. فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحد الرفاعي، وهو بقرية تعرف بأمر عبدة، على مسيرة يوم من واسط. فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني إليها. فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد، وهم قطان تلك الجهة. وأركبني فرساً له، وخرجت ظهراً، فبت تلك الليلة بجوش بني أسد، ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرواق، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء. وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته. وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده، وإليه انتهت الشياخة بالرواق. ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف، وأخذ الفقراء في الرقص، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط، وهو خبز الأرز والسمن واللبن والتمر، فأكل الناس، ثم صلوا العشاء الآخرة، وأخذوا في الذكر، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور، ثم أخذوا في السماع، وقد أعدوا أحمالاً من الحطب فأججوها ناراً، ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بضمه حتى أطفأها جميعاً وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه.

حكاية

كنت مررت بموضع يقال له، أفقانبور، من عمالة هزار أمروها، وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس. وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر

السرور، وذلك في أوان الشكال، والشكال عندهم هو المطر، وينزل في إبان القيظ. وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل. فكل من يشرب منه من إنسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة. فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد، ووصل إلى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم أطواق الحديد وفي أيديهم، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون. وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية. فباتوا عندنا ليلة، وطلب مني كبيرهم أن آتية بالخطب ليوقدوه عند رقصهم، فكلفت والي تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمّار، (وسأتي ذكره)، أن يأتي بالخطب فوجه منه نحو عشرة أحمال، فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جراً، وأخذوا في السماع، ثم دخلوا في تلك النار. فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها، وطلب مني كبيرهم قميصاً، فأعطيته قميصاً في النهاية من الرقة، فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار، وخذت. وجاء إليّ بالقميص، والنار لم تؤثر فيه شيئاً البتة. فطال عجبي منه. ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به، عدت إلى مدينة واسط، فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت، فلحقها في الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب، ثم رحلنا بوادي الكراع وليس به ماء، ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشرب. ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة، ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار إلى مدينة البصرة.

مدينة البصرة

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار، وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناءً عالياً مثل الحصن، فسألت عنه، فقيل لي: هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكانت البصرة من اتساع الخطّة وانفساح الساحة بحيث

كان هذا المسجد في وسطها. وبينه الآن وبينها ميلان^(١)، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك، فهو متوسط بينها. ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الأرجاء المونقة الأفناء، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة، توفر قسمها من النضارة والخصب، لما كانت تجمع البحرين: الأجاج والعذب، وليس في الدنيا أكثر نخلاً منها، فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم، ودرهمهم ثلث النقرة. ولقد بعث إلى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر، يحملها الرجل على تكلف، فأردت بيعها، فبيعت بتسعة دراهم، أخذ الحمال منها ثلثها عن أجره حملها من المنزل إلى السوق. ويصنع بها من التمر غسل يسمى السيلان، وهو طيب كأنه الجلاب.

وبالبرصة ثلاثة محلات: إحداها محلة هذيل، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير، من الكرماء الفضلاء، أضافني وبعث إلي بثياب ودراهم، والمحلة الثانية محلة بني حرام، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى، ذو مكارم وفواضل، أضافني وبعث إلي التمر والسيلان والدراهم، والمحلة الثالثة محلة العجم، كبيرها جمال الدين ابن اللوكي. وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما بينهم غريب. وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته، ثم يسد فلا يأتونه إلا في الجمعة. وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغييره الدم في الورقة التي

(١) لكثرة ما تتابع على البصرة من الفتن والتقلبات والحروب خربت البصرة القديمة، وأنشئت مدينة جديدة إلى الشمال الشرقي منها تبعد عنها ٢٨ ألف ذراع يد، وكان إنشاؤها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) «أنظر التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية - البصرة -».

فيها قوله تعالى: ﴿فسيكفئكم الله وهو السميع العليم﴾^(١).

حكاية اعتبار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة، فلما قام الخطيب إلى الخطبة وسردها، لحن فيها لحناً كثيراً جلياً، فعجبت من أمره، وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين. فقال لي: إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو. وهذه عبرة لمن تفكر فيها. سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور. هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رئاسة النحو، وفيها أصله وفرعه، ومن أهلها إمامه^(٢) الذي لا ينكر سبقه، لا يقيم خطبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها. ولهذا الجامع سبع صوامع، إحداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم، عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه. صعدت إليها من أعلى سطح الجامع، ومعني بعض أهل البصرة، فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمراً فيها، كأنه مقبض مملسة البناء. فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض، وقال: بحق رأس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، تحركي، وهز المقبض، فتحركت الصومعة، فجعلت أنا يدي في المقبض وقلت له، وأنا أقول: بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ تحركي، وهزت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك. وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة، ولا يخاف من يفعل مثل فعلهم، ولو جرى مثل هذا بمشهد الحسين، أو بالحلة، أو بالبحرين، أو قم، أو قاشان، أو ساوة، أو آوة، أو طوس، لهلك فاعله، لأنهم رافضة غالبية. قال ابن جزري: قد

(١) البقرة: ١٣٧.

(٢) يقصد بإمام النحو الذي لا ينكر سبقه سيويه، وقد قال صاحب التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية تعليقاً على ملاحظة ابن بطوطة للحن خطيب الجمعة، والتي ذكرها للاعتبار:

وفي ذلك يقول الشيخ عثمان بن سند المالكي الشهر آخراً فضلاء البصريين:

قَدْ كَانَتْ الْبَصْرَةُ الْفَيْحَاءَ مِنْ قِدَمٍ مَجْرَى لِأَنْحُرٍ نَحْوِ تَغْدِفِ الدُّرَّرَا
فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَتَفَرِّاءُ الْوِشَاحِ فَلَا نَحْوِيَّ فِيهَا سِوَى نَزْرِ وَهُمْ فَقَرَا

عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم، وفي صومعة الجامع الأعظم بها، وبنائها ليس بالقديم. وهي كأحسن ما أنت راء من الصوامع، حسن منظر واعتدالاً وارتفاعاً، لا ميل فيها ولا زيغ. سعدت إليها مرة، ومعى جماعة من الناس، فأخذ بعض من كان معى بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت، حتى أشرت إليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها.

ذكر المشاهدة المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبدالله أحد العشرة رضي الله عنهم، وهو بداخل المدينة وعليه قبة وجامع وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وأهل البصرة يعظمونه تعظيماً شديداً وحق له، ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته رضي الله عنها، وهو بخارج البصرة، ولا قبة عليه، وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل. ومنها قبر حليلة السعدية أم رسول الله ﷺ من الرضاعة رضي الله عنها، وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ﷺ، ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ. وعليه قبة، وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، ولا سبيل لزيارته إلا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران، ومنها قبر الحسن ابن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضي الله عنه، وقبر عتبة الغلام رضي الله عنه، وقبر مالك ابن دينار رضي الله عنه، وقبر حبيب العجمي رضي الله عنه، وقبر سهل بن عبدالله التستري رضي الله عنه. وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته. وذلك كله داخل السور القديم. وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال. وبها سوى ذلك قبور الجسم الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهدين يوم الجمل. وكان أمير البصرة حتى ورودي عليها يسمى بركن الدين العجمي

التوريزي، أضافني فأحسن إلي. والبصرة على ساحل الفرات والدجلة، وبها المد والجزر، كمثل ما هو بوادي سلا، من بلاد المغرب، وسواه، والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها. فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الماء المالح، فيستسقي أهل البصرة ماءً غير جيد لدورهم. ولذلك يقال: إن ماءهم زعاق. قال ابن جزري، وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد، وألوان أهلها مصفرة كاسفة، حتى ضرب بهم المثل. وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي صاحب أترجة:

لله أتخرج غداً بيننا معبراً عن حال ذي عبرة
لما كسا الله ثياب الضنا أهل الهوى وساكني البصرة

ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق، وهو القارب الصغير إلى الأبلّة. وبينها وبين البصرة عشرة أميال، في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار. والبياعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه. وفيما بين البصرة والأبلّة متعبد سهل بن عبد الله التستري. فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي، ويدعون عند ذلك تبركاً بهذا الولي رضي الله عنه. والنواتية يحرفون في هذا البلاد، وهم قيام. وكانت الأبلّة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت. وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها، دالة على عظمها: ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الأبلّة يسمى بمغامس، وذلك فيما بعد المغرب، فصبحنا عبادان، وهي قرية كبيرة في سبخة، لا عمارة بها، وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين. وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال. قال ابن جزري: عبادان كانت بلداً فيما تقدم، وهي مجدبة لا زرع بها، وإنما يجلب إليها، والماء أضاً بها قليل. وقد قال فيها بعض الشعراء:

من مبلغ أندلساً أنني حللت عبادان أقصَى الثرى
أوحش ما أبصرت لكنني قصدتُ فيها ذكرها في الورى
الخبزُ فيها يتهادونه وشربةُ الماء بها تُشترى

وعلى ساحل البحر منها رابطة، تعرف بالنسبة إلى الخضر وإلياس
عليهما السلام. وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة
والزاوية، ويتعشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم. وذكر
لي أهل هذه الزاوية، أن بعبادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له، يأتي هذا
البحر مرة في الشهر، فيصطاد فيه ما يقوته شهراً، ثم لا يرى إلا بعد تمام
شهر. وهو على ذلك منذ أعوام. فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن إلا طلبه،
فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات، وانطلقت طالباً له. فجئت
مسجداً خرباً فوجدته يصلي فيه، فجلست في جانبه، فأوجز في صلاته. ولما
سلم أخذ بيدي وقال لي: بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة، فقد بلغت بحمد
الله مرادي في الدنيا، وهو السياحة في الأرض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه
غيري فيما أعلمه، وبقيت الأخرى. والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ
المراد من دخول الجنة. ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم
بموضعه، فذهبوا إليه فلم يجدوه، ولا وقعوا له على خير. فعجبوا من شأنه، وعدنا
بالعشي إلى الزاوية فبتنا بها، ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء
الآخرة. ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرح السرح
بمساجدها، ثم يعود إلى زاويته. فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه
سمكة طرية وقال له: أوصل هذه إلى الضيف الذي قدم اليوم. فقال لنا الفقير
عند دخوله علينا: من رأى منكم الشيخ اليوم؟ فقلت له: أنا رأيته. فقال: يقول
لك هذه ضيافتك. فشكرت الله على ذلك، وطبخ لنا الفقير تلك السمكة،

فأكلنا منها أجمعون، وما أكلت قط سمكاً أطيب منها. وهجس في خاطري الإقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ، ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك، ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول. ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك. وكنت أحب قصد بغداد العراق، فأشار علي بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور، ثم إلى عراق العجم، ثم إلى عراق العرب. فعملت بمقتضى إشارته، ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول، على وزن فاعول وجيمها معقودة، وهي صغيرة على ساحل الخليج الذي ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس، وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات، ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق. وأقمت بها يوماً واحداً، ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول، وسرنا ثلاثاً في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت الشعر. ويقال: إن أصلهم من العرب، ثم وصلنا إلى مدينة رامز، وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة)، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار نزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود، ولقيت عنده رجلاً من أهل العلم والدين والورع، هندي الأصل، يدعى بهاء الدين، ويسمى إسماعيل، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا المتتاني، وقرأ على مشايخ توريث وغيرها. وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة، ثم رحلنا منها ثلاثاً في بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد. وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء، وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن.

وفي كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد يطبخون الطعام. ثم وصلت مدينة تستر، وهي آخر البسيط من بلاد أتابك، وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضرة، وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة، ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة، وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد. ووالي هذه المدينة ينسب إلى سهل بن عبدالله ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق، وهو عجيب

في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر، ولم أر كزرقته إلا نهر بلخشان. ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول، والدروازة عندهم الباب. ولها أبواب غير شارعة إلى النهر. وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب. والنهر عميق، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد واحلة. قال ابن جزى: وفي هذا النهر يقول بعضهم:

أنظر لشاذروان تستر وأعجبٌ من جمعِه ماءً لري بلادِه
ككميِّ قومٍ جمعتْ أموالُه فغدا يفرِّقه على أجنادهِ

والفواكة بتستر كثيرة، والخيرات متيسرة، ولا مثل لأسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة، وينذرون لها النذور. ولها زاوية بها جماعة من الفقراء. وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الإمام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر الدين سليمان، وهو من ذرية سهل بن عبدالله. وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل، جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار، وله مدرسة وزاوية، وخدامها فتیان، له أربعة أولاد: سنبل وكافور وجوهر وسرور أحدهم موكل بأوقاف الزاوية، والثاني متصرف فيما يحتاج إليه من النفقات في كل يوم، والثالث خديم السباط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين. فأقمت عنده ستة عشر يوماً، فلم أر أعجب من ترتيبه، ولا أرغد من طعامه. يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الأربعة من الأرز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء. وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع. ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيتة قبله بالحجاز والشام ومصر، ولم ألق فيمن لقيته مثله.

حضرت يوماً عنده ببستان له على شاطئ النهر، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبرائها، وأتى الفقهاء من كل ناحية، فأطعم الجميع، ثم صلى بهم صلاة الظهر، وقام خطيباً وواعظاً، بعد أن قرأ القراء أمامه بالتحسين المبكية والنفحات المحركة المهيجة، وخطب خطبة بسكينة ووقار، وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه، ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية. ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع، ويرموا بها إلى الواعظ، فيجيب عنها. فلما رمي إليه بتلك الرقاع جمعها في يده، وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبداع جواب وأحسنه. وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا. وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم، وكانوا خمسة عشر رجلاً من الطلبة قدموا من البصرة برسوم ذلك، وعشرة رجال من عوام ستر.

حكاية

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى، وهذه البلاد يحمّ داخلها في زمان الحر، كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياة والفواكه. وأصابت الحمى أصحابي أيضاً. فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني، وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج إليه الميت، وصلى عليه. وتركت بها صاحباً يدعي بهاء الدين الخشني، فمات بعد سفري. وكنت حين مرضي لا أشتهي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته، فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاماً فاشتتهته، ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به إلي فأكلت منه. وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه، وأتى إلي وقال لي: كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام في السوق؟ وهلاً أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما تشتهيه. ثم أحضر جميعهم وقال لهم: جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغيره

فأتوه به، واطبخوا له ما يشاء. وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد، جزاه الله خيراً.

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شامخة. وبكل منزل زاوية، كما تقدم ذكر ذلك. ووصلنا إلى مدينة إيدج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم)، وتسمى أيضاً مال الأمير، وهي حضرة السلطان أتاك. وعند وصولي إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى، وله النظر في كل الزوايا، وهم يسمونها المدرسة. والسلطان يعظمه ويقصد زيارته، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة، يزورونه غدواً وعشياً، فأكرمني وأضافني وأنزلي زاوية تعرف باسم الدينوري، وأقمت بها أياماً، وكان وصولي في أيام القيظ، وكنا نصلي صلاة الليل، ثم ننام بأعلى سطحها، ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة. وكان في صحبتي اثنا عشر فقيراً، منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم، ونحن على أحسن ترتيب.

ذكر ملك إيدج وتستر

وملك إيدج في عهد دخولي إليها السلطان أتاك افراسياب بن السلطان أتاك أحد وأتاك عندهم سمة لجميع من يلي تلك البلاد من ملك. وهي تسمى بلاد اللور. وولي هذا السلطان بعد أخيه أتاك يوسف، وولي يوسف بعد أبيه أحد، وكان أحد المذكور ملكاً صالحاً، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعائه وستين زاوية ببلاده، منها بحضرة إيدج أربع وأربعون، وقسم الخراج أثلاثاً: ثلث لنفقة الزوايا والمدارس، وثلث لمرتب العساكر، وثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه، وبيعت منه هدية للملك العراق في كل سنة، وربما وفد عليه بنفسه، وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شامخة، وقد نحت الطرق في الصخور، وسويت ووسعت، بحيث تصعد الدواب بأحبالها.

وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض، تشققها الأنهار، وشجرها البلوط، وهم يصنعون من دقيقه الخبز، وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فإن عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس، ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحمًا وحلواء، وجميعه من أوقاف السلطان عليها. وكان السلطان أتابك أحمد زاهداً صالحاً كما ذكرناه، يلبسُ تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر.

حكاية

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد، فقال له بعض خواصه إن أتابك أحمد يدخل عليك وعليه الدرع، وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعاً، فأمره باختبار ذلك على جبهه من الانبساط ليعرف حقيقته، فدخل عليه يوماً فقام إليه الأمير الجوبان عظيم أمراء العراق، والأمير سويتة أمير ديار بكر، والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق، وأمسكوا بثيابه كأنهم يازحونه، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر، ورآه السلطان أبو سعيد وقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جواره وقال له: سن أطا بالتركية، ومعناه أنت أبي، وعوّضه عن هديته بأضعافها، وكتب له اليرليغ، وهو الظهير، أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام، ثم ولي أخوه افراسياب. ولما دخلت مدينة ايدج أردت رؤية افراسياب المذكور فلم يتأت لي ذلك، بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده، وليس له سواه فمرض في تلك الأيام، وفي إحدى الليالي أتاني أحد خدامه، وسألني عن حالي فعرفته، وذهب، ثم جاء بعد صلاة المغرب، ومعه

طيفوران كبيران: أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة، وخريطة فيها دراهم، ومعه أهل السماع بآلاتهم، وقال: اعملوا السماع حتى يهزج الفقراء، ويدعون لابن السلطان فقلت له: إن أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص، ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء. ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ، وقد مات المريض المذكور وفي الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا: إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء، فينبغي لك أن تذهب في جملتهم فأبيت، فعزموا علي، فلم يكن لي بد من المسير، وسرت معهم، فوجدت مشور دار السلطان ممتلئاً رجالاً وصبياناً من المماليك، وأبناء الملوك والوزراء والأجناد قد لبسوا التلابيس، وجلال الدواب، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن، وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور، وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة إلى الأخرى، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين خوند كارما، ومعناه مولاي أنا، فرأيت من ذلك أمراً هائلاً ومنظراً فظيماً لم أعهد مثله.

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ أني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء، قد استندوا إلى حيطان المشور، وهو غاص بهم من جميع جهاته، وهم بين بالكٍ ومتباكٍ ومطرق، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثياباً خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها إلى أعلى ووجوها مما يلي أجسادهم، وعلى رأس كل واحد منهم خرقة أو مئزر أسود، وهكذا يكون فعلهم إلى تمام أربعين يوماً وهي نهاية الحزن عندهم، وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة.

فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يميناً وشمالاً، أرتاد موضعاً

لجلوسي فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر، وفي إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد، عليه ثوب صوف مثل اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار، فتقدمت منه، وانقطع عني أصحابي لما رأوا إقدامي نحوه، وعجبوا مني وأنا لاعلم لي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل، فرد علي السلام، وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام، وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له، ثم نظرت إلى الناس، وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة، وأشار إليّ أحد القضاة أن أنحط إلى جانبه فلم أفعل، وحينئذ استشعرت أنه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذي ذكرناه قبل، فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل فقام إليه وجلس فيما بيني وبينه، فحينئذ علمت أنه السلطان.

ثم جيء بالجنائز، وهي بين أشجار الأترج والليمون وقد ملأوا أغصانها بثمارها، وهي بأيدي الرجال فكأن الجنائز تمشي في بستان، والمشاعل في رماح طوال بين يديها، والشمع كذلك، فصلى عليها، وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك، وهو بموضع يقال له: هلا فيجان، على أربعة أميال من المدينة، وهنالك مدرسة عظيمة يشقها نهر، وبدخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام، ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر، ولم أستطع أن أذهب معهم إلى المدفن لبعدها عن الموضع فعدت إلى المدرسة.

فلما كان بعد أيام بعث إلي السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولاً يدعوني إليه، فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر، وصعدنا في درج كثيرة إلى ان انتهينا إلى موضع لا فرش به، لأجل ما هم فيه من الحزن، والسلطان جالس فوق مائدة، وبين يديه آنتان قد غطيتا، إحداها من الذهب والأخرى من

الفضة، وكانت بالمجلس سجادة خضراء، وفرشت لي بالقرب منه، وقعدت عليها وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود، ونديم له لا أعرف اسمه فسألني عن حالي وبلادتي، وسألني عن الملك الناصر، وبلاد الحجاز، فأجبت عن ذلك، ثم جاء فقيه كبير، وهو رئيس فقهاء تلك البلاد، فقال لي السلطان، هذا مولانا فضيل، والفقيه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا وبذلك يدعو السلطان وسواه، ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور، وظهر لي أن السكر غالب عليه، وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر، ثم قال لي باللسان العربي، وكان يحسنه تكلم فقلت له: إن كنت تسمع مني أقول لك: أنت من أولاد السلطان أتاك أحد المشهور بالزهد والصلاح، وليس فيك ما يقدر في سلطنتك غير هذا، وأشرت إلى الآيتين فخجل من كلامي وسكت، وأردت الانصراف، فأمرني بالجلوس، وقال لي: الاجتماع مع أمثالك رحمة ثم رأيت يتمايل ويريد النوم، فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم اجده، فنزل الفقيه محمود في طلبه، وصعد الفقيه فضل يطلبه في داخل المجلس، فوجده في طاق هنالك فأتى به فأخجلني بره واعتذرت إليه، فقبل نعلي ووضع على رأسه وقال لي: بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك، والله إنني لأرجو أن يؤثر ذلك فيه.

ثم كان رحيلي من حضرة ايذج بعد أيام، فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم، وأقمت بها أياماً، وبعث إلي السلطان بجملة دنانير، وبعث بمثلها لأصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شاخنة، وفي كل ليلة تنزل بمدرسة فيها الطعام، فمنها ما هو في العمارة، ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب إليها جميع ما تحتاج إليه. وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كاريو الرخ، وهي آخر بلاد الملك وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان.

ثم وصلنا إلى بلدة أشتُرْكان (وضبط اسمها بضم الهمزة وإسكان الشين المعجم
وضم التاء المعلولة وإسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه
والبساتين، ولها مسجد بديع يشقه النهر. ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان،
واسمها كأنه تثنية فيروز، وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين
وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة، وقد أوقدوا
خلفها وأمامها المشاعل، وأتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الأغاني المطربة،
فعجبنا من شأنهم، وبتنا بها ليلة. ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان، وهي كبيرة
على نهر عظيم، وإلى جانبه مسجد على النهاية من الحسن، تصعد إليه في درج،
وتحفه البساتين. وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان وأبراج الحمام،
ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء
الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة)، ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها
إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنة والروافض، وهي
متصلة بينهم حتى الآن، فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش
الذي لا نظير له، يسمونه بقمر الدين، وهم يبيسونه ويدخرونه، ونواه ينكسر
عن لوز حلو، ومنها السفرجل الذي لا مثيل له في طيب المطعم وعظم الجرم،
والأعناب الطيبة، والبطيخ العجيب الشأن الذي لا مثيل له في الدنيا إلا ما كان
من بطيخ بخارى وخوارزم، وقشره أخضر، وداخله أحمر ويدخر كما تدخر
الشريحة بالمغرب، وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فإنه في أول أمره
يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم
بيض زاهرة، مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة، وفيهم كرم
وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة، وربما دعا
أحدهم صاحبه فيقول له: اذهب معي لنأكل نان وماس، والنان بلسانهم الخبز
والماس اللبن فإذا ذهب معه أطمعه أنواع الطعام العجيب مباحياً له بذلك وأهل

كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيراً منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الأعزاب، وتفاحر تلك الجماعات، ويضيف بعضهم بعضاً مظهرين لما قدروا عليه من الإمكان، محتفلين في الأظعمة وسواها الاحتفال العظيم، ولقد ذكر لي أن طائفة منهم أضافت أخرى، فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير. وكان نزولي بأصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد، وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق، ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حتام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحداً في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود ابن علي المعروف بالرجاء، وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوماً، فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في إكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث إليّ بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفاً، ولم أكن رأيت قبل ولا أكلته.

كرامة لهذا الشيخ

دخل علي يوماً بموضع نزولي من الزاوية، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ، وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم، ونشرت في البستان، ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة، تدعى عندهم هزرميخي، فأعجبني، وقلت في نفسي: مثل هذه كنت أريد فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان، وقال لبعض خدامه، اثني بذلك الثوب الهزرميخي، فأتوا به فكساني إياه فأهويت إلى قدميه أقبلها، وطلبت منه أن يلبسني طاقة من رأسه ويجيزني في ذلك بما أجازه

والده عن شيوخه، فألبسني إياها في الرابع عشر لجمادى الأخيرة سنة سبع وعشرين وسبعائة، بزأويته المذكورة، كما لبس من والده شمس الدين، ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود، ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء، ولبس علي من الإمام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي، ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي، ولبس أبو النجيب من عمه الإمام وحيد الدين عمر، ولبس عمر من والده محمد ابن عبد الله المعروف بعمويه، ولبس محمد من الشيخ أخي فرج الزنجاني، ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري، ولبس أحمد من الإمام ممشاد الدينوري، ولبس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي، ولبس علي بن أبي القاسم الجنيد، ولبس الجنيد من سري السقطي، ولبس سري السقطي من داود الطائي، ولبس داود من الحسن ابن أبي الحسن البصري، ولبس الحسن ابن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. قال ابن جزري: هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند، والمعروف فيه أن سرياً السقطي صحب معروفاً الكرخي، وصحب معروف داود الطائي، وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي، وأخوه فرج الزنجاني إنما المعروف أنه صحب أبا العباس النهاوندي، وصحب النهاوندي أبا عبد الله بن خفيف، وصحب ابن خفيف أبا محمد وربما صحب روم أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الأسود، وليس بينها أحد والله أعلم والذي صحب أبا فرج الزنجاني هو عبد الله بن ابن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب.

ثم سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا إلى بلدة كليل، (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين

وفواكه، رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلاً عراقياً بدرهم، ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزواية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي، وله مال عريض قد اعانه الله على إنفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور، ثم سرنا منها إلى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم والف وصاد مهمل)، بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق: والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على صفة خندق فيه بساتينها ومياهها، وبخارجها رباط ينزل به المسافرون، عليه باب حديد، وهو في النهاية من الحصانة والمنعة، وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون. وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينجو، والد السلطان أبي إسحاق ملك شيراز، وفي يزدخاص يصنع الجبن اليزد خاصي، ولا نظير له في طيبه وزن الجبنة منه من أوقيتين إلى أربع، ثم سرنا منها على طريق دشت الروم، وهي صحراء يسكنها الأتراك. ثم سافرنا إلى مايين (واسمها بياءين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق، وأكثر أشجارها الجوز. ثم سافرنا منها إلى مدينة شيراز، وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر، لها البساتين المونقة والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز، وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات، وتشققها خمسة أنهار، أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف، سخن في الشتاء

فينبث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء، وصحنه متسع مفروش بالمرمر، ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف باب حسن، يفضي إلى سوق الفاكهة وهي من أبداع الأسواق، وأنا أقول بتفضيلها على باب البريد من دمشق. وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف، وخصوصاً نساؤها وهن يلبسن الخفاف، ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهم شيء ولهن الصدقات والإيثار، ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم، فربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح، يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر. ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد. وعند دخولي إلى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الإمام قطب الأولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد، ومعنى خداد عطية الله فوصلت إلى المدرسة المجدية المنسوبة إليه وبها سكناه، وهي من عمارته، فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابي، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج إلى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخي شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي إلى أن وصل إلى مصلاه، فأرسل يدي وأوماً إلي أن أصلي إلى جانبه ففعلت وصلى العصر ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصاغاني، وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا، وتقدم كبار المدينة للسلام عليه، وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساءً ثم سألتني عن حالي وكيفية قدومي، وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل إليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد،

وهو ناصر الدين الدرقي من كبار الأمراء ، خراساني الأصل . فعند وصوله إليه نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمونها الكلا ، وقبّل رجل القاضي ، وقعد بين يديه ، ممسكاً أذن نفسه بيده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً .

حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت بإسلامه التتر ، زاد في تعظيم هذا الفقيه . فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة ، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن علياً ابن عمه وصهره ، فهو وارث الخلافة ، ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده إنما هو إرث عن أجداده وأقاربه مع حداثة عهد السلطان بالكفر ، وعدم معرفته بقواعد الدين . فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض ، وكتب بذلك إلى العراقيين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وبعث الرسل إلى البلاد ، فكان أول بلاد وصل إليها بغداد وشيراز وأصفهان . فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وقالوا لا سمع ولا طاعة . وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة ومعهم السلاح وبه رسول السلطان ، فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه وهم اثنا عشر ألفاً من سلاحهم ، وهم حاة بغداد والمشار إليهم فيها . فحلفوا له أنه إن غير الخطبة المعتادة ، إن زاد فيها أو نقص منها ، فإنهم قاتلوه ، وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك

لما شاءه الله. وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة، ولا يذكر إلا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم. فخاف الخطيب من القتل، وخطب الخطبة المعتادة. وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد. فرجعت الرسل إلى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث. فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان إذ ذاك في موضع يعرف بقرباباغ، وهو موضع مصيفه. فلما وصل القاضي أمر أن يرمي به إلى الكلاب التي عنده، وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لأكل بني آدم. فإذا أوتي بمن يسלט عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقاً غير مقيد، ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر أمامها ولا مفر له، فتدركه فتمزقه، وتأكل لحمه. فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت إليه، بصبصت إليه وحركت أذناها بين يديه، ولم تهجم عليه بشيء، فبلغ ذلك السلطان، فخرج من داره حافي القدمين فأكب على رجل القاضي يقبلهما، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب، وهي أعظم كرامات السلطان عندهم، وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد، كانت شرفاً له ولبنيه وأعقابهم يتوارثونه، ما دامت تلك الثياب أو شيء منها، وأعظمها في ذلك السراويل. ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به. ورجع السلطان عن مذهب الرفض، وكتب إلى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة، وأجزل العطاء للقاضي وصرفه إلى بلاده مكرماً معظماً، وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمکان، وهو خندق بين جبلين طولها أربعة وعشرون فرسخاً، يشقه نهر عظيم. القرى منتظمة بجانبه، وهو أحسن موضع بشيراز. ومن قرأه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن^(١)، وهي للقاضي المذكور. ومن عجائب هذا الموضوع

(١) في بعض طبعات الكتاب: هيمن.

المعروف بمجكان أن نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخاً شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز، والجزء الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل.

وفد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند. قصدته من هرمز متبركاً بقلائه، وذلك سنة ثمان وأربعين. وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوماً. فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة، فسلمت عليه فعرفني وقام إلي فعانقني ووقعت يدي على مرفقه، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينها. وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة. وزرته يوماً فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق، وسيقع ذكره، قاعداً بين يديه، ممسكاً بإذن نفسه، وذلك هو غاية الأدب عندهم، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدي الملك. وأتيت مرة أخرى إلى المدرسة، فوجدت بابها مسدوداً. فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث، فصرفها إلى القاضي مجد الدين. فوصلتا إليه إلى المدرسة، وتحاكمتا عنده. وفصل بينهما بواجب الشرع. وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي، وإنما يقولون له مولانا أعظم. وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر إلى ذكر اسمه فيها. وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعائة. ولاحت علي أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله.

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به. وهو من خيار السلاطين، حسن الصورة والسيرة والهيئة، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع، صاحب قوة وملك كبير. وعسكره ينيف على خمسين ألفاً من الترك والأعاجم،

وبطانته الادنون إليه اهل اصفهان. وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح، لأنهم أهل نجدة وبأس شديد وجرأة على الملوك. ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب. ولقد شاهدت رجلاً مرة تجره الجنادرية، وهم الشرط إلى الحاكم، وقد ربطوه في عنقه. فسألت عن شأنه، فأخبرت أنه وجدت في يده قوس بالليل. فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفهانيين عليهم، لأنه يخافهم على نفسه. وكان أبوه محمد شاه ينجو والياً على شيراز من قبل ملك العراق، وكان حسن السيرة محبباً إلى أهلها. فلما توفي وتلى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسيناً، وهو ابن الجويان أمير الأمراء، وسيأتي ذكره، وبعث معه العساكر الكثيرة، فوصل إلى شيراز وملكها وضبط مجاييها. وهي من أعظم بلاد الله مجي.

ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي، وهو والي المجي بها، أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم. وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخسمائة دينار ذهباً. وأقام بها الأمير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق، فقبض على أبي إسحاق بن محمد شاه ينجو، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون، وأراد حملهم إلى العراق ليطلبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقة حياء ان ترى في تلك الحال. فإن عادة نساء الأتراك أن لا يغطين وجوههن، واستغاثت بأهل شيراز، وقالت: أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان؟ فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود، قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال: لا نتركها تخرج من بلدنا، ولا نرضى بذلك. فتابعه الناس على قوله وثارَت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيراً من العسكر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها. وفر الأمير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوماً، فأعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعودة إلى شيراز والتحكم في أهلها

بما شاء . فلما بلغ أهلها ذلك ، علموا أنهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين ، وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح ، فخرج إلى الأمير حسين . فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح . ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة . فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في أجل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ، ودخل الأمير حسين في أهبة وحفل عظيم وسار فيهم بأحسن سيرة . فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه ، وتغلب كل أمير على ما بيده ، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم ، وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس ، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر . واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد ، فبدأ بالأقرب منها وهي مدينة بزد ، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب ؛ فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة ، تحدى بها الرمال فحاصره بها . فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ، ولم يسمع بمثله . فكان يضرب على عسكر السلطان أبي إسحاق ليلاً ، ويقتل ما شاء ، ويحرق المضارب والفساطيط ، ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه . وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد إلى قلعته . فأمر السلطان أن تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن . وتلاحقت العساكر فقاتلهم ، وخلص إلى قلعته ولم يصب من أصحابه إلا واحداً أتى به إلى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أماناً لمظفر لينزل إليه فأبى ذلك . ثم وقعت بينها المراسلة ووقعت له حجة في قلب السلطان أبي إسحاق لما رأى من شجاعته . فقال : أريد أن أراه ، فإذا رأيته انصرفت عنه . فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها ، وسلم عليه فقال له السلطان : إنزل على الأمان . فقال له مظفر : إني

عاهدت الله أن لا أنزل إليك حتى تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل إليك ، فقال له أفعل ذلك . فدخل إليه السلطان في عشرة من أصحاب الخواص .

فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبّل ركابه ومشى بين يديه مترجلاً ، فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه إلى المحلة راكباً ، فأجلسه السلطان إلى جانبه ، وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالاً عظيماً ، ووقع الاتفاق بينها ان تكون الخطبة باسم السلطان أبي إسحاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

وكان السلطان أبو إسحاق طمع ذات مرة إلى بناء إيوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه . فأخذوا في ذلك . وكان أهل كل صناعة يباهون من عداهم ، فانتهوا في المباهاة إلى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد ، وكسوها ثياب الحرير المزركش ، وفعلوا نحو ذلك في براذع الدواب ، وإخراجها ، وصنع بعضهم الفؤوس من الفضة ، وأوقدوا الشمع الكثير . وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ملابسهم ، ويربطون فوط الحرير على أوساطهم . والسلطان يشاهد أفعالهم من منظره له . وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع . ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة الترخيم فيه ، وصارت القعلة تخدم فيه بالأجرة ، ويحشر لذلك آلاف منهم . وسمعت والي المدينة يقول إن معظم مجباها ينفق في ذلك البناء . وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلكي التوريزي ، وهو من الكبار . كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبي سعيد المسمى علي شاه جيلان . ولهذا الأمير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ، ويلقب بهاء الملك ، وقد على ملك الهند حين وفودي عليه ، ووفد معنا شرف الملك أمير يخت ، فخلع ملك الهند علينا جميعاً ، وقدم كل واحد في شغل يليق به ، وعين لنا المرتب والإحسان ، وسنذكر ذلك . وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الإيثار وإجزال العطايا . ولكن أين الثريا من

الثرى. وأعظم ما تعارفنا من أعطيات أبي إسحاق أنه اعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولاً عن ملك هراة سبعين ألف دينار. وأما ملك الهند فلم يزل يعطي أضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم.

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين أنه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروي المولد، من سكان خوارزم، يسمى بالأمر عبد الله، بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلود مور صاحب خوارزم بهدية إلى ملك الهند المذكور، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها وبعث ذلك إليها، واختار رسولها المذكور الإقائة عنده فصيره في ندمائه فلما كان ذات يوم قال له: ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب. فرجع إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة، وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه، وكان صاحب قوة وقام بها، فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض. فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جلته ثلاثة عشر مناً بمان دهمي، والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصرياً. فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه.

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير يخت الملقب بشرف الدين الخراساني، وهو الذي تقدم ذكره آنفاً بحضرة ملك الهند، فأتاه الملك عائداً. ولما دخل عليه أراد القيام، فحلف له الملك أن لا ينزل عن كتفه والكت: السرير. ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة، فقع عليها. ثم دعا بالذهب والميزان فأحضرا. وأمر المريض أن يقعد في إحدى كفتي الميزان، فقال يا خوند عالم لو علمت أنك تفعل هذا

للبست علي ثياباً كثيرة. فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب. فليس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن، وقعد في كفة الميزان، ووضع الذهب في الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب، وقال له: خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه.

حكاية تناسبها

وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردوي، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق، فتفقه فيه، فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم، وصرف ذلك خمسة وعشرون ديناراً ذهباً. وحضر مجلسه يوماً، فسأله السلطان عن حديث، فسرده له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى، فأعجبه حفظه، وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه، ثم نزل الملك عن مجلسه، فقبل قدميه وأمر بإحضار صينية من ذهب، وهي مثل الطيفور الصغير، وأمر أن يؤتى فيها ألف دينار من الذهب، وأخذها السلطان بيده، فصّبها عليه، وقال: هي لك مع الصينية. ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الأسفراييني، وكان أبوه نزل بغداد، فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلاً وعبداً وخلعاً، وسنذكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند. وإنما ذكرنا هذا لما قدمناه من أن السلطان أبا إسحق يريد التشبه به في العطايا. وهو وإن كان كريماً فاضلاً فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء.

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخي علي الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به، ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله. وبنت عليه طاش

خاتون أم السلطان أبي إسحق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر .
والقراء يقرأون القرآن على التربة دائماً . ومن عادة الخاتون أنها تأتي إلى هذا
المشهد في كل ليلة اثنين، ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء .
وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء . سمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من
الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير، ونقييهم عضد الدين الحسيني . فإذا
حضر القوم بالمشهد المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف، وقرأ القراء
بالأصوات الحسنة، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء . فإذا أكل القوم، وعظ
الواعظ . ويكون ذلك كله بعد صلاة الظهر إلى العشي والخاتون في غرفة مطلة
على المسجد لها شباك . ثم تضرب الطبول والأنفار والبوقات على باب التربة، كما
يفعل عند أبواب الملوك . ومن المشاهد بها مشهد الإمام القطب الولي أبي عبدالله
ابن خفيف المعروف عندهم بالشيخ . وهو قدوة بلاد فارس كلها، ومشهد معظم
عندهم، يأتون إليهم بكره وعشياً، فيتمسحون به . وقد رأيت القاضي مجد الدين
أتاه زائراً واستلمته . وتأتي الخاتون إلى هذا المسجد في كل ليلة جمعة، وعليه زاوية
ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعالهم في مشهد أحمد بن موسى
وقد حضرت الموضوعين جميعاً . وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي
إسحاق متصلة بهذه التربة . والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الأولياء
شهير الذكر، وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض
الهند .

كرامة لهذا الشيخ

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء، فأصابتهم
مجاعة في طريق الجبل حيث لا عمارة، وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ ان
يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار، وهي في ذلك المحل كثيرة جداً،

ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند . فنهاهم الشيخ عن ذلك . فغلب عليهم الجوع ، فتعدوا قول الشيخ ، وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ عن أكله ، فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم . فكانت تشم الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم . وشمّت الشيخ ولم تتعرض له . وأخذته فيل منها ، ولف عليه خرطومه ، ورمى به على ظهره ، وأقى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره . فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضع عن ظهره إلى الأرض بحيث يرونه . فجاءوا إليه وتمسكوا به إلى ملكهم ، فعرفوه خبره وهم كفار ، وأقام عندهم أياماً . وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران ، والخور هو النهر . وبذلك الموضع مغاص الجوهر . ويذكر أن الشيخ غاص في بعض الأيام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معاً ، وقال للملك : اختر مالك في إحداها . فاختر ما في اليمنى فرمى إليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثيل لها ، وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها . وقد دخلت جزيرة سيلان هذه ، وهم مقيمون على الكفر ، إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ، ويؤوّنهم إلى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون في بيوتهم وبين أهليهم وأولادهم ، خلافاً لسائر كفار الهند فإنهم لا يقربون المسلمين ، ولا يطعمونهم في أنيتهم ، ولا يسقونهم فيها . مع أنهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم . ولقد كنا نضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم ، فيأتون به في قدورهم ، ويقعدون على بعد منا ، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم ، ويصبون عليه الكوشال وهو الإدام ، ويذهبون فنأكل منه . وما فضل علينا تأكله الكلاب والطيور . وإن أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر ، وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم . ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلي من كبار الأولياء ، وقبره في مسجد جامع يخطب فيه ، وبذلك الجامع يصلي

القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه . وبهذا الجامع سمعت عليه كتاب مسند الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي . قال : أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا ، قالت : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي ، قال : أخبرنا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، قال : أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن علان العرضي ، قال : أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي عن أبي عباس بن يعقوب الأصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الإمام أبي عبد الله الشافعي . وسمعت أيضاً عن القاضي مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب مشارق الأنوار للإمام رضي الله أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الإمام نظام الدين محمود بن عمر الهراوي عن المصنف . ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب ، وعليه زاوية لإطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فإن الرجل منهم يموت ولده أو زوجته ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ، ويدفنه هناك ، ويفرش البيت بالحصر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للميت باباً إلى ناحية الزقاق وشباك حديد ، فيدخل منه القراء يقرأون بالأصوات الحسان . وليس في معمر الأرض أحسن أصواتاً بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها . فكان الميت لم يبرح . وذكر لي أنهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية

مررت يوماً ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجداً متقناً البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي ، وفي

الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شبك مفتوح إلى جهة السوق وهناك شيخ جميل الهيئة واللباس، وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست إليه فسألني عن مقدمي فأخبرته، وسألته عن شأن هذا المسجد فأخبرني أنه هو الذي عمره ووقف عليه أوقافاً كثيرة للقراء وسواهم، وأن تلك الزاوية التي جلست إليه فيها هي موضع قبره إن قضى الله موته بتلك المدينة، ثم رفع بسطاً كان تحته، والقبر مغطى عليه ألواح خشب، وأراني صندوقاً كان بإزائه، فقال: في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودراهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم، فتركها لتكون نفقة مواردتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف علي وأضافني بذلك الموضع. ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي، وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة، بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سباطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر، وينصرفون. وكذلك فعلت عنده رحمه الله. وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين الساماني، وكان من الأمراء الفقهاء، ودفن هنالك بوصية منه بذلك.

وبمدينة شيراز من الفقهاء الشريف مجد الدين وأمره في الكرم عجيب، وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه، ويلبس مرقعة فيدخل عليه كهراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه. ومرتبته في كل يوم من السلطان خمسون ديناراً دراهم. ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون، وهي على مسيرة يومين من شيراز، فنزلنا أول يوم ببلاد الشول، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون.

كرامة لبعضهم

كنت يوماً ببعض المساجد بشيراز ، وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر ، فخطر بخاطري أنه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه ، فدخل علي في أثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ : فرفعت رأسي إليه فألقى في حجري مصحفاً كريماً وذهب عني . فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له ، فلم يعد إلي ، فسألت عنه فقيل لي : ذلك بهلول الشوي ، ولم أره بعد . ووصلنا عشي اليوم الثاني إلى كازرون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبي إسحاق نفع الله به ، وبتنا بها تلك الليلة ومن عاداتهم أن يطعموا الوارد كائناً من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتوكل بالزقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة ، ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية ، وهم يزيدون على مائة ، منهم المتزوجون ومنهم الأعراب المتجردون ، فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي إسحاق فتقضى حاجته بإذن الله وهذا الشيخ أبو إسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة الركاب في بحر الصين انهم إذا تغير عليهم الهواء ، وخافوا اللصوص ، نذروا لأبي إسحق نذراً ، وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فإذا وصلوا بر السلامة ، صعد خدام الزاوية الى المركب ، وأخذوا الزمام ، وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خدام الزاوية فيقبضون ذلك . ومن الفقراء ، من يأتي طالباً صدقة الشيوخ ، فيكتب لها أمرٌ بها ، وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة ، فيضعون القالب في صبغ أحمر ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمناً أن من عنده نذر للشيخ أبي إسحاق فليعط منه لفلان كذا فيكون الأمر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير ،

فإذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسماً في ظهر الأمر بما قبضه. ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي إسحاق بعشرة آلاف دينار، فبلغ خبرها إلى فقراء الزاوية، فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية، ثم سافروا من كازرون إلى مدينة الزيدتين، وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصارين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، ورضي الله عنها وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه، مليحة الأسواق عجيبة المساجد، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة، ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني، وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل، وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح، وتزوج بأخت هذا الملك وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر، وبها توفي القاضي نور الدين المذكور. ثم سافروا منها إلى الحويزاء بالزاي، وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم، بينها وبين البصرة مسيرة أربع، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس، ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافروا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها إلا في موضع واحد يسمى الطرفاوي، وردناه في اليوم الثالث من سفرنا، ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة.

مدينة الكوفة

وهي إحدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مشوى الصحابة، والتابعين ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت إليها، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها، فإنهم يقطعون طريقها ولا سور عليها، وبنائها بالآجر، وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسّمك وجامعها الأعظم

جامع كبير شريف، بلاطاته سبع قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة، قد صنعت قطعاً، ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول، وبهذا المسجد آثار كريمة، فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب مخلق عليه بأعواد الساج مرتفع، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهناك ضربه الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به. وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير مخلق عليه أيضاً بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام، وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام، ويتصل بذلك فضاء، ويتصل بالجدار القبلي للمسجد، يقال: إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام. وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضاً، إنه بيت نوح عليه السلام، والله أعلم بصحة ذلك كله. وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع، يصعد إليه، قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام. وأما قصر الإمارة بالكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق إلا أساسه، والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها، وهو منتظم بمحاذات النخل الملتفة المتصل بعضها بعض، ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعاً مسوداً شديد السواد في بسيط أبيض، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالخطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد.

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحه، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل، ونزلت بخارجها وكرهت دخولي لها، لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا

مدينة الحلة، وهي مدينة كبير مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة، وحدائق النخل منتظمة بها داخلًا وخارجًا، ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل. وأهل هذه المدينة كلها إمامية اثنا عشرية وهم طائفتان: إحداهما تعرف بالأكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة، والقتال قائم بمقربة من السوق الأعظم. بهذه المدينة مسجد على باب ستر حرير مسدول، وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان، ومن عاداتهم أن يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح، وبأيديهم سيوف مشهورة، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر يأخذون منه فرساً مسرجاً ملجماً أو بغلة كذلك، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها، ويأتون مشهد صاحب الزمان، فيقفون بالباب، ويقولون: باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد، وكثر الظلم، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل، ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار إلى صلاة المغرب، وهم يقولون: إن محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه، وأنه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير محمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة، وحكمها أعواماً، وكان حسن السيرة يحمد أهل العراق، إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده. ثم سافرنا منها إلى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها، وعليها مدرسة عظيمة، وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب

الروضة الحجاب والقومة، لا يدخل أحد إلا عن إذنهم، فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان، أولاد رخيک وأولاد فائز، وبينهما القتال أبداً وهم جميعاً إمامية يرجعون إلى أب واحد، ولأجل فتنهم تحربت هذه المدينة. ثم سافرنا منها إلى بغداد.

مدينة بغداد

مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مشوى الخلفاء، ومقر العلماء، وقال أبو الحسن بن جبير رضي الله عنه: وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية، فقد ذهب رسمها. ولم يبق إلا اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر، إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين. فهي ترددها ولا تظلم وتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ. قال ابن جزي: وكان أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقد أقام علي بغداد ناعيتها فليبكها خراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة والنار تطفأ حسناً في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شببتها وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ووجدوا امكان القول ذا

سعة فأطالوا وأطابوا ، وفيها قال الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ، وأنشدني والذي رحمه الله مرات :

طيبُ الهواءِ ببغدادٍ يشوقني قريباً إليها وإن عاقت مقاديرُ
وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت طيبَ الهواءين ممدودٌ ومقصورُ
وفيها يقول أيضاً رحمه الله تعالى ورضي عنه :

سلام على بغداد في كل موطنٍ وحقّ لها مني السلامُ المضاعفُ
فوالله ما فارقتهَا عن قَلِيّ لها وإني بشطي جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت علي برحبها ولم تكن الأقدار فيها تساعفُ
وكانت كخَلٍ كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالِفُ

وفيها يقول أيضاً مغاضباً لها وأنشدني والذي رحمه الله غير ما مرة :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ واسعةٌ وللصعاليك دارُ الضنكِ والضيقِ
ظللتُ أمشي مضافاً في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديقِ

وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة :

أنستُ بالعراقِ بدرًا منيرًا فطوتُ غيبتها وخاضتُ هجيرًا
واستطابتُ ريتا نسائمِ بغداد فكادت لولا البرى أن تطيرا
ذكرتُ من مسارحِ الكرخِ روضاً لم يزل ناضراً وماء نيمرا
واجتنت من رُبى المحولِ نورا واجتلتُ من مطالعِ التاجِ نورا
ولبعض نساء بغداد في ذكرها :

أهأً على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها

ومجالها عند الفرات بأوجهٍ تبدو أهلتها على أطواقها
متبخراتٍ في النعيم كأنما خلّق الهوى العذري من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسنٍ في الدهر تشرق من سنا إشراقها

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر
مدينة الحلة، والناس يعبرونها ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساء فهم في ذلك في نزهة
متصلة ببغداد من المساجد التي يخطب فيها، وتقام فيها الجمعة أحد عشر
مسجداً، منها بالجانب الغربي ثمانية، وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها
كثيرة جداً، وكذلك المدارس إلا أنها خربت. وحمامات بغداد كثيرة وهي من
أبداع الحمامات، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل لرأيه أنه رخام
أسود، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداً به، ويصير في
جوانبها كالصلصال، فيجرف منها، ويجلب إلى بغداد. وفي كل حمام منها
خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض
به، والنصف الأعلى مطلي بالحص الأبيض الناصع، فالضدان بها مجتمعان،
متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجري
بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه
أحد إلا إن أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه
أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثاً من الفوط إحداها
يتزر بها عند دخوله والأخرى يتزر بها عند خروجه، والأخرى ينشف بها الماء
عن جسده ولم أر هذا الإتيان كله في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها
في ذلك.

ذكر الجانب الغربي من بغداد

الجانب الغربي منها هو الذي عمّر أولاً، وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك
فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي

ثمانٍ منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله، والمارستان، فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة، وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه، وهو في محلة باب البصرة، وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب، وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا، وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليها دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة.

ذكر الجانب الشرقي منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد، وموضع التدريس، وجلس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي، عليه البسط، ويقعد المدرس، وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، هكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة: أحدها جامع الخليفة، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم، وهو جامع كبير في سقايات ومظاهر كثيرة للوضوء وللغسل، لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح

مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني ، وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ، وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال : أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر قالت : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز ، الطبيب المارستاني قال : أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجري الصوفي قال : أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي ، قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي عن أبي عمران عيسى ابن عمر بن العباس السمرقندي عن أبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي . والجامع الثاني جامع السلطان ، وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان ، والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة . وعلى كل قبر منها اسم صاحبه : قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتمد وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفي وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضي وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفي وقبر المستنجد وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم ، وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة . ويقرب الرصافة قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد

والصادر . وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية . فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها . وبالقرب منها قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولاقبة عليه . ويذكر أنها بنيت على قبره مراراً فتهدمت بقدررة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه . وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله ، وقبر سري السقطي وقبر بشر الخافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد ، رضي الله عنهم أجمعين . وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، هكذا إلى آخر الأسبوع . وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم . وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحداثق ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها . فلنذكره ها هنا .

ذكر سلطان العراقيين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بَهَادِرْخَان ، وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ، ابن السلطان الجليل محمد خدابنده ، وهو الذي أسلم من ملوك التتر - وضبط اسمه مختلف فيه ، فمنهم من قال إن اسمه خدابنده (بجاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) ، وتفسيره على هذا القول عبدالله ، لأن خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناها . وقيل : إنما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) ، وتفسير خر بالفارسية الخمار فمعناه على هذا غلام الخمار . فشد ما بين القولين من الخلاف على أن هذا الأخير هو المشهور ، وكأن الأول غيره إليه من تعصب . وقيل : إن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون

المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته . فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال ، وهم يسمونه خربندة فسمي به . وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه للناس : قازان ، وقازغان هو القدر . وقيل : سمي بذلك لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها القدر . وخذابنده هو الذي أسلم ، وقدمنا قصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض ، وقصة القاضي مجد الدين معه ، ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان ، وكان ملكاً فاضلاً كريماً ملك وهو صغير السن ، ورأيته ببغداد ، وهو شامل أجل خلق الله صورة ، لانبات بعارضيه ووزيره إذ ذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد ، وكان أبوه من مهاجرة اليهود ، واستوزره السلطان محمد خذابنده والد أبي سعيد . رأيته يوماً بجرافة في الدجلة ، وتسمى عندهم الشبارة ، وهي شبه سلورة ، وبين يديه دمشق خواجه ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد ، وعن يمينه وشماله شبارتان فيها أهل الطرب والغناء . ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم ، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلّام يقوده ونفقة تجري عليه . ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه ، استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان ، وحجر عليه التصرفات ، حتى لم يكن بيده من الملك إلا الاسم . ويذكر أنه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها ، فلم يكن له سبيل إليها ، فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يوماً زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له : لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له : لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بجرم أبيك ، وأنه بات البارحة عند طغى خاتون . وقد بعث إلي وقال لي : الليلة أبيت عندك . وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر ، فإذا صعد إلى القلعة محتفياً برسم المبيت ، أمكنك القبض عليه ، وأبوه يكفي الله أمره . وكان الجوبان إذا ذاك غائباً بخراسان ،

فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره، فلما علم أن دمشق خواجة بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية، فلما كان بالغد، وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكباً، فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معاً، فأحاطت بهما العساكر، ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجة، وفقى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه، وأتيا الملك أبا سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه. وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم. وأمر السلطان بسهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه. واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان، ومعه أولاده مير حسن وهو الأكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن اخت السلطان أبي سعيد من أمه ساطي بك بنت السلطان خذابنده، ومعه عساكر التتر وحاميها. فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا إليه فلما التقى الجمعان هرب التتر إلى سلطانهم، وأفردوا الجوبان. فلما رأى ذلك نكص على عقبه، وفر إلى صحراء سجستان، وأوغل فيها، وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيراً به ومتحصناً بمدينته. وكانت له عليه أيادٍ سابقة فلم يوافق ولده حسن وطالش على ذلك، وقال له: إنه لا يفي بالعهد، وقد غدر بفيروز شاه بعد أن لجأ إليه وقتله. فأبى الجوبان إلا أن يلحق به ففارقه ولده وتوجه ومعه ابنه الصغير جلوخان، فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الأمان، ثم غدر به بعد أيام، وقتله وقتل ولده، وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي سعيد. وأما الحسن وطالش فإنهما قصدا خوارزم وتوجها إلى السلطان محمد أوزبك، فأكرم مثواهما وأنزلهما، إلى أن صدر منها ما أوجب قتلها فقتلها. وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدرطاش فهرب إلى ديار مصر، فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الإسكندرية، فأبى من قبولها وقال: إنما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد. وكان متى بعث إليه الملك الناصر بكسوة أعطى

هو للذي يوصلها إليه أحسن منها إزراء على الملك الناصر، وأظهر أموراً أوجبت قتله فقتله، وبعث برأسه إلى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم. ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين، فوقف بهما على عرفات، وحملوا إلى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع. والجوبان هو الذي جلب الماء إلى مكة شرفها الله تعالى.

ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان، وكانت تسمى بغداد خاتون، وهي من اجل النساء، وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك، وهو ابن عمته، فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد، وكانت أحظى النساء لديه. والنساء لدى الأتراك والتتر هن حظ عظيم. وهم إذا كتبوا أمراً يقولون فيه عن امر السلطان والخواتين ولكل خاتون كثير من البلاد والولايات والمجاي العظيمة، وإذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة. وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد، وفضلها على سواها، وأقامت على هذه الحال مدة أيام. ثم تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حباً شديداً، وهجر بغداد خاتون، فغارت لذلك، وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره.

ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هي التي سمته أجمعوا على قتلها وبدّر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ، وهو من كبار الأمراء. وقدمائهم، فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها. وطرحت هنالك أياماً مستورة العورة بقطعة تليس، واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبي سعيد، كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته.

ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابي سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفاً، تغلب على عراق العرب جميعاً، ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته، تغلب على الموصل وديار بكر، ومنهم الأمير أرتنا، تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم، ومنهم حسن خواجه بن الدمراطاش بن الجوبان، تغلب على تبريز والسلطانية وهمذان وقم وقاش، والري ورامين وفرغان والكرج، ومنهم الأمير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان، ومنهم الأمير حسن ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان، ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كنج، ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو، ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات، ومنهم السلطان أبو إسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس، وذلك مسيرة خمس وأربعين، ومنهم السلطان أفراسياب أتاك تغلب على إيدج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره. (ولنعد إلى ما كنا بسبيله) ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد، وغرضي ان أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره. وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر، وينزلون عند الضحى وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له، إما في الميمنة او اليسرة، فإذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره، وأتى كل امير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه، ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء، ثم يليهم أهل الطرب، وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان، وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول، وخسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات، وهي

تسمى عندنا بالغيطات، فيضربون تلك الأبطال والصرنايات. ثم امسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا، إلى أن تم عشر نوبات، فعند ذلك يكون النزول، ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء، وهم نحو خمسين، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأبطال والأنفار والبوقات، ثم ممالك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم، وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات.

ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جند وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملاً رملًا، ويعلق في عنقه، ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل، فيؤتى به إلى الامير، فيبطح على الأرض ويضرب خسًا وعشرين مقرعة على ظهره، سواء كان ربيعاً أو وضيعاً، لا يحاشون من ذلك أحداً. وإذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة، وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة، ولكل واحدة منهن الإمام والمؤذن والقراء والسواق، وينزل الوزراء والكتاب وأهل الأشغال على حدة، وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعاً إلى الخدمة بعد العصر، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة، والمشاعل بين أيديهم.

فإذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير، ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة، ثم أطبال سائر الخواتين، ثم طبل الوزير، ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة، ثم يركب أمير المقدمة في عسكره، ثم يتبعه الخواتين، ثم أثقال السلطان وزاملته، وأثقال الخواتين ثم أميرتان في عسكر له، يمنع الناس من الدخول فيما بين الأثقال والخواتين، ثم سائر الناس. وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام صحبة الأمير علاء الدين محمد إلى بلدة تبريز، وكان من الأمراء الكبار الفضلاء، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز، ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام. وهنالك قبر قازان ملك العراق، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد

والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء . وأنزلني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة .

وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، من أحسن أسواق بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين ، فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهي بأيدي ممالك حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، وهن يشتريه كثيراً ، ويتنافسن فيه . فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ الله منها . ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم ، ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيبلان ، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة ، وعن يساره زاوية . وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج ، ويشقه نهر ماء ، وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر ياسمين . ومن عاداتهم أنهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عمّ بعد صلاة العصر في صحن الجامع ، ويجتمع لذلك أهل المدينة . وبتنا ليلة بتبريز ، ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه فعدت معه . ولم ألق بتبريز أحداً من العلماء .

ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمه الأمير المذكور بمكاني وأدخلني عليه ، فسألني عن بلادي وكساني وأركبني ، وأعلمه الأمير أني أريد السفر إلى الحجاز الشريف فأمر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، وكتب لي بذلك إلى أمير بغداد خواجه معروف ، فعدت إلى بغداد ، واستوفيت ما أمر لي به السلطان ، وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين ، فظهر لي أن أسافر إلى الموصل وديار بكر ، لأشاهد تلك البلاد ، وأعود إلى بغداد في حين

سفر الربي، فأأوجه إلى الربي الشريف. فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دجيل، وهو متفرع عن دجلة، فيسقي قري كثيرة. ثم نزلنا بعد يومين بقري كبيرة تعرف بربي، مخصبة فسيحة. ثم ربلنا فنزلنا موضعاً على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق، وهو مبني على الدجلة. وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سُرَّ مَنْ رأى وتسمى أيضاً سامراً. ويقال لها سام راه، ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة، فلم يبق منها إلا القليل وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودروس معالمها، وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان كما بالحلة، ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا إلى مدينة تكريت، وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجوامع وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق والدجلة من الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم ربلنا منها مرحلتين ووصلنا قري تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبنائوه حافل والقري والعمارة متصلة من هنالك إلى الموصل. ثم ربلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبية سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً. وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتتشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه. وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدها إلى الموصل.

مدينة الموصل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتاع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجها كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة مجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند . وللموصل ريبض كبير فيه الجوامع والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والإتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منها قبة في داخلها خصة رخام مئمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن . وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء . وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل إليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه يقال انه أمر قومه بالتطهر فيها ثم صعداوا التل ودعا فكشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الأبواب التي هي متبينة . وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد ،

وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف مونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام. وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتعبدون فيه. وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب وإقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بجيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلي بداره وأجرى عليّ الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والإيثار المعروف.

وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض إليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبرائها يأتون للسلام عليه غدواً وعشياً وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين^(١) بهجة وإشراقاً وحرس ارجاءها ونواحيها.

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير. ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل^(٢) الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل.

(١) يعني السلطان أبا عنان.

(٢) في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءِ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ «هود/٤٤».

ثم رحلنا مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين وهي مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الأعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله :

طابت نصيبين لي يوماً وطبت لها يا ليت حظي من الدنيا نصيبين
قال ابن جزي : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة، وفيها يقول بعض الشعراء :

لنصيبين قد عجبت وما في دارها لي داعٍ إلى العلات
يعدم الورد أحمرًا في ذراها لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا إلى مدينة سنجار، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والأنهار، مبنية في سفح جبل، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها، ومسجدها الجامع مشهور البركة، يذكر ان الدعاء به مستجاب، ويدور به نهر ماء ويشقه. وأهل سنجار أكراد، ولهم شجاعة وكرم، ومن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبدالله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يوماً ويكون إفطاره على نصف قرص من الشعير، لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لي وزودني بدراهم، لم تزل عندي إلى ان سلبني كفار الهنود. ثم سافرنا إلى مدينة دارا، وهي عتيقة

كبيرة بيضاء المنظر، لها قلعة مشرفة، وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة، بها كان نزولنا، ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين، وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها. قال ابن جزي: قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء وإياها عنى شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سراي الخليّ بقوله في مسمطته:

فَدَعْ رُبُوعَ الحِلَّةِ الفِحاءِ وَازورَّ بِالعِيسِ عَنِ الزَّوراءِ
وَلَا تَقِفْ بِالْمُوصلِ الحِدياءِ إِنْ شَهابِ القَلْعَةِ الشَّهْبَاءِ
مُحرقِ شيطانِ صرُوفِ الدَهرِ

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين، وكان كريماً شهيراً الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة، وأدرك أيام قازان ملك التتر، وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون.

ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفاً، ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة. وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا، جرياً على سنن أبيه قصده أبو عبيد الله محمد ابن جابر الأندلسي المروي الكفيف مادحاً، فأعطاه عشرين ألف درهم. وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام، وله وزير كبير القدر، وهو الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاوي، وقرأ بمدينة تبريز، وأدرك العلماء الكبار، وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلّي، وهو

ينتسب إلى الشيخ الولي فتح الموصل، وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم، ويعتم بنحو ذلك، وكثيراً ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة، كان يتعبد فيه فإذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه.

حكاية

ذكر لي: أن امرأة أنت هذا القاضي، وهو خارج من المسجد، ولم تكن تعرفه، فقالت له: يا شيخ، أين يجلس القاضي؟ فقال لها: وما تريد مني؟ فقالت: إن زوجي ضربي، وله زوجة ثانية، وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته إلى القاضي فأبى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه، فقال لها: وأين منزل زوجك؟ فقالت: بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها: أنا أذهب معك إليه فقالت: والله ما عندي شيء أعطيك إياه فقال لها: لا آخذ منك شيئاً، ثم قال لها: اذهبي إلى القرية وانتظريني خارجها، فأني على أترك. فذهبت كما أمرها وانتظرت، فوصل إليها وليس معه أحد، وكانت عادته أن لا يدع أحداً يتبعه فجاءت به إلى منزل زوجها فلما رآه قال: ما هذا الشيخ النحس الذي معك؟ فقال له: نعم والله أنا كذلك، ولكن أرض زوجتك. فلما طال الكلام، جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي: لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضها الرجل من نفسه وأعطاهما القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف.

لقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائداً إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التي ذكرناها، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد، وفيهم امرأة سالحة عابدة تسمى بالست زاهدة، وهي من ذرية الخلفاء، حجت

مراراً، وهي ملازمة الصوم سلمت عليها، وكنت في جوارها، ومعها جملة من الفقراء يخدمونها، وفي هذه الوجة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزود، ودفنت هنالك، ثم وصلنا إلى مدينة بغداد، فوجدت الحاج في أهبة الرحيل، فقصدت أميرها معروف خوجة فطلبت منه ما أمر لي به السلطان. فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم، وكتب لي بذلك ووجه إلى أمير الركب البهلوان محمد الخويج فأوصاه بي. وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة، فزادها تأكيداً، ولم أزل في جواره وهو يحسن إلي ويزيدني على ما أمر به، وأصابني عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلوني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى، زادها الله شرفاً وتعظيماً، وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم، وكنت ضعيفاً بحيث أؤدي المكتوبة قاعداً فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الخويج المذكور، ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي، ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة. وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب ابن شيبه وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلي وناصر الدين الأسيوطي. وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية، وعافاني الله من مرضي، فكنت في أنعم عيش، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتبار، وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفهوني^(١)، وهي أول حجة حجها، والأخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم

(١) قد يكون في هذه الكلمة تحريف والصواب الأصفهوني نسبة إلى أصفون، إحدى قرى صعيد مصر، وتعرف اليوم بأصفون المطاعة.

الدين الباسي قاضي مصر ، وجماعة غيرهم ، في منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك ، وهو من الفضلاء ، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله ، منهم الفقيه أبو عبدالله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضري والفقيه أبو عبدالله المرسي ، وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن نافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامه ومن أهل القصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد ابن مسلم وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى وولده. ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والأمير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش وكتاب المماليك والتاج أبو إسحاق والست حدق مربية الملك الناصر . وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف ، وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين ، وكانت وقفنا في تلك السنة في يوم الجمعة من سنة ثمان وعشرين ، ولما انقضى الحج أقيمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين ، وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويح والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال ، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ، ودعوا له بأعلى قبة زمزم ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك ، وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فردّ ، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة ، وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ، ولما انقضى الحج أقيمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين . وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سرقوا ، فتشكوا إلى

أيدمور بذلك، فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: إئت بهؤلاء السراق، فقال: لا أعرفهم فكيف نأتي بهم، وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم لك عليهم، إن سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبنى به فشتمه أيدمور وقال له: يا قواد تقول لي هكذا، وضربه على صدره فسقط، ووقعت عامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره، فلحقه مبارك وعبيدة فقتلوه وقتلوا ولده. ووقعت الفتنة بالحرم، وكان به الأمير أحد ابن عم الملك الناصر، ورمى الترك بالنشاب، فقتلوا امرأة قيل: إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال، وركب من ركب من الأتراك، وأميرهم خاص ترك، فخرج إليهم القاضي والأئمة والمجاورون وفوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح، ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر، وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه، وبعث العساكر إلى مكة ففرّ الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان، ولولده، فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير، فخلع عليه، وسلمت إليه مكة، وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليماً فاضلاً فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن فوصلت إلى حده، (بالحاء المهملة المفتوح) وهي نصف الطريق بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال: إنها من عمارة الفرس، وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض، تفوت الاحصاء كثرة، وكانت هذه السنة قليلة المطر، وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت.

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي بمجدة أنه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام، فسلم علي وسماي باسمي وأخذ بيدي، ولم أكن عرفته قط، ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم أمسك أصبعي بيده وقال: اين الفتحة؟ وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة لقيني بعض الفقراء وسألني، ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي. فلما سألتني عنه هذا الأعمى قلت له: أعطيته لفقير. فقال: ارجع في طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك، والله أعلم بحاله، ومجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس، معروف البركة يستجاب به الدعاء، وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرازق، وقاضيتها وخطيبها الفقيه عبدالله من أهل مكة شافعي المذهب، وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن، وعد أهل جدة المقيمين بها فإن أكملوا أربعين خطب وصل بهم الجمعة، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهراً أربعاً، ولا يعتبر من ليس من أهلها وإن كانوا عدداً كثيراً. ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل، وركب الشريف منصور ابن أبي نمي في جلبة أخرى، ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل، لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك، ولم أكن ركبنا البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وأمتعتهم في الجلب وهو متأهبون للسفر.

حكاية

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلماننا أن يأتيه بعديلة دقيق، وهي نصف حمل وبطة سمن، يأخذها من جلب أهل اليمن. فأخذها وأتى بها إليه،

فأتاني التجار باكين، وذكروا إلى أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة، ورغبوا مني أن أكلمه في ردها، وأن يأخذ سواها، فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له: إن للتجار في جوف هذه العديلة شيئاً، فقال: إن كان سكرًا فلا أردّه اليهم، وإن كان سوى ذلك فهو لهم، ففتحوها ووجدوا الدرهم، فردّها عليهم وقال لي: لو كان عجلان ما ردّها وعجلان هو ابن أخيه رميثة، وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصداً لليمن، فذهب بمعظم ما كان فيها، وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد، وقد صلح حاله، وأظهر العدل والفضل. ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين، وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب، واشتد الميد بالناس^(١)، ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر، فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد، وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه، وطبخنا ورأيت في ذلك المرسى عجبا، وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به، وقد امتلأ سمكاً، كل سمكة منها قدر الذراع، ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيراً واشتروا وقصدت إلينا طائفة من البجاة، وهم سكان تلك الأرض سود الألوان، لباسهم الملاحف الصفرة، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً، عرض الأصعب، وهم أهل نجدة وشجاعة، وسلاحهم الرماح والسيوف، ولهم جمال يسمونها الصهب، يركبونها بالسروج فاكثرينا منهم الجمال، وسافرنا معهم في بركة كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها وهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه. وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين

(١) يقال: ماد، أي أصابه غثيان ودوار من سكر أو ركوب بحر.

بلسانهم، وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن، وهي على نحو ستة أميال من البر، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحر الوحش، والمعزى عندهم كثير والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة وجوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة.

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نغمي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميرها بعده، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب الرّبان ولا يزال أبداً في مقدم المركب، ينبه صاحب السكان على الأحجار^(١)، وهم يسمونها النبات. وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حلي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها)، وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قديماً وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقهاء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل، لا حصر بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائي له شيئاً إلا إبريق الوضوء، وسفرة

(١) المقصود بالأحجار: الشعب المرجانية.

من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه، فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنقل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق، فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم إلى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم، أبدأً، ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقي عمري، ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه.

ذكر سلطان حلي

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بنى كنانة، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء. صحبته من مكة إلى جدة، وكان قد حج في سنة ثلاثين. ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني، وأقمت في ضيافته أياماً. وركبت البحر في مركب له فوصلت إلى بلدة السَّرْجَة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وإسكان الراء وفتح الجيم)، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهلبي، وهم طائفة من تجار اليمن، أكثرهم ساكنون بصنعاء^(١) ولهم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل، ويعينون الحجاج، ويركبونهم في مراكبهم، ويزودونهم من أموالهم. وقد عرفوا بذلك واشتهروا به. وكثر الله أموالهم، وزادهم من فضله، وأعانهم على فعل الخير. وليس بالأرض

(١) في بعض طبقات الكتاب: يسكنها جماعة من أولاد الهبي، وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم

ساكنون بصنعاء.

من يماثلهم في ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة، فله مثل ذلك من المآثر والإيثار. وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين، ثم رحلنا إلى مرسى الحادث ولم ننزل به، ثم إلى مرسى الأبواب، ثم إلى مدينة زبيد، مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره. وهي برية لا شطية^(١) إحدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، أملح بلاد اليمن وأجلها، ولأهلها لطافة الشائل وحسن الأخلاق وجمال الصور، ولنسائها الحسن الفائق الفائق، وهي وادي الخصيب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ في وصيته: «يا معاذ إذا جئت وادي الخصيب فهورول» ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة، وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق، الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغرب عندهن مزية، ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد اسفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينها ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى ان يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة. لكنهن لا يخرجن عن بلدن أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني، والفقير الصوفي المحقق أبا العباس الإيباني، والفقير المحدث أبا علي

(١) أي: ليست واقعة على شط البحر وساحله.

الزبيدي . ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم ، واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن . ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية ، واستقبلهم أصحابه . ولم يبرح الشيخ عن موضعه ، فسلموا عليه ، وصافحهم ورحب بهم . ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر . وكانوا يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق^(١) أفعاله . فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا . فأرادوا القيام فلم يستطيعوا . وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية . وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم . فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ، ورجعوا عن مذهبهم الفاسد ، فخرج عليهم الشيخ ، فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيئ وأدخلهم زاويته ، فأقاموا في ضيافته ثلاثاً وانصرفوا إلى بلادهم . وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها : غسانة خارج زبيد . ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل ، فأضافني وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ ، وأقمت معه ثلاثاً . وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي ، وهو من كبار الصالحين ، ويقدم عليه حجاج اليمن إذا توجهوا للحج . وأهل تلك البلاد

(١) وَهَمَّ ابْنُ بطوطة في نقله عن عقيدة الزيدية ، فهم لا ينفون القدر ، وهم على مذهب المعتزلة في أن العبد يخلق أفعاله بقدرة خلقها الله له . والذين ينفون القدر هم : القدرية أتباع معبد الجهنبي ، وإنما كان الزيدية على مذهب المعتزلة ، لأن الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم كان تلميذاً لواصل بن عطاء ، رأس المعتزلة .

وأعرابها يعظموه ويحترمونه. فوصلنا إلى جبلة، وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار. فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزأوته وسلمت عليه معه. وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام، ثم انصرفنا. وبعث معنا أحد الفقراء، فتوجهنا إلى مدينة تعز حضره ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلولة وكسر العين المهملة وزاء)، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها، وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفضاظة. وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك. وهي ثلاث محلات: إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره، والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة، والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب.

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول، شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بني العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميراً، ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه. وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي إلى قاضي القضاة الإمام المحدث صفي الدين الطبري المكي، فسلمنا عليه ورحب بنا، وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثاً. فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس، دخل بي عليه فسلمت عليه، وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته، ثم يرفعها إلى رأسه، ويقول: أدام الله عزك. ففعلت كمثل ما فعله القاضي عن يمين الملك، وأمرني، فقعدت بين يديه. فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد^(١) رضي الله عنه، وعن ملك مصر

(١) يقصد السلطان أبا سعيد المريني سلطان فاس.

وملك العراق وملك اللور ، فأجبتة عما سأل من أحوالهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بإكرامي وإنزالي . وترتيب قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسي ، وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكتاب السر وأمير جندار على رأسه ، والشاويشية ، وهم من الجنادرة وقوف على بعد . فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : بسم الله . فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده . فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقعد إلا من أمر بالقعود . يقول السلطان للأمير جندار مُرُ فلاناً يقعد ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً ، ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ، ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف ، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمرء ووجوه الأجناد . ويجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحداً . وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه . فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند . وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياماً ، وأحسن إلي وأرکبني ، وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء ، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى . مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان . فالمسافرون عند الزوال لثلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن

أمطارها وابلّة متدفقة، والمدينة مفروشة كلها. فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها. وجامع صنعاء من أحسن الجوامع، وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السلام. ثم سافرت منها إلى مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد؛ وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر. والماء على بعد منها، فربما منعه العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر. وهي مرسى أهل الهند. تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبات وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجروور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضاً. وأهل عدن ما بين تجار وحالين وصيادين للسّمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة.

حكاية

ذكر لي أن بعضهم بعث غلاماً له ليشتري له كبشاً، وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك أيضاً، فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد. فوَقعت المزايدة فيه بين الغلامين، فأنهى ثمنه إلى أربعمائة دينار. فأخذه أحدهما وقال: إن رأس مالي أربعمائة دينار، فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن، وإلا دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي، وذهب بالكبش إلى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار، وعاد الآخر إلى سيده خائباً فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه. ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأري. فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار. وله غلمان وخدام أكثر من ذلك. مع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح

ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب، ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي، وكان والده من العبيد الجمالين. واشتغل ابنه بالعلم، فرأس وساد. وهو من خيار القضاة وفضلائهم. أقمت في ضيافته أياماً، وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين. أولها زيلع، وآخرها مقدشو. ومواشيهم الجمال، وهي أغنام مشهورة السمن. وأهل زيلع سود الألوان، وأكثرهم رافضة. وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة، إلا أنها أقدر مدينة في العمور وأوحشها وأكثرها نتناً. وسبب ننتها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة. ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله، ولم نبت بها لقدرها. ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو^(١) (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو)، وهي مدينة متناهية في الكبر، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم. ولهم أغنام كثيرة، وأهلها تجار أقوياء، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها. ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها. ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق، وهي القوارب الصغار إليه. ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها، فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام، فيقدمه لتاجر من تجار المركب، ويقول: هذا نزيلي. وكذلك يفعل كل واحد منهم. ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد، وحصلت له معرفة أهله، فإنه ينزل حيث شاء. فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له، ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله، فذلك البيع مردود

(١) عاصمة جمهورية الصومال الآن وتعرف بمقديشيو.

عندهم . ولهم منفعة في ذلك . ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إلي بعضهم فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه . فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي ، وكان فيها أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث إلي أحدهم . فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ . فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال : السلطان . وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ . فقلت له : إذا نزلت توجهت إليه . فقال لي : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مقدشو

وسلطان مقدشو كما ذكرناه ، إنما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو في الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشي ، ويعرف اللسان العربي . ومن عوائده أنه متى وصل مركب ، يصعد إليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ، فيعرف بذلك كله ، ويعرض على السلطان . فمن استحق أن ينزل عنده أنزله . ولما وصلت مع القاضي المذكور ، وهو يعرف بابن البرهان ، المصري الأصل ، إلى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي ، فقال له : بلغ الأمانة . وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ، ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والقوفل ، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى للقاضي كذلك ، وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق ، وجاء بمقمم من ماء الورد الدمشقي ، فسكب علي وعلى القاضي ، وقال : إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة ، وهي دار معدة لضيفاة الطلبة . فأخذ القاضي بيدي ، وجئنا إلى تلك الدار ، وهي بمقربة من دار

الشيخ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه. ثم أقي بالطعام من دار الشيخ، ومعه أحد وزرائه، وهو الموكل بالضيوف، فقال: مولانا يسلم عليكم، ويقول لكم قدمتم خير مقدم. ثم وضع الطعام، فأكلنا. وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه في صحيفة خشب كبيرة، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول. ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب، ويجعلونه في صحيفة، ويجعلون اللبن المروّب في صحيفة، ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنب، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة، وتؤكل كالفاكهة، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل. وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات.

والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم. وفي نهاية من ضخامة الأجسام وسمنها. ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي. وأقمنا ثلاثة أيام، يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم، وتلك عادتهم.

فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ، وأتوني بكسوة. وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل، فإنهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطنة، وعمامة مصرية معلمة. وأتوا لأصحابي بكسي تناسبهم. وأتينا الجامع، فصلينا خلف المقصورة. فلما خرج الشيخ من باب المقصورة، سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وأنستنا. وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده، وهو مدفون هناك، فقرأ ودعا. ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا. وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن، يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها

على رأسه، ويقول: أدام الله عزك. ثم خرج الشيخ من باب المسجد، فلبس نعليه، وأمر القاضي أن ينتعل، وأمرني ان أنتعل، وتوجه إلى منزله ماشياً، وهو بالقرب من المسجد، ومشى الناس كلهم حفاة. ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب. وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان. وهو متقلد بفضة حرير. وهو معتم بعمامة كبيرة. وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار. وأمراء الأجناد أمامه وخلفه، والقاضي والفقهاء والشرفاء معه. ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة. وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك. وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه، والفقهاء والشرفاء معه. ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر. فلما صلوا العصر مع الشيخ، أتى جميع الأجناد، ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم. ثم ضربت الأبطال والأنفار والأبواق والصرنايات، وعند ضربها لا يتحرك أحد، ولا يتزحزح من مقامه، ومن كان ماشياً وقف، فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام، فإذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا. وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة. وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده، وكل صنف على دكانة تخصهم، لا يشاركون فيها سواهم. ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبارهم بين يديه، وسائرهم يسلمون وينصرفون. ثم يدخل الشرفاء، فيقعد كبارهم بين يديه، ويسلم سائرهم وينصرفون. وإن كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه، ثم يدخل المشايخ والحجاج، فيجلس كبارهم ويسلم سائرهم وينصرفون. ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد، طائفة بعد طائفة

أخرى، فيسلمون وينصرفون. ويؤتى بالطعام، فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس، ويأكل الشيخ معهم. وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم. ويأكل سائر الناس بدار الطعام، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ. ثم يدخل الشيخ إلى داره، ويقصد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات، فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى، وهم الوزراء والأمراء. وما كان مفتقراً إلى مشاوررة السلطان كتبوا إليه، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عاداتهم.

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا^(١) من بلاد الزوج. فوصلنا إلى جزيرة منبسى^(٢) (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهملة مفتوح وياء)، وهي كبيرة، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر. ولا برّ لها، وأشجارها: الموز والليمون والأترج. ولهم فاكهة يسمونها الجمون، وهي شبه الزيتون، ولها نوى كنواه، إلا أنها شديدة الحلاوة. ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة، وإنما يجلب اليهم من السواحل. وأكثر طعامهم الموز والسّمك. وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان. وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان، فيستقون منها الماء بقدرح خشب، قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع. والأرض حول البئر والمسجد مسطحة، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل. ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يسمح بها رجليه. ومن أراد الوضوء أمسك القدرح بين فخذه

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم: كلّوه بكسر الكاف وسكون اللام وفتح الواو وهاء.

(٢) وهي الآن: مدينة منبسا ميناء كينيا.

وصب على يديه . ويتوضأ . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام . وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر إلى مدينة كُلوًا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) ، وهي مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزوج المستحكمو السواد . ولهم شرطات في وجوههم ، كما هي في وجوه الليميين من جنادة . وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفالة ويوفي من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة . ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب . وسقف بيوتها الديس . والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزوج . والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

ذكر سلطان كلوا

وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن . ويكنى أيضاً أبا المواهب ، لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو إلى أرض الزوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم ، فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة . فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها . ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جاز ومنصور بن لبيدة ابن أبي نمي ومحمد بن شميلة ابن أبي نمي . ولقيت بمقدشو أتيل بن كيش بن جاز ، وهو يريد القدوم عليه . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصداً إلى داره ، فعرض له أحد الفقراء اليمينيين فقال له : أبا المواهب ، فقال : لبيك يا فقير ما حاجتك ؟ قال :

أعطني هذه الثياب التي عليك . فقال له : نعم ، أعطيكها . قال : الساعة ، قال : نعم ، الساعة . فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثياباً سواها ، وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : أدخل فخذها ، فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير أيضاً بعشرة رؤوس من الرقيق وحلّين من العاج . ومعظم عطاياهم من العاج ، وقلما يعطون الذهب .

ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ، ولي أخوه داود . فكان على الضد ، إذا أتاه سائل يقول له : مات الذي كان يعطي ، ولم يترك من بعده ما يعطي . ويقيم الوفود عنده الشهود الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كلوا إلى مدينة ظَفَارِ الحموض^(١) (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) ، وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند . ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل ، قد قطعتة مرة في قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح ، ولم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار . وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً ، وبينها وبين عمان عشرون يوماً .

ومدين ظفار في صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها ، والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالخرجاء ، وهي من أقدر الأسواق وأشدها تنناً وأكثرها ذباباً ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسّمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ،

(١) في إحدى طبعات الكتاب: الجبوضي .

وهو بها في النهاية من السمن . ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم . ولم أر ذلك في سواها . وأكثر باعتها الخدم ، وهن يلبسن السواد . وزرع أهلها الذرة ، وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوأ كبيرة ، ويجعلون لها حبلاً كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها في صهريج يسقون منه . ولهم قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت ، والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند ، وهو أكثر طعامهم . ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ، ولا تنفق في سواها . وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها ، ومن عاداتهم أنه إذا وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل ، وصعدوا في صنبوق إلى المركب ، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، وللكراني وهو كاتب المركب ، ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها ، وتضرب أمامهم الأبطال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير الجند ، وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً ، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان .

وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب . وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ، ولباسهم القطن ، وهو يجلب إليهم من بلاد الهند . ويشدون الفوط في أوساطهم عوضاً عن السروال ، وأكثرهم يشد فوطة في وسطه ، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ، ويغتسلون مرات في اليوم . وهي كثيرة المساجد . ولهم في كل مسجد مظاهر كثيرة معدة للاغتسال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً .

والغالب على أهلها رجالاً ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر^(١) والعياذ بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح

(١) الأدر : انتفاخ الخصيتين .

في المسجد إثر صلاة الصبح والعصر، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة، ويصافحهم الذين يلونهم. وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة، يتصافحون أجمعون. ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه، وحيل بينه وبينها.

وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمتهن بن طوران شاه صاحب هرمز نازها مرة من البر والبحر، فأرسل الله سبحانه عليه ريحاً عاصفاً كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها. وكذلك ذكر أن الملك المجاهد سلطان اليمن عتق ابن عم له بعسكر كبير، برسم انتزاعها من يد ملكها، وهو أيضاً ابن عمه، فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعاً. ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها. ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم. نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم، وهو عيسى بن علي، كبير القدر كريم النفس. فكان له جوارٍ مسميات بأسماء خدام المغرب، إحداهن اسمها بخيطة والأخرى زاد المال. ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها. وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة، لا يجعلون عليها العمام. وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص، معلقة في البيت، يصلي عليها صاحب البيت، كما يفعل أهل المغرب. وأكلهم الذرة. وهذا التشابه كله مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير. وبقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى، من أهل ظفار. وهذه الزاوية معظمة عندهم، يأتون إليها غدواً وغشياً، ويستجيرون بها. فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه. رأيت بها شخصاً ذكر لي أن له بها مدة سنين مستجيراً لم يتعرض له السلطان.

وفي الأيام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان، وأقام فيها حتى وقع

بينهما الصلح. أتيت هذه الزاوية، فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبدالله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور، وشاهدت لها فضلاً عظيماً، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منها ذلك الماء الذي غسلنا به فشرّب منه، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشرّبوه. وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم. وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الله الزبيدي، وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه، ولا يكل ذلك إلى غيره. وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث، وهي معظمة عندهم، ويستجير بها من طلب حاجة، فتقضى له. ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم، استجاروا بهذه التربة، وأقاموا في جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم.

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف، وهي منازل عاد. وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية لصيادي السمك. وفي الزاوية قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر. والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده، والله أعلم. وهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم. وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية. وهو طيب المطعم شديد الحلاوة. وبها أيضاً التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند، ولا يكونان إلا ببلاد الهند، وبمدينة ظفار هذه، لشبهها بالهند وقربها منه؛ اللهم إلا أن في مدينة زبيد، في بستان السلطان شجيرات من النارجيل. وإذا قد وقع ذكر التنبول والنارجيل، فلنذكر خصائصهما.

ذكر التنبول

والتنبول شجر يفرس كما تفرس دوالي العنب، ويصنع له معرشات من القصب، كما تصنع لدوالي العنب، أو يفرس في مجاورة النارجيل، فيصعد فيها

كما تصعد الدوالي، وكما يصعد الفلفل. ولا ثمر للتنبول. وإنما المقصود منه ورقه، وهو يشبه ورق العليق. وأطيبه الأصفر. وتجنّي أوراقه في كل يوم. وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيماً شديداً، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها، لاسيما إن كان أميراً أو كبيراً. وإعطاؤه عندهم أعظم شأنًا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب. وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل، وهو شبه جوز الطيب، فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً، ويجعله الإنسان في فمه ويعلّكه، ثم يأخذ ورق التنبول، فيجعل عليها شيئاً من النورة ويمضغها مع الفوفل. وخاصيته أنه طيب النكهة، ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق، ويفرح آكله، ويعين على الجوع. ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه، أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه، فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة. ولقد ذكر لي أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره، وسنذكره عند ذكر بلاد الهند.

ذكر النارجيل

وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنًا وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر النخل لافرق بينهما، إلا أن هذه ثمر جوزاً، وتلك ثمر ثمراً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر، وهم يصنعون به حبالاً يخيطنون به المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب. والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المهل، تكون بمقدار رأس الآدمي. ويزعمون أن حكماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك

ومعظماً لديه، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة. فقال الحكيم للملك: إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم، يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا. فقال له الملك: فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته، قال: إن لم يظهر، فاصنع برأسي كما صنعت برأسه. فأمر الملك برأس الوزير فقطع، وأخذ الحكيم، وغرس نواة تمر في دماغه، وعالجها حتى صارت شجرة، وأثمرت بهذا الجوز. وهذه الحكاية من الأكاذيب، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم. ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه. وأما الإعانة على الباءة ففعله فيها عجيب. ومن عجائبه إنه يكون في ابتداء أمره أخضر. فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة. ومزاجه حار معين على الباءة. فإذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجردها ما في داخل الجوزة من الطعام، فيكون طعمه كطعم البيضة إذا شربت ولم يتم نضجها كل التمام، ويتغذى به. ومنه كان غذائي أيام إقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام. وعجائبه أن يصنع منه الزيت والحليب والعسل. فأما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام النخل منه، ويسمون الفازانية، يصعدون إلى النخلة غدواً وعشياً إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل، وهم يسمونه الأطواق، فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار إصبعين، ويربطون عليه قدرًا صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق. فإذا ربطها غدوة، صعد إليها عشياً ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويفسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر من العزق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية، ثم يفعل غدوة كفعله عشياً، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرب، فيصير عسلاً عظيماً النفع طيباً، يشتره تجار الهند واليمن والصين،

ويحملونه إلى بلادهم، ويصنعون منه الحلواء. وأما كيفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شبه الكرسي، تجلس فوقه المرأة، ويكون بيدها عصا، في أحد طرفيها حديدة مشرفة، فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديد، ويجرشون ما في باطن الجوزة، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة، حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء، ثم يمرس ذلك الجريش بالماء، فيصير كلون الحليب بياضاً، ويكون طعمه كطعم الحليب، ويأتمم به الناس. وأما كيفية صنع الزيت فإنهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره، فيزيلون قشره ويقطعون قطعاً ويجعل في الشمس، فإذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته، وبه يستصحبون. ويضعه الناس في شعورهم، وهو عظيم النفع.

ذكر سلطان ظفار

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن. وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن. وله عليه هدية، يبعثها له في كل سنة. ثم استبد الملك المغيث بملكها، وامتنع من إرسال الهدية. وكان من عزم ملك اليمن على محاربتة، وتعيين ابن عمه ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفاً. وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن، عظيم فسيح، والجامع بإزائه. ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر؛ وفي كل يوم إثنين وخيس تأتي العساكر إلى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون، والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة، فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره. ولا يمنع أحد من دخول المشور، وأمير جندار قاعد على بابه، وإليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية، وهو يطالع السلطان، ويأتيه الجواب للحين. وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه إلى خارج المدينة، وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش

بالذهب، فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى. وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل. وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب. فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها. ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني، وكان معلم صبيان، فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة، وعاهده على أن يستوزره إن ملك. فلما ملك استوزره، فلم يكن يحسنها، فكان الاسم له والحكم لغيره. ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن إدريس المصري من أهل جزيرة مصيرة. وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب، صيادون للسماك، ساكنون هنالك، وعندهم شجر الكندر، وهو رقيق الورق. وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن، ثم عاد صمغاً. وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جداً هنالك. ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك، وسمكهم يعرف باللّخم (بجاء معجم مفتوح)، وهو شبيه كلب البحر. يُسرح ويقدّد ويقتات به. وبيوتهم من عظام السمك، وسقفها من جلود الجمال. وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لُمعان (بضم اللام)، وهو في وسط البحر، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر.

ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعَدناه إلى هذه الرابطة، فوجدنا بها شيخاً نائماً، فسلمنا عليه فاستيقظ، وأشار برد السلام فكلّمناه فلم يكلمنا، وكان يحرك رأسه. فأتاه أهل المركب بطعام، فأبى أن يقبله. فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك

شفتيه ولا نعلم ما يقول، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد، وليس معه ركوة ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل. وقال أهل المركب: إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل. وأقمنا تلك الليلة بساحل الجبل، وصلينا معه العصر والمغرب، وجئنا بطعام فرده، وأقام يصلي إلى العشاء الآخرة. ثم أذن وصلينا معه. وكان حسن الصوت بالقراءة مجيداً لها، ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أوماً إلينا بالانصراف، فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره. ثم إني أردت الرجوع إليه لما انصرفنا، فلما دنوت منه غلب علي الخوف، ورجعت إلى أصحابي وانصرفت معهم، وركبنا البحر، ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير، وليست بها عمارة. فأرسلنا وصعدنا إليها، فوجدناها ملاءة بطيور تشبه الشقاشق، إلا أنها أعظم منها. وجاءت الناس بيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها. وكان يجالسي تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم، ورأيته يأكل معهم تلك الطيور، فأنكرت ذلك عليه، فاشتد خجله وقال لي: ظننت أنهم ذبحوها. وانقطع عني بعد ذلك من الخجل، فكان لا يقربني حتى أدعو به. وكان طعامي في تلك الأيام بذلك المركب التمر والسّمك. وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكاً يسمى بالفارسية شير ماهي، ومعناه أسد السمك، لأن شير هو الأسد، وماهي السمك. وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتارزت، وهم يقطعونه قطعاً ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة، لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه، ويأكلونه بالتمر. وكان عندي خبز. وكعك استصحبتهما من ظفار، فلما نفدا، كنت أقتات من ذلك السمك في جملتهم. وعيّدنا عيد الأضحى على ظهر البحر، وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر، ودامت إلى طلوع الشمس، وكادت تغرقنا.

كرامة

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر، ويدعى بمولانا، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة، فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له: يا مولانا خضر كيف رأيت؟ قال: كنت عند الهول أفتح عيني أنظر، هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا، فلاأراهم، فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح. ثم أغلق عيني ثم أفتحها، فأنظر كذلك، إلى أن فرج الله عنا. وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق، ولم ينج منه إلا رجل واحد خرج عوماً بعد جهد شديد. وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم أذقه قبل ولا بعد، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن، وصب عليه السيلان، وهو عسل التمر، وأكلناه. ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه، وهي على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث، جزيرة كبيرة، لاعيش لأهلها إلا من السمك. ولم ننزل إليها لبعدها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة. وأقمنا بها يوماً، وتوجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا، ثم سرنا يوماً وليلة، ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا منها مدينة قلعات، في سفح جبل، فخيل لنا أنها قريبة. وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله. فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب، فسألت عن طريقها، فأخبرت أني أصل إليها العصر. فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها، وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره، وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم، وأخذت أثواباً كانت لي، فدفعتها

للدليل ليكفيني مؤونة حملها، وحملت في يدي رحماً. فإذا ذلك الدليل يجب أن يستولي على أثوابي، فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر، فأراد عبوره بالثياب، فقلت له: إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا، فإن قدرنا الجواز جزنا، وإلا صعدنا نطلب المجاز فرجع. ثم رأينا رجالاً جازوه عوماً فتحققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب. فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشدت وسطي وكنت أهرز الرمح، فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازاً، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها، واشتد الأمر، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من أصحابه ويبد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي. وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا، وبيننا وبينها خنادق نمشي فيها الأميال الكثيرة. فلما جاء العشي أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر، وهو لا طريق له، لأن ساحله حجارة. فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب. فقلت له: إنما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها، وبينها وبين البحر نحو ميل. فلما أظلم الليل قال لنا، إن المدينة قريبة، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها إلى الصباح. فخفت أن يتعرض لنا أحد في الطريق، ولم أحقق مقدار ما بقي، إليها، فقلت له: إنما الحق ان نخرج عن الطريق فننام، فإذا أصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله. وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك، فخفت أن يكونوا لصوصاً، وقلت التستر أولى. وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك. فخرجت عن الطريق، وقصدت شجرة من شجر أم غيلان، وقد أعيتت وأدركني الجهد، لكنني أظهرت قوة وتجلداً، خوف الدليل. وأما صاحبي فمريض لا قوة له. فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي، وأمسكت الرمح بيدي وردد صاحبي وردد الدليل، وبقيت ساهراً. فكلما تحرك الدليل

كلمته وأريته أني مستيقظ، ولم نزل كذلك حتى الصباح.

ثم خرجنا إلى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة، فبعثت الدليل ليأتينا بماء، وأخذ صاحبي الثياب. وكان بيننا وبين المدينة مهاوٍ وخنادق. فأتانا بالماء فشربنا، وذلك أوان الحر، ثم وصلنا إلى مدينة قلّهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة)، فأتيناها ونحن في جهد عظيم. وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم يخرج من تحت أظفارها، فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة، أن قال لنا الموكل بالباب: لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك، ومن أين قدمت. فذهبت معه إليه فرأيته فاضلاً حسن الأخلاق، وسألني عن حالي وأنزلي، وأقامت عنده ستة أيام، لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام.

ومدينة قلّهات على الساحل، وهي حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد. حيطانه بالقاشاني، وهو شبه الزليج. وهو مرتفع، ينظر منه إلى البحر، والمرسى، وهو من عمارة الصالحة ببيبي مريم، ومعنى بيبي عندهم الحرة. وأكلت بهذه المدينة سمكاً لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، فلا آكل سواه. وهم يشوونه على ورق الشجر، ويجعلونه على الأرز، ويأكلونه. والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة، ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي. وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح. وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب. وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا. فيقولون مثلاً: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا. وأكثرهم خوارج. لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز، وهو من أهل السنة. وبمقربة من قلّهات قرية طيبي، واسمها على

نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهي من أجل القرى وأبدعها حسناً، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات. وبها الموز المعروف بالرواري والمروري بالفارسية هو الجوهرى (المروار الجوهري)، وهو كثير بها، وجلب منها إلى هرمز وسواها. وبها أيضاً التنبول، لكن ورقته صغيرة. والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عمان. ثم قصدنا بلاد عمان، فسرنا ستة أيام في صحراء، ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع. وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس. ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نَزْوَا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو مفتوح)، مدينة في سفح جبل^(١)، تحف بها البساتين والأنهار. يأتي كل إنسان بما عنده، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم الوارد والصادر. ولهم نجدة وشجاعة. والحرب قائمة فيما بينهم أبداً. وهم إباضية^(٢) المذهب. ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن، ونثر كلاماً شبه الخطبة يُرضى فيه عن أبي بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلي. وهم أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنوا عنه، فقالوا: ذكر عن الرجل أو قال الرجل. ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه: العبد الصالح قانع الفتنة. ونسأؤهم يكثرن الفساد، ولا غيره عندهم، ولا إنكار لذلك. وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك.

-
- (١) ذكر ياقوت اسم الجبل الذي بسفحة المدينة على أنه: نزوة بناء مربوطة في آخره، ويرسم اسم المدينة الآن في كثير المصادر: نزوى بألف مقصورة في آخرها.
- (٢) الإباضية: إحدى فرق الخوارج، وهي أقربها إلى جماعة المسلمين، ولذلك بقيت فلم تستأصل كغيرها من فرق الخوارج، وتنتشر الآن في سلطنة عمان، وفي مناطق شرق الجزائر على الحدود بينها وبين ليبيا.

ذكر سلطان عمان

وسلطانها عربي من قبيلة الأزد بن الغوث، ويعرف بأبي محمد ابن نبهان. وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان، كما هي أتابك عند ملوك اللور. وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك، ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له الضيافة، ويعطيه على قدره. وله أخلاق حسنة. ويؤكل على مائدته لحم الحمار الإنسي، ويباع بالسوق، لأنهم قائلون بتحليله، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم، ولا يظهره بمحضره. ومن مدن عمان مدينة زكي لم أدخلها، وهي على ما ذكر لي، مدينة عظيمة منها القريات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل، وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز.

حكاية

كنت يوماً عند السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه، فوقفت بين يديه وقالت له: يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي. فقال لها: اذهبي واطردي الشيطان. فقالت له: لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد. فقال لها: اذهبي فافعلي ما شئت. فذكر لي لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان، وتذهب للفساد، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها، وإن قتلوها قتلوا بها، لأنها في جوار السلطان. ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز، وهرمز مدينة على ساحل البحر، وتسمى أيضاً موغ أستان، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة، وبينهما في البحر

ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة، وهي جزيرة مدينتها تسمى جَرَوَن (بفتح الجيم والراء وآخرها نون)، وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة، وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان. وهذه المدينة سكنى السلطان، والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم، وأكثرها سباح وجبال ملح، وهو الملح الداراني، ومنه يصنعون الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها. وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان. ويقولون بلسانهم: خرما وماهي لوت بادشاهي، معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك. وللهاء في الجزيرة قيمة، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة، يجتمع فيها ماء المطر. وهي على بعد من المدينة، ويأتون إليها بالقرب فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر، يوسقونها في القوارب ويأتون بها إلى المدينة. ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنها بابان، فترى الناس يدخلون في إحداها، ويخرجون من الأخرى. ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقطاراني، وأصله من بلاد الروم، فأضافني وزارني وألبسني ثوباً، وأعطاني كمر الصحبة، وهو يحتوي به، فيعين الجالس، فيكون كأنه مستند. وأكثر فقراء العجم يتقلدونه. وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخضر والياس عليها السلام. يذكر أنها يصلبان فيه، وظهرت له بركات وبراهين. وهناك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر، وأقمنا عنده يوماً، وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة، قد نحت غاراً لسكناه. فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له. فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرأ له وغنماً. وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجر له به. وبتنا

عنده ليلة، فأحسن القرى وأجل، رضي الله تعالى عنه، وسيمة الخير والعبادة
لائحة عليه.

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تَمَهَنَ طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين
المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون)، وهو من كرماء السلاطين،
كثير التواضع حسن الأخلاق، وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من
فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه، ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهياً للحرب
مشغولاً بها مع ابني أخيه نظام الدين. فكان في كل ليلة يتيسر للقتال. والغلاء
مستولٍ على الجزيرة، فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد
الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب.
وأقمنا عندهم ستة عشر يوماً. فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب:
كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان؟ فجننا على الوزير وكانت داره في جوار
الزاوية التي نزلت بها، فقلت له، إني أريد السلام على الملك. فقال: بسم الله،
وأخذ بيدي فذهب بي إلى داره، وهي على ساحل البحر، والأجفان مجلسة
عندها. فإذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة، وعلى رأسه عمامة، وهو مشدود الوسط
بمنديل، فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك. وكان إلى جانبه ابن
اخته، وهو علي شاه ابن جلال الدين الكيجي، وكانت بيني وبينه معرفة،
فأنشأت أحادثه، وأنا لا أعرف الملك، فعرفني الوزير بذلك. فخجلت منه
لإقبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت، ثم قام فدخل داره، وتبعه
الأمراء والوزراء وأرباب الدولة. ودخلت مع الوزير، فوجدناه قاعداً على سرير

ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر ، لم تر العيون مثلها لأن مغاصات الجواهر تحت حكمه . فجلس أحد الأمراء إلى جانبه ، وجلست إلى جانب ذلك الأمير ، وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك . وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ، ثم قام فودعته وانصرفت . وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه . فخالف عليه أخوه نظام الدين ، ودعا لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر ، فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر إلى مدينة قلعات التي تقدم ذكرها ، وهي من جملة بلاده ، فأقام بها شهوراً وجهاز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه . وعاد إلى قلعات ، وفعل ذلك مراراً . فلم تكن له حيلة إلا أن يرسل بعض نساء أخيه فسّمته ومات . وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها ، وفر ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس ، حيث مغاص الجواهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحرية ، حتى تخرب معظمها . ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال . فلما عدنا البحر اكترينا دواباً من التركمان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق . وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريق لصووص الأعراب ، وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران ، فمن صادفته فيها قتلته . ولقد ذكر لي أن الرجل إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح ، وكنا نساfer فيها بالليل ، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس . وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك الشهير الاسم هنالك .

حكاية

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الأصل (واللك بضم اللام) معناه الأقطع . وكانت يده قطعت في بعض حروبه . وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق . وكان يبني الزوايا ، ويطعم الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس . ويقال : إنه كان يدعو أن لا يسلب إلا على من لا يزكي ماله ، وأقام على ذلك دهرآ . وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ، ويدفنون بها قرب الماء ورواياه . فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفاً من الهلاك . وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثم تاب وتعبد حتى مات ، وقبره يزار ببلده . وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) ، وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر . ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا إلى مدينة لار (وآخر اسمها راء) ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين . ولها أسواق حسان ، ونزلنا منها بزواية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذي قصدنا زيارته بجنج بال . وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ، ومعه جماعة من الفقراء . ومن عاداتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ، ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان ، فيطعمون منها الوارد والصادر . وأهل الدور قد ألقوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم ، ويعدونهم لهم إعانة على إطعام الطعام . وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ، ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم ، فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ، ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين، تركماني الأصل، بعث إلينا بضيافة. ولم نجتمع به ولا رأيناه. ثم سافرنا إلى مدينة خُنْجُ بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء وإسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام)، وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته، وبزاويته نزلنا. ولما دخلت الزاوية، رأيت قاعداً بناحية منها على التراب، وعليه جبة صوف خضراء بالية، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء، فسلمت عليه، فأحسن الرد، وسألني عن مقدمي وبلادي، وأنزلي. وكان يبعث إليّ الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين، كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة. ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجب وأمر غريب، فإن نفقته في هذه الزاوية عظيمة. وهو يعطي العطاء الجزيل، ويكسو الناس، ويركبهم الخيل، ويحسن لكل وارد وصادر. ولم أر في تلك البلاد مثله، ولا يعلم له جهة إلا ما يصله من الإخوان والاصحاب، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون. وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال، وله اسم بتلك البلاد شهير، وشأن في الولاية كبير. وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه. وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوماً واحداً، لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها. وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين، فرحت إليها بالعشي، وسلمت على شيخهم وعليهم، ورأيت جماعة مباركة قد أثمرت فيهم العبادة، فهم صفر الألوان نحاف الجسوم كثيرو البكاء غزيرو الدموع. وعند وصولي إليهم أتوا بالطعام. فقال كبيرهم: ادعوا إلي ولدي محمداً وكان معتزلاً في بعض نواحي الزاوية. فجاء إلينا الولد، وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة، فسلم وقعد. فقال له أبوه: يا بني، شارك هؤلاء الواردين

في الأكل تنل من بركاتهم. وكان صائماً فأفطر معنا، وهم شافعية المذهب. فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا. ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس، وتسمى أيضاً بسيراف، وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس، وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة، طيبة البقعة، في دورها بساتين عجيبة، فيها الرياحين والأشجار الناضرة. وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها، وهم عجم من الفرس أشراف، وفيهم طائفة من عرب بني سفاف، وهم الذين يغوصون على الجوهر.

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر إبريل، وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مها أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغليم، وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقرض، يشده على أنفه، ثم يربط حبالاً في وسطه، ويغوص، ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار، مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بمجديدة عنده، معدة لذلك، ويجعلها في مخللة جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نَفْسُهُ، حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب، فتؤخذ منه المخللة، ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بمجديدة، فإذا باشرت الهواء جددت فصارت

جواهر^(١)، فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خسه والباقي يشتره التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه، ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار، وماؤها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدي فيوجد، وبها حدائق النخل والرمان والأترج، يزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق^(٢) استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر، وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير، وهو في غربيها، ويسمى الآخر يعوير وهو في شرقيها وبها ضرب المثل فليل: كسير وعوير وكل غير خير، ثم سافرنا إلى مدينة القطيف، (وضبط اسمها بضم القاف)، كأنه تصغير قطف، وهي مدينة كبير حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب، وهم رافضية غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يبقون أحداً، ويقول مؤذنين في أذانه بعد الشهادتين: أشهد أن علياً ولي الله ويزيد بعد الحيعلتين: حي على خير العمل، ويزيد بعد التكبير الأخير محمد وعلي خير البشر، من خالفها فقد كفر. ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي يضرب المثل بها، فيقال: كجالب التمر إلى هجر، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب، وأكثرهم من قبيلة عبد

(١) هكذا كان تصور الأقدمين لنشأة اللآئي في أصلها، وليس ذلك بصحيح، فإن الحيوان يتخذ

نواة من حبة رمل، ويفرز إفرازات تتراكم حول النواة فتتكون اللؤلؤة.

(٢) لم يكن هناك طريق يربط البحرين بعمان كما ذكر ابن بطوطة، فالبحرين جزيرة تعرف بجزيرة

أوال، وربما يكون منشأ هذا الخطأ من أن الأقدمين كانوا يطلقون على الساحل العربي للخليج

اسم: ساحل البحرين.

القيس بن أفضى. ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة وتسمى أيضاً بمججر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار، يسكنها طوائف من العرب، أكثرهم من بني حنيفة، وهي بلدهم قديماً، وأميرهم طفيل بن غانم، ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك في سنة اثنتين وثلاثين فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى. وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه، وهي آخر حجة حجها، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده، وقتل أيضاً كبير أمرائه بكتمور الساقى.

حكاية

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية، فلما أراد الدنو منها قالت له: إني حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدأ سماه بأمر أحمد، ونشأ في حجره، فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر، فلما كان في هذه الحجة تعاهد على الفتك بالملك الناصر، وأن يتولى أمير أحمد الملك، وحل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال، فمني الخبر إلى الملك الناصر، فبعث إلى أمير أحمد في يوم شديد الحر، فدخل عليه، وبين يديه أقداح الشرب، فشرب الملك الناصر قدحاً، وناول أمير أحمد قدحاً ثانياً فيه السم فشربه، وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشتغل الوقت فرحل الناس، ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد، فاكثر بكتمور لموته، وقطع أثوابه، وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه، وأخذ قدحاً فيه سم فناوله إياه وقال له: بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك، فشربه ومات من حينه، ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق ما نسب من الفتك بالملك الناصر. ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك، ولا تأتى لي رفيق، وأقمت بمجدة نحو أربعين يوماً

وكان بها مركب لرجل يعرف بعبدالله التونسي يروم السفر إلى القصير، من
 عمالة قوص فصعدت إليه لأنظر حاله فلم يرضني، ولا طابت نفسي بالسفر فيه
 وكان ذلك لطفاً من الله تعالى، فإنه سافر، فلما توسط البحر غرق بموضع يقال
 له: رأس أبي محمد، فخرج صاحبه وبعض التجار في العشاري بعد جهد عظيم،
 وأشرفوا على الهلاك، وهلك بعضهم، وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين
 من الحجاج. ثم ركب البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب، فردتنا الريح
 إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البجاة، فسلكتنا صحراء
 كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبني كاهل، وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء
 يُعرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفذ زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم
 بالفلاة أغناماً وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيّاً من العرب كلمني باللسان
 العربي وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً، إنما يقتات
 بلبن الابل ونفذ منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه، ولم يبق لنا زاد وكان عندي
 نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي ففرقته على الرفقة،
 وتزودناه ثلاثاً وبعد مسيرة تسعة ايام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب وكان
 قد تقدم إليها بعض الرفقة، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياماً
 واكثرينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب
 ولعله (الخييب)، وحللنا بجميثر، حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي،
 وحصلت لنا زيارته ثانية، وبتنا في جواره ثم وصلنا إلى قرية العطواني، وهي على
 ضفة النيل، مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى. وأجزنا النيل إلى مدينة أسنا
 ثم إلى مدينة أرمنت ثم إلى الأقصر، وزرنا الشيخ أبا الحجاج الأقصري ثانية ثم
 إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية، ثم إلى مدينة
 هو ثم إلى مدينة أخيم ثم إلى مدينة أسيوط، ثم إلى منفلوط، ثم إلى مدينة منلوى، ثم
 إلى مدينة الأشمونين، ثم إلى مدينة منية بن الخصيب ثم إلى مدينة البهنسة ثم إلى

مدينة بوش ثم إلى مدينة منية القائد، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد، ثم إلى مصر وأقمت بها أياماً وسافرت على طريق بلبس إلى الشام ورافقني الحاج عبدالله بن أبي بكر بن الفرحان النوزري، ولم يزل في صحبتي سنين، إلى أن خرجنا من بلاد الهند، فتوفي بسندا بور، وسنذكر ذلك، فوصلنا إلى مدينة غزة ثم إلى مدينة الخليل عليه السلام، وتكررت لنا زيارته، ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الرملة ثم إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة طرابلس ثم إلى مدينة جبلة، وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية، ثم إلى مدينة اللاذقية، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنوبيين يسمى صاحبها بِمَرْتَمِينَ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم، وإنما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم، ومنها الروم الأقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا في البحر عشراً بريح طيبة، وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولاً. وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا، وهي أول بلاد الروم وهذا الأقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجل الناس صوراً وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام، والشفقة في الروم وإنما عنى به أهل هذه البلاد. وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو داراً، يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء، وهن لا يحتجن فإذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة، يعدون فيه ما يفوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار في يوم خبزه، ومعه الإدام الطيب إطرافاً لنا بذلك، ويقولون لنا: إن النساء بعثن هذا إليكم وهن يطلبن منكم الدعاء، وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضي ولا

معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها . إلا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيرون ذلك . ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر ، يسكنها التركمان ، وينزلها تجار مصر وإسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى اسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ، ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين أرزنجاني ، وصعد معي إلى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها . وأضافني وأكرمني ، وأضافني أيضاً بها شمس الدين ابن الرجيجاني الذي توفي أبوه علاء الدين بمالي من بلاد السودان .

ذكر سلطان العلايا

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين ، وتوجهنا إلى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان ، (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعداً على الساحل وحده فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد ، فسملت عليه ، وسألني عن مقدمي ، فأخبرته عما سألت ، وانصرفت عنه وبعث إلى إحساناً ، وسافرت من هنالك إلى مدينة أنطاليا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل والفاء واللام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي أنطاكية على وزنها ، إلا ان الكاف عوض عن اللام ، وهي من أحسن المدن ، متناهية في اتساع الساحة والضخامة ، أجل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً ، وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ماكثون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة . والروم الذين كانوا أهلها قديماً ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضاً سور .

واليهود في موضع آخر، وعليهم سور، والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سور يحيط بها، ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر اناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى، وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبداع ترتيب، وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها، وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو يبس ويحمل إلى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموي، ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع، وفي المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمّ.

ذكر الأخية الفتيان

واحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج، والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط، ومن ألحق بهم من أهل الشر والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين، ويقدمونه على أنفسهم، وتلك هي الفتوة أيضاً. ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرير وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم، وكان ذلك ضيافته لديهم، ولا يزال عندهم حتى ينصرف وإن لم يرد وارد، اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو، وأتوا بعد

العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخي ولم أر في الدنيا أجمل أفعالاً منهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر، وأعظم إكراماً له وشفقة عليه. وفي الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتیان إلى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركي، ولم أكن يومئذ أفهمه، وكان عليه أثواب خلقة، وعلى رأسه قلنسوة لبد، فقال لي الشيخ أعلم ما يقول هذا الرجل؟ فقلت لا أعلم ما قال: فقال لي: إنه يدعوك إلى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه، وقلت له: نعم. فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على نضيفنا، ولا نريد أن نكلفه. فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتیان الأخية هو من الخرازين^(١)، وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم، وبنوا زاوية للضيافة، وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل. فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان، وجها الكثير من ثريات الزجاج العراقي، وفي المجلس خمسة من البياسيس، والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس، وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملاً من الشحم المذاب، وإلى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل، وأحدهم موكل بها، ويسمى عندهم الجراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم، على وسطه سكين في طول ذراعين، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها في طول ذراع، وعرض إصبعين فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوة، ووضعها بين يديه. وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه

(١) الخرازين: مفردا خراز وهو الإسكافي.

حسنة المنظر، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين. ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء، ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم، وطال عجبنا من سماحهم، وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاوريتهم.

ذكر سلطان انطالية

وسلطانها خضر بك ابن يونس بك، وجدناه عند وصولنا إليها عليلًا، فدخلنا عليه بداره، وهو في فراش المرض، فكلمنا بالطف كلام وأحسنه وودعناه، وبعث الينا بإحسان. وسافرنا إلى بلدة بُردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء)، وهي بلدة صغيرة البساتين والأنهار، ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها، واجتمعت الأخية، وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب، فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم وذهبوا بنا إليها فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا، والاستبشار والفرح، وهم لا يعرفون لساننا، ونحن لا نعرف لسانهم، ولا ترجان فيما بيننا. وأقمنا عندهم يوماً وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة إلى بلدة سَبْرنا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة وإسكان الراء وفتح التاء المعلولة والفاء) وهي بلدة حسنة العمارة والأسواق كثيرة البساتين والأنهار، لها قلعة في جبل شامخ وصلنا إليها بالعشي، ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها إلى مدينة أكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين، ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين إلى أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى، ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العام الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق. وهو فصيح اللسان حسن البيان، أطروفة من طرف الزمان، أكرمنا

غاية الإكرام وقام بمقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان أكريدور

وسلطانها أبو إسحاق بك ابن الدندار بك، من كبار سلاطين تلك البلاد، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج، وله سيرة حسنة، ومن عاداته أنه يأتي كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع، فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة، وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية، فقرأوا سورة الفتح والملك وعمّ بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتتشعر الجلود وتدمع العيون، ثم ينصرف إلى داره. وأظننا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير، ويستند إلى مخدة كبيرة، ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه، وأجلس إلى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ثم يؤتى بالطعام، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد في قحفة صغيرة، عليه العدس مسقي بالسمن والسكر، ويقدمون الثريد تبركاً، ويقولون إن النبي ﷺ فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان.

وتوفي في بعض تلك الأيام ولد السلطان، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة، كما يفعله أهل مصر والشام، خلافاً لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح. وثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشياً برجلي، فبعث لي بفرس واعتذر، فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال: إنما أعطيته عطية لا عارية، وبعث إليّ بكسوة ودراهم فانصرفنا إلى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف وإسكان اللام ثم جاء مهمل مكسور وصاد مهمل

وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب، قد نبت فيها القصب، فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهياً بين القصب والمياه، لا يسع إلا فارساً واحداً، والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزواية أحد الفتيان الأخية بها.

ذكر سلطان قُلْ حِصَار

وسلطانها محمد جَلبي وجَلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وباء)، وتفسيره بلسان الروم سيدي، وهو أخو السلطان أبي إسحاق ملك أكريدور، ولما وصلنا إلى مدينته كان غائباً عنها فأقمنا بها أياماً ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا، وانصرفنا على طريق قَرَا أغاج وقرا (بفتح القاف) وتفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضراء يسكنها التركمان. وبعث معنا السلطان فرساناً يبلغوننا إلى مدينة لاذق. بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لها الجرميان يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية، ولهم مدينة يقال لها: كوتاهية فعصمنا الله منهم، ووصلنا إلى مدينة لاذق، (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضاً دون غزله وتفسيره بلد الخنازير، وهي من أبداع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة، ولها البساتين الرائقة والأنهار المطردة والعيون المنبعة، وأسواقها حسان، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزله وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها، وأكثر الصناعات بها نساء الروم، وبها من الروم كثير تحت الذمة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال، منها الحمر والبيض. ونساء الروم لهن عائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الإقليم كلهم وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد، وكل

واحدة عليها وظيف لملكها تؤديه له .

وسمعت هنالك ان الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال ، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه . وذكر لي أن القاضي بها له جوارٍ على هذه الصورة . وعند دخولنا لهذه المدينة تقدم إلينا رجال من حوانيتهم حتى سل بعضهم السكاكين وأخذوا بأعنة الخيل ونازعهم آخرون على بعض ، ونحن لا نعم ما يقولون ، فحفنا منهم ووطننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلاً حاجاً يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم منا فقال : إنهم من الفتیان ، وإن الذين سبقوا إلينا أولاً هم أصحاب الفتى أخى سنان والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كرم نفوسهم . ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولاً ، فوقعت قرعة أخى سنان وبلغه ذلك ، فأقى إلينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزواية له . وأقى بأنواع الطعام ، ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا ، وتولى خدمتي بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم . ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة . وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من القرآن العزيز ، ثم أخذوا في السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجهنا إليه وإلى ولده كما نذكره ، ثم عدنا إلى الزاوية فألفينا الأخي طومان وأصحابه في انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليه ان صبوا علينا ماء الورد صباً بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال في الأظعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص كمثله ما فعله أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً .

ذكر سلطان لاذق

وهو السلطان يَنْج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أو لاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم)، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم. ولما نزلنا بزواية أخي سنان كما قدمناه، بعث إلينا الواعظ المذكور العالم علاء الدين القسطنطيني، واصطحب معه خيلاً بعددنا، وذلك في شهر رمضان، فتوجهنا إليه وسلمنا عليه.

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء. فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فأفطرتنا عنده وانصرفنا. وبعث إلينا بدراهم، ثم بعث إلينا ولده مراد بك، وكان ساكناً في بستان خارج المدينة، وذلك في إبان الفاكهة، وبعث أيضاً خيلاً على عددنا، كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة. وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه. ثم انصرفنا غدوة، وأظلمنا عيد الفطر بهذه البلدة، فخرجنا إلى المصلّى، وخرج السلطان في عساكره، والفتيان الأخيه كلهم بالأسلحة. ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار، وبعضهم يفاخر بعضاً ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكّة، ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز، فيذبجون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز. ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلّى.

ولما صلينا صلاة العيد، دخلنا مع السلطان إلى منزله، وحضر الطعام. فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سباط على حدة، وجعل للفقراء والمساكين سباط على حدة. ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني، وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق. ثم تهيأت رفقة فساغرنا معهم يوماً وبعض ليلة، ووصلنا إلى حصن طوّاس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل)، وهو حصن كبير. ويذكر أن صهيباً صاحب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنه، من

أهل هذا الحصن . وكان ميبتنا بخارجه . ووصلنا بالغد إلى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم . وحينئذ خرج أمير الحصن ميناس^(١) بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق ، خوفاً من إغارة السراق على الماشية . فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم ، وهكذا فعلهم أبداً . ونزلنا من هذا الحصن بربضة في زاوية رجل فقير وبعث إلينا أمير الحصن بضيافة وزاد ، وسافرنا منه إلى مُغَلَّة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ، ونزلنا بزواية أحد المشايخ بها ، وكان من الكرماء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزايوته ، ولا يدخل إلا بطعام أو فاكهة أو حلواء . ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا . ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) ، وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه . نزلنا منها بزواية أحد الفتيان الأخية ، ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرماء والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال وجميل الأعمال . ولقينا بمدينة ميلاس رجلاً صالحاً معمرأ يسمى بأبي الششتري ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد . دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان ميلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) ، وهو من خيالي الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل . وكان السلطان في أيام لقائي له واجداً

(١) في إحدى طبعات الكتاب: إلياس بك .

عليه ، بسبب رحلته إلى مدينة أياسلوق ووصوله إلى سلطانها وقبول ما أهداه .
 فسألني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره ،
 فأثنت عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى
 ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن إلينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا . وسكنناه في
 مدينة بَرَجِين ، وهي قريبة من ميلاس ، بينها ميلان (وضبط اسمها بفتح
 الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) ، وهي جديدة على تل هنالك ،
 بها العمارات الحسان والمساجد . وكان قد بنى بها مسجداً جامعاً ، لم يتم بناؤه
 بعد . وبهذه البلدة لقيناه . ونزلنا منها بزواية الفتى أخي علي ، ثم انصرفنا بعدما
 أحسن إلينا كما قدمناه إلى مدينة قُونِيَه (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد
 ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه
 والانهار والبساتين والفواكة ، وبها المشمش المسمى بقمر الدين . وقد تقدم
 ذكره ، ويحمل منه أيضاً إلى ديار مصر والشام . وشوارعها متسعة جداً ، وأسواقها
 بديعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة ويقال : إن هذه المدينة من بناء
 الإسكندر . وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان ، وسنذكره . وقد تغلب
 عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الإقليم . نزلنا
 منها بزواية قاضيها ، ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتیان ، وزاويته من أعظم
 الزاويا . وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، وهم في الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين
 علي بن أبي طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية
 الخرقه . وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله
 وأجل . وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا . وبهذه المدينة تربة الشيخ
 الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض
 الروم طائفة ينتمون ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية
 بالعراق ، والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد .

حكاية

يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيها مدرساً، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونيه. فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء، وعلى رأسه طبق منها، وهي مقطعة قطعاً، يبيع القطعة منها بفلس. فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ: هات طبقك. فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاه للشيخ. فأخذها الشيخ بيده وأكلها. فخرج الحلواني، ولم يطعم أحداً سوى الشيخ. فخرج الشيخ في أتباعه، وترك التدريس، فأبطل على الطلبة، وطال انتظارهم إياه، فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقراً. ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم. فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر، وألفوا منه كتاباً سموه المثنوي. وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه، ويعلمونه ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمعات. وفي هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحمد، الذي يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور. ثم سافرنا إلى مدينة اللارندة، وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين.

ذكر سلطان اللارندة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء)، وكانت قبله لشقيقه موسى، فنزل عنها للملك الناصر، وعوضه عنها بعوض، وبعث إليها أميراً وعسكرياً، ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين، وبنى بها دار مملكته، واستقام أمره بها. ولقيت هذا السلطان خارج المدينة، وهو عائد من تصيده، فنزلت له عن دابتي، فنزل هو عن دابته، وسلمت عليه. وأقبل علي. ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له، وأعجبهم فعله

وزادوا في إكرامه . وإن سلم عليهم ركباً ساء لهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سبباً
لحرمان الوارد . وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره . ولما سلمت عليه
وركب وركبت ، سألتني عن حالي وعن مقدمي ، ودخلت معه المدينة . فأمر
بإنزالي أحسن نزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة
والشمع ، وكسا وأركب وأحسن ، ولم يطل مقامنا عنده ، وانصرفنا إلى مدينة
أَقْصَرَا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) ، وهي
من أحسن بلاد الروم وأتقنها . تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ،
ويشق المدينة ثلاثة أنهار ، ويجري الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالي العنب ،
وداخلها بساتين كثيرة . وتصنع بها البسط المنسوبة إليها من صوف الغنم لا مثل
لها في بلد من البلاد ، ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد
الأتراك . وهذه المدينة في طاعة ملك العراق . ونزلنا منها بزواية الشريف حسين
النائب بها عن الأمير أرتنا ، وأرتنا هو النائب عن ملك العراق ، فيما تغلب عليه
من بلاد الروم . وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا إكراماً
متناهيأ وفعل أفعال من تقدمه .

ثم رحلنا إلى مدينة نَكْدَة (وضبط اسمها بفتح النون وإسكان الكاف ودال
مهمل مفتوح) ، وهي من بلاد ملك العراق . مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، قد
تخرب بعضها . ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار ،
عليه ثلاث قناطر : إحداها بداخل المدينة واثنان بخارجها ، وعليه النواعير
بالداخل والخارج ، منها تسقى البساتين ، والفواكه كثيرة . ونزلنا منها بزواية الفتى
أخي جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتيان ، وأقمنا بها ثلاثاً .

وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قيسارية ، وهي من بلاد صاحب العراق ،
وهي إحدى المدن العظام بهذا الإقليم . بها عسكر أهل العراق وإحدى خواتين

الأمير علاء الدين أرتنا المذكور، وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نهبلة من ملك العراق، وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم). ومعنى أغا الكبير، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك. واسمها طغى خاتون، ودخلنا إليها فقامت وأحسنت السلام والكلام، وأمرت بإحضار الطعام فأكلنا، ولما انصرفنا بعثت إلينا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت. ونزلنا من هذه المدينة بزواوية الفتى الأخي أمير علي وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها، وزاويته من أحسن الزوايا فرشاً وقناديل وطعاماً كثيراً وإتقاناً. والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده، ويفعلون في إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم. ومن عوائد هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان، فالأخي هو الحاكم به، وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك.

ثم سافرنا إلى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من بلاد العراق، وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد، وبها منزل أمرائه وعماله. مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس، وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة، لا ينزلها إلا الشرفاء، ونقيهم ساكن بها. وتجري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزدون إذا انصرفوا.

ولما قدمنا هذه المدينة خرج إلى لقائنا أصحاب الفتى بجقجي، وبعث بالتركية السكين، وهذا منسوب إليه، والحيان منه معقودان بينها قاف، وباؤه مكسورة وكانوا جماعة، منهم الركبان والمشاة. ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخي جلي، وهو من كبار الأخية. وطبقته أعلى من طبقة أخي بجقجي، فطلبوا

أن ينزل عندهم، فلم يمكن لنا ذلك لسبق الأولين. ودخلنا المدينة معهم جميعاً،
وهم يتفاخرون. والذين سبقوا إلينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم. ثم
كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم. وأقمنا عندهم
ثلاثة في أحسن ضيافة. ثم أتانا القاضي وجماعة من الطلبة، ومعهم خيل الأمير
علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم، فركبنا معه، واستقبلنا الأمير
إلى دهليز داره، فسلم علينا ورحب، وكان فصيح اللسان بالعربية. وسألني عن
العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان، وعن السلطان أتابك، وبلاد الشام ومصر،
وسلاطين التركمان. وكان مراده أن اشكر الكريم منهم وأدم البخيل، فلم أفعل
ذلك، بل شكرت الجميع. فسر بذلك مني وشكرني عليه. ثم أحضر الطعام
وأكلنا، وقال: تكونون في ضيافتي. فقال له الفتى أخي جلوي: إنهم لم ينزلوا بعد
بزوايتي، فليكونوا عندي، وضيافتك تصلهم. فقال: أفعل. فانتقلنا إلى زاويته،
وأقمنا بها ستاً في ضيافته وفي ضيافة الأمير. ثم بعث الأمير بفرس وكسوة
ودراهم، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا. وسافرنا إلى
مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم والفاء وصاد مهمل مكسور وياء
آخر الحروف مفتوحة)، مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار
وفواكه، وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها. وهي فسيحة الشوارع
والأسواق. وملكها صاحب العراق. ويقرب منها بلدة سونسي (وضبط اسمها
بضم السين المهمل وواو مد ونون مضموم وسين مهمل مفتوح)، وهي لصاحب
العراق أيضاً. وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي. منهم
الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي، وإخوته الشيخ
علي والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن
تاج الدين الرفاعي. ونزلنا بزوايتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم.
ثم سافرنا إلى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين

معجم)، وهي من بلاد ملك العراق، مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام، وبها معادن الفضة. وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل إليها، ونزلنا منها بزواية الأخي مجد الدين، وأقمنا بها ثلاثاً في ضيافته وفعل أفعال من قبله. وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا، وبعث بضيافة وزاد. وانصرفنا من تلك البلاد، فوصلنا إلى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم والـف ونون)، وهي من بلاد صاحب العراق. مدينة كبيرة عامرة، وأكثر سكانها الأرمن. والمسلمون يتكلمون بها التركية. ولها أسواق حسنة الترتيب. ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها. وفيها معادن النحاس، ويصنعون منه الأواني والبياسيس التي ذكرناها، وهي شبه المنار عندنا. ونزلنا منها بزواية الفتى أخي نظام الدين، وهي من أحسن الزوايا، وهو أيضاً من خيار الفتیان وكبارهم، أضافنا أحسن ضيافة. وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم، وهي من بلاد ملك العراق، كبيرة الساحة، خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها. ويشقها ثلاثة أنهار. وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي. ونزلنا منها بزواية الفتى أخي طومان، وهو كبير السن، يقال: إنه أناف على مائة وثلاثين سنة. ورأيته ينصرف على قدميه متوكئاً على عصا، ثابت الدهن، مواظباً للصلاة في أوقاتها، لم ينكر من نفسه شيئاً، إلا أنه لا يستطيع الصوم. وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام، وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا، فشق عليه ذلك، وأبى منه وقال: إن فعلتم نقصتم حرمتي، وإن أقل الضيافة ثلاث. فأقمنا لديه ثلاثاً.

ثم انصرفنا إلى مدينة بركي (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينها راء مسكن)، ووصلنا إليها بعد العصر، فلقينا رجلاً من أهلها، فسألناه عن زاوية الأخي بها فقال: أنا أدلكم عليها، فاتبعناه فذهب بنا

إلى منزله نفسه في بستان له، فأنزلنا بأعلى سطح بيته، والأشجار مظلمة، وذلك أوان الحر الشديد، وأتى إلينا بأنواع الفاكهة، وأحسن في ضيافته. وعلف دوابنا، وبتنا عنده تلك الليلة. وكنا قد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرساً فاضلاً يسمى بمحيي الدين، فأتى بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده، وكان من الطلبة إلى المدرسة وإذا بالمدرس قد أقبل راكباً على بغلة فارهة، ومماليكه وخدامه عن جانبه، والطلبة بين يديه، وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب. فسلمنا عليه، فرحب بنا وأحسن السلام والكلام، وأمسك بيدي وأجلسني إلى جانبه. ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي، ومعنى فرشتي الملك. لقب بذلك لدينه وعفاهة وفضله. فقعد عن يمين المدرس، وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية. ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها، وأنزلي فيها. وبعث ضيافة حافلة، ثم وجه إلينا بعد المغرب، فمضيت إليه، فوجدته في مجلس ببستان له، وهنالك صهريج ماء ينحدر إليه الماء من خصبة رخام أبيض يدور بها القاشاني، وبين يديه جملة من الطلبة، ومماليكه وخدامه وقوف من جانبه، وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة، فخلته لما شاهدته ملكاً من الملوك. فقام إلي واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني إلى جانبه على مرتبته، وأتى بالطعام فأكلنا وانصرفنا إلى المدرسة. وذكر لي بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة. وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه، والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لأجل شدة الحر، وذلك الجبل بارد. وعادته أن يصيف فيه.

ذكر سلطان بركي

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم، ولما بعث إليه المدرس يعلمه بحجري، وجه نائبه إلي لآتيه، فأشار علي المدرس أن أقيم حتى يبعث إلي ثانية. وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قرحة، لا

يستطيع الركوب بسببها، وانقطع عن المدرسة، ثم إن السلطان بعث في طلبي ثانية، فشق ذلك على المدرس فقال: أنا لا أستطيع الركوب، ومن غرضي التوجه معك، لأقرر لدى السلطان ما يجب لك. ثم إنه تحامل ولف على رجله خرقة، وركب ولم يضع رجله في الركاب. وركبت أنا وأصحابي وصعدنا إلى الجبل، في طريق قد نحتت وسويت، فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز، وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال، بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه إلى صهره السلطان أرخان بك، فلما بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولديه: خضر بك وعمر بك، فسلمنا على الفقيه، وأمرها بالسلام علي ففعلا ذلك، وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا. وبعث إلي بيت يسمى عندهم الخرقة (خرگاه)، وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة، وتجعل عليها اللبود، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح، مثل البادهنج. ويسد متى احتيج إلى شده. وأتوا بالفرش وفرشوه، وقعدت معه أصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز، وذلك الموضع شديد البرد، ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد. ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله، ثم عاد إلي وأعلمني بذلك. وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معاً، فجئنا إلى منزله ووجدناه قائماً، فسلمنا عليه، وقعدت الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه. فسألني عن حالي ومقدمي، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الأعاجم. ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا، وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام، وكذلك فعل الترك. وأقمنا على تلك الحال أياماً، يبعث إلينا كل يوم، فنحضر طعامه. وأتى يوماً إلينا بعد الظهر، وقعدت الفقيه في صدر المجلس، وأنا عن يساره، وقعد السلطان عن يمين الفقيه، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك، وطلب مني أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله ﷺ فكتبتها له، وعرضها الفقيه عليه في تلك

الساعة. فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي. ثم قام فخرج، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير إدام ولا خضر. فأمر بعقاب صاحب خزانته، وبعث بالأبزار والسمن. وطالت إقامتنا بذلك الجبل، فأدركني الملل وأردت الإنصراف. وكان الفقيه أيضاً قد مل من المقام هنالك، فبعث إلى السلطان يخبره أنني أريد السفر. فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه، فتكلم مع المدرس بالتركية، ولم أكن إذ ذاك أفهمها، فأجابه عن كلامه وانصرف. فقال لي المدرس: أتدري ماذا قال؟ قلت: لا أعرف ما قال. قال: إن السلطان بعث إلي ليسألني ماذا يعطيك. فقلت له: عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك. فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا، فقال: إن السلطان يأمر أن تقيمنا هنا اليوم، وتنزلا معه غداً إلى داره بالمدينة. ولما كان من الغد بعث فرساً جيداً من مراكبه، ونزل ونحن معه إلى المدينة. فخرج الناس لاستقباله، وفيهم القاضي المذكور آنفاً وسواه، ودخل السلطان ونحن معه، فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره. ولما وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين، صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة. فقلت للفقيه: ما هذه الصور الحسان؟ قال: هؤلاء فتيان روميون. وصعدنا مع السلطان درجاً كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يمج ماء من فيه. وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة، وفوق إحداها مرتبة السلطان. فلما انتهينا إليها نحي السلطان مرتبته بيده، وقعد معنا على الأقطاع، وقعد الفقيه عن يمينه، والقاضي مما يلي الفقيه، وأنا مما يلي القاضي، وقعد القراء أسفل المصطبة، والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه.

ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول، قد عصر فيه

ماء الليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة، وفيها ملاعق ذهب وفضة، وجاءوا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك، وفيها ملاعق خشب، فمن تورع استعمال صحاف الصيني وملاعق الخشب. وتكلمت بشكر السلطان وأثنت على الفقيه، وبالغت في ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره.

حكاية

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه، وقام له القاضي والفقيه، وقعد أمام السلطان فوق المصطبة، والقراء أسفل منه. فقلت للفقيه: من هذا الشيخ؟ فضحك وسكت. ثم أعدت السؤال، فقال لي: هذا يهودي طيب. وكلنا محتاج إليه. فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له. فأخذني ما حدث وأبدت الامتعاض. فقلت لليهودي: يا ملعون ابن ملعون، كيف تجلس فوق قراء القرآن، وأنت يهودي؟ وشتمته ورفعت صوتي، فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي فأخبره الفقيه به. وغضب اليهودي فخرج عن المجلس في أسوأ حال. ولما انصرفنا قال لي الفقيه: أحسنت بارك الله فيك. إن أحداً سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك، ولقد عرفته بنفسه.

حكاية أخرى

وسألني السلطان في هذا المجلس، فقال لي هل رأيت حجراً نزل من السماء؟ فقلت: ما رأيت ذلك ولا سمعت به. فقال لي: إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء. ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر، فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة، له بريق. قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً. وأمر السلطان بإحضار القطاعين، فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوه، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد، فلم يؤثروا فيه شيئاً. فعجبت من أمره. وأمر

برده إلى حيث كان. وفي ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان، صنع صنيعاً عظيماً، ودعا الفقراء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة، فطعموا وقرأ القرآن بالأصوات الحسان، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة. وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع في كل ليلة. ثم بعث إليّ مائة مثقال ذهباً وألف درهم وكسوة كاملة وفرساً ومملوكاً رومياً يسمى ميخائيل، وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم. كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين، جزاه الله تعالى خيراً، وودعنا، وانصرفنا. وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوماً. ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان، (وضبط اسمها بكسر التاء المعلو وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين فواكه. نزلنا منها بزاوية الفتى محمد، وهو من كبار الصالحين، صائم الدهر، وله أصحاب على طريقته. فأضافنا ودعا لنا. وسرنا إلى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها، منحوتة أبدع نحت. والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا، لا نظير له في الحسن، وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد، فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجداً جامعاً، وحيطانه من الرخام الملون، وفرشه الرخام الأبيض، وهو مسقف بالرصاص، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة، في وسط كل قبة صهريج ماء. والنهر يشقه، وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين. وله خمسة عشر باباً. وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن أيدين، وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها. فسلمت عليه، وأنا راكب، فكره ذلك مني، وكان سبب حرمانه لديه. فإن عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا وأعجبهم ذلك. ولم يبعث إليّ إلا

ثوباً واحداً من الحرير المذهب يسمونه النَّخ (بفتح النون وخاء معجم). واشترت بهذه المدينة جارية رومية بكرأ بأربعين ديناراً ذهباً، ثم سرنا إلى مدينة يَزْمِير^(١) (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر، معظمها خراب. ولها قلعة متصلة بأعلاها. نزلنا منها بزواية الشيخ يعقوب، وهو من الأحذية، صالح فاضل. ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحد الرفاعي، ومعه زاده الأخلاطي من كبار المشايخ، ومعه مائة فقير من الموليين. وقد ضرب لهم الأمير الأخية، وصنع الشيخ يعقوب ضيافة، وحضرتها، واجتمعت بهم. وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفاً، وسكناه بقلعتها، وكان حين قدومنا عليها عند أبيه، ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها. فكان من مكارمه أن أتى إلي بالزواية فسلم علي واعتذر، وبعث ضيافة عظيمة، وأعطاني بعد ذلك مملوكاً رومياً خماسياً اسمه نقوله، وثوبين من الكمخا، وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين، وذكر لي الفقيه الذي يؤم به أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله، وأعطى أيضاً للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة، وأنية فضية كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم، وثياباً من الملف والمرعز والقسي والكمخا وجواري وغلاناً. وكان هذا الأمير كريماً صالحاً كثير الجهاد، له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى فيسبي ويغنم، ويفني ذلك كرمأ وجوداً، ثم يعود إلى الجهاد، إلى أن اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم إلى البابا فأمر نصارى جنوة وإفرانسة بغزوه. وجهاز جيشاً من رومية، وطرقوا مدينته ليلاً في عدد كثير من الأجفان، وملكوا المرسى والمدينة. ونزل إليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم واستشهد هو وجماعة من ناسه، واستقر النصارى بالبلد، ولم يقدرُوا على القلعة

(١) هي الآن مدينة: ازмир.

لمنعها. ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة مَغْنِيسِيَّة (وضبط اسمها بيم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مشددة) نزلنا بها عشي يوم عرفة بزواية رجل من الفتيان، وهي مدينة كبيرة حسنة، في سفح جبل، وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه.

ذكر سلطان مغنيسية

وسلطانها يسمى صاروخان، ولما وصلنا إلى هذه البلدة، وجدناه بترية ولده، وكان قد توفي منذ أشهر، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بترته، والولد قد صُبر، وجعل في تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر، وعلق في قبة لا سقف لها لتذهب رائحته، وحينئذ تسقف القبة، ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الأرض، وتجعل ثيابه عليه. وهكذا رأيت غيره أيضاً من الملوك فعل، وسلمنا عليه بذلك الموضع، وصلينا معه صلاة العيد، وعدنا إلى الزاوية. فأخذ الغلام الذي كان لي أفراسنا، وتوجه مع غلام لبعض الأوصحاب برسم سقيها، فأبطأ. ثم لما كان العشي لم يظهر لها أثر. وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين، فركب معي إلى السلطان وأعلمناه بذلك. فبعث في طلبها، فلم يوجد، واشتغل الناس في عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية. وهؤلاء الكفار في بلد حصين. وهم يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها، لحصانة بلدهم. فلما كان بعد الظهر أتى بها بعض الأتراك وبالأفراس. وذكروا أنها اجتازا بهم عشية النهار، فأنكروا أمرها واشتدوا عليها حتى أقرآ بما عزمنا عليه من الفرار. ثم سافرنا من مغنيسية، وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم، ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة، وبات أصحابنا يحترسون^(١) مداولة بينهم خوف

(١) أي: يحرس بعضهم بعضاً.

السرقة. فأنت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري، فسمعتة يقرأ سورة البقرة فقلت له: إذا أردت النوم فأعلمني لأنظر من يحرس. ثم نمت، فما أيقظني إلا الصباح، وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه، وكان من جياذ الخيل اشتريته بأياسلوق. ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة، بَرَعْمَة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل. ويقال: إن أفلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة، وداره تشتهر باسمه إلى الآن. ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية. ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكراماً كثيراً.

ذكر سلطان برغمة

وسلطانها يسمى يخشي خان بكسر الشين، وخان عندهم هو السلطان ويخشي (بباء آخر الحروف وحاء معجم وشين مكسور) ومعناه جيد، صادفناه في مصيف له، فأعلم بقدمونا فبعث بضيافة وثوب قدسي، ثم اكرتنا من يدلنا على الطريق، وسرنا في جبال شايحة وعرة، إلى أن وصلنا إلى مدينة بلي كَسْرِي (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسورة وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق، ولا جامع لها يجمع فيه. وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها، فبنوا حيطانه ولم يجعلوا سقفاً. وصاروا يصلون به ويحتمعون تحت ظلال الأشجار، ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى.

ذكر سلطان بلي كسري

ويسمى دمورخان، ولا خير فيه. وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة، وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه، في مدة ابنه هذا، والناس على دين الملك، ورأيته. وبعث إلي ثوب حرير. واشترت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مر غليظة، ثم سرنا إلى مدينة بُرْصَا (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وإسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع، تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية. وبجارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة، وقد بني عليها بيتان: أحدهما للرجال والآخر للنساء. والمرضى يستشفون بهذه الحمة، ويأتون إليها من أقاصي البلاد. وهناك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام. عمّر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان. ونزلنا في هذه المدينة بزواية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان. ووافقنا عنده يوم عاشوراء. فصنع طعاماً كثيراً، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلاً، وأفطروا عنده، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة، وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي، ووعظ وذكر وأحسن، ثم أخذوا في السماع والرقص. وكانت ليلة عظيمة الشأن. وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام، ولا يأكل إلا من كد يمينه. ويقال: إنه لم يأكل طعام أحد قط، ولا منزل له ولا متاع إلا ما يستتر به، ولا ينام إلا في المقبرة. ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس. وطلبت به بعد هذه الليلة فلم أجده، وأتيت الجبانة فلم أجده. ويقال: إنه يأتيها بعد هجوع الناس.

حكاية

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزواوية شمس الدين، وعظ بها مجد الدين آخر الليل. فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها. فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق، فأعادوا عليه ذلك فلم يفق، واختلفت الناس فيه، فمن قائل إنه ميت، ومن قائل إنه مغشي عليه. وأتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس، فاخبروا حال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله. فاشتغلوا بغسله وتكفينه. وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه. وكان هذا الفقير يسمى الصياح. وذكروا أنه كان يتعبد بغار هنالك في جبل. فمتى علم أن الواعظ مجد الدين يعظ قصده، وحضر وعظه، ولم يأكل طعام أحد. فإذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق، فيتوضأ ويصلي ركعتين. ثم إذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مراراً في الليلة وسمي الصياح لأجل ذلك. وكان أعذر اليد والرجل، لا قدرة له على الخدمة، وكانت له والدة تقوته من غزلها. فلما توفيت اقتات من نبات الأرض. ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين، جال الأرض، إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم.

ذكر سلطان برصا

سلطانها اختيار الدين أرخان بك، وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان^(١) جوق (وجوق بجم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير. وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثر مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب مائة حصن. وهو في أكثر أوقاته لا يزال

(١) وهو الذي ينتسب إليه سلاطين آل عثمان.

يطوف عليها، ويقوم بكل حصن منها أياماً لإصلاح شؤونه وتفقد حاله. ويقال: إنه لم يبق قط شهراً كاملاً ببلد، ويقاوم الكفار ويحاصرهم. ووالده هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم، وقبره بمسجدها. وكان مسجدها كنيسة للنصارى. ويذكر أنه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها، فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه اثني عشرة سنة وافتتحها. وبها كان لقائي له. وبعث إلي بدراهم كثيرة. ثم سافرنا إلى مدينة يَزِينِك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاي وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كَرْلَه، بزواية فتى من الأخية. ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض، ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب، على ثمانية أميال من يزينك. لا يستطيع دخولها إلا على طريق واحد مثل الجسر، لا يسلك عليها إلا فارس واحد. وبذلك امتنعت هذه المدينة، والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات، وهي خاوية على عروشها. لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان، وبها زوجته بيون^(١) خاتون، وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة، وعلى المدينة أسوار أربعة. بين كل سورين خندق وفيه الماء، ويدخل إليها على جسور خشب، متى أرادوا رفعها رفعوها. وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع، فلكل إنسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة. وشربها من آبار بها قريية، وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز. والقسطل عندهم كثير جداً رخيص الثمن. ويسمون القسطل قسطنة بالنون، والجوز القوز بالقاف. وبها العنب العذارى لم أر مثله في سواها، متناهي الحلاوة وعظيم الجرم، صافي اللون رقيق القشر، للحبة منه نواة واحدة. أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي،

(١) في إحدى طبعات الكتاب: بيون خاتون.

وهو شيخ الفضلاء الكرماء ، ما جئت قط لزيارته إلا أحضر الطعام . وصورته
حسنة وسيرته أحسن . وتوجه معي إلى الخاتون المذكورة ، فأكرمت وأضافت
وأحسنت . وبعد قدومنا بأيام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي
ذكرناه . وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرس لي . فلما طال
علي المكث تركته وانصرفت ، ومعني ثلاثة من أصحابي وجارية وغللمان . وليس
معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا . وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة .
ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجآ (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند
فقيه أكرمنا وأضافنا . وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس
ومعها خديم لها ، وهي قاصدة مدينة ينجا ، ونحن في اتباع أثرها ، فوصلت إلى
وادي كبير يقال له سقري كأنه نسب إلى سقر ، أعادنا الله منها ، فذهبت تجوز
الوادي فلما توسطته ، كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخديم
الذي كان معها استخلاصها ، فذهب الوادي بها معاً . وكان في عدوة الوادي
قوم رموا بأنفسهم في أثرها سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ،
ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله . وأخبرنا أولئك الناس أن المعدية أسفل
من ذلك الموضع . توجهنا إليها ، وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون
عليها سروج الدواب والمتاع ، ويجذبها الرجال من العدوة الأخرى ، ويركب
عليها الناس . وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا . ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية
واسمها على مثال فاعلة من الكي نزلنا منها بزواية أحد الأخية فكلمناه بالعربية
فلم يفهم عنا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فإنه يعرف
العربية . فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمنا فقال :
للفتي ايشان عربي كهنا ميقوان ميكو يندو من عربي نوميدام . وايشان معناه
هؤلاء ، وكهنا قديم ، وميقوان يقولون ، ومن أنا ، ونو جديد ، وميدام تعرف .
وإنما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان

تعري/ وهو لا يعرفه. فقال لهم: هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم، وأنا لا أعرف إلا العربي الجديد فظن الفتى أن الأمر على ما قاله الفقيه.

لوفنعنا ذلك عنده وبالغ في إكرامنا وقال: هؤلاء تجب كرامتهم، لأنهم يتكلمون باللسان العربي القديم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً وأصحابه. ولم نفهم كلام الفقيه إذ ذاك لكنني حفظت لفظه. فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده. وبتنا تلك الليلة بالزاوية، وبعث معنا دليلاً إلى يَنجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة. بحثنا بها عن زاوية الأخي فوجدنا بها أحد الفقراء الموهين، فقلت له: هذه زاوية الأخي، فقال لي: نعم. فسرت عند ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربي. فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي إلا كلمة نعم خاصة. ونزلنا بالزاوية وجاء إلينا أحد الطلبة بطعام. ولم يكن الأخي حاضراً، وحصل الأُنس بهذا الطالب، ولم يكن يعرف اللسان العربي، ولكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارساً من أصحابه، وتوجه معنا إلى كَبْنوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين، وهم الحكام عليهم. وهي من بلاد السلطان أرخان بك، فنزلنا بدار عجوز كافرة، وذلك إبان الثلج والشتاء، فأحسننا إليها وبتنا عندها تلك الليلة، وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران، وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير، وظنت أننا تجار نشتره منها. ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية، فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطرفي. وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى عن الطريق^(١)، فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره إلى

(١) صحة العبارة: عفى على الطريق، أي: غطى آثارها وستر معالمها فلم تعد تعرف.

أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركمان ، فأتوا بطعام فأكلنا منه ، وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أوعاراً وجبالاً ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة . فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس : أعطوني شيئاً من الدراهم . فقلنا له : إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا . فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم رجع فرد إلينا القوس فأعطيته شيئاً من الدراهم ، فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق لنا ، فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهلاك علي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلاً ولا عمارة هنالك . فإن نزلنا عن الدواب هلكنا ، وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه . وكان لي فرس من الهياذل فعملت على الخلاص ، وقلت في نفسي : إذا سلمت لعلّي أحتال في سلامة أصحابي ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى وسرت . وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتاً من الخشب يظن رائيها أنها عمارة ، فيجدها قبوراً . فظهر لي منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقلت : اللهم اجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة ووقفني الله تعالى إلى باب دار ، فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمني بالتركي ، وأشار إلي بالدخول . فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني ، وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم . وكانت بيني وبينه معرفة فسلم علي ، وأخبرته خبر أصحابي وأشارت إليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ، ففعلوا ذلك وتوجهوا معي إلى أصحابي ، وجئنا جميعاً إلى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة ، وكانت ليلة جمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى . وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة . ورحلنا عند الصباح فوصلنا إلى مدينة مَطْرُني عند صلاة

الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد)، فنزلنا بزاوية أحد الفتیان الأخية، وبها جماعة من المسافرين، ولم نجد مربطاً للدواب. فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط، فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا، وكان يعرف اللسان العربي فسرت برؤيته، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء. فقال: أما ربطها في منزل فلا يتأتى، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار، لا تدخل منها الدواب، ولكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم، والذين يأتون لحضور السريفة، فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا، ونزل أحد الأصحاب بمجانوت خال إزاءها ليحرس الدواب.

حكاية

وكان من غريب ما اتفق لنا أني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب، وبعثت أحدهم يشتري السمن. فأتى أحدهما بالتبن، والآخر دون شيء، وهو يضحك. فسألناه عن سبب ضحكك فقال: إنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن، فأشار إلينا بالوقوف. وكلم والده فدفعنا له الدراهم، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه، وقلنا له: إنا نريد السمن، فقال: هذا السمن، وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك. أما السمن فيسمى عندهم رباغ. ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبتنا منه أن يسافر معنا إلى قسطنطينية، وبينها وبين هذه البلدة عشرة، وكسوته ثوباً مصريةً من ثيالي، وأعطيته نفقة تركها لعياله، وعينت له دابة لركوبه، ووعدته الخير. وسافر معنا، فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير، وله ديون على الناس، غير أنه ساقط الهممة خسيس الطبع سيء الأفعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الأرز والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه. وذكر لي

أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك ، وكنا نختمله لما كنا نكابه من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله إلى أن فضحناه ، وكنا نقول له في آخر النهار يا حاج ، كم سرقت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا فنضحك منه ونرضى بذلك . ومن أفعاله الخسيصة أنه مات لنا فرس في بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه . ومنها أنا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ ، كلها ميبسة وتجعل في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها . فأردنا أن نحسن إليها فعمل بذلك فقال : لا تعطوها شيئاً ، وأعطوا ذلك لي فأعطيناه إرضاء له ، وأعطيناه إحساناً في خفية بحيث لم يعلم بذلك . ثم وصلنا إلى مدينة بُولِي (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ، ولما انتهينا إلى قريب منها وجدنا وادياً يظهر في رأي العين صغيراً ، فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج ، فجازوه جميعاً . وبقيت جارية صغيرة خافوا في تجويزها ، وكان فرسي خيراً من أفراسهم فأردفتها ، وأخذت في جواز الوادي فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية ، فأخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا . ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الأخية ، ومن عوائدهم أنه لا تزال النار موقودة في زواياهم أيام الشتاء أبداً . يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقد النار ، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ، ولا يؤذي الزاوية . ويسمونها البخاري واحداً بخيري . قال ابن جزى : وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي في قوله في التورية ، وتذكرته بذكر البخيري :

إن البخيري مذ فارقتموه غدا يَحْتُو الرَّمَادِ عَلَى كَانُونِهِ التَّرْبِ
لو شِئْتُمْ أَنَّهُ يُمَسِّي أَبَا لَهَبٍ جَاءَتْ بِغَالِكُمْ حَمَالَةَ الحَطَبِ

قال : فلما دخلنا للزاوية وجدنا النار موقودة ، فنزعت ثيابي ولبست

ثياباً سواها، واصطليت بالنار. وأتى الأخي بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك. فله درهم من طائفة! ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب والطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجلهم احتفالاً بأمره. فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا كقدومه على أحب أهله إليه. وبتنا تلك الليلة بحال مرضية، ثم رحلنا بالغداة فوصلنا إلى مدينة كَرَدِي بُولي (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والذال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مد ولام مكسورة وياء)، وهي مدينة كبيرة في بسيط من الأرض حسنة، متسعة الشوارع والأسواق، من أشد البلاد برداً. وهي محلات مفترقة، كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم.

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك، من متوسطي سلاطين هذه البلاد، حسن الصورة، والسيرة جميل الخلق قليل العطاء. صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا منها، ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي، وهو من مستوطنها من سنين، وله بها أولاد. وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه، ومسموع الكلام عنده. ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا. فشكرته على فعله، واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس. فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين، فأخبرته بذلك كله. وأقام ساعة ثم انصرف، وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا إلى مدينة بُرُلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحد وإسكان الراء وضم اللام)، وهي مدينة صغيرة على تل، تحتها خندق، ولها قلعة بأعلى شاقق. نزلنا منها بمدرسة. وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرستها وطلبتها، ويحضر معهم الدرس. وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب. ودعانا أمير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان باد شاه

ملك قسطنطينية وسنذكره، فصعدنا إليه إلى القلعة، فسلمنا عليه، فرحب بنا وأكرمنا، وسألني عن أسفاري وحالي، فأجبتة عن ذلك، وأجلسني إلى جانبه. وحضر قاضيه وكتابه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب، وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية وألحان عجيبة وانصرفنا. وسافرنا بالغد إلى مدينة قسطنطينية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف)، وهي من أعظم المدن وأحسنها، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار. نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف الأطروش لثقل سمعه. ورأيت منه عجباً، وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء، وتارة في الأرض بإصبعه، فيفهم عنه ويحييه، ويحكي له بذلك، الحكايات فيفهمها. وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً فكنا نشترى طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين، ونشترى خبزاً بدرهمين فيكفينا ليومنا، ونحن عشرة. ونشترى حلواء العسل بدرهمين، فتكفينا أجمعين. ونشترى جوزاً بدرهم وقشطلاً بمثله، فنأكل منها أجمعون، ويفضل باقيها. ونشترى حل الحطب بدرهم واحد، وذلك أوان البرد الشديد، ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعاراً منها. ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء، قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة، وقرأ بدمشق، وجاور بالحرمين قديماً. ولقيت بها العلم المدرس صدر الدين سليمان الفينيكي من أهل فينكة من بلاد الروم، وأضافني بمدرسته التي بسوق الخيل، ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير علي، دخلت، عليه بزوايته بمقربة من سوق الخيل، فوجدته ملقى على ظهره، فأجلسه بعض خدامه، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحها، وكلمني بالعربي الفصيح، وقال: قدمت خير مقدم، وسألته عن عمره فقال: كنت من أصحاب الخليفة المستنصر^(١) بالله، وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة.

(١) الخليفة المستنصر بالله هو الخليفة قبل الأخير من الخلفاء العباسيين ببغداد، وكانت وفاته سنة =

وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة، فطلبت منه الدعاء فدعا لى وانصرف.

ذكر سلطان قسطنطينية

وهو السلطان المكرم سليمان بأدشاه (واسمه بباء معقود وألف ودال مسكن)، وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة، حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة، يجالسه الفقهاء والصلحاء. دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته، وأمر بإنزالى على قرب منه، وأعطانى ذلك اليوم فرساً عتيقاً قرطاسى اللون وكسوة، وعين لى نفقة وعلفاً، وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذ لى فى قرية من قرى المدينة؛ على مسيرة نصف يوم منها، فلم أجد من يشتريه، لرخص الأسعار، فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا. ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه، بعد صلاة العصر، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب، ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الأكل. ويجلس فى أول النهار جلوساً خاصاً، ويأتى ابنه فيقبل يديه، وينصرف إلى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون. ومن عادته فى يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد، وهو بعيد عن داره. والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب. فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الأجناد فى الطبقة السفلى، ويصلى الأفندى، وهو أخو السلطان وأصحابه وأخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى، ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده، ويسمى الجواد، وأصحابه وماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا، ويجتمع القراء

= ٦٤٠ هـ، وعليه فيكون مولد المعمر دادا أمير على فى سنة ٦١٠ هـ، ويكون عمره حين لقاء ابن بطوطة له عام ٧٣٤ هـ أربعاً وعشرين ومائة عام، وليس مائة وثلاثاً وستين كما ذكر.

فيقعدون حلقة أمام المحراب، ويقعد معهم الخطيب والقاضي. ويكون السلطان
 بإزاء المحراب. ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان، ويكررون الآيات
 بترتيب عجيب. فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى،
 فإذا فرغوا من الصلاة تنقلوا وقرأ القارئ بين يدي السلطان عشرًا، وانصرف
 السلطان ومن معه. ثم يقرأ القارئ بين يدي أخي السلطان، فإذا أتم قراءته
 انصرف هو ومن معه، ثم يقرأ القارئ بين يدي ابن السلطان، فإذا فرغ من
 قراءته قام المعرف، وهو المذكر، فيمدح السلطان بشعر تركي ويمدح ابنه ويدعو
 لهما وينصرف. ويأتي ابن الملك إلى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه في طريقه واقفًا
 في انتظاره، ثم يدخلان إلى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه،
 ثم يأتي ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه فيقعد به مع ناسه. فإذا حانت صلاة
 العصر صلوا جميعًا. وقبل أخو السلطان يده، وانصرف عنه فلا يعود إليه إلا
 في الجمعة الأخرى. وأما الولد فإنه يأتي كل يوم غدوة كما ذكرناه. ثم سافرنا
 من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة بإحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في
 تلك البلاد، بناها أمير كبير تاب إلى الله تعالى يسمى فخر الدين، وجعل النظر
 فيها لولده، والإشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء. وفوائد القرية وقف عليها.
 وبنى بإزاء الزاوية حمامًا للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه، وبنى
 سوقًا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع. وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير
 يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواهما كسوة
 كاملة ومائة درهم يوم قدومه، وثلاثمائة درهم يوم سفره. والنفقة أيام مقامه
 وهي الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء. ولكل فقير من بلاد الروم
 عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام، ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ
 لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الأخية، ويعرف بنظام الدين من أهل
 قصطمونية، ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية.

وسافرنا من هذه الزاوية إلى مدينة صنُوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) ، وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهي جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها ، وأميرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه . ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخبي جلبي ، وهي خارج باب البحر ، ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل في البحر ، كميناء سبتة فيه البساتين والمزارع والمياه ، وأكثر فواكهه التين والعنب ، وهو جبل مانع لا يستطيع الصعود إليه . وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين . وبأعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليها السلام ، لا تخلو عن متعبّد ، وعندها عين ماء . والدعاء فيها مستجاب . وبسفح هذه الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والمسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد . وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تثقلها أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب ، وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي ، وكان يصلي الجمعة بأعلى تلك القبة . وملك بعد ابنه غازي جلبي ، فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور . وكان غازي جلبي المذكور شجاعاً مقداماً ، ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة ، وكان يسافر في الأبحان الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ويده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق . وطرقت مرسى بلده مرة أجفان العدو فخرقها وأى من كان فيها . وكانت فيه كفاية لا كفاء لها إلا أنهم يذكرون أنه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات . فإنه خرج يوماً للتصيد وكان مولعاً به ، فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار ، وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته

فات . وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم . ويقال : إنه أيضاً يأكل ما كان يأكله صاحبه ، على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها . ولقد مررت يوماً على باب الجامع بصنوب ، وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها ، فرأيت نفرًا من كبار الأجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكاراة مملوءة بشيء يشبه الخناء ، وأحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل ، وأنا أنظر إليه ولا أعلم بما في الشكاراة . فسألت من كان معي فأخبرني أنه الحشيش . وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الأمير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق .

حكاية

لما دخلنا هذه المدينة رأنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته ، والمختار من مذهبه هو إسبال اليدين . وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم ، فاتهمونا بمذهبهم ، وسألونا عن ذلك فأخبرناهم أننا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب ، وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به ، فذبحناه وطبخناه وأكلناه وانصرف الخديم إليه وأعلمه بذلك . فحينئذ زالت عنا التهمة ، وبعثوا لنا بالضيافة . والروافض لا يأكلون الأرنب . وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى صنوب توفيت أم الأمير إبراهيم بها ، فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه ، كاشفًا شعره ، وكذلك الأمراء والماليك وثيابهم مقلوبة . وأما القاضي والخطيب والفقهاء . فإنهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤوسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضاً عن العمام . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوماً وهي مدة العزاء عندهم . وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ننتظر تيسير السفر في البحر إلى مدينة القرم فاكثرينا مركباً للروم ، وأقمنا أحد عشر يوماً ننتظر مساعدة الريح ، ثم ركبنا البحر ، فلما توسطناه بعد ثلاث ، هال علينا واشتد

بنا الأمر ورأينا الهلاك عياناً ، وكنت بالطارمة ومعى رجل من أهل المغرب ، يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي : استودعكم الله ، ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله ، ثم تغيرت الرياح ورددتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها . وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها . فمنعت صاحب المركب من إنزاله ثم استقامت الرياح وسافرنا ، فلما توسطنا البحر هال علينا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى . ثم ساعدت الرياح ، ورأينا جبال البر ، وقصدنا مرسى يسمى الكرش ، فأردنا دخوله ، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا ، فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك أجفاناً للعدو ، فرجعنا مع البر ، فلما قربناه قلت لصاحب المركب ، أريد أن أنزل ها هنا . فأنزلي بالساحل . ورأيت كنيسة فقصدتها ، فوجدت بها راهباً ، ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفاً ويده رمح ، وبين يديه سراج يوقد ، فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال هذه صورة النبي علي فأعجبت من قوله . وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجاً فلم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه .

وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحرا . وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ، وإنما يوقدون الأرواث ويسمونها التّرك ، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ، ولا يسافر في هذه الصحراء إلا في العجل ، وهي مسيرة ستة أشهر ، ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره .

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذا المرسى ، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق ، وهم على دين النصرانية .

فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكَفَا (واسمها بكاف وفاء مفتوحين)، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر، يسكنها النصارى، وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالنددير، ونزلنا منها بمسجد المسلمين.

حكاية

ولما نزلنا بهذه الجامع أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك، وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك. فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال: لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون. ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيراً. ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاماً فأكلنا عنده، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق. وكلهم كفار ونزلنا إلى المرسى، فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري، صغيراً وكبيراً، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة، ثم اكرتينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان، وعليها أمير من قبله اسمه تُلْكَتْمُورُ وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالأولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء)، وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدمنا. فبعث إلي مع إمامه سعد الدين بفرس، ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا، وهو معظم عندهم. ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقه وسواهم. وأخبرني هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهباً من النصارى في دير يتعبد به، ويكثر الصوم. وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوماً ثم يفطر على حبة فول. وأنه يكتشف بالأمور.

ورغب مني أن أصحبه في التوجه إليه . فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره . ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل^(١) قاضي الحنفية، ولقيت بها قاضي الشافعية، وهو يسمى بخضر، والفقير المدرس علاء الدين الأصبى، وخطيب الشافعية أبا بكر، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين . وكان الأمير تلتكتمور مريضاً، فدخلنا عليه، فأكرمنا وأحسن إلينا . وكان علي التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك، فعملت في السير في صحبته، واشترت العجلات برسم ذلك .

ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء موحدة مفتوحات)، وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فيرسان، ومنها ما يجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربية في ثقلها أو خفتها . والذي يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التي تجرها . ويكون عليه سرج، وفي يده سوط يجرها للمشي، وعود كبير يصونها به إذا عاجت عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهي خفيفة الحمل، وتكسى باللبد أو بالملف، ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه . ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره . والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا . وعليها

(١) في بعض طبعات الكتاب: السائل .

قفل . وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعى بها جارية لي ،
وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب :
يجريها ثلاثة من الجبال ، يركب أحدها خادم العربة ، وسرنا في صحبة الأمير
تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلود مور وصارر بك ، وسار أيضاً معه في هذه
الوجهة إمامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه
شرف الدين موسى ، والمعرف علاء الدين . وخطة هذا المعرف أن يكون بين
يدي الأمير في مجلسه . فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت
عال : بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والأحكام ،
بسم الله . وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال بسم الله سيدنا ومولانا فلان
الدين بسم الله ، فيتهيأ من كان حاضراً لدخول الداخل ويقوم إليه ويفسح له في
المجلس . وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيراً كسير الحجاج في
درب الحجاز . يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر
وينزلون عشياً . وإذا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، سرحوها للرعي
ليلاً ونهاراً . ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره . وخاصة هذه الصحراء أن
نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية . ولذلك
كثرت الدواب بها . ودواهم لا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم في
السرقة ، وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى
صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله ، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك ، فإن
لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاماً
من شيء شبه الآتلي يسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور
معقود) ، يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوقي ، وإن كان
عندهم لحم قطعوه قطعاً صغراً وطبخوه . ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ،

ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه، ويشربون عليه لبن الخمل، وهم يسمونه القِيمِزَ (بكسر القاف والميم والزاي المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج. ويستعملون في بعض الأوقات طعاماً يسمونه البورخاني، وهو عجينة يقطعونه قطيعات صغاراً، ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدرة، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها. ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذي تقدم ذكره. وهم يرون أكل الحلواء عيباً.

ولقد حضرت يوماً عند السلطان أوزبك في رمضان، فأحضرت لحوم الخيل وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشتا وهو شبة الأطرية، يطبخ ويشرب باللبن، وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه، فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك، وأخبرني الأمير تلتكمور أن أحد الكبار من ممالك هذا السلطان وله من أولاده، وأولاد أولاده نحو أربعين ولداً، قال له السلطان يوماً: كل الحلواء وأعتقكم جميعاً، فأبى وقال: لو قتلني ما أكلتها. ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزواوية الأمير تلتكمور، في موضع يعرف بسجاف. فبعث إلي أن أحضر عنده. فركبت إليه. وكان لي فرس معد لركوبي يقوده خديم العربية، فإذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية، فوجدت الأمير قد وضع بها طعاماً كثيراً فيه الخبز، ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه. وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه، وأنا إليه فقلت له: ما هذا؟ فقال هذا ماء الدهن. فلم أفهم ما قال. فذوقته فوجدت له حوضة فتركته. فلما خرجت سألت عنه فقال هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب، والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزة (بضم الباء الموحدة وواو مد وزاي مفتوح). وإنما قال لي الشيخ مظفر الدين: ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول ماء الدهن.

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلاً من مدينة القرم، وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوماً كاملاً، وإذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله، وزاد صعوبة. فذهب الأمير إلى راحلتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه، وكتب لي كتاباً إلى أمير أزاز يعلمه أي أريد القدوم على الملك، ويحضه على إكرامي. وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم.

ثم سرنا بعده ثلاثاً ووصلنا إلى مدينة أزاز (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاي وآخره قاف)، وهي على ساحل البحر حسنة العمارة، يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات. وبها من الفتيان أخي بجقجي، وهو من العطاء، يطعم الوارد والصادر. ولما وصل كتاب القاضي تلكتمور إلى أمير أزاز وهو محمد خواجه الخوارزمي، خرج إلى استقبالي، معه القاضي والطلبة، وأخرج الطعام، فلما سلمنا عليه. نزلنا بموضع أكلنا فيه، ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك، تنسب للخضر والياس عليهما السلام. وخرج شيخ من أهل أزاز يسمى بربج النهر ملكي نسبة إلى قرية بالعراق، فأضافنا بزواية له ضيافة حسنة. وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور، وخرج الأمير محمد للقاءه، ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافة، وضربوا ثلاث قباب متصلاً بعضها ببعض، إحداها من الحرير الملون عجيبية والثنتان من الكتان. وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج، وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا. ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها، فكان من مكارمه وفضله أن قدمني أمامه ليرى ذلك الأمير منزلتي عنده، ثم وصلنا إلى الخباء الأولى، وهي المعد لجلوسه، وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير، مرصع، وعليه مرتبة حسنة، فقدمني الأمير أمامه، وقدم الشيخ مظفر الدين، وصعد هو فجلس فيما بيننا، ونحن جميعاً على المرتبة، وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة، ووقف ولدا

الأمير تلكتمور وأخوه والأمير محمد وأولاده في الخدمة، ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها، وأتوا بألبان الخيل، ثم أتوا بالبوزة، وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان. ثم نصب منبر وصعد الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين، يقول ذلك بالعربي، ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب، ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي. بسمونه الملمع، ثم أتوا بطعام آخر، ولم يزالوا على ذلك إلى العشي. وكلما أردت الخروج منعني الأمير ثم جاءوا بكسوة للأمير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي، وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس. ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس. والخيل بهذه البلاد كثيرة جداً، وثمنها نزر، قيمة الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم. وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه. وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم. وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر، فيكون للتركي منهم آلاف منها.

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أنهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر، مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع، في ركن العربة، ويجعل لكل ألف فرس قطعة. ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك. وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند، فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها، لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه، ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشي، ويركب أحدها وييده عصا طويلة فيها حبل، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه، فيركبه ويترك الآخر للرعى. وإذا وصلوا بها إلى

أرض السند أطعموها العلف لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير، ويموت لهم منها الكثير ويسرق، ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال ششنقار، ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه، فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة، ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم، وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً، وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفه والحياد منها تساوي خمسمائة دينار. وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يتاعونها للجري والسبق لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس وبيع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقيمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الأمير محمد خواجه آلات سفري.

وسافرت إلى مدينة الماجر، وهي (بفتح الميم والفاء وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبرى من أحسن مدن الترك، على نهر كبير، وبها البساتين والفواكه الكثيرة، نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق، وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه، وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم، منهم المتزوج والعزب، وعيشهم من الفتوح. ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء، وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم، ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به، ويجزلون الإحسان، ويعطون العطاء الكثير، وخصوصاً النساء فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير. وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها، وله

جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه، ووعظ وذكر، وأمير المدينة حاضر وكبرائها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال: إن الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال: هذه مني إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطي فرساً ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله، ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهودياً سلم علي وكلمني بالعربي، فسألته عن بلاده، فذكر أنه من بلاد الأندلس، وأنه قدم منها في البر ولم يسلك بجرأ، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس، وذكر أن عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر، وأخبرني التجار المسافرين الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأناً من الرجال. فأما نساء الأمراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب، وطيقان البيت مفتوحة، وأبوابه، وبين يديها أربع جوارٍ، فانتات الحسن بديعات اللباس، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض، ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها، ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب، ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها وأجلسها إلى جانبه، ودار بها جواريا وجاءوا بروايا القمير، فصبت منه في قدح وجلست على ركبتيها قدام الأمير، وناولته القدح فشرب، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير، وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاهم كسوة وانصرفت. وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء، وسنذكر نساء الملك فيما بعد. وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن، وإحداهن تكون في العربة والخيل تجرها، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري، يرفعن أذيالها. وعلى رأسها البغطاق، وهو أقروف مرصع بالجواهر، وفي أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة، وهي بادية

الوجه، لأن نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغم واللبن فتيبعه من الناس بالسلع العطرية، وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغم، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان، وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بِشْ دَغْ ومعنى بش عندهم خسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دَغْ الجبل، وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الأتراك، ويزعمون أنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض، وارتحلنا إلى موضع المحلة فوصلناه اول يوم من رمضان، فوجدنا المحلة قد خلت فعدنا إلى الموضع الذي رحلنا منه، لأن المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تلة هنالك، وركزت العلم أمام البيت، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك، وأقبلت المحلة، وهم يسمونها الأرد بضم الهمزة، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق، ودخان المطبخ صاعد في الهواء وهم يطبخون في حال رحيلهم، والعربات تجرها الخيل بهم، فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات، وجعلوها على الأرض، وهي خفيفة المحمل، وكذلك يصنعون بالمساجد والخوانيت. واجتاز بنا خواتين السلطان، كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهي بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها، رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه، وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علي، وبلغوا سلامها إلي، وهي واقفة تنتظرهم فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابي، ومع معرف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركاً وأمرت أن أنزل في جوارها وانصرفت، وأقبل السلطان فنزل في محلته على حدة.

ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاي مسكن وباء موحدة مفتوحة)، ومعنى خان عندهم السلطان. وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة ومدنه عظيمة منها التكفار والقيرم والماجرم وأزاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه، إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، أيد الله أمره وأعز نصره^(١)، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراق، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة، معه مماليكه وأرباب دولته، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها، وإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن، بعث إليها يعلمها بذلك، فتهيأ له. وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع. ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب، وسطها سرير من خشب، مكسوة بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمه فضة خالصة، ورؤوسها مرصعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير، وعلى يمينه الخاتون طيطغلي، وتليها الخاتون كبك، وعلى يساره الخاتون بيكون، وتليها الخاتون أردوجا، ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كجك. وإذا أتت إحداهن، قام لها السلطان، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طيطغلي، وهي الملكة

(١) يقصد به السلطان أبا عنان فارس المريني.

وأحظاهن عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القبة، فيسلم عليها ويأخذ بيدها فإذا
صعدت على السرير وجلست، حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس
دون احتجاب.

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء، فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل
إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان، يأتي معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدي
السلطان أبناء الملوك من بني عمه وإخوته وأقاربه، ويقف مقابلتهم عند باب القبة
أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال، ثم
يدخل الناس للسلام بالأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة، فيسلمون وينصرفون،
فيجلسون على بعد، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين، ثم
ينصرف سائرهن، فيتبعها إلى محلتها فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى
محلتها راكبة عربتها، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية، راكبات على الخيل
وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء، راكبات على الخيل، فيما بين الفتيان
والعربة، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان، وأمام الفتيان نحو مائة من
المماليك الكبار، ركباناً ومثلهم مشاة، بأيديهم القضبان، والسيوف مشدودة على
أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان، وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في
انصرافها ومجيئها. وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك، الذي
يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة
العصر، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء، وقد صنع طعاماً
كثيراً، وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد،
والقاضي حزة في شأنه بالخير، وأشاروا على السلطان بإكرامي، وهؤلاء الأتراك
لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة، وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح
وروايا القمز، وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان،
فلما أردت الانصراف أمرني بالعودة، وجاءوا بالطعام، من المشروبات كما

يصنع من الدوقى، ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل. وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء، فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك.

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركب في عربة للبيت، وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب، وخدم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعي القشي، والخاتون قاعدة في عربتها، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة، وبين يديها ست من الجواري الصغار، يقال لهن البنات، فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها اثنتان منهز، تستند إليهن، وعلى رأس الخاتون البغطاق، وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر، وبأعلاها ريش الطواويس، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر، وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا، وهو شبه الأقروف، وفي أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجواهر، وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب، المرصعة بالجواهر، ويبد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة، أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار، وثيابهن الحرير، وعلى رؤوسهن الكلا وخلف هذه

العربات نحو ثلاثمائة عربية تجرها الجمال والبقر، وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربية غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى التي ذكرناها فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجوارى من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب، ولندكرهن على الانفراد .

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى هي الملكة أم ولدي السلطان جان بك وتين بك، وسندكرهما وليست أم ابنته إيت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طَيُّغُلي (بفتح الطاء المهملة الأولى واسكان الباء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد)، وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها، وإلا فهي أبجل الخواتين. وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة، أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها، وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر. وذكر لي غيره أنها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق. وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة. ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا أن بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفاً من نسائها على هذه الصورة ولا يقع بيدي ذلك، ولا عرفت له حقيقة. وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون، وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها، وبين يديها نحو خمسين جارية صغاراً

يسمون البنات، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك^(١) وهن يتقينه، وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه، وهي تنقيه، فسلمنا عليها. وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب، فقرأ، ثم أمرت أن يؤتى بالقمز، فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدرح بيدها وناولتني إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم، ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه، ودفعته لأحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا، فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداءنا بها لأجل عظمتها عند الملك.

ذكر الخاتون التي تلي الملكة

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناها بالتركية النخالة، وهي بنت الأمير نَغَطِي (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة)، وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس، وقد رأيت في غد دخولنا على الملكة. دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثياباً، فسلمنا عليها، وأحسنتم في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنه، وأمرت بالقمز فأحضر وناولتني القدرح بيدها كمثل ما فعلته الملكة، وانصرفنا عنها.

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بَيَلُون (بياء موحدة وآخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم* وواو مد ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا

(١) ثمار الكرز.

على هذه الخاتون، وهي قاعدة على سرير مرصع، قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات، منهن قائمات وقاعدات، والفتيان على رأسها، والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعدها أوطاننا، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها، رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها، وهي تنظر إلينا. ولما أردنا الانصراف قالت: لا تنقطعوا عنا، وترددوا إلينا وطالبونا بجوائجكم وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياذ الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى، كما نذكره بعد.

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أرْدُجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة، وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الأمراء وأدركته حياً، وهو متزوج ببنت السلطان إيت كجك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت إلي لما رأته بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه، ودخلنا عليها، فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالقمر فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبتها ودخلنا أيضاً إلى أختها زوجة الأمير علي بن أرزق.

ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك

واسمها إيت كجك وإيت (بكسر الهمزة وياء مد وتاء مشاة وكجك بضم الكاف وضم الجيم) ومعنى اسمها الكلب الصغير، فإن إيت هو الكلب

وكجك هو الصغير، وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفأل، كما تفعل العرب. وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك، وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء^(١) وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعدها معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس، فلا يستطيع التصرف على قدميه، ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً. وعلى هذه الصورة رأيت أيضاً الأمير نغطي، وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية^(٢) في هؤلاء الأتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيراً.

ذكر ولدي السلطان

وهما شقيقان، وأمهما جميعا الملكة طَيْطُغَلِي التي قدمنا ذكرها، والأكبر منها اسمه تَيْنَ بك (بتاء معلومة مكسورة وياء مد ونون مفتوح)، وبك معناه الأمير، وتين معناه الجسد. فكأن اسمه أمير الجسد. واسم أخيه جَانِ بك (بفتح الجيم وكسر النون)، ومعنى جَانِ الروح، فكأنه يسمى أمير الروح. وكل واحد منهما له محلة على حدة. وكان تين بك من أجل خلق الله صورة. وعهد له أبوه بالملك. وكانت له الحظوة والتشريف عنده، ولم يرد الله ذلك، فإنه لما مات أبوه ولي يسيراً، ثم قتل لأمر قبيحة جرت له. وولي أخوه جَانِ بك، وهو خير منه وأفضل. وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جَانِ بك.

(١) تكرر ذكر الفقهاء في هذه العبارة، ويظهر - والله أعلم - أن المقصود بالأولى - كبار الفقهاء، وبالأخيرة: عامتهم.

(٢) لا غرابة في ذلك، فالنقرس يسمى: داء الملوك.

وأشار عليّ هو والقاضي حزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرئ حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جَان بك المذكور لفضله، ففعلت ذلك.

ذكر سفري إلى مدينة بلغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار^(١) فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً، في عكس ذلك الفصل. وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر. فطلبت منه من يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه. ووصلتها في رمضان، فلما صلينا المغرب، أفضرنا. وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر. وطلع الفجر إثر ذلك. وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً. وأقمت بها ثلاثاً.

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار، وبينها أربعون يوماً. ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلّة الجدوى. والسفر إليها لا يكون إلا في عجالات صغار تجرها كلاب كبار. فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها. والكلاب لها الأظفار، فتثبت أقدامها في الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها، موقرة بطعامه وشرابه وخطبه. فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربية إلى عنقه، ويقرن معه ثلاثة من الكلاب. ويكون هو المقدم، تتبعه سائر الكلاب بالعربات. فإذا وقف

(١) هي المعروفة بستالينغراد في الاتحاد السوفياتي، وصار اسمها اليوم فولغاغراد. (م.ق)

وقفت. وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم، وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف. فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة، نزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد. فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن أَرْضَى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه، وإن لم يرضه تركه. فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار. وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم الإنس. ولا يرون أحداً. والقاقم هو أحسن أنواع الفراء. وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار، وصرّفوا من ذهبنا مائتان وخسون. وهي شديدة البياض، من جلد حيوان صغير في طول الشبر، وذنيه طويل يتركونه في الفروة على حاله. والسمور دون ذلك. تساوي الفروة منه أربعمئة دينار فما دونها. ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل. وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق. وكذلك تجار فارس والعراقيين. وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبتي، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان. وحضرت معه صلاة البعيد، وصادف يوم العيد يوم الجمعة.

ذكر ترتيبهم في العيد

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة، وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها، إذ هي الملكة على الحقيقة، ورثت الملك من أمها، وركب أولاد السلطان، كل واحد في عسكره. وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين

السايبي، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ، فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد. وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان، ومعهم الأبطال والأعلام. فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة. وركب السلطان، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك، فجلس فيه ومعه خواتينه، ونصب برج ثانٍ دونه، فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج. ونصب برجان دونها عن يمينه وشماله، فيهما أبناء السلطان وأقاربه. ونصبت الكراسي للأمرء وأبناء الملوك، وتسمى الصندليات، عن يمين البرج وشماله، فجلس كل واحد على كرسیه. ثم نصبت طبقات للرمي، لكل أمير طومان طبلة مختصة به، وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف. فكان الحاضرون من أمرء طومان سبعة عشر، يقودون مائة وسبعين ألفاً، وعسكره أكثر من ذلك. ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه، وأصحابه يلعبون بين يديه. فكانوا على ذلك ساعة. ثم أتى بالخلع، فخلعت على كل أمير خلعة، وعندما يلبسها يأتي إلى أسفل برج السلطان فيخدم، وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى، ويمد رجله تحتها، والأخرى قائمة، ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم، فيرفع حافره، ويقبل فيه الأمير، ويقوده بنفسه إلى كرسیه. وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره. ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم.

ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس، وعن يمينه ابنه ولي العهد، وتليه بنته الملكة إيت كجك، وعن يساره ابنه الثاني، وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب، والخيال التي تجرها مجللة بالحرير المذهب. وينزل جميع الأمرء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة، فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم، إلى أن يصل إلى الوطاق، والوطاق (بكسر الواو) هو إفراج. وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة، والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح

الفضة المموهة بالذهب، وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع، وتظهر هذه البارقة على البعد كأنها ثنية. ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير، وينصب في وسط البارقة السرير الأعظم، وهم يسمونه التخت، وهو من خشب مرصع، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة، وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس السلطان والخاتون الكبرى، وعن يمينه مرتبة جلست بها ابنته إيت كجك ومعها الخاتون أردوجا، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك، ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان، ونصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني، ونصبت كراسي عن اليمين والشمال جلس فوقها أبناء الملوك الكبار، ثم الأمراء الصغار، مثل أمراء هزارة، وهم الذين يقودون ألفاً. ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة، وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك. وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة، وتوضع بين يدي كل أمير مائدة، ويأتي الباروجي، وهو مقطع اللحم، وعليه ثياب حرير، وقد ربط عليها فوطة حرير، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها. ويكون لكل أمير باروجي. فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره. ويؤتى بصفحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء، فيقطع الباروجي اللحم قطعاً صغيراً ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم. ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب، وأكثر شربهم نبيذ العسل. وهم حنفية المذهب، يجللون شرب النبيذ. فإذا أراد السلطان أن يشرب، أخذت ابنته القدح بيدها، وخدمت برجلها، ثم ناولته القدح فشرب. ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى، فتشرب منه. ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم ولي العهد القدح، ويخدم ويناوله إياه فيشرب. ثم الخواتين ثم أخته، ويخدم جميعهن. ثم

يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له. ثم يقوم الأمراء الكبار، فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له، ثم يقوم أبناء الملوك، ويغنون أثناء ذلك بالموالية. وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضاً إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم، فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك. ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان إلا الكبار، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد. فكان من الفقهاء من أكل، ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب. ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القميز. فأمر السلطان بتفريقها على الناس. فأتوا إلي بعربة منها، فأعطيتها لجيراني من الأتراك. ثم أتينا المسجد تنتظر صلاة الجمعة، فأبطأ السلطان. فمن قائل: إنه لا يأتي. لأن السكر قد غلب عليه، ومن قائل: إنه لا يترك الجمعة. فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتأيل، فسلم على السيد الشريف، وتبسم له، وكان يخاطبه بأطا، وهو الأب بلسان التركية. ثم صلينا الجمعة، وانصرف الناس إلى منازلهم. وانصرف السلطان إلى الباركة، فبقى على حاله إلى صلاة العصر. ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته.

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد، فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان، ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم، (وهو بفتح المثناة وسكون الراء وبفتح الخاء المعجم وآخره نون)، والمنسوب إليه هذه المدينة. هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها، وحرر له السلطان ذلك الموضع. فصار قرية عظمت وتمدنت. وهي من أحسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل، وهو من أنهار الدنيا الكبار. وهناك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به، ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن، فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر. والتبن هنالك

لا تأكله الدواب لانه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد. ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل، وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء، فيغرقون ويهلكون. ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه، فأذن لها. ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمعتني خوفاً علي.. فلاطفته وقلت له: إنما أدخلها في حرمتك وجوارك، فلا أخاف من أحد. فأذن لي وودعناه. ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة. وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة، وهم يسمونها بصّوم (بفتح الصاد المهمل)، واحدتها صومة. وأعطت ابنته أكثر منهن، وكستني وأركتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة.

ذكر سفري إلى القسطنطينية

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها، ورحل السلطان في تشييعها مرحلة، ورجع هو والملكة وولي عهده، وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن، وسافر صحبتها الأمير بيدره في خمسة آلاف من عسكره. وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين، والباقيون من الترك. وكان معها من الجوارى نحو مائتين، وأكثرهن روميات. وكان لها من العربات نحو أربعمئة عربية، ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب، ونحو ثلاثمئة من البقر، ومائتين من الجمال لجرها. وكان معها من الفتيان الروميين عشرة، ومن الهندين مثلهم. وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي، وقائد الروميين ويسمى بميخائيل، ويقول له الأتراك لؤلؤ، وهو من الشجعان الكبار. وتركت أكثر جواربها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد

توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل .

وتوجهنا إلى مدينة أكَكْ . وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الأولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثير الخيرات شديدة البرد . وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر ؛ وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس ، وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة . ومن بلادهم يؤتى بالصوم ، وهي سبائك الفضة التي يباع ويشترى في هذه البلاد ، ووزن الصومعة منها خمس أوقى .

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) . وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها ، وبخارجها البساتين والمياه . وينزلها الترك . وطائفة من الروم تحت ذمتهم ، وهم أهل الصنائع . وأكثر بيوتها خشب . وكانت هذه المدينة كبيرة . فخرّب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك . وكانت الغلبة للروم . فانتصر للترك أصحابهم ، وقتلوا الروم شر قتلة ، ونفوا أكثرهم ، وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن . وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم . والسفر في هذه البلاد مضحي ومعشي . وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده ، تعظيماً لها ، لا خوفاً عليها ، لأن تلك البلاد آمنة . ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق ، وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء ، إلا أنهم يفتحون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ، ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفاً ، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع . وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة ، منها

ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء، ويحمل في الروايا والقرب على العربات، وكان دخولنا إليها في أيام البرد، فلم نحتاج إلى كثير من الماء. والأتراك يرفعون الألبان في القرب، ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون. وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية، واحتجت إلى زيادة أفراس، فأتيست الخاتون، فأعلمتها بذلك. وكنت أسلم عليها صباحاً ومساءً ومتى أتتها ضيافة تبعث إلي بالفرسين والثلاثة وبالغنم. فكنت أترك الخيل لأذبحها. وكان من معي من الغلمان، والخدم يأكلون مع أصحابنا الأتراك، فاجتمع لي نحو خمسين فرساً. وأمرت لي الخاتون بخمسة عشر فرساً، وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سماناً من خيل المطبخ. وقالت: لا تخف، فإن احتجت إلى غيرها زدناك. ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة. فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر^(١) يوماً وإقامتنا خمسة. ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوماً مضحى ومعشى، وما رأينا إلا خيراً والحمد لله.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولي، وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلولة وواو مد ولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها، فوصلنا إلى هذا الحصن فاستقبلنا كفالي نقوله الرومي، في عسكر عظيم وضيافة عظيمة. وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية. وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوماً، منها ستة عشر يوماً إلى الخليج، وستة منه إلى القسطنطينية. ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيول والبغال، وتترك العربات به، لأجل الوعر والجبال. وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة، وبعثت إلي الخاتون بستة منها، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماي

(١) في بعض طبعات الكتاب: تسعة وعشرين يوماً.

مع العربات والأثقال، فأمر لهم بدار. ورجع الأمير بيدرة بعساكره، لم يسافر مع الخاتون إلا ناسها، وتركت مسجدها بهذا الحصن، وارتفع حكم الأذان. وكان يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير، وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها. ولم يبق معها من يصلي إلا بعض الأتراك كان يصلي معنا. وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر، ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالي بإكرامي. ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا. ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك، وهو بسفح جبل على نهر زخار، يقال له: اصطقبلي، ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره، وبخارجه قرية كبيرة. ثم سرنا يومين، ووصلنا إلى الخليج، وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد، فأقمنا حتى كان الجزر، وخصناه، وعرضه نحو ميلين. ومشينا أربعة أميال في رمال، ووصلنا الخليج الثاني، فخصناه، وعرضه نحو ثلاثة أميال، ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل، ووصلنا الخليج الثالث، وقد ابتدأ المد، فتبعنا فيه، وعرضه ميل واحد. فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلاً، وتصير ماء كلها في أيام المطر، فلا تخاض إلا في القوارب.

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح)، وهي صغيرة، لكنها حسنة مانعة، وكنائسها وديارها حسان، والأنهار تخرقها والبساتين تحفها، ويدخر بها العنب والإجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً. والخاتون في قصر لأبيها هنالك، ثم قدم أخوها شقيقها اسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكي السلاح، ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرساً أشهب، ولبس ثياباً بيضاء، وجعل على رأسه مظلاً مكللاً بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، لابسين البياض أيضاً، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب، وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس، قد

أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم، وكل واحد منهم يقود فرساً مسرجاً مدرعاً، عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف، وييده زمح في طرف رأسه راية. وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة. وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان. وقسم فرسانه على أفواج، كل فوج فيه مائتا فارس، لهم أمير قد قدم أمامه عشر من الفرسان شاكين في السلاح، وكل واحد منهم يقود فرساً، وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنات، وهي الغيطات. وركبت الخاتون في ممليكها وجواربها وفتيانها وخدامها، وهم نحو خمسمائة، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة، وعلى الخاتون حلة يقال لها: النخ، ويقال لها أيضاً: النسيج، مرصعة بالجواهر، وعلى رأسها تاج مرصع، وفرسها مجمل حرير مزركش بالذهب، وفي يده ورجليه خلاخل الذهب، وفي عنقه قلائد مرصعة. وعظم السرج مكسو ذهباً، مكلل جوهرًا. وكان التقاؤهما في بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد. وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنًا منها، وقبل ركابها، وقبلت رأسه. وترجل الأمراء وأولاد الملوك، وقبلوا جميعاً ركابها، وانصرفت مع أخيها. وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر، لا نثبت الآن اسمها، ذات أنهار وأشجار، نزلنا بخارجها. ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع، وعلى رأسه تاج، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء، إلا أن الحفل أعظم، والجمع أكثر. وتلاقت معه أخته في مثل زيتها الأول، وترجلا جميعاً. وأتى بجناء حرير فدخلوا فيه. فلا أعلم كيفية سلامها، ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية. فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان، ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجل لباس، وضربت

عند الصبح الأبطال والأبواق والأنفار، وركبت العساكر، وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان، ورجال بأيديهم عصي طوال، في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الراوق، وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي. ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها، خوفاً على نفسي. وذكر لي أنها لما قربت من أبيها ترجلت وقبّلت الأرض بين أيديها، ثم قبلت حافري فرسيهما. وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك. وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها. ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل، معهم قائد لهم فوق دكانه. وسمعتهم يقولون: سراكنوا سراكنوا، ومعناه المسلمون. ومنعونا من الدخول. فقال لهم أصحاب الخاتون: إنهم من جهتنا. فقالوا: لا يدخلون إلا بإذن. فأقمنا بالباب، وذهب بعض أصحاب الخاتون، فبعث من أعلمها بذلك، وهي بين يدي والدها، فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا. وعين لنا داراً بمقربة من دار الخاتون، وكتب لنا أمراً بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة، ونودي بذلك في الأسواق. وأقمنا بالدار ثلاثاً، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش. وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان.

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تَكْفُور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس. وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة، لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس، وترك الملك لولده وسنذكره. وفي اليوم الرابع من

وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إليّ الخاتون الفتى سنبل الهندي، فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب، في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة. فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل، ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين، ففتشوني لثلا يكون معي سكين، وقال لي القائد: تلك عادة لهم، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام، غريب أو بلدي، وكذلك الفعل بأرض الهند. ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب، فأخذ بيدي وفتح الباب، وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي، واثنان من ورائي فدخلوا بي إلى مشور كبير، حيطانه بالفيسفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد، وفي وسطه ساقيه ماء، ومن جهتها الأشجار والناس واقفون يميناً ويساراً سكوتاً لا يتكلم أحد منهم، وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف. أسلمني أولئك الأربعة إليهم فأمسكوا بشيبي كما فعل الآخرون، وأشار إليهم رجل فتقدموا بي، وكان أحدهم يهودياً فقال لي بالعربي: لا تخف، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجاني، وأصلي من بلاد الشام. فسألته كيف أسلم. فقال: قل السلام عليكم. ثم وصلت إلى قبة عظيمة، والسلطان على سرير، وزوجته أم هذا الخاتون بين يديه، وأسفل السرير الخاتون وإخوتها، وعن يمينه ستة رجال، وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح. فأشار إليّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة، ليسكن روعي، ففعلت ذلك، ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل. وسألني عن بيت المقدس، وعن الصخرة المقدسة، وعن القمامة، وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل عليه السلام، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبت عن ذلك كله، واليهودي يترجم بيني وبينه. فأعجبه كلامي وقال لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه. ثم خلع عليّ خلعة، وأمر لي بفرس مسرج ملجم، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه، وهي

علامة الأمان. وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها في بلادي. فعين لي ذلك. ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لثلا يؤذوا فطافوا بي في الأسواق.

ذكر المدينة

وهي متناهية في الكبر، منقسمة بقسمين بينها نهر عظيم المد والجزر، على شكل وادي سلا من بلاد المغرب. وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت. وهو الآن يعبر في القوارب. واسم هذا النهر أبسُمي (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد). وأحد القسمين من المدينة يسمى أصطَبُول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام)، وهو بالعدوة الشرقية من النهر، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس. وأسواقه وشوارعه مفروشه بالصفاح متسعة. وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركونهم سواهم، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة به النساء. والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال، وعرضه مثل ذلك أو أكثر، وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان. والسور يحيط بهذا الجبل، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر. وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة. وأما القسم الثاني منها فيسمى العَلَطَة (بغين معجمة ولام وطا مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر، شبيه برباط الفتح في قربه من النهر. وهذا القسم خاص بنصاري الإفرنج يسكنونه. وهم أصناف، فمنهم الجنوبيون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفرانسة. وحكمهم إلى ملك القسطنطينية،

يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص، وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية. وربما استعضوا عليه، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا. وجميعه أهل تجارة، ومرسأهم من أعظم المراسي، رأيت به نحو مائة جفن من القراق وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة. وأسواق هذا القسم حسنة، إلا أن الأقدار غالبية عليها، ويشقها نهر صغير قدر نجس، وكنائسهم لا خير فيها.

ذكر الكنيسة العظمى

وإنما نذكر خارجها، وأما داخلها فلم أشاهده. وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والفاء وصاد مضموم وو او مد وفاء مكسورة وياء كالأولى والفاء). ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام. وهي من أعظم كنائس الروم، وعليها سور يطيف به فكأنها مدينة. وأبوابها ثلاثة عشر باباً، ولها حرم هو نحو ميل، عليه باب كبير، ولا يمنع أحد من دخوله. وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره، وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع، مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة، والأشجار منتظمة عن جهتي الساقية. ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع، عليه دوالي العنب، وفي أسفله الياسمين والرياحين، وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب، يجلس عليها خدام ذلك الباب. وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب، يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم. وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على درج خشب، وفيها كرسي كبير مطبق بالملف، يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره، وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين. والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمر بسوق العطارين، والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتّاب، وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقيمون طرقها ويوقدون

سرجها ويغلقون أبوابها، ولا يدعون أحداً بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبه عيسى عليه السلام، وهو على باب الكنيسة، مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع، وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها، حتى صارت صليياً. وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب، وحلقته من الذهب الخالص. وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف، وأن بعضهم من ذرية الحواريين. وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبرار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف. وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله. ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحاً إلى زيارة هذه الكنيسة، ويأتي إليها البابا مرة في السنة، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد، يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له. وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه، ويأتيه صباحاً ومساءً للسلام طوال مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف.

ذكر المانستارات بقسطنطينية

والمانستار^(١) على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة، وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين، وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والدملك القسطنطينية وسنذكره، وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة. ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها، وهما في داخل بستان يشقها نهر ماء. وأحدهما للرجال والآخر للنساء. وفي كل واحد منها كنيسة، ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات، وقد حبس على كل واحد منها أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم، بناهما أحد الملوك. ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين،

(١) المانستار هو دير الرهبان (موناستير).

ويطيف بها بيوت. وأحدهما يسكنه العميان، والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة، ممن بلغ الستين أو نحوها. ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك. وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه. وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستاراً أو لبس المسوح، وهي ثياب الشعر، وقلد ولده الملك، واشتغل بالعبادة حتى يموت. وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات، ويعملونها بالرخام والفسيفساء، وهي كثيرة بهذه المدينة. ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقه نهر، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر، عليهن المسوح ورؤوسهن مخلوقة فيها قلانيس اللبد، ولهن جمال فائق، وعليهن أثر العبادة. وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر، ومعهم قسيسهم. فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر. وقال لي الرومي: إن هؤلاء البنات من بنات الملوك، وهن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة، وكذلك الصبيان القراء، ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة. ودخلت أيضاً إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبياً يقرأ لهن على منبر، وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين، فقال لي الرومي: هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة. ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء، وإلى كنائس فيها الرهبان، يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل، وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون. وكنائسها لا تحصى كثرة. وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفاً، والنساء لهن عمام كبار.

ذكر الملك المترهب جرجيس

وهذا الملك ولَّى الملك لابنه، وانقطع للعبادة، وبني مانستاراً كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها. وكنت يوماً مع الرومي المعين للركوب معي فإذا بهذا الملك ماشٍ على قدميه، وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد، وله حية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان، وبيده عكاز، وفي عنقه سبحة. فلما رآه الرومي نزل وقال لي: انزل فهذا والد الملك. فلما سلم عليه الرومي سأله عني، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي، وكان يعرف اللسان العربي: قل لهذا السراكنوا، يعني المسلم أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس، والرَّجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة وبيت لحم، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم، ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى، وأطال السؤال، ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفاً. ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهو من كبارهم في الرهبانية. ولما رآهم أرسل يدي فقلت له: أريد الدخول معك إلى الكنيسة. فقال للترجمان: قل له: لا بد لداخلها من السجود للصليب الأعظم، فإن هذا مما سنته الأوائل، ولا يمكن خلافه، فتركته، ودخل وحده، ولم أره بعدها.

ذكر قاضي القسطنطينية

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب، فرآني القاضي فبعث إلي أحد أعوانه، فسأل الرومي الذي معي، فقال له: إنه من طلبه المسلمين. فلما عاد إليه وأخبره بذلك بعث إلي أحد أعوانه، وهم يسمون القاضي النجشي كفالي، فقال لي: النجشي كفالي يدعوك، فصعدت إليه، إلى القبة التي

تقدم ذكرها، فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمّة، عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون. فقام إلي وقام أصحابه، وقال: أنت ضيف الملك، ويجب علينا إكرامك. وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام، وقال لي: لا بد لك أن تأتي إلى داري فأضيفك. فانصرفت عنه، ولم ألقه بعد.

ذكر الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها وراغبة في المقام معه، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم، وأعطتهم عطاء جزيلاً، وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أميراً يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس، وبجئت عني فأعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البريرة وليس بالطيب، وألفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات، وهو أجود أنواعه، وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف، وفرسين، وذلك من عطاء أبيها، وأوصت بي ساروجة وودعتها وانصرفت. وكانت مدة مقامي عندهم شهراً وستة أيام. وسافرنا صحبة ساروجة، فكان يكرمني، حتى وصلنا إلى آخر بلادهم، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا، فركبنا العربات ودخلنا البرية، ووصل ساروجة معنا إلى مدينة بابا سلطوق، وأقام بها ثلاثاً في الضيافة، وانصرف إلى بلاده، وذلك في اشتداد البرد، وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن، وفي رجلي خف من صوف، وفوقه خف مبطن بثوب كتان، وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب، وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار، فما تقطر من الماء قطرة إلا وجدت حينها. وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي.

ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقتنا السلطان أوزبك ، فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه ؛ فسافرنا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة . وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدرة حتى يصير ماء ، فنشرب منه ونطبخ به . ووصلنا إلى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة والـف) ، وتعرف بسرا بركة ، وهي حضرة السلطان أوزبك . ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا ، وعن ملك الروم ومدينته ، فأعلمناه . وأمر بإجراء النفقة علينا ، وأنزلنا .

ومدينة السرا ، من أحسن المدن ، متناهية الكبر ، في بسيط من الأرض ، تفص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متسعة الشوارع .

وركبنا يوماً مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها ، وكان منزلنا في طرف منها ، فركبنا منه غدوة . فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال ، فصلينا الظهر ، وأكلنا طعامنا . فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين راجعين في نصف يوم ، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين . وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية ، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً . وفيها طوائف من الناس . منهم المغل ، وهم أهل البلاد والسلطين ، وبعضهم مسلمون ، ومنهم الآص ، وهم مسلمون ، ومنهم القفجق والجركس والروس والروم ، وهم نصارى ؛ وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها ، أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراق ومصر والشام وغيرها ، ساكنون بمحلة عليها سور ، احتياطاً على أموال التجارة .

وقصر السلطان بها يسمى الطُون طَاشْ ، وألطنون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة .

وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي، أحد الفضلاء، وبها من المالكية شمس الدين المصري، وهو ممن يطعن في ديانته. وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين، أضافنا بها وأكرمنا، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي، رأيته بها، وهو من فضلاء المشايخ، حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا، يأتي إليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له، والشيخ بضد ذلك. وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان، فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم، وأكرمني جزاه الله خيراً، وبعث إلي بغلام تركي، وشاهدت له بركة.

كرامة له

كنت أردت السفر من السرا إلى خوارزم، فنهاني عن ذلك، وقال لي: أقم أياماً وحينئذ نسافر فنازعني النفس، ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر. فيهم تجار أعرفهم، فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم، وذكرت له ذلك فقال لي: لا بد لك من الإقامة. فعزمت على السفر فأبق لي الغلام، وأقمت بسببه. وهذه الكرامات الظاهرة.

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان، فجاء به إلي فحينئذ سافرت إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوماً، لا تسافر فيها الخيل لقلّة الكلا، وإنما تجر العربات بها الجمال، فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا إلى مدينة سَرَاجُوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف)، ومعنى جوق صغير. فكأنهم قالوا: سرا الصغيرة، وهي على شاطئ نهر كبير زخار، يقال له: أَلْوُصُو (بضم الهمز واللام وواو

وَضَمَّ الصَّادِ الْمَهْمَلِ (وَوَاوِ)، وَمَعْنَاهُ الْمَاءُ الْكَبِيرُ، وَعَلِيهِ جَسْرٌ مِنْ قَوَارِبِ كَجَسْرِ بَغْدَادٍ. وَإِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ انْتَهَى سَفَرُنَا بِالْخَيْلِ الَّتِي تَجْرُ الْعَرَبَاتِ، وَبَعْنَاهَا بِحَسَابِ أَرْبَعَةِ دَنَانِيرِ دَرَاهِمٍ لِلْفَرَسِ وَأَقْلَ مِنْ ذَلِكَ لِأَجْلِ ضَعْفِهَا وَرِخْصَتِهَا بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَاکْتَرَيْنَا الْجِبَالَ لِحَرِّ الْعَرَبَاتِ. وَبِهَذِهِ الْمَدِينَةِ زَاوِيَةٌ لِرَجُلٍ صَالِحٍ مَعْمَرٍ مِنَ التُّرْكِ يُقَالُ لَهُ أَطَا (بِفَتْحِ الْهَمْزِ وَالطَّاءِ الْمَهْمَلِ)، وَمَعْنَاهُ الْوَالِدُ، أَضَافْنَا بِهَا وَدَعَا لَنَا. وَأَضَافْنَا أَيْضًا قَاضِيَهَا، وَلَا أَعْرَفُ اسْمَهُ. ثُمَّ سَرْنَا مِنْهَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا سَيْرًا جَادًا لَا نَنْزِلُ إِلَّا سَاعَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا عِنْدَ الضَّحَى، وَالْأُخْرَى عِنْدَ الْمَغْرَبِ. وَتَكُونُ الْإِقَامَةُ قَدْرَ مَا يَطْبُخُونَ الدُّوْقِي وَيَشْرَبُونَهُ، وَهُوَ يَطْبُخُ مِنْ غَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَكُونُ مَعَهُمُ الْخَلِيعُ مِنَ اللَّحْمِ، يَجْعَلُونَهُ عَلَيْهِ، وَيَصْبُونَ عَلَيْهِ اللَّبْنَ. وَكُلُّ إِنْسَانٍ إِذَا يَنَامُ أَوْ يَأْكُلُ فِي عَرَبْتِهِ حَالَ السَّيْرِ. وَكَانَ لِي فِي عَرَبْتِي ثَلَاثَ مِنْ الْجَوَارِي. وَمِنْ عَادَةِ الْمَسَافِرِينَ فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ الْإِسْرَاعُ، لِقَلَّةِ أَعْشَابِهَا. وَالْجِبَالُ الَّتِي تَقْطَعُهَا يَهْلِكُ مَعْظَمُهَا، وَمَا يَبْقَى مِنْهَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا فِي سَنَةِ أُخْرَى، بَعْدَ أَنْ يَسْمُنَ. وَالْمَاءُ فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ فِي مَنَاهِلٍ مَعْلُومَةٍ بَعْدَ الْيَوْمِينَ وَالثَّلَاثَةِ، وَهُوَ مَاءُ الْمَطَرِ وَالْحَسْيَانِ. ثُمَّ لَمَّا سَلَكْنَا هَذِهِ الْبَرِيَّةَ وَقَطَعْنَاهَا كَمَا ذَكَرْنَا، وَصَلْنَا إِلَى خَوَارِزْمَ، وَهِيَ أَكْبَرُ مَدَنِ الْأَتْرَاكِ وَأَعْظَمُهَا وَأَجْمَلُهَا وَأَضْحَمُهَا، هِيَ الْأَسْوَاقُ الْمَلِيحَةُ وَالشُّوَارِعُ الْفَسِيحَةُ وَالْعِمَارَةُ الْكَثِيرَةُ وَالْمَحَاسِنُ الْأَثِيرَةُ. وَهِيَ تَرْتَجُ بِسَكَانِهَا لِكَثْرَتِهِمْ، وَتَمُوجُ بِهِمْ مَوْجُ الْبَحْرِ. وَلَقَدْ رَكِبْتُ بِهَا يَوْمًا وَدَخَلْتُ السُّوقَ، فَلَمَّا تَوَسَّطْتَهُ وَبَلَّغْتَ مَنْتَهَى الزَّحَامِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الشَّهْوَرُ (بِفَتْحِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمِ وَإِسْكَانِ الْوَاوِ)، لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَجُوزَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ لِكَثْرَةِ الْإِزْدِحَامِ، وَأَرَدْتُ الرَّجُوعَ فَهَا أُمَكْنِي لِكَثْرَةِ انْنِاسِ فَبَقِيْتُ مَتَحِيرًا، وَبَعْدَ جَهْدٍ شَدِيدٍ رَجَعْتُ. وَذَكَرَ لِي بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ تِلْكَ السُّوقَ يَخْفُ زَحَامُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَتَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ وَالْمَدْرَسَةِ. وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ تَحْتَ إِمْرَةِ السُّلْطَانِ أَوْزْبِكِ. وَهِيَ فِيهَا أَمِيرٌ كَبِيرٌ يَدْعَى قَطْلُودْمُورَ، وَهُوَ الَّذِي عَمَرَ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ الْمُضَافَةِ. وَأَمَّا الْجَامِعُ فَعَمَرْتَهُ زَوْجَتُهُ

الخاتون الصالحة تُرَابِك (بضم التاء المعلولة وفتح الراء والفاء) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف)، وبخوارزم مارستان له طيب شامي يعرف بالصهيوني، نسبة إلى صهيون من بلاد الشام. ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم، ولا أكرم نفوساً، ولا أحب في الغرباء. ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم. وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع، تُعَمِّمُ للفقراء والمساكين. ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قدم الزمان. وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل، ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا. ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ، ويجلبون منها القمح والشعير، وهي مسيرة عشر للمنحدر. وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى، وكان من كبار الصالحين. وفيها الطعام للوارد والصادر، وشيخهم المدرس سيف الدين بن عضبة، من كبار أهل خوارزم، وبها أيضاً زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي، من كبار الصالحين، أضافنا بها. وبخارجها قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وعليه قبة. وزمخشري قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم.

ولما أتيت بهذه المدينة نزلت بخارجها، وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري، فبعث إلي نائبه نور الإسلام فسلم علي، ثم عاد إليه. ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم علي، وهو فتى السن، كبير الفعال، وله نائبان: أحدهما نور الإسلام المذكور، والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء، وهو الشديد في أحكامه، القوي في ذات الله تعالى.

ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي: إن هذه المدينة كثيرة الزحام، ودخولكم نهراً لا يتأق، وسيأتي إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه في آخر الليل، ففعلنا ذلك. ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد. ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضي المذكور، ومعه من كبار المدينة جماعة منهم، مولانا همام الدين، ومولانا زين الدين المقدسي، ومولانا رضي الدين يحيى، ومولانا فضل الله الرضوي، ومولانا جلال الدين العمادي، ومولانا شمس الدين السنجري إمام أميرها. وهم أهل مكارم وفضائل، والغالب على مذهبهم الاعتزال، لكنهم لا يظهرونه، لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قتلودومور من أهل السنة. وكنت أيام إقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده، فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره، وهي قريبة من المسجد، فأدخل معه إلى مجلسه، وهو من أبداع المجالس فيه الفرش الحافلة، وحيطانه مكسوة بالملف، وفيه طيقان كثيرة، وفي كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب، والأواني العراقية. وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم، ثم يأتي بالطعام الكثير. وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع. وهو سلف الأمير قتلودومور، متزوج بأخت امرأته، واسمها جيغا أغا. وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين، أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الأربعة الذين لم اسمع في الدنيا أحسن منهم.

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قُطْلُوْدُمُور، وقُطْلُو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام)، ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء)، ومعنى اسمه الحديد المبارك. لأن قُطْلُو هو المبارك ودمور هو الحديد. وهذا الأمير ابن خالة

السلطان المعظم محمد أوزبك، وأكبر أمرائه، وهو واليه على خراسان. وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها، وامراته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة.

ولما أتاني القاضي مسلماً عليّ كما ذكرته، قال لي: إن الأمير قد علم بقدمك، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك. فركبت مع القاضي إلى زيارته وأتينا داره، فدخلنا مشوراً كبيراً أكثر بيوته خشب، ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة، قد كسيت حيطانها بالملف الملون، وسقفها بالحرير المذهب، والأمير على فرش له من الحرير، وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس، وهي علة فاشية في الترك، فسلمت عليه، وأجلستني إلى جانبه، وقعد القاضي والفقهاء. وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك، وعن الخاتون بيّلون، وعن أبيها، وعن مدينة القسطنطينية، فأعلمته بذلك كله. ثم أتى بالمواد فيها الطعام من الدجاج المشوي والكراكي وأفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة، ومعه ملاعق الذهب. وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب. ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره، فيجلس بمجلس مُعدّ له ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبراء، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم، يسمون الأرغجية (بارغوجي)، ويتحاكم الناس إليهم. فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء. وأحكامهم مضبوطة معادلة. لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة. ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والأبزار وأحمال الحطب. وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم. وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في

الفحم، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى.

حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد أبي حفص، فقال لي: إن الأمير أمر لك بخمسة دراهم، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه. فلما أمر بذلك قلت له: أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع. فقال: أفعل ذلك. وقد أمر لك بالألف كاملة، ثم بعثها الأمير صحبة إمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه، وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار. وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرساً أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناراً دراهم، وركبته في ذهابي إلى المسجد، فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الألف. وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك، حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به، ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند. وكانت عندي خيل كثيرة، لكنني كنت أفضل هذا الفرس وأثره وأربطه أمام الخيل. وبقي عندي إلى انقضاء ثلاث سنين. ولما هلك تغيرت حالي، وبعثت إلى الخاتون جيغا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم، وصنعت لي أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزوايتها التي بنتها، وفيها الطعام للوارد والصادر، وبعثت إلي بفروة سمور وفرس جيد، وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً.

حكاية

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية، تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة، وعلى رأسها مقنعة، ومعها نسوة لا

أذكر عددهن . فسلمت عليّ، فرددت عليها السلام، ولم أقف معها ولا التفت إليها . فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لي : إن المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون . فخرجت عند ذلك، وأردت الرجوع إليها فوجدتها قد انصرفت . فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها .

ذكر بطيخ خوارزم

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً، إلا ما كان من بطيخ بخارى، ويليه بطيخ أصفهان . وقشره أخضر، وباطنه أحمر . وهو صادق الحلاوة، وفيه صلابة . ومن العجائب أنه يقدد ويبيس في الشمس، ويجعل في القواصر، كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه . وكنت أيام إقامتي بداهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ . وكان ملك الهند إذا أتى إليه بشيء منه بعث إلي به لما يعلم من محبتي فيه . ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم، : ويتفقدهم بذلك .

حكاية

كان قد صحبني من مدينة السرا إلى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور، وكان من التجار، فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها، فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير، ويقول: اشترته بثمانية، ويحاسبني بالثمانية، ويدفع الدينارين من ماله . وأنا لا علم لي بفعله، إلى أن تعرفت ذلك على السنة الناس، وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير . فلما وصل إلي إحسان أمير خوارزم رددت إليه ما أسلفنيه، وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة

لأفعاله الحسنة فأبى ذلك، وحلف أن لا أفعل. وأردت أن أحسن إلى فتى كان له اسمه كافور، فحلف أن لا أفعل، وكان أكرم من لقيته من العراقيين. وعزم على السفر معي إلى بلاد الهند. ثم إن جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين، فأخذ في السفر معهم. فقلت له في ذلك، فقال: هؤلاء أهل بلدي، يعودون إلى أهلي وأقاربي، ويذكرون أنني سافرت إلى الهند برسم الكدية، فيكون سبب علي، لا أفعل ذلك، وسافر معهم إلى الصين فبلغني بعد، وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المائق، وهي آخر البلاد التي من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين، أقام بها، وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع، فأبطأ الفتى عليه. وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار، ونزل معه في فندق واحد. فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئاً بجلال ما يصل فتاه، فلم يفعل، ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق. فبلغ ذلك الشريف، فاغتم منه، ودخل إلى بيته فذبح نفسه، فأدرك وبه رمق، واتهموا غلاماً كان له بقتله، فقال: لا تظلموه، فإني أنا فعلت ذلك. ومات من يومه غفر الله له.

وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضاً^(١)، فلقبه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام، فطلبه بالمال، وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين، فاستحيا من صاحب المال، ودخل إلى بيته، وربط عمامته بسقف البيت، وأراد أن يخنق نفسه. وكان في أجله تأخير، فتذكر صاحباً له من الصيارفة فقصده، وذكر له القضية، فسلفه مالاً دفعه للتاجر. ولما أردت السفر من خوارزم اكرتيت جمالاً واشترت محارة، وكان

(١) أي: مضاربة، وهي أن يأخذ المال ليعمل فيه على نسبة من الربح متفق عليها إن كان ربح، فإن كانت خسارة خسر صاحب المال ماله، وخسر المضارب عمله،

عديلي بها عفيف الدين التوزري، وركب الخدام بعض الخيل، وجللنا باقيها لأجل البرد، ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى، وهي مسيرة ثمانية عشر يوماً في رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة. فودعت الأمير قطلودمور، وخلع علي خلعة، وخلع على القاضي أخرى، وخرج مع الفقهاء لوداعي. وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدينة ألكات، وليس بهذه الطريق عمارة سواها، (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الكاف وآخره تاء مثناة)، وهي صغيرة حسنة. نزلنا خارجها على بركة ماء قد جددت من البرد. فكان الصبيان يلعبون فوقها، ويزلقون عليها. وسمع بقدمي قاضي ألكات، ويسمى صدر الشريعة، وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم. فجاء إلي مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوفي. ثم عرض على القاضي الوصول إلى أمير تلك المدينة. فقال له الشيخ محمود: القادم ينبغي له أن يزار، وإن كانت لنا مهمة نذهب إلى أمير المدينة ونأتي به، ففعلوا ذلك. وأتى الأمير بعد ساعة في أصحابه، وخدامه فسلمنا عليه. وكان غرضنا تعجيل السفر، فطلب منا الإقامة وصنع دعوة، جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم، ووقف الشعراء يمدحونه. وأعطاني كسوة وفرساً جيداً، وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية. وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء.

ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وَبَكَنَّة (وضبط اسمها بفتح الواو وإسكان الباء الموحدة وكاف ونون)، وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين. وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة، وعندهم فاكهة يسمونها الْعَلَو (الآلُو) بالعين المهملة وتشديد اللام فيبسونه، ويجلبه الناس إلى الهند والصين، ويجعل عليه الماء، ويشرب ماؤه. وهو أيام كونه أخضر حلو، فإذا يبس صار فيه يسير حوضه، ولحميته كثيرة. ولم أر مثله بالأندلس ولا بالمغرب ولا بالشام.

ثم سرنا في بساتين متصله وأنهار وأشجار وعمارة يوماً كاملاً، ووصلنا إلى مدينة بخارى التي ينسب إليها إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد، وخرابها اللعين تنكيز التتري، جد ملوك العراق. فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل، وأهلها أذلاء، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها، لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وإنكار الحق. وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئاً من العلم ولا من له عناية به.

ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تنكيز خان حداداً بأرض الخطا، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم، وكان يجمع الناس ويطعمهم. ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم، وغلب على بلده وقوي واشتدت شوكته واستفحل أمره، فغلب على ملك الخطا، ثم على ملك الصين. وعظمت جيوشه، وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالط. وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر، له قوة عظيمة وشوكة، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له. فاتفق أن بعث تنكيز تجاراً بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أطرار (بضم الهمزة)، وهي آخر عمالة جلال الدين. فبعث إليه عامله عليها، معلماً بذلك، واستأذنه ما يفعل في أمرهم، فكتب إليه يأمره أن يأخذ موالم ويمثل بهم ويقطع أعضائهم ويردهم إلى بلادهم، لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحتهم رأياً فائلاً وتدبيراً سيئاً مشئوماً. فلما فعل ذلك، تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الإسلام. فلما سمع بامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره، فذكر أن أحدهم دخل محلة مض أمراء تنكيز في صورة سائل، فلم يجد من يطعمه. ونزل إلى جانب رجل

منهم فلم ير عنده زاداً، ولا أطعمه شيئاً. فلما أمسى أخرج مطرانياً يابسة عنده، فبلّها بالماء، وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار، فكانت طعامه. فعاد إلى أطرار، فأخبر عاملها بأمرهم، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم. فاستمد مليكه جلال الدين، فأمدّه بستين ألفاً زيادة على من كان عنده من العساكر. فلما وقع القتال هزمهم تنكيز، ودخل مدينة أطرار بالسيف، فقتل الرجال وسبى الذراري، وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربتة، فكانت بينهم وقائع لا يعلم في الاسلام مثلهما. وآل الأمر إلى أن تملك تنكيز ما وراء النهر، وخرب بخارى وسمرقند وترمذ، وعبر النهر، وهو نهر جيحون، إلى مدينة بلخ فتملكها، ثم إلى الياميان (الباميان) فتملكها، وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم. فثار عليه المسلمون في بلخ، وفي ما وراء النهر. ففكر عليهم، ودخل بلخ بالسيف، وتركها خاوية على عروشها.

ثم فعل مثل ذلك في ترمذ، فخربت، ولم تعمر بعد، لكن بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمى اليوم ترمذ. وقتل أهل الياميان (الباميان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها، وعفا عن أهل بخارى وسمرقند، ثم عاد بعد ذلك إلى العراق. وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله.

قال ابن جزري: أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال: سمعت الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد يقول: لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق، ومعه ابن أخ له، فتفاوضنا الحديث، فقال لي: هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه.

قال، ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ

العالم العابد الزاهد سيف الدين البخارزي، وكان من كبار الأولياء. وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة، لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر، وشيخها من ذريته، وهو الحاج السياح يحيى البخارزي. وأضافني هذا الشيخ بداره، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان، ووعظ الواعظ، وغنوا بالتركي والفارسي على طريقة حسنة. ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالي، ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة، وكان قد قدم من هراة، وهو من الصلحاء الفضلاء. وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح، شيخ المسلمين رضي الله عنه، وعليه مكتوب: هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري، وقد صنف من الكتب كذا وكذا. وأيضاً على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسما تصانيفهم. وكنت قيدت من ذلك كثيراً، وضاع مني في جملة ما ضاع لي، لما سلبني كفار الهند في البحر.

ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين، وسنذكره. فمررنا على نخشب، البلدة التي ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشي. وهي صغيرة، تحف بها البساتين والمياه. فنزلنا بخارجها، بدار لأميرها، وعندني جارية قد قاربت الولادة، وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها. فاتفق أنها كانت في المحمل، فوضع المحمل على الجمل، وسافر أصحابنا من الليل، وهي معهم والزاد وغيره من أسباني. وأقمت أنا حتى أرتحل نهاراً مع بعض من معي. فسلكوا طريقاً، وسلكت طريقاً سواها. فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور، وقد جعنا، فنزلنا على بعد من السوق، واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا. وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة. ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الأصحاب، فوجدوهم عشياً، وجاءوا بهم. وكان السلطان غائباً عن المحلة في الصيد،

فاجتمعت بنائبه الأمير تقبغا، فأنزلني بقرب مسجده، وأعطاني خرقة (خرگاه) وهي شبه الخباء، وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم، فجعلت الجارية في تلك الخرقة، فولدت تلك الليلة مولوداً، وأخبروني أنه ولد ذكر. ولم يكن كذلك، فلما كان بعد العقيقة، أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت. فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبروني بذلك. وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد، فرأيت كل ما يسرني ويرضيي منذ ولدت. وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين، وسيذكر ذلك. واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة)، ومعناه بالتركية الثائر. وهو من أهل أطرار، وبالشيخ صهر السلطان.

ذكر سلطان ما وراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طَرْمَشِيرِين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون)، وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم، وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار، وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك. وكلهم يهابونه، ويعظمونه ويكرمونه. وولي الملك بعد أخيه الجَكْطِي (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة له الكاف والطاء المهمل وسكون الياء). وكان الجكطي هذا كافراً، وولي بعد أخيه الأكبر كبك، وكان كبك هذا كافراً أيضاً، لكنه كان عادل الحكم منصفاً للمظلومين، يكرم المسلمين ويعظمهم.

حكاية

يذكر أن هذا الملك كبك كان تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكور بدر الدين الميداني فقال له: أنت تقول: إن الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز. قال: نعم.

فقال: أين اسمي فيه؟ فقال: هو في قوله تعالى ﴿ في أيّ صورةٍ ما شاء ربّك ﴾ فأعجبه ذلك. وقال: يخشي، ومعناه بالتركية جيد. فأكرمه إكراماً كثيراً، وزاد في تعظيم المسلمين.

حكاية

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد. وكان لها لبن تقوتهم بثمنه، فاغتصبه ذلك الأمير وشربه. فقال لها: أنا أوسطه. فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله، وإلا وسطتك بعده. فقالت المرأة: قد حللته ولا أطلبه بشيء. فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه. ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين، ولما أقمت بالمحلة، وهم يسمونها الأردو أياماً، ذهبت يوماً لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي، فلما صليت ذكر لي بعض الناس أن السلطان بالمسجد. فلما قام عن الصلاة تقدمت للسلام عليه، وقام الشيخ حسن، والفقير حسام الدين الياغي، وأعلمه بجالي وقدمي منذ أيام. فقال لي بالتركية: خش ميسن يخشي ميسن قطلو يوسن، ومعنى خش ميسن في عافية أنت، ومعنى يخشي ميسن جيد أنت، ومعنى قطلو يوسن مبارك قدومك. وكان عليه في ذلك الحين قباء قدسي أخضر، وعلى رأسه شاشية مثله. ثم انصرف إلى مجلسه راجلاً، والناس يتعرضون له بالشكايات، فيقف لكل مشتك منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى. ثم بحث عني فوصلت إليه وهو في خرقة، والناس خارجها ميمنة وميسرة، والأمراء منهم على الكراسي، وأصحابهم وقوف على رؤوسهم، وبين أيديهم، وسائر الجند قد جلسوا صفوفاً، وأمام كل واحد منهم سلاحه. وهم أهل النوبة يقعدون هنالك إلى العصر، ويأتي آخرون فيقعدون إلى آخر الليل. وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون

بها. ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقه، وجدته جالساً على كرسي شبه المنبر، مكسوٍ بالحرير المزركش بالذهب، وداخل الخرقه ملبس بثياب الحرير المذهب، والتاج المرصع بالجواهر والياقوت معلق فوق رأس السلطان، بينه وبين رأسه قدر ذراع. والأمراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره، وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه، وعند باب الخرقه النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة. وهم يسمون آل طَمَعَى وآل (بفتح الهمزة) معناه الأحمر وطمعى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة. وقام إلي أربعتهم حين دخولي ودخلوا معي، فسلمت عليه وسألني، وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه، عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله، وعن مدينة الخليل عليه السلام، وعن دمشق ومصر والملك الناصر، وعن العراقيين وملكها، وبلاد الأعاجم. ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا. وكنا نحضر معه الصلوات، وذلك أيام البرد الشديد المهلك. فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس. ويأتي إليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده. وكذلك يفعلون في صلاة العصر. وكان إذا أوتي بهدية من زبيب أو تمر، والتمر عزيز عندهم، وهم يتبركون به، يعطي منها بيده لكل من في المسجد.

حكاية

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوماً، ولم يحضر السلطان. فجاء أحد فتياناه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته أن يصلي، وقال للإمام حسام الدين الياغي: إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ. فقام الإمام المذكورة وقال: نماز، ومعناه الصلاة، براي حد أو براي

طر مشيرين ، أي الصلاة لله أو لطر مشيرين . ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وقد جاء السلطان ، وقد صلي منها ركعتان ، فصلى الركعتين الأخرتين حيث انتهى به القيام ، وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاته ، وقام إلى الإمام ليصافحه وهو يضحك ، وجلس قبالة المحراب ، والشيخ الإمام إلى جانبه ، وأنا إلى جانب الإمام . فقال لي : إذا مشيت إلى بلادك ، فحدث أن فقيراً من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك . وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ، ويأمر السلطان بالمعروف ، وينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويغلظ عليه القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكي . وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا لبس من ثيابه . وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين . وكنت كثيراً ما أرى عليه قباء قطن مبطن بالقطن محشواً به ، وقد بلي وتمزق ، وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوي مثلها قيراطاً ، ولا عمامة عليه . فقلت له في بعض الأيام : يا سيدي ، ما هذا القباء الذي أنت لابسه ؟ إنه ليس بجيد . فقال لي : يا ولدي ليس هذا القباء لي ، وإنما هو لابنتي ، فرغبت منه أن يأخذ بعض ثيابي ، فقال لي : عاهدت الله منذ خمسين سنة أن لا أقبل من أحد شيئاً ، ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك . ولما عزمت على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوماً ، أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم ، وفروة سمور تساوي مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد . ولما ذكرتها له أخذ أكرامي وجعل يقبلها بيده تواضعاً منه وفضلاً وحسن خلق ، وأعطاني فرسين وجلين . ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه إلى متصيده . وكان اليوم شديد البرد جداً . فو الله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت . وبعد سنتين من وصولي إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملاء من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهنالك معظم عساكره ، وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلي وكل من

كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلي (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبُوزُن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي)، وكان مسلماً إلا أنه فاسد الدين سيء السيرة. وسبب بيعتهم له وخلعهم لطمشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذي خرب بلاد الإسلام، وقد تقدم ذكره. وكان تنكيز ألف كتاباً في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف)، وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب. ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوماً في السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد، وإن كان سلطانهم قد غير شيئاً من تلك الأحكام يقوم إليه كبارهم فيقولون له: غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا، وقد وجب خلحك. ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك، ويقعدون غيره من أبناء تنكيز، وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده حكموا عليه بما يستحقه. وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم، ومحا رسمه، فأنكروه عليه أشد الإنكار، وأنكروا عليه أيضاً كونه أقام أربع سنين فيما يلي خراسان من بلاده، ولم يصل إلى الجهة التي توالي الصين. والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة في كل سنة، فيختبر أحوالها وحال الجند بها، لأن أصل ملكهم منها. ودار الملك هي مدينة المائق. فلما بايعوا بُوزُن أتى في عسكر عظيم، وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه، ولم يأمنهم، فركب في خمسة عشر فارساً، يريد بلاد غزنة، وهي من عمالته، وواليتها كبير أمرائه، وصاحب سره برنطيه؛ وهذا الأمير محب في الإسلام والمسلمين، قد عمر في عمالته نحو أربعين زاوية، فيها الطعام للوارد والصادر. وتحت يده العساكر العظيمة، ولم أر قط فيمن رأته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه. فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ، رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقي ابن أخيه كبك. وكان السلطان طرمشيرين المذكور

قتل أخاه كبك المذكور ، وبقي ابنه ينقي ببلخ . فلما أعلمه التركي بخبره قال : ما فر إلا لأمر حدث عليه . فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه . ووصل بوزن إلى سمرقند وبخارى فبايعه الناس ، وجاءه ينقي بطرمشيرين ، فيذكر أنه لما وصل إلى نسف ، بخارج سمرقند ، قتل هنالك ودفن بها ، وخدم تربته الشيخ شمس الدين كُرْدَن بريدا . وقيل : إنه لم يقتل ، كما سنذكره . وكُرْدَن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق ، وبُريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مد ودال مهمل) معناه المقطوع . ويسمى بذلك لضربة كانت في عنقه ، وقد رأيته بأرض الهند ، ويقع ذكره فيما بعد . ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين ، وهو بشاي أغل (أغلي) ، وأخته وزوجها فيروز إلى ملك الهند ، فعظّمهم وأنزلهم منزلة عليه بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبه والمهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ . ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند ، وادعى أنه هو طرمشيرين ، واختلف الناس فيه . فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ، ووالي بلاد السند ، ويسمى ملك عرض . وهو الذي تعرض بين يديه عساكر الهند ، وإليه أمرها ، ومقره بملتان قاعدة السند . فبعث إليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا إليه وأخبروه أنه هو طرمشيرين حقاً . فأمر له بالسراجه ، وهي أفراج . فضرب خارج المدينة ، ورتب له ما يرتب لمثله ، وخرج لاستقباله ، وترجل له وسلم عليه ، وأتى في خدمته إلى السراجه ، فدخلها راكباً كعادة الملوك . ولم يشك أحد أنه هو . وبعث إلى ملك الهند يخبره ، فبعث إليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان في خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم ، وهو كبير الحكماء بالهند . فقال للملك : أنا أتوجه إليه ، وأعرف حقيقة أمره ، فإني كنت عاجلت له دماً تحت ركبته وبقي أثره ، وبه أعرفه . فأتى إليه ذلك الحكيم ، واستقبله مع الأمراء ، ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده ، وأخذ يغمز رجله ، وكشف عن الأثر فشتمه . وقال له : تريد أن تنظر

إلى الدملى الذى عالجته ؟ ها هو ذا وأراه أثره . فتحقق أنه هو . وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك . ثم إن الوزير خواجه جهان أحد بن إياس وكبير الأمراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند ، وقال له : يا خوند عالم ، هذا السلطان طرمشيرين قد وصل . وصح أنه هو . وها هنا من قومه نحو أربعين ألفاً وولده وصهره . أرأيت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل ؟ فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم . وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلاً . فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين ، ولم يعظم . وقال له السلطان : بامادركاني ، وهي شتمة قبيحة ، كيف تكذب وتقول : إنك طرمشيرين ؟ وطرمشيرين قد قتل . وهذا خادم تربته عندنا . والله لولا المعرة لقتلتك . ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار ، واذهبوا به إلى دار بشاي أغلي وأخته ولدي طرمشيرين ، وقولوا لهم : إن هذا الكاذب يزعم أنه والدم . فدخل عليهم فعرفوه . وبات عندهم والحراس يجرسونه وأخرج بالغد ، وخافوا أن يهلكوا بسببه فأنكروه .

ونفى عن بلاد الهند والسند ، فسلك طريق كيج ومكران ، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ، ووصل إلى شيراز ، فأكرمه سلطانها أبو إسحق ، وأجرى له كفايته . ولما دخلت عند وصولي من الهند إلى مدينة شيراز ، ذكر لي أنه باق بها . وأردت لقاءه ، ولم أفعل ، لأنه كان في دار لا يدخل إليه أحد إلا بإذن من السلطان أبي إسحق . فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ، ثم ندمت على عدم لقاءه .

رجع الحديث إلى بوزن : وذلك أنه لما ملك ، ضيق على المسلمين ، وظلم الرعية ، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم . فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر . واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان ، فقصده ملك هراة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين

الغوري، فأعلمه بما كان في نفسه، وسأل منه الإعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك إذا استقام. فبعث معه الملك حسين عسكرياً عظيماً. وبين هراة وترمد تسعة أيام. فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو. وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوند زاده صاحب ترمد، وهو أمير كبير شريف حسيني النسب. فأتاه في أربعة آلاف من المسلمين، فسرّ به وولاه وزارته، وفوض إليه أمره، وكان من الأبطال. وجاء الأمراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقوا مع بوزن. فهالت العساكر إلى خليل، وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً. فقتله خنقاً وبأوتار القسي. وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقاً. واستقام الملك لخليل، وعرض عساكره بسمرقند، فكانوا ثمانين ألفاً، عليهم وعلى خيلهم الدروع. فصرف العسكر الذي جاء به من هراة، وقصد بلاد المالك. فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم، ولقوه على مسيرة ثلاث من المالك، بمقربة من أطراز (طراز). وحمي القتال، وصبر الفريقان. فحمل الأمير خداوند زاده وزيره في عشرين ألفاً من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر، فانهزموا واشتد فيهم القتل. وأقام خليل بالمالك ثلاثاً، وخرج إلى استئصال من بقي من التتر، فأذعنوا له بالطاعة. وجاز إلى تخوم الخطا والصين، وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ. وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر، ثم وقع بينها الصلح. وعظم أمر خليل، وهابته الملوك، وأظهر العدل، ورتب العساكر بالمالك، وترك بها وزيره خداوند زاده. وانصرف إلى سمرقند وبخارى. ثم إن التتر أرادوا الفتنة، فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور، وزعموا أنه يريد الثورة، ويقول، إنه أحق بالملك، لقربته من النبي ﷺ وكرمه وشجاعته. فبعث والياً إلى المالك عوضاً عنه، وأمره أن يقدم عليه نفر يسير من أصحابه. فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبيت. فكان ذلك سبب خراب ملكه. وكان خليل، لما عظم أمره، بغى على صاحب هراة الذي أورثه الملك

وجهبه بالعساكر والمال. فكتب إليه أن يخطب في بلاده باسمه، ويضرب الدنانير والدرهم على سكوته، فعاظ ذلك الملك حسيناً، وأنف منه وأجابته بأقبح جواب. فتجهز خليل لقتاله، فلم توافقه عساكر الإسلام ورأوه باغياً عليه. وبلغ خبره إلى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنه، والتقى الجمعان. فانهزم خليل وأتى به إلى الملك حسين أسيراً، فمنّ عليه بالبقاء، وجعله في دار، وأعطاه جارية، وأجرى عليه النفقة. وعلى هذا الحال تركته عنده، في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند.

ولنعد إلى ما كنا بسبيله: ولما ودعت السلطان طرمشيرين، سافرت إلى مدينة سمرقند. وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً. مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصارين، عليه النواعير تسقى البساتين. وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج. ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات. وكانت على شاطئه قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها. فدفتر أكثر ذلك. وكذلك المدينة خرب كثير منها، ولا سور لها ولا أبواب عليها. وفي داخلها البساتين. وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة في الغريب. وهم خير من أهل بخارى. وبخارج سمرقند قبر. قُتِمَ بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عن العباس وعن ابنه، وهو المستشهد حين فتحها. ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته، والتر يأتون لزيارته، وينذرون له النذور العظيمة، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدرهم والدنانير، فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر، ولخداًم الزاوية والقبر المبارك. وعليه قبة قائمة على أربع أرجل، ومع كل رجل ساريتان من الرخام، منه الخضر والسود والبيض والحمر. وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب، وسقفها مصنوع بالرخام. وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع، مكسو الأركان بالفضة، وفوقه ثلاثة من قناديل

الفضة. وفرش القبة بالصوف والقطن. وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك، على حافته الأشجار ودوالي العنب والياسمين. وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر. ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك. كانوا يتبركون به، لما يرون له من الآيات. وكان الناظر في كل حال من هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر ابن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق، وهو الآن عند ملك الهند، وسيأتي ذكره. ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان، وهو من الفضلاء ذوي المكارم. وسافر إلى بلاد الهند بعد سفري إليها فأدرسته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند.

حكاية

لما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند، وأنه قدم برسم بابه، فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر إلى الملك، أمر أن يُبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير، لا أذكره الآن، وأمر أن يعطى لأصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة. ولملك الهند في كل بلد من بلاده، صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الأمور، ومن يرد عليه من الواردين. وإذا أتى الوارد كتبوا من أيّ البلاد ورد، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل، وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها، فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع حاله، فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه. وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف. وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفي، مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة رضي الله عنهم. ثم وصلنا

إلى مدينة ترمذ التي ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن. وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخرقها الأنهار. وبها البساتين الكثيرة والعنب، والسفرجل بها متناهي الطيب، واللحوم بها كثيرة، وكذلك الألبان. وأهلها يغسلون رؤوسهم في الحمام باللبن عوضاً عن الطفل. ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبناً. فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في إناء صغير فغسل رأسه، وهو يرطب الشعر ويصقله. وأهل الهند يجعلون في رؤوسهم زيت السمسم، ويسمون الشيرج، ويغسلون الشعر بعده بالطفل، فينعم الجسم، ويصقل الشعر ويطيله. وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم. وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون، فلما خربها تنكيز، بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر. وكان نزولنا بها بزواية الشيخ الصالح عزيزان، من كبار المشايخ وكرمائهم، كثير المال والرباع والبساتين، ينفق على الوارد والصادر من ماله. واجتمعت قبل وصولي إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خدواند زاده. وكتب لي إليها بالضيافة، فكانت تحمل إلينا أيام مقامنا بها في كل يوم. ولقيت أيضاً قاضيها قوام الدين، وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين، وطالب للإذن له في السفر إلى بلاد الهند، وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك. ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان، وسفرنا جميعاً إلى الهند. وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين، ولقائي لهما بمحضرة ملك الهند، وذكر ولديه وقدمهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما، وترويهما ابنتي الوزير خواجه جهان، وما جرى في ذلك كله إن شاء الله تعالى. ثم جزنا نهر جيحون إلى بلاد خراسان. وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادي يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ، وهي خاوية على عروشها غير عامرة. ومن رآها ظنها عامرة لإتقان بنائها. وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن، ونقوش

مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد . والناس ينسبون اللازورد إلى خراسان، وإنما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب إليها الياقوت البدخشي، والعامية يقولون: البلخش، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. وخرّب هذه المدينة تنكيز اللعين، وهدم من مسجدها نحو الثلث، بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه. وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها. ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه. ومسجد بلخ أجمل منه في سوى ذلك.

حكاية

ذكر لي بعض أهل التاريخ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميراً ببلخ لبني العباس، يسمى داود بن علي. فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه. فبعث إليهم من يغرمهم مغرمًا فادحاً. فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد، وهي زوج أميرهم، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم. فبعثت إلى الأمير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه، فقالت له: اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم. فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة، فحجل الخليفة وقال: أتكون المرأة أكرم منا؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ، وبالعودة إليها ليرد للمرأة ثوبها، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة. فعاد الأمير إلى بلخ، وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب. فقالت له: أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب؟ قال: نعم. قالت: لا ألبس ثوباً وقع عليه بصر غير ذي محرم مني، وأمرت ببيعه. فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان^(١)، وهو عامر حتى الآن. وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه. فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد، ليكون هنالك متيسراً إن احتيج إليه. خرج فأخبر

(١) الكذان: حجارة رخوة نخرة.

تنكيز بهذه الحكاية، فأمر بهدم سواري المسجد، فهدم منها نحو الثلث، ولم يجد شيئاً، فترك الباقي على حاله. وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محصن الأُسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، الذي يدخل الجنة بلا حساب. وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا، وبخارجها بركة ماء عجيبة، عليها شجرة جوز عظيمة. ينزل الواردون في الصيف تحت ظلها. وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد، وهو الصغير من الفضلاء، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة. منها قبر حزوقيل النبي عليه السلام، وعليه قبة حسنة. وزرنا بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين، لا أذكرها الآن. ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذي يشبه الكذان. وكان زرع الزاوية مقترناً بها، وقد سدت عليه فلم ندخلها، وهي بمقربة من المسجد الجامع. ثم سافرنا من مدينة بلخ، فسرنا في جبال قوة استان (قهستان) سبعة أيام. وهي قرى كثيرة عامرة بها المياة الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجر التين، وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى. وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هراة، وهي أكبر المدن العامرة بخراسان. ومدن خراسان العظيمة أربع: اثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور، واثنتان خربتان وهما بلخ ومرو. ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة، ولأهلها صلاح وعفاف وديانة. وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبلدهم طاهر من الفساد.

ذكر سلطان هراة

هو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري، صاحب الشجاعة الماثورة. والتأييد والشجاعة ظهر له من إنجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين ما يقضى منه العجب، أحدهما عند ملاقاته جيشه للسلطان خليل الذي بغى عليه، وكان منتهى أمره حصوله أسيراً في يديه، والموطن الثاني عند

ملاقاته بنفسه لمسعود، سلطان الرافضة. وكان منتهى أمره تبديده وفراره
وذهاب ملكه. وولي السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ، وولي
أخوه بعد أبيه غياث الدين.

حكاية الرافضة

كان بخراسان رجلان: أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد. وكان
لها خمسة من الأصحاب، وهم من الفتاك، ويعرفون بالعراق بالشطّار، ويعرفون
بخراسان بسرادران (سربداران)، ويعرفون بالعراق بالصقور. فاتفق سبعتهم
على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال، وشاع خبرهم، وسكنوا جبلاً منيعاً
بمقربة من مدينة بيهق، وتسمى أيضاً مدينة سيزار (سيزوار). فكانوا يكمنون
بالنهار. ويخرجون بالليل والعشي، فيضربون على القرى، ويقطعون الطرق،
ويأخذون الأموال. واثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد، فكثرت عددهم
واشدت شوكتهم وهاجم الناس، وضربوا على مدينة بيهق فملكوها، ثم ملكوا
سواها من المدن، واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل، وتسمى
مسعود بالسلطان. وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه. فكل عبد فر منهم
يعطيه الفرس والمال. وإن ظهرت له شجاعة أمره على جماعة، فعظم جيشه
واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض، وطمحو إلى استئصال أهل
السنة بخراسان، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية. وكان بمشهد طوس شيخ من
الرافضة يسمى بحسن، وهو عندهم من الصلحاء، فوافقهم على ذلك، وسموه
بالخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه. حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في
معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتي ربهما فيأخذها. وغلبوا على نيسابور،
وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه، ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه
فهزموه وأسروه ومنوا عليه، ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين ألفاً من التتر

فهزموه، وملكوا البلاد، وتغلبوا على سرخس والزاه وطوس، وهي من أعظم بلاد خراسان. وجعلوا خليفتهم بمشهد علي بن موسى الرضا، وتغلبوا على مدينة الجام، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة، وبينها وبينهم مسيرة ست. فلما بلغ ذلك الملك حسيناً جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم، هل يقيمون حتى يأتي القوم أو يمشوا إليهم فيناجزوهم. فوقع إجماعهم على الخروج إليهم، وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية. ويقال: إنهم ينسبون إلى غور الشام، وإن أصلهم منه. فتجهزوا أجمعون، واجتمعوا من أطراف البلاد، وهم ساكنون بالقرى، وبصحراء مرغيس (بدغيس)، وهي مسيرة أربع، لا يزال عشبها أخضر. ترعى منه ماشيتهم وخيلهم. وأكثر شجرها الفستق، ومنها يحمل إلى أرض العراق. وعضدهم أهل مدينة سمنان، ونفروا جميعاً إلى الرافضة، وهم مائة وعشرون ألفاً ما بين رجالة وفرسان، يقودهم الملك حسين. واجتمعت الرافضة في مائة وخسين ألفاً من الفرسان. وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج. وصبر الفريقان معاً. ثم كانت الدائرة على الرافضة، وفر سلطانهم مسعود، وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفاً حتى قتل، وقتل أكثرهم، وأسر منهم نحو أربعة آلاف. وذكر لي بعض من حضر هذه الواقعة أن ابتداء القتال كان في وقت الضحى، وكانت الهزيمة عند الزوال. ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى، وأتى بالطعام، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى. وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم، وقد نصر الله السنة على يديه، وأطفأ نار الفتنة. وكانت هذه الواقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين. ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا، وكان أهل هراة يحبونه، ويرجعون إلى قوله. وكان يعظهم ويذكرهم، وتوافقوا معه على تغيير المنكر، وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورناء، وهو ابن عم الملك حسين، ومتزوج بزوجة والده، وهي من أحسن الناس صورة

وسيرة. والملك يخافه على نفسه، وسنذكر خبره. وكانوا متى علموا بمنكر، ولو كان عند الملك غيره.

حكاية

ذكر لي أنهم تعرفوا يوماً أن بدار الملك حسين منكرًا، فاجتمعوا لتغييره، وتحصن منهم بداخل داره. فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل. فخاف منهم. فاستحضر الفقيه وكبار البلد، وكان قد شرب الخمر فأقاموا عليه الحد بداخل قصره، وانصرفوا عنه.

حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور

كانت الأتراك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء، وملكهم غيتمور الذي مر ذكره. وهم نحو خمسين ألفاً، يخافهم الملك حسين، ويهدي لهم الهدايا في كل سنة، ويداريهم. وذلك قبل هزيمته للرافضة. وأما بعد هزيمته للرافضة تغلب عليهم. ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هراة، وربما شربوا بها الخمر، وأتاها بعضهم وهو سكران. فكان نظام الدين يجد من وجد منهم سكران. وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وبأس، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند، فيسبون ويقتلون، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بأرض الهند ما بين الكفار، فإذا خرجوا بهن إلى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك. وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الأذن. والكافرات آذانهن مثقوبات. فاتفق مرة أن أميراً من أمراء الترك يسمى تمور ألطي سبي امرأة، وكلف بها شديداً، فذكرت أنها مسلمة، فانتزعها الفقيه من يده. فبلغ ذلك من التركي مبلغاً عظيماً، وركب في آلاف من أصحابه، وأغار على خيل هراة، وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس)، واحتملوها. فلم يتركوا لأهل هراة ما

يركبون ولا ما يجلبون، وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه. ولم يجد السلطان ولا جنده خيلاً يتبعونهم بها، فبعث إليهم رسولاً يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل، ويذكرهم العهد الذي بينهم. فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين. فقال السلطان: لا سبيل إلى هذا. وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستي له بخراسان شأن عظيم، وقوله معتبر لديهم، فركب في جماعة خيل من أصحابه وماليكه. فقال: أنا أحل الفقيه نظام الدين معي إلى الترك ليرضوا بذلك ثم أردّه. فكان الناس مالوا إلى قوله. ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك. فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل إلى الترك. فقام إليه الأمير تمور ألطي وقال له: أنت أخذت امرأتي مني، وضربه بدبوسه فكسر دماغه، فخر ميتاً. فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد، وانصرف من هنالك إلى بلده، ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية. وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هراة، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه، فتقدموا إليه كأنهم مسلمون عليه، وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه. وفر أصحابه. ولما كان بعد هذا، بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنّا الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولاً إلى ملك سجستان. فلما حصل بها بعث إليه أن يقيم هنالك ولا يعود إليه. فقصّد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند، وهو أحد الفضلاء. وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبراز والخيل والماليك والأصحاب واللباس الملوكي الفاخر، ومن كان على هذا الترتيب فإنه لا يصلح حاله بأرض الهند. فكان من أمره أن ملك الهند وآه بلدًا صغيراً. وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية. وقيل: إن ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك، ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنّا المذكور، وهاداه ملك الهند، وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند. ومجباها خمسون ألفاً من دنانير الذهب في كل سنة.

(ولنعد إلى ما كان بسبيله فنقول) سافرنا من هراة إلى مدينة الجام، وهي متوسطة حسنة، ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار، وأكثرها التوت. والحريير بها كثير. وهي تنسب إلى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحد الجامي، وسنذكر حكايته، وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند. والمدينة الآن لأولاده، وهي محررة من قبل السلطان. ولهم بها نعمة وثروة. وذكر لي من اثق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ، فأضافه ضيافة عظيمة، وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم، ولكل أربعة رجال رأس غنم، ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة، فلم يبق في المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته.

حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تنسب إليه مدينة الجام

يذكر أنه كان صاحب راحة مكثراً من الشراب، وكان له من الندماء نحو ستين، وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوماً في منزل كل واحد منهم، فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين، وبقوا على ذلك مدة. ثم إن النوبة وصلت يوماً إلى الشيخ شهاب الدين، فعقد التوبة ليلة النوبة، وعزم على إصلاح حاله مع ربه، وقال في نفسه: إن قلت لأصحابي إني قد تبت قبل اجتماعهم عندي، ظنوا ذلك عجزاً عن مؤونتهم. فأحضر ما كان يحضر مثله قبلاً من مأكولات ومشرب، وجعل الخمر في الزقاق، وحضر أصحابه. فلما أرادوا الشرب فتحوا زقاً، فذاقه أحدهم فوجده حلواً ثم فتح ثانياً فوجده كذلك ثم ثالثاً فوجده كذلك. فكلّموا الشيخ في ذلك، فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سرّ فكره، وعرفهم بتوبته، وقال لهم: والله ما هذا إلا الشراب الذي كنتم تشربونه فيما تقدم. فتابوا جميعاً إلى الله تعالى، وبنوا تلك الزاوية، وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى. وظهر

لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات، ثم سافرنا من الجمام إلى مدينة طوس، وهي أكبر بلاد خراسان، وأعظمها بلد الإمام الشهير بأبي حامد الغزالي رضي الله عنه وبها قبره. ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرضا، وهو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهي أيضاً مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والأرجاء الطاحنة. وكان بها الطاهر محمد شاه، والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق، وأهل الهند والسند وتركستان يقول السيد الأجل. وكان أيضاً بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين، لقيته بأرض الهند والشريف علي وولده أمير هندو ودولة شاه، وصحبوني من ترمذ إلى بلاد الهند. وكانوا من الفضلاء، والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية، تجاورها مدرسة ومسجد. وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني. وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة، وعليه قناديل فضة معلقة، وعتبة باب القبة فضة. وعلى بابها ستر حرير مذهب. وهي مبسوطة بأنواع البسط. وإزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه، وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر. وإذا دخل الرافضي للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله، وسلم على الرضا. ثم سافرنا إلى مدينة سرخس، وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي رضي الله عنه. ثم سافرنا منها إلى مدينة زاوة، وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر، وإليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء، وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وأذانهم، ويجعلون أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأق لهم النكاح. ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة نيسابور، وهي إحدى المدن الأربع التي هي قواعد خراسان. ويقال لها: دمشق الصغيرة، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها. وتخرقها أربعة من الأنهار. وأسواقها حسنة متسعة، ومسجدها بديع،

وهو في وسط السوق، ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير، وفيها من الطلبة خلق كثير، يقرأون القرآن والفقهاء. وهي من حسان مدارس تلك البلاد، ومدارس خراسان والعراقيين ودمشق وبغداد ومصر. وإن بلغت الغاية من الإتيان والحسن، فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان، وصل الله سعده ونصر جنده، وهي التي عند القصبية من حضرة فاس حرسها الله تعالى، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعاً ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه. ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها. وتحمل منها إلى الهند. وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين. نزلت عنده فأحسن القري وأكرم، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة.

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاماً تركياً، فرآه معي فقال لي: هذا الغلام لا يصلح لك، فبعه. فقلت له: نعم، وبعث الغلام في غد ذلك اليوم. واشتراه بعض التجار. وودعت الشيخ وانصرفت. فلما حللت بمدينة بسطام كتب إلي بعض أصحابي من نيسابور، وذكر أن الغلام المذكور قتل بعض أولاد الأتراك وقتل به. وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه. وسافرت من نيسابور إلى مدينة بسطام التي ينسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير، رضي الله عنه. وبهذه المدينة قبره، ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه. وبسطام أيضاً قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني. وكان نزولي من هذه المدينة بزواية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه. ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير إلى قندوس وبغلان. وهي قري فيها مشايخ

وصالحون، وبها البساتين والأنهار. فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد
شيوخ الفقراء من أهل مصر، يسمى بشير سياه، ومعنى ذلك الأسد الأسود،
وأضافنا بها والي تلك الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك.

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوماً لرعي الجمال والخيول، وبها مراعي
طيبة وأعشاب كثيرة، والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطية. وقد
قدمنا أن أحكام الترك في من سرق فرساً أن يعطي معه تسعة مثله، فإن لم يجد
ذلك أخذ فيها أولاده، فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة.

والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع، بعد أن يسم كل واحد دوابه في
أفخاذها. وكذلك فعلنا في هذه البلاد. واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من
نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس.

ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا، خوفاً على أنفسهم من
الأحكام. وكنا نربط في كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين، لما عسى أن يقع بالليل.
ففقدنا الفرسين ذات ليلة، وسافرنا من هنالك. وبعد اثنتين وعشرين ليلة جاءوا
بها إلينا في أثناء طريقنا. وكان أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الثلج. فإن بأثناء
الطريق جبلاً يقال له هندوكوش، ومعناه قاتل الهنود. لأن العبيد والجواري
الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج،
وهو مسيرة يوم كامل. وأقمنا حتى تمكنا من دخول الحر، وقطعنا ذلك الجبل
من آخر الليل، وسلطنا به جميع نهارنا إلى الغروب. وكنا نضع اللبود بين أيدي
الجمال تطأ عليها، لئلا تغرق في الثلج. ثم سافرنا إلى موضع يُعرف بأندر.
وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفي رسمها. ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية
لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروي، ونزلنا عنده وأكرمنا. وكان متى غسلنا
أيدينا من الطعام يشرب الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله. وسافر معن

إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور .

ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألنا لذلك ، ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ، ومعنى بنج خسة وهير هو الجبل ، فمعناه خسة جبال . وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق ، كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان . وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش . وخرّب هذه البلاد تنكيز ملك التتر ، فلم تعمر بعده . وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكّي ، وهو معظم عندهم ، ووصلنا إلى جبل بَشَاي (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم والفاء وياء ساكنة) ، وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) ، معناه بالتركية الاب وأولياء باللسان العربي ، فمعناه أبو الأولياء ، ويسمى أيضا سَيَصْدُ صَالَةً ، وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ، ومعناه بالفارسية ثلاثمائة ، وصاله (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام . وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخسون عاماً . ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيادته من البلاد والقرى ، ويقصده السلاطين والخواتين . وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر عند زاويته ، ودخلنا إليه فسلمت عليه ، وعانقني ، وجسمه رطب لم أر ألين منه ، ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة . وذكر لي أنه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان ، وأنه رأى أباهم الذي قبره بملتان من السند . وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات ، وشككت في حاله ، والله أعلم بصدقه . ثم سافرنا إلى بَرُونَ (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) ، وفيها لقيت الأمير بُرُنْطِيَّة (وضبط اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن وهاء) ، وأحسن إلي وأكرمني ، وكتب إلى نوابه بمدينة غزنة في إكرامي ، وقد تقدم ذكره ، وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم ، وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا . ثم سافرنا إلى قرية

الْجَرَّخُ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة وإسكان الراء وخاء معجم)، وهي كبيرة، لها بساتين كثيرة، وفواكهها طيبة. قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة، وصلينا بها الجمعة. وأضافنا أميرها محمد الجرخي، ولقيته بعد ذلك بالهند. ثم سافرنا إلى مدينة غزنة، وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم، وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند، وفتح بها المدائن والحصون. وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة، ولم يبق منها إلا يسير، وكانت كبيرة. وهي شديد. 'برد، والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار، وهي كبيرة مخصبة، ولم أدخلها. وبينها مسيرة ثلاث. ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها، وأكرمنا أميرها مَرْدَكُ أَعَا، ومردك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم)، ومعناه الصغير، وأعا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الأصل. ثم سافرنا إلى كابل، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان. ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية، وأكثرهم قطاع الطريق. وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان. يذكر أن نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل، فنظر إلى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها، فسمي الجبل به. وفيه يسكن ملك الأفغان. وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الأولياء. ومنها رحلنا إلى كرماش. وهي حصن بين جبلين تقطع به الأفغان. وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون. وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس، وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لأجلها، ومعني جماعة بعضهم من الأفغان، وطرحنا بعض الزاد، وتركنا أحمال الجبال التي أعيت بالطريق، وعادت إليها خيلنا بالغد فاحتملتها، ووصلنا إلى القافلة بعد العشاء الآخرة، فبتنا بمنزل ششغار، وهي آخر العمارة مما يلي بلاد

الترك . ومن هنا دخلنا البرية الكبرى ، وهي مسيرة خمس عشرة ، لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك في أوائل شهر يولييه . وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم . حتى أن الرجل إذا مات تتفسخ أعضاؤه . وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز . وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده قاضي ترمذ ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة . ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بَنج آب وهو ماء السند ، وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء ، فمعنى ذلك الأودية الخمسة ، وهي تصب في النهر الأعظم ، وتسقي تلك النواحي ، وسنذكرها إن شاء الله تعالى . وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة . واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعائة . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا . وها هنا ينتهي بنا الكلام في هذا السفر . والحمد لله رب العالمين .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

رحلة ابن بطوطة

تحفة النظائر

في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

ابھرز الشانی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي
المعروف بابن بطوطة رحمه الله تعالى :

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعائة
وصلنا إلى وادي السند المعروف بينج آب، ومعنى ذلك المياه الخمسة. وهذا
الوادي من أعظم أودية الدنيا، وهو يفيض في أوان الحر، فيزرع أهل تلك البلاد
على فيضه، كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل. وهذا الوادي هو أول
عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند. ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء
إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك، وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير
مدينة ملتان، وكان أميراً أمراء السند على هذا العهد مملوكاً للسلطان يسمى
سرتيز، وهو من عرض الممالك، وبين يديه تعرض عساكر السلطان، ومعنى اسمه
الحاد الرأس لأن سرّ (بفتح السين المهملة وسكون الراء). هو الرأس، وتيز
(بتاء معلولة وياء مد وزاي) معناه الحاد. وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان
من السند. وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام، وبين بلاد السند وحضرة
السلطان مدينة دهلي على مسيرة خمسين يوماً. وإذا كتب المخبرون إلى السلطان
من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد.

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان، فأما بريد الخيل فيسمونه الوُلاق (أولاق) (بضم الواو وآخره قاف)، وهو خيل تكون للسلطان، في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجالة، فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو)، والداوة هي ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء)، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال، مستعدين للحركة، قد شدوا أوساطهم. وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين، بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهى جهده.

فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تاهبوا. فإذا وصلهم. أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الأخرى. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه.

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حلوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق، ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان. وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب، يجعلون الرجل على سرير، ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسرون به شدةً. وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان، إذا كان بدولة أباد، يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها.

وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده، استوعبوا الكتاب وأمعنوا في ذلك، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا، وكتبوا عدد

أصحابه وغلماؤه وخدامه ودوابه، وترتيب حاله في حركته وسكونه، وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئاً.

فإذا وصل الوارد مدينة ملتان، وهي قاعدة بلاد السند، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدمه، وما يُجري له من الضيافة، وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه.

من عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة. ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصحابه غرباء. ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلده الأعرزة. فصار لهم ذلك اسماً وعلماً. ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه، ويقدمها وسيلة بين يديه. فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة، وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير. ولما تعود الناس ذلك منه، صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدينار ديناً ويجهزون به بما يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ويخدمونهم بأموالهم وأنفسهم، ويقفون بين يديه كالحشم، فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل، ففضى ديونهم ووفاهم حقوقهم، فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم. وصار لهم ذلك عادة مستمرة. ولما وصلت إلى بلاد السند، سلكت ذلك المنهج، واشترت من التجار الخيل والجمال والماليك وغير ذلك. ولقد اشترت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً وجلاً عليه حمل من الشباب، فإنه مما يهدي إلى السلطان، وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند، وهنالك تقاضى مني مائة، واستفاد بسببي فائدة عظيمة، وعاد من كبار التجار. ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة، وقد سلبني الكفار ما كان بيدي فلم ألق منه خيراً.

ذكر الكركدن

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها، فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم، ورأسه كبير متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل فيقال: الكركدن رأس بلا بدن، وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف. وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثة أذرع، وعرضه نحو شبر. ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذ فحذه وصرعه، وعاد إلى الغيضة فلم نقدر عليه. وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر، وهو يرعى نبات الأرض. فلما قصدناه هرب منا. ورأيت مرة أخرى ونحن مع ملك الهند، دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة، ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة.

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الأولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة، استوطنوها قديماً واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند. وأخبرني الشيخ الإمام العالم العامل العابد الزاهد ركن الدين أبو الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أنني سألقاهم في رحلتي فلقيتهم والحمد لله، أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك

الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق، وأقام بها وتكاثرت ذريته. وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد. وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى وُتار (بضم الواو وفتح النون)، وسنذكر خبره. ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سيُوسِتَان (وضبط اسمها بكسر السين الأول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوَة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة، وخارجها صحراء ورمال، لا شجر بها إلا شجر أم غيلان. ولا بزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ. وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المَشْنُك (بجم وشين معجم مضمومين ونون مسكن)، ومنه يصنعون الخبز، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية. وأهلها يأكلون السقنقور، وهي دويبة شبيهة بأَم حُبِين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها. ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكرم، وهم يسمونه زردشوبة، ومعناه العود الأصفر، وهو عندهم عوض الزعفران. ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقدرتها فلم أكلها. ودخلنا هذه المدينة في احتدام القipzig وحرها شديد. فكان أصحابي يقعدون عريانين، يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء، فما يمضي السير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة، فيبلها مرة أخرى، وهكذا أبداً. ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني، وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة. وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن.

ونص الكتاب: هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين لفلان عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور. ولقيت بها الشيخ

المعمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرتدي .
وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه حضر مقتل المستعصم بالله آخر
خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون بن تنكيز التتري^(١) . وهذا
الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري الذي تقدم ذكره ، والأمير
قيصر الرومي ، وهما في خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمئة فارس . وكان
يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلولة والنون) ،
وهو من الخذاق بالحساب والكتابة . فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء ،
فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند ، وولاه بتلك البلاد ، وأقطعه سيوستان
وأعمالها ، وأعطاه المراتب ، وهي الأبطال والعلامات كما يعطى كبار الأمراء . فلما
وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم ،
فأجمعوا على قتله . فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز
المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم . فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة ،
وزعموا أن السبع ضرب عليها . وقصدوا ضرب الكافر فقتلوه ، وعادوا إلى
المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان ، وذلك اثنا عشر ركباً واللك مائة ألف
دينار ، وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرف الدينار الهندي
ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب . وقدموا على أنفسهم نار المذكور ،
وسموه ملك فيروز ، وقسم الأموال على العسكر . ثم خاف على نفسه لبعده عن
قبيلته ، فخرج فيمن معه من أقاربه ، وقصد قبيلته ، وقدم الباقون من العسكر

(١) يظهر - والله أعلم - أنه يقصد : هولاءكو ؛ لأنه الذي خرب بغداد ، وقتل المستعصم .

على أنفسهم قيصر الرومي. واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان، وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكانه بملتان. فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند. وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر، فوقع اللقاء وانهمز قيصر ومن معه أشنع هزيمة، وتحصنوا بالمدينة، فحاصره هم ونصب المجانيق عليهم، واشتد عليهم الحصار، فطلبوا الأمان بعد أربعين يوماً من نزوله عليهم فأعطاهم الأمان. فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم. فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط البعض ويسلخ آخرين منهم ويملاً جلودهم تبناً ويعلقها على السور. فكانت تلك الجلود مصلوبة، ترعب من ينظر إليها. وجمع رؤوسهم في وسط المدينة، فكانت مثل التل هنالك. ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة، وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها، ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها. وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر. فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري. وكان له خمسة عشر مركباً قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت.

ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك

وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالأهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء)، وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس مهياً لجلوس الأمير، ويجلس أصحابه بين يديه. ويقف الممالك يمينه ويسرة، والرجال يقذفون وهم نحو أربعين. ويكون مع هذه الأهورة أربعة من

السفن عن يمينها ويسارها، اثنان منها فيها مراتب الأمير، وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفاز والصرنايات وهي الغيطات، والآخران فيها أهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة، ويغني المغنون نوبة. ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الظهر. فإذا كان وقت الغداء اجتمعت المراكب، ووصل بعضها ببعض، ووضعت بينها الإصقالات، وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله، ثم يأكلون وإذا فرغوا من الأكل عادوا إلى سفنهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم إلى الليل. فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى خيامه ومد السباط وحضر الطعام معظم العسكر، فإذا صلوا العشاء الأخيرة سمر السمار بالليل نوباً، فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال يا خوند ملك، قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى، فإذا أتموها نادى منادهم أيضاً معلماً بما مر من الساعات. فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصليت صلاة الصبح وأتى بالطعام. فإذا فرغ الأكل، أخذوا في المسير. فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب، وإن أراد المسير في البر ضربت الأبطال والأبواق، وتقدم حجابه، ثم تلاهم المشاؤون بين يديه، ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان، عند ثلاثة منهم أبطال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات. فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأبطال والصرنايات. ثم تدق أبطال العسكر وأبواقه، ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوباً، فإذا كان وقت الغداء نزلوا.

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام، ووصلنا إلى موضع ولايته، وهو مدينة لاهري (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير، وبها يصب نهر السند في البحر، فيلتقي بها بجران، ولها مرسى عظيم، يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيره. بذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها.

أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجي هذه المدينة ستون لكتًا في السنة، وقد ذكرنا مقدار اللك، وللأمير من ذلك نم (نيم) ده يك، ومعناه نصف العشر. وعلى ذلك يعطي السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر.

ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة

وركبت يوماً مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا، فرأيت هنالك ما لا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم، وقد تغير كثير منها ودرثت أشكاله، فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما. ومن الحجارة أيضاً على صورة الحبوب من البرّ والحمص والفول والعدس، وهنالك آثار سور وجدران دور، ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي، إلا أن رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه، ويده خلف ظهره كالمتكوف. وهنالك مياه شديدة التتن، وكتابة على بعض الجدران بالهندي. وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذي على الدكانة في الدار التي ذكرناها، وهي الآن تسمى دار الملك، وأن الكتابة التي في بعض الحيطان بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها. وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام، ثم أحسن في الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة)، وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند. وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر. عمّرها كشلوخان أيام ولايته على بلاد السند، وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي، ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة، ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي، وهو من

المعمرين، ذكر لي أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاماً. ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السند، لها أسواق حسنة وعمارة جيدة. وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء، وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه.

مكرمة هذا الملك

ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة، واجتمعنا بحضرة دهلي. فلما سافر السلطان إلى دولة أباد، كما سذكروه، وأمرني بالإقامة بالحضرة، قال لي جلال الدين: إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة، والسلطان تطول غيبته، فخذ قريتي واستغلها حتى أعود، ففعلت ذلك. واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار، جزاه الله أحسن الجزاء.

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي، وأبسني الخرقه، وهو من كبار الصالحين. ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي، إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر. ثم سافرت من أوجه إلى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلو)، وهي قاعدة بلاد السند، ومسكن أمير أمرائه. وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسرو أباد، وهو من الأودية الكبار، لا يجاز- إلا بالمراكب. وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم. وكانت عادتهم حين وصلنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنائير مغرمًا.

ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم، وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر، لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي. ولما أخذنا في

إجازة هذا الوادي وفتشت الرحال، عظم علي تفتيش رحلي، لأنه لم يكن فيه طائل، وكان يظهر في أعين الناس كبيراً، فكنت أكره أن يطلع عليه. ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان، فأمر أن لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش، فكان كذلك. فحمدت الله على ما هياه لي من لطائفه. وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادي، وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان، وهو سمرقندي الأصل، وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل، فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان.

ذكر أمير ملتان وترتيب حاله

وأمر ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلائهم. لما دخلت قام إلي وصافحني وأجلسني إلى جانبه. وأهديت له مملوكاً وفرساً وشيئاً من الزبيب واللوز، وهو من أعظم ما يهدى إليهم، لأنه ليس ببلادهم، وإنما يجلب من خراسان. وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط، وعلى مقربة منه القاضي، ويسمى سالارو، والخطيب ولا أذكر اسمه، وعن يمينه ويساره امرء الأجناد، وأهل السلاح وقوف على رأسه، والعساكر تعرض بين يديه. وهناك قسي كثيرة. فإذا أتى من يريد أن يثبت في العسكر رامياً أعطي قوساً من تلك القسي ينزع^(١) فيها، وهي متفاوتة في الشدة. فعلى قدر نزعه يكون مرتبه. ومن أراد أن يثبت فارساً، فهناك طبله منصوبة، فيجري فرسه ويرميها برمحه. وهناك أيضاً خاتم معلق في حائط صغير، فيجري فرسه حتى يحاذيه. فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم، ومن أراد أن يثبت رامياً فارساً فهناك كرة

(١) أي: يرمي بها.

موضوعة في الأرض، فيجري فرسه ويرميها، وعلى قدر ما يظهر من الإنسان في ذلك من الإصابة يكون مرتبه. ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه، كما ذكرناه، أمر بإنزالنا في دار خارج المدينة، هي لأصحاب، الشيخ العابد ركن الدين الذي تقدم ذكره، وعادتهم أن لا يضيفوا أحداً حتى يأتي أمر السلطان.

ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ، قدم بأهله وولده، ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين، ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند، ومنهم أرنبغا أحد كبار بخارى، ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده، ومنهم بدر الدين الفصال، وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه، ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران، وصل أحد حجاب السلطان، وهو شمس الدين البوشنجي، والملك محمد الهروي الكتوال، بعثها السلطان لاستقبال خداوند زاده. وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور. وأتوا بالخلع لها ولأولادها، ولتجهيز من قدم من الوفود، وأتوا جميعاً إلي، وسألوني لماذا قدمت، فأخبرتهم أنني قدمت للإقامة في خدمة خوند عالم، وهو السلطان، وبهذا يدعى في بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند، إلا إن كان برسم الإقامة. فلما أعلمتهم أنني قدمت للإقامة، استدعوا القاضي والعدول، وكتبوا عقداً علي وعلى من أراد الإقامة من أصحابي. وأبى بعضهم من ذلك. وتجهزنا للسفر إلى الحضرة.

وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوماً في عمارة متصلة. وأخرج الحاجب

وصاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين، واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباًخاً. وكان الحاجب يتقدم ليلاً إلى كل منزل، فيجهز الطعام وسواه، فما يصل خداوند زاده حتى يكون الطعام متيسراً. وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة، بمضاربه، وأصحابه. وربما حضروا الطعام الذي يصنع لخداوند زاده. ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة. وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق، ويقطعون اللحم المشوي قطعاً كبيرة، بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستاً، ويجعلون أمام كل رجل قطعة. ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك ببلادنا، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي، ومعناه الآجري، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن. ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية ثم يجعلون شيئاً يسمونه سموسك، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفسق والبصل والأبازير، موضوعة في جوف رقاقة مقلوة بالسمن. يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعاً، ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج، ثم يجعلون لقيات القاضي ويسمونه الهاشمي، ثم يجعلون القاهرية. ويقف الحاجب على السباط قبل الأكل، ويخدم إلى الجهة التي فيها السلطان، ويخدم جميع من حضر لخدمته. والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع، فإذا فعلوا ذلك، جلسوا للأكل. ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولاً في الماء، ويسمون ذلك الشربة، ويشربونه قبل الطعام. ثم يقول الحاجب: بسم الله: فعند ذلك يشرعون في الأكل. فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه، أتوا بالتنبول والفوفل: وقد تقدم ذكرهما، فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب: بسم الله. فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولاً، وينصرفون.

ثم سافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على ما سطرناه، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد دخلناه مدينة أبوهَر (بفتح الهاء)، وهي أول تلك البلاد الهندية، صغيرة حسنة كثيرة العمارة، ذات أنهار وأشجار. وليس هنالك من أشجار بلادنا شيء. ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص، شديد الحلاوة. ولهم أشجار كثيرة، ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها.

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبُ (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة)، وهي شجرة تشبه أشجار النارج، إلا أنها أعظم أجراماً^(١) وأكثر أوراقاً وظلها أكثر الظلال، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك. وثمرها على قدر الإحصاص الكبير. فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه، وجعلوا عليه الملح^(٢)، وصبروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا. وكذلك يصيرون أيضاً الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل. ويأكلون ذلك مع الطعام، يأخذون بأثر كل لقمة يسيراً من هذه المملوحات فإذا نضجت العنب في أوان الخريف، اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح. فالبعض يقطعها بالسكين، والآخر يمصها مصاً. وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة. ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار، كما تزرع نوى النارج وغيرها. والشَّكي والبركي (بفتح الشين المعجم وكسر الكاف، وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف). وهي أشجار عادية، أوراقها كأوراق الجوز، وثمرها يخرج من أصل الشجر، فما اتصل منه بالأرض فهو البركي، وحلاوته

(١) جمع جرم، ومعناه: الجسم، فالمراد: أعظم حجماً من شجرة النارج، والله أعلم.

(٢) أي: حفظوه مكبوساً بالملح، أو: خللوه بتعبير آخر ليكون من المشهيات مع الطعام.

أشد وطعمه أطيب ، وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار ، وجلوده تشبه جلود البقر ، فإذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه . فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان . فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار ، بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون ، ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير ، وإذا شويت هذه النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول ، إذ ليس يوجد هنالك . ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى . وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند . والتندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الأبنوس ، وحباته قدر حبات المشمش ، ولونها ، وهو شديد الحلاوة ، والجوز (بضم الجيم المعقودة) وأشجار عادية ويشبه ثمرة الزيتون ، وهو أسود اللون ، ونواه واحدة كالزيتون ، والنارج الحلو ، وهو عندهم كثير . وأما النارج الحامض فعزيز الوجود . ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض ، وثمره على قدر الليم وهو طيب جداً ، وكنت يعجبني أكله ، ومنها المهوا (بفتح الميم والواو) وأشجار عادية وأوراقه كأوراق الجوز ، إلا أن فيها حرة وصفرة ، وثمره مثل الإجاص الصغير شديد الحلاوة . وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب .

إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعاً ، ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان طعمها كطعم التين ، وكنت آكلها عوضاً عن التين إذ لا يوجد ببلاد الهند . وهم يسمون هذه الحبة الأَنْكُور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) ، وتفسيره بلسانهم العنب . والعنب بأرض الهند عزيز جداً ، ولا يكون بها إلا في موضع بحضرة دهلي ، وبلاد أخرى ، ويشمر مرتين في السنة . ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ، ويستصبحون^(١) به . ومن فواكههم فاكهة يسمونها كَسِيرَا (بفتح الكاف وكسر

(١) أي : يتخذونه وقوداً للمصابيح .

السين المهمل وياء مد وراء) يحفرون عليها الأرض، وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل. وبلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان، ويثمر مرتين في السنة. ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهمل لا ينقطع له ثمر، وهم يسمونه أنار (بفتح الهمزة والنون)، وأظن ذلك هو الأصل في تسمية الجلنار، فإن جُل بالفارسية الزهر، ونار الرمان.

ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة. فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي، وحصدوه بعد ستين يوماً من زراعته. ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون اللذال المعجم وضم الراء وبعدها واو)، وهو نوع من الدخن. وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم. ومنها القال (بالقاف) وهو شبه أنلي، ومنها الشاماخ (بالشين والحاء المعجمتين)، وهو أصغر حباً من القال. وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين. يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره، وتكون يميناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة. وحب هذا الشاماخ صغير جداً، وإذا جمع جعل في الشمس، ثم يدق في مهارس الخشب، فيطير قشره ويبقى لبه أبيض. ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس، وهي أطيب من خبزه، وكنت آكلها كثيراً ببلاد الهند وتعجيني. ومنها الماش، وهو نوع من الجلبان، ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم)، وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة، ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كُشرى (بالكاف والشين المهجم والراء)، وعليه يفطرون في كل يوم. وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب. ومنها اللوبيا وهي نوع من

القول، ومنها الموث (بضم الميم) وهو مثل الكذرو، إلا أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب عندهم، وتسمن الدواب بأكله، والشعير عندهم لا قوة له، وإنما علف الدواب من هذا الموت، أو الحمص ويجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب، ويطعمونها عوضاً من القصيل أوراق الماش، بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام، في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة، ولا تركب في تلك الأيام. وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدوها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية؛ وهي القمح والشعير والحمص والعدس. وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرة فيها. وبلادهم كريمة طيبة التربة. وأما الأرز فانهم يزرعون ثلاث مرات في السنة، وهو من أكبر الحبوب عندهم. ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها.

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله فأقول) سافرنا من مدينة أبوهر، في صحراء مسيرة يوم، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود، وربما قطعوا الطريق. وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار. فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها بلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر، خرج الناس منها أول النهار، وأقمت بها إلى نصف النهار في لمة من أصحابي، ثم خرجنا، ونحن اثنان وعشرون فارساً. منهم عرب ومنهم أعاجم، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان. وكان أصحابي ذوي نجدة وعُتيّ، فقاتلناهم أشد القتال، فقتلنا أحد

الفرسين منهم وغنمنا فرسه، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً وأصابني
نشاب، وأصابت فرسي نشابة ثانية، ومن الله بالسلامة منها، لأن نشابهم لا قوة
لها، وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر، وذبحنا فرسه
المجروح، فأكله الترك من أصحابنا. وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بكهر
فعلقناها على سوره. وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكهر المذكور
(وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء).
وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودَهَن (وضبط اسمها بفتح الهمزة
وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون)، مدينة صغيرة هي للشيخ
الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين
الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه، فلقيته والحمد لله، وهو شيخ ملك الهند،
وأنعم عليه بهذه المدينة. وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله، فلا يصافح
أحداً ولا يدنو منه، وإذا أُلصق ثوبه بثوب أحدٍ غسل ثوبه. دخلت زاويته
ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب وقال: أنا دون ذلك. ولقيته
ولديه الفاضلين معز الدين، وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده، وعلم
علم الدين. وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوني، منسوبة إلى
مدينة «بذاون» بلد السنبل. (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو
وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة، قال لي علم الدين: لا بد
لك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له، وعليه ثياب بيض وعمامة
كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة إلى جانب. ودعا لي وبعث إلي بسكر ونبات.

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ، رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم
بعض أصحابنا. فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كاسراً من الهنود مات،

وأججت النار لحرقه، وامراته تحرق نفسها معه. ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه. وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة، وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأبحري^(١)، وأميرها مسلم من سامرة السند، وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوماً، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم قتال شديد، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر - وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن. وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها، لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتحنة لعدم وفائها. ولكنها لا تكره على إحراق نفسها. ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا. ويأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطرة، وفي يدها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار. وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغني السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم، وتضحك إليهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق. فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم

(١) في بعض طبقات الكتاب: بأبحري.

كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة. وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس. فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم، أعادنا الله منها. ولما وصلنا إلى تلك القباب، نزلنا إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلي، فتصدقن به. وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفها. والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج، في موضع منخفض، وصب عليها روغن كنجت (كنجد)، وهو زيت الجُلْجُلان^(١) فزاد في اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطباء والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة، يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة، نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم: مارا ميسراني ازاطش (آنش) من ميدانم أواطش است رهاكني مارا؛ وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفوني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة. ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الأطباء والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً في الغرق. يغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك، وهو الذي إليه يحجون. وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين. وهم يقولون: إنه من الجنة. وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنوا أنني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما

(١) الجُلْجُلان: ثمرة الكزبرة، أو حب السمسم.

قصدي التقرب إلى كُساي، وكُساي (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يفرق نفسه. فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور.

ولنعد إلى كلامنا الأول، فنقول: سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سَرَسْتِي (وضبط اسمها بسنين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الأرز، وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضره دهلي، ولها مجي كثير جداً. أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره ونسبته. ثم سافرنا منها إلى مدينة حَانَسِي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكن وسين مهمل مكسور وياء) وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة. ولها سور عظيم ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تُوْرَة (بضم التاء المعلولة وفتح الراء). وله عندهم حكايات وأخبار. من هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند، وأخوه قطلوخان معلم السلطان، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات. ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد. وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي، وأقمنا بها ثلاثة أيام. وحانسي ومسعود أباد هما للملك المعظم هُوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كُرك، وكرك (بكافين معقودين أولاهما مضمومة) ومعناه الذئب، وسيأتي ذكره. وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائباً عنها بناحية مدينة قنوج، وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام، وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان. وجهان اسم الدنيا. وكان بها أيضاً وزيره خواجه جهان المسمى بأحد بن إياس، الرومي الأصل. فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا، وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه. فكان من الذين عينهم للقائني الشيخ البسطامي، والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء، والفقيه علاء

الدين الملتاني المعروف بقنّرة (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب إلى السلطان بخبرنا، وبعث الكتاب مع الدواة، وهي بريد الرجال، حسبما ذكرناه، فوصل إلى السلطان، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمنها بمسعود أباد. وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، وهم يسمون الأمراء ملوكاً. فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك. وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني، وهو كبير المنزلة عند السلطان. ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالأم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري، أحد ندماء السلطان، وممن له عنده الخطوة التامة. وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام)، وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالشرق.

ذكر وصفها

ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات، إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي، وهي القديمة من بناء الكفار. وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسة، والثانية تسمى سيري (بكسر السين المهمل والراء بينهما ياء مد)، وتسمى أيضاً دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان لغيث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه، وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما، والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيتها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه. وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين، فقال له: يا خوند عالم، كان

ينبغي أن تبني هنا مدينة. فقال له السلطان متهاكماً: إذا كنت سلطاناً فابنها. فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبناها، وسماها باسمه. والرابعة تسمى جهان بناه، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه، وهو الذي بناها. وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه، لعظم ما يلزم في بنائه.

ذكر سور دهلي وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير. عرض حائطه أحد عشر ذراعاً، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات، ومخازن للعدد، ومخازن للمجانيق، والرعدات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير، ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت أيضاً الكدرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة. ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها. وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبني بالحجارة، وأعله بالآجر، وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً، وهم يسمون الباب دروازة. فمنها دروازة بذاون، وهي الكبرى، ودروازة المندوي، وبها رحة الزرع، ودروازة جل (بضم الجيم) وهي موضع البساتين، ودروازة شاه: اسم رجل، ودروازة بالأم: اسم قرية قد ذكرناها، ودروازة نجيب: اسم رجل، ودروازة كمال كذلك، ودروازة غزنة، نسبة إلى مدينة غزنة التي في طرف خراسان، وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر، ودروازة البجالة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل)، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي، وهي مقبرة حسنة بينون بها القباب. ولا بد عند كل قبر من محراب، وإن كان لا قبة له، ويزرعون بها

الأشجار المزهرة مثل قُل^(١) (كل شنبو) وريبول (راي بيل) والنسرين وسواها .
والأزاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول .

ذكر جامع دهلي

وجامع دهلي كبير الساحة، حيطانة وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة، أبداع نحت، ملصقة بالرصاص أتقن إصاقة، لا خشبة به أصلاً. وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضاً من الحجر، وله أربعة من الصحون. وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعادن هو. ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمي هَمَّتْ جُوش (بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء معلولة وجيم مضموم وآخره شين معجم)، ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها. وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة، ولذلك المجلو منه بريق عظيم، ولا يؤثر فيه الحديد. وطوله ثلاثون ذراعاً، وأدنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثماني أذرع. وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صندان كبيران جداً من النحاس مطروحان بالأرض، قد ألصقا بالحجارة، ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه. وكان موضع هذا المسجد بدخانة، وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جعل مسجداً، وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام. وهي مبنية بالحجارة الحمر، خلافاً لحجارة سائر المسجد، فإنها بيض. وحجارة الصومعة منقوشة، وهي سامية الارتفاع، وفحلها من الرخام الأبيض الناصع، وتفافيحها من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة. حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها. وهي من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن. وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة

(١) في بعض طبعات الكتاب: مثل: قل شنبه.

أعظم منها، فبنى مقدار الثلث منها، واخترم دون تمامها. وأراد السلطان محمد إتمامها، ثم ترك ذلك تشاؤماً. وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة. وهذا الثلث المبني منها مساوٍ لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي. وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة، وعينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار. ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك، لعظم جرمها وسعتها. وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جامعاً بسيري المسماة دار الخلافة، فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب. وبنائه بالحجارة البيض والسود والحمرة والخضر. ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد. وأراد السلطان محمد إتمامه، وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه، فزعموا أنه ينفق في إتمامه خمسة وثلاثون لكاً فترك ذلك استكثاراً له. وأخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثاراً، لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين للميش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها. وماؤها يجتمع من ماء المطر. وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله. والجهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين، بعضها أعلى من بعض، وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء، وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتزهين والمتفرجين. وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة بمجولة طبقتين. فإذا كثر الماء في الحوض، لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب. فإذا قلَّ الماء دخل إليها الناس. وداخلها مسجد. وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء

المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم. وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين. وعلى جوانبه نحو أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب، وموضعهم يسمى طرب آباد. ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق، ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة. وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤم بهن الأئمة، وعددهن كبير، وسانك الرجال المغنون. ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنا. لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى.

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم. وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة، أو الذين لهم البنات ولم يجدوا ما يجهزون به إلى أزواجهن، يعطي من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله، ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلاني (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة إلى كرمان، وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى. وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثيرة نفع الله تعالى بهم.

ذكر بعض علمائها وصلحائها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة)، وهو من كبار الصالحين. والناس يزعمون أنه ينفق من الكون، لأنه لا مال له ظاهر، وهو

يطعم الوارد والصادر، ويعطي الذهب والدراهم والأثواب، وظهرت له كرامات كثيرة، واشتهر بها. رأيت مرات كثيرة، وحصلت لي بركته، ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كأنه منسوب إلى نيل مصر، والله أعلم، كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزواني. وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة، فيتوب كثير منهم بين يديه، ويحلقون رؤوسهم، ويتواجدون ويغشى على بعضهم.

حكاية

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ. فقرأ القارئ بين يديه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١). ثم كررها الفقيه علاء الدين. فصاح أحد الفقهاء من ناحية المسجد صيحة عظيمة، فأعاد الشيخ الآية، فصاح الفقير ثانية ووقع ميتاً. وكنت فيمن صلى عليه، وحضر جنازته. ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهْراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعاً ونبذها، ولبسه عباءة. ويزوره السلطان وأهل الدولة، وربما احتجب عنهم. فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فأبى ذلك. وزاره يوماً وأتى إليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها. وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث، وأنه قيل له في ذلك فقال: لا أفطر حتى اضطر، فتحل لي الميتة، ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع

(١) الحج: الآية: ١، ٢.

فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دهلي بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني زرتة بهذا الغار ثلاث مرات.

كرامة له

كان لي غلام فأبق مني، وألفيته بيد رجل من الترك، فذهبت إلى انتزاعه من يده، فقال لي الشيخ: إن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه. وكان التركي راغباً في إباحة الحة، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه، وتركته له. فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده، وأتى به إلى السلطان، فأمر بتسليمه لأولاد سيده فقتلوه. ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة، فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوماً، ويقوم أكثر الليل. ولم أزل معه حتى بعث عني السلطان، ونسبت في الدنيا ثانية. والله تعالى يختم بالخير وسأذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى، وكيفية رجوعي إلى الدنيا.

ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك

حدثني الفقيه العالم العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي الملقب بصدر الجهان، أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار في سنة أربع وثمانين وخمسة. وقد قرأت أنا ذلك مكتوباً على محراب الجامع الأعظم بها. وأخبرني أيضاً أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيبيك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة)، وكان يلقب سياه (سالار)، ومعناه مقدم الجيوش. وهو أحد ممالك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان، المتغلب على ملك

إبراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتداء فتح الهند. وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم، ففتح الله عليه مدينة لاهور. وسكنها وعظم شأنه، وسعى به إلى السلطان، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند، وأنه قد عصى وخالف. وبلغ هذا الخبر إلى قطب الدين فبادر بنفسه، وقدم على غزنة ليلاً، ودخل على السلطان، ولا علم عند الذين وشوا به إليه. فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره، وأقعد أيبك تحت السرير، بحيث لا يظهر، وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به. فلما استقر بهم الجلوس سألم السلطان عن شأن أيبك، فذكروا له أنه عصى وخالف، وقالوا: قد صح عندنا أنه ادعى الملك لنفسه. فضرب السلطان سريره برجله، وصفق بيديه وقال: يا أيبك، قال: لبيك، وخرج عليهم، فسقط في أيديهم، وفزعوا إلى تقبيل الأرض. فقال لهم السلطان: قد غفرت لكم هذه الزلة. وإياكم والعودة إلى الكلام في أيبك. وأمره أن يعود إلى بلاد الهند، فعاد إليها، وفتح مدينة دهلي وسواها. واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد. وأقام قطب الدين بها إلى أن توفي.

ذكر السلطان شمس الدين للمِش

(وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم)، وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلاً به وكان قبل تملكه مملوكاً للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائباً عنه، فلما مات قطب الدين استبد بالملك، وأخذ الناس بالبيعة. فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاساني، فدخلوا عليه وقعد بين يديه، وقعد القاضي إلى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به، فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه، وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه. فقرأه القاضي والفقهاء، وبايعوه جميعاً.

واستقل بالملك، وكانت مدته عشرين سنة. وكان عادلاً صالحاً فاضلاً، ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه ثم أنه أعيا في ذلك^(١) فقال: إن بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل، وأريد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك، وفي أعناقها أسلستان من الحديد فيها جرس كبير، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس، فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه. ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده، ومعز الدين، وناصر الدين، وبتناً تسمى رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه.

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته، فأنكرت ذلك عليه، فأراد قتلها. فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة. فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمى دولة خانة، ولبست عليها ثياب المظلومين، وتعرضت للناس، وكلمتهم من أعلى السطح، وقالت لهم: إن أخي قتل أخاه، وهو يريد قتلي معه. وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم: القاتل يقتل فقتلوه قصاصاً بأخيه وكان آخرهما ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية.

(١) أي: أعجز غيره من الحكام أن يلحقوا به ويصنعوا صنيعه من العدل.

ذكر السلطان رضية

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك، فولوها. واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والترکش والقربان، كما يركب الرجال ولا تستر وجهها، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعه وتزويجها، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين.

ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها الأصغر، واستقل بالملك مدة. ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه، وركبا في ممالیکهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهاياً لقتاله، وخرج ناصر الدين معه مملوکه النائب عنه غياث الدين بلبن متولي الملك بعده فوقع اللقاء وانهمزم عسكر رضية، وفرت بنفسها، فأدرکها الجوع وأجهدا الإعياء، فقصدت حرّاًناً رآته يحرث الأرض، فطلبت منه ما تأكله، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها، وغلب عليها النوم، وكانت في زي الرجال، فلما نامت نظر إليها الحرّاث وهي نائمة، فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدانها، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة، وهو الحاكم، فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنها ودفنت هنالك وبني عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرک به^(١)، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون، على مسافة فرسخ واحد من المدينة. واستقل ناصر الدين

(١) يدل ذلك على أن عوام الناس لا يميزون بين الصالحين الذين يتبرک بهم - إن جاز ذلك - وبين غيرهم، فليس كل من القبور أهل للتبرک بهم، فالقبور بها الصالح والطالح ومستور الحال.

بالمملك بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة وكان ملكاً صالحاً ينسخ نسخاً من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها . وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ، ثم إن نائبه غياث الدين بلبن قتله ، ومملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بلبن

(وضبط اسمه بباءين موحدتين بينها لام والجميع مفتوحات وآخرها نون) ، ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالمملك بعده عشرين سنة ، وقد كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين ، عادلاً حليماً فاضلاً . ومن مكارمه أنه بنى داراً ، سماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضي دينه ومن دخلها خائفاً أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضى أيضاً من يطلبه . وبتلك الدار دفن لما مات . وقد زرت قبره .

حكاية

يذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيراً حقيراً دميماً فقال له : يا تركك ، وهي لفظة تعبر عن الاحتقار . فقال له : لبيك يا خوند ، فأعجبه كلامه ، فقال له : إشتري لي من هذا الرمان ، وأشار إلى رمان يباع في بالسوق ، فقال : نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان . فلما أخذها الفقير قال له : وهبنك ملك الهند . فقبل بلبن يد نفسه ، وقال : قبلت ورضيت واستقر ذلك في ضميره ، واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجراً يشتري له الممالك بسمرقند وبخارى وترمز فاشترى مائة مملوك كان من جلتهم بلبن ، فلما دخل بالممالك على السلطان أعجبه جميعهم إلا

بلبن، لما ذكرناه من دمامته فقال: لا أقبل هذا فقال له بلبن: يا خوند عالم لمن
 اشتريت هؤلاء الممالك؟ فضحك منه وقال: اشتريتهم لنفسي. فقال: اشترني أنا
 لله عز وجل. فقال: نعم وقبله وجعله في جملة الممالك فاحتقر شأنه وجعل في
 السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين: إن أحد
 ممالكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولي عليه ولا يزالون يلقون ذلك، وهو لا
 يلتفت إلى أقوالهم لصلاحه وعدله، إلى أن ذكر ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده
 فذكرت له ذلك، وأثر في نفسه، وبعث على المنجمين فقال: أتعرفون المملوك
 الذي يأخذ ملك ابني إذا رأيتموه؟ فقالوا له: نعم عندنا علامة نعرفة بها فأمر
 السلطان بعرض ممالكه، وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة،
 والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون: لم نره بعد، وحين وقت الزوال، فقال
 السقائون بعضهم لبعض: إنا قد جمعنا، فلنجمع شيئاً من الدراهم، ونبعث أحداً
 إلى السوق ليشتري لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم، وبعثوا بها بلبن، إذ لم يكن
 فيهم أحقر منه. فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ وجاءت
 نوبة السقائين في العرض وهو لم يأت بعد، فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على
 كاهل صبي، وعرضوه على أنه بلبن فلما نودي اسمه جاز الصبي بين أيديهم
 وانقضى العرض. ولم ير المنجمون الصورة التي يطلبونها. وجاء بلبن بعد تمام
 العرض، لما أراد الله من إنفاذ قضائه. ثم إنه ظهرت نجابته، فجعل أمير
 السقائين، ثم صار من جملة الأجناد، ثم من الأمراء، ثم تزوج السلطان ناصر
 الدين بنته قبل أن يلي الملك ولما ولي الملك جعله نائباً عنه مدة عشرين سنة، ثم
 قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك، وكان
 للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده، وكان والياً لأبيه ببلاد
 السند، ساكناً بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر، وترك ولدين: كي قباد
 وكي خسرو. وولد السلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين، وكان والياً لأبيه

ببلاد اللكنوتي وبنجاله . فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كي خسرو، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين كذلك ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين، وهو الذي تولى الملك بعد جده في خير عجيب نذكره، وأبوه إذ ذاك حي كما ذكرناه.

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر ابن السلطان غياث الدين بلبن

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلاً، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو، حسبما قصصناه، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدواً لكي خسرو فأدار عليه حيلة تمت، وهي أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الأمراء الكبار بأنهم بايعوا السلطان معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له فقال له: إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك، وأخاف عليك منهم. فقال كي خسرو: فما الحيلة؟ قال: انج بنفسك هارباً إلى بلاد السند فقال: وكيف الخروج والأبواب مسدودة؟ فقال له: إن المفاتيح بيدي، وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبل يده، وقال له: اركب الآن، فركب في خاصته ومماليكه، وفتح له الباب وأخرجه، وسدّ في أثره، واستأذن على معز الدين فبايعه، فقال: كيف لي بذلك وولاية العهد لابن عمي؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة، وبإخراجه. فشكره على ذلك ومضى به إلى دار الملك، وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلاً فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حياً ببلاد بنجاله واللكنوتي فاتصل به الخبر فقال: أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة؟ فتجهز في جيوشه قاصداً حضرة دهلي، وتجهز ولده في جيوشه كذلك قاصداً لدفاعته عنها، فتوفيا معاً بمدينة كرا، وهي على ساحل نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كرا ونزل ولده السلطان معز

الدين مما يلي الجهة الأخرى، والنهر بينهما وعزما على القتال، ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين، فألقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال: إذا ملك ولدي فذلك شرف، وأنا أحق أن أرغب في ذلك، وألقى في قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه فركب كل واحد منهما منفرداً عن جيوشه، والتقيا في وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له. فقال له أبوه: قد وهبتك ملكي ووليتك وبايعة وأراد الرجوع لبلاده، فقال له ابنه: لا بد لك من الوصول إلى بلاددي، فمضى معه إلى دهلي، ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمي ذلك اللقاء الذي كان بينهما بالنهر: لقاء السعدين، لما كان فيه من حقن الدماء، وتواهب الملك والتجافي عن المنازعة. وأكثرت الشعراء في ذلك. وعاد ناصر الدين إلى بلاده، فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذي أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته، واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالأعياد. رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها، وجود معز الدين وكرمه وهو الذي بني الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي ولا نظير لها في البلاد. وحكى لي بعض أهل الهند أن معز الدين كان يكثر النكاح والشرب، فاعترتة علة أعجز الأطباء دواؤها، ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروزشاه الخَلْجي (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم).

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج إلى ظاهر المدينة فوقف على تلِّ هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشتاني. فبعت معز الدين الأمراء لقتاله، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل في جلته ثم دخل المدينة وحصره في القصر ثلاثة أيام. وحدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الأيام، فلم

يجد ما يأكله، فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أودم، ودخل عليه القصر فقتل، وولي بعده جلال الدين وكان حليماً فاضلاً، وحلمه أداه إلى القتل، كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه، وهو الذي أعطاه السلطان محمد لصهره الأمير غدا بن مهنا، لما زوجه، بأخته، وسيذكر ذلك، فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين، وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها، وهي من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والأرز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة، ومنها تجلب إلى دهلي، وبينها مسيرة ثمانية عشر يوماً وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه، فلا زال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينها بسببها وكان علاء الدين شهياً شجاعاً مظفراً منصوراً، وحب الملك ثابت في نفسه، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيدة بسيفه من غنائم الكفار. فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدويقير، وتسمى بلاد الكتكة أيضاً وسنذكرها، وهي كرسي بلاد المالوه والمرهته، وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار، فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طينياً، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزاً عظيماً، ففرقه في أصحابه ووصل إلى الدويقير، فأذعن له سلطانها بالطاعة، ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع إلى المدينة كرا، ولم يبعث إلى عمه شيئاً من الغنائم فأغرى الناس عمه به فبعث إليه، فامتنع من الوصول إليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب اليه وآتي به فإنه محل ولدي فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين، وركب النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه، وركب ابن أخيه أيضاً في مركب ثان عازماً على الفتك به وقال لأصحابه: إذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم، واحتوى على ملكه وعساكره.

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي

ولما قتل عمه استقل بالملك، وفر إليه أكثر عساكر عمه، وعاد بعضهم إلى دهلي، واجتمعوا على ركن الدين وخرج إلى دفاعه فهربوا جميعاً إلى السلطان علاء الدين، وفر ركن الدين إلى السند، ودخل علاء الدين دار الملك، واستقام له الأمر عشرين سنة. وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يشنون عليه كثيراً، وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه، ويسأل عن أسعارهم، ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك ويذكر أنه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر في المرتب فأمر برفع ذلك، وأمر بإحضار التجار وأعطاهم الأموال وقال لهم: اشترؤا بها البقر والغنم وبيعوها، ويرتفع ثمنها لبيت المال، ويكون لكم أجره على بيعها ففعلوا ذلك، وفعل مثل هذا في الأثواب التي يؤتى بها من دولة أباد وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر. ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن، فأمر ألا يبيع أحد زرعاً غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها. وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواها وسبب ذلك إنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه، فركب يوماً إلى الصيد وهو معه، وأضمر في نفسه أن يفعل ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل للغداء، رماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه، فقال له العبيد: إنه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب، واجتمعت العساكر عليه، وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به إليه فقتله، وكان بعد ذلك لا يركب. وكان له

من الأولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان، وهو قطب الدين الذي ولي الملك، وشهاب الدين. وكان قطب الدين مهتضاً عنده ناقص الحظ قليل الخطوة وأعطى جميع إخوته المراتب، وهي الأعلام والأطبال، ولم يعطه شيئاً؛ وقال له يوماً، لا بد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك فقال له: الله هو الذي يعطيني فهال أباه هذا الكلام وفزع منه. ثم إن السلطان اشتد عليه المرض، وكانت زوجته أم ولده خضر خان، وتسمى ماه حق، والماء القمر بلسانهم، لها أخ يسمى سنجر، فعاهدت أباها على تملك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان، وكان يسمى الألفي، لأن السلطان اشتراه بألف تنكة، وهي ألفان وخمسة مائة من دنانير المغرب، فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه، فقال لخواصه إذا دخل علي سنجر فإني معطيه ثوباً، فإذا لبسه، فأمسكوا بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائباً، بموضع يقال له: سندبت، على مسيرة يوم من دهلي، توجه لزيارة شهداء مدفونين به، لنذر كان عليه أن يمشي تلك المسافة راجلاً ويدعو لوالده بالراحة. فلما بلغه أن أباه قتل خاله حزن عليه حزناً شديداً ومزق جيبه، وتلك عادة لأهل الهند يفعلونها إذا مات لهم من يعز عليهم، فبلغ والده ما فعله فكره ذلك، فلما دخل عليه عنفه ولامه، وأمر به فقيدت يداه ورجلاه، وسلمه لملك نائب المذكور، وأمره أن يذهب إلى حصن كاليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضاً كيالير بزيادة ياء ثانية، وهو حصن منقطع بين كفار الهند منيع على مسيرة عشر من دهلي، وقد سكنته أنا مدة، فلما أوصله إلى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن، وللمفردين وهم الزماميون، وقال لهم: لاتقولوا هذا ابن السلطان فتكروه، إنما هو أعدى عدو له، فاحفظوه كما يحفظ العدو. ثم إن المرض اشتد بالسلطان فقال الملك نائب: ابعث من يأتي بابني خضر خان لأوليه العهد: فقال له

نعم وماطله بذلك فمتى سأل عنه ، قال : هو ذا يصل إلى أن توفي السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه السلطان شهاب الدين

ولما توفي السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس ، وتغلب ملك نائب عليه ، وسمل أعين أبي بكر خان وشادي خان ، وبعث بها إلى كاليور ، وأمر بسمل عيني أخيها خضر خان المسجون هنالك ، وسجنوا وسجن قطب الدين ، لكنه لم تُسمل عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما ببشير والآخر بمبشر ، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين ، وهي بنت السلطان معز الدين ، فذكرتهما بنعمة مولاها ، وقالت : إن هذا الفتى ملك نائب قد فعل في أولادي ما تعلمانه ، وأنه يريد أن يقتل قطب الدين . فقالا لها : سترين ما نفعل ، وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح ، فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام في أيام المطر فوق سطح القصر ، فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه وردة إليه ، فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه ، واحتزا رأسه وأتيا به إلى مجلس قطب الدين ، فرمياه بين يديه ، وأخرجاه . فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياماً كأنه نائب له ، ثم عزم خلعه فخلعه .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع إصبه ، وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته . واستقام الملك لقطب الدين . ثم إنه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي إلى دولة أباد ، وهي على مسيرة أربعين يوماً منها . والطريق بينهما

تكنفه الأشجار من الصفصاف وسواه. فكان الماشي به في بستان. وفي كل ميل منه ثلاث داوات، وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه، وفي كل داوة جميع ما يحتاج المسافر إليه. فكانه يمشي في سوق مسيرة ستة أشهر. وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر، فلا يفتقر الفقير إلى حل زاد في ذلك الطريق. ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضرخان المسجون، وسنه نحو عشرة أعوام، وكان مع السلطان. فبلغ السلطان ذلك، فأخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه، وضرب برأسه إلى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الأمراء ويسمى ملك شاه إلى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعاً. فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال: قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم، وكنت عند خضر خان بمحبسه، فلما سمع بقدمه خاف وتغير لونه. ودخل عليه الأمير فقال له: فيم جئت؟ قال: في حاجة خوند عالم. فقال له: نفسي سالمة، فقال: نعم، وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون، وكانوا ثلاثمائة رجل، وبعث عني وعن العدول، واستظهر بأمر السلطان فقرأوه، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه وهو مثبت غير جزع، ثم ضربوا عنق أبي بكرخان وشادي خان، ولما أتوا ليضربوا عنق خضرخان فزع وذهل، وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها، وقتلوه وسحبوهم جميعاً في حفرة بدون تكفين ولا غسل. وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم. وعاشت أم خضرخان مدة، ورأيته بمكة سنة ثمان وعشرين. وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل، وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئراً عليها الأسوار مضافة إلى الحصن، منصوباً عليها المجانيق والرعدات. ويصعد إلى الحصن في طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس. وعند باب الحصن صورة فيل

منحوت من الحجر وعليه صورة فيال. وإذا رآه الإنسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة. وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة، مساجدها ودورها، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب. وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس. وأكثر سوقتها^(١) كفار، وفيها ستائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهاد، لأنها بين الكفار. ولما قتل قطب الدين إخوته واستقل بالملك، ولم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه من خاصته، الحظي لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسروخان ففتك به وقتله واستقل بملكه، إلا أن مدته لم تطل في الملك، فبعث الله عليه أيضاً من قتله بعد خلعه السلطان تغلق، حسبما يشرح كله مستوفى إن شاء الله تعالى إثر هذا ونسطره.

ذكر السلطان خسروخان ناصر الدين

وكان خسروخان من أكبر أمراء قطب الدين، وهو شجاع حسن الصورة، وكان فتح بلاد جنديري وبلاد المعبر، وهي من أخصب بلاد الهند. وبينهما وبين دهلي مسيرة ستة أشهر. وكان قطب الدين يحبه حباً شديداً ويؤثره، فجر ذلك حتفه على يديه. وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان، وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) دار، وهو صاحب مفاتيح القصر. وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة، وهم ألف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال، ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر، وسلاح كل واحد منهم بين يديه، فلا يدخل أحد إلا فيما بين سماطهم. وإذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار. ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر. وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان، ويسوءه ما يراه من إثارة لكفار الهنود وميله إليهم، وأصله منهم. ولا يزال يلقي ذلك إلى السلطان

(١) عوامها.

فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد ، لما أراد الله من قتله على يده . فلما كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان : إن جماعة من الهنود يريدون أن يسلموا . ومن عاداتهم بتلك البلاد أن الهندي إذا أراد الإسلام أدخل إلى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره ، فقال له السلطان : اثني بهم . فقال : إنهم يستحيون أن يدخلوا إليك نهراً لأجل أقربائهم وأهل ملتهم . فقال له : اثني بهم ليلاً . فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم ، فيهم أخوه خان خانان ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينام فوق سطح القصر ، ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلا بعض الفتيان . فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكو السلاح ووصلوا إلى الباب الخامس ، وعليه قاضي خان ، أنكر شأنهم ، وأحس بالشر . فمنعهم من الدخول وقال : لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسه الإذن في دخولهم ، وحينئذ يدخلون . فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه . وعلت الضجة بالباب ، فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليسلموا ، فمنعهم قاضي خان من الدخول . وزاد الضجيج ، فخاف السلطان وقام يريد الدخول إلى القصر ، وكان بابه مسدوداً ، والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه . وكان السلطان أقوى منه فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هوذا فوقي فاقتلوه ، فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه . وبعث خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلما دخلت طائفة وجده على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره ، وكتب المراسم وهي الأوامر إلى جميع البلاد . وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعاً . وأذعنوا إلا تغلق شاه ولد السلطان محمد شاه ، وكان إذا ذاك أميراً بديال بور ، من بلاد السند . فلما وصلت خلعة خسرو خان طرحها بالأرض ، وجلس فوقها . وبعث إليه أخاه خان خانان فهزمهم . ثم آل أمره إلى أن قتله كما سنشرحه في أخبار تغلق .

ولما ملك خسروخان اثر الهنود، وأظهر أموراً منكراً، منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود، فإنهم لا يميزون ذبحها، وجزاء من ذبحها عندهم أن يحاط في جلدها ويحرق. وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة، وللأستشفاء إذا مرضوا. ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها. وكان ذلك مما بغض خسروخان إلى المسلمين وأماهم عنه إلى تغلق، فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سذكروه.

ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوطة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله ابن الولي الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشي الملتاني بزوايته. أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون)، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك. وكان ضعيف الحال، فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار، وكان كُلوانياً له، والكُلواني (بضم الكاف المعقود) هو راعي الخيل (جلوبان)، وذلك على أيام السلطان علاء الدين، وأمير السند إذ ذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) فخدمه تغلق، وتعلق بجانبه، فرتبه في البيأة (بكسر الباء الموحدة وفتح الباء آخر الحروف)، وهم الرجالة. ثم ظهرت نجابته فأثبت في الفرسان، ثم كان من الأمراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله. ثم كان بعد ذلك من الأمراء الكبار، وسمي بالملك الغازي، ورأيت مكتوباً على مقصورة الجامع بملتان، وهو الذي أمر بعملها، إني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرة، فهزمتهم. فحينئذ سُميتُ بالملك الغازي. ولما ولي قطب الدين ولاه مدينة

دَبَال بور وعماقتها (وهي بكسر الدال المهمل وفتح الباء الواحدة)، وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله، وكان يسمى جَوَنَه (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمى بمحمد شاه. ثم لما قتل قطب الدين وولي خسرو خان أبقاه الله على إمارة الخيل. فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال، وكتب إلى كشلو خان، وهو يومئذ بملتان، وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام، يطلب منه القيام بنصرته، ويذكره نعمة قطب الدين، ويحرضه على طلب ثأره. وكان ولد كشلو خان بدهلي فكتب إلى تغلق أنه لو كان ولدي -سدي لأعنتك على ما تريد. فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه، ويأمره أن يفر إليه ويستصحب معه ولد كشلو خان، فأدار ولده الحيلة على خسرو خان. وتمت له كما اراد، فقال له: إن الخيل قد سمت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضمير، فأذن له في تضميرها. فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث، واستمر إلى أربع ساعات، إلى أن غاب يوماً إلى وقت الزوال، وذلك وقت طعامهم، فأمر السلطان بالركوب في طلبه، فلم يوجد له خبر. ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلو خان. وحينئذ أظهر تغلق الخلاف، وجمع العساكر وخرج معه كشلو خان في أصحابه، وبعث السلطان أخاه خان خانان لقاتلها، فهزماه شر هزيمة، وفر عسكره إليهما، ورجع خان خانان إلى أخيه، وقتل أصحابه، وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي.

وخرج إليه خسرو خان في عساكره، ونزل بخارج دهلي بموضع يعرف بآصيا اباد (آسياباد) ومعنى ذلك رحى الريح، وأمر بالخزائن ففتحت، وأعطى الأموال بالبدر، لا بوزن ولا عد. ووقع اللقاء بينه وبين تغلق، وقاتلت الهنود أشد قتال. وانهزمت عساكر تغلق، ونهبت محلته، وانفرد في أصحابه الأقدمين

الثلاثمائة، فقال لهم: إلى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا، واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب، وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل. فقصده تغلق وأصحابه موقفه، والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه، وهو الذي يسمى بديار مصر القبة، والطير، ويرفع بها في الأعياد. وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر. فلما قصده تغلق وأصحابه حمي القتال بينهم وبين الهنود. وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد، وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه، وبقي في قميص واحد، وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند، ودخل بستاناً هنالك. واجتمع الناس على تغلق، وقصد المدينة، فأتاه الكتوال بالمفاتيح، ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلو خان: أنت تكون السلطان. فقال كشلو خان: بل أنت تكون السلطان. وتنازعا، فقال له كشلو خان: فإن أبيت أن تكون سلطاناً فيتولى ولدك. فكره هذا، وقبل حينئذ، وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام، ولما كان بعد ثلاث اشدد الجوع بجسرو خان، وهو محتف بالبستان، فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاماً فلم يكن عنده فأعطاه خاتمه وقال: اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم إلى السوق أنكر الناس أمره ورفعوه إلى الشحنة وهو الحاكم فأدخله على السلطان تغلق فأعلمه بمن دفع إليه الخاتم. فبعث ولده محمداً ليأتي به فقبض عليه وأتاه به راكباً على تتو (بتائين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة)، وهو البرذون. فلما مثل بين يديه قال له: إني جائع فأتني بطعام. فأمر له بالشربة ثم الطعام ثم بالقفاح ثم بالتنبول. فلما أكل قام قائماً وقال: يا تغلق افعل معي فعل الملوك، ولا تفضحني. فقال له: لك ذلك. وأمر به فضربت رقبتة وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين، ورمي برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين، وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه. ودفن في مقبرته، واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام. وكان عادلاً فاضلاً.

ذكر ما رآه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلو واللام وسكون النون وكاف معقودة) وهي على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلي. وبعث معه عسكرياً عظيماً فيه كبار الأمراء، مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلو وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلو والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور والمهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم. فلما بلغ إلى أرض التلنك أراد المخالفة. وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعبيد، فأمره أن يلقي إلى الناس أن السلطان تغلق توفي، وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين إذا سمعوا ذلك. فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكروه الأمراء، وضرب كل واحد منهم طبله وخالف، فلم يبق معه أحد. وأرادوا قتله، فمنعهم منه ملك تمور، وقام دونه. ففر إلى أبيه في عشرة من الفرسان ساهم ياران موافق، ومعناه الأصحاب الموافقون. فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تلنك فعاد إليها. وعلم أبوه بما كان أراد. فقتل الفقيه عبيداً، وأمر بملك كافور المهردار فدق له عمود في الأرض محدود الطرف، وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه، ورأسه، إلى أسفل. وترك على تلك الحال. وفر من بقي من الأمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن، واستقروا عنده.

ذكر مسير تغلق إلى بلاد اللكنوتي وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين. ثم إن شمس الدين توفي، وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه. ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور، بورة، ومعناه بالهندية الأسود، واستولى على الملك، وقتل أخاه

قطلو خان وسائر إخوته. وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق، فتجهز معها لقتال أخيها، وخلف ولده محمداً نائباً عنه في ملكه، وجد السير إلى بلاد اللكنوتي فانتصر عليها، وأسر سلطانها غياث الدين بهادور، وقدم به أسيراً إلى حاضرة ملكه. وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البذواني، ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد إليه، ويعظم خدامه، ويسأله الدعاء. وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه، فقال ابن السلطان لخدامه؛ إذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فأعلموني بذلك. فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه، فلما رآه الشيخ قال: وهبنا لك الملك، ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان. فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده. وكان قد رأى منه أموراً، ونقم عليه استكثاره من شراء الممالك، وإجزاله العطايا، واستجلابه قلوب الناس، فزاد حنقه عليه. وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دهلي بعد سفره ذلك فتوعده. ولما عاد من سفره وقرب من الحاضرة أمر ولده أن يبني له قصرًا، وهم يسمونه الكُشك، (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمى أفغان بور، فبناه في ثلاثة أيام. وجعل أكثر بنائه بالخشب، مرتفعاً على الأرض، قائماً على سواري خشب، وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان، واسمه أحمد بن إياس، كبير وزراء السلطان محمد، وكان إذ ذاك شحنة العمارة. وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط. ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا. واستأذنه ولده في أن يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فأذن له. وحدثني الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ومعها ولد السلطان المؤثر لديه محمود، فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ: ياخوند هذا وقت العصر، انزل فصل. قال لي الشيخ: فنزلت. وأتي بالأفيال من جهة واحدة حسبما دبروه، فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود، قال الشيخ: فسمعت

الضجة، فعدت ولم أصل، فوجدت الكشك قد سقط. فأمر ابنه أن يؤتى
بالفؤوس والمساحي للحفر عنه، وأشار بالإبطاء، فلم يؤت بها إلا وقد غربت
الشمس. فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت. فزعم
بعضهم أنه خرج ميتاً وزعم بعضهم أنه أخرج حياً فأجهز عليه، وحل ليلاً إلى
مقبرته التي بناها خارج البلدة المسماة بتغلق بأباد فدفن بها. وقد ذكرنا
السبب في بنائه لهذه المدينة. وبها كانت خزائن تغلق وقصوره، وبه القصر
الأعظم الذي جعل قراميده مذهبة، فإذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم
وبصيص يمنع البصر من إدامة النظر إليها، واختزن بها الأموال الكثيرة. ويذكر
أنه بنى صهرجياً وأفرغ فيه الذهب إ فراغاً، فكان قطعة واحدة. فصرف جميع
ذلك ولده محمد شاه لما ولي، وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه
جهان في بناء الكشك الذي سقط على تغلق، وكانت حظوته عند ولده محمد شاه
وإيثاره، فلم يكن أحد يدانيه في المنزلة لديه، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء
إلا غيرهم.

ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا
مخالف عليه. وقد قدمنا أنه كان اسمه جونيه. فلما ملك تسمى بمحمد، واكتنى
بأبي المجاهد. وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند، فهو مما أخبرت به وتلقيته
أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة. وأما أخبار
هذا الملك، نعم، نظمها مما شاهدته أيام كوني ببلادته.

ذكر وصفه

هذا الملك أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء . فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي يقتل . وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة ، وحكاياته في الفتك والبطش بذوي الجنايات . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد في أمر لصلاة والعقوبة على تركها . وهو من الملوك الذين اطرقت سعادتهم ، وخرق المعتاد بمن نقيبتهم . ولكن الأغلب عليه الكرم . وسنذكر من أخباره فيه عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً ، وأعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسوغ في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه . لا يسعني إلا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك

ودار السلطان بدھلي تسمى دار سَرَى (بفتح السين المهمل والراء) ، ولها أبواب كثيرة . أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ، ويقعد به أهل الأنفار والأبواق والصرنايات . فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، ويقولون في ضربهم : جاء فلان . وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث . وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس . فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ، ويبقى هنا ثلاثاً . وبين البابين الأول والثاني دهليز كبير ، فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، يقعد عليها أهل التوبة من حفاظ الأبواب . وأما الباب الثاني فيقعد عليه البوابون الموكلون به . وبينه

وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء ، وبين يديه عمود ذهب
يمسكه بيده ، وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهره في أعلاها ريش الطواويس ،
والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة ، وفي وسطه منطقة ،
وييده سوطاً نصابه من ذهب أو فضة ، ويفضي هذا الباب الثاني إلى مشور كبير
متسع يقعد به الناس . وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب .
ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك .
ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه . وناسه يدخلون معه . وكل من يأتي إلى هذا
الباب يكتب الكتاب أن فلاناً جاء في الساعة الفلانية من الساعات إلى آخر
النهار ، ويطلع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة . ويكتبون أيضاً بكل ما يحدث
من الباب من الأمور . وقد عين من أبناء الملوك من يوصل ما يكتبونه إلى
السلطان . ومن عوائدهم أيضاً أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعداً
لعذر أو لغير عذر ، فلا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن من السلطان . فإن كان
له عذر من مرض أو غيره ، قدم بين يديه هدية مما يناسب إهداءها إلى السلطان .
وكذلك القادمون من الأسفار . فالفقيه يهدي المصحف والكتاب ، وشبه الفقير
يهدي المصلّى والسبحة والمِسْوَاك ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل
والجمال والسلاح . وهذا الباب الثالث يفضي إلى المشور الهائل الفسيح المسمى
هَزَارَ أسطون (بفتح الهاء والزاي وألف وراء) ومعنى ذلك ألف سارية ، وهو
سواري من خشب مدهونة ، عليها سقف خشب منقوش أبدع نقش ، يجلس
الناس تحتها . وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

ذکر ترتیب جلوسه

أكثر جلوسه بعد العصر ، وربما جلس أول النهار . وجلوسه على مصطبة
مفروشة بالبياض فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة ، وعن يمينه

متكأً، وعن يساره مثل ذلك. وعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم. فإذا جلس وقف أمامه الوزير، ووقف الكتاب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب، وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه، وهو أدنى الحجاب من السلطان، ثم يتلوه خاص حاجب، ثم يتلوه نائب خاص حاجب، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب وسيد الحجاب، وجماعة تحت أيديهم. ثم يتلو الحجاب النقباء، وهم نحو مائة. وعند جلوس السلطان ينادي الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم: بسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة ويده المذبة يشردها الذباب، ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره، بأيديهم الدرق والسيوف والقسي. ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ويليهِ خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصهاره ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأعيان وهم الغرباء ثم القواد. ثم يؤتى بستين فرساً مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية، فمنها ما هو بشعار الخلافة، وهي التي لجمها ودواثرها من الحرير الأسود المذهب، ومنها ما يكون من الحرير الأبيض المذهب. ولا يركب بذلك غير السلطان، فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال، بحيث يراها السلطان. ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بشياب الحرير والذهب، مكسوة أنيابها بالحديد إعداداً لقتل أهل الجرائم، وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤديه به، ويقومه لما يراد منه، وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة، وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه، وفي أركان هذا الصندوق أربعة أعلام مركوزة. وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤوسها. فإذا خدمت قال الحجاب: بسم الله بأصوات عالية. ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين. وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة

يخدم عند موقف الحجاب، ويقول الحجاب: بسم الله. ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم. فإذا خدم انصرف إلى موقفه من اليمين أو اليسرة لا يتعداه، ومن كان من كفار الهنود يخدم، ويقول له الحجاب والنقباء: هداك الله، ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم، بأيديهم الترسة والسيوف، فلا يمكن الدخول بينهم إلا بين يدي الحجاب القائم بين يدي السلطان.

ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه

وإن كان بالبواب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم، يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه، ثم خاص حاجب ونائبه خلفه، ثم وكيل الدار ونائبه، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب، ويخدمون في ثلاثة مواضع. ويعلمون السلطان بمن في الباب. فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها، فيخدم قبل الوصول إليه ثلاث مرات، ثم يخدم عند موقف الحجاب. فإن كان رجلاً كبيراً وقف في صف أمير حاجب، وإلا وقف خلفه. ويخاطبه السلطان بنفسه أطف خطاب ويرحب به. وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصافحه أو يعانقه، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه. فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده، وأظهر استحسانها جبراً لخاطر مهديها وإيناساً له ورفقاً به، وخلع عليه، وأمر له بماء لغسل رأسه، على عاداتهم في ذلك بمقدار ما يستحقه المهدي.

ذكر دخول هدايا عماله إليه

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجاني البلاد صنعوا الأواني من

الذهب والفضة مثل الطسوت والأباريق رسواها، وصنعوا من الذهب والفضة قطعاً شبه الآجر يسمونها الخِشْت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوّة)، ويقف العراشون، وهن عبّيد السلطان صفّاً، والهدية بأيديهم. كل واحد منهم ممسك قطعة، ثمّ يقدم الفيلة إن كان في الهدية شيء منها، ثمّ الخيل المسرّجة الملحمة، ثمّ الجمال عليها الأموال. ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة أباد، ولقيه بها في ظاهر مدينة بيانة، فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب. ورأيت في جلّتها صينية مليئة بأحجار الياقوت وصينية مليئة بأحجار الزمرد وثالثة باللؤلؤ الفاخر. وكان حاجي كاوان ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرّاً عنده حين ذلك، فأعطاه حظّاً منها. وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ذكر خروجه للعبيدين وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التي تعمهم جميعاً. فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر، ويكون منها ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد، إنما هي مختصة بركوب السلطان. ويرفع عليها ست عشر شطراً (جتراً) من الحرير مرصعة بالجواهر، قائمة كل شطر منها ذهب خالص. وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر. ويركب السلطان فيلاً منها، وترفع أمامه العاشية وهي ستارة سرجة، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر. ويمشي بين يديه عبّيده ومماليكه. وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وبعضهم يرصعها بالجواهر. ويمشي بين يديه أيضاً النقباء، وهم نحو ثلثائة. وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وفي يده مفرعة نصابها ذهب،

ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة، كل واحد منهم على مطية، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين، ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون. ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب، والعساكر تنتظره، كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه، فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى، وخلف السلطان مراتبه وهي الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات، وخلفهم جميع أهل دخلته، ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره، ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك مجير بن ذي الرجا بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك الكبير قُبُولَة بمراتبه وعساكره، وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال، أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصري المعروف بابن الشرايشي أن نفقته ونفقة عبيده ومراتبهم ستة وثلاثون لكَأ في السنة، ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره، وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب، ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب. وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعاً هو وفرسه. وأكثر مماليك السلطان؛ فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه، وأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة، ثم ينزل السلطان، ويصلي الإمام ويخطب. فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيْزَة (بكسر النون وفتح الزاي) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة توقياً من اندم، ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره.

ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى

ويفرش القصر يوم العيد، ويزين بأبدع الزينة. وتضرب الباردة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة، تقوم على أعمدة ضخام كثيرة، تحفها القباب من كل ناحية، ويصنع به أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور. ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة، وينصب السرير الأعظم في صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك، وهو منفصل، وتجمع قطعه فتتصل، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب، وتجعل فوق المرتبة، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان. وعندما يصعد على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصوات عالية: بسم الله. ثم يتقدم الناس للسلام. فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأقاربه وأصحابه، ثم الأعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الأجناد. يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع. ومن عوائدهم في يوم العيد أن كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتي بدنانير ذهب مصرورة في خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقبها في طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء.

فإذا فرغ الناس من السلام، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم، وينصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى، وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها. وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال، وفي داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون بوقود العود القهاري والقاقلي والعنبر الأشهب والجاوي، حتى يعم دخانها المشور كله. ويكون بأيدي الفتیان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر، يصبونه على الناس صباحاً. وهذا

السريير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا في العيدين خاصة . ويجلس السلطان في بقية أيام العيد على سريير ذهب دون ذلك . وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب ، يجلس السلطان في داخلها . ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتيز ، وعلى الباب الثاني الملك نكبية ، وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية ، وعن اليسار كذلك . ويقف الناس على مراتبهم ، وشحنة الباركة ملك طغى بيده عصا ذهب ، وبيد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ، ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ، ثم يأتي أهل الطرب ، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسيبات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للأمراء والأعزة ، ثم يأتي بعدهن سائر بنات الكفار ، فيغنين ويرقصن ويهبهن لإخوته وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ، ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر . ثم يجلس في اليوم الذي بعده بعد العصر أيضاً على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لأمراء المماليك . وفي اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم . وفي اليوم الرابع يعتق العبيد . وفي اليوم الخامس يعتق الجواري . وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجواري ، وفي اليوم السابع يعطي الصدقات ويكثر منها .

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

وإذا قدم السلطان من أسفاره ، زينت الفيلة ، ورفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطراً ، منها مزركش ومنها مرصع ، وحملت أمامه الغاشية ، وهي الستارة المرصعة بالجواهر النفيس ، وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات ، وتكسى بشياب الحرير . ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات ، عليهن أجل لباس وأحسن حلية ، ومنهن رواقص . ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير ، مصنوع من الجلود ، مملوء بماء الجلاب محلولاً بالماء ، يشرب منه جميع الناس من

وارد وصادر وبلدي أو غريب، وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل، ويكون ما بين القباب مفروشاً بشباب الحرير، يطأ عليها مركب السلطان. وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بشباب الحرير. ويمشي أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف. وتكون الأفواج والعساكر خلفه. ورأيته في بعض قدماته على الحضرة، وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة، ترمي بالدنانير والدراهم على الناس، فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى وصل إلى قصره.

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين: طعام الخاص وطعام العام. فأما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه. وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين، ويحضر لذلك الأمراء والخووص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز، وأمير مجلس. ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعيان أو كبار الأمراء دعاه فأكل معهم. وربما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين، فأخذ إحدى الصحف بيده، وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها، فيأخذها المعطى، ويجعلها على كفه اليسرى، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض. وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس، فيخدم كما يصنع الحاضرون، ويأكله مع من حضره. وقد حضرت مرات الطعام الخاص، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً.

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ، وأمامه النقباء يصيحون: بسم الله. ونقيب النقباء أمامهم، بيده عمود ذهب، ونائبه معه بيده عمود فضة، فإذا

دخلوا من الباب الرابع، وسمع من بالمشور أصواتهم، قاموا قياماً أجمعين، ولا يبقى أحد قاعداً إلا السلطان وحده. فإذا وضع الطعام بالأرض، اصطفت النقباء صفاً، ووقف أميرهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثني عليه، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته، ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير. وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف إن كان ماشياً، ولزم موقفه إن كان واقفاً، ولا يتحرك أحد، ولا يتزحزح عن مقامه، حتى يفرغ ذلك الكلام. ثم يتكلم أيضاً نائبه كلاماً نحو ذلك، ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية. وحينئذ يجلسون، ويسب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام. وإن كان السلطان قد علم بحضوره، ويعطي المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك، فيأتي به إلى السلطان فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس وإطعامهم. وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء، والأرز والدجاج والسمك، وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم، أن يكون في صدر سباط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ، ثم أقارب السلطان، ثم الأمراء الكبار، ثم سائر الناس. ولا يقعد أحد إلا في موضع معين له، فلا يكون بينهم تزاحم ألبتة. فإذا جلسوا أتي الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء، فيشربون ذلك قبل الطعام. فإذا شربوا، قال الحجاب: بسم الله، ثم يشرعون في الأكل ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوي عليه السباط، يأكل منه وحده، ولا يأكل أحد مع أحد من طبق واحد. فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع في أكواز القصدير. فإذا أخذه قال الحجاب: بسم الله، ثم يؤتى بأطباق التنبول والفوفل، فيعطى كل واحد غرفة من الفوفل المهشوم، وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر. فإذا أخذ الناس التنبول

قال الحجاب: بسم الله، فيقفون جميعاً، ويخدم الأمير المعين للإطعام، ويخدمون لخدمته، ثم ينصرفون. وطعامهم مرتان في اليوم الواحد إحداها قبل الظهر والأخرى بعد العصر.

ذكر بعض أخباره في الجود والكرم

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعايته، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول، وكفى به شهيداً. مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر. والبلاد التي تقرب من أهل الهند كاليمين وخراسان وفارس مملوءة بأخباره، يعلمونها حقيقة، ولا سيما جوده على الغرباء، فإنه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم، ويجزل لهم الإحسان، ويسبغ عليهم الإنعام، ويوليهم الخطط الرفيعة، ويوليهم المواهب العظيمة. ومن إحسانه إليهم أن ساهم الأعزّة، ومنع من أن يدعوا الغرباء، وقال: إن الرجل إذا دعي غريباً انكسر خاطره وتغير حاله. وسأذكر بعضاً مما لا يحصى من عطايه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى.

ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني وحكايته

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازروني الملقب ببرويز. وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنباية، ووعد أن يوليه الوزارة. فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه، فأتاه، وأعد هدية للسلطان، وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب، وصيوان مما يناسبها، وخباء وتابع وخباء راحة، كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة. فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجارة، وجده آخذاً في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابي بلاده وبهدية للسلطان.

وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة، فغار من ذلك وقلق بسببه. وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير، لأهلها تعلق بجانبه وانقطاع إليه وتخدم له. وأكثرهم كفار، وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال. فدس الوزير إليهم أن يضربوا على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة.

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته، نزلوا يوماً عند الضحى على عادتهم، وتفرقت العساكر، ونام أكثرهم. فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم، فماتوا ملك التجار، وسلبوا الأموال والخزائن وهديت شهاب الدين، ونجا هو بنفسه. وكتب المخبرون إلى السلطان بذلك، فأمر ان يعطى شهاب الدين من مجي بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار، ويعود إلى بلاده. فعرض عليه ذلك، فأبى من قبوله، وقال: ما قصدي إلا رؤية السلطان وتقبيل الأرض بين يديه. فكتبوا إلى السلطان بذلك، فأعجبه قوله، وأمر بوصوله إلى الحضرة مكرماً. وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه، فخلع علينا جميعاً وأمر بإنزالنا. وأعطى شهاب الدين عطاء جزلاً. فلما كان بعد ذلك أمر لي السلطان بستة آلاف تنكة، كما سنذكره، وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو؟ فقال له بهاء الدين ابن الفلكي: يا خوند عالم نميدا ثم، معناه ما ندري، ثم قال شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت أن به مرضاً. فقال له السلطان: بروهمين زمان در خزانه يك لك تنكة زربكزي أوبيش أوبيري تادل أوخش (خوض) شود، معناه إمش الساعة إلى الخزانه، وخذ منها مائة الف تنكة من الذهب، واحملها إليه، حتى يبقى خاطره طيباً. ففعل ذلك، فأعطاه إياها. وأمر السلطان أن يشتري بها ما أحب من السلع الهندية، ولا يشتري أحد من الناس شيئاً حتى يتجهز هو، وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها، ومن مرتب البحرية وزادهم، ليسافر فيها. فسافر ونزل بجزيرة هرمز، وبني بها داراً عظيمة،

رأيتها بعد ذلك ، ورأيت أيضا شهاب الدين وقد فني جميع ما كان عنده ، وهو بشيراز يستجدي سلطانها أبا إسحاق ، وهكذا مال هذه البلاد الهندية ؛ قلما يخرج أحد منها إلا النادر ، وإذا خرج به وصل إلى غيرها من البلاد ، بعث الله عليه آفة تفني ما بيده ، كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا ، فإنه أخذ له في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابني أخيه جميع ما عنده ، وخرج سلباً من ماله .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قديراً بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند ، اعتقاداً منه في الخلافة فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه ، بالغ في إكرامه ، وأعطاه عطاء جزلاً . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالاً طائلة . وفي جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص ، وقال له : إذا نزلت من البحر فأنزل أفراسك بها . فتوجه إلى كنباية ليركب البحر منها إلى بلاد اليمن ، ف وقعت قضية خروج القاضي جلال الدين ، وأخذ مال ابن الكولمي ، فأخذ أيضاً ما كان لشيخ الشيوخ ، وفر بنفسه مع ابن الكولمي إلى السلطان . فلما رآه قال له ممازحاً : أمدى كزر (كه زر) بري بادكري (دالر باي) صنم خرى زر نيري وسر نهي ، معناه جئت لتحمل الذهب ، وتأكله مع الصور الحسان . فلا تحمل ذهباً ، ورأسك تخليه ها هنا . قال له ذلك على معنى الانبساط ، ثم قال له : اجمع خاطرك فهذا أنا سائر إلى المخالفين ، وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك . وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وفي بما وعده ، وأخلف له ما ضاع منه ، وأنه وصل إلى ديار مصر .

ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين

وكان هذا الفقيه قدم على السلطان، وأقام تحت إحصانه مدة عام. ثم أراد الرجوع إلى وطنه، فأذن له في ذلك، ولم يكن سمع كلامه ووعظه. ولما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر، أحب سماعه قبل انصرافه. فأمر أن يهيا له منبر من الصندل الأبيض المقاصري، وجعلت مساميره وشفائحه من الذهب، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم، وخلع على ناصر الدين عباءة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجواهر وعمامة أيضاً، ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي أفراج. وقعد السلطان على سريره، والخواص عن يمينه ويساره، وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم. فخطب خطبة عظيمة ووعظ وذكر، ولم يكن فيما فعله طائل، لكن سعادته ساعدته. ولما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه، وكنت في جمعهم إلى سراجة. ضربت له مقابلة سراجة السلطان وكلها من الحرير الملون، وصيوانها من الحرير، وخبأها كذلك. فقعد وقعدنا معه. وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطها له. وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد، وقدران اثنتان وصحاف لا أذكر عددها وعدة أكواز وركوة وتميسدة ومائدة لها أربع أرجل ومحمل للكتب، كل ذلك من ذهب. ورفع عماد الدين السمنائي وتدين من أوتاد السراجة، أحدهما نحاس والثاني مقصدر. يوهم بذلك أنها من ذهب وفضة، ولم يكونا إلا كما ذكرنا. وقد كان أعطاه حين قدومه مائة الف دينار دراهم، ومثتين من العبيد، سرحَ البعض وحمل البعض.

ذكر عطائه لعبد العزيز الأردولي

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثاً، قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية، وبرهان الدين بن البركح، وجمال الدين المزي، وشمس الدين الذهبي وغيرهم. ثم

قدم على السلطان، فأحسن إليه وأكرمه. واتفق يوماً أنه سرد عليه أحاديث في كرم العباس وابنه رضي الله عنهما، وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادهما. فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس، وقبّل قدمي الفقيه، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة، فصبها عليه بيده، وقال: هي لك مع الصينية. وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

ذكر عطائه لشمس الدين الأندكاني

وكان الفقيه شمس الدين الأندكاني حكيمًا شاعرًا مطبوعًا، فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي، وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتًا، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم. وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم، وهو عشر عطاء السلطان.

ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري

وكان عضد الدين فقيهاً إماماً فاضلاً كبير القدر عظيم الصيت شهر الذكر ببلاده. فبلغت السلطان أخباره، وسمع بمآثره. فبعث إليه إلى بلده شونكاراة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه.

ذكر عطائه للقاضي مجد الدين

ولما بلغه خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الأول، وسير بعض خبره. وبعد هذا بعث إليه إلى مدينة شيراز، صحبة الشيخ زاده دمشقي عشرة آلاف دينار دراهم.

ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغر جي

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه. حتى أنه كثيراً ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس. فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصل إلى حضرته. فقبل الدنانير وقضى دينه منها، وتوجه إلى بلاد الخطا، وأبى أن يصل إليه، وقال: لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه.

ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان ابي سعيد ملك العراق، وكان أخوه موسى ملكاً ببعض بلاد العراق. فوفد حاجي كاون على السلطان، فأكرم مثواه، وأعطاه العطاء الجزل. ورأيته يوماً وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته. وكان منها ثلاث صينيات، إحداها مملوءة يواقيت، والأخرى مملوءة زمرداً، والأخرى مملوءة جواهر. وكان حاجي كاون حاضراً، فأعطاه من ذلك حظاً جزيلاً، ثم إنه اعطاه أيضاً مالاً عريضاً، ومضى يريد العراق، فوجد أخاه قد توفي، وولي مكانه سليمان خان. فطلب إرث أخيه، وادعى الملك، وبابعه العسكر، وقصد بلاد فارس، ونزل بمدينة شونكاره التي بها الإمام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفاً. فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة، ثم خرجوا. فقال لهم: ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروا له. فلم يقبل منهم، وقال لأهل سلاحه: قلنج تجار (جقار) معناه جردوا السيوف. فجردوها، وضربوا أعناقهم، وكانوا جماعة كبيرة. فسمع من مجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله، فغضبوا لذلك، وكتبوا إلى شمس الدين السمناني، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار، فأعلموه بما جرى على أهل شونكاره، وطلبوا منه الإعانة على قتاله. فتجرد في عساكره، واجتمع أهل البلاد طالبين بثار من قتله

حاجي كاون من المشايخ، وضربوا على عسكريه ليلاً فهزموه. وكان هو بقصر المدينة، فأحاطوا به، فاختمى في بيت الطهارة، فعضروا عليه وقطعوا رأسه، وبعثوا به إلى سليمان خان، وفرقوا أعضائه على البلاد تشفياً منه.

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وإخباره

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي، قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين، ملك ما وراء النهر، فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضي الله عنها، واستوطن بها أعواماً. ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس، وقيامه بدعوتهم، أحب القدوم عليه، وبعث له برسولين، أحدهما صاحبه القديم محمد ابن أبي الشرفي الحرباوي، والثاني محمد الهمداني الصوفي. فقدموا على السلطان، وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره، قد لقي غياث الدين ببغداد، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك. فلما وصل رسوله إلى السلطان، أعطاهم خمسة آلاف دينار، وبعث معها ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين، ليتزود بها إليه، وكتب له خطاباً بخط يده يعظمه فيه، ويسأل منه القدوم عليه. فلما وصله الكتاب رحل إليه، فلما وصل إلى بلاد السند، وكتب المخبرون بقدومه، بعث السلطان من يستقبله على العادة. ثم لما وصل إلى سرستي بعث أيضاً لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء، ثم بعث الأمراء لاستقباله. فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة، خرج السلطان بنفسه لاستقباله. فلما التقيا ترجل غياث الدين، فترجل له السلطان، وخدم، فخدم له السلطان. وكان قد استصحب هدية في جلته ثياب، فأخذ السلطان أحد الأثواب، وجعله على كتفه، وخدم كما يفعل الناس معه، ثم قدمت الخيل، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له، وحلف أن

يركب، وأمسك بركابه حتى ركب، ثم ركب السلطان وسايره، والشجر يظلهما معاً. وأخذ التنبول بيده، وأعطاه آياه. وهذا أعظم ما أكرمه به. فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له: لولا أني بايعت الخليفة أبا العباس لباعتك. فقال له غياث الدين: وأنا أيضاً على تلك البيعة. وقال له غياث الدين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً: « من أحيا أرضاً مواتاً فهي له » وأنت أحببتنا. فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره. ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان، أنزله فيها. وضرب للسلطان غيرها. وباتا في تلك الليلة بخارج الحضرة. فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك، وأنزله بالمدينة المعروفة بسيري، وبدار الخلافة أيضاً في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي، وابنه قطب الدين. وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمضوا معه إليه، وأعد له فيه جميع ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة، حتى كان من جلته مغتسل يغتسل فيه من ذهب. وبعث له أربعائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة، وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري، وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثمائة دينار، وبعث له زيادة إليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص، وأعطاه جميع مدينة سيري، إقطاعاً. وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه، وأعطاه مائة قرية، وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلي، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة، ويكون علفها من المخزن، وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا موضعاً خاصاً لا يدخله أحد ركباً سوى السلطان وأمر الناس جميعاً من كبير وصغير أن يخدموا له كما يخدمون السلطان. وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره، وإن كان على الكرسي قام قائماً، وخدم كل واحد منها لصاحبه، ويجلس مع السلطان على بساط واحد، وإذا قام السلطان لكيامه، وخدم كل واحد منها لصاحبه، وإذا انصرف إلى خارج المجلس، جعل له بساط يقعد عليه ما شاء، ثم ينصرف، يفعل هذا مرتين في اليوم.

حكاية من تعظيمه اياه

وفي أثناء مقامه بدهلي قدم الوزير من بلاد بنجالة، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله، ثم خرج بنفسه إلى استقباله، وعظمه تعظيماً كثيراً، وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم، وخرج ابن الخليفة للقاءه أيضاً، والفقهاء والقضاة والأعيان. فلما عاد السلطان لقصره، قال للوزير: إمض إلى دار المخدوم زاده، وبذلك يدعوه، ومعنى ذلك ابن المخدوم. فسار الوزير إليه، وأهدى له ألفي تنكة من الذهب وأثواباً كثيرة. وحضر الأمير قبولة، غيره من كبار الأمراء، وحضرت أنا كذلك.

حكاية نحوها

وفد على السلطان ملك غزنة المسمى ببهرام، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فأمر السلطان بإنزاله ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة، وأمر أن يُبني له بها دار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى إلى دار السلطان فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه، وبعث إلى الوزير، فقال له: سلم على خوند عالم، وقل له: إن جميع ما أعطانيه هو بمنزلي، لم أتصرف في شيء منه، بل زاد عندي ونما وأنا لا أقيم معكم، وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري، فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك، فركب من حينه في عشرة من ناسه، وأتى منزل ابن الخليفة، فاستأذن له، ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس، فلتقاه واعتذر له، فقبل عذره، وقال له: السلطان والله ما أعلم أنك راضٍ عني حتى تضع قدمك على عنقي، فقال له: هذا ما لا أفعله ولوقلت. فقال له السلطان وحق رأسي لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه في الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده، فوضعها على عنق السلطان ثم قام

وقال: الآن علمت أنك راضٍ عليّ، وطاب قلبي. وهذه حكاية غريبة لم يُسمع بمثلها عن ملك. ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلج من عند السلطان مفرجة. قد جعل مكان عقد الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير، وقام الملك الكبير بيباه، حتى نزل من قصره، فكساه إياه والذي أعطاه هو ما لا يحصره العد، ولا يحيط به الحد. وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله في البخل أخبار عجيبة، يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم، ولنذكر بعض أخباره في ذلك.

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بيني وبينه مودة، وكنت كثير التردد إلى منزله وعنده تركت ولدًا لي سميته أحمد لما سافرت ولا أدري ما فعل الله بها فقلت له يوماً: لم تأكل وحدك، ولا تجمع أصحابك على الطعام؟ فقال لي: لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي فكان يأكل وحده، ويعطي صاحبه محمد ابن أبي الشرفي من الطعام لمن أحب، ويتصرف في باقيه وكنت أتردد إليه فأرى دهليز قصره الذي يسكن به مظلمًا لا سراج به. ورأيتهُ مراراً يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه، وقد ملأ منها مخازن فكلمته في ذلك فقال لي: يحتاج إليها. وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه ويقول: لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون. وكان علي مرة دين فطَلَبْتُ به فقال لي في بعض الأيام: والله لقد هممت أن أؤدي عنك دَيْنَكَ، فلم تسمح نفسي بذلك، ولا ساعدتني عليه.

حكاية

حدثني مرة قال: خرجت عن بغداد، وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبي الشرفي صاحبه، ونحن على أقدامنا، ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض

القرى، فوجد أحدنا في العين درهما، فقلنا وما نصنع بدرهم، فاتفقنا على أن نشترى به خبزاً، فبعثنا أحدنا لشرائه، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده، وإنما يبيع خبزاً بقيراط، وتبناً بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن، فطرحنا التبن، إذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة، وقد انتهى حالي اليوم إلى ما تراه فقلت له: ينبغي لك أن تحمد الله على ما أولاك، وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال: لا أستطيع ذلك. ولم أره قط يوجد بشيء، ولا يفعل معروفاً، ونعوذ بالله من الشح.

حكاية

كنت يوماً ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند، وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه، فرأيت شاباً ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لي بعض الطلبة: هذا الشاب الذي تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند، فدعوته فقلت له: إني قدمت من بلاد الهند، وإني أعرفك بخبر أبيك فقال: قد جاءني خبره في هذه الأيام ومضى يشتد خلف الرجل، فسألت عن الرجل، فقيل لي: هو الناظر في الحبس، وهذا الشاب هو إمام ببعض المساجد، وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم، وهو يطلب أجرته من الرجل، فطال عجبني منه، والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة إليه من السلطان لأغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال.

ذكر ما أعطاه السلطان للأمير سيف الدين غدا

ابن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مثواه، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي، ويعرف بكشك، لعل معناه القصر الأحمر، وهو قصر

عظيم، فيه مشور كبير جداً، ودهليز هائل، على بابه قبة تشرف على هذا المشور، وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه إلى القصر، وكان السلطان جلال الدين يقعد بها، وتلعب الكرة بين يديه في هذا المشور. وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءاً أثاثاً وفرشاً وبسطاً وغيرها، وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فإن عاداتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه، لا يتعرضون له، ويبنى المتولي بعده قصرأ لنفسه، ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه فكانت لي فيه عبرة، نشأت عنها عبرة وكان معي الفقيه الطيب الأديب جمال الدين المغربي، الغرناطي، البجائي المولد مستوطن بلاد الهند، قدمها مع أبيه، وله بها أولاد فأنشدني عندما عايناه :

وسلاطينهم سلّ الطين عنهم، فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه، كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة في العرب، مؤثراً لهم، معترفاً بفضائلهم فلما وصله هذا الأمير أجزل العطاء، وأحسن إليه إحساناً عظيماً وأعطاه مرة، وقد قدمت عليه، هدية أعظم ملك الباييزيدي من بلاد منكبور، أحد عشر فرساً من عتاق الخيل، وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل، مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة، ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خونده.

ذكر تزوج الأمير سيف الدين باخت السلطان

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله، والمعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين اولها مسكن والآخر مكسور بينها نون آخره سين مهمل)، وعيني للملازمة الأمير غدا، والكون معه في تلك الأيام فأتى الملك فتح الله بالصيوانات، نظلل بها المشورين

بالقصر الأحمر المذكور، وضرب في كل واحد منها قبة ضخمة جداً، وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزي، أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن ممالك السلطان، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران، وذبحت الأنعام والطيور. وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلاً ونهاراً فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر، فزيّنه وفرشته بأحسن الفرش، واستحضر الأمير سيف الدين، وكان عربياً غربياً لا قرابة له، فحفظن به وأجلسنه على مرتبة معينة له، وكان السلطان قد أمر أن تكون ربييته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمته، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله. ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف، وأقام هو مع خواص أصحابه. وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته، وجماعة يكونون من جهة الزوجة. وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها، ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم، ولما كان بعد المغرب أتى إليه بجلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجواهر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشية مثل ذلك، ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدر جهان البخاري، فلم يكن فيها مثل هذه.

ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده، وفي يد كل واحد منهم عصا قد أعدها وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين، وريبول وله رفرف

يغطي وجه المتكلم به وصدرة وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه فأبى من ذلك وكان من عرب البادية، لا عهد له بأمور الملك والحضر فحاولته، وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية، وصرعوا كل من عارضهم، فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله، ودخل إلى المشور، وقد جعلت العروس فوق منبر عال، مزين بالديباج، مرصع بالجوهر، والمشور ملآن بالنساء، والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيماً، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة، حتى صعد، فأعطته التنبول بيدها فأخذه، وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه، ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ، والأطبال والأبواق والأنفار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير، وأخذ بيد زوجته، ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه، وجعلت العروس في محفة وحلها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات وإذا مروا بدار أمير أو كبير، خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرساً مسرجاً ملجماً وبدرة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار، وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر، وكذلك لأهل الطرب. وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطي أحد شيئاً لأهل الطرب، إنما يعطيهم صاحب العرس وأطعم الناس جميعاً ذلك اليوم.

وانقضى العرس، وأمر السلطان أن يعطى للأمير غداً بلاد المالوة والجزرات

وكنباية ونهروالة، وجعل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها، وعظمه تعظيماً شديداً وكان عربياً جافياً، فلم يقدر قدر ذلك، وغلب عليه جفاء البادية، فأداه ذلك إلى النكبة بعد عشرين ليلة من زفاهه.

ذكر سجن الأمير غدا

ولما كان بعد عشرين يوماً من زفاهه اتفق أنه وصل إلى دار السلطان، فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) داريه، وهم الخواص من البوابين، فلم يسمع منه وأراد التقحم، فأمسك البواب بدبوقته، وهي الضفيرة ورده فضربه الأمير بعضا كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الأمراء، يعرف أبوه بقاضي غزنة، وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين، والسلطان يخاطبه بالأدب، ويخاطب ابنه هذا بالأخ فدخل على السلطان، والدم على ثيابه، فأخبره بما صنع الأمير غدا، ففكر السلطان هنيهة ثم قال له: القاضي يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه، ولا بد من الموت عليها، وإنما احتمله لغربتة وكان القاضي كمال الدين بالمشور، فأمر السلطان الملك، تتر أن يقف معها عند القاضي. وكان تتر حاجاً مجاوراً يحسن العربية، فحضر معها، وقال للامير: أنت ضربته أو قل: لا، لقصد أن يعلمه الحجة، وكان سيف الدين جاهلاً مغتراً، فقال: نعم، أنا ضربته وأتى والد المضروب، فرام الإصلاح بينهما، فلم يقبل سيف الدين فأمر القاضي بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشاً ينام عليه، ولا سألت عنه خوفاً من السلطان وخاف أصحابه فودعوا أمواهم.

وأردت زيارته بالسجن، فلقيني بعض الأمراء، وفهم عني أنني أريد زيارته، فقال لي: أو نسيت؟ وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام، وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك، حسبما يقع ذكره، فرجعت ولم أزره وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه فأظهر السلطان أعماله، وأضرب

عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه ، وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث بن ملك الملوك وكانت أخت السلطان تشكوه لأخيها إلى أن ماتت فذكر جواربها أنها ماتت بسبب قهره لها وكان في نسبه مغمز ، فكتب السلطان بخطه يجلي اللقيط ، يعنيه ، ثم كتب ويجلي موش خوار معناه أكل الفئران ، يعني بذلك الأمير غدا لأن عرب البادية يأكلون اليربوع ، وهو شبه الفار ، وأمر بإخراجها فجاءه النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله ، فترادف النقباء في طلبه ، فخرج باكباً ، وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان فبت بها فسألني عن مبيتي بعض الأمراء ، فقلت له : جئت لأتكلم في الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينفي. فقال : لا يكون ذلك. فقلت له : والله لأبيتن بدار السلطان ، ولو بلغ مبيتي مائة ليلة ، حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فأمر برده ، وأمره أن يكون في خدمة الأمير ملك قبولة اللاهوري ، فأقام أربعة أعوام في خدمته . يركب لركوبه ، ويسافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولاً وأقطعه البلاد ، وقدمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوند زاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاءً جزلاً ، وأحسن إليه إحساناً عظيماً ، وبالغ في إكرامه ، ثم زوج ولديه من بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير إذ ذاك غائباً ، فأتى السلطان إلى داره ليلاً ، وحضر عقد النكاح ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق^(١) ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود ، وأخذ السلطان بيده الأثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي

(١) الصداق : ما تصادق عليه المتعاقدان من عقد النكاح ومهره .

وولدي خداوند زاده وقام الأمراء وأبوأن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم
بنفسه، فأمرهم بالجلوس، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه، وانصرف.

حكاية في تواضع السلطان وإنصافه

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب، ودعاه إلى
القاضي، فمضى على قدميه، ولا سلاح معه، إلى مجلس القاضي فسلم وخدم،
وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنه إذا جاءه في مجلسه، فلا يقوم له ولا يتحرك
فصعد إلى المجلس، ووقف بين يدي القاضي. فحكم عليه أن يرضي خصمه من
دم أخيه فأرضاه.

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أنه له قبله حقاً مالياً، فتخاصما في
ذلك عند القاضي، فأصدر الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه.

حكاية مثلها

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب، ورفع به إلى
القاضي فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك، وإلا أمكنه من
القصاص، فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي، وأعطاه عصا،
وقال له: وحق رأسي لتضربني كما ضربتك. فأخذ الصبي العصا، ضربه بها
إحدى وعشرين ضربة، حتى رأيت الكلا (الكلاه) قد طارت على رأسه.

ذكر اشتداده في إقامة الصلاة

وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة، أمراً بملازمتها في الجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنياً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الاسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة، عوقب حتى انتهى إلى عقاب الستائرين الذين يمسون دواب الخدام، على باب المشور، إذا ضيعوا الصلاة، وأمر أن يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء، والصلاة وشروط الاسلام، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والاسواق ويكتبونها.

ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع

وكان شديداً في إقامة الشرع، ومما فعل في ذلك أن أمر أخاه مبارك خان، أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك، مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المخاد، كمرتبة السلطان ويقعد أخو السلطان عن يمينه، فمن كان عليه حق من كبار الأمراء، وامتنع من أدائه لصاحبه، يحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه.

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين

ولما كان في سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم، كل يوم إثنين وخميس برحبة أمام المشور، ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم الا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غيره، ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه، وعين أربعة من كبار

الأمراء يجلسون في الأبواب الأربعة من المشور، لأخذ القصص من المشتكين، والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز خان، فإن أخذ صاحب الباب الأول الرفع من الشاكي فحسن، وإلا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع، وإن لم يأخذه منه، مضى به إلى صدر الجهان قاضي المهابيك، فإن أخذه منه، وإلا شكا إلى السلطان، فإن صحَّ عنده أنه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه، أدبته وكل ما يجتمع من القصص في سائر الأيام، يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة.

ذكر إطعامه في الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند، واشتد الغلاء حتى بلغ من^(١) القمح إلى ستة دنانير، أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر من المخزن، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب، لكل انسان في اليوم، صغيراً وكبيراً حراً وعبداً. وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمّة بأهل الحارات، ويحضرون الناس، ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها.

ذكر فتكات هذا السلطان وما نغم من أفعاله

وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة، كثير التجاسر على إراقه الدماء، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر، وكنت كثيراً ما أرى الناس يقتلون على بابه، ويطرحون هنالك. ولقد جئت يوماً فنفر بي الفرس، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت: ما هذه؟ فقال بعض أصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع. وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة، ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على

(١) المن: جمعه أمنان، كيل أو ميزان، وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً، وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً. عن المنجد في اللغة.

المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مئون فمن كان للقتل قُتل أو للعذاب عُدِّب، أو للضرب ضرب. وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور، ما عدا يوم الجمعة، فإنهم لا يخرجون فيه، وهو يوم راحتهم، ينتظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء.

ذكر قتلة لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان، وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجل صورة رأيتها في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه، وسأله عن ذلك فأقر خوفاً من العذاب فإن من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب، فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب، فأمر به، فضربت عنقه في وسط السوق، وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام على عادتهم. وكانت أم هذا المقتول قد رجعت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين، لاعترافها بالزنا رجها القاضي كمال الدين.

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة

وكان مرة عين حصّة من العسكر، تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار، ببعض الجبال المتصلة بجوز دهلي فخرج يوسف، وخرج معه معظم العسكر وتحلف قوم منهم، فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة، ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك، وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين، فقتلوا.

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده، حسباً قصصنا ذلك، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء،

وكان يواصل أربعة عشر يوماً. وكان السلطانان، قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانته ويتبركان به فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته، فإن عاداته أن يخدم الفقهاء والمشايع والصلحاء، محتجاً أن الصدر الأول رضي الله عنهم، لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلحاء، فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام، فأظهر الإباية والامتناع، فغضب السلطان من ذلك، وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن ينتف لحيته، فأبى ضياء الدين من ذلك، وقال: لا أفعل هذا، فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتف ونفي ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل، فمات بها، ونفي شهاب الدين إلى دولة آباد، فأقام بها سبعة أعوام، ثم بعث عنه، فأكرمه وعظمه، وجعله على ديوان المستخرج، وهو ديوان بقايا العمال، يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد في تعظيمه، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه، ويمثلوا أقواله ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكنك، وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار، معناه شبه الجنة، وأمر الناس بالبناء هنالك، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضرة، فأذن له إلى أرض موات، على مسافة ستة أميال من دهلي فحفر بها كهفاً كبيراً، صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام، وجلب الماء من نهر جون، وعمر تلك الأرض، وجمع مالاً كثيراً من مستغلها لأنها كانت السنون قاحطة، وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان. وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهراً، ويدخلون الغار ليلاً ويسدون على أنفسهم وأنعامهم، خوف سراق الكفار، لأنهم في جبل منيع هنالك، ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها، فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه، وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام، فامتنع من إتيانه فبعث إليه مخلص الملك النذرباري، وكان من كبراء الملوك، فتلطف له في

القول، وحذره بطش السلطان فقال له: لا أخدم ظالماً أبداً فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك فأمر أن يأتي به، فأتى به فقال له: أنت القائل: إني ظالم فقال: نعم، أنت ظالم، ومن ظلمك كذا وكذا، وعدد أموراً منها تخريبه لمدينة، دهلي، وإخراجه أهلها. فأخذ السلطان سيفه، ودفعه لصدر الجهان، وقال: يثبت هذا أي ظالم، واقطع عنقي بهذا السيف فقال له شهاب الدين: ومن يريد أن يشهد بذلك، فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية، رأس الدويدارية، فقيده بأربع قيود، وغلّ يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً، لا يأكل ولا يشرب وفي كل يوم منها يؤتى بها إلى المشور، ويجمع الفقهاء والمشايخ، ويقولون له: إرجع عن قولك فيقول: لا أرجع عنه، وأريد أن أكون في زمرة الشهداء. فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام مخلص الملك، فأبى أن يأكل، وقال: قد رفع رزقي من الأرض ارجع بطعامك إليه فلما أخبر بذلك السلطان، أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أستير) من العذرة، وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور، وهم طائفة من كفار الهنود، فمدوه على ظهره، وفتحوا فمه بالكلبتين، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك. وفي اليوم الذي بعده أتى به إلى دار القاضي صدر الجهان، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعيان فوعظوه، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله، فأبى ذلك. فضربت عنقه، رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للفقهاء المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقهين معه

وكان السلطان في سني القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك، وأن يزرع هنالك زرع، وأعطى الناس البذر، وما يلزم على الزراعة من النفقة، وكلفهم

زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين، فقال: هذا الزرع لا يحصل المراد منه، فوُشي به إلى السلطان فسجنه. وقال له: لأي شيء تدخل نفسك في أمور الملك؟ ثم إنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه في طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء، فقالا له: الحمد لله على خلاصك. فقال الفقيه، الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال: اذهبوا بهذا، يعني عفيف الدين، فاضربوا عنقه حائل، وهو أن يقطع الرأس من الذراع وبعض الصدر، واضربوا أعناق الآخرين فقالوا له: أما هو فيستحق العقاب بقوله، وأما نحن فبأي جريمة تقتلنا؟ فقال: طالما أنكما سمعتم كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه، فقتلوا جميعاً رحمهم الله تعالى.

ذكر قتله أيضاً لفقيهين من أهل السند كانا في خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد، وقال لهما: إنما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما، ويكون هذا الأمير معكما، يتصرف مما تأمرانه به، فقالا له: إنما نكون كالشاهدين عليه، ونبين له وجه الحق ليتبعه. فقال لهما: إنما قصدكما أن تأكلا أموالا وتضيعاها، وتنسبا ذلك إلى هذا التركي الذي لا معرفة له. فقالا له: حاشا لله يا خوند عالم ما قصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوندي، وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما إليه، فقال لهما: السلطان يريد قتلكما. فأقرّا بما قولكما إياه، ولا تعذبا أنفسكما فقال: والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا فقال لزبانته: ذوقوها بعض شيء، يعني من العذاب فبطحا على اقفائهما وجعل على صدر كل واحد منها صفيحة حديد محماة، ثم قلعت بعد هنيهة، فذهب بلحم صدورهما، ثم أخذ

البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسهما أنها لم يقصدا إلا ما قاله السلطان، وأنها مجرمان مستحقان للقتل، فلا حق لها ولا دعوى في دمائها دنيا ولا أخرى، وكتبا خطهما بذلك، واعترفا به عند القاضي، فسجل على العقد، وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار ولو قالوا: أكرهنا لعذبا أشد العذاب، ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم فقتلا رحمهما الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده، المسمى بهود، حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين بن بهاء الدين ابن أبي زكريا المتاني، وجدته الشيخ ركن الدين، معظماً عند السلطان، وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيهاً بالسلطان، وقتل يوم وقية كشلوخان، وسنذكره. ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزوايته فتوفي الشيخ ركن الدين، وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود، ونازعه في ذلك ابن أخي الشيخ ركن الدين، وقال: أنا أحق بميراث عمي، فقدموا على السلطان، وهو بدولة آباد وبينهما وبين ملتان ثمانون يوماً فأعطى السلطان المشيخة هود حسبما أوصى له الشيخ، وكان كهلاً، وكان ابن أخي الشيخ فتى وأكرمه السلطان، وأمر بتضييفه في كل منزل يحله، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان، وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الأمر للحضرة، خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقاءه وكنت فيمن خرج إليه، فتلقيناه وهو راكب في دولة، يحملها الرجال، وخيله مجنوبة، فسلمنا عليه، وأنكرت أنا ما كان من فعله في ركوبه الدولة، وقلت: إنما كان ينبغي له أن يركب الفرس، ويساير من خرج للقاءه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامي، فركب الفرس، واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم

منعه من ركوب الفرس. ودخل الحضرة، وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدداً كثيراً وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة، ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة، ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه. فأعطي قاضي القضاة خمسمائة دينار، وأعطيت أنا مائتين وخمسين ديناراً وهذه عادة لهم في الدعوى السلطانية ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده، ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك. واستقر بزاويته، وأقام بها أعواماً ثم إن عماد الملك، أمير بلاد السند، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وقرابته، يشتغلون بجمع الأموال وإنفاقها في الشهوات، ولا يطعمون أحداً بالزاوية، فنفذ الأمر بمطالبتهم بالأموال فطلبهم عماد الملك بها، وسجن بعضهم، وضرب بعضاً، وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام، حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثيراً من الأموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجواهر والياقوت، بيعا بسبعة آلاف دينار، قيل: إنها كانا لبنت الشيخ هود، وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان، فأمره أن يبعثه ويبعث الذي قبض عليه كليهما في حكم الثقاف^(١)، فلما وصلا إليه، سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هود: أين أردت أن تفر؟ فاعتذر بعذر فقال له السلطان: إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك، فتقول: أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا، وقد فعل السلطان معي كذا، وتأتي بهم لقتالنا. اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

(١) في حكم الثقاف: أي في حكم المتخاصمين.

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين، ساكناً بمدينة كول، منقطعاً للعبادة كبير القدر ودخل السلطان إلى مدينة كول، فذهب عنه فلم يأتته فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف، ولم يره. واتفق، بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات، وبايعه الناس: فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين، فأثنى عليه، وقال: إنه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ فقيده، وقيد أولاده، وقيد قاضي كول، ومحتسبها. لأنه ذكر أنها كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعاً، بعد أن سمل عيني القاضي، وعيني المحتسب. ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجناء فيسألان الناس، ثم يردان إلى السجن، وكان قد بلغ السلطان، أن أولاد الشيخ كانوا يخاطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم، فلما مات أبوهم، أخرجهم من السجن، وقال لهم: لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون. فقالوا له: وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور، فقال أخبرني بمن كان يرى رأي هؤلاء الذين قتلوا، ويفعل مثل أفعالهم فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد، فلما عرض ما أملاه على السلطان قال: هذا يجب أن يخرب البلد اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ الحيدري

وكان الشيخ علي الحيدري ساكناً بمدينة كنباية من ساحل الهند، وهو عظيم القدر، شهير الذكر، بعيد الصيت، ينذر له التجار بالبحر الندور الكثيرة وإذا

قدموا بدأوا بالسلام عليه وكان يكشف بأحوالهم، وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فإذا أتى الشيخ للسلام عليه، أعلمه بما نذر له، وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات، واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الأفغاني وقبيلته بتلك الجهات، بلغ السلطان أن الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين، وأعطاه شاشيته من رأسه، وذكر أيضاً أنه بايعه. فلما خرج السلطان إليهم بنفسه، وانهمز القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت، أحد الوافدين معنا عليه بكنباية، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم، فأحضر الشيخ علي الحيدري بين يديه، وثبت أنه أعطى للقائم شاشيته ودعا له، فحكموا بقتله. فلما ضربه السيف لم يفعل شيئاً وعجب الناس لذلك، وظنوا أنه يعفو عنه بسبب ذلك فأمر سيافاً آخر بضرب عنقه، فضر بها رحمه الله تعالى.

ذكر قتله لطوغان وأخيه

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغاني فوفدا على السلطان، فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلاً وأقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما، وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابهما إلى السلطان فأمر بتوسيطهما، فوسطا وأعطى للذي وشى بهما جميع مالهما، وكذلك عادتهم بتلك البلاد إذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل، أعطى ماله.

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شاباً صغيراً لا نبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان، كما سنذكره، غلب على ابن ملك التجار هذا، فكان في جلته مقهوراً، فلما هزم عين الملك، وقبض الملك عليه وعلى أصحابه،

كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك ، فأمر بهما ، فعلقا من أيديهما في خشب ، وأمر أبناء الملوك ، فرموها بالنشاب حتى ماتا قال الحاجب حواجه أمير علي التبريزي لقاضي القضاة كمال الدين ذلك الشاب ، لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان فقال : هلا قلت هذا قبل موته ، وأمر به فضرب مائتي مفرقة أو نحوها ، وسجن ، وأعطى جميع ماله لأمر السيفين فرأيته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه ، وركب فرسه ، فظننت أنه هو وأقام بالسجن شهوراً ثم سرحه ، وردّه إلى ما كان عليه ، ثم غضب عليه ثانية ، ونفاه إلى خراسان فاستقر بهراة ، وكتب إليه يستعطفه ، فوقع له على ظهر كتابه أكربار آمدي باز (آي) معناه إن كنت تبت فارجع ، فرجع إليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولي خطيب الخطباء بدھلي النظر في خزانة الجواهر في السفر ، فاتفق أن جاء سراق الكفار ليلاً فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشيء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات . رحمه الله تعالى

ذكر تخريبه لدھلي ونفي أهلها وقتل الأعمى والمقعد

ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان إجلاؤه لأهل دھلي عنها ، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ، ويختمون عليها ، ويكتبون عليها ، وحق رأس خوند عالم ، ما يقرأها غيره ويرمونها بالمشور ليلاً فإذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دھلي ، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ومنازلهم ، ودفع لهم ثمنها ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد ، فأبوا ذلك ،

فنادى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم، واختفى بعضهم في الدور فأمر بالبحث عن بقي بها، فوجد عبده بأزقتها رجلين: أحدهما مقعد والآخر أعمى، فأتوا بها فأمر بالمقعد فرمي به في المنجنيق، وأمر أن يجرا الأعمى من دهلي إلى دولة آباد، مسيرة أربعين يوماً فتمزق في الطريق، ووصل منه رجله، ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعاً، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها، فحدثني من أثق به قال: صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره، فنظر إلى دهلي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال: الآن طاب قلبي وتهدن خاطري ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها ووضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا، وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية، ليس بها الا قليل عمارة وقد ذكرنا كثيراً من مآثر هذا السلطان، ومما نقم عليه أيضاً فلنذكر جلاً من الوقائع والحوادث الكائنة في أيامه .

ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته منه على بهادور بوره

ولما ولي السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس، أحضر السلطان غياث الدين بهادور بوره الذي كان أسره السلطان تغلق، فمنّ عليه، وفك قيوده، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة، وصرفه إلى مملكته وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ويكتب اسماهما معاً في السكة، ويخطب لها وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف برباط، يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين إلى مملكته، والتزم ما شرط عليه إلا أنه لم يبعث ابنه، وادعى انه امتنع وأساء الأدب في كلامه فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم وأميرهم دلجي التتري، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشي بالتبن وطيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين كُشْتِ اسبْ (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوّة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين)، فجعله أميراً ببعض النواحي، فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه، وكان شجاعاً بطلاً فبعث السلطان إليه العساكر، فيهم الأمراء الكبار، مثل الملك مجير، والوزير خواجه جهان أمير على الجمع فالتقى الفرسان، واشتد القتال، وضرب كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك كفار، يعرف بالراي كنبيلة والراي عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الأقليم الذي هو به، وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوحة) وهذا الراي له بلاد في جبال منيعة، وهو من أكابر سلاطين الكفار. فلما هرب إليه بهاء الدين، اتبعه عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر، ونفذ ما عنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين: إن الحال قد بلغت لما تراه، وأنا عازم على هلاك نفسي وعيالي ومن تبغي فاذهب أنت إلى السلطان فلان من الكفار، وسماه له فأقم عنده، فإنه سيمنعك وبعث معه من أوصله إليه. وأمر راي كنبيلة بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته: إني أريد قتل نفسي فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهم تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصري وتقبل الأرض بين يديه وترمي بنفسها في النار، حتى هلكن جميعاً، وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراي وادهن بالصندل، ولبس السلاح ما عدا الدرع، وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه، وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ودخل المدينة فأسر أهلها وأسر من أولاد راي كنبيلة أحد عشر ولداً، فأتي بهم

السلطان فأسلموا جميعاً وجعلهم السلطان أمراء ، وعظّمهم لأصالتهم ، ولفعل أبيهم فرأيت عنده منهم نصراً وبختيار والمهردار ، وهو صاحب الخاتم الذي ينجّم به على الماء الذي يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ، ولما قتل راي كنبيلة توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكفار الذي لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راي كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيدون وغلوه وأتوا به فلما أتى به إليه أمر بإدخاله إلى قرابته من النساء فشتمنه وبصقن في وجهه ، وأمر بسلخه ، وهو بقاء الحياة ، فسلخ وطبخ لحمه مع الأرز ، وبعث لأولاده وأهله ، وجعل باقيه على صحفة ، وطرح للفيلة لتأكله فأبت أكله وأمر بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره ، وطيف بهما على البلاد فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلو خان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك . وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعمّ ويخرج لاستقباله إذا وفد من بلاده وأمر كشلو خان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كشلو خان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين ، بعث عنه وعلم كشلو خان أنه يريد عقابه . فامتنع وخالف وأعطى الأموال وجمع العساكر ، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم ، حتى كافأ عسكره عسكر السلطان ، أو أربى عليه كثرة . وخرج السلطان بنفسه لقتاله ، فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر . وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت الشطر عوضاً منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني ، وهو حدثي هذا ، وكان شبيهاً به . فلما حمي القتال ، انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كشلو خان الشطر معتقدين أن السلطان في أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كشلو خان الشطر معتقدين أن السلطان

تحتة، فقتلوا عماد الدين، وشاع في العسكر أن السلطان قتل. فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب، وتفرقوا عنه، ولم يبق معه إلا القليل. فقصده السلطان بمن معه فقتله وجز رأسه. وعلم بذلك جيشه ففروا. ودخل السلطان مدينة ملتان، وقبض على قاضيها كريم الدين، وأمر بسلخه فسلخ، وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه. وقد رأيت معلقاً لما وصلت إلى ملتان. وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخي عماد الدين ولابنه صدر الدين، مائة قرية إنعاماً عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزوايتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكريا، وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر، وكان أهلها قد خالفوا، فأخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها. قال: وأحضر بين يديه القاضي بهاء الخطيب، فأمر بسلخ جلديهما. فقالا: اقتلنا بغير ذلك. فقال لها: يَم استوجبنا القتل؟ فقالا: بمخالفتنا أمر السلطان، فقال لها: فكيف أخالف أنا أمره؟ وقد أمرني أن أقتلكما بهذه القتلة. وقال للمتولين لسلخهما احفروا لها حفراً تحت وجهيها، يتنفسان فيها. فإنهم إذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم. ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان إلى حضرته.

ذكر الواقعة بجبل قراجيل على جيش السلطان

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير، يتصل مسيرة ثلاثة أشهر. وبينه وبين دهلي مسيرة عشر، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار. وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية إلى حرب هذا الجبل، ومعه مائة ألف فارس، ورجاله سواهم كثير، فملك مدينة جديدة (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف)، وهي أسفل الجبل. وملك ما يليها، وسبى وخرّب وأحرق، وفر الكفار إلى أعلى الجبل. وتركوا

بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم. وللجبل طريق واحد، وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل، فلا يجوز فيه إلا فارس منفرد، وخلفه آخر، فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق، وتملكوا مدينة وَرَنَكَل التي بأعلى الجبل، (وضبطها بفتح الواو والراء وسكون النون وفتح الكاف)، واحتوا على ما فيها، وكتبوا إلى السلطان بالفتح، فبعث إليهم قاضياً وخطيباً، وأمرهم بالإقامة. فلما كان وقت نزول المطر، غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسي، فكتب الأمراء إلى السلطان، واستأذنوه في الخروج عن الجبل، والنزول إلى أسفله، بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون. فأذن لهم في ذلك. فأخذ الأمير نكبية الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن، وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها إلى أسفل الجبل. فعندما علم الكفار بخروجهم، قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق، وصاروا يقطعون الأشجار العادية قطعاً، ويطحرونها من أعلى الجبل، فلا تمر بأحد إلا أهلكته. فهلك الكثير من الناس، وأسر الباقون منهم، وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح. ولم يفلت من الجند إلا ثلاثة من الأمراء، كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لها لا أذكره. وهذه الواقعة أثرت في جيش الهند أثراً كبيراً وأضعفته ضعفاً بيناً. وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه، لأن لهم البلاد أسفل الجبل، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه.

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر، وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر، الشريف جلال الدين أحسن شاه، فخالف وادعى الملك لنفسه. وقتل نواب السلطان وعماله، وضرب الدنانير والدراهم باسمه. وكان يكتب في إحدى

صفحتي الدينار سلالة طه ويس، أبو الفقراء والمساكين، جلال الدنيا والدين، وفي الصفحة الأخرى الواثق بتأييد الرحمن، أحسن شاه السلطان. وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله، فنزل بموضع يقال له: كَشْك زر، معناه قصر الذهب، وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس. وفي تلك الأيام أتى بابن أخت الوزير خواجه جهان، وأربعة من الأمراء أو ثلاثة، وهم مقيدون مغلولون. وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور في مقدمته، فوصل إلى مدينة ظهار، وهي على مسيرة أربع وعشرين من دهلي، وأقام بها أياماً. وكان ابن أخته شجاعاً بطلاً، فاتفق مع الأمراء الذين أتى بهم على قتل خاله، والهرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر، وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة، فوشى بهم أحد من أدخلوه في أمرهم إلى الوزير، وكان يسمى الملك نصره الحاجب، وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه، لبسهم الدروع تحت ثيابهم، فبعث الوزير عنهم، فوجدهم كذلك. فبعث بهم إلى السلطان، وكنت بين يدي السلطان حين وصولهم. فرأيت أحدهم وكان طوالاً ألقى^(١)، وهو يرعد، ويتلو سورة يس. فأمر بهم، فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس، وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليقتله، فقتله، وسنذكر ذلك. وتلك الفيلة التي تقتل، تكسى أنيابها بجذائد مسنونة شبه سلك الحرث، لها أطراف كالسكاكين. ويركب الفيال على الفيل، فإذا رمى الرجل بين يديه لف عليه خرطوم، ورمى به إلى الهواء، ثم يتلقفه بنابيه ويطره بعد ذلك بين يديه، ويجعل يده على صدره، ويفعل به ما يأمره الفيال، على حسب ما أمره السلطان. فإن أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعاً بتلك الجذائد، وإن أمر بتركه، تركه مطروحاً فسلخ. وكذلك فعل بهؤلاء. وخرجت من دار السلطان بعد المغرب

(١) أي: طويل القامة، ملتجياً.

فرايت الكلاب تأكل لحومهم. وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله. ولما تجهبز السلطان لهذه الحركة أمرني بالإقامة بالحضرة، كما سنذكره، ومضى في سفره إلى أن بلغ دولة آباد. فثار الأمير هلاجون ببلاده، وخرج ذلك. وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضاً بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر.

ذكر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان إلى دولة آباد، وبعد عن بلاده، ثار الأمير هلاجون بمدينة لاهور، وادعى الملك، وساعده الأمير قلجند على ذلك، وصيره وزيراً له. واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان، وهو بدھلي، فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين، وكل من كان مقيماً من الخدام بدھلي أخذ أصحابه، وأخذ في الجملة أصحابي لأنني كنت بها مقيماً وأعانه السلطان بأمرين كبيرين أحدهما قيران ملك صفدار، ومعناه مرتب العساكر، والثاني الملك تمور الشريدار وهو الساقي، وخرج هلاجون بعساكره، فكان اللقاء على ضفة أحد الأدوية الكبار. فانهزم هلاجون وهرب، وغرق كثير من عساكره في النهر. ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل. وكان الذي تولى قتلهم محمد ابن النجيب نائب الوزير، وهو المعروف بأجدر ملك، ويسمى أيضاً صك (سك) السلطان والصك عندهم الكلب. وكان ظالماً قاسي القلب. ويسميه السلطان أسد الأسواق. وكان ربما عض أرباب الجنائيات بأسنانه شرهاً وعدواناً. وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة إلى حصن كالپور، فسُجِنَ به. ورأيت بعضهن هنالك. وكان أحد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل إليها حتى ولدت منه في السجن.

ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التلنك، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر، نزل مدينة بَدْرَكُوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة)، وهي قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة)، وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر. ووقع الوباء إذ ذاك في عسكره، فهلك معظمهم، ومات العميد والمهاليك وكبار الأمراء مثل ملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعم، ومثل أمير عبدالله الهروي، وقد تقدمت حكايته في السفر الأول، وهو الذي أمر السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها. ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد، وخالفت البلاد، وانتقضت الأطراف، وكان الملك يخرج عن يده، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته.

ذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض في طريقه، فأرجف الناس بموته وشاع ذلك، فنشأت عنه فتن عريضة. وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد، وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبداً، لا في حياته ولا بعد موته. فلما أرجف بموت السلطان هرب إلى سلطان كافر يسمى بربرة، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكون تانه، فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة، فجد السير إلى دولة آباد، واقتضى أثر هوشنج، وحصره بالخييل. وأرسل الكافر أن يسلمه إليه فأبى وقال: لا أسلم دخيلي ولو آل بي الأمر لما آل

براي كنبيلة. وخاف هوشنج على نفسه، فراسل السلطان وعاهد على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد، ويبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان، ليستوثق منه هوشنج، وينزل إليه على الأمان. فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قطلوخان، وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته، وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان، فسر بقدمه وأرضاه وخلع عليه. وكان قطلوخان صاحب عهد يستنم الناس إليه ويقولون في الوفاء عليه. ومنزلته عند السلطان عليّة، وتعظيمه له شديد، ومتى دخل عليه قام له إجلالاً. فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذي يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له. وهو محب في الصدقات، كثير الإيتار، مولع بالإحسان للفقراء والمساكين.

ذكر ما همّ به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان، والياً على بلاد حانسي وسرستي. لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر، وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه، فلما أرجف بموت السلطان، طمع إبراهيم في السلطنة، وكان شجاعاً كريماً حسن الصورة. وكنت متزوجاً بأخته حور نسب، وكانت صالحة تتهجد بالليل لها أوراد من ذكر الله عز وجل، وولدت مني بنتاً، ولا أدري ما فعل الله فيها. وكانت تقرأ، لكنها لا تكتب. فلما همّ إبراهيم بالثورة، اجتاز به أمير من أمراء السند، معه الأموال يحملها إلى دهلي. فقال له إبراهيم: إن الطريق مخوف وفيه القطع، فأقم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمّن، وكان قصده أن يتحقق موت السلطان فيستولي على تلك الأموال. فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك. ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيبته ستين

ونصف، وصل الشريف إبراهيم إليه. فوشى به بعض علمائه، وأعلم السلطان بما كان همّ به. فأراد السلطان أن يعجل بقتله، ثم تأنى لمحبهته فيه. فاتفق أن أتى يوماً إلى السلطان بغزال مذبوح ينظر إلى ذبحته، فقال: ليس يجيد الذكاة، اطرحوه. فرآه إبراهيم فقال: إن ذكاته جيدة، وأنا آكله. فأخبر السلطان بقوله، فأنكر ذلك وجعله ذريعة إلى أخذه. فأمر به فقيد وغلل، ثم قرره على ما رُمي به من أنه أراد أخذ الأموال التي مر بها ضياء الملك، وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه، وأنه لا تنفعه معذرة، وخاف أن يعذب. فرأى الموت خيراً له، فأقر بذلك، فأمر به، فوسط، وترك هنالك. وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحداً أقام مطروحاً بموضع قتله ثلاثاً. فإذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكبار موكلون بذلك، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به، وهم يسكنون حول الخندق، لئلا يأتي أهل المقتول فيعرفونه، وربما أعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالاً، فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه، وكذلك فعل الشريف إبراهيم رحمه الله تعالى.

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته، وكان ترك تعاج الملك نصرة خان نائباً عنه ببلاد التلنك، وهو من قدماء خواصه، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان، ودعا لنفسه، وتابعه الناس بحضرة بدركوت. فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث معلمه قطلوخان في عساكر عظيمة، فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس، واشتد الحصار على أهل بدركوت، وهي منيعة، وأخذ قطلوخان في نقبها. فخرج إليه نصرة خان على الأمان في نفسه، فأمنه وبعث به إلى السلطان، وأمن أهل المدينة والعسكر.

ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك

ولما استولى القحط على البلاد، انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك الذي تخرج إليه الهنود، على مسيرة عشرة من دهلي، وأمر الناس بالبناء، وكانوا قبل ذلك صنعوا خياماً من حشيش الأرض، فكانت النار كثيراً ما تقع فيها وتؤذي الناس، حتى كانوا يصنعون كهوفاً تحت الأرض، فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب. ووصلت أنا في تلك الأيام لمحلة السلطان، وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط، والبلاد التي بشرقيه خصبة، وأميرها عين الملك بن ماهر. ومنها مدينة عوض، ومدينة ظفر آباد، ومدينة اللكنو، وغيرها. وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر خمسين ألف من، منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب. فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المخضبة لترعى هنالك، وأوصى عين الملك بحفظها. وكان لعين الملك أربعة إخوة، وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله، ولا أذكر اسم الآخر، فاتفقوا مع أخيه عين الملك أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه، ويباعوا عين الملك، ويقوموا على السلطان. وهرب إليهم عين الملك بالليل، وكاد الأمر يتم لهم. ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكاً له يكون عيناً عليه، ويعرفه بجميع حاله، ويجعل أيضاً جواري في الدور يكن عيوناً له على أمرائه، ونسوة يسميهن الكناسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرهن الجواري بما عندهن، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين، فيخبر بذلك السلطان. ويذكرون أن بعض الأمراء كان في فراشه مع زوجته، فأراد مماسستها، فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل، فلم يسمع منها، فبعث إليه السلطان صباحاً، وأخبره بذلك، وكان سبب هلاكه. وكان للسلطان مملوك يعرف

بابن ملك شاه، هو عين على عين الملك المذكور، فأخبر السلطان بفراره وجوازه
 النهر، فسقط في يده، وظن أنها القاضية عليه، لأن الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند
 عين الملك، وعساكر السلطان مفترقة، فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر،
 وحينئذ يأتي لقتاله. وشاور أرباب الدولة في ذلك. وكان أمراء خراسان والغرباء
 أشد الناس خوفاً من هذا القائم، لأنه هندي، وأهل الهند مبغضون في الغرباء،
 لإظهار السلطان لهم، فكروهوا ما ظهر له، وقالوا: يا خوند عالم، إن فعلت ذلك
 بلغه الخبر، فاشتد أمره ورتب العساكر، وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن،
 والأولى معالجته قبل استحكام قوته. وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر
 الأوهري، ووافقهم جميعهم. ففعل السلطان بإشارتهم. وكتب تلك الليلة إلى من
 قرب منه من الأمراء والعساكر، فأتوا من حينهم. وأدار في ذلك حيلة حسنة،
 فكان إذا قدم على محلته مثلاً مائة فارس، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلاً،
 ودخلوا معهم إلى المحلة، كأن جميعهم مدد له. وتحرك السلطان مع ساحل النهر،
 ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره، ويتحصن بها لمنعها وحصانتها. وبينها وبين
 الموضوع الذي كان فيه ثلاثة أيام. فرحل أول مرحلة، وقد عبأ جيشه للحرب،
 وجعلهم صفاً واحداً، عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى
 جانبه، ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ، ويعود إلى مجلسه. والمحلة الكبرى
 على بعد منهم. ولم يدخل السلطان في تلك الأيام الثلاثة خباء، ولا استظل بظلم.
 وكنت في يوم منها بجبائي، فصاح بي فتى من فتياي اسمه سنبل، واستعجلني،
 وكان معي الجواري، فخرجت إليه. فقال: إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل
 من معه امرأته أو جاريته، فشفع عنده الأمراء. فأمر أن لا تبقى الساعة بالمحلة
 امرأة، وأن يحملن إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال، يقال له كنبيل. فلم تبقى
 امرأة بالمحلة، ولا مع السلطان. وبتنا تلك الليلة على تعبئة، فلما كان في اليوم الثاني
 رتب السلطان عسكره أفواجاً، وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة، عليها

الأبواج، فوقها المقاتلة، وتدرع العسكر، وتهبأوا للحرب. وباتوا تلك الليلة على أهبة. ولما كان اليوم الثالث، بلغ الخبر بأن عين الملك الثائر جاز النهر، فخاف السلطان من ذلك، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقيين مع السلطان، فأمر في الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه، وبعث لي حظاً منها. وكان لي صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى من الشجعان، فأعطيته فرساً منها أشهب اللون. فلما حركه جمع به، فلم يستطع إمساكه، ورماه عن ظهره فبات رحمه الله تعالى. وجدَّ السلطان ذلك اليوم في مسيره، فوصل بعد العصر إلى مدينة قنوج، وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها. وبات ليلة تلك، يرتب الناس بنفسه، ووقف علينا، ونحن في المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز، ومعنا الأمير غدا ابن مهنا، والسيد ناصر الدين مطهر، وأمراء خراسان فأضافنا إلى خواصه وقال: أنتم أعزة علي، ينبغي أن تفارقوني. وكان في عاقبة ذلك الخير، فإن القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة، وفيها الوزير خواجه جهان، فقامت ضجة في الناس كبيرة، فحينئذ أمر السلطان أن لا يبرح أحد من مكانه، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف. فاستل العسكر سيوفهم، ونهضوا إلى أصحابهم. وحي القتال، وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه دهلي وغزنة. فإذا لقي أحدهم فارساً قال له: دهلي. فإن أجابه بغزنة، علم أنه من أصحابه، وإلا قاتله، وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان، فأخطأ به الدليل، فقصد موضع الوزير، فضرب عنق الدليل. وكان في عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون، وهم أعداء الهنود، فصدقوا القتال. وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفاً، فانهزموا عند طلوع الفجر. وكان الملك إبراهيم المعروف بالبَنجِي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التتري قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة، وهي قرية من بلاد عين الملك، فاتفق معه على الخلاف، وجعله نائبه. وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله فوافقاه أيضاً، وجعل داود حاجبه. وكان داود

هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسبّ السلطان ويشتمه أقبح شتم، والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه. فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التتري: ماذا ترى يا ملك إبراهيم؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النجدة منهم، فهل لك أن ننجو بأنفسنا؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم: إذا أراد عين الملك أن يفر، فإني سأقبض على دبوقته. فإذا فعلت ذلك، فاضربوا أنتم فرسه ليسقط إلى الأرض، فنقبض عليه، ونأتي به إلى السلطان، ليكون ذلك كفارة لذنبي في الخلاف معه، وسبباً لخلاصي. فلما أراد عين الملك الفرار، قال له إبراهيم: إلى أين يا سلطان علاء الدين؟ وكان يسمى بذلك، وأمسك بدبوقته، وضرب أصحابه فرسه، فسقط على الأرض، ورمى إبراهيم بنفسه عليه فقبضه، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال: لا أتركه حتى أوصله للوزير، أو أموت دون ذلك، فتركوه، فأوصله إلى الوزير. وكنت أنظر عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يؤتى بها إلى السلطان. ثم جاءني بعض العراقيين فقال، قد قبض على عين الملك، وأتى به الوزير، فلم أصدق. فلم يمر إلا يسير، وجاءني الملك تمور الشربدار فأخذ بيدي وقال: أبشر، فقد قبض على عين الملك، وهو عند الوزير. فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكنك، فنهب العساكر ما فيها، واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا. وأخذوا داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم، ونهبت الأموال والخيل والأمتعة. ونزل السلطان على المجاز، وجاء الوزير بعين الملك، وقد أركب على ثور، وهو عريان مستور العورة بخرقه مربوطة بجبل وباقية في عنقه، فوقف على باب السراجة، ودخل الوزير إلى السلطان، فأعطاه الشربة عناية به. وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك فجعلوا يسونونه ويصقون في وجهه ويصفعون أصحابه. وبعث إليه السلطان الملك الكبير، فقال له: ما هذا الذي فعلت؟ فلم يجد جواباً. فأمر به السلطان أن يكسى ثوباً من ثياب الزمالة، وقيد بأربعة كبول،

وغلّت يدها إلى عنقه، وسلم للوزير ليحفظه. وجاز إخوته النهر هاربين، ووصلوا مدينة عوض، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك: اخلصي بنفسك، وبنوك معنا. فقالت: أفلا أكون كنساء الكفار اللاتي يحرقن أنفسهن مع أزواجهن؟ فأنا أيضاً أموت لموت زوجي، وأعيش لعيشه، فتركوها. وبلغ ذلك السلطان، فكان سبب خيرها، وأدركته لها رقة، وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولئك الإخوة فقتله، وأتى السلطان برأسه. وأتى بأمر عين الملك وأخته وامراته فسلمن إلى الوزير، وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك. فكان يدخل إليهن، ويجلس معهن، ويعود إلى محبسه. ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة، أمر السلطان بسراح لفيف من الناس الذي مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به، وأتى بملك إبراهيم البسجي الذي ذكرناه، فقال ملك العسكر الملك نوا: يا خوند عالم، أقتل هذا، فإنه من المخالفين. فقال الوزير: إنه قد فدى نفسه بالقائم، فعفا عنه السلطان وسرحه إلى بلاده.

ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب، وأتى باثنين وستين رجلاً من كبار أصحاب القائم، وأتى بالقبيلة، فطرحوا بين أيديها، فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوععة على أنيابها، وترمي ببعضهم إلى الهواء، وتلقفه. والأبواق والأنفار والطبول تضرب عند ذلك، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم، ويطرح منهم عليه، ثم أعيد إلى محبسه.

وأقام السلطان على جواز النهر أياماً لكثرة الناس وقلة القوارب. وأجاز أمتعته وخزائنه على القبيلة، وفرق القبيلة على خواصه، ليجيزوا أمتعتهم، وبعث إلي بفيل منها أجزت عليه رحلي. وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بهراج (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم)، وهي مدينة حسنة في عدوة نهر السرو، وهو واد كبير شديد الانحدار،

وأجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود، الذي فتح أكثر تلك البلاد، وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة. وتكاثر الناس للجواز وتزاحوا، حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس، لم ينج منهم إلا أعراي من أصحاب الأمير غدا، وكنا ركبنا نحن مركباً صغيراً، فسلمنا الله تعالى. وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمى بسالم، وذلك اتفاق عجيب.

وكان أراد أن يصعد معنا في مركبنا، فوجدنا قد ركبنا النهر، فركب في المركب الذي غرق. فلما خرج، ظن الناس أنه كان معنا. فقامت ضجة في أصحابنا وفي سائر الناس، وتوهموا أننا غرقنا. ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا. وزرنا قبر الصالح المذكور، وهو في قبة لم نجد سبيلاً إلى دخولها لكثرة الزحام. وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب، فخرج علينا منها الكركدن، فقتل وأتى الناس برأسه. وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وقد ذكرناه.

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا، عاد إلى حضرته بعد مغيب عامين ونصف، وعفا عن عين الملك، وعفا أيضاً عن نصره خان القائم ببلاد التلنك، وجعلها معاً على عمل واحد، وهو النظر على بساتين السلطان. وكساهما وأركبهما، وعين لها نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم. وبلغ الخبر بعد ذلك أن أحد أصحاب قطلو خان، وهو علي شاه كر، ومعنى كر الأطرش، خالف على السلطان. وكان شجاعاً حسن الصورة والسيرة، فغلب على بدر كوت، وجعلها مدينة ملكه. وخرجت العساكر إليه، وأمر السلطان معلمه أن يخرج إلى قتاله، فخرج في عساكر عظيمة، وحصره ببدر كوت، ونقبت أبراجها، واشتدت به الحال، فطلب الأمان فأمنه قطلو خان، وبعث به إلى السلطان مقيداً، فعفا عنه

ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خراسان، فأقام بها مدة. ثم اشتاق إلى وطنه، فأراد العودة إليه، لما قضاه الله من حينه، فقبض عليه ببلاد السند، وأتى به السلطان. فقال له: إنما جئت لتثير الفساد ثانية، وأمر به فضربت عنقه.

ذكر فرار أمير بخت وأخذه

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان، فحط مرتبه من أربعين ألفاً إلى ألف واحد، وبعثه في خدمة الوزير إلى دهلي. فاتفق أن مات أمير عبدالله الهروي في الوباء في التلنك، وكان ماله عند أصحابه بدهلي، فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب. فلما خرج الوزير من دهلي إلى لقاء السلطان، هربوا مع أمير بخت وأصحابه، ووصلوا إلى أرض السند في سبعة أيام، وهو مسيرة أربعين يوماً، وكان معهم الخيل مجنوبة، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عموماً، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معدية قصب يصنعونها، وكانوا قد أعدوا حبلاً من الحرير برسم ذلك. فلما وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بالعوام، فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجه، فقالا له: إن ها هنا تجاراً أرادوا أن يعبروا النهر، وقد بعثوا إليك بهذا السرج، لتبيح لهم الجواز، فأنكر أمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج، وأمر بالقبض على الرجلين. ففر أحدهما، ولحق بشرف الملك وأصحابه، وهم نيام لما لحقهم من الإعياء ومواصلة السهر، فأخبرهم الخبر، فركبوا مذعورين وفروا، وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذي قبض عليه، فاعترف بقضية شرف الملك. فأمر جلال الدين نائبه، فركب في العسكر، وقصدوا نحوهم. فوجدوهم قد ركبوا، فاقتفوا أثرهم فأدركوهم. فرموا العسكر بالنشاب، ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسهم، فأثبته في ذراعه، وغلب عليهم، فأتى بهم إلى جلال الدين، فقيدهم وغل

أيديهم، وكتب إلى الوزير في شأهم. فأمر الوزير أن يعيّنهم إلى الحضرة، فبعثهم إليها. وسجنوا بها، فمات طاهر في السجن. فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مفرعة في كل يوم، فبقي على ذلك مدة، ثم عفا عنه. وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجلة إلى بلاد جنديري، فانتهدت حاله إلى أن كان يركب البقر، ولم يكن له فرسه يركبه. وأقام على ذلك مدة، ثم وفد ذلك الأمير على السلطان وهو معه. فجعله السلطان شاشنكير (جاشنكير)، وهو الذي يقطع اللحم بين يدي السلطان. ويمشي مع الطعام. ثم إنه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره. وانتهت حاله إلى أن مرض. فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب، وأعطاه ذلك. وقد قدمنا هذه الحكاية في السفر الأول. وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديري التي كان بها البقر في خدمة الأمير نظام الدين. فسيحان مقلب الأرض ومحول الأحوال.

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند، وقتل الأمير بها، وكان يسمى به زاد، وادعى السلطنة لنفسه. وتجهز السلطان لقتاله، فعلم أنه لا يقاومه. فهرب ولحق بقومه الأفغان، وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها، فاغتاظ السلطان مما فعله، وكتب إلى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلادهم، فكان ذلك سبباً لخلاف القاضي جلال.

ذكر خلاف القاضي جلال

وكان القاضي جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة، فلما كتب السلطان إلى عماله بالقبض على الأفغانيين كتب إلى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهر واله، أن يحتال في القبض على القاضي جلال ومن معه. وكانت بلاد بلوذرة إقطاعاً لملك الحكماء، وكان ملك الحكماء

متزوجاً بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق، ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الأمير غدا. وملك الحكماء إذ ذاك في صحبة مقبل، لأن بلاده تحت نظره. فلما وصلوا إلى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتي بالقاضي جلال وأصحابه. فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده حذرهم في خفية، لأنهم كانوا من أهل بلاده، وقال: إن مقبلاً طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح، فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا: لا ندخل إلا جملة. فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون، وخاف منهم. فأمرهم الرجوع، وأظهر تأمينهم. فدخلوا عليه، ودخلوا مدينة كنباية، ونهبوا خزانة السلطان بها، وأموال الناس، ونهبوا مال ابن الكومي التاجر، وهو الذي عمر المدرسة الحسنة بإسكندرية، وسنذكره إثر هذا. وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة. وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان، فهزموهم أيضاً، وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم. وادعى القاضي جلال السلطنة، وبايعه أصحابه. وبعث السلطان إليه العساكر فهزموها. وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضاً.

ذكر خلاف ابن الملك مل

وكان ابن الملك مل ساكناً بدولة آباد في بعض من الأفغان، فكتب السلطان إلى نائبه بها، وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم، وبعث إليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل، وبعث بمجمل الشتاء. وعادة ملك الهند ان يبعث لكل أمير على مدينة، ولوجوه جنده خلعتين في السنة: واحدة للشتاء والثانية للصيف. وإذا جاءت الخلع، يخرج الأمير والجند للقائها. فإذا وصلوا إلى الآتي بها نزلوا عن دوابهم، وأخذ كل واحد خلعتة، وحلها على كتفه وخدم لجهة السلطان. وكتب السلطان لنظام الدين إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم

لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان ، فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين ممن احتال ، فانعكست عليه ، فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لقوا الخلع ، ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وأصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيراً من أصحابه ، ودخلوا المدينة فاستولوا على الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل ، واثال عليهم المفسدون ، فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية

ولما علم السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد ، خرج بنفسه ، وعزم أن يبدأ بكنباية ، ثم يعود إلى دولة آباد . وبعث أعظم ملك الباييزيدي صهره في أربعة آلاف مقدمة ، فاستقبله جند القاضي جلال ، فهزموه وحصلوه ببلوذرة ، وقتلوه بها . وكان في جند القاضي جلال شيخ يسمى جلول ، وهو أحد الشجعان . فلا يزال يفتك في الجند ويقتل ، ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته . واتفق يوماً أنه دفع فرسه ، فكبا به في حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه درعين ، فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بلوذرة ، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد . ثم وصل السلطان بجنده فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ، ففر في أصحابه ، وتركوا أموالهم وأولادهم ، فنهب ذلك كله ، ودخلت المدينة ، وأقام بها السلطان أياماً ثم رحل عنها ، وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره ، وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه ، وما جرى له من الذل ، ثم من العز . وأمره بالبحث عمن كان في طاعة جلال الدين ، وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم . فأدى ذلك إلى قتل الشيخ علي الحيدري حسبما قدمناه . ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين ملك مل بدولة آباد ، ودخل في جلته . فأتى السلطان بنفسه إليهم ، واجتمعوا في نحو أربعين ألفاً من الأفغان والترك

والهنود والعبيد، وتحالفوا على أن لا يفروا، وأن يقاتلوا السلطان. وأتى السلطان لقتالهم ولم يُرفع الشطر الذي هو علامته. فلما استحرَّ القتال رُفع الشطر، ولما عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة. ولجأ ابن ملك مل والقاضي جلال في نحو أربعائة من خواصها إلى قلعة الدويقير، وسنذكرها وهي من أمنع القلاع في الدنيا، واستقرَّ السلطان بمدينة دولة آباد والدويقير هي قلعتها. وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان. فأبى السلطان أن يؤمنهم، وبعث لهم الأطعمة تهاوناً بهم، وأقام هنالك. وهذا آخر عهدي بهم.

ذكر قتال مقبل وابن الكولي

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه. وكان تاج الدين الكولي من كبار التجار، فنزل على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة، منها المالميسك والجمال والمتاع والسلاح والثياب. فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثني عشر لكاً، ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكاً واحداً. وولاه مدينة كنباية. وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير، ووصل إليها، وبعث السفن إلى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها. وجاءته التحف والهدايا في السفن، وعظمت حاله، ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة، بعث الملك مقبل إلى ابن الكولي أن يبعث ما عنده من الهدايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة. امتنع ابن الكولي عن ذلك وقال: أنا أحملها بنفسي، أو أبعثها مع خدامي، ولا حكم لنائب الوزير علي ولا للوزير، واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية. فكتب مقبل إلى الوزير بذلك، فوقع له الوزير على ظهر كتابه: إن كنت عاجزاً عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا.

ولما وصله الجواب تجهز في جنده ومماليكه، والتقى بظاهر كنباية. فانهزم الكولي، وقتل جملة من الفريقين. واستخفى ابن الكولي في دار الناخوذة (الناخذا)، إلياس أحد كبراء التجار.

ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب جند ابن الكولي، وبعث له الأمان نظير أن يأخذ ماله المختص به، ويترك مال السلطان وهديته ومجبي البلد، وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه إلى السلطان، وكتب شاكياً من ابن الكولي، وكتب ابن الكولي شاكياً منه. وبعث السلطان ملك الحكماء ليتنصف بينهما. وبأثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين. فنهب مال ابن الكولي، وهرب ابن الكولي في بعض مماليكه ولحق بالسلطان.

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفي مدة غياب السلطان عن حضرته، إذ خرج يقصد بلاد المعبر، وقع الغلاء، واشتد الأمر، وانتهى المن إلى ستين درهماً، ثم زاد على ذلك. وضاعت الأحوال، وعظم الخطب، ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير، فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه. وكانت الجلود تطبخ وتباع في الأسواق. وكان الناس إذا ذبحت البقر، أخذوا دماءها فأكلوها. وحدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهة، بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به، فوجدوا في بعض بيوتهم رجلاً قد أضرم ناراً، ويده رجل آدمي، وهو يشويها في النار ويأكل منها، والعياذ بالله. ولما اشتد الحال، أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر. فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات، ويكتبون الناس، ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في اليوم لكل واحد. وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين، حسبما يذكر، فكان الناس ينتعشون بذلك. والله تعالى ينفع بالقصد فيه. وإذا قد ذكرنا من أخبار السلطان، وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية، فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك، ونذكر

كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته، وتنقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة، ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى الصين، وعودنا منها إلى بلادنا، إن شاء الله تعالى.

ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان، ودخلنا الباب الأول ثم الثاني والثالث، ووجدنا عليه النقباء، وقد تقدم ذكرهم. فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع، فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا. فتقدم ضياء الدين خداوند زاده، ثم تلا أخوه قوام الدين، ثم أخوها عماد الدين، ثم تلوتهم، ثم تلاني أخوهم برهان الدين، ثم الأمير مبارك السمرقندي، ثم أرون بغا التركي، ثم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده، ثم بدر الدين الفصالح.

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية، وبه يجلس السلطان الجلوس العام. فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض، وخدمنا نحن بالركوع، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض، وخدمتنا لناحية سرير السلطان، وخدم جميع من معنا. فلما فرغنا من الخدمة، صاح النقباء بأصوات عالية: بسم الله، وخرجنا.

ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان، وهي من أفضل النساء، كثيرة الصدقات، عمرت زوايا كثيرة، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر. وهي مكفوفة البصر، وسبب ذلك انه لما ملك ابنها، جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي، وهي على سرير الذهب المرصع بالجواهر، فخدمن بين يديها جميعاً، فذهب بصرها للحين، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع.

وولدها أشد الناس برأً بها. ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة، فلما قدمت خرج لاستقبالها، وترجل عن فرسه وقبل رجلها، وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين.

ولنعد لما قصدناه فنقول، ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف، وهم يسمونه باب الحرم، وهناك سكنى المخدومة جهان. فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله.

ودخل معنا قاضي قضاة الماليك كمال الدين بن البرهان، فخدم الوزير والقاضي عند بابها، وخدمنا كخدمتهم، وكتب كاتب بابها هدايانا. ثم رجعوا إلى الوزير، ثم عادوا إلى القصر، ونحن وقوف. ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك، ثم أتوا بالطعام، وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السنين (بضم السين والياء آخر الحروف)، وهي مثل القدور، ولها مزارع من الذهب تجلس عليها، يسمونها السُّبُك (بضم السين وضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب، وجعلوا الطعام سماطين، وعلى كل سماط صنفان. ويكون في رأس الصنف كبير القوم الواردين.

ولما تقدمنا للطعام، خدم الحجاب والنقباء، وخدمنا لخدمتهم. ثم أتوا بالشربة فشربنا. وقال الحجاب: بسم الله، ثم أكلنا، وأتوا بالفقاع والتنبول. وقال الحجاب: بسم الله، فخدمنا جميعاً. ثم دعينا إلى موضع هنالك، فخلع علينا حلل الحرير المذهبة، وأتوا بنا إلى باب القصر، تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان. فأعطي كل واحد منا نصيبه منها. ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة، وبطيفور مثله فيه الجلاب، وطيفور ثالث فيه التنبول. ومن عاداتهم أن الذي يخرج له ذلك، يأخذ الطيفور بيده، ويجعله على كاهله، ويخدمه بيده

الثانية إلى الأرض . فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرة ، جزاه الله الخير . ففعلت كما فعل ، وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي ، وبمقربة من دروازة بالم منها ، وبعث لنا الضيافة .

ذكر الضيافة

ولما وصلتُ إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد ، وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر ، يحمله غلامه على رأسه ، وهو أربع قوائم مخروطية ، يعرض عليها أربعة أعواد ، وتُنسج عليها صفائر من الحرير والقطن ، فإذا نام الانسان عليه لم يحتج إلى ما يُرطبه به ، لأنه يعطي الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير بمضربين ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (اللحف) وجوهاً تغشيها وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والثاني الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم ، لأوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق ، وهذا الذي ذكرناه في ضيافة أم السلطان ، وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها . ولما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان ، وسلمنا على الوزير ، فأعطاني بدرتين ، كل بدرة من ألف دينار دراهم ، وقال لي : هذه سر ششتي (شستي) ومعناه لغسل رأسك ، وأعطاني خلعة من المرعز ، وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماي ، فجعلوا أربعة أصناف : فالصنف الأول منها أعطي كل واحد منها مائتي دينار ، والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخسين ديناراً والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار :

والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين ديناراً، وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف ديناراً، وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان، وهي ألف رطل هندية من الدقيق، ثلثها من الميرا وهو الدرملك، وثلثها من الخشكار وهو المدهون، وألف رطل من اللحم، ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة، لا أذكر عددها والألف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب، وخمسة وعشرون من أرطال مصر، وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق، ومثلها من اللحم، مع ما يناسبها مما ذكرناه.

ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوي، فدفناها بها وكتب بجزءها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني، وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثيراب الحرير، ويجعلون على القبر الأزاهير، وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهي زهر أصفر، وريبول وهو أبيض، والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر، ويجعلون أغصان النارج والليمون بثارها، وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط، ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموا أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس، ثم يصب عليهم ماء الورد صباً، ويعطون التنبول وينصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت، خرجت الصبح على العادة،

وأعددت ما تيسر من ذلك كله، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك، وأمر
بسراجة فضربت على القبر، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا
بالسند، والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة، ولم آت إلا
والقوم المذكورون، قد أخذوا مجالسهم، والحاجب بين أيديهم، وهم يقرأون
القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر. فلما فرغوا من القراءة، قرأ القراء
بأصوات حسان، ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة، وثناء على السلطان.
وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً فخدموا ثم جلسوا، ودعا القاضي دعاء
حسناً، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس، ثم داروا
عليهم بأقداح شربة النبات، ثم فرقوا عليهم التنبول، ثم أتي بإحدى عشرة خلعة
لي ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان، فخدمنا للسريير
على العادة، وانصرفت إلى منزلي فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار
المخدومة جهان، ما ملأ الدار ودور أصحابي، وأكلوا جميعاً، وأكل المساكين.
وفضلت الأقراص والحلواء والنبات، فأقامت بقاياها أياماً، وكان فعل ذلك كله
بأمر السلطان. وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة
التي يحمل فيها النساء، ويركبها الرجال وهي شبه السريير، سطحها من صفائر
الحرير أو القطن، وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا، معوج من القصب
الهندي المغلوق، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين: يستريح أربعة، ويحمل أربعة، وهذه
الدول بالهند كالحمير بديار مصر، عليها ينصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد
حلوه، ومن لم يكن له عبيد أكثرى رجالاً يحملونه. وبالبلد منهم جماعة يسيرة،
يقفون في الأسواق وعند باب السلطان، وعند أبواب الناس للكري، وتكون
دول النساء مغشاة بغشاء حرير. وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها
من دار أم السلطان، فحملوا فيها جاريتي، وهي أم البنت المتوفاة وبعثت أنا
معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة، وجاءت في

اليوم الثاني وقد أعطوها ألف دينار دراهم، وأساور ذهب مرصعة، وتهليلاً من الذهب مرصعاً وقميص كتان مزركشاً بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختاً بأثواب ولما جاءت بذلك أعطيته لأصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين، محافظة على نفسي، وصوناً لعرضي لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالي.

ذكر إحسان السلطان والوزير في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

وفي أثناء إقامتي أمر السلطان أن يعين لي من القرى ما يكون فائدة خسة آلاف دينار في السنة، فعينها لي الوزير وأهل الديوان، وخرجت إليها فمناها قرية تسمى بدلي (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسهي (بفتح الباء الموحدة والسين المهملة وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بترّة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء)، وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروهاً، وهو الميل، بصدي يعرف بصدي هندبت، والصدي عندهم مجموع مائة قرية من قرى بلاد الهند، وأحواز المدينة مقسومة أصداء، وكل صدي له جوطري، وهو شيخ من كفار تلك البلاد، ومتصرف، وهو الذي يضم مجابيهما. وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار، فبعث الوزير إلي عشر جوار منه، فأعطيت الذي جاء بهن واحدة منهن، فما رضي بذلك، وأخذ أصحابي ثلاثاً صغاراً منهن، وباقيهن لا أعرف ما اتفق هن. والسبي هنالك رخيص الثمن، لأنهن قدرات لا يعرفن مصالح الحضر، والمعلمات رخيصات الأثمان، فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي. والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار، ولهم غيضات من القصب، وقصبهم غير مجوف، ويعظم ويلتف بعضه على بعض، ولا تؤثر فيه النار، وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض، وهي لهم مثل السور، وبدخلها تكون مواشيهم وزروعهم، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا

يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض،
ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك.

ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان

وأطلّ عيد الفطر، والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة، فلما كان يوم العيد
ركب الخطيب على الفيل، وقد مهد له على ظهره شبه السرير، وركزت أربعة
أعلام في أركانه الأربعة، وليس الخطيب ثياب السواد، وركب المؤذنون على الفيلة
يكبرون أمامه، وفقهاء المدينة وقضاها وكل واحد منهم يستصحب صدقة
يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن، وفرش
ببسط، واجتمع الناس ذاكرين الله تعالى. ثم صلى بهم الخطيب وخطب وانصرف
الناس إلى منازلهم، وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام، فحضره الملوك
والأمراء، والأعزة وهم الغرباء، وأكلوا وانصرفوا.

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر اسمه تلبّت (بكسر التاء المعلولة
الأولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالأولى)، وهي على مسافة سبعة
أميال من الحضرة فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا، ومع كل انسان هديته من
الخيول والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمهاليك والغنم المجلوبة من
بلاد الأتراك فوصلنا إلى باب القصر واجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون إلى
السلطان على قدر مراتبهم، ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب، ولما
وصلت إلى النوبة، دخلت فوجدته قاعداً على كرسي، فظننته أحد الحجاب حتى
رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي، وكنت عرفته أيام غيبة
السلطان، فخدم الحاجب، فخدمت واستقبلني أمير حاجب، وهو ابن عم

السلطان فيروز، وخدمت ثانية لخدمته، ثم قال لي ملك الندماء بسم الله، مولانا بدر الدين. وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحني وأمسك يدي وجعل يخاطبني بأحسن خطاب، ويقول لي بالفارسي، حلت البركة، قدومك مبارك، اجمع خاطرک، اعمل معك من المراحم، وأعطيك من الأنعام، ما يسمع به أهل بلادك، فيأتون إليك. ثم سألتني عن بلادي فقلت له: بلاد المغرب فقال لي: بلاد عبد المؤمن؟ فقلت له: نعم. وكان كلما قال لي كلاماً جيداً قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات. وخلع علي، وانصرفت واجتمع الواردون، فمد لهم سباط. ووقف على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي، وكان من كبار الفقهاء، وقاضي قضاة الماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوي، وعماد الملك عرض الماليك، والملك جلال الدين الكيجي، وجماعة من الحجاب والامراء، وحضر كذلك خداوند زاده غياث الدين، ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ الذي قدم معنا، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ وتردد إليه مراراً من بلاده. والواردون الذين خلع عليهم في ذلك اليوم هم خداوند زاده قوام الدين وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخيه أمير بخت ابن السيد تاج الدين، وكان جده وجيه الدين وزير خراسان، وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيراً أيضاً، والأمير هبة الله ابن الفلكي التبريزي، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق، وهو الذي بنى المدرسة الفلكية بتبريز، وملك كراي من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى، وهو من أهل جبل بدخشان الذي منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد، والأمير مبارك شاه السمرقندي، وأرون بغا البخاري، وملك زاده الترمذي، وشهاب الدين الكازروني، التاجر الذي قدم تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب في طريقه.

ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب

وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطي كل واحد منا فرساً من مراكب السلطان، عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته، وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان، وزينت الفيلة أمام السلطان، وجعلت عليها الأعلام، ورفعت عليها ستة عشر شطراً، منها مزركشة، ومنها مرصعة، ورفع فوق رأس السلطان شطراً منها، وحلت أمامه الغاشية، وهي ستارة مرصعة، وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار، فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة، قذف في تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة، والمشاة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك. ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بشباب الحرير، وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك.

ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة، ثاني يوم دخول السلطان، أتينا باب المشور، فجلسنا في سقائف الباب الثالث، ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول، وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي، فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا، وأذن لهم في دخولنا، ودخول بعض أصحابنا، وعيّن للدخول معي ثمانية، فدخلنا ودخلوا معنا، ثم جاءوا بالبدر والقبان، وهو الميزان، وقعد قاضي القضاة والكتاب، ودعوا من بالباب من الأعزة وهم الغرباء، فعينوا لكل نصيبه من تلك البدر، فحصل لي خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار، تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها، وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه، ويسأل عن أحوالنا، ويخاطبنا بأجل الكلام ولقد قال لنا في بعض الأيام:

أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم فالكبير منكم مقام ولدي،
والكهل مقام أخي، والصغير مقام ولدي، وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه
أعطيكم إياها فشكرناه ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لي اثني عشر ألف دينار في السنة، وزادني
قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل، إحداها قرية جوزة، والثانية قرية
ملك بور، وفي بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده، وغيث الدين وقطب الملك
صاحب السند فقالا لنا: إن خوند عالم يقول لكم: من كان منكم يصلح للوزارة
أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة، أعطيته ذلك فسكت
الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم، وتكلم أمير
بخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال: أما الوزارة فميراثي، وأما
الكتابة فشغلي، وغير ذلك لا أعرفه .

وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك، وقال لي خداوند زاده بالعربي:
ما تقول أنت يا سيدي؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي إلا بالتسويد^(١)،
وبذلك يخاطبه السلطان، تعظيماً للعرب، فقلت له: أما الوزارة والكتابة فليست شغلي،
وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، وأما الإمارة فتعلمون أن
الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب، فلما بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامي
وكان بهزار أسطون يأكل الطعام، فبعث عنا، فأكلنا بين يديه، وهو يأكل، ثم
انصرفنا إلى خارج هزار اسطون، فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان
يمنعني الجلوس، فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي، واعتذر واله عني بعد
صلاة العصر، فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة، ثم خرج الحاجب
فاستدعانا، فدخل خداوند زاده ضياء الدين، وهو أكبر الإخوة المذكورين،

(١) أي ما ينادونه إلا ملقباً بالسيد .

فجعله السلطان أمير داد وهو من الأمراء الكبار، فجلس بمجلس القاضي. فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه، وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة، عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار، فأمر له بخمسين ألفاً عن يد، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير، ومعناه صورة السبع، لأنه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع، وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيها من الذهب، وأمر له بفرس من الجنس الأول، والخيول عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر، ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة، ثم دخل أمير بخت، فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده، ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتباً أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك، وأعطى أربعين ألفاً عن يد، وأعطى فرساً مجهزاً، وخلع عليه كخلعة الذي قبله، ولقب شرف الملك.

ثم دخل هبة الله بن الفلكي فجعله رسول دار، ومعناه حاجب الإرسال، وعين له مرتباً أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر يكون قائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعة وعشرين ألفاً عن يد وأعطى فرساً مجهزاً وخلعة، وجعل لقبه بهاء الملك. ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستنداً إلى السرير، والوزير خواجه جهان بين يديه، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه، قال لي الملك الكبير: أخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي، وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة، وعين لك مجاشر بمقدارها، وأمر لك باثني عشر ألفاً نقداً تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله، وأعطاك فرساً بسرجه ولجامه، وأمر لك بخلعة محاربي، وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب، فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان، فقال لي السلطان: لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال، هو أكبر الأشغال عندنا، وكنت أفهم قوله، ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه،

فقلت له : يا مولانا أنا على مذهب مالك ، وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف إنساناً
فقال لي : قد عينت بهاء الدين الملتاني وكهال الدين البجنوري ينوبان عنك
ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الوالد ، فقلت
له : بل عبدكم وخدمكم فقال لي باللسان العربي ، بل أنت سيدنا ومخدومنا ،
تواضعاً منه وفضلاً وإيناساً ، ثم قال لشرف الملك أمير بخت ، إن كان الذي
ترتب له لا يكفيه لأنه كثير الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال
الفقراء ، وقال : قل له هذا بالعربي ، وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك
وفهم السلطان ذلك فقال له : برو ويكجا بخصي (بخسي) وأن حكاية
بروابكوي وتفهم كني (بكني) تافردا إن شاء الله بيش من بيبي (و) جواب أو
بكري (بكوي) معناه : امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد ، وفهمه هذه
الحكاية ، فإذا كان بالغد إن شاء الله تحيى إلي وتعلمني بكلامه ، فانصرفنا وذلك
في ثلث الليل ، وقد ضربت النوبة . والعادة عندهم إذا ضربت لا يخرج أحد
فانتظرنا الوزير حتى خرج ، وخرجنا معه ، ووجدنا أبواب دهلي مسدودة فبتنا
عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي ، بزقاق يعرف بسرابور خان وكان هذا
الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان . ولما
كان بالغد بعث عنا ، فقبضنا الأموال والخيل والخلع ، وأخذ كل واحد منا
البدرة بالمال ، فجعلها على كاهله ، ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا
بالأفراس فقبلنا حوافرها ، بعد أن جعلت عليها الخرق ، وقدناها بأنفسنا إلى
باب دار السلطان فركبناها ، وذلك كله عادة عندهم ، ثم انصرفنا وأمر السلطان
لأصحابه بألفي دينار وعشر خلع ، ولم يعط لأصحاب أحد سواي شيئاً وكان
أصحابي لهم رواء ومنظر ، فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكروهم .

ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقفه مدة

وكنت يوماً بالمشور، بعد أيام من توليتي القضاء والإحسان إلي، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك، وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين، فدخل إلى السلطان، فخلع عليه، وأعطاه مصحفاً مكللاً بالجوهر، ثم أتاني بعض الحجاب فقال: أعطني شيئاً وأخذ لك خط خرد بانتي عشر ألفاً، أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة علي، وهو مجد في كلامه، فقال بعض الأصحاب: أنا أعطيه، فأعطاه دينارين أو ثلاثة، وجاء بخط خرد ومعناه الخط الأصغر مكتوباً بتعريف الحاجب، ومعناه أمر خوند عالم أن يعطي من الخزانة الموفرة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه، ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء: وهم الخان الأعظم قطلو خان معلم السلطان، والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام، والأمير نكيبة الدوادار صاحب الدواة، فإذا كتب كل واحد منهم خطه، تذهب البراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم، ثم تثبت في ديوان الأشرف، ثم تثبت في ديوان النظر، ثم تكتب البراونة، وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء، ثم يثبتها الخازن في ديوانه، ويكتب تلخيصاً في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال، ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك، ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفاً ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتي. وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد يحط منه العشر فمن أمر له مثلاً بمائة ألف، أعطي تسعين ألفاً، أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف.

ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلي ومدحي للسلطان وأمره بخلص ديني وتوقف ذلك مدة

وكنت حسبما ذكرته قد استندت من التجار مالا أنفقته في طريقي، وما صنعت به الهدية للسلطان، وما أنفقته في إقامتي فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحوا عليّ في طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

إليك أمير المؤمنين المبعجلاً	أتينا نجد السير نحوك في الفلا
فجئت محلاً من علائك زائراً	ومغناك كهف للزيارة أهلاً
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة	لكنت لأعلاها إماماً مؤهلاً
فأنت الإمام الماجد الأوحده الذي	سجاياه حتماً أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فيض جودك أرتجي	قضاه وقصدي عند مجدك سهلاً
أذكرها أم قد كفاني حياؤكم	فإن حياكم ذكره كان أجلاً
فعجل لمن واقى محلك زائراً	قضا دينه إن الغريم تعجلاً

فقدمتها بين يديه، وهو قاعد على كرسي، فجعلها على ركبته، وأمسك طرفها بيده، وطرفها الثاني بيدي. وكنت إذا أكملت بيتاً منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي بين معناه لخوند عالم، فيبينه ويعجب السلطان وهم يجبون الشعر العربي فلما بلغت إلى قولي: فعجل لمن وافى، البيت، قال: مرحلة ومعناه: ترحمت عليك فأخذ الحجاب حينئذ بيد ليذهبوا بي إلى موقفهم، وأخدم على العادة فقال السلطان اتركوه حتى يكملها فأكملتها وخدمت، وهنأني الناس بذلك، وأقمت مدة، وكتبت رفعا، وهم يسمونه عرض داشت، فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند، فدفعه للسلطان فقال له: امض إلى خواجه جهان فقل له: يعطي دينه فمضى إليه وأعلمه، فقال: نعم وأبطأ ذلك أياماً وأمره

السلطان في خلالها بالسفر إلى دولة آباد وفي أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد ،
وسافر الوزير ، فلم آخذ شيئاً منها إلا بعد مدة . والسبب الذي توقف به عطاؤها
أذكره مستوفى وهو أنه لما عزم الذين كان لهم علي الدين إلى السفر ، قلت لهم :
إذا أنا أتيت دار السلطان فدرهوني^(١) على العادة في تلك البلاد ، لعلمي أن السلطان
متى يعلم بذلك خلصهم ، وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوي
العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول قال له :
دروهي ، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني ، فلا يمكنه ان يبرح من
مكانه حتى يخلصه ، أو يرغب إليه في تأخيره . فاتفق يوماً أن خرج السلطان إلى
زيارة قبر أبيه ، ونزل بقصر هنالك فقلت لهم : هذا وقتكم ، فلما أردت الدخول ،
وقفوا لي بباب القصر فقالوا لي دروهي السلطان ما تدخل حتى تخلصنا . وكتب
كتاب الباب بذلك إلى السلطان ، فخرج حاجب قصة شمس الدين ، وكان من
كبار الفقهاء ، فسألهم لاي شيء درهتموه ؟ فقالوا : لنا عليه الدين فرجع إلى
السلطان فأعلمه بذلك ، فقال له : أسألهم كم مبلغ الدين ؟ فقالوا له خمسة وخمسون
الف دينار ، فعاد إليه فأعلمه فأمره أن يعود إليهم ، ويقول لهم : إن خوند عالم
يقول لكم : المال عندي وأنا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وأمر عماد الدين السماني
وخواوند زاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار أسطون ، ويأتي أهل الدين بعقودهم ،
وينظروا إليها ، ويتحققوها فعلاً ذلك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا إلى السلطان
وأعلماه بثبوت العقود ، فضحك وقال : ممازحاً : أنا أعلم أنه قاض جهاز شغله فيها
ثم أمر خواوند زاده أن يعطيني ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك وامتنع
أن يكتب خط خرد ، فبعثت إليه مائتي تنكة ، فردها ولم يأخذها وقال لي عنه
بعض خدامه : إنه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك وأعلمت عميد الملك بن

(١) أي : فتعلقوا بي على باب دار السلطان مطالبين بديونكم .

عماد الدين السمناني بذلك، فأعلم به أباه وأعلمه الوزير، وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيراً من أفعال خداوندزاده، فغير خاطر السلطان عليه، فأمر بحبسه في المدينة وقال: لأي شيء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطي خداوندزاده شيئاً إذا منعه أو يمنعه إذا أعطيته فهذا السبب توقف عطاء ديني.

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجه معه وما صنعت في ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربص، وكنت قد أعددت ما يحتاج إليه، وعملت ترتيب أهل الهند، فاشترت سراجة، وهي أفراج وضررها هنالك مباح ولا بدَّ منها لكبار الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق، واشترت الصيوان، وهو الذي يظل به داخل السراجة، ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أعناقهم، ويقال لهم الكيوانية^(١) والعادة هنالك أن يكتري المسافر الكيوانية، وقد ذكرناهم، ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن ويكتري الكهارين، وهم الذين يحملون أواني المطبخ، ويكتري من يحمله في الدولة، وقد ذكرناها، ويحملها فارغة، ويكتري الفراشين، وهم الذين يضربون السراجة، ويفرشونها، ويرفعون الأحمال على الجمال، ويكتري الدوادوية، وهم الذين يمشون بين يديه، ويحملون المشاعل بالليل، فاكترت أنا جميع من احتجت له منهم، وأظهرت القوة والهمة، وخرجت يوم خروج السلطان وغيري أقام بعده اليومين والثلاثة، فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل، وقصده أن يتطلع على أحوال

(١) في بعض طبقات الكتاب: الكيوانية، والله أعلم بالصواب.

الناس، ويعرف من تسارع إلى الخروج، ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسي، فجئت وسلمت ووقفت في موقفني باليمين، فبعث إلي الملك الكبير قبولة سرجامدار، وهو الذي يشرذ الذباب عنه، فأمرني بالجلوس عناية بي، ولم يجلس في ذلك اليوم سواي ثم أتى بالفيل، وألصق به سلم فركب عليه، ورفع الشتر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة، ثم عاد إلى السراجة. وعادته إذا ركب، أن يركب الأمراء أفواجاً كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرناياته يسمون ذلك المراتب، ولا يركب أمام السلطان، إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأبطال الصغار، والذين يضربون الصرنايات. ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلاً، وعن يساره مثل ذلك، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة، وكنت أنا من أهل ميمنته، ويكون بين يديه المشاءون والأدلاء، ويكون خلفه علاماته، وهي من الحرير المذهب، والأبطال على الجبال وخلف ذلك مماليكه، وأهل دخلته، وخلفهم الأمراء وجميع الناس، ولا يعلم أحد أين يكون النزول فإذا مر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول، ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته، ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون، كل واحد في منزله خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار، وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكرابي وغيرها من أنواع الصيد، ويحضر أبناء الملوك في يد كل واحد منهم سفود، ويوقدون النار ويشوون ذلك، ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها، ويؤتى بالطعام، ويستدعي من شاء فيأكل معه، وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها، فقال له السيد ناصر الدين مطهر الأوهري أحد ندمائه ثم فلان المغربي، وهو متغير فقال لماذا: فقال: بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يلحون في الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك فإن طلب مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بإنصافهم. وحضر لهذا

الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال: يا خوند عالم كل يوم وهو يكلمني بالعربية ولا أدري ما يقول يا سيدي ناصر الدين ماذا، وقصد أن يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لأجل الدين الذي عليه فقال السلطان إذا دخلنا دار الملك، فامض أنت يا أومار، ومعناه: يا عم الى الخزانة، فأعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضراً، فقال يا خوند عالم إنه كثير الإنفاق، وقد رأيت ببلادنا عند السلطان طرمشيرين. وبعد هذا الكلام استحضرني السلطان للطعام، ولا علم عندي بما جرى فلما خرجت قال لي السيد ناصر الدين: أشكر للملك دولة شاه وقال لي الملك دولة شاه: أشكر لخدواندزاده. وفي بعض تلك الأيام، ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة، وكان طريقه على منزلي وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة، وكان لي خباء عند السراجة، فوقف أصحابي عندها، وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسأل لمن تلك الأخيصة والسراجة فقيل لهما: لفلان فأخبراه بذلك فتبسم. فلما كان بالغد، نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح إلى البلد، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة.

ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان

وكان السلطان في تلك الأيام سألني عن الملك الناصر هل يركب الجمل، فقلت: نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر في عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد. وأخبرته أن عندي جملاً منها فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من القير، وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وأتقنه وكسوته بالملف، وصنعت له ركباً وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حريرو وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء، فصنع منها ما يشبه

التمر وغيره، وبعثت الجمل والحلواء إلى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال: يا خوند عالم رأيت العجب قال: وما ذلك؟ قال: فلان بعث جملًا عليه سرج فقال: اتوا به. فأدخل الجمل داخل السراجة، وأعجب به السلطان، وقال لراجلي: اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة، وعاد الرجل إليّ فأعلمني فسرني ذلك وأهديت له جملين بعد عودته إلى الحضرة.

ذكر الجملين اللذين أهديتها إليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك

ولما عاد إلي راجلي الذي بعثته بالجمل، فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسواً بصفائح الفضة المذهبة وكسوتها بالملف وصنعت رسناً مصفحاً بصفائح الفضة المذهبة، وجعلت لها جلين من زردخانة مبطنين، بالكمخا، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة، وصنعت أحد عشر طيفوراً، وملأتها بالحلواء، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير، فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام، غدوت عليه بالجمال، فأمر بها، فحركت بين يديه، وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين ابن الفلكي: بائيل ورداري، معنى ذلك: ارفع الخلخال، فرفعه ثم نظر إلى الطيافير فقال: جداري (جه داري) درآن طبقها حلوا است، معنى ذلك: ما معك في تلك الأطباق، حلواء هي؟ فقلت له: نعم فقال للفقير ناظر الدين الترمذي الواعظ: ما أكلت قط، ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها إلينا ونحن بالمعسكر، ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه فرفعت وقام إلى مجلسه، واستدعاني، وأمر بالطعام، فأكلت ثم سألتني عن نوع

الخلواء الذي بعثت له : فقلت له : يا خوند عالم ، تلك الخلواء أنواعها كثيرة ، ولا أدري عن أي نوع تسألون منها فقال : إيتوا بتلك الأطباق وهم يسمون الطيفور طبقاً ، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها ، فقال : عن هذا سألتك ، وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له : هذه يقال لها المقرصة ، ثم أخذ نوعاً آخر فقال : وما اسم هذه ؟ فقلت له هي لقيمات القاضي . وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري ، وينتسب إلى آل العباس رضي الله تعالى عنه ، وهو كثير المال ويقول له السلطان والدي ، فحسدني وأراد أن يخجلني فقال : ليست هذه لقيمات القاضي ، بل هي هذه وأخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان يازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكان كثيراً ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان فقال : يا خواجه أنت تكذب والقاضي يقول الحق . فقال له السلطان وكيف ذلك ؟ فقال : يا خوند عالم هو القاضي وهي لقيماته ، فإنه أتى بها فضحك السلطان وقال : صدقت . فلما فرغنا من الطعام أكل الخلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنيهة وأتاني الخازن فقال : ابعث أصحابك يقبضون المال ، فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة ، وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفاً التي هي دين علي ، وصرف الاثني عشر ألفاً التي أمر لي بها فيما تقدم ، بعد حط العشر على عاداتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة

وفي تاسع جمادى الأولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر ، وقاتل القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين ، وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية ، وقد تقدم ذكرهم فخرج الأمر بإقامتي في جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له ،

وتلك عاداتهم خوفاً من أن ينكر المبلغ، وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم، وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الأعزة، وأما البلديون فلم يعطوا شيئاً، وأمر لي السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين، الذي تقدم ذكره. وكان السلطان يعظم تربته تعظيماً شديداً، لأنه كان خديماً له ولقد رأيتُه إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه. وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة. وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته، وكان يعظم زوجته، ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمة وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر، واعتنى به من أجلها وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة. ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال: أنسا لا أودع ولا أفارق خوند عالم، فكان له في ذلك الخير، فقال له السلطان: إمض فتجهز للسفر، وقدمت بعده للوداع، وكنت أحب الإقامة، ولم تكن عاقبتها محمودة، فقال: مالك من حاجة فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لي: تكلم بلسانك فقلت له إن خوند عالم أمر لي بالقضاء، وما قعدت لذلك بعد وليس مرادي من القضاء إلا حرمة فأمرني بالعود للقضاء وعود النائبين معي، ثم قال لي: إيه؟ فقلت وروضة السلطان قطب الدين، ماذا أفعل بها؟ فإني رتبت فيها أربعمائة وستين شخصاً ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامهم. فقال للوزير بنجاء هزار ومعناه خمسين الفاً ثم قال: لا بد لك من غلة بديية يعني أعطه مائة الف من من الغلة، وهي القمح والأرز، ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلة الروضة والمن عشرون رطلاً مغربية. ثم قال لي ماذا أيضاً فقلت: إن أصحابي سجنوا بسبب القرى التي أعطيتموني، فإني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها أو الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفع عني ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هي إنعام عليك فقلت له: وداري التي أمرت لي بها مفتقرة إلى البناء فقال للوزير: عمارة كنيدي، أي معناه عمروها ثم قال لي: ديكر نماند، معناه

هل بقي لك كلام؟ فقلت له: لا فقال لي: وصية ديكر هست، معناه: اوصيك ان لا تأخذ الدين لثلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلي. أنفق على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (١) ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٣). فأردت أن أقبل قدمه، وأمسك رأسي بيده فقبلتها وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار، أعطيت منها من الديوان ستائة دينار، وزدت عليها الباقي، وبنيت بإزائها مسجداً واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان قد أمرني أن تبني عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع، بزيادة عشرين ذراعاً على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق، وأمر أن تشتري ثلاثون قرية تكون وقفاً عليها، وجعلها بيدي علي أن يكون لي العشر من فائدها على العادة.

ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيباً كترتيبهم بقيد الحياة، ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة، وهي مزينة. فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين، وهم يسمونهم الختميين، ورتبت من الطلبة ثمانين، ومن المعيدين، ويسمونهم المكررين، ثمانية، ورتبت لها مدرساً، ورتبت من الصوفية ثمانين، ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب، ورتبت صنفاً آخر يعرفون بالخاصية، وهم الفراشون والطباخون

(١) الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٧.

والدواودية والأبدارية ، وهم السقاءون والشربدارية الذين يسقون الشربة ،
 والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطر دارية
 والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعائة وستين ، وكان السلطان
 أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منّا من الدقيق ومثلها من اللحم ،
 فرأيت أن ذلك قليل ، والزرع الذي أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة
 وثلاثين منّا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر ، والنبات ،
 والسمن ، والتنبول ، وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء
 شديداً فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره ، وسافر الملك صبيح إلى السلطان
 بدولة آباد سأله عن حال الناس . فقال له لو كان بدھلي اثنان مثل فلان لما شكا
 الجهد ، فأعجب ذلك السلطان ، وبعث إلي بخلعة من ثيابه وكنت أصنع في
 المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم
 وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحماً فياكل الفقراء والمساكين ،
 وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه ولنذكر عاداتهم في
 ذلك .

ذكر عاداتهم في إطعام الناس في الولايم

وعاداتهم ببلاد الهند وبلاد السرا أنه إذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة
 جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهدي له
 أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص ، وجعل عليه الرقاق ، ورأس غنم مشوي ،
 وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالخلواء الصابونية مغطاة بأربع قطع من
 الخلواء كأنها الآجر وطبقاً صغيراً مصنوعاً من الجلد فيه الخلواء والسמושك ،
 ويغطي ذلك الوعاء بثوب قطن جديد . ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه
 نصف رأسه غنم ، ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه . ومن كان دون هؤلاء
 أيضاً جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه واول

ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك ، فامتنت أن يرفع رجالي ذلك إذ لم يكن لي به عهد وكذلك يبعثون أيضاً لدار كبراء الناس من طعام الولايم .

ذكر خروجي إلى هزار أمروها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف ، ونفذ لي الباقي في هزار أمروها . وكان والي الخراج بها عزيز الخمار ، وأميرها شمس الدين البذخشاني . فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة ، وتشكوا من تعسف عزيز الخمار . فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك . وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام ، وكان ذلك في أوان نزول المطر . فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي ، واستصحبت معي أخوين من المغنين المحسنين يغنيان لي في الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بجنور ، وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضاً ثلاثة إخوة من المغنين ، فاستصحبتهم . فكانوا يغنون لي نوبة والآخران نوبة .

ثم وصلنا إلى أمروها وهي بلدة صغيرة حسنة ، فخرج عمالها للقائي ، وجاء قاضيها الشريف أمير علي ، وشيخ زاويتها ، وأضافاني معاً ضيافة حسنة . وكان عزيز الخمار بموضع يقال له : أفغان بور ، على نهر السرو . وبيننا وبينه النهر ، ولا معدية فيه . فأخذنا الأثقال في معدية صنعناها من الخشب والنبات ، وجزنا في اليوم الثاني . وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه ، وضرب لنا سراجة . ثم جاء أخوه الوالي ، وكان معروفاً بالظلم ، وكانت القرى التي في عمالته ألفاً وخمسة قربة ، ومجباها ستون لكا في السنة ، له فيها نصف العشر . ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه ، أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر ، ولا تسقى منه

دابة. ولقد أقمنا عليه ثلاثاً. فما غرف منه أحد غرفة، ولا كدنا نقرب منه، لأنه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب، ويمر على الخشاش المسمومة، فمن شرب منه مات. وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر، وينزل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك. وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل. وبهذا الموضع جاء إلي جماعة من الفقراء الحيدرية، وعملوا السماع، وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم. وقد ذكرنا ذلك. وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة. وجاء شمس الدين لقتاله، فامتنع منه بداره. وبلغت شكاية أحدهما الوزير بداهلي، فبعث إلي الوزير وإلى الملك شاه أمير المالك بأمرها، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان، وإلى شهاب الدين الرومي أن ينظر في قضيتها. فمن كان على الباطل بعثناه مثقفاً إلى الحضرة. فاجتمعوا جميعاً بمنزلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى. منها أن خديماً له يعرف بالرضى المتلاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن. فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لي: ما شربت الخمر منذ خروجي من ملتان، وذلك منذ ثمانية أعوام. فقلت له: أو شربتها بملتان؟ قال: نعم، فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث^(١) ظهر عليه. وانصرفت عن أمرها. فكانت غيبتني نحو شهرين، وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة. وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه. فوُزِعَ على أهل القرى التي لنظره ثلاثون ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة. وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار. وركوب الحمير عندهم عيب كبير. وحميرهم صغار الأجرام، يسمونها اللاشة، وإذا أرادوا إشهار أحدهم بعد ضربه أركبوه الخمار.

(١) اللوث: البينة الضعيفة غير الكاملة.

ذكر مكرمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأوهري قد ترك عندي لما سافر ألفاً وستين تنكة، فتصرفت فيها، فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خدأوندرزاده قوام الدين، وكان قد قدم نائباً على الوزير. فاستقبحت أن أقول له: تصرفت في المال. فأعطيته نحو ثلثه. وأقمت بداري أياماً. وشاع أي مرضت. فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي. فلما رأي قال: ما أرى بك مرضاً؟ فقلت له: إني مريض القلب. فقال لي: عرفني بذلك. فقلت له: ابعث إلي نائبك شيخ الإسلام أعرفه به. فبعثه إلي فأعلمته، فعاد إليه فأعلمه. فبعث إلي بألف دينار دراهم. وكان له عندي قبل هذا ألف ثانٍ. ثم طلب مني بقية المال. فقلت في نفسي: ما يخلصني منه إلا صدر الجهان المذكور، لأنه كثير المال. فبعثت إليه بفرس مسرج، قيمته وقيمة سرجه ألف وستائة دينار، وبفرس ثانٍ قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وبغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار، وبتركش فضة، وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة. وقلت له: أنظر قيمة الجميع، وابعث إلي ذلك. فأخذ ذلك. وعمل لجميعه قيمة ثلاث آلاف دينار. فبعث إلي ألفاً، واقتطع الألفين. فتغير خاطري، ومرضت بالحمى، وقلت لنفسي: إن شكوت به إلى الوزير افتضحت. فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني وهو فتي السن، فرد علي ذلك، وبعث إلي مائتي تنكة واغزر، وخلصت من ذلك مالاً. فشتان بين فعل محمد ومحمد

ذكر خروجي من محلة السلطان

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التلنك، ووقع البواء

بعسكره، فعاد إلى دولة آباد، ثم وصل إلى نهر الكنك فنزل عليه، وأمر الناس بالبناء. وخرجت في تلك الأيام إلى محلته، واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك، ولازمت السلطان في تلك الأيام، وأعطاني من عتاق الخيل، لما قسمها على خواصه، وجعلني فيهم، وحضرت معه الوقعة على عين الملك والقبض عليه، وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو، لزيارة قبر الصالح البطل سالارعود (مسعود)، وقد استوفيت ذلك كله، وعدت معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها.

ذكر ما همّ به السلطان من عقابي وما تداركني من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أني ذهبت يوماً لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام، بالغار الذي احتفراه خارج دهلي، وكان قصدي رؤية ذلك الغار. فلما أخذه السلطان، سأل أولاده عن من كان يزوره، فذكروا اناساً أنا من جملتهم. فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور. وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة، فألهمني الله تعالى إلى تلاوة قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١) فقرأتها ثلاثاً وثلاثين ألف مرة، وبت بالمشور، وواصلت إلى خمسة أيام، في كل يوم منها أختم القرآن وأفطر على الماء خاصة، ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعاً، وتخلصت بعد قتل الشيخ، والحمد لله تعالى.

ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد

(١) آل عمران، الآية: ١١٧.

الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبدالله الغاري، وكان من الأولياء، وله كرامات كثيرة، فقد ذكرت منها ما شاهدهته عند ذكر اسمه. وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ، ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين. وكان الشيخ يواصل عشرة أيام، وربما واصل عشرين. فكنت أحب أن أواصل، فكان ينهائي ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة، ويقول لي: إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معي، فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير، وأعطيت ثياب ظهري لفقير، ولبست ثيابه. ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند.

ذكر بعث السلطان عني وإبائي الرجوع إلى الخدمة واجتهادي في العبادة

ولما بلغه خبر خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسوستان، فدخلت عليه في زي الفقراء، فكلمني أحسن كلام وأطفه، وأراد مني الرجوع إلى الخدمة فأبيت، وطلبت منه الإذن في السفر إلى الحجاز، فأذن لي فيه، وانصرفت عنه، ونزلت بزواية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير، وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة اثنتين وأربعين. فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان، وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام، وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام. وكنت أقرأ القرآن كل يوم، وأتهجد بما شاء الله. وكنت إذا أكلت الطعام آذاني، فإذا طرحته وجدت الراحة. وأقمت كذلك أربعين يوماً، ثم بعث عني ثانية.

ذكر ما أمرني به من التوجه إلى الصين في الرسالة

ولما كملت لي أربعون يوماً بعث إليّ السلطان خيلاً مسرجة وجواري وغلماً ثياباً ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته. وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة، لبستها أيام اعتكافي. فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسي. وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نوراً في باطني، ولم تزل عندي إلى أن سلبني الكفار في البحر. ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده، وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولاً إلى ملك الصين. فإني أعلم حبك في الأسفار والجولان. فجهزني بما أحتاج له، وعين للسفر معي من يذكر بعد.

ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معي وذكر الهدية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسة ثوب من الكمخا، منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجواهر، ومثلها من التراکش مزركشة، ومثلها سيوف. وطلب من السلطان يأذن له في بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره، ويعرف الموضع الذي هو به بِسَمَّهَل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء). وإليه يهجأ أهل الصين. وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخرّبوه وسلّبوه. ولما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية. فإن رضيت بإعطائها أجبنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى. وكافأة على هديته بخير منها، وذلك مائة

فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند، مغنيات ورواقص، ومائة ثوب بيرمية، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن، قيمة الثوب منها مائة دينار، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجَز (بضم الجيم وزاي)، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغاً بجمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية، ومثلها من الشيرين باف، ومثلها من الشان باف، وخمسة ثوب من المرعز، مائة منها سود، ومائة بيض، ومائة حمر، ومائة خضر، ومائة زرق، ومائة شقة من الكتان الرومي، ومائة فضلة من الملف، وسراجة، وست من القباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيلة، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من الفضة، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شواش من لباسه، إحداها مرصعة بالجواهر، وعشرة تراكش مزركشة، وأحدها مرصع بالجواهر، وعشرة من السيوف، أحدها مرصع الغمد بالجواهر، ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجواهر، وخسة عشر من الفتیان. وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم، والفتي كافور الشريدار، وإليه سلمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر. وتوجه صحبتنا إرسال ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلاً، يسمى كبيرهم ترسي، وخدامهم نحو مائة رجل. وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاد.

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين، وهو اليوم الذي اختاروه للسفر، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه، أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين. فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلاث من حضرة دهلي.

ورحلنا منها إلى منزل هيلوور^(١)، ورحلنا منه إلى مدينة بيّانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون)، وهي كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق، ومسجدها الجامع من أبداع المساجد، وحيطانه وسقفه حجارة. والأمير بها مظفر ابن الداية، وأمه هي داية للسلطان. وكان بها قبله الملك مجير ابن أبي الرجاء، أحد كبراء الملوك، وقد تقدم ذكره، وهو ينتسب إلى قريش وفيه تجبر، وله ظلم كثير. قتل من أهل هذه المدينة جملة، ومثل بكثير منهم.

ولقد رأيت من أهلها رجلاً حسن الهيئة قاعداً في أسطوان منزله، وهو مقطوع اليدين والرجلين. وقدم السلطان مرة على هذه المدينة، فتشكى الناس من الملك مجير المذكور. فأمر السلطان بالقبض عليه، وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم، فأمره السلطان بإرضائهم، فأرضاهم بالأموال. ثم قتله بعد ذلك. ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير ابن العوام رضي الله عنه، أحد كبار الفقهاء الصلحاء. لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني، المعروف بأعظم ملك. ثم رحلنا من بيّانة فوصلنا إلى مدينة كُول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين، وأكثر أشجارها العنبا. ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح. ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن العارفين، وهو مكفوف البصر معمر، وبعد ذلك سجنه السلطان، ومات في سجنه، وقد ذكرنا حديثه.

ذكر غزوة شهدناها بكول

ولما بلغنا إلى مدينة كول، بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي

(١) في بعض طبعات الكتاب، ورحلنا منه إلى منزل هيلو.

وأحاطوا بها، وهي على مسافة سبعة أميال من كول. قصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف، ولم يعلم الكفار بنا، حتى صدقنا الحملة عليهم، وهم في نحو ألف فارس، وثلاثة آلاف راجل، فقتلناهم عن آخرهم، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم، واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلاً، واستشهد الفتى كافور الساقى الذي كانت الهدية مسلمة بيده. فكتبنا إلى السلطان بخبره، وأقمنا في انتظار الجواب. وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع، فيغيرون على نواحي بلدة الجلاي. وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أسير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم.

ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده على يد ولي من أولياء الله تعالى

وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي، ودخلنا بستاناً ثقيل فيه، وذلك في فصل القيظ. فسمعنا الصياح، فركبنا ولحقنا كفاراً أغاروا على قرية من قرى الجلاي. فاتبعناهم فتفرقوا، وتفرق أصحابنا في طلبهم. وانفردت في خمسة من أصحابنا. فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك، ففررنا منهم لكثرتهم. واتبعني نحو عشرة منهم، ثم انقطعوا عني إلا ثلاثة منهم. ولا طريق بين يدي، وتلك الأرض كثيرة الحجارة. فنشبت يد فرسي بين الحجارة فنزلت عنه، واقتلعت يده، وعدت إلى ركوبه. والعادة بالهند أن يكون مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسراج ويسمى الركابي والآخر في التركش. فسقط سيفي الركابي من غمده، وكانت حليته ذهباً، فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت، وهم في أثري. ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه فكان آخر عهدي بهم.

ثم خرجت إلى واد في وسط شجراء ملتفة في وسطها طريق . فمشيت عليها ولا أعرف مننتهاها، فبينما أنا في ذلك خرج علي نحو أربعين رجلاً من الكفار بأيديهم القسي فأحدقوا بي، وخفت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت منهم. وكنت غير متدرع، فألقيت بنفسي إلى الأرض، واستأسرت. وهم لا يقتلون من فعل ذلك، فأخذوني وسلبوني جميع ما علي، غير جبة وقميص وسروال، ودخلوا بي إلى تلك الغابة، فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار، وأتوني بنخب ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء. وكان معهم مسلمان، كلما في بالفارسية، وسألاني عن شأني، فأخبرتها ببعضه وكتمتها أني من جهة السلطان فقلا لي: لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم، ولكن هذا مقدمهم. وأشاروا إلى رجل منهم، فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له. فوكل بي ثلاثة منهم، أحدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث. وكلمني أولئك الثلاثة، ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلي واحتملوني عشي النهار إلى كهف. وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة، فوضع رجله علي، ونام الشيخ وابنه. فلما أصبح الصباح، تكلموا فيما بينهم، وأشاروا إلي بالنزول معهم إلى الحوض، وفهمت أنهم يريدون قتلي. فكلمت الشيخ وتلطفت إليه فرق لي، وقطعت كمي قميصي وأعطيته إياهما، لكي لا يأخذه أصحابه في إن فررت.

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاماً عند الحوض، فظنوا أنهم أصحابهم. فأشاروا إلي بالنزول معهم، فنزلنا ووجدنا قوماً آخرين، فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم فأبوا. وجلس ثلاثتهم أمامي، وأنا مواجه لهم. ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليهم وأقول في نفسي، بهذا الحبل يربطوني عند القتل. وأقمت كذلك ساعة، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني، فتكلموا معهم، وفهمت أنهم قالوا لهم: لأي شيء ما قتلتموه؟ فأشار الشيخ إلى الأسود، كأنه اعتذر بمرضه. وكان أحد هؤلاء الثلاثة شاباً حسن

الوجه، فقال لي: أتريد أن أسرحك؟ فقلت: نعم. فقال: اذهب. فأخذت الحبة التي كانت علي فأعطيتها إياها، وأعطاني منيرةً بالية عنده وأراني الطريق، فذهبت وخفت أن يبدو لهم، فيدركونني. فدخلت غيضة قصب وأخفيت نفسي فيها إلى أن غابت الشمس.

ثم خرجت وعلقت الطريق التي أراها الشاب، فأضت بي إلى ماء فشربت منه، وسرت إلى ثلث الليل، فوصلت إلى جبل، فتمت تحته. فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى إلى جبل من الصخر عالٍ فيه شجر أم غيلان والسدر، فكنت أجني النبق فأكله حتى أتر الشوك في ذراعي آثاراً هي باقية حتى الآن.

ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزروعة قطناً، وبها أشجار الخروع، وهنالك باين، والباين عندهم بئر متسعة جداً مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس، ويتفاخر ملوك البلاد وأمرؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها، وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد. ولما وصلت إلى البايين شربت منه ووجدت عليه شيئاً من عساليج الخردل، قد سقطت لمن غسلها، فأكلت منها، وادخرت باقيها، ونمت تحت شجرة خروع. فبينما أنا كذلك إذ ورد البايين نحو أربعين فارساً مدرعين، فدخل بعضهم إلى المزرعة. ثم ذهبوا، وطمس الله أبصارهم دوني. ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح، ونزلوا إلى البايين. وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها، فلم يشعر بي، ودخلت إذ ذاك في مزرعة القطن، وأقمت بها بقية نهاري. وأقاموا على البايين يغسلون ثيابهم ويلعبون. فلما كان الليل هدأت أصواتهم. فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا، فخرجت حينئذ، واتبعت أثر الخيل والليل مقمر، وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر عليه قبة، فنزلت إليه وشربت من مائه، وأكلت من

عساليج الخردل التي كانت عندي، ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير، فنمت بها. وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد. فلما أصبحت سلكت طريقاً واسعة تفضي إلى قرية خربة، وسلكت سواها، فكانت كمثليها. وأقمت كذلك أياماً، وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة، بينها حوض ماء، وداخلها شبه بيت، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره. فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العجارة. ثم إني وجدت سير قوة، فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر، ووجدت ثوراً عليه بردعة ومنجل، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرى الكفار. فاتبعت طريقاً أخرى، فأفضت بي إلى قرية خربة. ورأيت بها أسودين عريانين فحفتها، وأقمت تحت أشجار هنالك. فلما كان الليل دخلت القرية، ووجدت داراً في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة، يصنعونها لاختزان الزرع، وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل، فدخلتها ووجدت داخلها مفروشاً بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت. وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين.

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت، وهو يوم السبت. وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة، وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني، فوجدت حول بئر بها أوراق فجل فأكلتها. وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة، فدعاني طليعتهم فلم أجبه، وقعدت إلى الأرض. فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفع ليضربني به، فلم ألتفت إليه لعظيم ما بي من الجهد، ففتشني فلم يجد عندي شيئاً، فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كمي له للشيخ الموكل بي.

ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وهدمت الماء، ووصلت إلى قرية خراب، فلم أجد بها حوضاً. وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضاً يجتمع بها

ماء المطر فيشربون منه جميع السنة. فاتبعت طريقاً، فافضت بي إلى بئر غير مطوية، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها، فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل، وامتصصت ما تعلق بها من الماء، فلم يروني، فربطت خفي واستقيت به فلم يروني، فاستقيت به ثانياً، فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر، فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت، ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بجبل البئر، وبخرق وجدتها هنالك. فبينما أنا أربطها وأفكر في حالي إذ لاح لي شخص، فنظرت إليه فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز، وسلى كاهله جراب. فقال لي: سلام عليكم. فقلت له: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقال لي بالفارسية: جيكس (جه كسى) معناه: من أنت؟ فقلت له: أنا تائه. فقال لي: وأنا كذلك. ثم ربط إبريقه بجبل كان معه واستقى ماء، فأردت أن أشرب، فقال لي: إصبر. ثم فتح جرابه، فأخرج منه غرفة حص أسود مقلي مع قليل أرز، فأكلت منه وشربت، وتوضأ وصلى ركعتين، وتوضأت أنا وصليت. وسألني عن اسمي. فقلت له: محمد، وسألته عن اسمه فقال لي: القلب الفارح. فتفاءلت بذلك وسررت به. ثم قال لي: بسم الله. ترافقني؟ فقلت: نعم. فمشيت معه قليلاً، ثم وجدت فتوراً في أعضائي، ولم أستطع النهوض فقعدت. فقال لي: ما شأنك؟ فقلت له: كنت قادراً على المشي قبل أن ألقاك، فلما لقيتك عجزت. فقال: سبحان الله، اركب فوق عنقي. فقلت له: إنك ضعيف، ولا تستطيع ذلك. فقال: يقويني الله. لا بد لك فركبت على عنقه. وقال لي أكثر من قراءة: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثرت من ذلك.

وغلبتني عيني فلم أفق إلا لسقوطني على الأرض. فاستيقظت، ولم أر للرجل أثراً، وإذا أنا في قرية عامرة، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين، فأعلموه بي فجاء إلي فقلت له: ما اسم هذه القرية؟ فقال لي: تاج

بوره. وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان. وحلني ذلك الحاكم إلى بيته، فأطعمني طعاماً سخناً واغتسلت. وقال لي: عندي ثوب وعمامة أودعها عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول. فقلت له: هاتها ألبسها إلى أن أصل إلى المحلة. فأتى بها، فوجدتها من ثيابي التي كنت قد وهبتها لذلك العربي لما قدمنا كول. فطال تعجبي من ذلك.

وفكرت في الرجل الذي حلني على عنقه، فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي، حسبما ذكرناه في السفر الأول، إذ قال لي: ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ويخلصك من شدة تقع فيها. وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال: القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه، وأنه من الأولياء. ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكر، وأتيت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلماً لهم بسلامتي، فجاءوا إلي بفرس وثياب، واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم، وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار، عوضاً من كافور المستشهد، وأمرنا أن نتأدى على سفرنا. ووجدتهم أيضاً قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري، وتشاءموا بهذه السفارة لما جرى فيها علي وعلى كافور، وهم يريدون أن يرجعوا. فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم، وقوي عزمي. فقالوا: ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفارة؟ والسلطان يعذرك، فلنرجع إليه أو تقيم حتى يصل جوابه. فقلت لهم: لا يمكن المقام، وحيثما كنا أدركنا الجواب. فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره، وبه زاوية حسنة، فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان، لأنه لا يلبس عليه إلا ثوباً من سرتة الى أسفل، وباقى جسده مكشوف. وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به.

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى، قائماً على قدم التجرد، يلبس تنورة وهو ثوب

يستر من سرته إلى أسفل. ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وإدام وماء، وفرقه على المساكين، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم. وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزاً وفولاً. فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته، فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء، ويقول لمن أخذ منه ذلك: اقعد، حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلاً أو كثيراً. ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دمشق ما عدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق، بموضع يقال له قشحب. والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع. وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل. وأخذ قيداً فقيد به فرس الملك الناصر لثلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين. فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه. ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها. وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الواقعة وهو حديث السن. ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف باب سياه، ثم رحلنا إلى مدينة قِنُوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دهلي. وعليها سور عظيم، وقد تقدم ذكرها. وكان بها الشيخ معين الدين الباخري، أضافنا بها، وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى. وسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد شرف جهان، وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد، وهو من المحسنين المتصدقين، وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه.

حكاية

يذكر أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء، فادعى أحدهم عند القاضي

الذي ولي بعده أن له عشرة الاف دينار قبله، ولم تكن له بيعة، وكان قصده أن يحلفه. فبعث القاضي له، فقال لرسوله: بِمَ ادعى علي؟ فقال: بعشرة آلاف دينار. فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف، وسلمت للمدعي. وبلغ خبره السلطان علاء الدين، وصح عنده بطلان تلك الدعوى، فأعادته إلى القضاء، وأعطاه عشرة آلاف. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه إن لم يظهر لفلان أثر، فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضاً منه. ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة، ثم وصلنا إلى مدينة مَوْرِي (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة، ولها أسواق حسنة. ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بجيدر الفرغاني، وكان بحال مرض، فدعاني وزودني رغيف شعير، وأخبرني أن عمره ينيف على مائة وخمسين، وذكر لي أصحابه أنه يصوم الدهر، ويواصل كثيراً، ويكثر الاعتكاف، وربما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتات فيها بأربعين تمرّة، في كل يوم واحدة. وقد رأيت بداهلي الشيخ المسمى بربج البرقي دخل الخلوة بأربعين تمرّة فأقام بها أربعين يوماً ثم خرج، وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرّة. ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مَرّه وضبط اسمها (بفتح وسكون الراء وهاء)، وهي مدينة كبيرة، أكثر سكانها كفار تحت الذمة، وهي حصينة. وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها، ومنها يحمل إلى دهلي، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة، ولم أر قمحاً مثله إلا بأرض الصين. وتنسب هذه المدينة إلى المألوة (بفتح اللام)، وهي قبيلة من قبائل الهنود كبار الأجسام عظام الخلق حسان الصور، لنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة. وكذا نساء المرهته ونساء جزيرة ذيبة المهل. ثم سافرنا إلى مدينة علاّبور (وضبط اسمها بفتح العين ولام والفاء وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة، وعلى مسيرة يوم منها سلطان

كافر اسمه قَمَمَ (بفتح القاف والتاء المعلوّة) وهو سلطان جَنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذي حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك .

حكاية

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري، وهي على نهر اللجون، كثيرة القرى والمزارع. وكان أميرها خطاب الأفغاني، وهو أحد الشجعان. واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور، وحاصر مدينة رابري، فبعث خطاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة، فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه، فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المالك، ونحو أربعمائة من سائر الناس، وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم، وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى. وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم الناس، وفتحوا الباب عند الصبح، وحلوا على الكفار حملة واحدة، وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً، فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانهم: قَمَمَ ورجو، وبعثوا برؤسها إلى السلطان. ولم ينبج من الكفار إلا الشريد.

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان، وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال، وكان لا يزال يغير على الكفار منفرداً بنفسه، فيقتل ويسبي، حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار.

وكان طويلاً ضخماً يأكل الشاة عن آخرها في أكلة. وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة ببلادهم، وكان له ابن يدانيه في الشجاعة. فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية

للكفار فوقع به الفرس في مطمورة، واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم
بِقَتَّارة، والقَتَّارة (بقاف معقود وتاء معلولة) حديدة شبه سكة الحرث، يدخل
الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين، وضربتها لا تبقي،
فقتله بتلك الضربة ومات فيها. وقاتل عبيده أشد القتال، فتغلبوا على القرية
وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأخرجوا الفرس من المطمورة سالماً، فأتوا به ولده.
فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي، فخرج عليه
الكفار، فقاتلهم حتى قتل، وعاد الفرس إلى أصحابه، فدفعوه إلى أهله، فركبه
صهر له، فقتله الكفار عليه أيضاً. ثم سافرنا إلى مدينة كَالِيُور (وضبط اسمها
بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه
أيضاً: كيالير، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق، على بابه
صورة فيل وفيال من الحجارة، وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين.
وأمر هذه المدينة أحمد بن سيرخان، فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل
هذه السفارة، ودخلت عليه يوماً وهو يريد توسط رجل من الكفار، فقلت له:
بالله لا تفعل ذلك، فإني ما رأيت أحداً قط يقتل بمحضري، فأمر بسجنه.
وكان ذلك سبب خلاصه. ورحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة بَرُونَ (وضبط
اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة
للمسلمين بين بلاد الكفار، أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل. والسباع بها
كثيرة، وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً، وأبوابها مغلقة
فيفترس الناس. حتى قتل من أهلها كثيراً، وكانوا يعجبون في شأن دخوله.

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها، وكان جاراً لي بها أنه دخل داره ليلاً
وافترس صبيّاً من فوق السرير. وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس
فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد فخرج أصحابه في طلبه، فوجدوه مطرحاً
بالسوق وقد شرب دمه، ولم يأكل لحمه. وذكروا أنه كذلك فعله بالناس. ومن

العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع، وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية، يتصور في صورة سبع. ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة. ولنذكر بعضاً من أخبار هؤلاء السحرة.

ذكر السحرة الجوكية

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم العجائب، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه. فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة. ورأيت بمدينة منجور رجلاً من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبله، وأقام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً، وتركته كذلك. فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركبون حبوباً، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر، فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب. ويخبرون بأمر معيبة. والسلطان يعظمهم ويجالسهم. ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون. والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة. ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها. ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظرتة، وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر، وشق عن صدر الميت، وجد دون قلب. ويقولون: أكل قلبه. وأكثر ما يكون هذا في النساء. والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار.

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط، والسلطان ببلاد التلنك، نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم. فجمعهم الوزير، ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم.

فكان عندي منهم خميائة نفس، فعمرت لهم سقائف في وادٍ^(١)، وأسكنتهم بها. وكنت أعطيتهم نفقتهم خمسة أيام. فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم وقالوا: إنها كفتارة. وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها، وأتوا بالصبي ميتاً. فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان، فأمر باختبارها. وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون، فلم تغرق. فعلم أنها كفتار، ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار. فأمر بإحراقها بالنار. وأتى أهل البلد رجالاً ونساء فأخذوا رمادها. وزعموا أنه من تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار.

حكاية

بعث إلي السلطان يوماً وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف، ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد، كما ينتف الناس آباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة، فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم. فتربع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا، فعجبت منه، وأدركني الوهم فوقعت على الأرض. فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حاله متربع. فأخذ صاحبه نعلًا له من شكاراة كانت معه فضرب بها الأرض كالمغناظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل. ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان،

(١) في بعض طبقات الكتاب: في دارين.

ومرضت ، حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني .

وللهد لما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا ، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائس فيها الأصنام ، قد مثل بها المسلمون . وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق ، وعلى أركانه الأربع قباب . ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ، وقد لبدوا شعورهم ، وطالت ، حتى صارت في طولهم ، وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة . وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى . وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان ، وكانوا نحو الخمسين . فحفر لهم غاراً تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن^(١) يضربونه أول النهار وآخره ، وبعد العتمة . وشأنهم كله عجب . ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً يأكلها تقويه على الجوع ، وكان من أخلاطها برادة الحديد فأعجبه فعلها ، فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات . وولي ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكي ورفع قدره .

ثم سافرنا إلى مدينة جَنْدِيرِي (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتاني وهو المدعو بأعظم ملك ، وكان خيراً فاضلاً يجالس أهل العلم . ومن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري ، والفقيه العالم وجيه الدين البياني نسبة إلى مدينة بيانة ، التي تقدم ذكرها ، والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصة ،

(١) القرن : البوق .

وإمامهم شمس الدين، وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين، ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان، وبين يديه تعرض العساكر. وأعظم ملك لا يظهر إلا في يوم الجمعة أو في غيرها نادراً. ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم)، وهي مدينة المالوة، أكبر عمار تلك البلاد، وزرعها كثير، خصوصاً القمح. ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي وبينهما أربعة وعشرون يوماً، وعلى الطريق بينها أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين. فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه، وما بقي له إلى المنزل وإلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه. ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل.

حكاية

كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها، فأحيا أرضاً مواتاً هنالك. وصار يزدرعها بطيخاً، فتأتي في الغاية من الحلاوة. ليس بتلك الأرض مثلها. ويزرع الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله، وكان يطعم الفقراء والمساكين. فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخاً فقبله واستطابه، وأقطعه مدينة ظهار، وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها. فعمرها أحسن عمارة، وكان يطعم بها الوارد والصادر، وأقام على ذلك أعواماً. ثم قدم على السلطان وحل إليه ثلاثة عشر لكاً، فقال: هذا فضل مما كنت أطعمه الناس، وبيت المال أحق به. فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله، لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في إطعام الطعام. وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان أن يفتك بخاله، ويستولي على أمواله، ويسير إلى القائم ببلاد المعبر. فسمى خبره إلى خاله فقبض عليه، وعلى جماعة من الأمراء، وبعثهم إلى السلطان، فقتل الأمراء، ورد ابن أخته إليه فقتله الوزير.

حكاية

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه، وكانت له جارية يحبها. فاستحضرها وأطعمها التنبول وأطعمته، وعانقها مودعاً، ثم طرح للفيلة، وسلخ جلده وملئ تبناً. فلما كان من الليل، خرجت الجارية من الدار، فرمت بنفسها في بئر هنالك تقرب من الموضع الذي قتل فيه، فوجدت ميتة من الغد، فأخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد، وسمي قبور (كور) عاشقان. وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين. ثم سافرنا من مدينة ظهار إلى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة. وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك، من الفضلاء الكرماء العلماء، استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها. وقد زرت قبره هنالك، وسنذكره. وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل. ثم سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي، في رفعة قدرها واتساع خطتها. وهي منقسمة ثلاثة أقسام: أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره، والقسم الثاني اسمه الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلو التي بينها)، والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الداك المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء). وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلو خان معلم السلطان وهو أميرها، والنائب عن السلطان بها، وبلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف إلى ذلك، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر، عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسط من الأرض، قد نُحِتت وبني بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلاً. ويسكن بها المفردون وهم الزماميون بأولادهم. وفيها سجن أهل الجرائم

العظيمة في جيوب بها. وبها فيران ضخام أعظم من القطوط، والقطوط (١) تهرب منها، ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها. ولا تصاد إلا بجبل تدار عليها. وقد رأيتها هناك، فعجبت منها.

حكاية

أخبرني الملك خطاب الأفغاني أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة، يسمى جب الفيران. قال: فكانت تجتمع علي ليلاً لتأكلني. فأقاتلها، وألقى من ذلك جهداً. ثم إني رأيت في النوم قائلاً يقول لي: إقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة، ويفرج الله عنك. قال: فقرأتها. فلما أتممتها أخرجت. وكان سبب خروجي أن ملك مل كان مسجوناً في جب يجاورني فمرض. وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات. فبلغ ذلك السلطان فقال: أخرجوا خطاباً لثلاثين مثله مثل ذلك. وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك المذكور، والقاضي جلال، حين هزمها السلطان. وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن، وخصوصاً في الأنوف والحواجب. ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بمركات الجماع ما ليس لغيرهن. وكفار هذه المدينة أصحاب تجارة. وأكثر تجارتهم في الجواهر، وأمواهم طائلة. وهم يسمون الساهة وأحدهم ساه ياهمال السين، وهم الأكارم بديار مصر. وبدولة آباد العنب والرمان. ويشمران مرتين في السنة. وهي من أعظم البلاد مجي، وأكبرها خراجاً، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها. وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعاً. وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر، بسبعة عشر كروراً، والكرور مائة لك، واللك مائة ألف دينار. ولكنه لم يف بذلك، فبقي عليه بقية، وأخذ ماله وسلخ جلده.

(١) يريد: القطط.

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد ، من أجل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة . كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير ، تجلس فيه المغنية أو ترقد ، وهي متزينة بأنواع الحلي ، وجواربها يركن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس ، وبين يديه خدامه ومماليكه . وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى ، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ، ثم ينصرف . وفي تلك السوق المساجد للصلاة . ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ، وتغني المغنيات بين يديه . وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً . ثم سافرنا إلى مدينة نَدْرَبَار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهته ، وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون . وشرفاء المرهته هم البراهمة ، وهم الكثيرون أيضاً . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة ، ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد . لا يشربون الخمر ، وهي عندهم أعظم المعائب . وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين . ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة ، وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر ، لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضاً صاغر كاسمها . وعليه النواعير والبساتين . فيها العنب والموز وقصب السكر .

وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة. وأحوالهم كلها مرضية. ولهم بستان فيها الزوايا للوارد والصادر. وكل من يبني زاوية يجبس البستان عليها، ويجعل النظر فيه لأولاده. فإن انقضوا عاد النظر للقضاة. والعمارة بها كثيرة. والناس يقصدونها للتبرك بأهلها، ولكونها محررة من المغارم والوظائف.

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كِنْبَاية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهي على خور من البحر، وهو شبه الوادي، تدخله المراكب وبه المد والجزر. وعاينت المراكب به مُرْسَاةً في الوحل حين الجزر، فإذا كان المد عامت في الماء. وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد. وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء. فهم أبدأً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك. ومن الديار العظيمة بها دار الشريف البامري الذي اتفقت لي معه قضية الخلواء، وكذبه ملك الندماء. ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة. وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه. ومنها دار ملك التجار الكازروني، وإلى جانبها مسجده، ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه وز^(١) ومعناه خياط الشواشي.

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذة لباس، وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره، على أن يمتنعوا منه بهذه المدينة. وشرعوا في حفر خندق عليها إذ لا سور لها، فتغلب عليهم ودخلها. واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة،

(١) في بعض طبعات الكتاب: كلاه نور، وكلاه دوز.

وخافوا أن يتطلع عليهم. فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة، وقد ذكرنا صفتها، فمات اثنان منهم، ولم يميت ملك الحكماء. وكان من كبار التجار أيضاً بها نجم الدين الجيلاني، وكان حسن الصورة كثير المال، وبنى بها داراً عظيمة ومسجداً. ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها وأعطاه المراتب. فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله. وكان أمير كنباية حين وصلنا إليها مقبل التلنكي، وهو كبير المنزلة عند السلطان. وكان في صحبته الشيخ زاده الأصبهاني نائباً عنه في جميع أموره. وهذا الشيخ له أموال عظيمة، وعنده مرفقة بأموال السلطنة. ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده، ويتحيل في الفرار. وبلغ خبره إلى السلطان، وذكر عنه أنه يروم الهروب. فكتب إلى مقبل أن يبعثه فبعثه على البريد، وأحضر بين يدي السلطان ووكل به. والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو. فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه، وهربا جميعاً. وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهمات، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده، فحصل على أمواله، وأمن مما كان يخافه.

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوماً بداره، فكان من النادر أن جلس قاضي المدينة، وهو أعور العين اليمني، وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره، إلا أنه أعور اليسرى. فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويضحك. فزجره القاضي، فقال له: لا تزجرني، فإني أحسن منك. قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك أعور اليمني، وأنا أعور اليسرى. فضحك الأمير والحاضرون. وخجل القاضي، ولم يستطع أن يرد عليه. والشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم. وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر، وسكناه بقبة من قباب الجامع. دخلنا إليه، وأكلنا من طعامه. واتفق له لما دخل القاضي

جلال مدينة كنباية حين خلافه، أنه أتاه، وذكر للسلطان أنه دعا له. فهرب لثلاثا يقتل كما قتل الحيدري. وكان بها أيضاً من الصالحين التاجر خواجه إسحاق، وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر، وينفق على الفقراء والمساكين. وماله على هذا ينمو ويزيد كثرة. وسافرنا من هذه المدينة إلى بلد كاوي، وهي على خور فيه المد والجزر وهي من بلاد الري جالنسي الكافر، وسنذكره. وسافرنا منها إلى مدينة قنّدهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء والفاء وراء)، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر.

ذكر سلطان قندهار

سلطان قندهار كافر اسمه جالّنسي (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل)، وهو تحت حكم الإسلام، ويعطي لملك الهند هدية كل عام. لما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا، وعظمتنا أشد التعظيم، وخرج عن قصره فأنزلنا به. وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين كأولاد خواجه بهره. ومنهم الناخوذة إبراهيم، له ستة من المراكب مختصة له. ومن هذه المدينة ركبنا البحر.

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا في مركب لإبراهيم المذكور تسمى الجّاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة). وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرساً، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لأخي إبراهيم المذكور يسمى متّورّت (بفتح الميم ونون وواو مد وراء مسكن وتاء معلوّة) وأعطانا جالنسي مركباً جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابها، وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف. وبعث معنا ولداً في مركب يسمى العُكّيّري (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء)، وهو شبه الغراب، إلا أنه أوسع منه. وفيه ستون مجذافاً. ويسقف حين القتال حتى لا ينال

الجدافين شيء من السهم ولا الحجارة. وكان ركوبي أنا في الجاكر، وكان فيه خمسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشة، وهم زعماء هذا البحر. وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم. ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بَيْرَم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء)، وهي خالية. وبينها وبين البر أربعة أميال. فنزلنا بها، واستقينا الماء من حوض بها. وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها، وبنى سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين.

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قُوقة وهي (بضم القاف الأولى وفتح الثانية)، وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق، فرسينا^(١) على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشاري مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها، فوحد العشاري في الطين، وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا في الوحد أتوكأ على رجلين من أصحابي وخوفي الناس من وصول المد قبل وصولي إليها، وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها، وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجداً ينسب للخضر وإلياس عليهما السلام. صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب.

ذكر سلطان قوقة

وسلطانها كافر يسمى دُنْكَوَل (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام). وكان يظهر الطاعة لملك الهند، وهو في الحقيقة عاص. ولما أقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والفاء وباء موحدة وواو مد

(١) الأصح أن يقال: قَرَسُونَا.

وراء)، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور، وإذا كان الجزر فهاؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج. وفي وسطها مدينتان: إحداها قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخوذة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري، وسيأتي ذكره. وذكر عند حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني إن شاء الله. وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء، ووجد بها أحد الجوكية.

حكاية هذا الجوكي

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكياً مستنداً إلى حائط بدخانة، وهي بيت الأصنام، وهو فيما بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة. فكلمناه فلم يتكلم، ونظرنا هل معه طعام، فلم نر معه طعاماً. وفي حين نظرنا، صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه، ودفعها لنا. فعجبنا من ذلك، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها. وأتيناها بزاد فرده. وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدي، فدفعها لي. وكانت بيدي سبحة زيلع فقلبتها في يدي فأعطيته إياها، ففركها بيده وشمها وقبلها، وأشار إلى السماء، ثم إلى سمت القبلة. فلم يفهم أصحابي إشارته، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من تلك الجوز. ولما ودعناه قبلت يده. فأنكر أصحابي ذلك. ففهم إنكارهم. فأخذ يدي وقبلها وتبسم، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا.

وكنت آخر أصحابي خروجاً، فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه. فأعطاني عشرة دنانير. فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي: لمَّ جذبك؟ فقلت لهم: أعطاني

هذه الدنانير وأعطيت لظهير الدين ثلاثة منها، ولسنبل ثلاثة، وقلت لها: الرجل مسلم، ألا ترون كيف أشار إلى السماء؟ يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القبلة، يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام، وأخذُ السبحة يصدق ذلك. فرجعا لما قلت لها ذلك إليه فلم يجدها. وسافرنا تلك الساعة. وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنُور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء)، وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار. والمدينة على نصف ميل من البحر. وفي أيام البشكال، وهو المطر، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه. وفي يوم وصولنا إليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة، وأعطاني ستة دنانير، وقال لي: البرهمي بعثها إليك، يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة. وأعطاني الدنانير فأخذتها منه، وأعطيته ديناراً منها فلم يقبله، وانصرف. وأخبرت صاحبي بالقضية، وقلت لها: إن شئتما فخذنا نصيبكما منها، فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه. وقال لي: إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناها. فطال عجبني من أمره، واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها. وأهل مدينة هِنُور شافعية المذهب. لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة، وبذلك عرفوا، حتى أذلم الزمان بعد فتحهم لسندابور، وسنذكر ذلك. ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري، أضافني بزأوته. وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام. ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس، والقاضي بها نور الدين علي، والخطيب لا أذكر اسمه. ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط، وإنما يلبسن ثياباً غير مخيطة. تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها. ولهن جمال وعفاف. وتجعل إحداهن خرص ذهب في أنفها. ومن خصائصهن أمنهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم. ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر

مكتباً لتعليم البنات، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد. ولم أر ذلك في سواها. ومعاش أهلها من التجارة في البحر. ولا زرع لهم. وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئاً معلوماً، خوفاً منه لقوته في البحر. وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة.

ذكر سلطان هنور

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن، من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب، سنذكره. والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة. وعادته أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح، فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر، فيصلي أول وقت، ثم يركب إلى خارج المدينة. ويأتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد، فيركع فيه ثم يدخل فيه، ثم يدخل إلى قصره. وهو يصوم الأيام البيض^(١) وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإفطار معه فأحضر لذلك، ويحضر الفقيه علي والفقيه إسماعيل. فتوضع أربع كراسي صغار على الأرض. فيقعد على إحداها، ويقعد كل واحد منا على كرسي.

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه ان يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام)، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير، فتقدم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغرفة نحاس كبيرة، فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة، وتجعلها في الطالم، وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المماوح والعنبا^(٢)، فيأكل الإنسان لقمة، ويتبعها بشيء من تلك المماوح. فإذا تمت الغرفة التي جعلها في

(١) الأيام البيض من كل شهر هي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري، وهي التي تبيض ليلها بالقمر، وقد كره الإمام مالك رضي الله عنه تخصيصها بالصيام خشية اعتقاد تحديدها، فإن السنة صيام ثلاثة أيام من كل شهر بدون تحديد.

(٢) العنبا: ثمر المانغا.

الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز، وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة، فيؤكل بها الأرز أيضاً. فإذا تمت العرفة الثانية، وغرفت وأفرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به. فإذا تمت ألوان الدجاج، أتوا بألوان من السمك، فيأكلون بها الأرز أيضاً. فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن، والألباب فيأكلون بها الأرز، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان، وهو اللبن الرائب، وبهذا يختمون طعامهم. فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل يعده. ثم يشربون على ذلك الماء السخن، لأن الماء البارد يضرّ بهم في فصل نزول المطر. ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهراً لم آكل خبزاً، إنما طعامهم الأرز. وبقيت أيضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز، حتى كنت لا أستسيغه إلا بالماء. ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق، يشد في وسطه فوطه، ويلتحف ملحفتين: إحداها فوق الأخرى. ويقص شعره، ويلف عليه عمامة صغيرة. وإذا ركب لبس قباء، والتحف بملحفتين فوقه. وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال. وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام. وزودنا وسافرنا عنه.

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المَلِّيَّار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة والفاء وراء)، وهي بلاد الفلفل. وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار. وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر. وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها. فمن كان كافراً سقاه في الأواني، ومن كان مسلماً سقاه في يديه. ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف. وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم، ولا يطعم في أوانيتهم. فإن طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين، طبخوا له الطعام

وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطيور . وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ، ويطبخون لهم الطعام . ولولاهم لما سافر فيه مسلم . وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل إنسان بستانه على حدة وداره في وسطه . وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر في البساتين . فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر . هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يستطع أن يركب في دولة^(١) ، مشى على قدميه كائناً من كان . ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكرت رجالاً يحملونه على ظهورهم . فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها ، يحملون أمتعته ، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد ، وفي أعلاه مخطاف حديد ، فإذا أعيأ ولم يجد دكانةً يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض ، وعلق حمله منه ، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ، ومضى به . ولم أر طريقاً آمناً من هذا الطريق . وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة . فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد ، حتى يأخذه صاحبه . وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة . وبلغ خبره إلى الحاكم ، فأمر بعود ، فركز في الأرض وبرى طرفه الأعلى ، وأدخل في لوح خشب حتى برز منه . ومد الرجل على اللوح ، وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره ، وترك عبرة للنظرين . ومن هذه العيdan على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعضوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق

(١) محل يشبه المحفة .

فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز . والمسلمون أعز الناس بها ، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم . وفي بلاد الملبار اثنا عشر سلطاناً من الكفار . منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً ، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم ألبتة ، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جنابة من بلاد أحدهم ووصل الى باب أمان الآخر أمن على نفسه . ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه ، وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش . وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوفة أهل الثلم (الثمام) ، وسندكرهم فيما بعد . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد الملبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه ، فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفلفل

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يفرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي إلا أنها ليس لها عسلوج ، وهو الغزل كما للدوالي . وأوراق شجره تشبه آذان الخيل . بعضها يشبه أوراق العليق ، ويشمر عناقيد صفاراً . حبها كحب أبي قنينة ، إذا كانت خضراء . وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس . كما يصنع بالعنب عند تزبيبه . ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يسه ، ثم يبيعونه من التجار . والعامّة ببلادنا يزعمون أنهم يقلبونه بالنار . وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش ، وليس كذلك ، وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيت بمدينة قالقوط ، يصب للكيل ، كالذرة ببلادنا . وأول مدينة دخلناها من بلاد الملبار مدينة أبي سرور (بفتح السين) ، وهي صغيرة على خور كبير ، كثيره أشجار النارجيل . وكبير المسلمين بها الشيخ جمعه المعروف

بأبي ستة، أحد الكرماء. أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفذت. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكَنُور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد. وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب. وعمر بها حسين المذكور مسجداً لإقامة الجمعة.

ذكر سلطان فاكَنُور

وسلطان فاكَنُور كافر اسمه باسَدَوُ (بفتح الباء الموحد والسين المهمل والدادال المهمل وسكون الواو)، وله نحو ثلاثين مركباً حربياً قائدها مسلم يسمى لولا، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار. ولما أرسينا على فاكَنُور، وبعث سلطانها إلينا ولده، فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا إليه. فأضافنا ثلاثاً بأحسن ضيافة تعظيماً لسلطان الهند، وقياماً بحقه رغبة فيما يستفيدة في التجارة مع أهل مراكبنا. ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها، وإعطائه هدية إلى صاحب البلد، يسمونها حق البندر. ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم، وأدخلوه المرسى قهراً، وضاعفوا عليه المغرم، ومنعوه عن السفر ما شاءوا. وسافرنا منها، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة مَنَجَرُور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور، يسمى خور الدُّنْب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة)، وهو أكبر خور ببلاد المليبار. وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن. والفلفل والزنجبيل بها كثير جداً.

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رَامَ دَوُ (بفتح الراء والميم والدادال المهمل وسكون الواو)، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين، يسكنون ربضاً بناحية

المدينة. ربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة، فيصلح بينهم لحاجته إلى
 التجار. وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين
 المعيري، وهو يقرئ العلم. صعد إلينا، إلى المركب، ورغب منا في النزول إلى
 بلده، فقلنا حتى يبعث ولده يقيم بالمركب. فقال: إنما يفعل ذلك سلطان فاكنور،
 لأنه لا قوة للمسلمين في بلده. وأما نحن فالسلطان يخافنا. فأبينا عليه إلى أن
 بعث السلطان ولده، كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم. فأكرمونا إكراماً عظيماً.
 وأقمنا عنده ثلاثة أيام. ثم سافرنا إلى مدينة هيلي، فوصلناها بعد يومين
 (وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء مد ولام مكسور)، وهي كبيرة حسنة العمارة،
 على خور عظيم تدخله المراكب الكبار. وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين. لا
 تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوت. ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين
 والكفار بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة مشرق النور. وركاب البحر
 يندرون له النذور الكثيرة. وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين
 وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم، وهم
 مرتبات من مال المسجد. وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر،
 ولإطعام الفقراء من المسلمين بها. ولقيت بهذا المسجد فقيهاً صالحاً من أهل
 مقدشو يسمى سعيداً، حسن اللقاء والخلق. يسرد الصوم. وذكر أنه جاور بمكة
 أربع عشرة سنة، ومثلها بالمدينة. وأدرك الأمير بمكة أبا نمي، والأمير بالمدينة
 منصور بن جاز، وسافر في بلاد الهند والصين. ثم سافرنا من هيلي إلى مدينة
 جُرْفَتَن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلو
 وتشديدها وآخره نون)، وبينه وبين هيلي ثلاثة فراسخ. ولقيت بها فقيهاً من
 أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة
 أميال من بغداد في طريق الكوفة، واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب.
 وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال، له أولاد صغار أوصى إليه بهم. وتركته

آخذاً في حلهم إلى بغداد. وعادة أهل الهند كمعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت، ولو ترك الآلاف إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين، حتى يأخذه مستحقه شرعاً.

ذكر سلطانها

وهو يسمى بِكُوَيْل (بضم الكاف على لفظ التصغير)، وهو من أكبر سلاطين المليبار. وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن. ومن بلاده فتن وبدفتن، وسنذكرهما. وسرنا من جرفتن إلى مدينة دَه فَتَن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء)، وقد ذكرنا ضبط فتن. وهي مدينة كبيرة على خور، كثيرة البساتين. وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول، وبها القلقاص الكثير، ويطبخون به اللحم. وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمناً. وفيها البايين الأعظم، طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة. وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر. في كل قبة أربعة مجالس من الحجر. وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة. وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات، في كل طبقة أربعة مجالس. وذكر لي أن والد هذا السلطان كويل هو الذي عمر هذا البايين. وبإزائه مسجد جامع للمسلمين، وله أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون. وحدثني الفقيه حسين أن الذي عمر المسجد والبايين أيضاً هو أحد أجداد كويل، وأنه كان مسلماً، وإسلامه خبر عجيب نذكره.

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين، إلا أنها لينة. وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صليت فيه ركعتين. واسم هذه

الشجرة عندهم دَرَخَتْ الشهادة ودَرَخَتْ (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوثة) وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة، بعد ان يستحيل لونها إلى الصفرة، ثم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة: لا اله الا الله محمد رسول الله. وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة، وقرأوا المكتوب الذي فيها. وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها في خزانة السلطان الخافر، وهم يستشفون بها للمرضى. وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمر المسجد والباين. فإنه كان يقرأ الخط العربي. فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه. وحكايته عندهم متواترة. وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت، ولم يترك لها أثر. ثم نبتت بعد ذلك، وعادت كأحسن مما كانت عليه، وهلك الكافر سريعاً. ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن. وهي مدينة كبيرة على خور كبير، وبجارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين. لأنه لا مسلم بهذه المدينة. ومرساها من أحسن المراسي، وماؤها عذب، والفوفل بها كثير. ومنها يحمل للهند والصين. وأكثر أهلها براهمة. وهم معظمون عند الكفار، مبغضون في المسلمين. ولذلك ليس بينهم مسلم.

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم، أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفاً لبيته، فاشتعلت النار في بيته. فأحرق هو وأولاده ومتاعه. فاحترموا هذا المسجد، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها، وخدموه، وجعلوا بجارجه الماء، يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله

الطير. ثم سافرنا من مدينة بدفتن إلى مدينة فَنَدْرِينَا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحة وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق. وبها للمسلمين ثلاث محلات، في كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل، وهو عجيب، له مناظر ومجالس على البحر. وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان، وله أخ فاضل. وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين. ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوت (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثاني وآخره طاء مهمل)، وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار. يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس. ويجتمع بها تجار الآفاق. ومرساها من أعظم مراسي الدنيا.

ذكر سلطان قالقوت

وسلطانها كافر يعرف بالسامري، شيخ مسن يخلق لحيته، كما تفعل طائفة الروم، رأيته بها، وسنذكره إن شاء الله. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون في سماطه. وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال، الشهرير الاسم، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس. ولما وصلنا إلى هذه المدينة، خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي، والشيخ شهاب الدين، وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر والمسسمى بقلاج، (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم. ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد. فكانت فرحة تتبعها ترحة. وأقمنا بمرساها، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة. وجعل

كل واحد منا في دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ونحن في ضيافة الكافر، وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين. ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف: الكبار منها تسمى الجنوك، واحدها جُنْك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن)، والمتوسطة اسمها الزَوَّ (بفتح الزاي وواو)، والصغار اسم أحدها الكَكَم (بكافين مفتوحتين). ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر فلعا فما دونها إلى ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبداً، ويديرونها بحسب دوران الريح. وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح، ويخدم في المركب منها ألف رجل، منهم البحرية ستمائة، ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرحية، وهم الذين يرمون بالنفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة: النصفي والثلاثي والربعي. ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين، أو بصين كلان، وهي صين الصين. وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب، يصلون ما بينها بخشب ضخام جداً، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسار منها ثلاثة أذرع. فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش الأسفل، ودفعوها في البحر، وأتموا عمله، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيغتسلون ويقضون حاجتهم. وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم، وهي كبار كالصواري، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً، ويجذفون وقوفاً على أقدامهم. ويجعلون للمركب أربعة ظهور، ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار، والمصرية منها يكون فيه البيوت والسنداس، وعليها المفتاح يسدها صاحبها، ويحمل معه الجوارى والنساء، وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب، حتى يتلاقيا إذا

وصلا بعض البلاد . والبحرية يسكنون فيه أولادهم ويزدرون الخضرة والبقول والزنجبيل في أحواض خشب، ووكيل المركب كأنه أمير كبير، وإذا نزل إلى البر مشيت الرماة والحبشة بالحرايب والسيوف والأبطال والأبواق والأنفاز أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد . وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين .

ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك

ولما حان وقت السفر إلى الصين، جهز لنا السلطان السامري جنكاً من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قالقووط . وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي، وبينه وبينه معرفة . فقلت له : أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد، لأجل الجواري . ومن عادتي أن لا أسافر إلا بهن . فقال : إن تجار الصين قد اکتروا المصاري ذاهبين وراجعين . ولصهري مصرية أعطيكمها ، لكنها لا سنداس فيها . وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي من المتاع، وصعد العبيد والجواري إلى الجنك ، وذلك في يوم الخميس . وأقمت لأصلي الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية . ثم إن فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال : إن المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح ، فذكرت ذلك للناخوذة ، فقال : ليس في ذلك حيلة ، فإن أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك . فقلت : نعم . وأمرت أصحابي ، فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم . واستقروا به قبل صلاة الجمعة . وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر ، فلا يستطيع أحد ركوبه . وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا ، والككم المذكور ، فبتنا ليلة السبت على الساحل ، لا نستطيع

الصعود الى الككم، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا. ولم يكن بقي معي إلا بساط أفترشه. وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى. ورمى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فنديرنا، فتكسر. ومات بعض أهله، وسلم بعضهم، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه، فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها. وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك. فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزين فأخرجها، وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال: إنما فعلت ذلك لله تعالى. ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية، فمات جميع من فيه. ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه، وتناثر دماغه، والمملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه، ونفذ من الآخر. وصلينا عليها ودفناها. ورأيت الكافر سلطان قالقوط في وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرتة إلى ركبته، وفي رأسه عمامة صغيرة، وهو حافي القدمين، والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لثلا ينتهبوا ما يرمي البحر. وعادة بلاد المليار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا في هذا البلد خاصة، فإن ذلك يأخذه أربابه. ولذلك عمرت، وكثر تردد الناس إليها. ولما رأى أهل الككم ما حدث عن الجنك، رفعوا قلعهم وذهبوا، ومعهم جميع متاعي وغلماي وجواري، وبقيت منفرداً على الساحل، ليس معي إلا فتى كنت أعتقته. فلما رأى ما حل بي ذهب عني، ولم يبق عندي إلا العشرة الدنانير التي أعطانيها الجوكي، والبساط الذي كنت أفترشه. وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم، فعزمت على السفر إليها، وبينها مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضاً لمن أراد ذلك. فسافرت في النهر، واكترت رجلاً من المسلمين يحمل لي البساط. وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقري التي على حافته، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو. فكنا نفعل ذلك.

ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذي اكرتته، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا، ويعربد علي، فيزيد خاطري. ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجِي كَرِي (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مسكور وياء)، وهي بأعلى جبل هنالك. يسكنها اليهود، ولهم أمير منهم، ويؤدون الجزية لسلطان كولم.

ذكر القرفة والبقم

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم، وهي حطبهم هنالك. ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق. وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينو كَوَلْم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو)، وهي أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصُّولين. (بضم الصاد) لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع. وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي من أهل آوة، من بلاد العراق. وهو رافضي، ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك. وقاضيتها فاضل من أهل قزوين. وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين. والمسجد الجامع بها عجيب، عمره التاجر خواجه مهذب. وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد المليبار، وإليها يسافر أكثرهم. والمسلمون بها أعزة محترمون.

ذكر سلطان كولم

وهو كافر يعرف بالتييروري (بكسر التاء المعلو وياء مد وراء وواو مفتوحين وراء مكسورة وياء) وهو معظم للمسلمين. وله أحكام شديدة على السراق والدعار.

حكاية

ومما شاهدت بكولم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم، وفر إلى دار الآوجي، وكان له مال كثير، وأراد المسلمون دفن المقتول، فمنعهم نواب السلطان من ذلك، وقالوا: لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به. وتركوه في تابوته على باب الآوجي، حتى أنتن وتغير. فمكثهم الآوجي من القاتل، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله، ويتركوه حياً، فأبوا ذلك وقتلوه. وحينئذ دفن المقتول.

حكاية

أخبرت أن السلطان كولم ركب يوماً إلى خارجها، وكان طريقه فيما بين البساتين، ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك، فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين. وكان السلطان ينظر إليه فأمر به عند ذلك، فوسط، وقسم نصفين، وصلب نصفه عن يمين الطريق، ونصفه الآخر عن يساره، وقسمت حبة العنبة نصفين، فوضع على كل نصف منه نصف منها، وترك هنالك عبرة للناظرين.

حكاية

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غضب سيفاً لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى ابن عمه، فوعده بالنظر في أمره، وقعد على باب داره. فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف. فدعاه، فقال: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم. قال: اشتريته منه؟ قال: لا. فقال لأعوانه: أمسكوه. ثم أمر به. فضربت عنقه بذلك السيف. وأقمت بكولم مدة بزواية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني، شيخ زاوية قالقوط، فلم أتعرف للككم خبراً.

وفي أثناء مقامي بها، دخل إليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا، وكانوا مع أحد تلك الجنوك، فانكسر أيضاً، فكساهم تجار الصين، وعادوا إلى بلادهم، ولقيتهم بها بعد. وأردت أن أعود من كولم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق على الهدية، ثم خفت أن يتعقب فعلي ويقول: لِمَ فارقت الهدية؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري، وأقيم عنده، حتى أتعرف خبر الككم، فعدت إلى قالقوط، ووجدت بها بعض مراكب السلطان. فبعث فيها أميراً من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن، وهو من البرددارية، وهم خواص البوابين، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبهته في العرب، فتوجهت إلى هذا الأمير، ورأيته عازماً على أن يشتو بقالقوط، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب. فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك. فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه. فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد. ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية. فحفظنا منها، ثم لم يتعرضوا لنا بشرّ. ووصلنا إلى مدينة هنور، فنزلت إلى السلطان، وسلمت عليه. فأنزليني بدار، ولم يكن لي خديم. وطلب مني أن أصلي معه الصلوات. فكان أكثر جلوسي في مسجده. وكنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم. أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال، وأجدد الوضوء وأبتدىء القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب. ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر، واعتكفت فيها أربعين يوماً.

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركباً وسفرته برسم غزو سندابور. وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور، ويسلم الولد المذكور، ويزوجه السلطان أخته. فلما

تجهزت المراكب، ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد. ففتحت المصحف أنظر فيه، فكان في أول الصنف يذكر فيه اسم الله كثيراً ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾^(١) فاستبشرت بذلك. وأتى السلطان إلى صلاة العصر، فقلت له: إني أريد السفر. فقال: فأنت إذاً تكون أميرهم. فأخبرته بما خرج لي في أول الصنف، فأعجبه ذلك، وعزم على السفر بنفسه. ولم يكن ظهر له ذلك من قبل، فركب مركباً منها، وأنا معه، وذلك في يوم السبت. فوصلنا عشي الاثنين إلى سندابور، ودخلنا خورها، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب، وقد نصبوا المجانيق. فبتنا عليها تلك الليلة. فلما أصبح، ضربت الطبول والأنفار والأبواق، وزحفت المراكب، ورموا عليها بالمجانيق. فلقد رأيت حجراً أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان. ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء، وبأيديهم الترسه والسيوف. ونزل السلطان إلى العكيري، وهو شبه الشلير، ورمى بنفسه في الماء في جملة الناس. وكان عندنا طريدتان مفتوحتا المواخر، فيها الخيل. وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج. ففعلوا ذلك. وأذن الله في فتحها، وأنزل النصر على المسلمين، فدخلنا بالسيوف، ودخل معظم الكفار في قصر سلطانها. فرمينا النار فيه فخرجوا، وقبضنا عليهم. ثم إن السلطان أمنهم، ورد لهم نساءهم وأولادهم، وكانوا نحو عشرة آلاف، وأسكنهم بربض المدينة. وسكن السلطان القصر، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته، وأعطاني جارية منهن، تسمى بلكي، فسميتها مباركة. وأراد زوجها فداءها فأبیت، وكساني فرجية مصرية، وجدت في خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان. وطلبت منه الاذن في السفر، فأخذ علي العهد في العودة إليه. وسافرت في البحر إلى هنور، ثم إلى فاكنور، ثم إلى منجرور، ثم إلى هيلي، ثم إلى جرفتن ودهفتن وبدفتن وفندرينا

(١) الحج: ٤٠.

وقالقوط ، وقد تقدم ذكر جميعها ، ثم إلى مدينة الشاليات ، (وهي بالشين المعجم والـ ف ولام وياء آخر الحروف والف وطاء معلوة) ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها . وأقمت بها ، فطال مقامي ، فعدت إلى قالقوط . ووصل إليها غلامان كانا لي بالككم ، فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملاً ، وبسببها كان تغير خاطري توفيت . وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري ، واستولت الأيدي على المتاع ، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجاله فعدت لما تعرفت هذا ، إلى هنور ثم إلى سندابور ، فوصلتها في آخر المحرم ، وأقمت بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها ، وهرب إليه الكفار كلهم . وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى ، فانقطعوا عنا ، وحصرنا الكفار وضيقوا علينا . ولما اشتد الحال خرجت عنها ، وتركتها محصورة ، وعدت إلى قالقوط ، وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل ، وكنت أسمع بأخبارها . فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المَهَل ، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، والمَهَل (بفتح الميم والهاء) . وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر . وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي ياحداها عند الخروج من الأخرى ، فإن أخطأ المركب سمتها ، لم يمكنه دخولها ، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة إلى أقاليم ، على كل إقليم وال يسمنونه الكرديوي . ومن أقاليمها إقليم بالبور (وهو ببائين معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ، ومنها كَنَلُوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ، ومنها إقليم المهل ، وبه تعرف الجزائر كلها . وبها يسكن سلاطينها ، ومنها إقليم تَلَادِيب (بفتح التاء

المعلوة واللام والفاء ودال مهمل وباء مد وباء موحدة)، ومنها إقليم كَارَايدو (بفتح الكاف وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو)، منها إقليم التيم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة)، ومنها إقليم تَلْدُمْتِي (بفتح التاء المعلوة الاول واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخرى وباء)، ومنها إقليم هَلْدُمْتِي، وهو مثل اللفظ الذي قبله إلا ان الهاء أوله، ومنها إقليم بَرَوَيْدُو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو)، ومنها إقليم كَنْدُكَل (بفتح الكافين والدال المهمل ولام)، ومنها إقليم مُلُوك (بضم الميم)، ومنها إقليم السويد (بالسين المهمل)، وهو أقصاها. وهذه الجزائر كلها لا زرع بها، إلا أن في إقليم السويد منها زرعاً يشبه أتلي، ويجلب منه إلى المهل. وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون، يسمونه قَلْب الماس (بضم القاف)، ولحمه أحر، ولا زفر له، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام، وإذا اصطادوه، قطعوا السمكة منه أربع قطع، وطبخوه يسيراً، ثم جعلوه في مكائيل من سعف النخل، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يبسه أكلوه. ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن، ويسمونه قَلْب الماس (بضم القاف).

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل، وهو من أقواتهم مع السمك، وقد تقدم ذكره. وأشجار النارجيل شأنها عجيب. وتثمر النخل منها اثني عشر عذقاً في السنة، يخرج في كل شهر عذق، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً وبعضها يابساً وبعضها أخضر، هكذا أبدأ. ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل، حسبما ذكرنا لك في السفر الأول. ويصنعون من عسله الحلواء، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه. ولذلك كله، وللسمك الذي يفتنون به قوة عجيبة في الباءة، لا نظير لها. ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك. ولقد كان لي بها أربع نسوة

وجوار سواهن، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم، وأبيت عند من تكون ليلتها. وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك. ومن أشجارها الجموح^(١) والأترج والليمون والقلقاص، وهم يصنعون من أصوله دقيماً يعملون منه شبه الأطرية، ويطبخونها بجليب النارجيل، وهي من أطيب الطعام.. كنت أستحسنها كثيراً وأكلها.

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة، أكلهم حلال، دعائهم مجاب. وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له: الله ربي، ومحمد نبيي، وأنا أُمِّي مسكين. وأبدانهم ضعيفة، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة، وسلاحهم الدعاء. ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس. ولا تطرقهم لصوص الهند، ولا تذعرهم، لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة. وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء. وإن أخذ أحد الكفار، ولو ليمونة، عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح، خوفاً من عاقبة ذلك. ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم. وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة، وأكثر عمارتهم بالخشب. وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقدار. وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها، وكثرة العرق. ويكثر من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها، ويتلطفون بالغالية المجلوبة من مقدشو. ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية، فيكحل عينيه، ويدهن بماء الورد ودهن الغالية، فتصقل بشرته، وتزيل الشحوب عن وجهه. ولباسهم فوط، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويعملون على ظهورهم ثياب الوليان

(١) في إحدى طبقات الكتاب: الجمون.

(بكسر الواو وسكون اللام وياء) وهي شبه الأحاريم. وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً منها. وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب، وضع ثوبه عن كتفيه، وكشف ظهره، ومضى معه كذلك، حتى يصل إلى منزله. ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم، ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره. فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوباً يأخذه خدامه، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره، وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه. وكذلك عاداتهم في السلام على السلطان عندهم، لا بد من ثوب يرمى عند ذلك، وسنذكره.

وبنيانهم بالخشب، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيماً من الرطوبات، لأن أرضهم ندية. وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة، ويجعلونها صفوفاً، ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يصنعون الحيطان من الخشب. ولهم صناعة عجيبة في ذلك، ويبنون في أسطوان الدار بيتاً يسمونه المالم (بفتح اللام)، يجلس الرجل به مع أصحابه، ويكون له بابان: أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه الناس، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها. ويكون عند هذا البيت خاوية مملوءة ماء، ولها مستقى، يسمونه الوالنج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم)، هو من قشر جوز النارجيل، وله نصاب، طوله ذراعان. وبه يسقون الماء من الآبار لقربها. وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع، وأزقتهم مكنوسة نقية، تظللها الأشجار. فالماشى بها كأنه في بستان. ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخاوية بالمالم، ويمسحها بخصير غليظ من الليف، يكون هنالك، ثم يدخل بيته. وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد.

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب، أن تخرج إليه الكنادر، وهي القوارب الصغار، واحدها كُنْدْرَة (بضم الكاف والذال). وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة، وهي جوز النارجيل الأخضر، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب، ويكون نزيله، ويحمل أمتعته إلى داره، كأنه بعض أقربائه. ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج. فإذا حان سفره، طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن. ومن لم يتزوج، فالمرأة التي ينزل بدارها، تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر، وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان. وفائدة المخزن، ويسمونه البندر، أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسوم معلوم، سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه، ويسمونه شرع البندر. ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب، يسمنونه البَجَنْصَار (بفتح الباء الموحدة والجم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء)، يجمع به الوالي وهو الكر دورى جميع سلعه، ويبيع بها ويشترى. وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج. فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست، وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والقوط والوليان والعمائم، وهي من القطن، ويحملون منها أواني النحاس. فإنها عندهم كثيرة، ويحملون الودع، ويحملون القَنْبَر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء)، وهو ليف جوز النارجيل. وهم يدبغونه في حفر على الساحل، ثم يضرّبونه بالمرازب، ثم تغزله النساء، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب، وتحمل إلى الصين والهند واليمن، وهو خير من القنب. وبهذه الحبال تحاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر. وصرف أهل الجزائر الودع، وهو حيوان يلتقطونه في البحر، ويضعونه في حفر هنالك، فيذهب لحمه، ويبقى عظمه أبيض، ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء

آخر الحروف)، ويسمون السبعائة منه الفال (بالفاء)، ويسمون الاثني عشر ألفاً منه الكُتِّي (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوطة)، ويسمون المائة ألف منه بُسْتُو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوطة وبينهما سين مهملة)، ويبيع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب، وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار. ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز، وهو أيضاً صرف أهل بلاد بنجالة. ويبيعونه من أهل اليمن، فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم. وهذا الودع أيضاً هو صرف السودان في بلادهم، رأيته يباع بمالي وجوجو بحساب ألف وخمسين للدينار الذهبي.

ذكر نساؤها

ونسأؤها لا يغطين رؤوسهن، ولا سلطانتهم تغطي رأسها. ويمشطن شعورهن، ويجمعنها إلى جهة واحدة. ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة. وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها. ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس، فلم أستطع ذلك. فكنت لا تدخل إلي منهن امرأة في خصومة إلا مسترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن عليه قدرة. ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة، وقمصهن قصار الأكمام عراضها. وكان لي جوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلي يغطين رؤوسهن، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن إذ لم يتعودنه. وحليهن الأساور وتجعل المرأة منها جملة في ذراعيتها، بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهي من الفضة. ولا تحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه. ولهن الخلاخيل، ويسمونها البَائِل (بباء موحدة والفاء وياء آخر الحروف مكسورة)، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن، ويسمونها البَسْدَر (بالباء الموحدة وسكن السين المهملة وفتح الدال المهملة والراء). ومن عجيب أفعالهن أنهم يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خسة دنانير فما دونها. وعلى مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين

ذلك عيباً، ويفعله أكثر بناتهم. فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشرة والعشرين. وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته. وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتبهة فيه، فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها، ويبقى عليها للآخرين. وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر. والتزوج بهذه الجزائر سهل، لزيارة الصداق وحسن معاشره النساء. وأكثر الناس لا يسمى صداقاً، إنما تقع الشهادة، ويعطى صداق مثلها. وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً. ولم أر في الدنيا أحسن معاشره منهن. ولا تكلم المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها، بل هي تأتيه بالطعام، وترفعه بين يديه، وتغسل يده، وتأتيه بالماء للوضوء، وتغمم رجليه عند النوم. ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقد تزوجت بها نسوة، فأكل معي بعضهن بعد محاولة، وبعضهن لم تأكل معي، ولا استطعت أن أراها تأكل، ولا نفعني حيلة في ذلك.

ذكر السبب في إسلام هذه الجزائر وذكر العفاريات من الجن التي تضربها في كل شهر

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليميني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله، وجماعة سواهم، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفاراً، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن، يأتي ناحية البحر، كأنه مركب مملوء بالقناديل. وكانت عاداتهم إذا رأوه، أخذوا جارية بكرة فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة. وهي بيت الأصنام، وكان مبنياً على ضفة البحر، وله طاق ينظر إليه، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة. ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته. ثم إنه قدم عليهم

مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظاً للقرآن العظيم، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل، فدخل عليها يوماً، وقد جمعت أهلها، وهن يبكين كأنهن في ماتم. فاستفهمهن عن شأنهن، فلم يفهمنه. فأتى ترجان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها، وليس لها إلا بنت واحدة، يقتلها العفريت. فقال لها أبو البركات: أنا أتوجه عوضاً من بنتك بالليل. وكان سناطاً، لا لحية له، فاحتلموه تلك الليلة، وأدخلوه إلى بدخانة، وهو متوضئ. وأقام يتلو القرآن، ثم ظهر له العفريت من الطاق، فداوم التلاوة، فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر. وأصبح المغربي، وهو يتلو على حاله. فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة، ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها، فوجدوا المغربي يتلو، فمضوا به إلى ملكهم، وكان يسمى شُورازة (بفتح الشين المعجم وضم التون وواو وراء والف وزاي وهاء)، وأعلموه بخبره، فعجب. وعرض المغربي عليه الإسلام، ورغبه فيه. فقال له أقم عندنا الى الشهر الآخر، فإن فعلت كفعلك، ونجوت من العفريت أسلمت. فأقام عندهم. وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته. ثم حمل المغربي لما دخل الشهر إلى بدخانة، ولم يأت العفريت، فجعل يتلو حتى الصباح. وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة، فكسروا الأصنام، وهدموا بدخانة، وأسلم أهل الجزيرة، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها. وأقام المغربي عندهم معظماً، وتمذهبوا بمذهبه مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه، وبني مسجداً هو معروف باسمه، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشاً في الخشب أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي. وجعل ذلك السلطان ثلث مجايي الجزائر صدقة على أبناء السبيل، إذ كان إسلامه بسببهم. فسمي على ذلك حتى الآن، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام.

ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه. فبينما أنا ذات ليلة في بعض شأني، إذ سمعت الناس يجيرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الأولاد، وعلى رؤوسهم المصاحف، والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس. فعجبت من فعلهم، وقلت ما شأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير، وكأنه مملوء سرجاً ومشاعل. فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة في الشهر. فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا.

ذكر سلطنة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطنتها امرأة، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي. وكان الملك لجدها ثم لأبيها، فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين، وهو صغير السن. فتزوج الوزير عبد الله ابن محمد الحضرمي أمه، وغلب عليه، وهو الذي تزوج أيضاً هذه السلطنة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين، كما سنذكره. فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال، أخرج ربييه الوزير عبد الله، ونفاه إلى جزائر السويد. واستقل بالملك، واستوزر أحد مواليه، ويسمى علي كلكي، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام، ونفاه إلى لسويد. وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل، فخلعوه لذلك ونفوه إلى إقليم هلدتي، وبعثوا من قتله بها. ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة، فقدموا خديجة سلطنة، وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين، فصار وزيراً وغالباً على الأمر، وقدم ولده محمداً للخطابة عوضاً منه. ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة. وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بمجديدة معوجة شبه السكين. ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة، وغيرها، فيقول: اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين، ألا وهي السلطنة خديجة بنت السلطان جلال

الدين ابن السلطان صلاح الدين. ومن عاداتهم إذا قدم الغريب عليهم، ومضى إلى المشور، وهم يسمونه الدار، فلا بد له أن يستصحب ثوبين، فيخدم لجهة هذه السلطنة، ويرمي بأحدهما، ثم يخدم لوزيرها، وهو زوجها جمال الدين، ويرمي بالثاني. وجندها نحو ألف نفر من الغرباء، وبعضهم بلديون. ويأتون كل يوم إلى الدار، فيخدمون وينصرفون. ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر في كل شهر، فإذا تم الشهر أتوا الدار، وخدموا، وقالوا للوزير: بلغ عنا الخدمة، واعلم بأننا أتينا بطلد، مرتبنا. فيؤمر لهم به عند ذلك. ويأتي أيضاً إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط، وهم الوزراء عندهم، فيخدمون، ويبلغ خدمتهم الفتيان، وينصرفون.

ذكر أرباب الخطط وسيرهم

وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطنة كلّكي (بفتح الكاف الأولى واللام)، ويسمون القاضي فَنْدَرِيَارَقَالُوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف والف وراء وقاف والف ولام مضموم)، وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي، وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين، وأمره كأمر السلطان وأشد، ويجلس على بساط في الدار. وله ثلاث جزائر، يأخذ مجباها لنفسه. عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة. ويسمون الخطيب هَنْدِيَجْرِي (بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء). ويسمون صاحب الديوان الفاملداري (بفتح الفاء والميم والدال المهمل)، واسم صاحب الأشغال مَافَاكَلُو (بفتح الميم والكاف وضم اللام)، واسم الحاكم فِتْنَاتِيك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلو وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضاً وكاف)، واسم قائد البحر مَانَاتِيك (بفتح الميم والنون والياء). وكل من هؤلاء يسمى وزيراً. ولا سجن عندهم بتلك الجزائر، إنما يجبس أرباب الجرائم في بيوت خشب، هي معدة لأمتعة التجار، ويجعل أحدهم في خشبة، كما

يفعل عندنا بأسارى الروم .

ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل حالي بها

ولما وصلت إليها نزلت بجزيرة كنلوس، وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة. ونزلت بدار رجل من صلحائها، وأضافني بها الفقيه علي، وكان فاضلاً، له أولاد من طلبة العلم. ولقيت بها رجلاً اسمه محمد من أهل ظفار الحموض، فأضافني وقال لي: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها. فإنهم لا قاضي عندهم. وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر وسرنديب وبنجاله ثم إلى الصين. وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري، وهو من الحجاج الفضلاء.

ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرًا، ثم اكرت كندرة يسافر فيها إلى المهل، بهدية للسلطانة وزوجها، فأردت السفر معه، فقال: لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك. فإن شئت السفر منفرداً عنهم فدونك، فأبيت ذلك، وسافر. فلعبت به الريح، وعاد إلينا بعد أربعة أيام، وقد لقي شدائد. فاعتذر لي، وعزم علي في السفر معه بأصحابي، فكنا نرحل غدوة، فنزل في وسط النهار لبعض الجزائر، ونرحل فنيبت بأخرى.

ووصلنا بعد أيام إلى إقليم التيم. وكان الكردي يسمي بها هلالاً، فسلم علي وأضافني. وجاء إلي ومعه أربعة رجال، وقد جعل اثنان منهم، عوداً على أكتافها، وعلقا منه أربع دجاجات، وجعل الآخران عوداً مثله، وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل. فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير. فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال. ورحلنا عنهم، فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان، وهو رجل فاضل من خيار الناس، فأكرمنا وأضافنا. وفي اليوم

الثامن نزلنا بجزيرة لوزير، يقال له التلميذي. وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل، حيث السلطانة وزوجها. وأرسينا بمرساها. وعادتهم ان لا ينزل أحد من المرسى إلا بإذنهم. فأذنوا لنا بالنزول، وأردت التوجه إلى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل، وقالوا: لا بد من الدخول إلى الوزير.

وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني: لا أعرفه، خوفاً من إمساحهم إياي. ولم أعلم أن بعض أهل الفضول، قد كتب إليهم معرفاً بخبري، وأني كنت قاضياً بداهلي، فلما وصلت إلى الدار، وهو المشور، ونزلنا في سقائف على الباب الثالث منه، وجاء القاضي عيسى اليميني، فسلم علي، وسلمت على الوزير، وجاء الناخوذة إبراهيم بعشرة أثواب، فخدم لجهة السلطانة، ورمى بثوب منها، ثم خدم للوزير، ورمى بثوب آخر، ورمى بجميعها، وسئل عني فقال: لا أعرفه. ثم أخرجوا التنبول وماء الورد، وذلك هو الكرامة عندهم، وأنزلنا بدار، وبعث إلينا الطعام، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز، وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليج والدجاج والسمن والسمنك. ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليميني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة، عمرها الشيخ الصالح نجيب، وعدنا ليلاً. وبعث الوزير إليّ صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة، فيها الأرز والسمن والخليج وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها، وهم يسمونه القُرْبَانِي (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والفاء ونون وياء)، ومعنى ذلك ماء السكر. وأتوا بمائة ودعة للنفقة. وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني، فعرفوا خدام الوزير بأمرني، فزاد اغتباطي. وبعث عني عند استهلال رمضان، فوجدت الأمراء والوزراء. وأحضر الطعام في موائد، يجتمع على المائدة طائفة. فأجلسني الوزير إلى جانبه، ومعه القاضي عيسى، والوزير الفاملداري، والوزير عمر دهرد، ومعناه مقدم العسكر. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمنك والخليج والموز المطبوخ،

ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطاً بالأفاويه، وهو يهضم الطعام. وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين، ولم يدخل بها أحد منها لصغرها، فردها أبوها لداره، وأعطاني دارها، وهي من أجل الدور. واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم^(١) فأذن لي في ذلك، وبعث إلي خساً من الغنم، وهي عزيزة عندهم، لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير. فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك، فطبخ لي بها، فأحسن في طبخه وزاد فيه، وبعث الفرش وأواني النحاس، وأفطرنا على العادة بدار السلطنة مع الوزير. واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة، فقال لي: وأنا أحضر أيضاً، فشكرته وانصرفت إلى داري، فإذا به قد جاء، ومعه الوزراء وأرباب الدولة. فجلس في قبة خشب مرتفعة. وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير، ويرمي بثوب غير مخيط، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها، فأخذها الفقراء. وقدم الطعام فأكلوا، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان، ثم أخذوا في السماع والرقص. وأعدت النار، فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام، ومنهم من يأكلها، كما تؤكل الحلواء، إلى أن خمدت.

ذكر بعض إحسان الوزير إلي

ولما تمت الليلة انصرف الوزير، ومضيت معه، فمررنا ببستان للمخزن. فقال لي الوزير: هذا البستان لك، وسأعمر لك فيه داراً لسكنائك. فشكرت فعله، ودعوت له. ثم بعث لي من الغد بجماعة وقال لي خديمه: يقول لك الوزير: إن أعجبتك هذه فهي لك، وإلا بعثت لك جارية مرهتية، وكانت الجواري المرهتيات تعجبني، فقلت له: إنما أريد المرهتية، فبعثها لي، وكان اسمها

(١) أي: قدم آدم عليه السلام في جزيرة سيلان، وسيأتي الحديث عنها.

قلستان، ومعناه زهر البستان، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبني. وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه، ثم بعث إلي في غد ذلك بجمارية معبرية تسمى عنبري. ولما كانت الليلة بعدها، جاء الوزير إلي بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه، فدخل الدار، ومعه غلامان صغيران، فسلمت عليه، وسألني عن حالي، فدعوت له وشكرته، فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة)^(١)، وهي شبه السببية، وأخرج منها ثياب حرير، وحقاً فيه جوهر فأعطاني ذلك، وقال لي: لو بعثته لك مع الجارية، لقاتل هو مالي جئت به من دار مولاي، والآن هو مالك، فأعطه إياه. فدعوت له وشكرته، وكان أهلاً للشكر، رحمه الله.

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إلي أن أتزوج بنته، فبعثت إلي الوزير جمال الدين مستأذناً في ذلك. فعاد إلي الرسول، وقال: لم يعجبه ذلك، وهو يحب أن يزوجك بنته، إذا انقضت عدتها. فأبيت أنا ذلك، وخفت من شؤمها، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول، وأصابني أثناء ذلك حمى مرضت بها. ولا بد لكل من يدخل، تلك الجزيرة أن يحم، فقوي عزمي على الرحلة عنها، فبعث بعض الحلي بالودع، واكترت مركباً أسافر فيه لبنجالة. فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلي القاضي فقال: الوزير يقول لك: إن شئت السفر، فأعطنا ما أعطيناك وسافر. فقلت له: إن بعض الحلي اشترت به الودع، فشأنكم وإياه. فعاد إلي فقال: يقول: إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع. فقلت له: أنا أبيع، وآتيكم بالذهب. فبعثت إلي التجار ليشتروه مني، فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا. وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه. ثم بعث إلي أحد خواصه وقال:

(١) هي التي تعرف باسم: البقجة، وهي منديل توضع فيه الأشياء، ويصر عليها.

الوزير يقول لك: أقم عندنا، ولك كل ما أحببت. فقلت في نفسي: أنا تحت حكمهم، وإن لم أقم مختاراً أقت مضطراً، فالإقامة باختيارى أولى. وقلت لرسوله: نعم، أنا أقيم معه. فعاد إليه ففرح بذلك، واستدعاني. فلما دخلت إليه قام إلي وعانقني وقال: نحن نريد قربك، وأنت تريد البعد عنا. فاعتذرت له، فقبل عذري، وقلت له: إن أردتم مقامي فأنا اشترط عليكم شروطاً. فقال: نقبلها فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هناك إلا الوزير. ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته، يتبعني الناس رجالاً وصيياناً، يعجبون مني حتى شكوت له. فضربت الدنقرة، وبرح^(١) في الناس أن لا يتبعني احد، والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بمجديدة، فيسمع لها صوت على البعد. فإذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد. فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورمكة^(٢)، فاختر أيها شئت. فاخترت الرمكة. فأتوني بها في تلك الساعة، وأتوني بكسوة. فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟ فقال: ابعث أحد أصحابك لبيعه لك بينجالة، فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك. فقال: نعم. فبعث حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان، وبعثوا معه رجلاً يسمى الحاج علياً، فاتفق أن هال^(٣) البحر، فرموا بكل ما عندهم، حتى الزاد والماء والصاري والقربة. وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره. ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان، بعد جوع وعطش وشدائد وقدم عليّ صاحبي أبو محمد بعد سنة، وقد زار القدم، وزارها مرة ثانية معي.

(١) أي: أعلن.

(٢) الرمكة: الفرس.

(٣) هال البحر، أي: هاج.

ذكر العيد الذي شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلي بكسوة، وخرجنا إلى المصلى، وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى، وفرشت الثياب فيها، وجعلت كتاتي الودع يمينه ويسرة. وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز، ومدت من شجرة إلى أخرى شرائط، وعلق منها الجوز الأخضر. ويقف صاحب الدار عند بابها، فإذا مرَّ الوزير رمى على رجليه ثوباً من الحرير أو القطن، فيأخذه عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضاً، والوزير ماش على قدميه، وعليه فرجية مصرية من المرعز، وعمامة كبيرة، وهو متقلد فوطة حرير، وفوق رأسه أربعة شطور، وفي رجليه النعل، وجميع الناس سواء خفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه، والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى، فخطب ولده بعد الصلاة. ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء، ورموا بالثياب على العادة. ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك. ثم رفعه الرجال، وركبت فرسي، ودخلنا القصر. فجلس بموضع مرتفع، وعنده الوزراء والأمراء، ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي، ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول، ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري. فإذا أكلت جماعة من الناس تلتطخوا بالصندل. ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ، أهدي لهم من كولم، وهو في بلاد المليبار كثير. فأخذ الوزير سردينه وجعل يأكلها. وقال لي: كل منه، فإنه ليس ببلادنا. فقلت: كيف آكله وهو غير مطبوخ؟ فقال: إنه مطبوخ. فقلت: أنا أعرف به، فإنه ببلادني كثير.

ذكر تزوجي وولايتي القضاء

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر، فأجاب إلى ذلك، وأحضر التنبول على العادة والصندل، وحضر الناس، وأبطأ الوزير سليمان، فاستدعي، فلم يأت، ثم استدعي ثانية، فاعتذر بمرض البنت. فقال لي الوزير سرّاً: إن بنته امتنعت، وهي مالكة أمر نفسها. والناس قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطان زوجة أبيها، وهي التي ولده مقزوج بنتها؟ فقلت له: نعم. فاستدعى القاضي والشهود، ووقعت الشهادة، ودفع الوزير الصداق، ورفعت إلي بعد أيام، فكانت من خيار النساء. وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبي وتبخر أثوابي، وهي ضاحكة، لا يظهر عليها تغير. ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء. وسبب ذلك اعتراض علي القاضي، لكونه كان يأخذ العشر من التركات، إذا قسمها على أربابها فقلت له: إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة، ولم يكن يحسن شيئاً، فلما وليت، اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع. وليست هنالك خصومات، كما هي ببلادنا. فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين. وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره. فحسنت علة ذلك. وأتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعل ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتدّت في إقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأئمة والأسواق إثر صلاة الجمعة، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته. وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت أن أكسو النساء، فلم أقدر على ذلك.

ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الخضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد وما وقع بيني وبينه

كنت قد تزوجت ربيته بنت زوجته، وأحببتها حباً شديداً. ولما بعث الوزير عنه، ورده إلى جزيرة المهل، بعثت له التحف، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر فسلم على الوزير، وأنزله في دار جيدة. فكنت أزوره بها. واتفق أن اعتكفت في رمضان. فزارني جميع الناس إلا هو، وزارني الوزير جمال الدين، فدخل هو معه، بحكم الموافقة. فوقعت بيننا الوحشة. فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلي أخوال زوجتي ربيته أولاد الوزير جمال الدين السنجري، فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبدالله، وأن ما لهم باق بيده، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع، وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم، وكانت عادي إذا بعثت عن خصم من الخصوم، أبعث له قطعة كاغد مكتوبة، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي، وإلا عاقبته، فبعثت إليه على العادة، فأغضبه ذلك، وحقدتها لي، وأضمر عداوتي، ووكل من يتكلم عنه، وبلغني عنه كلام قبيح. وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين، وخدمتهم أن يوصلوا السبابة إلى الأرض، ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم. فأمرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبدالله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد. وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك. فزادت عداوته. وتزوجت أيضاً زوجة أخرى، بنت وزير معظم عندهم، كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازه. ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين، وعمرت ثلاث ديار بالبلستان الذي أعطانيه الوزير. وكانت الرابعة هي ربيته الوزير عبدالله، تسكن في دارها، وهي أحبهن إلي فلما صاهرت من ذكرته، هابني الوزير وأهل الجزيرة، وتخوفوا مني لأجل

ضعفهم، وسعوا بيني وبين الوزير بالنائم، وتولى الوزير عبدالله كبر ذلك حتى
تمكنت الوحشة.

ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك

واتفق في بعض الأيام أن عبداً من عبيد السلطان الذي شكته زوجته إلى
الوزير، وأعلمته أنه عند سرية من سراري السلطان يزني بها. فبعث الوزير
الشهود، ودخلوا دار السرية، فوجدوا الغلام نائماً معها في فراش واحد،
وحبسوها. فلما أصبحت وعلمت بالخبر، توجهت إلى المشور، وجلست في
موضع جلوسي، لم أتكلم في شي من أمرها. فخرج إلي بعض الخواص فقال:
يقول لك الوزير: ألك حاجة؟ فقلت: لا. وكان قصده أن أتكلم في شأن السرية
والغلام. إذ كانت عادتي أن لا تقطع قضية إلا حكمت فيها. فلما وقع التغير
والوحشة قصرت في ذلك. فانصرفت إلى داري بعد ذلك، وجلست بموضع
الأحكام. فإذا ببعض الوزراء، فقال الوزير: يقول لك: إنه وقع البارحة كيت
وكيت، لقضية السرية والغلام، فاحكم فيها بالشرع فقلت له: هذه قضية
لا ينبغي الحكم أن يكون فيها إلا بدار السلطان، فعدت إليها واجتمع الناس
وأحضرت السرية والغلام، فأمرت بضربها في الخلوة، وأطلقت سراح المرأة،
وحبست الغلام. وانصرفت إلى داري، فبعث الوزير إلى جماعة من كبراء ناسه
في شأن تسريح الغلام، فقلت لهم: أتشفعون في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه؟
وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له؟
وأمرت بالغلام عند ذلك، فضرب بقضبان الخيزران، وهي أشد وقعاً من
السياط، وشهرته بالجزيرة، وفي عنقه حبل. فذهبوا إلى الوزير فأعملوه. فقام
وقعد، واستشاط غضباً، وجع الوزراء ووجوه العسكر، وبعث عني فجئته.
وكانت عادتي أن أخدم له، فلم أخدم. وقلت: سلام عليكم. ثم قلت

للحاضرين: شهدوا علي أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزني عنه. فكلمني الوزير، فصعدت وقعدت بموضع أقالبه فيه، وجاوبته أغلظ جواب. وأذن مؤذن المغرب، فدخل الى داره وهو يقول: ويقولون إني سلطان. وها أنذا طلبته لأغضب عليه، فغضب علي. وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند، لأنهم تحققوا مكانتي عنده، وإن كانوا على بعد منه، فخوفه في قلوبهم متمكن. فلما دخلنا إلى داره بعث إلي القاضي المعزول، وكان جريء اللسان، فقال لي: إن مولانا يقول لك: كيف هتكت حرمة علي رؤوس الأشهاد ولم تتقدم له؟ فقلت له: إنما كنت أخدم له حين كان قلبي له طيباً، فلما وقع التغير تركت ذلك، وتحية المسلمين إنما هي السلام، وقد سلمت. فبعثه إلي ثانية فقال: إنما غرضك الرحيل عنا، فأعط صدقات النساء وديون الناس، وانصرف إذا شئت. فخدمت له على هذا القول، وذهبت إلى داري، فخلصت مما علي من الدين. وقد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها. وكان يعطيني كل ما أطلبه، ويحبي ويكرمني، ولكنه غيرَ خاطره، وتخوف مني. فلما عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على الرحيل، ندم على ما قاله، وتلكأ في الإذن لي في الرحيل. فحلفت بالأيمان المغلظة أن لا بد من رحيلي. ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر، وطلقت إحدى الزوجات، وكانت إحداهن حاملاً، فجعلت لها أجلاً تسعة أشهر، إن عدت فبها، وإلا فأمرها بيدها. وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطانة. وتوافقت مع الوزير عمر دهرد، والوزير حسن قائد البحر، على أن أمضي إلى بلاد المعبر. وكان ملكها سلفي فأبى مدها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه، وأنوب أنا عنه فيها. وجعلت بيني وبينهم علامة: رفع أعلام بيض في المراكب. فإذا رأوها ثاروا في البحر. ولم أكن حدث نفسي بهذا قط، حتى وقع ما وقع من التغير. وكان الوزير خائفاً

مني يقول للناس: لا بد لهذا ان ياخذ الوزارة، إما في حياتي، وإما بعد مماتي . ويكثر السؤال عن حالي، ويقول: سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها علي . وكان يخاف من سفري لثلاثي بالجيوش من بلاد المعبر . فبعث إلي أن أقيم حتى يجهز لي مركباً فأبيت . وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معي، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك . فلما رأته عزمها على السفر قالت لها : إن جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر، فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك، وإلا فرديه، وكان حلياً له خطر فردته إليهم، وأتاني الوزراء والوجوه، وأنا بالمسجد، وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم : لولا أنني حلفت لعدت . فقالوا: تذهب إلى بعض علماء الجزائر لير قسمك وتعود . فقلت لهم : نعم : إرضاء لهم . فلما كانت الليلة التي سافرت فيها، أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي، وبات تلك الليلة يحرس الجزيرة بنفسه خوفاً أن يثور عليه أصهاري وأصحابي . ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير علي . فأصابني زوجتي أوجاع عظيمة، وأحبت الرجوع فطلقتها، وتركتها هنالك، وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده، وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل . وبعثت عن جارية كنت أحبها، وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم .

ذكر النساء ذوات الثدي الواحد

وفي بعض تلك الجزائر، رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها، ولها ابنتان إحداهما كمثلهما ذات ثدي واحد، والأخرى ذات ثديين، إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن، والآخر صغير لا لبن فيه . فعجبت من شأنهن، ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر ليس بها إلا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد، ونخيلات نارجيل، وقارب صغير يصطاد فيه السمك . ويسير به إلى حيث أراد

من الجزائر. وفي جزيرته أيضاً شجيرات موز. ولم نر فيها من طيور البراغير
غرابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا. فغبطت والله ذلك الرجل،
وودت أن لو كانت تلك الجزيرة لي، فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين. ثم
وصلت إلى جزيرة ملوك، حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم، وهو الذي
عزمت على الرحيل فيه إلى المعبر. فجاء إلي ومعه أصحابه، وأضافوني ضيافة
حسنة. وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من
الكودة، وهي الودع، وعشرين قدحاً من الأطوان، وهي عسل النارجيل،
وعددًا معلومًا من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم. وأقمت بهذه الجزيرة
سبعين يوماً، وتزوجت بها امرأتين. وهي من أحسن الجزائر، خضرة نضرة،
رأيت من عجائبها أن الغصن ينقطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط
فيورق ويصير شجرة. ورأيت الرمان بها لا يقطع له ثمر بطول أيام السنة.
وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره، فأرادوا
إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره، فوَقعت المشاجرة بسبب ذلك،
وعدنا إلى المهل، ولم ندخلها. وكتبت إلى الوزير معلماً بذلك، فكتب أن لا
سبيل لأخذ السلاح. وعدنا إلى ملوك، وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام
خمس وأربعين. وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله،
وكانت السلطانة حاملاً منه، فولدت إثر وفاته، وتزوجها الوزير عبد الله.
وسافرنا، ولم يكن معنا رئيس^(١) عارف. ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام،
فسرنا نحو تسعة أيام. وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان، ورأينا جبل
سرنديب فيها ذاهباً في السماء كأنه عمود دخان. ولما وصلناها قال البحرية: إن
هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين، إنما هذا

(١) وفي إحدى طبعات الكتاب: رائس، والمقصود: ربان السفينة.

مرسى في بلاد السلطان إيرى شكروتي، وهو من العتاة المفسدين. وله مراكب تقطع في البحر، فحفنا أن نزل بمرساه. ثم اشتدت الريح فحفنا الغرق فقلت للناخوذة: نزلني إلى الساحل، وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان، ففعل ذلك، وأنزلني بالساحل. فأتانا الكفار فقالوا: من أنتم؟ فأخبرتهم أني سلف سلطان المعبر وصاحبه، جئت لزيارته. وأن الذي في هذا المركب هدية له. فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك، فاستدعاني فذهبت له إلى مدينة بطّالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وتشديدها)، وهي حضرته، مدينة صغيرة حسنة، عليها سور خشب، وأبراج خشب. وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة. تأتي بها السيول فتجمع بالساحل، كأنها الروابي، ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن. إلا أنهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه. وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة. وبها أيضاً من خشب البقم كثير، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي، إلا أنه ليس كالقماري والقاقلي^(١)، وسنذكره.

ذكر سلطان سيلان

واسمه أيرى شكروتي (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء مملوءة مكسورة وياء)، وهو سلطان قوي في البحر. رأيت مرة وأنا بالمعبر، مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار. وصلت إلى هنالك، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن، فأمر السلطان بالاستعداد، وحشد الناس لحماية أجفانه. فلما يسوا من انتهاز الفرصة فيها، قالوا: إنا جئنا لحماية مراكب لنا تسير أيضاً إلى اليمن. ولما دخلت على هذا السلطان الكافر، قام الي وأجلسني إلى جانبه وكلمني بأحسن كلام، وقال: ينزل أصحابك على الأمان، ويكونون في ضيافتي إلى أن

(١) القاقلي: نبات هندي عطري الرائحة يعرف بـ «الخال».

يسافروا. فإن سلطان المعبر، بيني وبينه الصحبة، ثم أمر بإنزالي. فأقمت عدة ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد. في كل يوم. وكان يفهم اللسان الفارسي، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد. ودخلت عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجواهر الذي ببلادها، وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره. فقال لي: هل رأيت مغاص الجواهر في البلاد التي جئت منها؟ فقلت له: نعم، رأيت بجزيرة قيس، وجزيرة كش، التي لابن السواملي. فقال: سمعت بها ثم أخذت. منه حبات. فقال: أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه؟ فقلت له: رأيت ما هو دونها. فأعجبه ذلك. وقال: هي لك. وقال لي: لا تستحي، واطلب مني ما شئت. فقلت له: ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدم آدم عليه السلام، وهم يسمونه (بابا)، ويسمون حواء (ماما). قال: هذا حين. نبعث معك من يوصلك. فقلت: ذلك أريد. ثم قلت له: وهذا المركب الذي جئت به، يسافر آمنًا إلى المعبر، وإذا عدت أنا بعثتني في مراكبك. فقال نعم. فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب، قال لي: لا أسافر حتى تعود، ولو أقمت سنة بسببك. فأخبرت السلطان بذلك. فقال: يقيم في ضيافتي حتى تعود. فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم، وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم، وثلاثة من البراهمة، وعشرة من سائر أصحابه، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد. وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير. وبزلنا ذلك اليوم على واد جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران، ثم رحلنا من هنالك إلى متارمندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والتون وألف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء)، مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان. أضفنا أهلها ضيافة حسنة. وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك، ويأتون بها أحياء، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن. وليس بالمدينة مسلم غير رجل خراساني انقطع بسبب

مرضه ، فسافر معنا . ورحلنا إلى بَنْدَرَسَلَاوَات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المعمل واللام والواو والف وتاء معلولة) ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤذي الزوار والغرباء . وذلك ببركة الشيخ أبي عبدالله بن خفيف رحمه الله ، وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم . وكان هؤلاء لكفار يمينون المسلمين من ذلك ، ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم . فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرنا في السفر الأول من قتل الفيلة لأصحابه ، وسلامته من بينهم ، وحمل الفيل له على ظهره ، صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ، ويدخلونهم دورهم ، ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم . وهم إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ، ويسمونه الشيخ الكبير . ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كَنْكَار (وضبط اسمها بضم الكاف الاوّل وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء) ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد ، وبنائها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى بخور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشَاوُس (بشينين معجمين بينها واو مضموم) ، وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه . وهو كان الدليل إلى القدم ، فلما قطعت يده ورجله ، صار الأذلاء أولاده وغلماؤه ، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل في جلدها وحرق . وكان الشيخ عثمان معظماً ، فقطعوا يده ورجله ، وأعطوه مجي بعض الأسواق .

ذكر سلطان كَنْكَار

وهو يعرف بالكَنْكَار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) ، وعنده الفيل الأبيض . ولم أر في الدنيا فيلاً أبيض سواه ، يركبه في الأعياد ، ويجعل على جبهته

أحجار الياقوت العظيمة. واتفق له أن قام عليه أهل دولته، وسمّلوا عينيه،
وولوا ولده وهو هنالك أعمى.

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البهرمان إنما يكون بهذه البلدة. فمنه ما يخرج من الخور
وهو عزيز عندهم، ومنه ما يحفر عنه. وفي جزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع
مواضعها، وهي مملكة. فيشتري الإنسان القطعة منها، ويحفر عن الياقوت،
فيجد أحجاراً بيضاء مشعبة، وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها، فيعطيها
الحكاكين، فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت. فمنه الأحمر ومنه الأصفر
ومنه الأزرق ويسمونه النَيْلَم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف)،
وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فَنَم (بفتح الفاء والنون) فهو
للسلطان، يعطي ثمنه ويأخذه. وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه. وصرف
مائة فَنَم ستة دنانير من الذهب. وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من
الياقوت الملون، ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضاً من الأسورة والخلاخيل.
وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن. ولقد رأيت على جبهة
الفيل الأبيض سبعة أحجار منه. كل حجر أعظم من بيضة الدجاج. ورأيت عند
السلطان أيري شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت، فيها دهن العود.
فجعلت أعجب منها، فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك. ثم سافرنا من
كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم اسطا محمود اللّوري (بضم اللام)، وكان من
الصالحين، واحترف تلك المغارة في سفح جبل، عند خور صغير هنالك. ثم رحلنا
عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاي ونون
وهاء)، وبوزنه هي القروود.

ذكر القروود

والقروود بتلك الجبال كثيرة جداً، وهي سود الألوان، لها أذنان طوال. ولذكورها لحي كما هي للآدميين. وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القروود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان، يشد على رأسه عصا من أوراق الأشجار، يتوكأ على عصا، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القروود ولها عصي بأيديها. وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القروود الأربعة على رأسه؛ وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم، وتأتي القروود فتقعد على بعد منه. ثم يكلمها أحد القروود الأربعة فتصرف القروود كلها. ثم يأتي كل فرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقروود الأربعة. وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القروود الأربعة بين يدي مقدمها، وهي تضرب بعض القروود بالعصي، ثم نتفت وبره بعد ضربه. وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القروود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها. وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها، فدخلت بنت له بعض البيوت، فدخل عليها، فصاحت به، فغلبها، قال: ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه. ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران. ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتيين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة، حسبما ذكرناه في السفر الأول. ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز، وهو آخر العمارة. ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر، وكان من الصالحين، ثم رحلنا إلى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف)، وكان السبيك من سلاطين الكفار، وانقطع للعبادة هنالك.

ذكر العلق الطيار

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار، ويسمونه الزلّو (بضم الزاي واللام)، ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء. فإذا قرب الإنسان منه وثب

عليه . فحيثما وقع من جسده ، خرج منه الدم الكثير . والناس يعدون له الليمون ، يعصرونه عليه ، فيسقط عنهم . ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معه لذلك . ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق ، فأظهر الجلد ، ولم يعصر عليها الليمون ، فنزف دمه ومات . وكان اسمه بابا خوزي (بالحاء المعجم المضموم والزاي) ، وهناك مغارة تنسب إليه . ثم رحلنا إلى السبع مغارات ، ثم إلى عقبة اسكندر ، ثم مغارة الأصفهاني وعين ماء ، وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان ، وهناك مغارة النارنج ، ومغارة السلطان ، وعندها دروازة الجبل أي بابه .

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأيناه من البحر ، وبيننا وبينه مسيرة تسعة . ولما صعدهنا كنا نرى السحاب أسفل ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله . وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف . ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام . وفي الجبل طريقان إلى القدم : أحدهما يعرف بطريق بابا ، والآخر بطريق (ماما) . يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل ، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا . ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأما طريق بابا فصعب ، وعمر المرتقى . وفي أسفل الجبل حيث دروازته ، مغارة تنسب أيضاً للإسكندر وعين ماء . ونحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها السلاسل ليمسك بها من يصعده . وهي عشر سلاسل ، اثنتان في أسفل الجبل إلى حيث الدروازة ، وسبع متوالية بعدها ، والعاشرة هي سلسلة الشهادة . لأن الإنسان إذا وصل إليها

ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم خوف السقوط. ثم إذا جاوزت هذه السلسلة، وجدت طريقاً مهملة. ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال. وهي في موضع فسيح، عندها عين ماء تنسب إليه أيضاً ملأى بالحث، ولا يصطاده أحد. وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جانبي الطريق. وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم.

ذكر القدم

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء، مرتفعة بموضع فسيح. وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة، حتى عاد موضعها منخفضاً. وطولها أحد عشر شبراً. وأتى إليها أهل الصين قديماً، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون، ويقصدونها من أقصى البلاد. وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر. فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر، ولم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهباً أعطيناها الدليل. والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيّاً، وكذلك فعلنا.

ولما تمت الأيام الثلاثة، عدنا على طريق ماما. فنزلنا بمغارة شيث وهو شيث ابن آدم عليهما السلام، ثم إلى خور السمك، ثم إلى قرية كُرْمَلَه (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم)، ثم إلى قرية جَبْرَكاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون)، ثم إلى قرية دل دينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء

تأنيث)، ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح)، وهناك (كان) يشكو الشيخ أبو عبد الله ابن خفيف. وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل. وعند أصل الجبل في هذا الطريق دَرَحَتْ رَوَان، ودريخت هي (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والفاء ونون)، وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق. ولم أر من رأى ورقها^(١)، ويعرفونها أيضاً بالماشية، لأن الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه، قريبة من أسفل الجبل، والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك. ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها. وهي بحيث لا يمكن التوصل إليها ألبتة. ولهم أكاذيب في شأنها، من جلتهن أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخاً. وذلك باطل. وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت، وماؤه يظهر في رأي العين شديد الزرقة.

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينَوْر (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء)، مدينة عظيمة على البحر، يسكنها التجار. وبها الصنم المعروف بدينور، في كنيسة عظيمة، فيها نحو ألف من البراهمة والجوكية، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود، ويغنين كل ليلة عند الصنم، ويرقصن. والمدينة ومجايبها وقف على الصنم. وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون ذلك. والصنم من ذهب على قدر الآدمي، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان، أخبرت أنها تضيئان بالليل كالقنديل. ثم رحلنا إلى مدينة قَالِي (بالقاف وكسر اللام)، وهي صغيرة، على ستة فراسخ من دينور، وبها رجل من المسلمين، يعرف بالناخوذة إبراهيم. أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة

(١) أي: من رأى ورقها بعيداً عنها، لعدم سقوطه والله أعلم.

كَلْتَبُو (بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو)، وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها، وبها يسكن الوزير حاكم البحر، جالسيني، ومعه نحو خمسمائة من الحبشة. ثم رحلنا، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة، وقد تقدم ذكرها، ودخلنا إلى سلطانها الذي تقدم ذكره، ووجدت الناخوذة إبراهيم في انتظاري، فسافرنا بقصد بلاد المعبر. وقويت الريح، وكاد الماء يدخل في المركب، ولم يكن لنا رئيس عارف. ثم وصلنا إلى حجارة، كاد المركب ينكسر فيها. ثم دخلنا بجزراً قصيراً. فتجلس المركب، ورأينا الموت عياناً، ورمى الناس بما معهم، وتوادعوا، وقطعنا صاري المركب، فرمينا به. وصنع البحرية معدية من الخشب. وكان بيننا وبين البحر فرسخان، فأردت أن أنزل في المعدية. وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي. فقالا: أتزل وتتركنا؟ فأترتها على نفسي، وقلت انزلا أنتما والجارية التي أحبها. فقالت الجارية: إني أحسن السباحة، فأتعلق بجبل المعدية، وأعوام معهم. فنزل رفيقاي، وأحدهما محمد بن فرحان التوزري، والآخر رجل مصري، والجارية معهم، والأخرى تعوم. وربط البحرية في المعدية حبالاً وسبحوا بها. وجعلت معهم ما عز علي من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين، لأن الريح كانت تساعدهم. وأقمت بالمركب، ونزل صاحبه إلى البر على الدقة. وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي. فجاء الليل قبل تمامها، ودخل معنا الماء، فصعدت إلى المؤخر، وأقمت به حتى الصباح. وحينئذ جاء إلينا بعض الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنا من أصحاب سلطانهم، وهم تحت ذمته. فكتبوا إليه بذلك. وهو على مسيرة يومين في الغزو، كتبت أنا إليه بما اتفق علي، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ ثمرها، شجرة المقل. وفي داخلها شبه قطن، فيه عسلية يستخرجونها، ويصنعون منها حلواء يسمونها التل، وهي تشبه السكر. وأتوا بسمك طيب. وأقمنا ثلاثة أيام. ثم وصل من جهة

السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة من فرسان ورجال، وجاءوا بالدولة
وبعشرة خيول، فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين،
وحملت الثانية في الدولة، ووصلنا إلى حصن مَرَكَاتُو (وضبط اسمه بفتح الهاء
وسكون الراء وفتح الكاف والفاء وتاء معلومة مضمومة وواو)، وبتنا. وتركت فيه
الجواري وبعض الغلمان والأصحاب، ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان.

ذكر سلطان بلاد المعبر

هو غياث الدين الدامغاني، وكان في أول أمره فارساً من فرسان الملك مجير
ابن أبي الرجا، أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجي ابن السيد
السلطان جلال الدين، ثم ولي الملك، وكان يدعى سراج الدين قبله. فلما ولي
تسمى غياث الدين. وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي، ثم
صار بها صهري الشريف جلال الدين أحسن شاه، وملك بها خمسة أعوام، ثم
قتل. وولي أحد أمرائه وهو علاء الدين أدِيَجِي (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل
وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم)، فملك سنة. ثم خرج إلى غزو الكفار
فأخذ لهم أموالاً كثيرة وغنائم واسعة، وعاد إلى بلاده. وغزاهم في السنة الثانية،
فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه
ليشرب، فأصابه سهم غرب، فمات من حينه. فولوا صهره قطب الدين. ثم لم
يجمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوماً. وولي بعده السلطان غياث الدين، وتزوج
بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنت متزوجاً أختها بدعلي.

ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا. وكان قاعداً في
برج خشب. وعادتهم بالهند أن لا يدخل أحد على السلطان دون خوف. ولم يكن

عندي خف، فأعطاني بعض الكفار خفًا. وكان هنالك من المسلمين جماعة، فعجبت من كون الكافر كان أم مروءة منهم. ودخلت على السلطان، فأمرني بالجلوس، ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين. وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام. وبعث بالفرش وبطعامهم، وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام. كما يفعل ببلادنا. ثم اجتمعت به بعد ذلك، وألقيت له أمر جزائر ذيبة المهل، وأن يبعث الجيش إليها. فأخذ في ذلك بالعزم، وعين المراكب لذلك. وعين الهدية لسلطانها، والخلع للوزراء والأمراء، والعطايا لهم. وفوض إلي في عقد نكاحه مع أخت السلطنة، وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لي: يكون رجوعك بعد خمسة أيام. فقال له قائد البحر خواجه سرك: لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن. فقال لي السلطان: أما إذا كان الأمر هكذا، فامض إلى فتن حتى نقضي هذه الحركة، وتعود إلى حضرتنا مترة، ومنها نكون الحركة. فأقمت معه بخلال ما بعثت إلى الجواري والأصحاب.

ذكر ترتيب رحيله وشيخ فعله في قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التي نسلكتها غيضة واحدة من الأشجار والقصب، بحيث لا يسلكها أحد. فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن في الجيش من كبير وصغير قَدُوم لقطع ذلك. فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه، فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال. ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس، طائفة بعد أخرى، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي. وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة محددة الطرفين، فجعلوها على كتفيه يحملها، ومعه امرأته وأولاده. ويؤتى بهم إلى المحلة. وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سوراً من خشب، يكون له أربعة أبواب. ويسمونه الكتكر

(بفتح الكافرين وسكون التاء المملوّه وآخره راء)، ويصنعون على دار السلطان كتركراً ثانياً، ويصنعون خارج الكنكر الأكبر مصاطب، ارتفاعها نحو نصف قامه، ويوقدون عليها النار بالليل. ويبيت عندها العبيد والمشاءون، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب. فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً، أو قد كل واحد منهم الحزمة التي بيده، فعاد الليل شبه النهار، لكثرة الضياء. وخرجت الفرسان في أتباع الكفار، فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام. وأتى الى كل باب من أبواب الكنكر بقسم منهم. فركزت بالخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده، ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم، ثم تذبح نساؤهم، ويربطن بشعورهن الى تلك الأخشاب، ويذبح الأولاد الصغار في حجورهن، ويتركون هنالك. وتنزل المحلة، ويشتغلون بقطع غيضة أخرى، ويصنعون بمن أسروه كذلك. وذلك أمر شنيع، ما علمته لأحد من الملوك. وبسببه عجل الله حينه. ولقد رأيت يوماً، والقاضي عن يمينه، وأنا عن شماله، وهو يأكل معنا، وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع. فأشار إلى السيفين بيده أن يقطعوا رأسه. ثم قال لهم: وزن أو بسر أو، معناه: وابنه وزوجته، فقطعت رقابهم. وصرفت بصري عنهم. فلما قمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض. وحضرت عنده يوماً، وقد أتى برجل من الكفار، فتكلم بما لم أفهمه. فإذا بجاعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم، فبادرت القيام، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: أصلي العصر. ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه. فلما عدت وجدته متشحطاً في دماثة.

ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديؤ (بفتح الباء الموحدة ولام والفاء ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة واو مسكن)،

وهو من كبار سلاطين الكفار، يزيد عسكره على مائة ألف، ومعه نحو عشرين ألفاً من المسلمين، أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين، فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف، منهم النصف من الجياد، والنصف الثاني لا خير فيهم، ولا غناء عندهم. فلقوه بظاهر مدينة كَبَّان، فهزمهم. ورجعوا إلى حضرة مترة، ونزل الكافر على كبان، وهي من أكبر مدنها وأحصنها، وحاصرها عشرة أشهر، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يوماً. فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان، ويتركوا له البلد. فقالوا له: لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك. فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوماً. فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم، فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة، فبكوا، وقالوا: نبيع أنفسنا من الله. فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا، فالموت تحت السيوف أولى بنا. فتعاهدوا على الموت، وخرجوا من الغد، ونزعوا العماثم عن رؤوسهم وجعلوها في أعناق الخيل، وهي علامة من يريد الموت. وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة، وكانوا ثلاثمائة. وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور، وكان فقيهاً ورعاً شجاعاً، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار. وركب السلطان في القلب ومعه ثلاث آلاف، وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقه لهم، وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي. وقصدوا محلة الكافر عند القايلة، وأهلها على غرة، وخيلهم في المرعى. فأغاروا عليها. وظن الكفار أنهم سراق. فخرجوا إليهم على غير تعبئة، وقاتلوهم. فوصل السلطان غياث الدين، فانهزم الكفار شر هزيمة، وأراد سلطانهم أن يركب، وكان ابن ثمانين سنة، فأدركه ناصر الدين ابن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده، فأراد قتله، ولم يعرفه. فقال له أحد غلمانه: هو السلطان. فأسره وحمله إلى عمه، فأكرمه في الظاهر حتى جبي منه الأموال والفيلة والخيل، وكان يعده السراح. فلما استصفى ما عنده، ذبحه وسلخه، وملاً جلده بالتبن. فعلق على سور

متره، ورأيته بها معلقاً، ولنعد إلى كلامنا فنقول: ورحلت عن المحلة، فوصلت إلى مدينة فتن (بفتح الفاء والتاء والمثناة المشددة ونون)، وهي كبيرة حسنة على الساحل، ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام، يصعد إليها على طريق خشب مسقف، فإذا جاء العدو ضموا إليها الأجناف التي تكون بالمرسى، وصعدوا الرجال والرماة، فلا يصيب العدو فرصة. وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة، وبها العنب الكثير والرمان الطيب. ولقيت الشيخ الصالح محمداً النيسابوري أحد الفقراء الموهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم، ومعه سبع رباه، يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيراً، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها. وأقامت بمدينة فتن، وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوباً للقوة على الجماع. وذكروا أن من جملة أخلاطها برادة الحديد، فأكل منها فوق الحاجة فمرض، ووصل إلى فتن. فخرجت إلى لقائه، واهدت له هدية. فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور فقال له: لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر. وأراد أن يعطيني قيمة الهدية فأبيت، ثم ندمت، لأنه مات. فلم آخذ شيئاً. وأقام بفتن نصف شهر، ثم رحل إلى حضرته. وأقامت أنا بعده نصف شهر، ثم رحلت إلى حضرته، وهي مدينة مُمْتَرَه (بضم الميم وسكون التاء المعلو وفتح الراء)، مدينة كبيرة متسعة الشوارع. وأول من اتخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه. وجعلها شبيهة بدهلي، وأحسن بناءها. ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتاً ذريعاً، فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه، وإن أبطأ موته فإلى الرابع. فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضاً أو ميتاً. واشترت بها جارية على أنها صحيحة، فماتت في يوم آخر. ولقد جاءت إلي في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه، ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام، نبيل كيس فطن. فشكت

ضعف حالها، فأعطيتها نفقة، وهما صحيحان سويان. فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنًا، وإذا به قد توفي من حينه. وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس. ولما دخل السلطان مترة، وجد أمه وامراته وولده مرضى. فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها، كانت عليه كنيسة للكفار. وخرجت إليه في يوم خميس، فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي. فلما ضربت لي الأخبية رأيت الناس يسرحون، ويموج بعضهم في بعض. فمن قائل: إن السلطان مات، ومن قائل: إن ولده هو الميت. ثم تحققنا ذلك، فكان الولد هو الميت، ولم يكن له سواه. فكان موته مما زاد في مرضه. وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان.

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافي عنه

وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين، وشعرت بذلك، فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة. ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده خارجاً إلى المحلة، قد وجه عنه، إذا ليس للسلطان ولد. فطلب إلي الرجوع معه، فأبيت. وأثر ذلك في قلبه. وكان ناصر الدين هنا خديماً بداهلي قبل أن يملك عمه. فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء إليه، فكان من القدر ملكه بعده. ولما بويع، مدحته الشعراء، فأجزل لهم العطاء وأول من قام منشداً القاضي صدر الزمان، فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة، ثم الوزير المسمى بالقاضي، فأعطاه ألفي دينار دراهم، وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة. وبثت الصدقات في الفقراء والمساكين. ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه، نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضة. وعمل عزاء السلطان غياث الدين، فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم، ثم يقرأ العشارون، ثم يؤتى بالطعام

فياكل الناس، ثم يعطون الدراهم، كل إنسان على قدره. وأقاموا على ذلك أربعين يوماً. ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة. وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه، وطلبه بالأموال. وولي الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه إلي وأنا بفتن ليلتقاني، فتوفي سريعاً. فولي الوزارة خواجه سرور قائد البحر، وأمر أن يخاطب بخواجه جهان، كما يخاطب الوزير بدهلي. ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة. ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين، وتزوجها بعده. وبلغه أن الملك مسعوداً زاره في محبسه قبل موته، فقتله أيضاً، وقتل الملك بهادور، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء، وأمر لي بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر. ثم أصابني الحمى القاتلة هنالك، فظننت أنها القاضية. وألهمني الله إلى التمراهندي، وهو هنالك كثير، فأخذت نحو رطل منه، وجعلته في الماء ثم شربته. فأسهلني ثلاثة أيام، وعافاني الله من مرضي. فكرهت تلك المدينة، وطلبت الإذن في السفر، فقال لي السلطان: كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم. فأبيت، وكتب لي إلى فتن لأسافر في أي مركب أردت. وعدت إلى فتن، فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن، فسافرت في أحدها، ولقينا أربعة أجفان، فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفت. ووصلنا إلى كولم، وكان في بقية مرض، فأقمت بها ثلاثة أشهر. ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري، فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور.

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة للصغرى بين هنور وفاكنور، خرج علينا الكفار في اثني عشر مركباً حربياً، وقاتلونا قتالاً شديداً، وتغلبوا علينا، فأخذوا جميع ما

عندي مما كنت أدخره للشدائد، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزرادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء، ولم يتركوا لي ساتراً خلا سراويل، وأخذوا ما كان لجميع الناس، وأنزلونا بالساحل. فرجعت إلى قالقوط، فدخلت بعض المساجد. فبعث إليّ أحد الفقهاء بثوب، وبعث القاضي بعمامة، وبعث بعض التجار بثوب آخر. وتعرفت هنالك بتزوج الوزير عبدالله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين، وبأن زوجتي التي تركتها حاملاً ولدت ولدًا ذكراً فخطر لي السفر إلى الجزائر. وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله، ففتحت المصحف، فخرج لي ﴿ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ^(١) فاستخرت الله، وسافرت. فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذيبة المهل، ونزلت منها بكننوس. فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي وأضافني وجهاز لي كندرة. ووصلت بعد ذلك إلى هلي، وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة وأخواتها إليها برسم التفرج والسباحة، ويسمون ذلك التتجر. ويلعبون في المراكب، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها. وجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين وأمها التي كانت زوجتي. فجاء الخطيب إلي، وأتوا بالطعام. ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبدالله فأعلموه بقدمي. فسأل عن حالي، وعن قدم معي. وأخبرني أنني جئت برسم حمل ولدي، وكان سنه نحو عامين. وأتته أمه تشكو من ذلك. فقال لها: أنا لا أمنعه من حمل ولده. وصادرتني في دخول الجزيرة، وأنزلني بدار تقابل برج قصره، ليتطلع على حالي. وبعث إلي بكسوة كاملة، وبالتنبول وماء الورد على عادتهم. وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام، فأخذوهما، ولم يخرج الوزير إلي ذلك اليوم. وأتي إلي بولدي فظهر لي أن إقامته معهم خير له. فرددته إليهم، وأقامت خمسة أيام وظهر لي أن

(١) فصلت: ٣٠.

تعجيل السفر أولى. فطلبت الإذن في ذلك، فاستدعاني الوزير، ودخلت عليه وأتوني بالثوبين اللذين أخذوهما مني، فرميتها عند السلام على العادة. وأجلسني إلى جانبه، وسألني عن حالي، وأكلت معه الطعام، وغسلت يدي معه في الطست، وذلك شيء لا يفعله مع أحد. وأتوا بالتنبول وانصرفت، وبعث إلي بأثواب وبساتي من الودع، وأحسن في أفعاله وأجل. وسافرت، فأقمنا على ظهر البحر ثلاثاً وأربعين ليلة، ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح)، وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز. ولم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها، لكنها مظلمة. وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة، معناه جهنم ملأى بالنعم. رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلاً ذهلياً بدينار فضي، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء، والرطل الذهلي عشرون رطلاً مغربية. وسمعتهم يقولون: إن ذلك غلاء عندهم. وحدثني محمد المصمودي المغربي، وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديماً ومات عندي بداهلي، أنه كانت له زوجة وخادم، فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشتري الأرز في قشره بحساب ثمانين رطلاً ذهلياً بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خسون رطلاً صافية، وهي عشرة قناطير. ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبسهم الجواميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام، تباع خمسة عشر بدرهم، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين، ورطل السكر بأربعة دراهم، وهو رطل ذهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن بأربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعاً يباع بدينارين، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي. واشترت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة، وكان لها جمال

بارع. واشترى بعض أصحابي غلاماً صغير السن حسناً اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب. وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سُدْكاوآن، وضبط اسمها (بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون)، وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج إليه الهنود، ونهر الجون، ويصبان في البحر. ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي.

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والحاء المعجم والراء)، سلطان فاضل محب في الغرباء، وخصوصاً الفقراء والمتصوفة. وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن، وهو الذي ولي ولده معز الدين الملك بدھلي، فتوجه لقتاله والتقى بالنهر، وسمي لقاؤهما لقاء السعدين، وقد ذكرنا ذلك، وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة، فأقام بها إلى أن توفي، وولي ابنه شمس الدين إلى أن توفي فولي ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادوربور، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره، وأخذ بهادوربور أسيراً، ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك، على أن يقاسمه ملكه، فنكث عليه، فقاتله حتى قتله، وولي على هذه البلاد صهرآ، له فقتله العسكر، واستولى على ملكها علي شاه، وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتي. فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين، وهو مولى لهم، خالف بسدكاوآن وبلاد بنجالة، واستقل بالملك. واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه. فإذا كانت أيام الشتاء والوحل، أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه، وإذا عادت الأيلم التي لا مطر فيها أغار علي شاه على بنجاله في البر لقوته فيه.

حكاية

- ٤٥٣ وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى ان جعل أحدهم نائباً عنه في
 ٤٥٣ الملك بسدكاوان، وكان يسمى شيدا (بفتح الشين المعجم والبدال المهمل بينهما ياء
 ٤٥٤ آخر الحروف)، وخرج إلى قتال عدو له. فخالف عليه شيدا، وأراد الاستبداد
 ٤٥٦ بالملك، وقتل ولد السلطان فخر الدين، ولم يكن له ولد غيره. فعلم بذلك فكرّ
 ٤٥٧ عائداً إلى حضرته، ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سُرْهكاوان، وهي منيعة.
 ٤٥٩ فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره، فخاف أهلها على أنفسهم، فقبضوا على
 ٤٦٠ شيدا وبعثوا إلى عسكر السلطان، فكتبوا إليه بأمره. فأمرهم أن يبعثوا له رأسه
 ٤٦١ فبعثوه. وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء. ولما دخلت سدكاوان لم أر
 ٤٦٣ سلطانها، ولا لقيته، وعلمت أنه يخالف على ملك الهند. فخفت عاقبة ذلك،
 ٤٦٣ وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كأمرو، وهي (بفتح الكاف والميم وضم
 ٤٦٥ الراء). وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر، وهي جبال متسعة متصلة بالصين،
 ٤٦٦ وتتصل أيضاً ببلاد التبت حيث غزلان المسك. وأهل هذا الجبل يشبهون
 ٤٦٦ الترك، ولهم قوة على الخدمة. والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من
 ٤٦٧ غيرهم. وهم مشهورون بمعانة السحر والاشتغال به. وكان قصدي بالمسير إلى
 ٤٦٧ هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزي.
 ٤٦٧

ذكر الشيخ جلال الدين

- ٤٦٨
 ٤٦٨
 ٤٦٩ وهذا الشيخ من كبار الأولياء، وأفراد الرجال. له الكرامات الشهيرة والمآثر
 ٤٧١ العظيمة، وهو من المعمرين. أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله
 ٤٧١ العباسي ببغداد، وكان بها حين قتله، وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات،
 ٤٧٢ وهو ابن مائة وخسين، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم، ولا يفطر إلا
 ٤٧٣

بعد مواصلة عشر ، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ، ويقوم الليل كله . وكان نحيف الجسم طويلاً خفيف العارضين . وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله ، وقال لهم : إني أسافر عنكم غداً إن شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو ، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبراً محفوراً عليه الكفن والحنوط ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به ، رحمه الله تعالى .

كرامة له أيضاً

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح من المغرب فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ . ولم يكن عنده علم من أمري ، وإنما كوشف به ، وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها . وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ، ولما دخلت عليه قام إلي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري ، فأخبرته . فقال لي : أنت مسافر العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم يا سيدنا . فقال : والعجم ، فأكرموه . فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتي، وقلت في نفسي: ليت الشيخ أعطانيها. فلما دخلت عليه للوداع، قام إلى جانب الغار وجرّد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه، ولبس مرعقة، فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية، وإنما لبسها عند قدومي، وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي، ويأخذها منه سلطان كافر، ويعطيها لأخيها برهان الدين الصاغر جي، وهي له وبرسمه كانت. فلما أخبرني الفقراء بذلك، قلت لهم: لقد حصلت لي بركة الشيخ، بأن كساني لباسه. وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم، وانصرفت عن الشيخ. فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين، وانتهيت إلى مدينة الخنسا. فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام، وكانت الفرجية علي. فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم. فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي، ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه فأردت الانفصال، فمنعني وأدخلني على السلطان، فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبتّه، ونظر إلى الفرجية فاستحسنها. فقال لي الوزير: جردها، فلم يمكني خلاف ذلك. فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة. وتغير خاطري لذلك. ثم ذكرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر. فطال عجبي من ذلك. ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغر جي فوجدته يقرأ، والفرجية عليه بعينها، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي، فقال لي: لِمَ تقلبها وأنت تعرفها؟ فقلت له: نعم، هي التي أخذها مني سلطان الخنسا. فقال لي هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي. وكتب إليّ أن الفرجية تصلك على يد فلان. ثم أخرج لي الكتاب فقرأته. وعجبت من صدق يقين الشيخ،

وأعلمته بأول الحكاية. فقال لي: أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله، وهو يتصرف في الكون، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى.

ثم قال: بلغني أنه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة، وأنه يحج كل عام. لأنه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد، فلا يعرف أين ذهب. ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبْنَق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة. وسكون النون وقاف)، وهي من أكبر المدن وأحسنها. يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو، ويسمى النهر الأزرق، ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللكنوتي، وعليه النواعير والبساتين والقرى يمتدة ويسرة، كما هي على نيل مصر. وأهلها كفار تحت الذمة، يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك. وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى والبساتين فكأنما نمشي في سوق من الأسواق، وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة، وفي كل مركب منها طبل، فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله، وسلم بعضهم على بعض. وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول، وأن يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم. وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطي نصف دينار. وبعد خمسة عشر يوماً من سفرنا في النهر، كما ذكرناه، وصلنا إلى مدينة سُنْهَكاوان وسنر (بضم السين المهملة والنون وسكون الراء)، وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ إليها. ولما وصلناها وجدنا بها جنكاً يريد السفر إلى بلاد الجاوة. وبينها أربعون يوماً. فركبنا فيه وصلنا بعد خمسة عشر يوماً إلى بلاد البرَهْنَكَار الذين أفواهم كأفواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء)، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مستقفة بمشيش الأرض على شاطئ البحر. وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير.

ورجالهم على مثل صورنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع . ورجالهم عرايا لا يستترون . إلا أن الواحد يجعل ذكره وأثنييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه ، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر . ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة . أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم ، لا يستترون بذلك . ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه ، وأنهم لا يزنون . وإذا زنا رجل منهم ، فحد الرجل أن يصلب حتى يموت ، أو يؤتى بصاحبه أو عبده فيصلب عوضاً منه ، ويسرح هو . وحد المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحداً بعد واحد بمحضته حتى تموت ، ويرمون بها في البحر . ولأجل ذلك لا يتركون أحداً من أهل المراكب ينزل إليهم ، إلا إن كان من المقيمين عندهم . وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة ، لأنه بعيد من الساحل . ولا يتركونهم لاستقائه خوفاً على نسايتهم ، لأنهن يطمحن الى الرجال الحسان . والفيلة كثيرة عندهم ، ولا يسعها أحد غير سلطانهم . ثم يشتري منهم بالأثواب . ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم ، وأكثر التردد إليهم . ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صفار ، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة ، وجاءوا بالمولز والأرز والتنبول والفوفل والسمك .

ذكر سلطانهم

وأتى إلينا سلطانهم راكباً على فيل ، عليه شبه بردعة من الجلود ، ولباس السلطان ثوب من جلود المعزى ، وقد جعل الوبر إلى خارج ، وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات ، وفي يده حربة من القصب ، ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذببة المهل وأثواباً من بنجالية ، وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة

في أيام عيدهم. ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها. ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحراً يهيج به البحر، فيهلك أو يقارب الهلاك.

حكاية

واتفق في ليلة من ليالي إقامتنا بمسأهم أن غلاماً لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلاً، وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل. وعلم بذلك زوجها، فجاء في جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به. فحملا إلى سلطانهم. فأمر بالغلام فقطعت أنثياه وصلب. وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت. ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال: إنا لا نجد بدأ من إمضاء أحكامنا. ووهب لصاحب المركب غلاماً عوض الغلام المطلوب، ثم سافرنا عن هؤلاء. وبعد خمسة وعشرين يوماً وصلنا إلى جزيرة الجاوة (بالجيم)، وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي. رأيناها على مسيرة نصف يوم. وهي خضرة نضرة. وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور. وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك. والكثير من أفاويه الطيب التي ببلاد الكفار إنما هو منها، وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك. وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار، فيكافئهم كل إنسان على قدره. وصعد إلينا أيضاً نائب صاحب البحر، وشاهد من معنا من التجار، وأذن لنا في النزول إلى البر. فنزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر، بها دور اسمها السَّرْحَى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل)، وبينها وبين البلد أربعة أميال. ثم كتب بهروز نائب

صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومي، فأمر الأمير دولسة بلقائي، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي، وتاج الدين الأصفهاني، وسواهم من الفقهاء. فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان، وأفراس سواه فركبت، وركب أصحابي، ودخلنا إلى حضرة السلطان، وهي مدينة سَمَطْرَة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء)، مدينة حسنة كبيرة، عليها سور خشب وأبراج خشب.

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم، شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعاً وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح.

ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزة على جانبي الطريق، وهي علامة على نزول الناس، فلا يتجاوزها من كان راكباً. فنزلنا عندها ودخلنا المشور، فوجدنا نائب السلطان، وهو يسمى عمدة الملك. فقام إلينا وسلم علينا، وسلامهم بالمصافحة، وقعدنا معه. وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك، وختمها ودفعها لبعض الفتيان. فأتاه الجواب على ظهرها. ثم جاء أحد الفتيان ببُقْشَة والبُقْشَة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم)، هي السببية فأخذها النائب بيده، وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمونها فردخانة، على وزن زردخانة (إلا أن أولها فاء)، وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة.

وكذلك الوزراء والأمراء الكبار. وأخرج من البقشة ثلاث فوط: إحداها من خالص الحرير، والأخرى حرير وقطن، وأخرى حرير وكتان. وأخرج ثلاثة أثواب، يسمونها التحتانيات من جنس الفوط، وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس، تسمى الوسطانيات، وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك، أحدها أبيض، وأخرج ثلاث عائم. فلبست فوطة منها عوضاً عن السراويل على عادتهم، وثوباً من كل جنس. وأخذ أصحابي ما بقي منها.

ثم جاءوا بالطعام، أكثره الأرز، ثم أتوا بنوع من الفقاع، ثم أتوا بالتنبول، وهو علامة الانصراف، فأخذناه وقمنا، وقام النائب لقيامنا، وخرجنا عن المشور، فركبنا وركب النائب معنا. وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب، وفي وسطها دار بناؤها بالخشب، مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم)، ومنها مصبوغ وغير مصبوغ.

وفي البيت أسرة من الخيزان، فوقها مضربات من الحرير، ولحف خفاف، ومخاد، يسمونها البوالشت. فجلسنا بالدار، ومعنا النائب. ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين، وقال لي: يقول لك السلطان هذا على قدرنا، لا على قدر السلطان محمد. ثم خرج النائب، وبقي الأمير دولسة عندي. وكانت بيني وبينه معرفة. لأنه كان ورد رسولاً على السلطان بداهلي. فقلت له: متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لي: إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان. إلا بعد ثلاثة أيام ليذهب عنه تعب السفر، ويثوب إليه ذهنه. فأقمنا ثلاثة أيام، يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم، وتأتينا الفواكه والطرف مساءً وصباحاً. فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، أتاني الأمير دولسة فقال لي: يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة. فأتيت الجامع وصلت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف والراء)، ثم دخلت إلى السلطان،

فوجدت القاضي أمير سيد ، والطلبة عن يمينه وشماله . فصافحني وسلمت عليه ، وأجلسني عن شماله ، وسألني عن السلطان محمد ، وعن أسفاري فأجبت . وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي . ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر ، فلما صلاها دخل بيتاً هنالك ، فنزع الثياب التي كانت عليه ، وهي ثياب الفقهاء ، وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشياً ، ثم لبس ثياب الملك ، وهي الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه ، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ، ركب من معه الخيل . وإذا ركب الفرس ، ركبوا الفيلة . ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور . فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكباً وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفاً ، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، ووزراؤه أربعة ، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقعهم . وكذلك تفعل كل طائفة ، ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكام والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمهاليك . ووقف السلطان على فيه إزاء قبة الجلوس ، ورفع فوق رأسه شطر مرصع ، وجعل عن يمينه خسون فيلاً مزينة ، وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضاً مائة فرس ، وعن شماله مثلها ، وهي خيل النوبة ، ووقف بين يديه خواص الحجاب . ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه ، وأتى بجيل مجللة بالحرير ، لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه . فعجبت من شأنها ، وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك

وكان له ابن أخ متزوج ببنته، فولاه بعض البلاد. وكان الفتى يتعشق بنتاً لبعض الأمراء، ويريد تزوجها. والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح، فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها، فإن أعجبهت صفتها تزوجها، وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن شاءوا. والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم، لما يحوزون به من الجاه والشرف. ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها. واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلاً إليها. ثم إن السلطان خرج إلى الغزو، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر. فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة، ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ، وادعى الملك، وبايعه بعض الناس، وامتنع آخرون. وعلم عمه بذلك، فقفل راجعاً عائداً إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر، وأخذ الجارية التي تعشقها، وقصد بلاد الكفار بمُل جاوه. ولهذا بنى عمه السور على سمطرة. وكانت إقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوماً، ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه. ولا يتهاى السفر إلى الصين في كل وقت. فجهز لنا جنكاً، وزودنا، وأحسن وأجل جزاءه الله خيراً، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك. وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة، ثم وصلنا إلى مَلِ جاوة (بضم الميم)، وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين، وبها الأفايه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري، وقاقلة وقهارة من بعض بلادها، وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي، وإنما معظم ذلك بمل جاوه. ولندكر ما شهدناه منها، ووقفنا على أعيانه وحققناه.

ذكر اللبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك، وأغصانها كأغصان الخرشف، وأوراقها صغار رقاق، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها بدون ورقة. واللبان صمغية تكون في أغصانها. وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار.

ذكر الكافور

وأما شجرة الكافور فهي قصب كقصب بلادنا، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ. ويكون الكافور داخل الأنابيب، فإذا كسرت القصبية وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور. والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب، حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان، وإلا لم يتكون شيء منه. والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم، بتجميد الروح، وهو المسمى عندهم بالخردالة، هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي، ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار.

ذكر العود الهندي

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط، إلا أن قشرة رقيق، وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له. وشجرته لا تعظم كل العظم، وعروقه طويلة، وفيها الرائحة العطرة. وأما عيدان شجرته وورقها، فلا عطرية فيها. وكل ما يبلاد المسلمين من شجره فهو متملك. وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير

متملك. والمتملك منه ما كان بقاقله، وهو أطيّب العود. وكذلك القماري هو أطيّب أنواع العود، ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب. ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع. وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه، ويدفن في التراب أشهراً، فتبقى فيه قوته، وهو من أعجب أنواعه.

ذكر القرنفل

وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة، وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام، وليست بمملكة لكثرتها. والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان، والذي يسميه أهل بلادنا نوّار القرنفل، هو الذي يسقط من زهره، وهو شبيه بزهر النارج. وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب، والزهر المتكون فيها هو البسباسة، رأيت ذلك كله وشاهدته. ووصلنا إلى مرسى قاقلة، فوجدناه به جملة من الجنوك معد للسرقة. ولن يستعصي عليهم من الجنوك، فإن لهم على كل جنك وظيفة. ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة (وهي بقافين آخرها مضموم ولامها مفتوح)، وهي مدينة حسنة، عليها سور من حجارة منحوتة، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة. وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يوقدونه في بيوتهم، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمناً، هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم. وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير. والفيلة بها كثيرة جداً، عليها يركبون ويحملون. وكل إنسان يربط فيلته على بابه، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده، يركبه إلى داره ويحمل له. وكذلك جميع أهل الصين، والخطا على مثل هذا الترتيب.

ذكر سلطان مثل جاوه

وهو كافر، رأيته خارج قصره جالساً على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط، ومعه أرباب دولته. والعساكر يعرضون عليه مشاة، ولا خيل هنالك إلا عند السلطان، وإنما يركبون الفيلة، وعليها يقاتلون. فعرف شأني، فاستدعاني فجئت وقلت: السلام على من اتبع الهدى، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام. فرحب بي، وأمر أن يفرش لي ثوب اقعد عليه. فقلت للترجمان: كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال: هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً، وأنت ضيف، وجئت من سلطان كبير، فيجب إكرامك، فجلست، وسألني عن السلطان، فأوجز في سؤاله، وقال لي: تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام، وحينئذ يكون انصرافك.

ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر، قد وضعه على رقبة نفسه، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه، ثم أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه، فوق رأسه لحة السكين، وشدة إمساكه بالأرض. فعجبت من شأنه، وقال لي السلطان: أي فعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له: ما رأيت هذا قط. فضحك وقال: هؤلاء عبيدنا، يقتلون أنفسهم في محبتنا. وأمر به فرفع وأحرق. وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا. وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه، وعظموا لأجل فعله. وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به، كان تقريراً لمحبتته في السلطان، وأنه يقتل نفسه في حبه، كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه، وجده قتل نفسه في حب جده، ثم انصرفت عن المجلس. وبعث إلي بضيافة ثلاثة أيام. وسافرنا في البحر

فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوماً الى البحر الكاهل ، وهو الراكد وفيه حرة زعموا
أنها من تربة أرض تجاوره . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل
هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب ، كما ذكرناه ، تجذف
به فتجره . ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كبيراً كالصواري ،
يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها ، ويقومون قياماً صفين ، كل
صف يقابل الآخر . وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوايس . فتجذف إحدى
الطائفتين الحبل ، ثم تتركه ، وتجذف الطائفة الاخرى . وهم يغنون عند ذلك
بأصواتهم الحسان ، وأكثر ما يقولون : لعلى لعلى . وأقمنا على ظهر هذا البحر
سبعة وثلاثين يوماً ، وعجبت البحرية من التسهيل فيه ، فإنهم يقيمون فيه خمسين
يوماً إلى أربعين ، وهي أنهى ما يكون التيسير من عليهم . ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي
وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) ، وملكها هو المسمى
بطوالسي . وهي بلاد عريضة ، وملكها يضاهي ملك الصين . وله الجنوك الكثيرة ،
يقاتل بها أهل الصين حتى يصلحوه على شيء . وأهل هذه البلاد عبدة أوثان ،
حسان الصور ، أشبه الناس بالترك في صورهم ، والغالب على ألوانهم الحمرة ،
ولهم شجاعة ونجدة . ونساؤهم يركبن الخيل ، ويمسّن الرماية ، ويقاتلن كالرجال
سواء . وأرسينا من مراسيمهم بمدينة كَيْلوكري (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر
الحروف مسكنة ولام مضموم وراء مكسور) ، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها ،
وكان يسكن بها ابن ملكهم . فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل
الناخذة إليهم ، ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم عنه ، فأخبروه أن أباه ولاه بلداً
غيرهم ، وولى بنته بتلك المدينة واسمها أرْدُجا (بضم الهمزة وسكون الراء وضم
الذال المهمل وجيم) .

ذكر هذه الملكة

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمبرسي كيلوكري، استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب والكراني، وهو الكاتب، والتجار، والرؤساء، والتنديل، وهو مقدم الرجال، وسباه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عاداتها. ورغب الناخوذة مني أن أحضر معهم. فأتيت، لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم. فلما حضروا عندها، قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوذة: لم يبق إلا رجل واحد بخشي وهو القاضي بلسانهم، وبخشي (بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء وكسر الشين المعجمة)، وهو لا يأكل طعامكم. فقالت: ادعوه. فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة، فقالوا: أجب الملكة. فأتيتها، وهي بمجلسها الأعظم، وبين يديها نسوة، بأيديهن الأزمة، يعرضن ذلك عليها، وحوها النساء القواعد، وهن وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل، وبين يديها الرجال. ومجلسها مفروش بالحرير، وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل، وعليه صفائح الذهب. وبالمجلس مساطب خشب، منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخواري والقلال والبواقيل. أخبرني الناخوذة أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالأفاويه، يشربونه بعد الطعام، وأنه عطر الرائحة حلو المطعم، يفرح ويطيب النكهة، ويهضم، ويعين على الباءة. فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية: حسن مسن يخشي مسن (خوشميسن يخشميسن)، معنا: كيف حالك؟ كيف أنت؟ وأجلستني على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربي، فقالت لبعض خدامها: دواة وبتك كاتور (كتور) معنا: الدواة والكاغد. فأتي بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم. فقالت: ما هذا؟ فقلت لها: تنضري (تنكري) نام، وتنضري (بفتح التاء المملوءة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون)

الف وميم)، ومعنى ذلك اسم الله. فقالت: خشن (خوش)، ومعناه جيد. ثم سألتني من أي البلاد قدمت، فقلت لها من بلاد الهند. فقالت: بلاد الفلفل. فقلت: نعم. فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها فأجبتها.

فقالت: لا بد أن أغزوها وأخذها لنفسي، فأبني يعجبني كثرة ماها وعساكرها. فقلت لها: افعلي. وأمرت لي بأثواب وحل فيلين من الأرز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربع مرطبانات، وهي أوان ضخمة، مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا. كل ذلك مملوح مما يستعد به للبحر، وأخبرني الناخوذة أن هذه الملكة في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء، فتغير على عدوها، وتشاهد القتال، وتبارز الأبطال. وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها، وكادوا ينهزمون، فدفعت بنفسها، وخرقت الجيوش، حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله، فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات، وانهمت عساكره. وجاءت برأسه على رمح فافتكته أهله منها بمال كثير. فلما عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها. وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها، فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني. فيتحامون مبارزتها، خوف المعرة إن غلبتهم. ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين. وإقليم الصين متسع، كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض. ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضاً نهر السبر (السرو)، كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه، معناه جبل القروء، ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين. وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنييل مصر، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهاى المصري، بل يفضله، والأعصاب والإجاص. وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذي بالصين. وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه. والقمح بها كثير جداً، ولم أر قمحاً أطيب منه، وكذلك العدس والحمص.

ذكر الفخار الصيني

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان. وهو من تراب جبال هنالك، تقد فيه النار كالفحم، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارة عندهم. ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء، فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه. فالجيد منه ما خر شهراً كاملاً، ولا يزداد على ذلك. والدون ما خر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً. ويحمل إلى الهند وسائر الاقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب. وهو أبداع أنواع الفخار.

ذكر دجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً، أضخم من الأوز عندنا. وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا. وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة، فأردنا طبخها، فلم يسع لحمها في برمة واحدة، فجعلناها في برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة. وربما انتفت ريشها، فيبقى بضعة حمراء. وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن بلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

ذكر بعض من أحوال أهالي الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين، ينفردون بسكناهم. ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعيات وسواها. وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها في أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة، وعليه جبة قطن خشنة. وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرّجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جداً، لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولولا التجار لما كانت له قيمة. ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له خمس قطع منها، جعل في إصبعه خاتماً، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سموه السّتي (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوّة) وهو بمعنى الكارمي بمصر. ويسمون القطعة الواحدة منها برّكالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام).

ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً، كما ذكرناه، وإنما يبيعهم وشراؤهم. بقطع كاغد، كل

قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها، بالشت (بياء موحدة والـف ولام مكسور وسين معجم مسكن وتاء معلولة)، وهو بمعنى الدينار عندنا. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جديداً ودفع تلك. ولا يعطى على ذلك أجره ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها هم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء، لم يؤخذ منه، ولا يلتفت عليه، حتى يصرفه بالبالشت، ويشترى به ما أراد.

ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخطا، إنما فحمهم تراب عندهم، منعقد كالطفل عندنا، ولونه لون الطفل، تأتي الفيلة بالأحمال منه، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه. فيقد كالفحم، وهو أشد حرارة من نار الفحم. وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية. ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى. ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني، ويضيفون إليه حجارة سواه، كما قلنا.

ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدّهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه، من الروم ولا من سواهم. فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنها، ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد،

موضوعة في الأسواق.

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصره مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين. فلما عدت من القصر عشيّاً، مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط. فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطيء شيئاً من شبهه.

وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم. وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعث صورته إلى البلاد، وبحث عنه. فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ. قال ابن جزي: هذا مثل ما حكاه أهل التأريخ من قضية سابور ذي الأكتاف، ملك الفرس، حين دخل إلى بلاد الروم متنكراً، وحضر وليمة صنعها ملكهم، وكانت صورته على بعض الأواني فنظر إليها بعض خدام قيصر، فانطبعت على صورة سابور. فقال للملك: إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس. فكان الأمر على ما قاله، وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب.

ذكر عاداتهم في تقييد ما في المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما قيده بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحداً ممن قيده، طالبوا صاحب الجنك. فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره، أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يمل عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه

من السلع ، قليلها وكثيرها ، ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم . فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم ، عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيتُه ببلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ، وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مُغَرَّمُها ، أغرم أحد عشر مغرمًا ، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

ذكر عاداتهم في منع التجار عن الفساد

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيّن أو في الفندق ، فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله ، وضمنه التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فإذا أراد السفر بحث عن ماله ، فإن وجد شيئاً منه قد ضاع ، أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه ، وإن أراد النزول بالفندق ، سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه ، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه ، فإن أراد التسري اشتري له جارية ، وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق ، وأنفق عليها . والجواري رخيصات الأثمان ، إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم ، وليس ذلك عيباً عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ، ولا يمينون أيضاً منه إن اختاروه . وكذلك إن أراد التزوج تزوج . وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا ، فإنها أرض ضلال .

ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق

وببلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين . فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة شهور ، وتكون معه الأموال الطائلة ، فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك ان لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً ، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان

والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء، جاء الحاكم إلى الفندق، ومعه الكتاب
لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها، وأقفل باب الفندق
عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه، وكتب به
تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه
أن الجميع قد وصلوا إليه. وإن لم يفعل طلبه بهم. وهكذا العمل في كل منزل
ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق. وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه
المسافر من الأزواد، وخصوصاً الدجاج والإوز. وأما الغنم فهي قليلة عندهم. ولنعد
إلى ذكر سفرنا فنقول: لما قطعنا البحر، كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة
الزيتون. وهذه المدينة ليس بها زيتون، ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه
اسم وضع عليها، وهي مدينة عظيمة كبيرة، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس،
وتعرف بالنسبة إليها، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية. ومرساها من
أعظم مراسي الدنيا، أو هو أعظمها. رأيت به نحو مائة جنك كبار، وأما الصغار
فلا تحصى كثرة. وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر
الأعظم. وهذه المدينة وجميع بلاد الصين، يكون للإنسان بها البستان والأرض
وداره في وسطها. كمثل ما هي بلدة سجلاسة ببلادنا. وبهذا عظمت بلادهم.
والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة. وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير
الذي توجه إلى الهند رسولاً بالهدية، ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك، فسام
علي، وعرف صاحب الديوان بي، فأنزلي في منزل حسن. وجاء إلي قاضي
المسلمين تاج الدين الأردوبلي، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال
الدين عبد الله الأصفهاني، وهو من الصلحاء، وجاء إلي كبار التجار، فيهم
شرف الدين التبريزي، أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومي على الهند،
وأحسنهم معاملة، حافظ القرآن، مكثر للتلاوة. وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد
الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض

الإسلام. وله يعطون زكوات أموالهم، فيعود غنياً، كواحد منهم. وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني، له زاوية خارج البلد، وإليه يدفع التجار النذور التي يندرونها للشيخ أبي إسحق الكازروني. ولما عرف صاحب الديوان أخباري، كتب إلى القان، وهو ملكهم الأعظم، يخبره بقدومي من جهة ملك الهند. فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني لبلاد الصين (صين الصين)، وهم يسمونه صين كلان، لأشاهد تلك البلاد، وهي في عمالته، بخلال ما يعود جواب القان. فأجاب إلى ذلك، وبعث معي من أصحابي من يوصلني. وركبت في النهر، في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية، إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياماً، وجميعهم في وسط المركب، والركاب في المقدم والمؤخر، ويظللون على المركب بثياب تصنع من نبات بلادهم، يشبه الكتان، وليس به، وهو أرق من القنب.

وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوماً. وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية، نشترى بها ما نحتاج إليه، ونصلي الظهر. ثم ننزل بالعشي إلى أخرى. وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان (بفتح الكاف)، وهي مدينة صين الصين، وبها يصنع الفخار، وبالزيتون أيضاً. وهناك يصب نهر آب حياة في البحر، يسمونه مجمع البحرين. وهي من أكبر المدن، وأحسنها أسواقاً. ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن. وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة، لها تسعة أبواب، داخل كل باب أسطوان ومصاطب، يقعد عليها الساكنون بها، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان، وأهل الزمانات. ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة. وكذلك فيما بين الأبواب كلها. وفي داخلها المارستان للمرضى، والمطبخة لطبخ الأغذية، وفيها الأطباء والخدام. وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام

والأرامل ممن لا مال لهم. وعمّر هذه الكنيسة بعض ملوكهم، وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفاً عليها. وصور ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة، وهم يعبدونها. وفي بعض جهات هذه المدينة بلسدة المسلمين، لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق، ولهم قاض وشيخ. ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أوجد الدين السنجاري، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذو الأموال الطائلة، وأقامت عنده أربعة عشر يوماً، وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي. وكل يوم يصنعون دعوة جديدة، ويأتون إليها بالعُشارين الحسان والمغنين. وليس وراء هذه المدينة مدينة، لا للكفار ولا للمسلمين. وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً فيما ذكر لي، يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم. ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها. ولم أر بتلك البلاد من رأى السدّ، ولا من رأى من رآه.

حكاية عجيبة

ولما كنت بصين كلان، سمعت أن بها شيخاً كبيراً قد أناف على مائتي سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه. فتوجهت إلى الغار، فرأيت على بابه، وهو نحيف شديد الحمرة، عليه أثر العبادة، ولا لحية له. فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها وقال للترجمان: هذا من طرف الدنيا، كما نحن من طرفها الآخر. ثم قال: لقد رأيت عجباً. أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة، والرجل الذي كان جالساً بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟ فقلت: نعم. فقال: أنا هو. فقبلت يده وفكر ساعة، ثم دخل الغار، فلم يخرج إلينا. وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به. فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده. ووجدنا بعض

أصحابه ، ومعه جملة بوالثت من الكاغد . فقال : هذه ضيافتكم . فانصرفوا . فقلنا له : ننتظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك ، بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك ، وانصرفت . فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته ، فقالوا : كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء ، ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان . والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو . وأخبروني أنه كان قد غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة ، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين ، فيعطيهم التحف على أقدارهم . ويأتيه الفقراء كل يوم ، فيعطي لكل واحد على قدره . وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر . وأنه يحدث عن السنين الماضية ، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول : لو كنت معه لنصرته . ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب بأحسن الذكر ، ويشني عليهما . ويلعن يزيد بن معاوية ، ويقع في معاوية . وحدثوني عنه بأمور كثيرة . وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال : دخلت عليه الغار ، فأخذ بيدي . فخيل إلي أني في قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير ، وفوق رأسه تاج ، وعن جانبه الوصائف الحسان ، والفواكه تتساقط في أنهار هنالك ، وتحملت أني أخذت تفاحة لآكلها ، فإذا أنا بالغار ، وبين يديه ، وهو يضحك مني . وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً ، فلم أعد إليه .

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم . لكن لم يره أحد يصلي . أما الصيام فهو صائم أبداً . وقال لي القاضي : ذكرت له الصلاة في بعض الأيام ، فقال لي : أتدري أنت ما أصنع ؟ إن صلاتي غير صلاتك . وأخبره جميعها غريبة . وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعاً إلى مدينة الزيتون .

ثم بعد وصولي إليها بأيام ، جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر

والكرامة . إن شئت في النهر ، وإلا ففي البر . فاخترت السفر في النهر . فجهزوا لي مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الأمراء ، وبعث الأمير معنا أصحابه ، ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة . ثم سرنا في الضيافة ، نتغدى بقرية ، ونتعشى بأخرى ، فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قَنَجَنفُو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيج ، والبساتين محدقة بها ، فكأنها غوطة دمشق . وعند وصولنا ، خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفاز وأهل الطرب . وأتونا بالخيال فركبنا ، ومشوا بين أيدينا ، لم يركب معنا غير القاضي والشيخ . وخرج أمير البلد وخدامه . وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم . دخلنا المدينة ، ولها أربعة أسوار . يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان ، من حراس المدينة وسماها ، يسمون البَصُونان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون) ، ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون ، والأمير الحاكم على البلد ، ويسكن داخل السور الثالث المسلمون . وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القُرْلاني (بضم القاف وسكون الراء) ، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون ، وهو أعظم المدن الأربعة . ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية

وبينا أنا يوماً في دار ظهير الدين القرلاي ، إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم . فاستؤذن له علي ، وقالوا : مولانا قوام الدين السبتي . فعجبت من اسمه ، ودخل إلي . فلما حصلت المؤانسة بعد التحية ، سنح لي أن أعرفه . فأطلت النظر إليه ، فقال : أراك تنظر إلي نظر من يعرفني ، فقلت له : من أي البلاد أنت ؟ فقال : من سبته . فقلت له : وأنا من طنجة . فجدد السلام علي

وبكى حتى بكيت لبكائه. فقلت له: هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي: نعم، دخلت حضرة دهلي. فلما قال لي ذلك تذكرت له، وقلت: أنت البشري؟ قال: نعم. وكان قد وصل إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي، وهو يومئذ شاب، لا نبات بعارضيه، من حذاق الطلبة، يحفظ الموطن. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبى. وكان قصده في بلاد الصين، فعظم شأنه بها، واكتسب الأموال الطائلة. أخبرني أن له نحو خمسين غلاماً ومثلهم من الجوارى. وأهدى إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفاً كثيرة. ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيا بغد ما بينهما. وكانت إقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوماً.

وسافرت منها إلى بلاد الصين، على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني، بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها. فمتى خرجت عن منزلي رأيت المنكرات الكثيرة، فأقلقني ذلك، حتى كنت ألزم المنزل، فلا أخرج إلا لضرورة. وكنت إذا رأيت المسلمين بها، فكأني لقيت أهلي وأقاربي. ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري، أن سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام، حتى وصلت إلى مدينة تَيَّوْم قُطْلُو (وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة، وليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور. نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام. ثم ودعت الفقيه وانصرفت. فركبت النهر على العادة، نتغدى بقرية ونتغشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوماً إلى مدينة الخنساء، واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة. ولا أدري، أعربي هو أم وافق العربي. وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض. طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل.

وهي على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين، كل واحد له بستانه وداره. وهي منقسمة إلى ست مدن، سنذكرها. وعند وصولنا إليها، خرج إلينا قاضيها فخر الدين، وشيخ الإسلام بها، وأولاد عثمان بن عفان المصري، وهم كبراء المسلمين بها، ومعهم علم أبيض والأبطال والأنفار والأبواق. وخرج أميرها في موكبه، ودخلنا المدينة. وهي ست مدن، على كل مدينة سور، ومحدق بالجميع سور واحد. فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم. حدثني القاضي وسواه أنهم اثنا عشر ألفاً في زمام العسكرية. وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم. وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية، على باب يعرف بباب اليهود. ويسكن بها اليهود والنصارى والترک عبدة الشمس، وهم كثير. وأمير هذه المدينة من أهل الصين. وبتنا عنده الليلة الثانية.

وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة، ويسكنها المسلمون. ومدينتهم حسنة، وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام. وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر، عند دخولنا. ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري، وكان أحد التجار الكبار. استحسنت هذه المدينة فاستوطنها، وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه به الجاه والحرمة على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمتحاجين. ولهم زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة. وبها طائفة من الصوفية. وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة. وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير.

وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً. فكلنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة. ولا يزالون يختلفون في أطعمتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة. وركبوا معي يوماً، فدخلنا إلى المدينة الرابعة، وهي دار الإمارة. وبها سكنى الأمير الكبير قرطبي. ولما دخلنا من بابها. ذهب عني أصحابي،

ولقيني الوزير وذهب بي إلى دار الأمير الكبير قرطبي . فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته . وهذه المدينة منفردة لكسنى عبيد السلطان وخدامه ، وهي من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم ، وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام ، وأحجار الوقود . وفيه السفن للنزهة . والمشور في وسط هذه المدينة ، وهو كبير جداً . ودار الإمارة في وسطه ، وهو يحف بها من جميع الجهات . وفيه سقائف ، فيها الصناعات يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . أخبرني الأمير قرطبي أن عددهم ألف وستائة معلم . كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين . وهم أجمعون عبيد القان ، وفي أرجلهم القيود ، ومساكنهم خارج القصر . ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة ، دون الخروج على بابها . ويعرضون كل يوم على الأمير مائة مائة . فإن نقص أحدهم ، طلب به أميره . وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده ، وكان يخير في النظرين : إما أن يقيم في الخدمة غير مقيد ، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . وإذا بلغ سنه خمسين عاماً أعتق من الأشغال وأنفق عليه ، كذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم . ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي ، فلم تجر عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يعظمون تعظيماً كثيراً ، ويسمى أحدهم آطا ، ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قرطبي

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) ، وهو أمير أمراء الصين ، أضافنا بداره ، وصنع الدعوة ، ويسمونها الطلوى (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة . وأتى بالطباخين المسلمين فذبخوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم

بيده. وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام، وبعث ولده معنا إلى الخليج. فركبنا في سفينة تشبه الحراقة، وركب ابن الأمير في أخرى، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى، وكانوا يغنون بالصيني والعربي والفارسي، وكان ابن الأمير معجباً بالغناء الفارسي، فغنوا شعراً منه. وأمرهم بتكريره مراراً، حتى حفظته من أفواههم. وله تلحين عجيب وهو:

تا دل بمحننت داديم در بحر فگر افتاديم
جن (جون) در نماز استاديم قوي بمحراب اندري (اندرم)^(١)
واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير. وسفنههم منقوشة أبداع نقش. وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون. وعدنا بالعشي إلى دار الأمير، فبتنا بها. وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب.

حكاية المشعوذ

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة، وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك. فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد. فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير، أمر متعلماً له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا. فدعاه فلم يجبه ثلاثاً. فأخذ سكيناً بيده كالمفتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم

(١) معنى هذا الشعر: إننا منذ سلمنا أنفسنا للأحزان غرقنا في بحر التفكير، ولكننا عندما نقف بالمحراب لنصلي نكون أقوياء.

بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط، وهو ينفخ، وثيابه ملطخة بالدم. فقبل الأرض بين يدي الأمير، وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء.

ثم إنه أخذ أعضاء الصبي، فألصق بعضها ببعض، ورَكَلَهُ برجله فقام سوياً. فعجبت منه. وأصابني خفقان القلب، كمثله ما كان أصابني عند ملك الهند، حين رأيت مثل ذلك. فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت. وكان القاضي أفرح الدين إلى جانبي، فقال لي: والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنما ذلك شعوذة. وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة، وهي من أكبر المدن، يسكنها عامة الناس. وأسواقها حسان، وبها الخذاق بالصنائع، وبها تصنع الثياب الخنساوية. ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعه أبداع إصااق، ودهنت بصنغ أحر مشرق. وتكون هذه الأطباق عشرة: واحد في جوف آخر لبرقتها. تظهر لرائبها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطي جميعها. ويصنعون من هذا القصب صحافاً. ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول. وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها.

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها. وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتى وانان إلى المدينة السادسة. ويسكنها البحرية والصيدون والجلافة والنجارون، ويدعون دودكاران (دروكران)، والأصباوية وهم الرماة، والبيادة وهم الرجالة، وجميعهم عبيد السلطان. ولا يسكن معهم سواهم، وعددهم كثير. وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم. بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها، وجهاز لنا الأمير قرطي مركباً بما يحتاج إليه من زاد وسواه، وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين، ودخلنا إلى بلاد الخِطَا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل)، وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة. ولا يكون في جميعها موضع غير معمور، فإنه إن بقي موضع غير معمور، طلب أهله أو من يواليهم بخراجه. والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانب هذا النهر، من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق. وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً. وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضراً غير مقيم، لأنها ليست بدار مقام، وليس بها مدينة مجتمعة، إنما هي قرى وبساتين، فيها الزرع والفواكه والسكر. ولم أر في الدنيا مثلها، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة. وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة، حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجم والفتحة ونون مسكن وباء معقود والفتحة ولام مسكورة وقاف)، وتسمى أيضاً خانِقو (بخاء معجم ونون مكسورة وقاف وواو)، وهي حضرة القان، والقان هو سلطانهم الأعظم، الذي ملكته بلاد الصين والخِطَا. ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها، على العادة عندهم. وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا، فأذنوا لنا في دخول مرساها، فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة، وهي من أعظم مدن الدنيا. وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها. إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها، ومدينة السلطان في وسطها كالقصبية حسبما نذكره. ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي، وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار، واستدعاه فأخذ الدنانير وقضى بها دينه، وأبى أن يسير إليه. وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده، وخاطبه بصدر الجهان.

ذكر سلطان الصين والخِطَا الملقب بالقان

والقان عندهم سمة لكل من يلي ملك الأقطار، كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور بأتابك واسمه باشاي (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون

الياء). وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته .

ذكر قصره

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه. وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب. وعليه سبعة أبواب: فالباب الأول منها يجلس به الكُتوال، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره، فيها المالك البرددارية، وهم حفاظ باب القصر، وعددهم خمسمائة رجل. وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل. والباب الثاني يجلس عليه الإصباهية، وهم الرماة، وعددهم خمسمائة. والباب الثالث يجلس عليه النزدارية (بالنون والزاي)، وهم أصحاب الرماح، وعددهم خمسمائة. والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم)، وهم أصحاب السيوف والترسة. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة. فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير، على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند. وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر، وعن يمينها سقيفة كُتاب الرسائل، وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كُتاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع. إحداها تسمى ديوان الأشراف، يقعد بها المشرف، والثانية سقيفة ديوان المستخرج، وأميرها من كبار الأمراء، والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من إقطاعاتهم، والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار، ومعه الفقهاء والكتاب. فمن لحقته مظلمة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية، وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفتيان، ولهم ثلاث سقائف: إحداها سقيفة الحبشان منهم، والثانية سقيفة الهنود، والثالثة سقيفة الصينيين. ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق، وجدنا القان غائباً عنها إذ ذاك. وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه، بناحية قراقرم وبش بالغ، من بلاد الخطا. وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس. وأميرهم يسمى أمير طومان، وكان من خواص السلطان، وأهل دخلته خمسين ألفاً زائداً إلى ذلك. وكانت الرجالة خمسمائة ألف. ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء، واتفقوا على خلعه. لأنه كان قد غير أحكام اليساق، وهي الأحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام. فمضوا إلى ابن عمه القائم، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه، وتكون مدينة الخنساء إقطاعاً له. فأبى ذلك، وقاتلهم فانهزم وقتل. وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك. فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر.

ثم جيء بالقان المقتول، وبنحو مائة من المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه. فحفر للقان ناووس عظيم، وهو بيت تحت الأرض، وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة، وجعل معه أربع من الجواري، وستة من خواص المماليك، معهم أواني الشراب. وبني باب البيت، وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم.

ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت، ونصبوا خشباً على القبر، وعلقوها عليه. بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه، وجعل أقارب القان المذكورون في ناوويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم، وصلبوا على قبور كبارهم. وكانوا عشرة: ثلاثة من الخيل على كل قبر، وعلى

قبور الباقيين فرساً فرساً. وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار، وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء، وهي الطيالة البيضاء للكفار والثياب البيضاء للمسلمين. وأقام خواتين القان وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوماً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة. وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر. فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحداً. لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم، إذا مات ملكهم صنعوا له ناووساً، وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم، ويجعلون معهم أواني الشراب. وأخبرني بعض كبار مستوفة، ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان، واختصه سلطانهم، أنه كان له ولد. فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم، قال: فقلت لهم: كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم، ولا من ولدكم؟ وفديته منهم بمال عريض. ولما قتل القان كما ذكرنا، واستولى ابن عمه فيروز على الملك، اختار أن تكون حضرته مدينة قرآقُرم (وضبطها بفتح القاف الأول والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية)، لقرىها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر. ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان، وقطعوا الطرق، وعظمت الفتن.

ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن، أشار عليّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز، فبعث معي ثلاثة من أصحابه، وكتب لي بالضيافة. وسرنا منحدرين في النهر إلى

الخنساء، ثم إلى قنجنفو، ثم إلى الزيتون. فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر إلى الهند، وفي جملتها جنك للملك الظاهر، صاحب الجاوة، وأهله مسلمون. وعرفني وكيله، وسر بقدومي. وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام، فلما قاربنا بلاد طوالسي، تغيرت الريح، وأظلم الجو، وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس. ثم دخلنا بجرأ لا نعرفه، وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين، فلم يتمكن ذلك. وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن.

ذكر الرخ

ولما كان في اليوم الثالث والأربعين، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر، بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً، والريح تحملنا إلى صوبه. فعجب البحرية وقالوا: لسنا بقرب من البر، ولا يعهد في البحر جبل، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكننا فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص، وجددوا التوبة، وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه ﷺ، ونذر التجار الصدقات الكثيرة، وكتبتهم لهم في زمام بخطي وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر، فعجبنا من ذلك. ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضاً، فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرخ. وإن رأنا أهلكننا. وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال. ثم إن الله تعالى من علينا بريح طيبة، صرفتنا عن صوبه، فلم نره، ولا عرفنا حقيقة صورته. وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة، ونزلنا إلى سمطرة، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له، وجاء بسبي كثير. فبعث لي جاريتين وغلامين، وأنزلني على العادة، وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه.

ذكر إعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجلوة، فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً، وكسوه بشباب الحرير. وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربعين من الخواتين، يرفعن أذيالها، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه، وكلهن باديات الوجوه، ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو ضيع. وليست تلك بعادة هن إلا في الأعراس خاصة. وصعدت العروس المنبر، وبين يديها أهل الطرب رجالاً ونساء، يلعبون ويغنون. ثم جاء الزوج على فيل مزين، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيهة البوجة، والتساج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة، وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة، وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية. ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك. ونزل ابنه فقبل رجله، وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها، والخواتين يروحن عليها، وجاءوا بالفوفل والتنبول. فأخذ الزوج بيده، وجعل منه في فمها. ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمه. ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها في فمها، وذلك كله على أعين الناس، ثم فعلت هي كفعله. ثم وضع عليها الستر، ورفع المنبر وهما فيه، إلى داخل القصر. وأكل الناس وانصرفوا. ثم لما كان من الغد جمع الناس، وأجرى له أبوه ولاية العهد، وبايعه الناس، وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب. وأقامت بهذه الجزيرة شهرين، ثم ركبت في بعض الجنوك.

وأعطاني السلطان كثيراً من العود والكافور والقرنقل والصندل، وزودني. وسافرت عنه، فوصلت بعد أربعين يوماً إلى كولم، فنزلت بها في جوار القزويني، قاضي المسلمين. وذلك في رمضان. وحضرت بها صلاة العيد، في

مسجدها الجامع. وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلاً. فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح. ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد، ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون. ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط، وأقمنا بها أياماً. وأردت العودة إلى دهلي. ثم خفت من ذلك، فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار. وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين. ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطأ.

ذكر سلطان ظفار

ووجدت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث، الذي كان ملكاً بها حين وصولي إليها فيما تقدم، ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر، التركي الأصل. وأنزلي هذا السلطان، وأكرمني. ثم ركبت البحر، فوصلت إلى مَسْقَط (بفتح الميم)، وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس، ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيَات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وتاء مثناة). ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها)، ثم إلى مرسى كَلْبَة، ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب، ثم إلى قلعات، وقد تقدم ذكرها. وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز، وهي محسوبة من بلاد عمان. ثم سافرنا إلى هرمز، وأقمنا بها ثلاثاً. وسافرنا في البر إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال، وقد تقدم ذكر جميعها. ثم سافرنا إلى كَارَزِي (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاي)، وأقمنا بها ثلاثاً.

ثم سافرنا إلى جَمَكَان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون)، ثم سافرنا منهم إلى مَيْمَن (وضبط اسمها بفتح الميمين وبينها ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون)، ثم سافرنا إلى بَسَا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة

والسين المهمل مع تشديدها)، ثم إلى مدينة شيراز. فوجدنا سلطانها أبا أسحاق على ملكه إلا أنه كان غائباً عنها. ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة، وهو قد كف بصره، نفعه الله ونفع به. ثم سافرت إلى ماين، ثم إلى يزدخاص، ثم إلى كليل، ثم إلى كشك زر، ثم إلى اصبهان، ثم إلى تستر، ثم إلى الحويزا، ثم إلى البصرة، وقد تقدم ذكر جميعها. وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها، وهي قبر الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وحليمة السعدية، وأبي بكر، وأنس بن مالك، والحسن البصري، وثابت البناني، ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وحبيب العجمي، وسهل بن عبد الله التستري، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. ثم سافرنا من البصرة، فوصلنا إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزرناه. ثم توجهنا إلى الكوفة، فزرنا مسجدها المبارك، ثم إلى الحلة، حيث مشهد صاحب الزمان، واتفق في بعض تلك الأيام أن وليها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان، وانتظاره هنالك. ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الأمير، فأصابت ذلك الوالي علة مات منها سريعاً. فزاد ذلك في فتنة الرافضة، وقالوا: إنما أصابه ذلك لأجل منعه الدابة، فلم تمنع بعد. ثم سافرت إلى صرصر، ثم إلى مدينة بغداد. وصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين، ولقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف، واستيلاء الروم على الخضراء. جبر الله صدع الإسلام في ذلك.

ذكر سلطان العراق

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمه السلطان أبي سعيد رحمه الله. ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق، وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجه ابن الأمير الجوبان، حسبما

كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن . وكان السلطان حسن غائباً عن بغداد في هذه المدة، متوجهاً لقتال السلطان أنابك افراسياب، صاحب بلاد اللور. ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار، ثم إلى هيت، ثم إلى الحديثة، ثم إلى عانة. وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها. والطريق فيما بينها كثير العمارة، كأن الماشي في سوق من الأسواق، وقد ذكرنا أنا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد. ثم وصلت إلى مدينة الرحبة، وهي التي تنسب إلى مالك بن طوق. ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق، وأول بلاد الشام. ثم سافرنا إلى السخنة، وهي بلدة حسنة، أكثر سكانها الكفار من النصارى. وإنما سميت السخنة لحرارة مائها. وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء، يستحمون فيها، ويستقون الماء ليلاً، ويجعلونه في السطوح ليبرد. ثم سافرنا إلى تدمر، مدينة نبي الله سليمان عليه السلام، التي بنتها له الجن، كما قال النابغة:

يبنون تدمر بالصَّفَّاحِ وَالْعَمَدِ

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام، وكانت مدة مغيبها عنها عشرين سنة كاملة. وكنت تركت بها زوجة لي حاملاً، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولداً ذكراً، فبعثت حينئذ إلى جده للأُم، وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين ديناراً ذهباً هدياً. فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة، لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي. فدخلت الجامع، فوفق لي نور الدين السخاوي إمام المالكية وكبيرهم، فسلمت عليه فلم يعرفني. فعرفته بنفسي، وسألته عن الولد. فقال مات منذ اثنتي عشرة سنة. وأخبرني أن فقيهاً من أهل طنجة يقيم بالمدرسة الظاهرية، فسرت إليه لأسأله عن ولدي وأهلي، فوجدته شيخاً كبيراً، فسلمت عليه وانتسبت له، فأخبرني أن ولدي توفي منذ خمس عشرة سنة، وأن الوالدة بقيد الحياة. وأقامت بدمشق الشام بقية العام والغلاء شديد، والخبز قد انتهى إلى

قيمة سبع أواقى بدرهم نقرة، وأوقيتهم أربع أواقٍ مغربية. وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المسلاقي، وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوي، وقدم معه دمشق، فعرف بها. ثم ولي القضاء وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين بن السبكي، وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه.

حكاية

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق، وأوصى بمال للمساكين. فكان المتولي لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر. فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحوا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين. وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه. فأخرج زبانيته، فكانوا حيث ما لقوا أحداً من المساكين، قالوا له: تعال تأخذ الخبز. فاجتمع منهم عدد كثير. فحبسهم تلك الليلة، وركب من الغد، وأحضرهم تحت القلعة، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم. وكان أكثرهم براء عن ذلك. وأخرج طائفة الخرافيش عن دمشق فانتقلوا إلى حصص وحماه وحلب. وذكر لي أنه لم يعيش بعد ذلك الا قليلاً وقتل. ثم سافرت من دمشق إلى حصص ثم إلى حماه ثم إلى المعرة ثم إلى سرمين ثم إلى حلب. وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رُغْطَي (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة).

حكاية

واتفق في تلك الأيام أن فقيراً يعرف بشيخ المشايخ، وهو ساكن في جبل خارج مدينة عنتاب، والناس يقصدونه ويتبركون به. وله تلميذ ملازم له، وكان متجرداً عزياً لا زوجة له، قال في بعض كلامه: إن النبي ﷺ كان لا

يصر عن النساء، وأنا أصبر عنهن. فشهد عليه بذلك، وثبت عند القاضي، ورفع أمره إلى ملك الأمراء، وأتى به وبتلميذه الموافق له على قوله، فأفتى القضاة الأربعة، وهم شهاب الدين المالكي، وناصر الدين العديم الحنفي، وتقي الدين الصائغ الشافعي، وعز الدين دمشقي الحنبلي، بقتلها معاً، فقتلا. وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين، بلغني الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد. فسافرت إلى حصص، فوجدت الوباء قد وقع بها، ومات يوم دخولي إليها نحو ثلثائة إنسان، ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام، وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام، حسبما ذكرناه في السفر الأول. فخفف الله الوباء عنهم، فأنهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة في اليوم، ثم سافرت إلى عجلون ثم إلى بيت المقدس، ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم. ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر، وهو من الفضلاء الكرماء. ومرته على الخطابة ألف درهم في الشهر.

حكاية

وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوة. ودعاني فيمن دعا إليها، فسألته عن سببها، فأخبرني أنه نذر أيام الوباء، أنه إن ارتفع ذلك، ومر عليه يوم لا يصل فيه على ميت، صنع الدعوة. ثم قال لي: ولما كان بالأمس، لم أصل على ميت، فصنعت الدعوة التي نذرت. ووجدت من كنت أعهدده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل، مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلائي، ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الأقصى، ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي، فأضافني. ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه.

ثم سافرت عن القدس، ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني،
وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي. فوصلنا إلى مدينة
الخليل عليه السلام، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام، ثم سرنا إلى
غزة، فوجدنا معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء. وأخبرنا قاضيها أن
العدول بها كانوا ثمانين، فبقي منهم الربع، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف
ومائة في اليوم.

ثم سافرنا في البر، فوصلت إلى دمياط، ولقيت بها قطب الدين النفسواني،
وهو صائم الدهر، ورافقني منها إلى فارسكور وسمنود ثم إلى أبي صير (بكسر
الصاد المهمل وياء وراء)، ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها.

حكاية

وبينا نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم، وعرضنا عليه
الطعام فأبى وقال: إنما قصدت زيارتكم، ولم يزل ليلته تلك ساجداً وراكعاً. ثم
صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر، والفقير بركن الزاوية. فجاء الشيخ بالطعام،
ودعاه فلم يجبه. فمضى إليه فوجده ميتاً. فصلينا عليه ودفناه، رحمة الله عليه. ثم
سافرت إلى المحلة الكبيرة، ثم إلى نحرارية، ثم إلى أبيار، ثم إلى دمنهور، ثم إلى
الإسكندرية. فوجدت الوباء قد خف بها، بعد أن بلغ عدد الموتى إلى ألف
وثمانين في اليوم. ثم سافرت إلى القاهرة، وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى
فيها إلى واحد وعشرين ألفاً في اليوم. ووجدت جميع من كان بها من المشايخ
الذين أعرفهم قد ماتوا، رحمهم الله تعالى.

ذكر سلطان مصر

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر
محمد بن الملك المنصور قلاوون. وبعد ذلك خلع عن الملك، وولي أخوه الملك

الصالح. ولما وصلت القاهرة، وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي، لسفرهم في شهر رجب. وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقبة أيلة، فارتفع عنهم. ثم سافرت من القاهرة إلى بلاد الصعيد، وقد تقدم ذكرها، إلى عيذاب. وركبت منها البحر، فوصلت إلى جدة. ثم سافرت منها إلى مكة، شرفها الله تعالى وكرمها، فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين. ونزلت في جوار إمام المالكية الصالح الولي الفاضل أبي عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بخليل. فصمت شهر رمضان بمكة، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي. ولقيت ممن أعهد من أشياخها شهاب الدين الحنفي، وشهاب الدين الطبري، وأبا محمد اليافعي، ونجم الدين الأصفوني، والحرابي. وحججت ذلك العام، ثم سافرت مع الركب الشامي إلى طيبة، مدينة رسول الله ﷺ. وزرت قبره المكرم، زاده الله طيباً وتشريفاً، وصليت في المسجد الكرم، طهره الله وزاده تعظيماً، وزرت من بالبقيع من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم، ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون. ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى مدينة الخليل ﷺ، ثم إلى غزة، ثم إلى منازل الرمل، وقد تقدم ذكر ذلك كله، ثم إلى القاهرة. وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى، قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفى بركته بعد إشفائها البلاد المغربية، وأفاض الإحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام. فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه، وأمليت لثم ركابه. فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شاقني من تذاكار الأوان، والحنين إلى الأهل والخلان، والمحبة إلى بلادتي التي لها الفضل عندي على البلدان.

بلاد بها نيطت علي تئامي وأول أرض مس جلدي توابها

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر سنة خمسين. وسرت حتى نزلت بجربة. وسافر المركب المذكور إلى تونس، فاستولى العدو عليه. ثم سافرت في مركب صغير إلى قابس، فنزلت في ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكّي أمير جربة وقابس. وحضرت عندهما مولد رسول الله ﷺ، ثم ركبت في مركب إلى سفاقس، ثم توجهت في البحر إلى بليانة، ومنها سرت في البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس، والعرب محاصرون لها.

ذكر سلطان تونس

وكانت تونس في إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأواب، الخاشع العادل، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر دين الاسلام، الذي سارت الأمثال بمجوده، وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، قاهر الكفار ومبيدها، ومبدي آثار الجهاد ومعيدها، ناصر الإيمان، الشديد السطوة في ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح، أبي يوسف ابن عبد الحق، رضي الله عنهم أجمعين، وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين. ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي لما بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية. فأنزلني بداره، وتوجه معي إلى المشور، فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، وأمرني بالقيود فقعدت. وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبته. وسألني عن

ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه. وإرادتهم قتله بالإسكندرية، وما لقي من أذيتهم، انتصاراً منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه، وكان في مجلسه من الفقهاء الأمام أبو عبد الله السطحي، والإمام أبو عبد الله محمد بن الصباح. ومن أهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد الرفيق، وأبو عبد الله بن هارون. وانصرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن، وهو ببرج يشرف على موضع القتال، ومعه الشيوخ الأجلة أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفتي، وأبو حسون زيان بن أمريون العلوي، وأبو زكرياء يحيى ابن سليمان العسكري، والحاج أبو الحسن الناميسي. فسألني عن ملك الهند فأجبتة عما سأل.

ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس، وكانت ستة وثلاثين يوماً. ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الأبلتي، وكان في فراش المرض، وباحثني عن كثير من أمور رحلتي.

ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين، فوصلنا إلى جزيرة سردانية، من جزر الروم، ولها مرسى عجيب، عليه خشب كبار دائرة به. وله مدخل كأنه باب، لا يفتح إلا بأذن منهم، وفيها حصون. دخلنا أحدها، وبه أسواق كثيرة، ونذرت لله تعالى إن خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين. لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا.

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس، ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلمسان. فقصدت العباد، وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع به، ثم خرجت عنها على طريق مدرومة، وسلكت طريق أخدمقان. وبت بزواية الشيخ إبراهيم. ثم سافرنا منها، فبينما نحن بقرب أزغنغان، إذا خرج علينا حسون راجلاً وفارسان. وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي وأخوه محمد،

المستشهد بعد ذلك في البحر. فعزمنا على قتالهم، ورفعنا علماً، ثم سالمونا
وسالمناهم، والحمد لله، ووصلت إلى مدينة تازي، وبها تعرفت خبر موت والدتي
بالوباء رحها الله تعالى.

ثم سافرت عن تازي، فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من
عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم، الإمام
الأكرم، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان، وصل الله علوه،
وكتب عدوه. فأنستني هيئته هيبة سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند،
وحسن أثارقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك، وحلمه
حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة. وكان بين
يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبو زيان ابن ودرار،
فسألني عن الديار المصرية، إذ كان قد وصل إليها فأجبتة عما سأل. وغمرني من
إحسان مولانا أيده الله تعالى بما أعجزني شكره. والله ولي مكافأته. وألقيت عصا
التسيار نبلاده الشريفة، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان.
لان الفواكة بها متيسرة، والمياه والأقوات غير متعذرة. وقلَّ إقليم يجمع ذلك،
ولقد أحسن من قال:

الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار
مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب. فأقول: إن لحوم
الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثماني عشرة أوقية بدرهم نقرة، والدرهم النقرة
سنة دراهم من دراهم المغرب، وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثماني عشرة
أوقية بدرهمين، وهما ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر
الاقوات. والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب،

ولان أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات، ويجعلون عليه السبرج والبسلا، وهو صنف من الجلبان، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت، والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك، وأعين أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن، والقلقاس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالمغرب، لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك. وأما الخضر فهي أقل الأشياء ببلاد مصر، وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام، وأما العنب فإذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة أوقية. وأما في بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً، فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية. وإذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة، والإجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة، وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منها بثمانية قلوس، وهي درهم من دراهم المغرب. وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير. وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة. فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعاراً وأكثرها خيرات، وأعظمها مرافق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً إلى شرفها، وفضلاً إلى فضلها، بإمامة مولانا أمير المؤمنين، الذي مد ظلال الأمن في أقطارها، وأطلع شمس العدل في أرجائها، وأفاض سبحانه الإحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين، وأقام بها رسوم الدنيا والدين. وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته، واشتغاله بالعلم، وتفقهه، وصدقته الجارية، ورفع المظالم.

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهر من أن يسطر في كتاب. فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال

والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن. فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها، ووقفت بين يديه الكريمتين، يكلمها دون واسطة. فإن كانت متظلّمة عجل إنصافها، أو طالبة إحسان وقع إسعافها. ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال، وفعل مثل ذلك فيها. ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية. وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التام، ويظهر فيه مثل هذا العدل. فإن ملك الهند عيّن بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس، وتلخيصها ورفعها إليه، دون حضور أربابها بين يديه. وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب. فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه. وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(١) قال ابن جزى: من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله، أي منذ قدومي على بابة الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد، وهو أوائل عام سبعة وخمسين، لم أشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص أو حراة، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف.

ولم يسمع بمثل ذلك في ما تقدم من الأعصار، ولا فيما تباعد من الأقطار. وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والإقدام، مثل يوم قتال بني عبد الوادي وغيرهم. ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان، وذكر ذلك عند سلطانهم فقال: هكذا وإلا فلا.

قال ابن جزى: لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم

(١) آل عمران: ١٣٤.

الأعادي ، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا ، وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفرسان والرجال ، برز إليه مولانا أيده الله غير محتفل به ، ولا متهيب منه ، فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خرّ بها صريعاً لليدين وللنم . وأما هزائم الأعادي فإنها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الأعداء ، وانهمزوا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين ، وما هو إلا ثمرة ما يمتاز به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض إليه . وأما اشتغاله بالعلم فما هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى ﷺ ، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه ، وكتب المتصوفة . وفي كل علم منها له القدح الملقى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نكته الرائقة من حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية . فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي ، وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاحي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا ، أيده الله ، في الصلوات كلها في الجماعة وقيام رمضان : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(١) .

(١) البقرة: ١٠٥ .

قال ابن جزري: لو أن عالماً ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم، مع اشتغاله بأمور الأمة، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية، ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك، ونظره بنفسه في شكايات المظلومين. ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان، إلا جلا مشكلها، وباحث في دقائقها، واستخرج غوامضها، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها. ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التصوفي، ففهم إشارات القوم، وتخلق بأخلاقهم. وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفيعته، وشفقته على رعيته، ورفقه في أمره كله. وأعطى للآداب حظاً جزيلاً من نفسه، فاستعمل أحسنها منزعاً، وأعظمها موقعاً، وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثها إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله ﷺ، وكتبها بخط يده الذي يخجل الروض حسناً.

وذلك شيء لم يتعاطأ أحد من ملوك الزمان إنشائه، ولا رام إدراكه. ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى، وأحاط علماً بمصولها، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها، وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها. وأما صدقاته الجارية، وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر، فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك، غير السلطان أتاك أحد. وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم، والتصدق بالزرع على المستترين من أهل البيوت.

قال ابن جزري: اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أموراً لم تخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام، ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد

أيضاً، ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسراً للانتفاع به، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى، ومنها التصديق بما يجتمع في مجاي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراماً لذلك اليوم الكريم وقياماً بحقه، ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم، واجتماعهم لإقامة رسمه، ومنها إعدار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء، ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث، يقيمون بها أودهم، ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفتشونها عند رقادهم.

وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير. ومنها بناء المستنانات في كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طلبهم، إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارة، وضروب المآثر، كافأ الله أيديهم، وشكر نعمه. وأما رفعه للمظالم عن الرعية، فمنها الرتب التي كانت تؤخذ بالطرقات، أمر أيده الله بمحو رسمها، وكان لها مجي عظيم، فلم يلتفت إليه، وما عند الله خير وأبقى، وأما كفه أيدي الظلام فأمر مشهور، وقد سمعته أيده الله يقول لعماله: لا تظلموا الرعية، ويؤكد عليهم تلك الوصية.

قال ابن جزى: ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلى رفعه التضييف الذي كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا، لكفى ذلك أثراً في العدل ظاهراً ونوراً في الرفق باهراً، فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به الحصر. وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين، ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم، ما هو اللائق بإحسانه، والمعهود من رأفته، وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار، وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام، ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين.

وأما فعله في معاونة أهل الأندلس على الجهاد، ومحافظته على إمداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح، وفته في عضد العدو بإعداد العدد وإظهار القوة، فذلك أمر شهير، لم يغيب علمه عن أهل المغرب والمشرق، ولا سبق إليه أحد من الملوك.

قال ابن جزى: حسب المتشوف إلى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد القطر إلى المسلمين، ودفاع القوم الكافرين، ما فعله في فداء مدينة طرابلس إفريقية. فإنها لما استولى العدو عليها، ومد يد العدوان إليها، ورأى، أيده الله، أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعث الأقطار، كتب إلى خدامه ببلاد إفريقية أن يفدوها بالمال. ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه خبر ذلك قال: الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا النزر اليسير. وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية، وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه. ولم يخطر في الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرأ يسيراً حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة، ومأثرة فائقة، قلّ في الملوك أمثالها وعز عليهم مثالها. ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد إنشاؤه الأجنان بجميع السواحل، واستكثاره من عُدد البحر، وهذا في زمان الصلح والمهادنة، إعداداً لأيام الغزاة. وأخذ بالحزم في قطع أطماع الكفار، وأكد ذلك بتوجهه، أيده الله، بنفسه إلى جبال جاناته في العام الفارط ليباشر قطع الخشب للإنشاء، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء، ويتولى بذاته أعمال الجهاد، مترجياً ثواب الله تعالى، وموقناً بحسن الجزاء.

ومن أعظم حسناته، أيده الله، عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء، دار ملكه العلي، وهو الذي امتاز بالحسن واتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب، وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبه فاس،

ولا نظير لها في المعمورة اتساعاً وحسناً وإبداعاً وكثرة ماء وحسن وضع. ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها. وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص، خارج المدينة البيضاء، فلا مثل لها أيضاً في عجيب وضعها وبديع صنعها. وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشد إحكاماً وإتقاناً. والله سبحانه ينفع مولانا، أيده الله، بمقاصده الشريفة، ويكافئه فضائله المنيفة، ويديم للإسلام والمسلمين أيامه، وينصر ألويته المظفرة وأعلامه.

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول: ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم، وعمني فضل إحسانه العميم، قصدت زيارة قبر الوالدة. فوصلت إلى بلدة طنجة وزرتها، وتوجهت إلى مدينة سبتة، فأقمت بها شهراً، وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر، ثم عافاني الله. فأردت ان يكون لي حظ من الجهاد والرياط، فركبت البحر من سبتة في شطي لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس، حرسها الله تعالى، حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن. وكان ذلك إثر موت طاغية الروم ألفونس، وحصاره الجبل عشرة أشهر، وظنه أنه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين. فأخذه الله من حيث لم يحتسب، ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفاً منه. وأول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح. فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندي، وقاضيه عيسى البربري، وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل، فرأيت عجائب ما بني به مولانا أبو الحسن، رضي الله عنه، وأعد فيه من العدد، وما زاد على ذلك مولانا، أيده الله. ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر.

قال ابن جزى: جبل الفتح هو معقل الإسلام المعترض شجتي في حلوق عبدة

الأصنام، حسنة مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، المنسوبة إليه، وقربته التي قدمها نوراً بين يديه، محل عدد لجهاد، ومقر آساد الأجناد، والشجر الذي افتر عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان، ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، عند جوازه، فنسب إليه، فيقال له: جبل طارق، وجبل الفتح، لأن مبدأه كان منه. وبقايا السور الذي بناه من معه باقية إلى الآن، تسمى بسور العرب. شاهدها أيام إقامتي به عند حصار الجزيرة، أعادها الله، ثم فتحه مولانا أبو الحسن، رضوان الله عليه، واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفاً، وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك، وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارة. وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر، وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه. فبنى به مولانا أبو الحسن، رحمة الله عليه، المأثرة العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً، تهدم بأحجار المجانيق، فبناها مكانه، وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به دار صنعة، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء، الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة. ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان، أيده الله، عهد تحصينه وتحسينه، وزاد بناء السور بطرف الفتح، وهو أعظم أسواره غناء، وأعمها نفعاً. وبعث إليه العدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة، وعامل الله تعالى فيه بحسن النية، وصدق الإخلاص. ولما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستة وخسين، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا، أيده الله، وثمرة توكله في أموره على الله، وبان مصداق ما اطرده من السعادة الكافية. وذلك أن عامل الجبل الخائن الذي ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده المغلولة عن الطاعة، وفارق عصمة الجماعة، وأظهر النفاق، وجمع في الغدر والشقاق، وتعاطى ما ليس من رجاله، وعمي عن مبدأ حاله السيء ومآله، وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تنفق على إطفائها كرائم الأموال، ويستعد

لاتقائها بالفرسان والرجال. فحكمت سعادة مولانا، أيده الله ببطلان هذا التوهم، وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذه الفتنة، فلم تكن إلا أيام يسيرة، وراجع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الثائر، وخالفوا الشقي المخالف، وقاموا بالواجب من الطاعة، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق، وأتي بهما مصفدين إلى الحضرة العلية، فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين، وأراح الله من شرهما. ولما خدت نار الفتنة أظهر مولانا، أيده الله، من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد أبا بكر، المدعو من السمات السلطانية بالسعيد، أسعده الله تعالى، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال، وأدر عليهم الأرزاق، ووسع لهم الإقطاع، وحرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الإحسان. وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر، أيده الله، ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عُدّده وأهرية زرعه ووصورة الجبل، وما اتصل به من التربة الحمراء. فصنع ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلاً عجيباً أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوقه، أيده الله، إلى استطلاع أحواله وتهتمه بتحسينه وإعداده. والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار، وشتّ شمل عباد الصليب. وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المفلق أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي البلسني، رحمه الله، في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي^(١) التي أولها:

(١) عبد المؤمن بن علي، هو: أمير دولة الموحدين بعد مؤسسها محمد بن تومرت، وقامت هذه الدولة بالمغرب، واستولت على الأندلس، وطردت منه المرابطين، وكان حكمه من سنة ٥٢٥ هـ إلى سنة ٥٥٨ هـ (١١٣٠ - ١١٦٣ م).

لو جثت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور
وفيهما يقول في وصف الجبل، وهو من البديع الذي لم يسبق إليه، بعد وصفه
السفن وجوازها :

حتى رمت جبل الفتحين^(١) من جبل
من شامخ الأنف في سخنائه طلّس^(٢)
نمسي النجوم على تكليل مفرقه
نربما مسحته من ذوائبها
وادرد^(٤) من ثنياه بما أخذت
محنك حلب الأيام أشطرها
مقيد الخطو جوال الخواطر في
قد واصل الصمت والإطراق مفتكراً
كأنه مكمد مما تعبده

معظم القدر في الأجيال مذكور^(٣)
له من الغيم جيب غير مزرور
في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على فوديه بجرور
منه معاجم أعواد الدهارير
وساقها سَوِّق حادي العير للعر
عجيب أمر به من ماضٍ ومنظور
بادي السكينة مُعَبَّرَ الأسارير
خوف الوعيدين^(٥) من دك وتسير

(١) سماه البلنسي: جبل الفتحين، لأنه أضاف إلى فتح طارق بن زياد للجبل فتح عبد المؤمن بن علي له في ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ.

(٢) أورد لسان الدين بن الخطيب (ذو الوارتين) في كتابه: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، والذي حقق قسمه الثاني الذي يتعلق بأخبار الجزيرة الأندلسية، وعلق عليه الأستاذ إ. ليفي برونسال أبيات القصيدة هكذا:

حتى رمت جبل الفتحين من كشب بساطع من سناه غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور

(٣) السحناء: الهيئة واللون، والطلّس: جمع طلّسة، وهي: الغبرة في سواد، والسحابة الرقيقة.

(٤) الأردد، مؤنثه: درداء: من ذهبت أسنانه، وهو ممنوع من الصرف، لأنه وصف على وزن الفعل، وقد صرف هنا لضرورة الشعر.

(٥) المقصود بالوعيدين: الوعيد بالدك للجبال، وتسييرها، وقد جاء هذا الوعيد في قول الله تعالى: =

أخلق به وجبال الأرض راجفة أن يطمئن غداً من كل محذور
ثم استمرّ في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علي .

قال ابن جزى: ولنعد إلى كلام الشيخ أبي عبد الله قال: ثم خرجت من جبل
الفتح إلى مدينة رندة، وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجلها وضعاً، وكان
قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكري، وقاضيه ابن عمي
الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة. ولقيت بها الفقيه القاضي الأديب أبا
الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري، وأضافني بمنزله، ولقيت بها أيضاً خطيبها
الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندرخ، المتوفى بعد ذلك
بمدينة سلا من بلاد المغرب، ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصقار
وسواه. وأقمت بها خمسة أيام.

ثم سافرت منها إلى مدينة مربلة، والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة،
ومربلة بليدة حسنة خصبة. ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقة،
فأردت التوجه في صحبتهم. ثم إن الله تعالى عصمني بفضلته فتوجهوا قبلي،
فأسروا في الطريق، كما سنذكره. وخرجت في أثرهم، فلما تجاوزت حوز مربلة،
ودخلت في حوز سهيل، مررت بفرس ميت في بعض الخنادق، ثم مررت بقفة
حوّات^(١) مطروحة بالأرض، فرابنى ذلك، وكان أمامي برج الناظور. فقلت في
نفسي: لو ظهر ها هنا عدو لأنذر به صاحب البرج. ثم تقدمت إلى دار هنالك،
فوجدت فرساً مقتولاً. فبينما أنا هنالك، إذ سمعت الصياح من خلفي،
وكنت قد تقدمت أصحابي، فعدت إليهم، فوجدت معهم قائد حصن سهيل،

= ﴿وَحِيلَتُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدَكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ، الحاقة: ١٤ ، وقول الله تعالى: ﴿وَسَيَّرُ
الْجِبَالَ سَيْرًا﴾ «الطور: ١٠» ، وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ «الكهف: ٤٧» ،
وقول الله تعالى: ﴿وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ «النبأ: ٢٠» ، وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا
الْجِبَالَ سَيَّرْتَ﴾ «التكوير: ٣» .

(١) الحوات: بائع الهيتان.

فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك، ونزل بعض عمارتها إلى البر. ولم يكن الناظور. بالبرج، فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة، وكانوا اثني عشر، فقتل النصارى أحدهم، وفر واحد، وأسر العشرة. وقتل معهم رجل حوات، وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض. وأشار علي ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصلني منه إلى مالقة، فبت عنده بمحصن الرابطة المنسوب إلى سهيل. والأجفان المذكورة مرساة عليه. وركب معي بالغد، فوصلنا إلى مدينة مالقة، إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه. رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير. ورماتها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب. قال ابن جزري: وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي في قوله، وهو من مליح التجنيس:

مالقة حييت ياتينها فالفلك من أجلك يأتينها
نهى طبيبي عنك في علّة ما لطبيبي عن حياتي نهى

وذيلها قاضي الجماعة أبو عبدالله بن عبد الملك بقوله في قصد المجانسة:

وحص لا تنس لها تينها واذكر مع إلتين زياتينها^(١)

وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب منها إلى أقاصي البلاد. ومسجدها كبير الساحة، شهير البركة، وصحنه لا نظير له في الحسن، فيه أشجار

(١) معني البيتين الأولين: حياك الله يا تين مالقة، فإن السفن تقصد مالقة من كل مكان لأجلك، وقد نهاني الطبيب عن أكلك لمرضي فلماذا نهاني طبيبي عنك وأنت حياتي؟ والجناس فيها بين: ياتينها، ويأتينها، وحياتي نهى، وهو جناس ناقص لاختلاف الكلمات في بعض الحروف، وفي الشكل، ومعنى البيت الأخير الذي ذيل به البيتان السابقان: لا تنس تين حص، واذكر كذلك ما تمتاز به من أنواع الزيتون وفيه جناس ناقص بين: لها تينها، وزياتينها.

النارنج البعيدة. ولما دخلت مالقة، وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولي الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي قاعداً بالجامع الأعظم، ومعه الفقهاء ووجوه الناس، يجمعون ملاً برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم. فقلت له: الحمد لله الذي عافاني، ولم يجعلني منهم. وأخبرته بما اتفق لي بعدهم، فعجب من ذلك، وبعث إلي بالضيافة، رحمه الله. وأضافني أيضاً خطيبها أبو عبد الله الساحلي المعروف بالمعمم^(١)

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش، وبينها أربعة وعشرون ميلاً. وهي مدينة حسنة، بها مسجد عجيب، وفيها الأعناب والفواكه والتين، كمثل ما بمالقة. ثم سافرنا منها إلى الحمة، وهي بلدة صغيرة، لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء. وبها العين الحارة على ضفة وادياها، وبينها وبين البلد ميل أو نحوه. وهناك بيت لاستحمام الرجال، وبيت لاستحمام النساء.

ثم سافرت منها إلى مدينة غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس^(٢)، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شتيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنان والرياض والقصور. والكروم محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين، لا مثل لها بسواها. قال ابن جزري: لولا خشيت أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه. ولكن ما اشتهر كاشتهارها، لا معنى لإطالة القول فيه. والله در شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي، نزيل غرناطة، حيث يقول:

(١) في إحدى طبعات الكتاب: المعروف بالعم.

(٢) أي: في عهد ابن بطوطة.

رعى الله منْ غرناطةٍ مُتَبَوِّأً يَسْرُ حزيناً أو يجير طريداً
تبرّم منها صاحبي عند ما رأى مسارحها بالثلج عُدُن جليداً
هي الثغر، صان الله منْ أهلتْ به وما خير ثغر لا يكون بروداً

ذِكْرُ سُلْطَانِ غرناطة

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي إليها السلطان أبا الحجاج يوسف بن السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر. ولم ألقه بسبب مرض كان به. وبعثت إلى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفعت بها. ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها، منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم البياني، ومنهم قاضيها وعالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم، الشهير بابن لب، ومنهم قاضي الجماعة، نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي البلعبي. قدم عليها من المرية في تلك الأيام، فوقع الاجتماع به في بستان بالفقيه أبي القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم. وأقمنا هنالك يومين وليلة.

قال ابن جزى: كنت معهم في ذلك البستان، وتمعنا الشيخ أبو عبدالله^(١) بأخبار رحلته، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها، واستفدنا منه الفوائد العجيبة. وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة، منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي. ولهذا الفتى أمر عجيب، فإنه نشأ بالبادية، ولم يطلب العلم، ولا مارس الطلبة. ثم إنه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله:

(١) أي: ابن بطوطة

يَا مَنْ اخْتَارَ فَوَّادِي مَنْزِلًا بَابَهُ الْعَيْنُ الَّتِي تَرْمُقُهُ
فَتَحَّ الْبَابَ سُهَادِي بَعْدَكُمْ فَابْعَثُوا طَيْفَكُمْ يُغْلِقُهُ

ولقيت بغرناطة الشيوخ والمتصوفين منهم الفقيه أبا علي عمر بن الشيخ
الصالح الولي أبي عبدالله محمد بن المحروق، وأقامت أياماً بزوايته التي بخارج
غرناطة، وأكرمني أشد الإكرام.

وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب،
والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة، وبينهما نحو ثمانية أميال، وهو مجاور
لمدينة التيرة الخرية. ولقيت أيضاً ابن أخيه الفقيه أبا الحسن علي بن أحمد بن
المحروق بزوايته المنسوبة للجام، بأعلى ربض نجد، من خارج غرناطة، المتصل
بجبل السبيكة، وهو شيخ المتسبين من الفقهاء.

وبغرناطة جملة من فقهاء العجم، استوطنوها لشبهها ببلادهم. منهم الحاج أبو
عبدالله السمرقندي، والحاج أحمد التبريزي، والحاج إبراهيم القونوي، والحاج
حسين الخراساني والحاجان علي ورشيدي الهنديان، وسواهم.

ثم رحلت من غرناطة إلى الحمّة، ثم إلى بلش، ثم إلى مالقة، ثم إلى حصن
ذكوان، وهو حصن حسن كثير المياه والأشجار والفواكه، ثم سافرت منه إلى
رندة، ثم إلى قرية بني رياح. فأنزلني شيخها أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي، وهو
أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان، يطعم الصادر والوارد، وأضافني ضيافة
حسنة. ثم سافرت إلى جبل الفتح، وركبت البحر في الجفن الذي جرت فيه
أولاً، وهو لأهل أصيلا، فوصلت إلى سبتة. وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو
مهدي عيسى بن سليمان بن منصور، وقاضياها الفقيه أبا محمد الزجندري. ثم
سافرت منها إلى أصيلا، وأقامت بها شهوراً. ثم سافرت منها إلى مدينة سلا،
فوصلت إلى مدينة مراكش. وهي من أجل المدن، فسيحة الأرجاء، متسعة

لأقطار. كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين، وبها الصومعة الهائلة العجيبة، صعدتها، وظهر لي جميع المد منها. وقد استولى عليه الخراب. فما شبهته إلا ببغداد، إلا أن أسواق بغداد أحسن.

وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه. قال ابن جزى: في مراكش يتقرا، قاضيها الإمام التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي:

لله مراكش الغراء من بلد وحبذا أهلها السادات من سكن
ان حلها نازح الأوطان مغترب أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها ينشأ التحاسد بين العين والأذن

ثم سافرنا من مراكش، صحبة الركاب العلي، ركاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سلا، ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات، المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها. ثم وصلنا إلى حضرة فاس، حرسها الله تعالى، فوادعت بها مولانا أيده الله، وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سجلماسة. وهي من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر. لكن تمر سجلماسة أطيب، وصنف إيرار منه لا نظير له في البلاد. ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري، وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين. فيا شد ما تباعدا، فأكرمني غاية الإكرام، واشتريت بها الجمال، وعلفتها أربعة أشهر.

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخسين، في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله تعالى، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تَغَازَى، وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين

المعجم وألف وزاي مفتوح أيضاً)، وهي قرية لا خير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلول الجمال. ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة، وهم الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال، ومن أنلي المجلوب من بلاد السودان، ويصل السودان من بلادهم، فيحملون منها الملح. ويبيع الحمل منه بأبوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً.

وبالملح يتصارف السودان، كما يتصارف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعاً، ويتبايعون به. وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبن. وأقمنا بها عشرة أيام في جهد، لأن ماءها زعاق. وهي أكثر المواضع ذباباً، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها. وهي مسيرة عشرة، لا ماء فيها إلا في النادر. ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران أبقاها المطر. ولقد وجدنا في بعض الأيام غديراً بين تلتين من حجارة، ماؤه عذب، فثروينا منه، وغسلنا ثيابنا. والكهاة بتلك الصحراء كثيرة، ويكثر القمل بها، حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق، فيقتلها.

وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة، فإذا وجدنا مكاناً يصلح للرعي رعينا الدواب به. ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري، فلم أتقدم بعد ذلك، ولا تأخرت. وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله، ويعرف بابن عدي منازعة ومشامة، فتأخر عن الرفقة، فضل. فلما نزل الناس، لم يظهر له خبر. فأشرت على ابن خاله بأن يكتري من مسوفة، من يقص

أثره لعله يجده فأبى، وانتدب في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجره لطلبه، فوجد أثره، وهو يسلك الجادة طوراً، ويخرج عنها تارة، ولم يقع له على خبر. ولقد لقينا قافلة في طريقنا، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم. فوجدنا أحدهم ميتاً تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه، وفي يده سوط. وكان الماء على نحو ميل منه. ثم وصلنا إلى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء)، وهي احساء ماء، تنزل القوافل عليها، ويقيمون ثلاثة أيام. فترحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلايس خوف الريح، ومن هنالك يبعث التكشيف.

ذكر التكشيف

التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكثره أهل القافلة، فيتقدم إلى أيواتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء، مسيرة أربع. ومن لم يكن له صاحب بأيواتن، كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها، فيشاركه في ذلك. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل أيواتن بالقافلة، فيهلك أهلها، أو الكثير منهم. وتلك الصحراء كثيرة الشياطين، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به، واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تسفيها الريح، فتري جبالاً من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك من كثر تردده، وكان له قلب ذكي. ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة، مريض الثانية، وهو أعرف الناس بالطريق. واكثرنا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسوفة. وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا، فاستبشرنا بذلك. وهذه الصحراء منيرة مشرقة، ينشرح الصدر فيها، وتطيب النفس. وهي آمنة من السراق. والبقر

الوحشية بها كثيراً ، يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب . لكن لحمها يولّد أكلة العطش ، فيتحاماه كثير من الناس لذلك . ومن العجائب أن هذه البقرة إذا قتلت ، وجد في كروشها الماء . ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ، ويشربون الماء الذي فيه . والحيات أيضاً بهذه الصحراء كثيرة .

حكاية

وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان . ومن عادته أن يقبض على الحيات ، ويعبث بها . وكنت أنباه عن ذلك ، فلا ينتهي . فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجه ، فوجد مكانه حية ، فأخذها بيده . وأراد الركوب ، فلسعته في سبابته اليمنى ، وأصابه وجع شديد . فكويت يده ، وزاد ألمه عشي النهار ، فنحر جلاً وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ، ثم تناثر لحم إصبه ، فقطعها من الأصل . وأخبرنا أهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ، ولو لم تكن شربت لقتلته . ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا . ودخلنا صحراء شديدة الحر ، ليست كالتي عهدنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونسري الليل كله وننزل عند الصياح . وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع . ثم وصلنا إلى مدينة أيواتن في غرة شهر ربيع الأول ، بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة . وهي أول عمالة السودان ، ونائب السلطان بها قريباً حسين ، وفربا (بفتح الفاء وسكون الواو وفتح الباء الموحدة) ومعناه النائب . ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة ، وتكفل لسودان بحفظها ، وتوجهوا إلى الفربا ، وهو جالس على بساط في سقيف ، أعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي ، وكبراء مسوفة من ورائه . ووقف تجار بين يديه ، وهو يكلمهم بترجان على قريهم منه ، احتقاراً لهم . فعند ذلك

ندمت على قدومي بلادهم، لسوء أدبهم، واحتقارهم للأبيض. وقصدت دار ابن بداء، وهو رجل فاضل من أهل سلا، كنت كتبت له أن يكتري لي داراً، ففعل ذلك. ثم إن مشرف أيوالاتن، ويسمى مَنشَاجو، (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته، فأبيت حضور ذلك. فعزم الأصحاب علي أشد العزم، فتوجهت فيمن توجه. ثم أتى بالضيافة، وهي جريش أنلي مخلوطاً بيسير عسل ولبن، قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا. فقلت لهم: أهدنا الأسود؟ قالوا: نعم، وهي الضيافة الكبيرة عندهم. فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم، وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاتن، ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم. وكانت إقامتي بأيوالاتن نحو خمسين يوماً. وأكرمني أهلها، وأضافوني. منهم قاضيها محمد بن عبدالله بن ينومر، وأخوه الفقيه المدرس يحيى. وبلدة أيوالاتن شديدة الحر، وفيها يسير نخيلات، يزرعون في ظلالها البطيخ. وماؤهم من أحساء بها، ولحم الضأن كثير بها. وثياب أهلها حسان مصرية، وأكثر السكان بها من مسوفة. ولنسائها الجهال الفائق، وهن أعظم شأناً من الرجال.

ذكر مسوفة الساكنين بأيوالاتن

وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه، بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه. وذلك شيء ما رأيت في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن. وأما نساؤهم فلا يمتشمن من الرجال، ولا يحتجن مع مواظبتهم على الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوج، لكنهن لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن

ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنيات. ويدخل أحدهم داره، فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك.

حكاية

دخلت يوماً على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني ولم يدركها خجل. وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتني. فعجبت من شأنها، فإنه من الفقهاء الحجاج، واخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبتة، لا أدري، أهي هذه أم لا؟ فلم يأذن له.

حكاية نحوها

دخلت يوماً على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته، فوجدته قاعداً على بساط، وفي وسط داره سرير مظلل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان. فقلت له: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي. فقلت: ومن الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا؟ وأنت قد سكنت بلادنا، وعرفت أمور الشرع. فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها. واستدعاني في مرات، فلم أجبه. ولما عزمنا على السفر إلى مالي، وبينها وأيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمُجِدِّ، اِكْتَرَيْت دليلاً من مسفة، إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة إلا من تلك الطريق، وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة، تستظل القافلة بظل الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق،

لكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان، وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها، واستنقع فيه ماء المطر، فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذي فيها. ويكون في بعضها النحل والعسل، فيشتاره الناس منها. ولقد مررت بشجرة منها، فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً، قد نصب بها مرمته، وهو ينسج. فعجبت منه. قال ابن جزي: إن ببلاد الأندلس شجرتين من شجر القسطل، في جوف كل واحدة منها حائك، ينسج الثياب إحداها بسندا وادي آس، والأخرى ببشارة غرناطة.

وفي أشجار هذه الغابة التي بين أيواالتن ومالي ما يشبه ثمرة الإجاجص، والتفاح والخوخ والمشمش، وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس، فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه، ويبيع بالأسواق. ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول، فيقلونها ويأكلونها، وطعمها كطعم الحمص المقلو. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج، وقلوه بالغرقي، والغرقي (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) هو ثمرة كالإجاجص، شديد الحلاوة، مضر بالبيضان إذا أكلوه، ويدق عظمه، فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع، فمنها أنهم يطبخون به، ويسرجون السرج ويقلون به هذا الإسفنج، ويدهنون به، ويخلطونه بتراب عندهم، ويسطحون به الدور، كما تسطح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا. والقرع ببلاد السودان يعظم، ومنه يصنعون الجفان. يقطعون القرعة نصفين، فيصنعون منها جفنتين، وينقشونها نقشاً حسناً. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه، يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها، وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً. ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً. إنما يحمل

قطع الملح، وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت، وهو بخورهم. فإذا وصل قرية، جاءت نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني، وهو كحب الخردل يصنع من الكسكو، والعصيدة، ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك. إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان، والفوني خير منه. وبعد مسيرة عشرة أيام من أيالاتن وصلنا إلى قرية زَاغري (وضبطها بفتح الزاي والغين المعجم وكسر الراء)، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون وتَجْرَاتِه (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والـف وتاء مثناة وتاء تأنيث). ويسكن معهم جماعة من البيضان، يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون صَغَنُو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الأول والنون وضم الغين الثاني وواو). والسنين المالكين من البيض يسمون عندهم تُوري (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة). ومن هذه القرية يجلب أنلي إلى أيالاتن.

ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم، وهو النيل^(١) وعليه بلدة كَارَسْحُو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو)، والنيل ينحدر منها إلى كَابِرَة (بفتح الباء الموحدة والراء)، ثم إلى زَاغَة (بفتح الزاي والغين المعجم)، ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي. وأهل زاغة قدماء في الإسلام. ولهم ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كَوَكُو، وسنذكرهما، ثم إلى بلدة مُوَلِي (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليمين، وهي

(١) وَهَمَّ ابن بطوطة في قوله: إن النهر الأعظم الذي وصل إليه هو النيل، فإنما هو نهر النيجر، فهو الذي يمر بالبلدان التي ذكرها، ومنابعه في شمال سيراليون، وليبيريا، ويصب في المحيط الأطلسي، أما نهر النيل فتقع عليه دنقلة، وبلاد النوبة، ومنابعه في أوغندا، وتنغانيقا، وتصل إليه الأمطار التي تسقط صيفاً على جبال الحبشة، فيكون فيضانه.

آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفي واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة)، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم. ولا يدخلها الأبيض من الناس، لأنهم يقتلونهم قبل الوصول إليها. ثم ينحدر إلى بلاد النوبة، وهم على دين النصرانية، ثم إلى دُنُقَلَّة، وهي أكبر بلادهم (وضبطها ضم الدال والقاف وسكون النون بينها وفتح اللام)، وسلطانها يدعي بابن كنز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر، ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة السودان، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر. ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير. ولقد نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء، ووقف فيما بيني وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه، وقلة حياته، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفاً عليك من التمساح، فحال بينك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صَنْصَرَة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون)، وهو على نحو عشرة أميال من مالي. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقويش المصري، ليكتروالي داراً، فلما وصلت إلى النهر المذكور، جزت في المعديّة، ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه، فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها. وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام، ثم جاء ابن الفقيه إلي من الغد وشمس الدين بن النقويش، وعلي الزودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن، جاءني، وهو من السودان، حاج فاضل، له مكارم أخلاق، بعث إلي بقرة في ضيافته. ولقيت الترجمان دُوغَا (بضم الدال وواو وغين معجم)، وهو من أفاضل السودان وكبارهم، وبعث إلي بثور، وبعث إلي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني،

وقرعة من الغرقي، وبعث إلي ابن الفقيه الأرز والفوني، وبعث إلي شمس الدين ضيافة وقاموا بحقي أم قيام. شكر الله حسن أفعالهم. وكان ابن الفقيه متزوجاً ببنت عم السلطان، فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس، يسمى القافي (بقاف والف وفاء)، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة. فمات أحدنا، وذهبت أنا لصلاة الصبح، فغشي عليّ فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلاً فأتى بشيء يسمى تيدري (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء)، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر، ولته بالماء فشربته، وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك. ولكني مرضت شهرين.

ذكر سلطان مالي

وهو السلطان منسى سليمان، ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) معناه السلطان، وسليمان اسمه وهو ملك بجيل لا يرجى منه كبير عطاء، واتفق أني أقيمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي، ثم إنه صنع له طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وحضرت معهم فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسى سليمان. ولما فرغ من ذلك، تقدمت فسلمت على منسى سليمان، وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بجالي، فأجابهم بلسانهم فقالوا لي: يقول لك السلطان اشكر الله فقلت: الحمد لله، والشكر على كل حال.

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعث إلي الضيافة فوجهت إلى دار القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه. فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً، حافي القدمين، فدخل علي وقال: قم، قد جاءك قماش السلطان وهديته. فقمتم، وظننت أنها الخلع

والأموال، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرقي وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من ضعف عقولهم، وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير.

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلي

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين، لم يصل إلي فيها شيء من قبل السلطان. ودخل شهر رمضان، وكنت خلال ذلك أتردد إلى المشور، وأسلم عليه، وأقعد مع القاضي والخطيب، فتكلمت مع دوغا الترجمان، فقال: تكلم عنده، وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس في أوائل رمضان، وقمت بين يديه، وقلت له إني سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تصفني، ولا أعطيتني شيئاً. فإذا أقول عنك عند السلاطين؟ فقال: إني لم أرك، ولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه، وقالوا: إنه قد سلم عليك، وبعثت إليه الطعام فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري علي ثم فرق على القاضي والخطيب والمقهاء مالاً، ليلة سبع وعشرين من رمضان، يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً وأحسن إلي عند سفري بمائة مثقال ذهباً.

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات ولها من جهة المشور طبقات ثلاث من الخشب، مغطاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغطاة بصفائح الذهب، أو هي فضة مذهبة، وعليها ستور ملف فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور فعلم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير، قد ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل، ضربت الأبطال والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي

بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة، ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين، ومعهما كبشان، يذكرون أنها ينفعان من العين.

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين، فيدعون نائبه قنجاه موسى وتأتي الفرارية (بفتح الفاء)، وهم الأمراء، ويأتي الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام السلحدارية يمينة ويسرة في المشور، ويقف، دوغا الترجمان على باب المشور، وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشٍ، لهم في تعميمها صنعة بديعة، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب، وفي رجله الخف والمهاميز، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفاً غيره. ويكون في يده رحمان صغيران أحدهما من ذهب، والآخر من فضة، وأسنتهما من الحديد.

ويجلس الأجناد والولادة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور، في شارع هنالك متسع، فيه أشجار وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأطبال والأبواق، بوقاتهم من أنياب الفيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة، ولها صوت عجيب وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده، وهو راكب فرسه، وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا، ويكلم دوغا لذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان.

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضاً في بعض الأيام بالمشور، وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات، يسمونها البني (بفتح الباء المعقود الأولى وكسر الثانية وسكون النون بينها)، وتفرش بالحريز، ويجعل المخاد عليها، ويرفع الشطر، وهو شبه قبة من

الحريز، وعليه طائر من ذهب على قدر البازي، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رقاق، طولها أزيد من شبر، وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة، من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس، ويخرج بين يديه المغنون، بأيديهم قنابر الذهب والفضة، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح. ويمشي مشياً رويداً، ويكثر التأيي وربما وقف، فإذا وصل إلى التّبي وقف ينظر في الناس، ثم يصعد برفق، كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفاز، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون الثائب والفرارية، فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكباشين معها، ويقف دوغا على الباب، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار.

ذكر تذلل السودان للمكهم وتريبهم له وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظم الناس تواضعاً للمكهم، وأشدّهم تذلاًّ له ويحلفون باسمه فيقولون: منسى سليمان كي، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه، ولبس ثياباً خلقة، ونزع عمامته، وجعل شاشية وسخة، ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذلة ومسكنة، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

وإذا كلم أحدهم السلطان، فرد عليه جوابه، كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم، كيف لا تعمي أعينهم. وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام، وضع الحاضرون عمامتهم عن رؤوسهم، وأنصتوا للكلام، وربما قام أحدهم بين يديه، فيذكر أفعاله في خدمته، ويقول: فعلت كذا يوم كذا، وقتلت كذا يوم كذا، فيصدقه من علم ذلك وتصديقه أن ينزع أحدهم وتر قوسه، ثم يرسلها، كما يفعل إذا رمى،

فإذا قال له السلطان: صدقت، أو شكره، نزع ثيابه وترب وتربع، وذلك عندهم من الأدب. قال ابن جزري، وأخبرني صاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتي رسولاً عن منسى سليمان إلى مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، كان إذا دخل المجلس الكريم، حل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب لها قال له مولانا كلاماً حسناً، كما يفعل ببلاده.

ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه

وحضرت بمالي عيدي الأضحى والفطر فخرج الناس إلى المصلى، وهو بمقربة من قصر السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان، وعلى رأسه الطيلسان والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء، فإنهم يلبسونه في سائر الأيام وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان، وهم يهللون ويكبرون، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير، ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان إليه وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى، فقضيت الصلاة والخطبة، ثم نزل الخطيب، وقعد بين يدي السلطان، وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب، وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان، وتحريض على لزوم طاعته، وأداء حقه. ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البتني ويأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغماها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء، يشردون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة، تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه، وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان، وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، فيها مفاتيح ذهب وفضة، وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه، ويضرب بالآلة التي هي من قصب،

وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه، ويلعبن بالقسي، ويكون معه نحو ثلاثين من غلمانها، عليهم جباب الملف والحر، وفي رؤوسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتي أصحابه من الصبيان، فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي، وهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة، ويلعبون بالسيوف أجل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً. وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان، فيأتي بصره فيها مائتا مثقال من التبر، وينثر ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية، فينزعون في قسيهم شكراً للسلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر، يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه.

ذكر الأضحوة في إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم عيد، وأتم دوغا لعبه، جاء الشعراء، ويسمون الجُلا (بضم الجيم)، وأحدهم جالي، وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقاشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقاشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة، فينشدون أشعارهم. وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ، يقولون فيه للسلطان: إن هذا البني الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من حُسن أفعاله كذا، وفلان كان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك. ثم يصعد كبير الشعراء على درج البني، ويضع رأسه في حجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البني فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن، ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم، ثم ينزل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام، فاستمروا عليه.

حكاية

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام، فأتى أحد فقهاءهم، وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان، وتكلم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقه، ثم صدقها السلطان فوضع كل واحد منهم عمامته عن رأسه، وترب بين يديه وكان إلى جانبي رجل من البيضان، فقال: أتعرف ما قالوه؟ فقلت: لا أعرف فقال: إن الفقيه قد أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد، فهاله أمره، فقال: هذا جراد كثير. فأجابته جرادة منها، وقالت إن البلاد التي يكثر فيها الظلم، يبعثنا الله لفساد زرعها. فصدقه القاضي والسلطان، وقال عند ذلك للأمرء: إني بريء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظلم ولم يعلمني به، فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام، وضع الفرارية عمامتهم عن رؤوسهم، وتبرأوا من الظلم.

حكاية

وحضرت الجمعة يوماً فقام أحد التجار من طلبة مسوفة، ويسمى بأبي حفص، فقال: يا أهل المسجد، أشهدكم أن منسى سليمان في دعوتي إلى رسول الله ﷺ فلما قال ذلك، خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيئاً؟ فقال: منشاو أبوالاتن، يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستائة مثقال، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث السلطان إليه عنه للحين فحضر بعد أيام، وصرفها للقاضي، فثبت للتاجر حقه فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله.

حكاية

واتفق في يوم إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا، ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة

السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر، وسجنها عند بعض الفرارية، وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام في ذلك، وأنكروا فعله، ودخل بنات عمه على بنجو يهيننها بالمملكة، فجعلن الرماد على أذرعهن، ولم يترين رؤوسهن ثم إن السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهيننها بالسراح، وترين على العادة فشكت بنجو إلى السلطان بذلك. فغضب على بنات عمه فحفن منه، واستجرن بالجامع فعفا عنهن، واستدعاهن، وعادتهن إذا دخلن على السلطان، أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضي عنهن، وصرن يأتين باب السلطان غدواً وعشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان. وصارت قاسا تركب كل يوم في جواربها وعبيدها، وعلى رؤوسهم التراب، وتقف عند المشور منتقبة لا يرى وجهها وأكثر الأمراء الكلام في شأنها، فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه: إنكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاسا، وأنها أذنبت ذنباً كبيراً.

ثم أتى بجارية من جواربها مقيدة مغلولة، فقيل لها: تكلمي بما عندك. فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه، وقالت له: أنا وجميع العساكر طوع أمرك، فلما سمع الأمراء ذلك قالوا: إن هذا ذنب كبير، وهي تستحق القتل عليه. فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجروا هنالك بالمسجد، وإن لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله، وكان قبله منسى مغا، وقبل منسى مغا منسى موسى، وكان كريماً فاضلاً يحب البيضان ويحسن إليهم، وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال، وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرک بن فقوص ثلاثة

آلاف مثقال في يوم واحد وكان جده سارق جاحطه أسلم على يدي جد مدرك هذا.

حكاية

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تلمسان، يعرف بابن شيخ اللبن، كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلاث، وهو يومئذ صبي غير معتبر، ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة، وهو سلطان، فعرفه، وأدناه منه، حتى جلس معه على البني، ثم قرره على فعله معه، وقال للأمرء: ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟ فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها، فأعطه سبعين مثقالاً، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدماء، وأمره أن لا ينقطع عنه، وأخبرني بهذه الحكاية أيضاً ولد ابن شيخ اللبن المذكور، وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالي.

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده، فيسقطها له بموضع يستحقه بها، حتى يذهب إلى المسجد، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل، ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن

لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يعملون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه.

ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل. فقلت لمن كان معي، ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عن الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن. ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة. فإن عادة الفرارية أن يفتروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه، وهن عرايا. ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعري بناته، ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأديباً ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير.

ذكر سفري عن مالي

وكان دخولي إليها في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخسين، وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخسين. ورافقني تاجر يعرف بأبي بكر ابن يعقوب. وقصدنا طريق ميمة. وكان لي جل أركبه. لأن الخيل غالية الأثمان، يساوى أحدها مائة مثقال، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج

من النيل، لا يجاز إلا في المراكب. وذلك الموضع كثير البعوض، فلا يمر أحد به إلا بالليل. ووصلنا الخليج ثلث الليل، والليل مقمر.

ذكر الخيل التي تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة، فعجبت منها، وظننتها فيلة لكثرتها هنالك. ثم إني رأيتها دخلت في النهر. فقلت لأبي بكر ابن يعقوب: ما هذه الدواب؟ فقال: هي خيل البحر، خرجت ترعى في البر، وهي أغلظ من الخيل. ولها أعراف وأذنان، ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلها كأرجل الفيلة. ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تَنبكتو إلى كَوَكُو، وهي تعوم في الماء، وترفع رؤوسها وتنفخ. وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لثلاث تغرقهم. ولهم حيلة في صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحاً مثقوبة، قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة، فيضربون الفرس منها. فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته، وجذبه بالجل حتى يصل إلى الساحل، فيقتلونه ويأكلون لحمه. ومن عظامها بالساحل كثير. وكان نزلنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة، عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم)، وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج.

حكاية

أخبرني فربامغا أن منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج، كان معه قاض من البيضان يكنى بأبي العباس، ويعرف بالدكالي، فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته. فلما وصلوا إلى ميمة، شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره. فاستحضر السلطان أمير ميمة، وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها. وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً، ولا سارق يكون بتلك البلاد. فدخل دار

القاضي، واشتد على خدامه، وهددهم. فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع. فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان، وعرفه الخبر، فغضب على القاضي، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده. وإنما لم يأكله الكفار لبياضه، لأنهم يقولون: إن أكل الأبيض مضر، لأنه لم ينضج. والأسود هو النضج بزعمهم.

حكاية

قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم أمير لهم. وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كباراً، وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير. وفي بلادهم يكون معدن الذهب. فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادمة، فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك. وذكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي. ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج، فوصلنا إلى بلدة قُري منسا، وقري (بضم القاف وكسر الراء)، ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه، فأخبرني راعيه بذلك، فخرجت لأنظر إليه، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف. فبعثت غلامين كنت استأجرتها على خدمتي ليشتريا لي جلاً بزاغري، وهي على مسيرة يومين. وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر ابن يعقوب، وتوجه هو لينتظرنا بميمة. فأقمت سبعة أيام، أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة، حتى وصل الغلامان بالجمل.

حكاية

وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنساناً يقول لي: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم، في سفر ولا حضر. ثم رحلت الى بلدة ميمّة (بكسر الميم الأول وفتح الثاني) فنزلنا على آبار بخارجها.

ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبَكْتُو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوّة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوّة الثانية وواو)، وبينها وبين النيل أربعة أميال. وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فربا موسى. حضرت عنده يوماً، وقد قدم أحد مسوفة أميراً على جماعة، فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالاً، كلها مصبوغة، وأجلسه على درقة، ورفع كبراء قبيلته على رؤوسهم. وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن، وبها قبر سراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية.

حكاية

كان السلطان منسى موسى لما حج، نزل بروض لسراج الدين هذا، ببركة الحبش خارج مصر، وبها ينزل السلطان. واحتاج إلى مال، فتسلفه من سراج الدين، وتسلف منه أمراؤه أيضا. وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال، فأقام بمالي. فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابن له. فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة. فتكلم الناس في ذلك، واتهموا أنه سم. فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه. فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. ووصل الوالي إلى مالي،

واقضى ماله، وانصرف إلى ديار مصر. ومن تنبكتو ركب النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكنا ننزل كل ليلة بالقرى، فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن، بالملح وبالعطريات وبجلي الزجاج. ثم وصلت إلى بلد أنسيت اسمه، له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان، مشهور بالشجاعة والشدة. لا يتعاطى أحد النزع في قوسه، ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً، واحتجت بهذا البلدة إلى شيء من الذرة، فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله ﷺ فسلمت عليه، وسألني عن مقدمي. وكان معه فقيه يكتب له. فأخذت لوحاً كان بين يديه، وكتبت فيه: يا فقيه، قل لهذا الأمير: إنا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد، والسلام. وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرّاً، ويكلم الأمير في ذلك بلسانه. فقراه جهراً، وفهمه الأمير. فأخذ بيدي، وأدخلني إلى مشوره، وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح، ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي، فجعلت أقرأ فيه.

ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو)، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عوض الماء. لأنهم إن شربوا الماء خالصاً أضربهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن. ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه، ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي: هذا ضيافتك، واحفظه لثلا يفر. فأخذته وأردت الانصراف، فقال: أقم حتى يأتي الطعام. وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية، فكلمتني بالعربي. فبينما نحن في ذلك، إذ سمعنا صراخاً بداره. فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك، فعادت إليه، فأعملته أن بنتاً له قد توفيت، فقال: إني لا أحب البكاء، فتعال نمش إلى البحر، يعني النيل. وله على ساحله ديار. فأتي بالفرس فقال لي: إركب. فقلت: لا أركبه، وأنت ماش. فمشينا جميعاً، ووصلنا إلى دياره على النيل. وأتي بالطعام فأكلنا. وودعته وانصرفت.

ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل. والغلام الذي أعطانيه باقٍ عندي إلى الآن. ثم سرت إلى مدينة كوكو، وهي مدينة كبيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسّمك، وبها الفقوس العناني الذي لا نظير له. وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع، وكذلك أهل مالي. وأقمت بها نحو شهر. وأضافني بها محمد بن عمر، من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً، وتوفي بها بعد خروجي عنها. وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن، والفقير محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان.

ثم سافرت منها برسم تكدياً في البر، مع قافلة كبيرة للغدامسين. دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة)، ومعناه الذئب بلسان السودان. وكان لي جبل لركوبي، وناقة لحمل الزاد. فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة، فأخذ الحاج وجين ما كان عليها، وقسمه على أصحابه، فتوزعوا حمله. وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي، فأبى أن يرفع من ذلك شيئاً كما فعل غيره. وعطش غلامي يوماً، فطلبت منه الماء، فلم يسمح به. ثم وصلنا إلى بلاد بردامة، وهي قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وميم مفتوح وتاء تأنيت). ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم. والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأنًا من الرجل. وهم رحالة لا يقيمون، وبيوتهم غريبة الشكل، ويقيمون أعواداً من الخشب، ويضعون عليها الحصر، وفوق ذلك أعواد مشبكة، وفوقها الجلود أو ثياب القطن. ونساؤهم أتم النساء جمالاً، وأبدعهن صوراً، مع البياض الناصع والسمن. ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن. وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة، يشربه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ، عند المساء والصبح. ومن أراد التزوج منهن، سكن بهن في أقرب البلاد إليهن، ولا يتجاوز بهن كوكو ولا أيوالاتن. وأصابني المرض في هذه البلاد، لاشتداد

الحر وغلبة الصفراء . واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوّة والكاف المعقودة والداال المهمل مع تشديده) . ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي . وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجناقي ، وهو من الأفاضل ، وأضافني جعفر بن محمد المسوفي . وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس ، فيتغير لونه وطعمه بذلك ، ولا زرع بها إلا يسير من القمح ، يأكله التجار والغرباء . ويباع بحساب عشرين مدّاً من أمدادهم بمثقال ذهب ، ومدّهم ثلث المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدّاً بمثقال ذهب . وهي كثيرة العقارب . وعقاربها تقتل من كان صبيّاً لم يبلغ ، وأما الرجال فقلما تقتلهم .

ولقد لدغت يوماً وأنا بها ولدّاً للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينه ، وحضرت جنازته . ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة . يسافرون كل عام إلى مصر ، ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولأهلها رفاهية وسعة مال ، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم ، وكذلك أهل مالي وأيوالاتن . ولا يبيعون العملات منهن إلا نادراً وبالثلثين الكثير .

حكاية

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلّمة فلم أجدها ، ثم بعث إلي القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بمخمسة وعشرين مثقالاً . ثم إن صاحبها ندم ورغب في الإقالة ، فقلت له : إن دللتني على سواها أقلتلك . فدلتني على خادم لعلي أغبول ، وهو المغربي التادلي الذي أبي أن يرفع شيئاً من أسبائي حين وقعت ناقتي ، وأبي أن يسقي غلامي الماء حين عطش . فاشتريتها منه ، وكانت خيراً من الأولى ، وأقلت صاحبي الأول . ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ، ورغب في

الإقالة، وألح في ذلك. فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله، فكاد أن يجن أو يهلك أسفاً. ثم أقلته بعد.

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد، فيسبكونه في دورهم. ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سبكوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق، وبعضها غلاظ. فتباع الغلاظ منها بحساب أربعائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستائة وسبعائة بمثقال. وهي صرفهم، يشترون برقاقها اللحم والخطب، ويشترون ابغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاي، وإلى بلاد برنو، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا. وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس، لا يظهر للناس، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب.

ومن هذه البلاد يؤقى بالجواري الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة. ويحمل النحاس أيضاً منها إلى جوجرة وبلاد المورتين وسواها.

ذكر سلطان تكدا

وفي أيام إقامتي بها، توجه القاضي أبو إبراهيم، والخطيب محمد، والمدرس أبو حفص، والشيخ سعيد بن علي، إلى سلطان تكدا، وهو بربري يسمى إزار (بكسر الهمزة وزاي والفاء وراء)، وكان على مسيرة يوم منها، ووقعت بينه وبين التكركري، وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة، فذهبوا إلى الإصلاح بينها. فأردت أن ألقاه. فاكتريت دليلاً وتوجهت إليه، وأعلمته المذكورون بقدمي. فجاء إلي راكباً فرساً دون سرج، وتلك عادتهم.

وقد جعل عوض السرج طنفسة حراء بديعة، وعليه ملحفة وسراويل
وعمامة، كلها زرق، ومعه أولاد أخته، وهم الذين يرثون ملكه. فقمنا إليه،
وصافحناه. وسأل عن حالي ومقدمي، فأعلم بذلك. وأنزلي بييت من بيوت
اليناطين، وهم كالوصفان عندنا. وبعث برأس غنم مشوي في السفود، وقعب
من حليب البقر. وكان في جوارنا بيت أمه وأخته، فجاءتا إلينا، وسلمتا علينا.
وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة، وهو وقت حلبهم، ويشربونه ذلك
الوقت وبالغدو. وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه. وأقمت عندهم ستة أيام.
وفي كل يوم يبعث بكبشين مشوين، عند الصباح والمساء. وأحسن إلي بناقة
وعشرة مثاقيل من الذهب، وانصرفت عنه، وعدت إلى تكدا.

ذكر وصول الأمر الكريم إلي

ولما عدت إلى تكدا، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلهاسي، بأمر
مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى
حضرتة العلية. فقبّلته وامتثلته على الفور.

واشترت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً. وثلث، وقصدت السفر إلى
توات. ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، وإنما
يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأثواب، وخرجت من تكدا يوم الخميس
الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخسين، في رفقة كبيرة، فيهم جعفر التواني،
وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا. وفي الرفقة نحو
ستائة خادم. فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري، وهي أرض كثيرة
الأعشاب، يشتري بها الناس من برابرها الغنم، ويقددون لحمها، ويحمله أهل
توات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء، وهي مسيرة ثلاثة
أيام.

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها، إلا أن بها الماء. ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات. وهناك أحساء ماء يجري على الحديد، فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه.

وسرنا من هنالك عشرة أيام، ووصلنا إلى بلاد هكار، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم، فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها. وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان. وهم لا يغبرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر. وسرنا في بلاد هكار شهراً، وهي قليلة النبات، كثيرة الحجارة، طريقها وعري. ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر، أهل لثام كهؤلاء. فأخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا، وسكنوا تساييت من توات. فخاف أهل القافلة من ذلك. ثم وصلنا إلى بُودا (بضم الباء الموحدة)، وهي من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباخ، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على ثمر سجلماسة. ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب. وأكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم، يخترنونه كما يخترن التمر، ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس، فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد. وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة، ووصلنا في أوسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة. وخرجت منها في ثاني ذي الحجة، وذلك أوان البرد الشديد، ونزل بالطريق ثلج كثير. ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك، فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة. ووصلنا ليلة عيد الاضحى إلى دار الطمع، فأقمت هنالك يوم عيد الاضحى، ثم خرجت، فوصلت إلى حضرة فاس، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله، فقبلت يده

الكريمة وتيمننت بمشاهدة وجهه المبارك، وأقمت في كنف إحسانه بعد طول الرحلة. والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه، وسابغ امتنانه، ويديم أيامه، ويمتع المسلمين بطول بقاءه. وههنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعائة.

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

قال ابن جزى

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة، أكرمه الله . ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر . ومن قال : رحال هذه الملة لم يبعد ، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة . واتخذ حضرة فاس مقراً ومستوطناً بعد طول جولانه ، لما تحقق أن مولانا، أيده الله، أعظم ملوكها شأنًا، وأعمهم فضائل، وأكرمهم إحسانًا، وأشدهم بالواردين عليه عناية، وأتمهم بمن ينتمي إلى طلب العلم حماية . فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى، لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ، بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً . إنها لنعمة لا يقدر قدرها، ولا يوفى شكرها . والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين، ويبقي علينا ظل حرمة ورحمته، ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين . اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين، وخصصته بالحلم والعقل الرصين، فمد للملكه أسباب التأييد والتمكين، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين، وأجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين، وأره قررة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعايته، يا أرحم الراحمين . وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخسين وسعمائة

الفهراس

- فهرس الأعلام .
- فهرس المدن والقري .
- فهرس الأنهار والبحار والجبال
والمحصون والصحارى .
- فهرس المحتويات .

فهرس الأعلام

- إبراهيم بن أحد كجك بن تاج الدين
الرفاعي ٣٠٤ .
- إبراهيم بن أدهم ٨٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
٣٨٨ ، ٢٩٠ .
- إبراهيم البنجي ٥٠٣ ، ٥٠٥ .
- إبراهيم التتري ٥٠٤ .
- إبراهيم الجمحي ٩٦ .
- إبراهيم ابن السلطان محمود بن سبكتكين
٤٣٣ .
- إبراهيم شاه ابن الأمير سنينته ٢٤٠ .
- إبراهيم شاه بندر ٥٧٥ .
- إبراهيم القونوي ٥١٦ ، ٦٨٥ .
- الإبراهيمي (أمير) ٩٢ .
- ابن بداء ٦٩٠ .
- ابن البرهان ٢٦٢ .
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله
ابن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي)
٣٩ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ١١١ ،
١١٨ ، ١٩٨ ، ٣٢٤ ، ٤٠٥ ، ٦٦٧ ،
٦٨١ ، ٦٩٣ ، ٧٠٧ ، ٧١٥ .
- ابن تيفراجين ٦٦٩ .
- آدم عليه السلام ٧٩ ، ١١٧ ، ١٥٨ ،
١٨٢ ، ١٨٩ ، ٦٠٦ ، ٦١٠ ، ٦١١ ،
٦٦٥ .
- آزر ١١٩ .
- آصف بن برخياء ٣٥٨ .
- آل عثمان ٣١٥ .
- إبراهيم (ابن الرسول ﷺ) ١٣٨ ، ١٥٥ .
- إبراهيم الخليل عليه السلام ٤٤ - ٧٣ -
٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٤٤ ،
١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
١٧٣ ، ١٧٦ ، ٢٢٩ .
- إبراهيم (الشريف خريطة دار) ٤٩٩ ،
٥٠٠ .
- إبراهيم (الشيخ) ٥٥٧ .
- إبراهيم (الناخوذة) ٥٦٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤ ،
٦١٣ ، ٦١٢ .
- إبراهيم بك ٢٩٩ .
- إبراهيم بك بن سلمان بادشاه ٣٢٦ .

- أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز ٢٣٥ .
- أبو بكر بن نقطة ٥٠ .
- أبو بكر بن يعقوب ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ .
- أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان
- ابن يغمراسن بن زيان ٣٤ .
- أبو تراب النخشي ٣٧٥ .
- أبو جعفر أحد بن رضوان بن عبد العظيم
- الجدامي ٦٨٤ .
- أبو جعفر المنصور ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ،
- ٢٣٤ .
- أبو حامد الغزالي ٣٩٤ .
- أبو الحجاج الأقصري ٧٠ ، ٢٨٩ .
- أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل
- ... ابن نصر ٦٨٤ .
- أبو الحسن (الأمير) ٥٨١ .
- أبو الحسن (حاكم قسنطينية) ٣٥ .
- أبو الحسن (مولانا) ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٩٥ ،
- ٦٩٩ .
- أبو الحسن الأقطاراني ٢٨١ .
- أبو الحسن البياري ٢٥٠ .
- أبو الحسن بن جبير ٢٣١ .
- أبو الحسن الخرقاني ٣٩٥ .
- أبو الحسن بن زرق الله ١٦٧ .
- أبو الحسن الزيلعي ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
- أبو الحسن ابن أبي سعيد ابن أبي يوسف
- ابن عبد الحق (سلطان تونس) ٦٦٨ ،
- ٦٦٩ .
- أبو إسحاق الكازروني ٢١٧ ، ٢١٨ ،
- ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ .
- أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو ٢١٧ ،
- ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .
- أبو أيوب الأنصاري ١٣٠ ، ١٣٩ .
- أبو البركات البربري ٥٩٠ .
- أبو البركات بن الحاج ٣٧٤ .
- أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم
- السلمي البلعبي ٦٨٤ .
- أبو البركات محمد بن محمد إبراهيم السلمي
- ابن الحاج البلبيقي ٣٥ .
- أبو بكر ٦٦٢ .
- أبو بكر (خطيب الشافعية) ٣٣٠ ، ٣٣١ .
- أبو بكر أحد بن الحسن الحرشي ٢٢٥ .
- أبو بكر خان ابن السلطان علاء الدين
- ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
- أبو بكر الشيلي ٢٣٦ .
- أبو بكر بن الشيخ عمر ٢٦٢ .
- أبو بكر الشيرازي ١٦٦ .
- أبو بكر الصديق رضي الله عنه ١٠٩ ،
- ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ،
- ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
- ٢٧٩ ، ٢١٥ .
- أبو بكر الصنوبري ٨٨ .
- أبو بكر العجمي ٦٦ .
- أبو بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي
- ٦٨٣ .

- أبو الحسن الشاذلي ٤٣، ٦٩، ٧١، ٢٨٩ .
أبو الحسن العبادي العراقي ٥٢٤ .
أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي
٢٣٥ .
أبو الحسن علي ٣٣ .
أبو الحسن علي بن أحمد بن الحمروق
٦٨٥ .
أبو الحسن علي بن زرق الله الأنجزي ١٦٦ .
أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي ٦٨٥ .
أبو الحسن علي بن فرغوس ١٦٧ .
أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي
١٠٣ .
أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد
الغرناطي ٨٨ .
أبو الحسن علي بن النبيه ٢٣٢ .
أبو الحسن اللخمي ٣٧ .
أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن
الحسين بن الخلف القطيعي ١٢٤ .
أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن
علان العرضي ٢٢٥ .
أبو الحسن التاميسي ٦٦٨، ٦٦٩ .
أبو حسون زيان بن أمريون العلوي ٦٦٩ .
أبو الحسين بن جبير ٨٥ .
أبو حفص ٧٠١ .
أبو حفص (المدرس) ٧١١ .
أبو حفص عمر البكري ٣٦٦، ٣٦٧ .
أبو حفص عمر النسفي ٣٨٥ .
أبو حنيفة ٢٣٥، ٢٩٠، ٣٨٨ .
أبو داود ١٦٦ .
أبو الدرداء ١١٥ .
أبو دلف محمد ٢٨٤، ٢٨٥ .
أبو الربيع سليمان بن داود العسكري ٦٨١ .
أبو زكريا يحيى بن السراج الرندي ٦٧٧ .
أبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري
٦٦٩ .
أبو زكريا بن يعقوب ٤٠ .
أبو زيان ابن ودرار ٦٧٠ .
أبو زيد عبد الرحمن ١٦٣، ٢٨٤ .
أبو زيد عبد الرحمن بن أبي العباس بن
خلف ٢٥٠ .
أبو زيد عبد الرحمن الصوفي ٢٥٧ .
أبو سعيد (السلطان) ٩٤، ٩٥، ١٥٣،
١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٤،
٢١٨، ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٧ - ٢٤٠،
٣٩٣، ٤٦٨، ٦٦٣ .
أبو سعيد بهادرخان ٢٣٦، ٢٣٧ .
أبو سعيد فزج بن قاسم (ابن لب) ٦٨٤ .
أبو سعيد ابن أبي يوسف عبد الحق (عثمان
المريني) ٣٣ .
أبو سعيد المريني ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٩ .
أبو سليمان الداراني ١١٥ .
أبو الششتري ٢٩٩ .
أبو الصبر أيوب الفخار ٢٥٠ .
أبو الطيب بن أبي عبد الله النفازي ٣٥ .

- أبو عبادة البحري ٨٧ .
أبو العباس (الخليفة في مصر) ٤٦٥ ،
٤٧٠ .
أبو العباس الإيباني ٢٥٧ .
أبو العباس أحمد الأندلسي ١٦٠ .
أبو العباس أحمد ٢٧٠ .
أبو العباس أحمد الرفاعي ١٩٦ ، ١٩٥ ،
٣٠٤ .
أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق ١٣٦ .
أبو العباس الحجازي ١٢٤ .
أبو العباس الدكالي ٧٠٥ .
أبو العباس بن أبي الربيع سليمان ١٦٩ .
أبو العباس العباسي ٤١٤ .
أبو العباس بن عبد الظاهر ٦٩ .
أبو العباس بن أبي علي البنسي ٢٥٠ .
أبو العباس الغفاري ١٦٧ .
أبو العباس الفاسي ١٣٧ ، ١٣٨ .
أبو العباس المرسي ٤٣ .
أبو العباس بن نافوت ٢٥٠ .
أبو العباس النهاوندي ٢١٢ .
أبو عباس بن يعقوب الأصم ٢٢٥ .
أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى
٧٨ .
أبو عبد الله بن إبراهيم ١٩٣ .
أبو عبد الله الأبلبي ٦٦٩ .
أبو عبد الله أحمد بن حنبل ٢٣٦ .
أبو عبد الله بن أبي جعفر بن عبد الله
الطنجالي ٦٨٣ .
أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك
الزيدي ٢٢٥ .
أبو عبد الله بن خفيف ٢١٣ ، ٢٢٣ ،
٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ .
أبو عبد الله الرازي ٥١ .
أبو عبد الله بن رشيد ٣٧٤ .
أبو عبد الله الزيدي ٣٥ .
أبو عبد الله الزواوي ٣٤ .
أبو عبد الله الساحلي ٦٨٣ .
أبو عبد الله السطي ٦٦٩ .
أبو عبد الله السمرقندي ٦٨٥ .
أبو عبد الله بن عبد الملك ٦٨٢ .
أبو عبد الله بن عطاء الله ٢٥٠ .
أبو عبد الله الفاسي ٤٢ .
أبو عبد الله بن فرحون ١٣٥ .
أبو عبد الله بن الكهاد ٣٦ .
أبو عبد الله محمد ١٣٥ ، ٢٧٠ .
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البياني ٦٨٤ .
أبو عبد الله محمد بن إدريس (الإمام
الشافعي) ٥٦ ، ٥٨ ، ٢٢٥ .
أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر علي بن
إبراهيم النفاوي ٣٤ .
أبو عبد الله محمد بن أبي تميم ٣٧ .
أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله
القرشي الزيدي ٣٤ .

- أبو عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب . ٣٤
- أبو عبد الله محمد بن الصباغ . ٦٦٩
- أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاري . ٣٦
- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، ١٥٣ ، . ١٦٠
- أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي . ٦٨٦
- أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلسي . ٦٧٩
- أبو عبد الله محمد بن الفقيه . ١٦٣
- أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني . ١٩٣
- أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس . ٢٥٠
- أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي . ٧٧
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي . ١٣٥
- أبو عبد الله المرسي . ٢٥٠
- أبو عبد الله المرشدي . ٤٦ ، ٤٧
- أبو عبد الله المفسر . ٣٤
- أبو عبد الله بن هارون . ٦٦٩
- أبو عبد الله بن ياسين . ٤٠
- أبو عبيد . ٣٨
- أبو عبيد الله محمد بن جابر . ٢٤٧
- أبو عبيدة بن الجراح . ٧٩ ، ١٠٤
- أبو العلاء المعري . ٨٤ ، ٨٨
- أبو علي حسن المحجوب . ٧٧
- أبو علي الزبيدي . ٢٥٧
- أبو علي عمر بن أبي عبد الله محمد بن المحروق . ٦٨٥
- أبو علي عمر بن عبد الرفيق . ٦٦٩
- أبو علي عمر بن علي بن قداح الهواري . ٣٦
- أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفتي . ٦٦٩
- أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي . ١٠٩
- أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي . ٢٣٥
- أبو عنان فارس . ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٣
- أبو عنان المريبي . ٢٤٥ ، ٣٩٥ ، ٦٦٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٠
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . ٣٨٦
- أبو عمرة . ١٩١ ، ١٩٣
- أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جاز بن شيحة . ١٩٠
- أبو الفتح كشاجم . ٨٨
- أبو الفتح محمد بن سيف الدين قلاوون . ٦١ ، ٥٦
- أبو الفتح بن وكيع . ٥٠
- أبو الفتيان بن جبوس . ٨٨
- أبو الفداء . ١٥٩

- أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي . ٥١ .
أبو محمد عبد الله بن فرحان . ١٦٠ .
أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي . ٥١ .
أبو محمد عبد الوهاب . ٥٨ .
أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي . ٦٨٢ .
أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المنكي . ٢٣٢ .
أبو محمد عبيد الله الحضري . ٢٥٠ .
أبو محمد بن فرحان . ٥٩٧ .
أبو محمد بن فرحون . ٦٦٧ .
أبو محمد بن القابلة . ٢٥٠ .
أبو محمد بن مسلم . ٢٥٠ .
أبو محمد بن نبهان . ٢٨٠ .
أبو محمد اليافعي . ٦٦٧ .
أبو محمد يندكان المسوفي . ٦٨٦ ، ٦٩١ .
أبو مدين (الشيخ) . ٦٦٩ .
أبو مدين شعيب بن الحسين . ١١٤ .
أبو مسلم الخولاني . ١١٥ .
أبو المظفر حسن (أبو المواهب) . ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
أبو المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد الليثي . ١٢٤ .
أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور . ٦٨٥ .
أبو النجاة (ولي) . ٤٧ .
أبو نمي . ١٦٧ .
أبو القاسم بن بنون . ٥٠ .
أبو القاسم الجنيد . ٢١٢ ، ٢٣٦ .
أبو القاسم بن شعبان . ٥٨ .
أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي . ٦٨٤ .
أبو القاسم محمد بن أبي عبد الله بن عاصم . ٦٨٤ .
أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . ٣٦٦ .
أبو القاسم محمد بن محمد بن أبي الحسن سهل ابن مالك الأزدي . ١٣٦ .
أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ٦٨١ .
أبو القاسم المرسي . ٦٥٠ .
أبو هب . ١٥٦ .
أبو محمد البشري . ٦٨٦ .
أبو محمد بن أبي بكر بن عيسى . ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
أبو محمد النرجندري . ٦٨٥ .
أبو محمد الثروي . ١٣٧ .
أبو محمد الصنعاني . ٢٥٦ .
أبو محمد عبد الله . ١٣٥ .
أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حويه السرخسي . ٢٣٥ .
أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوبة بن يوسف بن أيمن السرخسي . ١٢٤ .
أبو محمد عبد الله الحسيني . ٦٩ .
أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ابن بهرام الدارمي . ٢٣٥ .

- أبو نواس ٢٤٦ .
أبو هاشم عبد الله الزبيدي ٢٧٠ .
أبو هريرة ٧٤ .
أبو الوحش سبع بن خلف الأسدي ١٠٢ .
أبو الوقت عبد الأول بن شعيب الشنجري ٢٣٥ .
أبو الوليد إسماعيل ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
أبو يحيى (السلطان) ٣٤ .
أبو يحيى ابن أبي زكريا يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص ٣٦ .
أبو يحيى عبد الرحيم بن نباتة ٩٠ .
أبو يزيد البسطامي ٣٩٥ .
أبو يعقوب السوسي ٣٦ .
أبو يعقوب بن عبد الرازق ٢٥٢ .
أبو يعقوب يوسف ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٦٧ .
أبي بن كعب ١١٤ ، ١٣١ .
أتيل بن كيش بن جاز ٢٦٦ .
أثير الدين أبو حبان محمد بن يوسف بن حيان ٦٤ .
أحسن شاه (الشريف) ٤٩٩ .
أحسن شاه (السلطان) ٦١٨ .
أحمد (أتابك) ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٦٧٤ .
أحمد (معلم مولانا جلال الدين) ٣٠١ .
أحمد بن إياس (خواجه جهان) ١٩٢ ، ٣٨٦ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ .
٤٩٧ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥١٣ ، ٥٢٣ .
٥٢٦ ، ٥٥٧ ، ٦٢٠ .
أحمد التبريزي ٦٨٥ .
أحمد بن حكامه ٢٥٠ .
أحمد بن حنبل ١١٧ ، ٢١٥ .
أحمد الدينوري الأسود ٢١٢ .
أحمد ابن الرحالة ابن بطوطة ٤٧٢ .
أحمد الرفاعي ١١٤ ، ٣٣٥ .
أحمد زاده ٣٩٣ .
أحمد زيني وحلان ١٥٩ .
أحمد بن سيرخان ٥٥٣ .
أحمد شنورازة (الملك) ٥٩٠ ، ٥٩٢ .
أحمد بن صبيح ١٧٥ .
أحمد بن طولون ٥٤ .
أحمد بن العجيل اليميني ٢٥٧ .
أحمد كوجك ١٩٥ .
أحمد بن موسى ٢٢٣ .
أحمد بن موسى بن علي الرضا بن موسى ...
ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ٢٢٢ .
اختيار الدين أرخان بك ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .
أخنوخ = إدريس عليه السلام ٥٩ .
إدريس (الملك) ٧١١ .
إدريس عليه السلام = أخنوخ ٥٩ ، ٢٢٩ .
أرتنا (الأمير) ٢٤٠ .
أرخان بك ٣٠٧ .

- أردوجا (خاتون) ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٦٣٧ .
- أرسلان (الباز الأشهب) ١١٤ .
- أرغون شاه ١١٥ ، ٣٨٩ .
- أرغون شاه ٦٦٤ .
- أرغون الدودار ٦١ ، ٨٩ ، ١٨٢ .
- أرن بغا ٤١٦ .
- أرون بغا ٥١٣ ، ٥٢٠ .
- إزار (السلطان) ٧١١ .
- الأزد بن يغو٣ ٢٨٠ .
- الأزرقى ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
- إسحاق عليه السلام ٧٣ ، ٧٤ .
- أسد الدين رميثة بن أبي غمي بن أبي أسعد
ابن علي بن قتادة ١٦١ .
- أسد الدين كيخسرو الفارسي ٦١٧ .
- أسعد بن زرارة ١٣٠ .
- الإسكندر (المقدوني) ٣٠٠ .
- الإسكندر ٦١٠ .
- إسماعيل (الفقيه) ٥٦٦ ، ٥٦٧ .
- إسماعيل الأفغاني ٣٩٨ .
- إسماعيل عليه السلام ١٤٩ .
- إسماعيل ابن الملك الناصر ١٧٠ .
- الأشرف (الملك) ٩٣ .
- أشهب بن عبد العزيز ٥٨ .
- أصبغ بن الفرج ٥٨ .
- أطا أولياء ٣٩٧ .
- أعظم (ملك البايدي) ٥١٠ .
- أعظم ملك ٥٥٧ .
- أفخر الدين (القاضي) ٦٥٤ .
- أفراسييا (أتابك) ٢٤٠ .
- أفراسياب (أتابك) ٦٦٣ .
- أفريساب بن أحد (أتابك) ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
- أفلاطون ٣١٣ .
- ألفونس ٦٧٧ .
- إلياس عليه السلام ٢٨١ ، ٥٦٤ .
- إلياس ٢٠١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ .
- إلياس (الناخوذة) ٥١١ ، ٥٦١ .
- أم حبيبة بنت أبي سفيان (أم المؤمنين)
١١٤ .
- أم سلمة رضي الله عنها ١٨٢ .
- أم الفضل زوج مهنا بن عيسى ٩٤ .
- أم كلثوم بنت الرسول عليه السلام ١١٥ .
- أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ١١٥ .
- أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة
الخرافي ١٢٥ .
- أم مريم عليها السلام ١١٥ .
- أمير علي ٣٠٣ .
- الأمين ٢٣٥ .
- أنس بن مالك ١٥٨ ، ١٩٩ ، ٦٢٢ .
- أوحد الدين السنجاري ٦٤٧ ، ٦٤٨ .
- أوزبك (السلطان) ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
- ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٥٣٦ .
- أولو خاتون ٣٤٠ .
- أولو خان ٤٤٧ .

- أويس القرني ١١٤ .
أيابك (السلطان) ٣٠٤ .
إيت حجك ٣٤٧، ٣٤٨ .
أيدمور ٢٥٠، ٢٥١ .
إيري شكروتي ٦٠٥، ٦٠٨ .
أيوب عليه السلام ١١٧ .
- ب
- بابا خوزي ٦١٠ .
باسرو (سلطان) ٥٧١ .
بتون خاتون ٣١٦ .
بثينة ١٨٦ .
بجقجي ٣٠٣ .
البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي) ٦٣، ١٢٣، ١٢٤، ١٦٦، ١٧٧، ٣٧٣، ٣٧٥ .
بختيار (الأمير) ٤٩٣ .
بجينة (جارية) ٢٦٩ .
بدر الحبشي ٥٥٢ .
بدر الدين (الملك) ٦٢٠ .
بدر الدين الأعرج ٣٦٣ .
بدر الدين بن البابه ٦٢ .
بدر الدين بن جماعة ٦٣ .
بدر الدين الحسيني ٦٥ .
بدر الدين بن الزهراء ٩٠ .
بدر الدين السلختي الخوراني ٧٣ .
بدر الدين عبد الله المنوفي ٦٤ .
بدر الدين العسقلاني ٩١ .
بدر الدين علي السخاوي ١١٠ .
بدر الدين الفصالح ٤١٦، ٥١٣ .
بدر الدين بن قرمان ٣٠٠، ٣٠١ .
بدر الدين القوامي ٣٤٥، ٣٤٧ .
بدر الدين المعيري ٥٧٢ .
بدر الدين الميداني ٣٧٦ .
بدر الدين النقاش ٢٥٦ .
بركة زيرة (زيزاء) ١٢٦ .
برنطية (الأمير) ٣٩٦، ٣٩٧ .
برهان الدين ٤٣، ٣٨٦، ٤١٦ .
برهان الدين (الشيخ) ٦٥٨ .
برهان الدين إبراهيم الأندلسي ٧٠ .
برهان الدين إبراهيم ١٦٦ .
برهان الدين الأعرج ٤٢، ٤٠٨، ٤٢٢ .
برهان الدين بن البركح ٤٦٦ .
برهان الدين الجعبري ٧٤ .
برهان الدين ابن بنت الشاذلي ٦٤ .
برهان الدين الصاغرجي ٤٦٨، ٦٢٦، ٦٥٥ .
برهان الدين الصفافسي ٦٤ .
برهان الدين عبد الحق ٦٤ .
برهان الدين العجمي ١٦٦ .
برهان الدين بن الفركاح ١١٠ .
برهان الدين الكازروني ٦٤٦ .

- برهان الدين المصري ٩٩ .
- برهان الدين الموصلبي ٢٤٧ .
- البسطامي (الشيخ) ٤٢٥ .
- بشاي أغلي ٣٨١ .
- بشتك ٦٢ .
- بشر الخافي ٢٣٦ .
- بشير (الملك) ٥٤٠ .
- بغداد خاتون ٢٣٩ .
- بقلاج (نائب السلطان) ٥٧٥ .
- بكتمور (الأمير) ٢٨٨ ، ٦١ .
- بلال الحبشي (مؤذن الرسول) ١١٤ ، ٣٢٦ .
- بلال ديو (السلطان) ٦١٦ .
- بلوذة ٥١٠ .
- البلنسي ٦٨٠ .
- بنو أسد ١٩٥ .
- بنو أمية ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .
- بنو حرام ٢٥٤ .
- بنو حنيفة ٢٨٨ .
- بنو حيون ١٦٣ .
- بنو صفاف ٢٨٦ .
- بنو شيبة ١٥٢ .
- بنو العباس ١٠٧ .
- بنو عبد شمس ١٥٢ .
- بنو فضيل ٦٨ .
- بنو كاهل ٢٨٩ .
- بنو كنانة ١٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
- بنو مخزوم ١٥٢ .
- بهاء الدين الخشني ٢٠٤ .
- بهاء الدين زكريا ٤٨٧ ، ٤٩٤ .
- بهاء الدين أبو زكريا الملتاني ٢٠٢ .
- بهاء الدين بن سلامة ١٣٤ .
- بهاء الدين الطبري ٧٠ ، ١٦٣ .
- بهاء الدين عبد العزيز ٧٠ .
- بهاء الدين بن عقيل ٦٤ .
- بهاء الدين بن العلكي ٥٣١ .
- بهاء الدين بن غام ٨٢ .
- بهاء الدين ابن الفلكي ٤٦٤ .
- بهاء الدين كشت اسب ٤٩٢ .
- بهاء الدين الملتاني ٥٢٤ .
- بهادر الحجازي ٦٢ .
- بهادور (الملك) ٦٢٠ .
- بهرام جور ٥٥٠ .
- بهرام خان (السلطان) ٤٥٨ .
- بهرام (الملك) ٤٧١ .
- بهرام جور ٥٢٠ .
- به زاد ٥٠٨ .
- بهلوان محمود ٢١٨ .
- بهلول الشولي ٢٢٧ .
- بوزن أغلي ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ .
- ٣٨٣ .
- بوثة ٣٥ .
- بيرس الشنكير ١٢٦ .
- بيبي مريم ٢٧٨ .

- بيدرة (الأمير) ٣٥٣ .
 بريم (الملك) ٤٥٠ .
 بيلون (الخاتون) ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠ ،
 ٣٦٨ .
 تقي الدين الصائغ ٦٦٥ .
 تقي الدين عبد المحسن الواسطي ١٩٥ .
 تقي الدين المصري ١٦٤ ، ١٦٥ .
 تكفور بن جرجيس (سلطان القسطنطينية)
 ٣٥٥ ، ٣٤٢ .

- تكين (الملك) ٤٥٠ .
 تلكنمور ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٧ .
 تمور (الملك) ٤٥٠ .
 تمور ألطي (الأمير) ٣٩١ ، ٣٩٢ .
 تمور الشريدار (الملك) ٤٩٧ ، ٥٠٤ .
 تميم الداري ١٣٣ .
 تنكيز خان ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧ ، ٦٤١ ، ٦٥٧ .
 توى (الملك) ٥٠٥ .
 تورة (السلطان) ٤٢٥ .
 التيروري (السلطان) ٥٧٩ .

ث

ثابت البناني ٦٦٢ .

ج

- جاروق ٣٠٢ .
 جالنسي ٥٦٣ .
 الجاوي (الأمير) ٧٣ .
 جبريل ٥٨ ، ٧٤ ، ١٣٣ .
 جرجيس (الملك) ٣٥٩ ، ٣٦١ .

ت

- تاج الدين (أمير بخت) ٥٢٢ .
 تاج الدين الأردوي ٦٤٥ .
 تاج الدين بن حناء ٦٥ .
 تاج الدين الرفاعي ٧٨ .
 تاج الدين السلطانيوكي ٣٢٣ .
 تاج الدين الكولمي ٥١١ ، ٥١٢ .
 تاج الدين بن الكويك ٢٤٩ .
 تاج الدين محمود ٢١٢ .
 تتر (الملك) ٤٧٧ .
 تُرابك خاتون ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
 الترمذي ناصر الدين ٤٦٦ .
 تغلق شاه (السلطان) ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
 ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٢٦ ،
 ٤٣٩ ، ٤٨٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٩ .
 تقبغا (الأمير) ٣٧٦ .
 تقزدمور ٦٢ .
 تقي الدين ٥٧٩ .
 تقي الدين الإخنائي ٦٣ .
 تقي الدين بن دقيق العيد ٦٤ .
 تقي الدين بن السبكي ٦٦٤ .
 تقي الدين بن السراج ٦٩ .

- جرجيس (الني) ٢٤٤ .
- جعفر التواني ٧١٢ .
- جعفر الصادق ٣٩٥ .
- جعفر بن محمد المسوفي ٧١٠ .
- الجلطي ٣٧٦ .
- جلال (القاضي) ٥٥٩ ، ٥١٠ .
- جلال الأفغاني ٥٦٣ ، ٥٦١ ، ٤٨٩ .
- جلال الدين ٥٠٧ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ .
- جلال الدين (مولانا) ٣٠١ ، ٣٠٠ .
- جلال الدين (سلطان لار) ٤٣٩ ، ٢٨٥ .
- ٤٤١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
- جلال الدين (القاضي) ٣٩٤ ، ٩٨ .
- ٤٦٥ ، ٤٨٩ .
- جلال الدين أحسن شاه ٦١٤ .
- جلال الدين أرزنجانى ٢٩١ .
- جلال الدين التبريزي ٦٢٤ .
- جلال الدين السمرقندي ٣٦٦ .
- جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
- جلال الدين الشيرازي ٦٥٢ .
- جلال الدين بن صلاح الدين صالح ٢٢٨ .
- جلال الدين عبد الحق ٩٧ .
- جلال الدين العمادي ٣٦٧ .
- جلال الدين بن الفقيه ١٩٠ .
- جلال الدين بن الفلكي التوريزي ٢٢٠ .
- جلال الدين فيروز شاه ١٦٨ .
- جلال الدين فيروز شاه الخلجي ٤٣٩ .
- جلال الدين القزويني ١١٠ .
- جلال الدين الكيجي ٤١٤ ، ٥٢٠ .
- جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهرى ١٥٣ .
- جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ١٠٩ .
- جلال الدين أبو هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي ٢٢٥ .
- جلال السلطنة ٥٠٩ .
- جلوخان ٢٣٨ .
- جلول (الشيخ) ٥١٠ .
- جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ... بن الحكم الدوادى ١٢٤ .
- جمال الدين (السلطان) ٥٦٧ ، ٥٨١ .
- جمال الدين (نائب الكرك) ٦٢ .
- جمال الدين (الوزير) ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ .
- ٦٠٠ ، ٦٠٤ .
- جمال الدين الأسيوطي ١٣٥ .
- جمال الدين البزي ٤٦٦ .
- جمال الدين بن جملة ١١٢ .
- جمال الدين الحوزائى ٦٤ ، ٢٢٨ .
- جمال الدين السادي ٥٢ ، ٥٣ .
- جمال الدين بن السديد ٧٠ .
- جمال الدين السنجاوي ٢٤٧ .
- جمال الدين السنجرى ٦٠٠ .
- جمال الدين بن شجرة ٩٢ .

ح

- جمال الدين الشريشي ٨٣ .
- جمال الدين علي ابن أبي المنصور ٨٦ .
- جمال الدين بن اللوكي ١٩٧ .
- جمال الدين محمد بن حسن ٥٦٧ .
- جمال الدين محمد الهنوري ٥٦٥ .
- جمال الدين المسلاقي ٦٦٤ .
- جمال الدين المطري ١٣٥ .
- جمال الدين بن مطهر ٢١٥ .
- جمال الدين المغزي ١٤١ .
- جمال الدين المغزي الغرناطي ٥٥٨ ، ٤٧٤ .
- جمال الدين الهنوري ٥٨١ ، ٦٢٠ .
- جمال اللك ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
- الجبالي (الأمير طوغان) ٤٥ .
- الجبالي (الوزير) ٦٢ .
- جعة (الشيخ أبو ستة) ٥٧٠ .
- جميل ١٨٦ .
- جندار (الأمير) ٢٥٩ .
- جهان (الملك) ٥٠٩ .
- جهان (أم السلطان) ٤١٦ ، ٤٢٥ ، ٥١٣ .
- ٥١٤ ، ٥١٧ .
- جهان أحمد بن إياس ٣٨٢ .
- جهينة ٢٨٩ .
- الجوبان (الأمير) ٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٣٨ .
- ٢٣٩ .
- جونه (محمد شاه) ٤٤٨ .
- جوهر ٢٠٣ .
- جيجا أغا ٣٦٧ ، ٣٦٩ .
- حاجب قصة شمس الدين ٥٢٧ .
- الحاج العدولي ٣٤ .
- حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ٦١٤ .
- حاجي كاون (ابن عم السلطان أبي سعيد) ٤٥٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .
- الحارث بن مضاض الجرهمي ١٥٥ .
- الحافظ (السلطان) ٣٨٩ .
- حبيب بن أوس (أبو تمام) ٢٣١ .
- حبيب بن مسلمة ٩١ .
- حبيب العجمي ١٩٩ ، ٦٦٢ .
- حبيب النجار ٩١ .
- الحجاج بن يوسف ١٥٦ ، ١٧٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .
- حجة الدين (القاضي) ١٩٨ .
- الحدرني (ملك البجاة) ٧٢ .
- حدق (مربية الملك الناصر) ٢٥٠ .
- الخرازي ٦٦٧ .
- حزوقيل (الني) ٣٨٨ .
- حسام الدين (الأمير) ٩١ ، ٩٢ .
- حسام الدين البخاري ٣٤٥ .
- حسام الدين بن غانم ٨٣ .
- حسام الدين محمود ٢٠٢ .
- حسام الدين المشاطي ٧٠ .
- حسام الدين الياغي ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

- الحسين بن علي رضي الله عنه ٥٧ ، ٧٨ ،
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٣٠ .
 حلينة السعدية ١٩٩ ، ٦٦٢ .
 حمزة (القاضي) ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ .
 حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه (عم
 الرسول ﷺ) ٧٧ ، ١٤٠ .
 حواء ٦٠٦ ، ٦١٠ .
 حيار (أمير) ١٨٦ .
 حيدر الفرغاني ٥٥١ .

خ

- حسن (الشيخ) ٣٧٧ .
 حسن (قائد البحر) ٦٠٢ .
 حسن (الناخوذة) ٥٦٥ .
 الحسن البصري ٦٦٢ .
 حسن (ابن عممة السلطان أبي سعيد)
 ٦٦٢ .
 الحسن بن أبي الحسن البصري ١٩٩ ،
 ٢١٢ .
 الحسن بن زيد ١٣٢ .
 الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
 ٤٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .
 حسن الجرائي ١٩٣ .
 الحسن حبيب العجمي ٢١٢ .
 حسن خواجه بن الدمراطاش بن الجوبان
 ٢٤٠ .
 حسن المغربي ١٧١ .
 حسن الوزان ٥٧٢ .
 حسين (السلطان) ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ -
 ٣٩٢ .
 حسين (الشريف) ٣٠٢ .
 حسين (الفقيه) ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
 حسين الخراساني ٦٨٥ .
 حسين السلاط ٥٧١ .
 حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري
 ٣٨٨ ، ٣٨٢ .
 حسين بن شمس الدين محمد بن محمود بن
 علي ٢١١ .
- خالد بن الوليد ٨٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٤٥ ،
 ٢٠٢ .
 الخالدي (شاعر) ٨٦ .
 خان خانان ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ .
 خدابنده (السلطان) ٢٤٧ .
 خداوند زاده ٣٩٨ .
 خداوند زاده غياث الدين ٥٢٧ .
 خداوند زاده قوام الدين ٤١٦ ، ٤١٧ ،
 ٤٧٨ ، ٥٢٠ ، ٥٣٨ .
 خوند عالم ٤١٦ .
 خديجة (السلطانة) ٦٢١ .
 خديجة (أم المؤمنين) عليها السلام ١٢٦ ،
 ١٥٤ ، ١٥٥ .
 خديجة بنت السلطان جلال الدين ٥٩١ .
 خرد (الحاج) ٣٨٨ .

خصيب ٦٦، ٦٧ .

خرينده ٢٣٧ .

دادا أمير علي ٣٢٣، ٣٢٤ .

دانيال (الشيخ) ٢٥٠، ٢٨٥ .

دانيال العجمي ١٥٣ .

داود عليه السلام ٤٤، ١٣١ .

داود (أخو أبي المواهب) ٢٦٧ .

داود بن علي ٣٨٧ .

داود بن قطب الملك ٥٠٣، ٥٠٤ .

داود (حفيد أحد شنورازة) ٦٠٠ .

داود الطائي ٢١٢، ٢٣٦ .

دلجي التتري ٤٩١ .

دلشاد الهندي ٤٨، ٢٣٩ .

دلشاد بنت دمشق خواجه ابن الأمير

الجويان ٦٦٢ .

الدمرطاش ٩٤، ٩٥، ٢٣٨ .

دمشق خواجه بن جويان ٢٣٧، ٢٣٨ .

دمورخان (السلطان) ٣١٤ .

الدندير (الأمير) ٣٢٩ .

دُنكول (السلطان) ٥٦٤ .

دنيا خاتون ٢٣٧، ٢٤٧ .

دهقان (ملك البريد) ٤١٥ .

دوغا (الترجمان) ٦٩٤، ٦٩٦، ٦٩٧ .

٧٠٠، ٧٠٢ .

دولة شاه (الملك) ٤٩٨، ٥٣٠، ٥٣١ .

دولسة ٦٣٠، ٦٣١ .

دينار (الملك) ٢٤٠ .

خسروخان ناصر الدين ٤٤٥، ٤٤٦،

٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩ .

الخضر عليه السلام ١١٨، ٢٠١، ٢٨١،

٣٢٦، ٣٣٣، ٥٦٤ .

خضر (الحاج الهندي) ٢٧٦ .

خضر باق ٣٠٧ .

خضر بك ابن السلطان محمد بن آبددين

٣١٠ .

خضر بك بن يونس بك ٢٩٤ .

خضر خان ابن السلطان علاء الدين ٤٤٢،

٤٤٤ .

خضر العجمي ١٦٦ .

خطاب الأفغاني ٥٥٢، ٥٥٩ .

خليل (السلطان) ٣٨٨ .

خليل ابن السلطان اليسور ٣٨٢، ٣٨٣ .

خواجه إسحاق ٥٦٣ .

خواجه أمير علي التبريزي ٤٩٠ .

خواجه بهره ٥٦٣ .

خواجه سرلك (قائد البحر) ٦١٥ .

خواجه سرور (قائد البحر) ٦١٨ .

خواجه كافي ٢١٣ .

خواجه لؤلؤ ٢٣٩ .

خواجه مهذب ٥٧٩ .

ذ

ركن الدين بن السلطان شمس الدين
للمش ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٤١.

ذو الكفل عليه السلام ١١٧.

ركن الدين زكرياء ٤٣.

ر

ركن الدين العجمي ١٧٠، ١٩٩.

رابعة العدوية ٧٧.

ركن الدين بن القوبع ٦٤.

الراشد ٢٣٥.

رميثة ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥.

الراضي ٢٣٥.

روبيل ٨٠.

الربيع بن سليمان المرادي ٢٢٥.

روز جهان القبلي ٢٢٤.

رتن ٤١٠.

ز

رجب البرقعي ١٧٠، ١٧١، ٥٥١.

زاده الأصبهاني (الشيخ) ٥٦٢.

رجب النهر (الشيخ) ٣٣٣.

زاده الحرباوي ٢٥٠.

رَجْوُ (السلطان) ٥٥٢.

زادة الخراساني ٢٢١، ٣٢٩.

الرشيد ٩٠.

زادة الدمشقي ٤٦٧.

رشيد الدين الألفي ٢٥٢.

زاد المال (جارية) ٢٦٩.

رشيدي الهندي ٦٨٥.

زادة النهاوندي (الشيخ هود) ٤٨٥،

رضي الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن

٤٨٧، ٤٨٦.

الحسن الصاغاني ٢٢٥.

زاهدة (الست) ٢٤٨.

رضي الدين يحيى ٣٦٧.

زبيدة (زوجة هارون الرشيد) ١٥٤.

رضية شقيقة معز الدين ٤٣٤، ٤٣٥.

زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور

رُغْطَى (الحاج) ٦٦٤.

١٨١، ١٨٦، ١٨٧.

ركن الدين ٤١٦، ٤٦٥.

الزبير بن العوام ١٣٨، ١٩٩، ٥٤٢،

ركن الدين ابن الشيخ شمس الدين أبو

٦٦٢.

عبد الله بن بهاء الدين زكريا ٤٤٧.

زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي

ركن الدين أبو شمس الدين بن بهاء الدين

٢٢٥.

زكريا القرشي ٤٠٨.

زركوب (الشيخ) ٢٢٥.

ركن الدين بهاء الدين بن أبي زكريا الملتاني

زرود ١٨٦.

٤٩٣، ٤٨٦.

- زكريا عليه السلام ١٠٦ .
 زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص .
 ٤٠ .
 زيان (الحاج) ٦٨٩ .
 زيد بن أبي نغمي ٢٥٤ .
 زيد بن أرقم ٢٢٨ .
 زيد بن ثابت ١٥٢ ، ٢٢٨ .
 زين بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن
 علي رضي الله عنه ٢٥٧ .
 زين الدين بن الأصيل ٢٤٩ .
 زين الدين المقدسي ٣٦٧ .
 زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي
 طالب رضي الله عنه ٢٠٣ .
 زينب بنت علي بن أبي طالب ١١٥ .
 زينب بنت كمال الدين أحمد ... ابن أحمد
 المقدسي ١٢٥ .
 زين الدين بن مخلوف ٦٤ .
 زين الدين بن الواعظ ٤٧ .
 زين الدين الطبري ١٦٥ .
 زين الدين مبارك ٤٤٤ .
 زين العابدين ١٠٥ .
 س
 سابور ذي الأكتاف ٦٤٣ .
 سارة ٧٤ .
 ساروجة الرومي ٣٥٢ .
 ساروجة الصغير ٣٦٢ .
 ساطي بنت السلطان خدابنده ٢٣٨ .
 سالار عود (الشيخ) ٥٠٦ ، ٥٣٩ .
 سالارو (القاضي) ٤١٥ .
 سالم بن عبد الله الهندي ٢٦١ .
 السامري ٥٣٢ ، ٥٧٥ .
 السبيك (السلطان) ٦٠٩ .
 سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن
 عمر القزويني ٢٣٥ .
 سراج الدين أبي عبد الله الحسين ... بن علي
 ابن المسيح بن عمران الربيعي ١٢٤ .
 سراج الدين عمر ٢٤٩ .
 سراج الدين عمر المصري ١٣٤ .
 سراج الدين بن الكويك ٧٠٧ .
 سرتيز (الملوك) ٤٠٥ ، ٤١١ .
 سرور ٢٠٣ .
 سري السقطي ٢١٢ ، ٢٣٦ .
 سعاد التلنكي ٥٥٧ .
 سعادة الجرائي ١٥٣ .
 سعيد البجائي ٩٧ .
 سعد بن أبي وقاص ١٨٨ ، ٢٢٩ .
 سعد بن عبادة ١١٥ .
 سعد الدين (الإمام) ٣٢٩ ، ٣٣١ .
 السعدي (أمير) ٤٨ .
 السعدي (الشيخ) ٢٢٦ .
 سعيد بن علي ٧١٠ ، ٧١١ .
 سعيد المراكشي ١٣٦ .
 سعيد المكي ٣٩٧ .

- سهل بن عبد الله ٢٠٢، ٢٠٣ .
- سهل بن عبد الله التستري ١٩٩، ٢٠٠، ٦٦٢ .
- سهيل بن حنظلة ١١٥ .
- سهيل نصر الله ٥٠٥ .
- سويتة (الأمير) ٢٠٦ .
- سيبويه ١٩٨ .
- سيف الدولة بن حذان ٨٥، ٨٦ .
- سيف الدين ٣٨٦ .
- سيف الدين البخارزي ٣٧٥ .
- سيف الدين بهادور ٦١٧ .
- سيف أدين تقزدمور ٢٥٠ .
- سيف الدين تنكيز ٧٦، ١١٢ .
- سيف الدين الجويان ١٢٥، ١٨٢ .
- سيف الدين الطنطاش ٩٢ .
- سيف الدين بن عضبة ٣٦٦ .
- سيف الدين عطيفة بن أبي نمي ١٥٥ .
- سيف الدين عمر ٦٦١ .
- سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنا ١٦٨، ٤٧٣ - ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٧٨ .
- سيف الدين الكاشف ١٧٠ .
- سيف الدين يلملك ١٧٢، ٢٥٠ .
- سعيد الهندي (الشيخ) ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١ .
- سفيان الثوري ١٠٧ .
- سُكينة بنت الحسين بن علي كرم الله وجهه ٢٢٩، ١١٥ .
- سلار ١٢٦ .
- سلطية (الأمير) ٣٣٦ .
- سلف الدين يلملك ٤٧ .
- سلمان الفارسي ١٤٠ .
- سليمان عليه السلام ٤٤، ٧٣، ٨٠، ١٣١، ٣٤١، ٣٩٨، ٦٦٣ .
- سليمان (ابن السلطان) ٣٠٧ .
- سليمان بادشاه ٣٢٤ .
- سليمان بن عبد الملك ١٣٢ .
- سليمان خان ٤٦٨، ٤٦٩ .
- سليمان شاه ٤٤١ .
- سليمان الصفدي الشامي ٥٧٧ .
- سليمان مانايك ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٩ .
- سنان ٢٩٧، ٢٩٨ .
- سنبل ٢٠٣، ٥٠٢، ٥٦٣ .
- سنبل (الملك) ٥٧٧، ٥٧٨ .
- سنبل الجامدار ٥٤٩ .
- سنجر شقيق ماه حق ٤٤٢ .
- سنبل الهندي ٣٥٠ .
- سهل بن رافع بن أبي عمر ... ابن مالك ابن النجار ١٣٠ .

ش

- شادي خان ابن السلطان علاء الدين ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
- الشافعي (الإمام) ٦٧٣ .
- شامر بن دراج الخفاجي ١٩٤ .
- شاه أفغان ٥٠٨ .
- شاه بك (السلطان) ٣٢٢ .
- شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا ٢٩٩ .
- شداد بن عمر ١٧٥ .
- شديد الدين أبو الوقت... ابن شعيب بن إبراهيم السجزي ١٢٤ .
- شرف جهان ٥٥٠ .
- شرف الدين (القاضي) ٦٦ ، ١١٠ ، ١١٣ .
- شرف الدين الأذري ١٢٥ .
- شرف الدين بن عبد الرحيم ٦٨ .
- شرف الدين بن العجمي ٩٠ .
- شرف الدين بن محسن ١٠٢ .
- شرف الدين التبريزي ٦٤٥ .
- شرف الدين الحموي ٩٢ .
- شرف الدين الخراساني ٢٢١ .
- شرف الدين الخشي ٦٦٥ .
- شرف الدين الدميري ٦٨ ، ٥٠ .
- شرف الدين الزواوي ٦٤ ، ١١١ .
- شرف الدين السخاوي ٤٩ .
- شرف الدين سليمان الملياني ٦٦٦ .
- شرف الدين قاسم بن شان ١٤٠ .
- شرف الدين موسى ٣٣١ .
- شرف الدين موسى بن صدر الدين سليمان ٢٠٣ .
- شرف الملك (السلطان) ٤٨٩ .
- شرف الملك (أمير بخت) ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٢٤ ، ٥١٠ .
- الشريف أمير علي ٥٣٦ .
- الشريف المازندراني ٤٢٥ .
- شعيب عليه السلام ٨٠ .
- شعيب المغربي ١٥٤ .
- شمس الدين ٤٢٥ ، ٥٥٦ .
- شمس الدين (الأمير) ٦٧ .
- شمس الدين (القاضي) ٧٣ ، ٣٣١ .
- شمس الدين (ابن العارفين) ٥٤٣ .
- شمس الدين الأصبهاني ٦٤ .
- شمس الدين الأندكائي ٤٦٧ .
- شمس الدين البذخشاني ٥٣٦ ، ٥٣٧ .
- شمس الدين بن تاج العارفين ٤٨٨ .
- شمس الدين ابن بنت التنيسي ٤٢ .
- شمس الدين السندي ٢٠٤ .
- شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين ابن حناء ٦٤ .
- شمس الدين البوشنجي ٤١٦ ، ٤٢٥ .
- شمس الدين التبريزي ٤٧٥ .
- شمس الدين الحريري ٦٣ ، ٦٤ .
- شمس الدين دمشقي الحنبلي ٣٢٢ .
- شمس الدين الذهبي ٤٦٦ .

شمس الدين بن ناصر الدين بن غياث
الدين بلبن ٤٥٠ .

الدين بن النقوش ٦٩٤ ، ٦٩٥ .

شهاب الدين (القاضي) ٣٤٧ .

شهاب الدين (السلطان) ٤٣٣ ، ٥٩٥ ،
٦٠٠ - ٦٠٢ .

شهاب الدين (القاضي) ٦٦٥ .

شهاب الدين أبو بكر محمد بن نبأة القرشي
٨٩ .

شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن
عبد الله السهروردي ٢١٢ .

شهاب الدين أحمد ٧٠ ، ٢١١ .

شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن
محمد الإسكندري ١٢٥ .

شهاب الدين أحمد بن أبي طالب ... ابن
بيان الدين (ابن الشحنة) ١٢٣ .

شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن
محمد المقدسي ١٢٤ .

شهاب الدين أحمد بن علي ١٦٤ .

شهاب الدين أحمد الجامي ٣٩٣ .

شهاب الدين الأرمني ٩٢ .

شهاب الدين بن البرهان ١٦٤ ، ١٦٦ .

شهاب الدين بن جهيل ١١٠ .

شهاب الدين الحموي ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

شهاب الدين الحنفي ٦٦٧ .

شهاب الدين الرومي ٥٣٧ .

شهاب الدين الزرندي ١٣٧ .

شمس الدين بن الرجحاني ٢٩١ .

شمس الدين السائل ٣٣٠ .

شمس الدين السهائي ٢٢٦ .

شمس الدين السماني ٤٦٨ .

شمس الدين السنجري ٣٦٧ ، ٣٦٩ .

شمس الدين بن عبد الله بن تمام ١٢٥ .

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن
حسان القيسي ١٠١ .

شمس الدين بن عدلان ٦٤ .

شمس الدين الفوشنجي ٥١٧ ، ٥٢١ .

شمس الدين بن القفصي ١١٠ .

شمس الدين القلوي ٥٠ .

شمس الدين كردن بريدان ٣٨١ .

شمس الدين كلاه وز ٥٦١ .

شمس الدين لَلْمِش ١٦٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،
٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم
الهكاري ١٢٥ .

شمس الدين محمد ... ابن أبي عمر المقدسي
١٢٥ .

شمس الدين محمد بن سالم الغزي ٧٧ .

شمس الدين محمد الحلبي ١٦٦ .

شمس الدين محمد بن علي ٢٨٢ .

شمس الدين محمد الشامي ١٥٤ .

شمس الدين محمد الشيرازي ٤١٣ .

شمس الدين المصري ٣٦٤ .

ص
صاحب الزمان ٢٣٠، ٢٤٣ .
صارر بك ٣٣١ .
صارم الدين بن الشيباني ٩١ .
صاروخان (السلطان) ٣١٢ .
الصاغاني ٢١٤ .
صالح عليه السلام ٧٩، ١٢٦ .
الصالح (الملك) ٢٤٧ .
صالح بن علي ٥٤ .
الصالح (شقيق الملك الناصر) ٦٦٧ .
صالح نور الدين علي ٧١ .
صبيح (الملك) ٥٣٥ .
صدر الجهان ٣٨٥، ٤٦٩، ٤٨٤ .
صدر الجهان ناصر للدين الخوارزمي
٥٢٠، ٥٢١ .
صدر الدين الحنفي ٤١٣ .
صدر الدين سليمان الفنيكي ٣٢٣ .
صدر الدين سليمان اللكزي ٣٦٤ .
صدر الدين سليمان المالكي ٤٩ .
صدر الدين العمري ١٢٥ .
صدر الدين الكهراني ٤٣١ .
صدر الزمان بهاء الدين ٦١٥ .
صدر الشريعة (القاضي) ٣٧٢، ٣٧٥ .
الصرصري (الفقيه) ٥٧٢ .
صفية بنت عبد المطلب ١٣٨ .
صفي الدين (القاضي) ٤٦ .
صفي الدين الطبري ٢٥٨ .

شهاب الدين السابلي ٣٤٧ .
شهاب الدين ابن السلطان جلال الدين
٥٩١ .
شهاب الدين بن السلطان شمس الدين
٤٥٠، ٤٥١ .
شهاب الدين بن السلطان علاء الدين
٤٤٤، ٤٤٢ .
شهاب الدين الشراشي ١١٣ .
شهاب الدين بن شيخ الجام ٤٧٧، ٤٨٢،
٤٨٣، ٤٨٤، ٥٣٩ .
شهاب الدين بن الصباغ ٦٩ .
شهاب الدين الطبري ٧٧، ٦٦٧ .
شهاب الدين بن عبد الغفار ٧٠ .
شهاب الدين علي الرجاء ٢١٢ .
شهاب الدين فاضل ١٦٣ .
شهاب الدين قلندر ١٨٤ .
شهاب الدين الكازروني ٥٢٠، ٤٦٣ -
٤٦٥، ٥٧٥ .
شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ٤٣٢ .
شهاب الدين بن مسكين ٧١ .
شهاب الدين بن ملك نائب ٤٤٣ .
شهاب الدين النويري ١٦٤ .
شهر الله ٥٠١ .
الشيباني ٤٠٩ .
شيث بن آدم ٦١١ .
شمر سياه ٣٩٦ .

صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي
٣٢١، ٢٤٧

صلاح الدين (أمير الإسكندرية) ٤٠.

صلاح الدين (السلطان) ٨٠.

صلاح الدين بن أيوب (الملك الصالح)
٧٥.

صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي
٦٦٥.

الصنعاني ١٤٩.

صنهاجة (قبيلة) ٢٦٩.

صهيب رضي الله عنه ٢٩٨.

ض

ضياء الدين ٣٨٦، ٤١٦.

ضياء الدين أبو النجيب السهروردي ٢١٢.

ضياء الدين خداوند زادة ٥١٣، ٥١٦.

ضياء الدين السمناني ٤٨٣.

ضياء الملك بن شمس الملك ٤٩٩.

ضياء الملك ٥٠٠.

ط

الطائع ٢٣٥.

طارق بن زياد ٦٧٨، ٦٨٠.

طاش خاتون ٢١٨، ٢٢٢.

طالش ٢٣٨.

طاهر بن شرف الملك ٥٠٧، ٥٠٨.

طر مشيرين ٥٣٠، ٥٥٦.

طشط (الأمير) ٦١.

طفي خاتون ٣٠٣.

طغتمور (السلطان) ٣٨٩.

طفيل بن خاتم ٢٨٨.

طفيل بن منصور بن جواز الحسيني ١٣٧،
١٣٨.

طلحة بن عبد الله ١٩٩.

طلحة العبد الوادي ٦٦٦.

طلحة بن عبيد الله ٦٦٢.

طوغان الفرغاني ٤٨٩.

طومان ٢٩٧، ٣٠٥.

طيغلي (الخاتون) ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٤،
٣٦٨.

طيلان (ملك الأمراء) ٩٨.

طيلان الحاجب (الأمير) ٨.

ظ

الظاهر (الملك ركن الدين بيبرس
البنقداري) ٧٥، ٨٢، ٩١، ٩٦،
١١٢، ١٥٧، ٢٣٥، ٦٣٠، ٦٥٩.

ظهير الدين ٥٦٣، ٥٦٦، ٥٧٧، ٥٧٨.

ظهير الدين الزنجاني ٤٢٦، ٥٤٢.

ظهير الدين العجمي ١١٢، ١١٣.

ظهير الدين القرلاني ٦٤٩.

ع

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ١٠٥،
١٠٦، ١٢٩، ١٣٩، ١٥٧، ١٧٦.

عاتكة بنت الحسين ٢٢٩.

- عاد ٢٧٠ .
- عاشورة (الجارية) ٦٢٢ .
- عامر بن ذؤيب ٢٥٥ .
- عامر الشرق ١٧٥ .
- عباس (الشيخ) ٣٩٨ .
- العباس بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ) (١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٤٦٧ ، ١٥٥ ، ١٥٢ .
- عبد الحميد العجمي ١٣٥ .
- عبد الجليل المغربي ٧٣ .
- عبد الرحمن الإسفراييني ٢٢٢ .
- عبد الرحمن بن أبي بكر ١٥٧ .
- عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ١٣٨ .
- عبد الرحمن بن القاسم ٥٨ .
- عبد الرحمن بن محمد ... ابن يوسف المزني الكلي ١٢٥ .
- عبد الرحمن القناوي ٧٠ .
- عبد الرحيم البيساني ١٠٣ .
- الشيخ عبد الرحيم القناوي ٢٨٩ .
- عبد العزيز الأردوي ٢٢٢ ، ٤٦٦ .
- عبد العزيز المقدشاوي ٦٢١ .
- عبد القيس بن أفضى ٢٨٧ .
- عبد الله (الفقيه) ٢٥٢ .
- عبد الله (القاضي) ٥٨٩ .
- عبد الله (الوزير) ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٢١ .
- عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان النوزري ٢٩٠ .
- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ١٣٨ .
- عبد الله بن الزبير ١٥٦ ، ١٧٦ .
- عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٧ .
- عبد الله بن محمد الحضرمي ٥٩١ .
- عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفبري ١٢٤ .
- عبد الله التوزري ١٦١ .
- عبد الله التونسي ٢٨٩ .
- عبد الله الصفار ٦٨١ .
- عبد الله الكردي ٢٤٦ .
- عبد الله الكفيف ١٠٩ .
- عبد الله المرشدي ٥٤٩ .
- عبد الله المصري ٣١٥ .
- عبد المؤمن بن علي ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ .
- عبد الله الهروي ٤٩٨ ، ٥٠٧ .
- عبد المحسن الإسكندري ٩٧ .
- عبد المؤمن ٥٢٠ .
- عبد الواحد (الفقيه) ٦٩٤ .
- عبد الواحد المكناسي ٧١ .
- عبد الوهاب ٤٧ .
- عبيد (الفقيه) ٤٥٠ .
- عبيد الله بن عبد الله بن عمر ١٣٢ .
- عتبة الغلام ١٩٩ .
- عثمان (الشيخ) ٦٠٩ .
- عثمان بن سند ١٩٨ .
- عثمان بن عفان رضي الله عنه ٩١ ، ١٠٦ ، ٢٩٠ .

عطيفة (الأمير) ١٦٥، ١٦٨، ١٧٤،
١٧٥، ٢٥٠.

عفيف الدين التوزري ٣١٣، ٣٣١،
٣٧٢.

عفيف الدين عبد الله ١٣٥.

عفيف الدين عبد الله بن أسعد ١٦٥.

عفيف الدين الكاساني ٤٨٤، ٤٨٥.

عقيل بن أبي طالب ١٣٨.

عكاشة بن محصن الأسدي ٣٨٨.

علاء الدين (الأمير) ١٣٣، ٢٤٢.

علاء الدين (السلطان) ٤٢٦، ٤٨٢،

٥٠٤، ٥٥١.

علاء الدين بن الأثير ١٩٧.

علاء الدين أديجي ٦١٤.

علاء الدين أرتنا ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤،

٣٠٥.

علاء الدين الأصبى ٣٣٠.

علاء الدين الأوجي ٥٧٩.

علاء الدين بن البهاء ٩٧.

علاء الدين بن غانم ٨٣، ١٢١.

علاء الدين بن هلال ١٥٥، ٢٤٩.

علاء الدين خدوند زاده ٣٨٣، ٣٨٦.

علاء الملك الخراساني (فصيح الدين)

٤١١، ٤١٢، ٤١٣.

علاء الدين الخلجي ٤٧٠.

علاء الدين الرومي ٢٩١، ٣٢٦.

علاء الدين السلطانيوكي ٣١٦.

١٠٩، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣،
١٥٨، ١٩٧، ٢٧٩، ٦٥١.

عثمان بن جوق ٣١٥.

عثمان بن الشيرازي ٦٠٧.

عثمان المرتدي ٤١٠.

عز الدين (الشيخ) ٣٠٤، ٣١١.

عز الدين بن أحمد الرفاعي ٣١١.

عز الدين بن الأشمرين ٥٠.

عز الدين بن بدر الدين بن جماعة ٦٣،

٦٦٧.

عز الدين بن جماعة ٦٦٥.

عز الدين البنتاني ٥٥٦.

عز الدين بن مسلم ١١٠، ١١٢.

عز الدين الدمشقي ٦٦٥.

عز الدين الزبيري ٥٤٣، ٥٥٦.

عز الدين فرشتي ٣٠٦.

عز الدين القلانسي ١٢١.

عز الدين المليجي ٤٩.

عز الدين الواسطي ١٣٤، ١٦٦.

عزيزان (الشيخ) ٣٨٦.

عزيز الخمار ١٩٦، ٥٠٩، ٥٣٦، ٥٣٧.

عضد الدين (الإمام) ٤٦٨.

عضد الدين الحسيني ٢٢٣.

عضد الدين الشونكاراي ٤٦٨.

العطواني ٢٨٩.

عطيفة بن أبي نمي بن أبي أسعد بن علي بن

قتادة ١٦١.

علي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة
القلانسي ١٢٤ .

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٦٥ ،
٩٦ ، ١١٤ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٧٦ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ - ١٩٨ ،
٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٦٤٨ ، ٦٦٢ .

علي بن أبي القاسم الجنيد ٢١٢ .
علي بن أحمد كجك بن تاج الدين الرفاعي
٣٠٤ .

علي بن إدريس المصري ٢٧٤ .
علي بن أرزق ٣٤٣ .
علي بن جعفر الرازي ٧٤ .
علي بن حبيب التنوخي ٣٧ .
علي بن حجر الأموي ١٤٠ ، ١٤١ .
علي بك بن سليمان باد شاه ٣٢٢ .
علي بن سهل ٢١١ ، ٢١٢ .
علي بن شداد ١٧٥ .
علي بن صبيح ١٧٥ .
علي بن منصور ٣٧٠ .
علي بن موسى الرضا ١٩١ ، ٢٣٤ .

علي بن موسى الكاظم ... ابن علي زين
العابدين بن الحسين بن علي ٣٩٠ ،
٣٩٤ .

علي الحيدري ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٠ .
علي الزودي المراكشي ٦٩٤ .
علي شاه ابن جلال الدين الكيجي ٢٨٢ .

علاء الدين علي بن شمس الدين محمد
٢٤٥ ، ٢٤٩ .

علاء الدين طرمشيرين ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٦٩ .
علاء الدين علي المصري (ابن الشرايشي)
٤٥٨ .

علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد
الله الشافعي ١٢٥ .

علاء الدين القسطنموني ٢٩٨ .
علاء الدين القونوي ١١٠ ، ٦٦٤ .
علاء الدين الكردي ٩٢ .
علاء الدين الكرمانلي ٤٣٠ .
علاء الدين محمد ٢٤١ ، ٣٢٣ .

علاء الدين محمد شاه الخلجي ٤٤١ ، ٤٤٣ ،
٤٤٧ .
علاء الدين الملتاني ٤٢٥ .
علاء الدين النيلي ٤٣١ .
علم الدين ابن الشيخ فريد الدين البذاوني
٤٢٢ .

علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف
البرزالي ١٢٤ .

علم الدين بن سالم ٧٣ .
علي (الفقيه المعلم) ٥٦٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ .
عليا (الحاج) ٥٩٧ .
علي أغبول ٧١٠ .

- علي شاه جيلان ٢٢٠، ٣٤٢ .
علي شاه كر ٥٠٦ .
علي كلكي ٥٩١ .
علي الهندي ٦٨٥ .
عماد الدين ٣٨٦، ٤١٦ .
عماد الدين (الشيخ) ٤٩٣ .
عماد الدين الحنفي ١٠٩ .
عماد الدين الحوراني ١١٠ .
عماد الدين سرتيز ٣٨١، ٤٦١ .
عماد الدين السمناني ٥٢٧، ٥٢٨ .
عماد الدين السمنائي ٤٦٦، ٤٧٥ .
عماد الدين الشونكاري ٢٨٢ .
عماد الدين القيصراني ١٢١ .
عماد الدين الكندي ٤١، ٤٦، ٤٧ .
عماد الدين التابلسي ٧٧ .
عماد الملك (الأمير) ٤٨٧ .
عماد الملك سرتيز ٤٦٠ .
عمار بن ياسر رضي الله عنه ٨٤، ٢١٦ .
عمر (الأمير) ٣١١ .
عمر بك ٣٠٧ .
عمر بن الخطاب (الفاروق) رضي الله عنه
١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣ .
١٣٩، ١٥٨، ٢١٥، ٢٧٩، ٦٤٨ .
عمر دهرد ٥٩٤، ٦٠٢ .
عمرو بن العاص ٥٤، ٥٦، ٦٠ .
عمر بن عبد العزيز ٨٤، ٨٥، ١٠٩ .
٤٠٩، ١٣٢ .
- عمر بك ابن السلطان محمد بن أيديس
٣١١ .
عمر الهنودي (الناخوذة) ٥٩٣ .
عنبري (الجارية) ٥٩٦ .
عون بن علي بن أبي طالب ٢٣٤ .
عياض (القاضي) ١٣٧ .
عيسى (المسيح) عليه السلام ٧٤، ٧٥ ،
٧٧، ١٠١، ١١٦ - ١١٨، ٣٥٦ ،
٣٥٩ .
عيسى (القاضي) ٥٩٤ .
عيسى بك (الأمير) ٣٣٧، ٣٤٤ .
عيسى البدوي ٩٢ .
عيسى البربري ٦٧٧ .
عيسى بن خزرون المكناسي (أبو مهدي)
١٣٦، ١٣٧ .
عيسى بن الحسن بن أبي منديل ٦٧٨ .
عيسى بن طأطأ ٦٦١ .
عيسى بن علي ٢٦٩ .
عيسى اليمني (الفقيه) ٥٨٩، ٥٩٤ .
عين الملك ٤٨٩ .
عين الملك بن ماهر ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣ ،
٥٠٤، ٥٠٦ .
- غ
غازي جلبي ٣٢٦ .
غامد (قبيلة) ١٧٧ .
غدا بن مهنا (الأمير) ٤٤٠، ٤٧٥، ٤٧٦ .

فاطمة بنت الحسين بن علي عليها السلام
.٧٥

فاطمة بنت الرسول رضي الله عنها ١١٥ ،
.١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ .

فتح التكروري ٥٢ .

فتح الدين بن دقيق العيد ٧٠ .

فتح الله (شونويس) ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

فتح الموصل ٢٤٨ .

فخر الدين (الأمير) ٣٢٥ .

فخر الدين (القاضي) ٢٥٠ ، ٦٥١ .

فخر الدين بن الريغي ٤١ .

فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين
الكاكازوني ٥٨٠ .

فخر الدين بن مسكين ٤٦ ، ٤٧ .

فخر الدين عثمان ٥٧٥ .

فخر الدين ، فخره (السلطان) ٦٢٣ ،
.٦٢٤ ، ٦٢٧ .

فخر الدين القبطي ٦٢ ، ١١٢ .

فخر الدين النويري ٦٧ .

قربا حسين ٦٨٩ .

قربا سليمان ٧٠٨ .

قربا منعا ٧٠٥ .

قربا موسى ٧٠٧ .

فرج الزنجاني ٢١٢ .

فريد الدين ٤٣ .

فريد الدين البنداوني ٤٢٢ .

فضالة بن عبيد ١١٥ .

- ٥٠٦ ، ٥٠٣ ، ٤٧٨ .

غياث الدين ٥٢٢ .

غياث الدين (السلطان) ٣٨٩ ، ٦١٧ ،
.٦٢٠ ، ٦١٩ .

غياث الدين (ملك هراة) ٢٣٨ .

غياث الدين محمد ... ابن عبد العزيز ابن
الخليفة المستنصر ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

غياث الدين بلبن (السلطان) ١٦٩ ، ٤٢٧ ،
.٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ .

غياث الدين بهادور بورة ٤٣٩ ، ٤٥٠ ،
.٤٥١ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٦٢٣ .

غياث الدين تغلق شاه ١٩٢ ، ٤٤٧ .

غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر ٤٢٦ .

غياث الدين الدامغاني ٥٥٦ ، ٦١٤ .

غياث الدين محمد بن خواجه رشيد ٢٣٧ .

غياث الدين محمد بن عبد القادر ... ابن
الخليفة المستنصر بالله ٣٨٥ .

غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف
ابن عبد العزيز ١٦٩ .

غيتمور (الملك) ٣٩١ .

ف

فاطمة بنت أسد بن هاشم (أم علي بن أبي
طالب) ١٣٩ .

فاطمة بنت تاج الدين أبي الحسن علي بن
علي بن أبي البدر ٢٣٥ .

قراسنقور (الأمير) ٩٣، ٩٤، ٩٥،
٢٣٩.

القرطي ٥٧.

قرطي (الأمير) ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٤.

قريش ١٥١، ١٥٨.

القزويني (القاضي) ٦٦٠.

القسطلاني ٧٢.

قطب الدين ٤٤٨، ٤٤٩.

قطب الدين (السلطان) ٤٢٨، ٤٢٩،

٤٨٣، ٥١٢، ٥٣٤، ٥٥٣.

قطب الدين أيبك ٤٣٢، ٤٣٣.

قطب الدين تمتهن طوران شاه ١٧٠،

٢٤٠، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٣،

٢٨٥.

قطب الدين حيدر ٣٩٤.

قطب الدين حيدر العلوي ٤١٤.

قطب الدين ابن السلطان علاء الدين ٤٢٦.

قطب الدين بن علاء الدين الخلجي ٤٧٠.

قطب الدين النفشواني ٦٦٦.

قطب الدين النيسابوري ٣٩٥.

قطب الملك ٤١٥، ٥٢٢، ٥٢٦.

قطلوخان ٤٢٥، ٤٥١، ٤٩٨، ٥٠٠،

٥٠٩، ٥٢٥، ٥٥٨.

قطلودمور (الأمير) ٢٢١، ٣٣١، ٣٦٥،

٣٦٧، ٣٧٢.

قل استان (الجارية) ٥٩٦.

قلاوون (الملك) ٩٩، ١٣٣، ١٥٣.

فضل الله ٥٠١.

فضل الله الرضوي ٣٦٧.

فياض (أمير) ١٨٦.

فيروز ٣٨١.

فيروز (الملك) ٤١٠، ٥٠٣، ٥٢٠.

فيروز البدخشاني ٥٥٠.

فيروز شاه ٢٣٨.

فيروز خان ٤٨١.

فيروز خوندة ٤٧٤.

فيروز ملك (الحاجب) ٤٥٥.

ق

القائم ٢٣٥.

القادر ٢٣٥.

قازان (ملك التتر) ٨٦، ٢٤٧، ٥٥٠.

قازغان، قازان (ملك العراق) ٢٣٧،

٢٤١، ٥٣٤.

قاضيخان صدر جهان ٤٤٥، ٤٤٦.

القاملداري (الوزير) ٥٩٤.

القاهر ٢٣٥.

قبولة (الملك الكبير) ١٦٩.

قبولة الهندي ٢٥٤.

قبولة (الملك) ٤٥٨.

قم (السلطان) ٥٥٢.

قم بن العباس بن عبد المطلب ٣٨٤،

٤٦٩.

قلعند (الأمير) ٤٩٧ .
 قلندر يوسف ٥٢ .
 قمر الدين ٥٥٦ .
 قمر الدين (الأمير) ٦١٤ .
 قنجة موسى ٦٩٧ .
 قوام الدين ٤١٧ .
 قوام الدين (القاضي) ٣٨٦ .
 قوام الدين بن طاروس ١٩٠ ، ١٩١ .
 قوام الدين السبتي ٦٤٩ .
 قوام الدين الطمغجي ٢١٨ .
 قوام الدين الكرمانى ٦٤ .
 قوام الدين بن مكين ٨٣ .
 قوصون ٦٢ .
 قيران (ملك صفدار) ٤٩٧ .
 قيصر ٦٤٣ .
 قيصر الرومى ٤١٠ ، ٤١١ .
 كراي (ملك) ٥٢٠ .
 الكركي (والي الإسكندرية) ٤٥ .
 كسرى ٢٢٠ ، ٥٢٠ ، ٥٥٠ ، ٦٤٣ .
 كشلوخان ٤١٣ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
 كشلي خان (الأمير) ١٩٢ .
 كعب الأحبار ١١٤ .
 كفالي قراس ٣٥٣ .
 كفالي نقوله الرومى ٣٥٢ ، ٣٥٣ .
 كمال بورومى ٤٩٤ .
 كمال الدين (القاضي) ٤٣٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠ .
 كمال الدين الأشمونى ٨٠ .
 كمال الدين البجنورى ٥٢٤ .
 كمال الدين بن البرهان الغزنوى ٤٥٢ ، ٤٥٨ ، ٥١٤ .
 كمال الدين بن الزملكاني ٨٩ .
 كمال الدين صدر لجهان ٤٢٥ .
 كمال الدين عبد الله ... ابن أبي عمر المقدسى ١٢٥ .
 كمال الدين عبد الله الأصفهاني ٦٤٥ .
 كمال الدين عبد الله الغاري ٤٣٢ ، ٥٤٠ .
 كمال الدين الغزنوى ٤٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ .
 كمال الدين كرك (الملك) ٤٢٥ ، ٤٩٨ .
 كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى ٤٣٢ (صدر جهان) .
 كمال الدين المراغى ٧٧ .

ك

كافور ٢٠٣ ، ٣٧١ .
 كافور الساقى ٥٤٤ ، ٥٤٩ .
 كافور الشريدار ٥٤٢ .
 كيك (الملك) ٨٣ .
 كيك (الخاتون) ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ .
 كبيشى بن منصور بن جمار ١٣٨ .
 كجك خاتون ٣٤٠ .

. ٤٤٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٢ (قطب الدين)

. مبارك شاه ٤١٦ .

. مبارك شاه السمرقندي ٥١٢ ، ٥٢٠ .

. المتقي ٢٣٥ .

. المتوكل ٢٣٥ .

. مثقال (الناخوذة) ٥٧٥ .

. مجد الدين ٣٠٥ .

. مجد الدين (القاضي) ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،

٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٤٦٧ ،

. ٦٦٢

. مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداداد

. ٢١٤

. مجد الدين الأقصراني ٦٤٠ .

. مجد الدين بن حرمي ٦٥ .

. مجد الدين القاسم ... ابن المعلي ١٢٥ .

. مجد الدين القانوني ٣١٥ ، ٣١٤ .

. مجد الدين موسى الحسيني ١٩٧ .

. مجد الدين النابلسي ٧٨ .

. مجير بن ذي الرجا ٤٥٨ ، ٦١٤ .

. محمد (النبي المصطفى الرسول ﷺ) ٢٩ ،

٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٤ - ٧٦ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٦ -

١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ -

١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ - ١٥٩ ،

١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ،

١٨٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ،

. الكنار (السلطان) ٦٠٧ .

. كنبيلة (الراي) ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٩ .

. كُوَيل (السلطان) ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

. كي خسرو ٤٣٧ .

. كي قباد ٤٣٧ .

ل

. لسان الدين بن الخطيب ٦٨٠ .

. لقمان السرخسي ٣٩٤ .

. لوط (النبي) ٧٤ ، ٧٥ ، ١٦٧ .

. لؤلؤ (مملوك) ٦٢ .

. لؤلؤ دمشق خواجه ٢٣٨ .

. لولا (قائد المركب) ٥٧١ .

. ليفي بروفنسال ٦٨٠ .

م

. ماجوج ٦٤٧ .

. مالك بن أنس (أبو عبد الله) ١٢٩ ،

١٣٨ ، ١٧٧ ، ٥٦٧ ، ٥٩٠ ، ٦٧٣ .

. مالك بن دينار ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٦٢٢ .

. مالك بن طوق ٨٦ ، ٦٦٣ .

. ماه حق (زوجة السلطان علاء الدين)

. ٤٤٢

. مبارك (زين الدين) ٤٧ .

. مبارك ابن الأمير عطيفة ٢٥١ .

. مبارك خان (السلطان) ٤٥٨ .

. مبارك خان ٤٧٥ ، ٤٨٠ .

. مبارك خان بن السلطان علاء الدين

- محمد الدوري ٤٠٧ .
- محمد بن رافع ١٢٥ .
- محمد بن رميثة بن أبي نمي ٢٣٠ .
- محمود بن سبكتكين ٤٧٧ .
- محمد السلحدار ٦١٧ .
- محمد بن سيرين ٦٦٢ .
- محمد شاه (الظاهر) ٣٩٤ .
- محمد شاه (ملك الهند) ١٦٨ ، ٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٠٧ .
- محمد شاه بندر ٥٧٩ .
- محمد شاه بن تغلق شاه ٤٤٦ .
- محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه ٤٥٢ .
- محمد شاه بن مظفر ٢٤٠ .
- محمد شاه ينجو ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ .
- محمد بن شميثة بن أبي نمي ٢٦٦ .
- محمد بن طغرل بن عبد الله بن الغزال الصيرفي ١٢٤ .
- محمد بن عبد الله ٢١٢ ، ٧١٢ .
- محمد بن عبد الله بن ينومر ٦٩٠ .
- محمد بن عبد الله عمويه ٢١٢ .
- محمد بن عثمان ١٦٤ .
- محمد بن عثمان الحنبلي ١٦٥ .
- محمد العدني ٢٧٤ .
- محمد العريان ٥٤٩ ، ٥٥٠ .
- محمد بن علي ٩٦ .
- محمد بن غياث الدين ٤٩١ .
- ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ ، ٣٨٨ ، ٤٧٠ ،
- ٥٦٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٦٧ ،
- ٦٦٨ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٧٠٨ ، ٧١٥ .
- محمد (حفيد الخليفة المستنصر) ٤٧٣ .
- محمد (الخطيب) ٧١١ .
- محمد (السلطان) ٤٨٣ ، ٦٣١ .
- محمد بن آيدين ٣٠٦ .
- محمد أوزبك ١٨٢ ، ٢٣٨ ، ٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
- محمد بن إبراهيم ١٧٥ .
- محمد بن أبي سهل ٧٥ .
- محمد بن أبي الشرقي الحرباوي ٤٦٩ ، ٤٧١ .
- محمد بن البرهان ١٦٥ .
- محمد البطائحي ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
- محمد البغدادي ٤١٠ .
- محمد بن بيزم ٥٥٣ .
- محمد التوفيري ٥٥٣ .
- محمد بن تومرت ٦٧٩ .
- محمد الجرخي ٣٩٨ .
- محمد جلبي (السلطان) ٢٩٦ .
- محمد بن جاز ٢٦٦ .
- محمد بن الحجر ٣٤ .
- محمد بن الحسن العسكري ٢٣٠ .
- محمد الخويج ١٨٤ ، ٢٥٠ .
- محمد خداينده ٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
- محمد خواجه الخوارزمي ٣٣٣ .

- محمد بن فرحان التوزري ٦١٣ .
 محمد بن الفقيه ٦٩٤ .
 محمد بن الفقيه الجزولي ٦٩٤ .
 محمد بن فهد القرشي ١٦٥ .
 محمد المراكشي ٧٢ .
 محمد المصمودي ٦٢٢ .
 محمد المهروي ٣٩٦ .
 محمد الناقوري ٥٦٦ .
 محمد بن النجيب (أجدر ملك) ٤٩٧ .
 محمد النيسابوري ٦١٨ .
 محمد الهروي ٥٤٢ .
 محمد الهروي الكتوال ٤١٦ .
 محمد الهمداني الصوفي ٤٦٩ .
 محمد بن واسع ٢٦٢ .
 محمد بن الوزير جمال الدين ٦٢١ .
 محمود (الفقيه) ٢٠٩ .
 محمود الخيوفي ٣٧٢ .
 محمود بن سبكتكين ٣٩٨ .
 محمود الكبا ٤٣٠ .
 محمود اللوري ٦٠٨ .
 محيي الدين (المدرس) ٣٠٦ .
 محيي الدين الحمصي ٩٢ .
 محيي الدين بن يحيى بن علي العلوي ١٢٥ .
 المختار بن أبي عبيد ٢٢٩ .
 مخلص الملك النذر باري ٤٨٤ .
 مدرك بن فقوص ٧٠٣ ، ٧٠٢ .
 مراد بك ٢٩٨ .
 المرتضي (ملك مراكش) ٧٢ .
 مردك أغا ٣٩٨ .
 مرزوق (الشيخ) ٥٠ .
 مرغلظة (جارية) ٣١٤ .
 مروان (ابن الحكم) ١٣٢ .
 المسترشد ٢٣٥ .
 المستضيء ٢٣٥ .
 المستظهر ٢٣٥ .
 المستعصم ٢٣٥ .
 المستعصم بالله ٣٧٤ .
 المستعظم بالله (الخليفة العباسي) ٦٢٤ .
 المستعين ٢٣٥ .
 المستقيم بالله ٤١٠ .
 المستكفي ٢٣٥ .
 المستنجد ٢٣٥ .
 المستنصر بالله أبو جعفر بن الظاهر ٢٣٤ .
 المستنصر ٢٣٥ ، ٣٢٣ ، ٤٧٣ .
 مسعود (سلطان) ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
 مسعود (الملك) ٦٢ .
 مسعود آباد ٤٦٩ .
 مسعود بن المنتصر ٣٤ .
 مسلم ١١٤ .
 مسلم بن عقيل بن أبي طالب ٢٢٩ .
 مسلمة بن عبد الملك ٣٥٣ .
 مصر خواجه ٢٣٨ .
 مصلح الدين (الفقيه) ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٣١٢ .

- المطيع لله ٢٣٥ .
مظفر ابن الداية ٥٤٣ .
مظفر الدين ٣٣٠ .
مظفر الدين (الشيخ) ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ .
مظفر شاه بن الأمير محمد شاه بن مظفر ٢١٩ ، ٢٢٠ .
مظهر الدين ٣٣٠ .
معاذ بن جبل رضي الله عنه ٧٩ ، ٢٥٦ .
معاوية بن أبي سفيان ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ٦٤٨ .
معبد الجهني ٢٥٧ .
المعز ٢٣٥ .
المعصم ٢٣٥ .
المعتضد ٢٣٥ .
المعتمد ٢٣٥ .
معروف خواجه ٢٤٢ ، ٢٤٩ .
معروف الكرخي ٢٣٤ .
معز الدين ابن الشيخ فريد الدين البدواني ٤٢٢ .
معز الدين ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ٤٢٨ .
معز الدين بن السلطان شمس الدين للمش ٤٣٤ .
معز الدين ابن السلطان ناصر الدين ٤٣٨ ، ٤٣٩ .
المعظم (الملك) ١٢٧ .
معين الدين البخارزي ٥٥٠ .
مُغلة ٢٩٩ .
المغيث (الملك) ٢٧٠ ، ٢٧٣ .
مغيث ابن ملك الملوك ٤٧٨ .
مغيث الدين محمد بن عماد الدين السمناني ٥٣٨ .
مقبل (الملك) ٥١١ .
مقبل التلنكي ٥٦٢ .
مقبول التلنكي ١٧٠ .
المقتدر ٢٣٥ .
المقتفي ٢٣٥ .
المكتفي ٢٣٥ .
ملك زاده ٤١٦ .
ملك زادة ابن اخت خداوند زادة (الترمذي) ٥١٣ ، ٥٢٠ .
ملك شاه (الأمير) ٤٤٤ .
ملك فيروز ٤٥٨ .
ملك مقبل (نائب الوزير) ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
ملك نائب (الأمير) ٤٤٢ .
ممشاد الدينوري ٢١٢ .
المنتصر ٢٣٥ .
منجور ٥٥٤ .
منسى سليمان ٦٩٥ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ .
منسى مغا ٧٠٢ .
منسى موسى ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ .
منشاجو ٦٩٠ .
المنصور (ملك ماردین) ٢٤٧ .

ن

- منصور أبي نغمي ٢٥٢ . منصور بن شكل ١٤٠ . منصور بن عمر ١٧٥ . منصور بن لبيدة بن أبي نغمي ٢٦٦ . منورت ٥٦٣ . المهدي ٢٣٥ . المهدي ٢٣٥ . المهدي (الإمام) ٩٧ . المهدي (الخليفة) ١٥٢ ، ١٤٦ . المهدي بن أبي جعفر المنصور ١٣٢ . المهردار (الأمير) ٤٩٣ . مهنا بن عيسى ٩٣ . مودود الجستي ٣٩٢ . موسى (الشيخ) ٧٢ . موسى (الفقيه) ٣١٣ . موسى عليه السلام ٤٤ ، ٨٠ ، ١١٥ ، ١١٧ . موسى بن قرمان ٣٠١ ، ٢٥٠ . موسى الكاظم بن جعفر الصادق ٢٣٤ . موسى المزرق ١٧٥ . موسى بن نصير ٦٧٨ . موسى الوبخراي ٦٩٩ . ميخائيل (القائد) ٣٥٠ . مير حسن ٢٣٨ . ميناس بك ٢٩٩ . ناصر (الحاج) ٥٦٢ . الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون (الملك الناصر) ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ - ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ - ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٩ - ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٨ ، ٣٠١ ، ٣٣٠ ، ٣٧٨ ، ٥٣٠ ، ٥٥٠ . ٦٩٤ ، ٦٧٧ ، ٦٦٧ . الناصر بن الملك المغيث (الملك) ٦٦١ . ناصر الدين ٥٥٦ . ناصر الدين (أمير المؤمنين) ٦١ . ناصر الدين (السلطان) ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ . ناصر الدين (ملك مل) ٥١٠ . ناصر الدين ابن ملك مل ٥٥٩ . ناصر الدين الأبيوطي ٢٤٩ . ناصر الدين بن السلطان شمس الدين للمش ٤٣٤ ، ٤٣٥ . ناصر الدين بن شمس الدين للمش ١٦٨ . ناصر الدين بن العديم ٩٠ . ناصر الدين بن عين الملك ٥٥٨ . ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ٦٢٣ .

- ناصر الدين بن ناهض ٥٥ .
ناصر الدين الترمذي ٥٣١ ، ٥٢٥ ، ٤٦٩ .
ناصر الدين خسرو شاه ١٩٢ ، ٤٤٥ .
ناصر الدين الخوارزمي ٥٣٨ ، ٤٥٨ .
ناصر الدين الدرقي ٢١٥ .
ناصر الدين العديم ٦٦٥ .
ناصر الدين الفأري ٢٦٠ .
ناصر الدين الكافي الهروي ٥٣٢ ، ٥١٩ .
ناصر الدين مطهر بن شمس الدين محمد الأدهري ١٩٠ ، ٤٢٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٣٨ ، ٥٣٠ ، ٥٢٩ .
نجم الدين (القاضي) ١٦٤ .
نجم الدين الأصبهاني ١٧١ ، ١٧٢ .
نجم الدين الأصفهوني (الأصفهوني) ١٦٦ ، ٢٤٩ ، ٦٦٧ .
نجم الدين البالسي ٢٤٩ .
نجم الدين الجيلاني ٥٦٢ .
نجم الدين السهرقي ٦٥ .
نجم الدين الطبري ١٦٤ ، ١٦٥ .
نجم الدين الكبري ٣٦٦ .
نجم الدين محمد بن محيي الدين الطبري ١٦٢ .
النسائي ١٦٦ .
نصر (الأمير) ٤٩٣ .
نصرة الحاجب ٤٩٦ .
نصر الله ٥٠١ .
- نظام الدين ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٦٤ ، ٣٠٥ ، ٤٢٥ .
نظام الدين (الأمير) ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .
نظام الدين (مولانا) ٣٩٠ .
نظام الدين (الفقيه) ٣٩١ ، ٣٩٢ .
نظام الدين البذاوني ٤٣٢ ، ٤٥١ .
نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي ١٩٠ .
نظام الدين الكرواني ٥١٧ .
نظام الدين محمود بن عمر الهراوي ٣٢٥ .
النعمان بن بشير الأنصاري ٨٤ .
النعمان بن المنذر ١٩٤ .
نعمان الدين الخوارزمي ٣٦٤ .
نَغَطِي (الأمير) ٣٤٢ ، ٣٤٤ .
نكبية (الملك) ٤٦٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ .
نكبية الدوادار ٥٢٥ .
نفيسة بنت الحسن بن علي بن الحسين بن علي ٥٧ .
نوح عليه السلام ١٨٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ .
نور الإسلام ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
نور الدين (السلطان) ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .
نور الدين (السلطان) ١١٣ ، ٢٥٠ .
نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العبيسي ٨٣ .
نور الدين أبو اليسر بن الصائغ ١١٠ .
نور الدين بن الزجاج ٣٧٤ .

- و
- نور الدين الزيداني ٢٢٨ .
- نور الدين السخاوي ١٢١، ٦٦٣ .
- نور الدين الشيرازي ٤٨٧ .
- نور الدين علي بن داود بن يوسف بن علي
ابن رسول (السلطان) ١٧٤ .
- نور الدين علي... ابن يوسف بن علي بن
رسول ٢٥٨ .
- نور الدين القاضي ٢٤٩ .
- نور الدين الكرلاني ٤٣٠ .
- نور الدين الكرمانى ٢٠٥، ٢٠٨، ٣٦٦ .
- وزيرة بنت عمر بن المنجاة ٢٢٥ .
- وشل ١٦٩ .
- الوليد بن عبد الملك بن مروان ١٠٤،
١٣٢ .
- وُتار (الأمير) ٤٠٩، ٤١٠ .
- هـ
- هابيل بن آدم ١١٧ .
- هاجر (أم اسماعيل عليه السلام) ١٤٩ .
- الهادي ٢٣٥ .
- هارون بك ٣٦٨ .
- هارون الرشيد ١٨١، ٣٩٤ .
- هبة الله ابن الفلكي التبريزي ٥٢٠، ٥٢٢ .
- هرمس الأول ٥٩ .
- هريب (السلطان) ٥٦٧ .
- هلاجون (الأمير) ٤٩٧ .
- هلاون بن تنكيز ٤١٠ .
- همام الدين ٣٦٧ .
- هود عليه السلام ١٠٧ .
- هود بن عابر ٢٧٠ .
- هوشنج (الملك) ٤٢٥، ٤٩٨، ٤٩٩ .
- ي
- يأجوج ٦٤٧ .
- ياقوت ١٢٥، ١٢٦ .
- ياقوت الحبشي ٤٣ .
- ياقوت الحموي ١٨١، ٢٦٥، ٢٧٩ .
- يحيى بن أحمد كجك بن تاج الدين الرفاعي
٣٠٤ .
- يحيى الباخرزي ٣٧٥ .
- يحيى الخراساني ٢٠٤ .
- يحيى السلاوي ٩٧ .
- يحيى عليه السلام ١٠٧ .

- يوسف عليه السلام ٧٤ ، ٨٠ .
يوسف بن أحمد (أتابك) ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
يوسف بغرة ٤٦٠ ، ٤٨٢ .
يوسف بن رسول ١٥٣ .
يونس (النبي عليه السلام) ٧٥ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ .
- يُحْشِي خان (السلطان) ٣١٣ .
يزيد بن معاوية ٢٩٦ ، ٦٤٨ .
يعقوب (النبي) ٧٣ ، ٧٤ .
ينقي ٣٨١ .
يَنْنَج (السلطان) ٢٩٨ .
يهودا ٨٠ .

فهرس المدن والقرى

أرمينية ٩١ .
 أزاق ٣٣٣ ، ٣٣٨ .
 أزغغان ٦٦٩ .
 أسفي ١٧٢ .
 الإسكندرية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
 ٤٥ - ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٣٨ ،
 ٢٩١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٢ ، ٥٠٩ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٩ .
 أسنا ٧١ ، ٢٨٩ .
 أسوان ٥٤ .
 أسيوط ٦٨ ، ٢٨٩ .
 أشمون ٥٣ .
 الأشمونين ٢٨٩ .
 اصطنبول ٣٥٧ ، ٣٥٩ .
 أصفهان (أصفهان) ١٨٩ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ،
 ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣٧٠ ، ٦٤٠ ، ٦٦٢ .
 أصفون ٢٤٩ .
 أصيلا ٦٨٥ .
 أطراز ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ .
 أطراز (طراز) ٣٨٣ .

أ

آت قلنجة ٦١٢ .
 آسياد باد ٤٤٨ .
 آوة ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٥٧٩ .
 أبجري ٤٢٣ .
 الأبله ١٧٠ .
 أبو سرور ٥٧٠ .
 أبو صير ٦٦٦ .
 أيار ٤٩ ، ٦٦٦ .
 أجودهن ٤٢٢ ، ٤٢٥ .
 أجين ٥٥٨ .
 أخيم ٦٩ ، ٢٨٩ .
 أخندقان ٦٦٩ .
 أدفو ٧١ ، ٢٨٩ .
 أذربيجان ٢١٥ .
 أزان ٩١ .
 أرز الروم ٧٨ ، ٣٠٥ .
 أرزنجان ٣٠٥ .
 أرض اللور ٢٠٢ .
 أرمنت ٧٠ ، ٢٨٩ .

٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٩ ،
٧١٠ .

ب

بابا سلطوق ٣٦٢ ، ٣٥١ .
بال ٢١٧ .
بالم ٤٢٦ .
بجاية ٣٤ ، ١٤١ .
بجقجي ٣٣٣ .
بجنور ٥٣٦ .
البحرين ١٩٨ ، ٢٤٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
٥٧٥ .
بخاري ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ٢١٠ ، ٣٣٥ ،
٣٧٢ - ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٤١٦ ،
٤٣٦ ، ٧١٣ .
بخت ٤٨٩ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ -
٥٢٤ .
بدر ١٤٢ ، ١٨٥ .
بدر كوت ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ .
بدقتن ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٨٢ .
بداون ٤٢٢ .
برتيك ٣١٦ .
برج بوره ٥٤٩ ، ٥٥٠ .
برجين ٣٠٠ .
بردامة ٦٨٩ ، ٧٠٩ .
بردور ٢٩٤ .
برشانة ١٩٩ .

إفرانسة ٣١١ ، ٣٥٧ .

أفريقية ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٦٦ ، ١٦٣ .

أفغان بور ٥٣٦ .

أققانبور ١٩٥ .

أقشهر ٢٩٤ .

الأقصر ٧٠ ، ٢٨٩ .

أقصر ا ٦٤ ، ٣٠٢ .

أقليبية ٣٦ .

أكروهة ٥١٢ .

أكريدور ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

أكك ٣٥١ .

ألكات ٣٧٢ .

أماصية ٣٠٤ .

أمروها ٥٣٧ .

أم عبيدة ١١٤ ، ١٩٥ .

الأنبار ٦٥٥ ، ٦٦٣ .

الأندلس ٣٦ ، ٤١ ، ٥٢ ، ١٩٩ ، ٣١٥ ،

٣٣٦ ، ٣٧٢ ، ٦٧٦ - ٦٧٩ ، ٦٨٢ ،

٦٩٢ .

أنطاكية ٩١ ، ٩٢ ، ٢٩١ .

أنطاليا ٢٩١ ، ٢٩٤ .

أوجا ١٩١ .

أوجه ٤١٤ ، ٥٠٧ .

أوغندا ٦٩٣ .

أيا سلوق ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١٣ .

إيدج ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٠ .

أيولاتن ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ،

٥٣٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٢٤ ،

٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٨٦ .

بغلان ٣٩٥ .

بقشهر ٢٩٤ .

البيقع (بيقع الغرقد) ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٣٩ .

بكار ٣٩٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

بلاد الجرجس ٣٣٦ .

بلاد الروم ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ،

٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ .

بلاد فارس ١٨٩ .

بلييس ٧٢ ، ٨٩ ، ٢٩٠ .

بلخ ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ،

- ٣٨٨ .

بلش ٣٥ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ .

بلغار ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

البلقاء ١٢٦ .

بلوذرة ٥٠٨ .

بليانة ٦٦٨ .

بلي كسري ٣١٣ ، ٣١٤ .

بنجاله ٤٣٨ ، ٤٧١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٨ ،

٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،

٦٢٧ ، ٦٢٨ .

بنج هير ٣٩٧ .

بندر سلاوات ٦٠٧ .

بهرايج ٥٠٥ .

برص ١١٧ .

برصا ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .

برغمة ٣١٣ .

بركة المرجوم ١٨٧ .

بركي ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ .

البرلس ٥٠ ، ٥١ .

برلو ٣٢٢ .

البرهنكار ٦٢٧ .

برون ٣٩٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ .

بزد ٢١٩ .

بستا ٦٦١ .

بسطام ٣٩٥ .

بش بالغ ٣٨٣ ، ٦٥٧ .

بصري ١٢٥ ، ١٢٦ .

البصرة ٦٤ ، ١٩٤ ، ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،

٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٨١ ،

٦٦٢ ، ٦٨٦ .

بطالة ٦٠٥ ، ٦١٣ .

بطن عرنة ١٨١ ، ١٨٢ .

بطن مر ١٤٣ ، ١٤٦ .

بعلبك ٩٩ ، ١٠٠ .

بغداد ٦٧ ، ١١٧ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ - ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ،

٣٦٥ ، ٣٧٤ ، ٣٩٥ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ،

تغازي ٦٨٦ ، ٦٨٧ .
تغلق آباد ٤٢٦ ، ٤٥٢ .
تكذآ ٧١٠ ، ٧١١ .
تكريت ٢٤٣ ، ٤٠٧ .
تلمسان ٣٣ ، ٣٤ ، ٦٦٩ ، ٧٠٣ .
التلنك ٤٤٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٣ ، ٤٩٨ ،
٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٣٨ ، ٥٥٤ ،
٥٥٨ .

تنبكتو ٦٩٣ ، ٧٠٥ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ .
التنعم ١٥٨ ، ١٦٦ .
تيرة ٣١٠ .
تنس ٦٦٩ .
تنغانيقا ٦٩٣ .
تنيس ٥٠ .
توات ٧١٢ .
تونس ٣٤ - ٣٨ ، ١٣٥ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ .
التيرة ٦٨٥ .
تيزين ٩٠ ، ٩٢ .

ث

الثعلبية ١٨٧ .

ج

الجام ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٨٢ .
جير كاوان ٦١١ .
جيلة ٩٥ ، ٩٧ ، ٢٩٠ .
الجحفة ١٤٣ .
جدة ٤٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

البهنسا (البهنسة) ٦٦ ، ٢٨٩ .
بوش ٦٦ ، ٢٩٠ .
بيانة ٤٥٧ ، ٥٤٣ ، ٥٥٦ .
بيت الأهبة ١١٩ .
بيت لحم ٧٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ .
بيروت ٨٠ .
بيهق ٣٨٩ .

ت

تاج بوره ٥٤٧ .
تادلي ٧٠٩ .
تازي ٦٧٠ .
تاسر هلا ٦٨٨ .
تانه ٢٦٠ .
التبت ٦٢٤ .
تبريز ٩٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ،
٣١١ ، ٣٢٣ ، ٥٢٠ .
تبوك ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٦٦٧ .
تدمر ٦٦٣ .
تركستان ٨٣ ، ٣٣٨ ، ٣٩٤ ، ٥٥٤ ،
٦٥٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ .
ترمذ ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ،
٤١٦ ، ٤٣٦ ، ٥٢٠ .
تروجة ٤٦ .
تستر ٢٠٢ - ٢٠٥ ، ٦٢٢ .
تساريف ١٨٢ .
تعز ٢٥٨ .

٢١٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣١

٥٤٠ ، ٦٦٨

الحجر ١٢٧

الحجون ١٥٥ ، ١٥٦

حران ١٢٥

حربة ٢٤٣

حضر موت ٢٦٧

حلب ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٤٠ ، ٢٤٧ ، ٤٠٧

٦٦٥ ، ٦٦٤

الحلة ١١٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

٦٦٢

حلي ٢٥٤

حماة ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٣٧١ ، ٦٦٤

الحمة ٦٨٣ ، ٦٨٥

حصص ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٤ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥

حشيرا ٤٣ ، ٧١ ، ٢٨٩

حوران ١٢٦

الحويزا ٦٤ ، ٢٢٨ ، ٦٦٢

خ

خان بالق ٥٩ ، ٦٢٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥

٦٥٥ ، ٦٥٧

الختن ٣٧٣

خراسان ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٢١

٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٨١ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥

٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦

٢٥٥ ، ٢٨٨ ، ٦٦٧

جديدة ٤٩٤

الجرخ ٣٩٨

جرفتن ٥٧٣ ، ٥٨٢

جرون ٢٨١ ، ٢٨٣

الجزائر ٣٤

الجزرات ٤٦٤ ، ٤٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩

الجلالي ٥٤٤

جكان ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٦٦١

جنادة ٢٦٦

جنادل ٦٩٤

جناني ٤٠٨ ، ٤٠٩

جنبيل ٥٥٢

جندر ٦٦١

جنديري ٤٤٥ ، ٥٠٨ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧

جنوه ٣١١

جهان نياه ٤٢٧

جوزة ٥٢٢

ح

الحاج ترخان ١٨٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣

٣٦٤

حاسك (مرسي) ٢٧٤

حانسي ٤٢٥ ، ٤٩٩ ، ٥١٢

الحبشة ٢٥٩ ، ٦٩٣

الحجاز ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٦٥ ، ٩٧ ، ١١١

١١٥ ، ١٦٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩

الدقهليه ١٣٥ .
 دلاص ٦٦ .
 دل دينوة ٦١١ .
 دمشق ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ - ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٩ -
 ١٠٥ ، ١٠٩ - ١١٣ ، ١١٥ - ١١٧ ،
 ١١٩ - ١٢٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٧٠ ، ٣٢٣ ، ٣٥٦ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٥٥٠ ،
 ٦٤٠ ، ٦٤٩ ، ٦٦٣ - ٦٦٥ .
 دمشق الصغيرة ٩٤ .
 دمنهور ٤٧ ، ٦٦٦ .
 دمياط ٥١ - ٥٣ ، ٥٥ ، ٢٩١ ، ٦٦٦ .
 دنقله ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
 ده فتن ٥٧٣ ، ٥٨٢ .
 دهلي ١٤١ ، ١٦٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
 ٢٤٤ ، ٣٧٠ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ -
 ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٩ - ٤٤٣ ، ٤٤٨ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ ،
 ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ،
 ٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ،
 ٥٢٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ،
 ٥٤٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ،
 ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٤ ، ٦١٤ ،
 ٦١٨ - ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٣١ ،
 ٦٥٠ ، ٦٦١ .
 دور آباد ١٩٣ .

٣٨٧ - ٣٩٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ،
 ٤١٦ ، ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٣ ، ٤٩٠ ،
 ٤٩٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥٢٠ ،
 ٥٢٤ ، ٦٥٤ ، ٧١٣ ، ٦٢٢ ، ٦٧٧ .
 الخطا ٣٧٣ ، ٤٦٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ .
 خليص ١٤٣ ، ١٨٥ .
 الخليل ٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٥٦ ، ٣٧٨ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٧ .
 خنج بال ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٦٦١ .
 الخنساء (الخنساء) ٥٩ ، ٥٤١ ، ٦٢٦ ،
 ٦٥٠ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ .
 خوارزم ٧٠ ، ١٨٢ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٣٨ ، ٣٦٤ - ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ -
 ٣٧٣ ، ٦٤٠ .
 خور الخيزران ٦٠٩ .
 خور السمك ٦١ .
 خورفكان ٢٨٠ .
 داد ٥٢٢ .
 دارا ٢٤٦ .
 داريا ١١٥ .
 دبابورو ٤٤٨ .
 دبال بور ٤٤٦ .
 دبيل ٩١ .
 درعة ٦٨٧ .
 دروازة بالم ٤٢٧ .

٤٤٧ ، ٤٤١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٢ ، ٤٢٣ ،
٤٨٥ ، ٤٨١ ، ٤٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٥٢ ،
٥٠٧ ، ٤٩٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٣ ، ٤٨٧ ،
٥٤٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٢ ، ٥٠٨

سندادي آس ٦٩٢ .
سنديلة ٥٠٣ .
سزهاكوان ٦٢٧ ، ٦٢٤ .
سواكن ٢٥٤ ، ٢٥٣ .
السودان ٧١ .
سوسة ٣٧ .
سوستان ٥٤٠ .
سُونُس ٣٠٤ .
السويس ١٣٤ .
سيراليون ٦٩٣ .
سيري ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٢٩ ، ٤٢٦ .
سيزار (سيزوار) ٣٨٩ .
سيناء ٧٢ .
سيواس ٣٠٣ .
سيوستان ٤١١ ، ٤٠٩ ، ٤٠٥ ، ٣٩٢ .

ش

الشاليات ٥٨٣ ، ٢٦٠ .
الشام ٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٥١ ، ٤٩ ،
٧٩ ، ٨٢ - ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ،
١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨١ ،

٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

سراجوق ٣٦٤ .
سرادق ٣٩ .
سرت ٣٨ .
السرجة ٢٥٦ ، ٢٥٥ .
سرخس ٣٩٤ ، ٣٩٠ .
سرداق (سوداق) ٣٣٨ .
سردق ٣٥١ .
سرستي ٥١٢ ، ٤٩٩ ، ٤٦٩ ، ٤٢٥ .
سرّ من رأى (ساقرا) ٢٤٣ .
سرمين ٨٥ .
سرياقص (سرياقوس) ٦٤ ، ٦١ .
سفاقس ٦٦٨ .
سفالة ٢٦٦ .
سلا ٦٩٠ ، ٦٨٦ ، ٦٨٥ ، ٦٨١ .
السلطانية ٢٤٠ ، ٩٤ .
سمرقند ٣٨٤ ، ٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ،
٣٨٥ ، ٤١٦ ، ٤٣٦ ، ٧١٣ .
سمنان ٣٩٠ .
سمنود ٦٦٦ ، ٥٤ .
سهل ٥٤١ .
سنجار ٢٤٦ .

السند ٤٣ ، ٥٩ ، ١٧٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٣٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ،
٤١٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ - ٤١٤ ،

صهيون ٩٢، ٣٦٦ .
 صور (مرسى على بحر الهند) ٧٩، ٢٧٦ .
 صوماء ٢١٣ .
 الصومال ٢٦١ .
 صيدا ٨٠ .
 الصين ٣٩، ٤٣، ٥٩، ٢٢٧، ٢٧٢ .
 ٣٠٢، ٣١١، ٣١٥، ٣٣٨، ٣٤١ .
 ٣٤٦، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١ - ٣٧٣ .
 ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٠، ٥١٣، ٥٤١ .
 ٥٤٢، ٥٥١، ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٥ - .
 ٥٧٧، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٧ .
 ٥٩٣، ٦١١، ٦٢٤، ٦٢٦، ٦٣٣ .
 ٦٣٧، ٦٣٩ - ٦٤٦، ٦٥٠، ٦٥١ .
 ٦٥٥، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٨٦ .
 صين كلان ٥٧٦، ٦٤٠، ٦٤٦، ٦٤٧ .

ط

الطائف ١٤٦، ١٥٦، ١٦٧ .
 طبرية ٨٠ .
 طرابلس (إفريقية) ٣٨، ٦٧٦ .
 طرابلس (الشام) ٨٢، ٨٣، ٩٧، ٩٨ .
 ٢٩٠ .
 طغيمور ٢٤٠ .
 طنجة ٣٣، ١٦٦، ١٦٧، ٢٥٠، ٦٤٩ .
 ٦٦٣، ٦٧٧ .
 طوالي ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٥٩ .
 طوس ١٩١، ١٩٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٤ .

١٩١، ٢٠٣، ٢١٤، ٢٤٧، ٢٥١ .
 ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠ .
 ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٢٤ .
 ٣٢٥، ٣٣٨، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣ .
 ٣٦٦، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٩٤، ٦٦٣ .
 ٦٦٥، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٧ .
 شونكارا ٤٦٧، ٤٦٨ .
 شيا ٢٨٠ .
 شيراز ٢١٢ - ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢ .
 ٢٢٣، ٢٢٥ - ٢٢٧، ٢٤٠، ٢٩٣ .
 ٣٠٤، ٣٨٢، ٤٦٥، ٤٦٧، ٦٦٢ .

ص

صاغر ٥٥٨، ٥٦٠، ٥٦١ .
 الصاحية ٧٢، ١١٦، ١١٧ .
 صحار ٢٨٠ .
 صرصر ٦٦٢ .
 الصفا ١٣٣، ١٤٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥ .
 ١٧٢، ١٧٦، ٢٤٩ .
 صفاقس ٣٧، ٣٨ .
 الصفراء ١٤٢ .
 صفين ١١٤ .
 صنصرة ٦٩٤ .
 صنعاء ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠ .
 الصنمين ١٢٥ .
 صنوب ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨ .

طبية (الأقصر) ٦٠ .
طبي ٢٧٨ .

ظ

ظفار الحموض (ظفار) ١٠٧ ، ٢٦٧ ،
٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٥٩٣ ، ٦٦١ .
ظفر آباد ٥٠١ .
ظهار ٤٩٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

ع

العراقيين ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٥ ، ٢٨١ ،
٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٦ ،
٣٦٣ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ .

عراق المعجم ٩٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ .
عراق العرب ٢٠٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
عسفان ١٤٣ ، ١٨٥ .
عسقلان ٧٨ .
العسكر ٥٤ .
العطوافي ٧١ .

عقبة اسكندر ٦١٠ .
عقبة أيلة ١٢٦ ، ٦٦٧ .
عقبة السويق ١٤٣ .
عقبة الصوان ١٢٦ .
العقر ٢٤٣ .
العقيق ١٤١ .

عكة (عكا) ٧٩ ، ٨٠ ، ٢٩٠ .
العلا ١٢٧ ، ٦٦٧ .
علاهور ٥٥١ ، ٥٥٢ .
العلايا ٢٩٠ ، ٢٩١ .

عُمان ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،
٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٣٣٥ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ،
٦٦١ .

العَمَق ٩٢ .

عنتاب ٦٦٤ .

عوض ٥٠١ .

عِيذاب ٤٣ ، ٧٠ - ٧٢ ، ٨٣ ، ٢٥٣ ،
٢٨٩ ، ٦٦٧ .

عانة ٦٥٥ .

عبادان ٢٠٠ ، ٢٠١ .

عجلون ٧٩ ، ٦٦٥ .

المعجم الأعجم ١٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٨ .

عدن ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ .

العذيب ١٨٨ .

العراق ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،

١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،

١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٥ ،

٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،

٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ،

٢٦٦ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ - ٣٠٥ ،

٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ،

٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٥٧ ،

٤٦٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٣٤ ، ٥٧٩ ،

٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٧٠ ، ٦٧٧ .

عين الرصد ٢٤٥ .

فلسطين ٧٨ ، ٧٩ .

فندارينه ٢٦٠ .

فندرينا ٥٧٥ ، ٥٨٢ .

فنيكة ٣٢٣ ، ٣٥٣ .

فوا ٤٧ .

فوجة ٣١٢ .

فيروزان ٢١٠ .

ق

قابس ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٦٨ .

القادسية ١٨٨ .

قاشان ١٩٨ ، ٢٤٠ .

قائلة ٦٣٣ ، ٦٣٥ .

قاليقوط ٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٥٧٠ ،

٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ،

٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٦٢١ ، ٦٦١ .

القاهرة ٥٤ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١١١ ،

١١٦ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ .

قباء ١٣٩ .

قتوج ٤٢٥ .

القحمة ٢٥٦ .

القدس (بيت المقدس) ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٢٢ ،

١٣٣ ، ٢٩٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،

٣٧٨ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ .

قرا أحاج ٢٩٦ .

قرا باغ ٩٤ ، ٢١٦ .

غ

غات ٧١٣ .

غرناطة ٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٩٣ ، ٦٨٣ -

٦٨٥ ، ٦٩٢ .

غزة ٧٣ ، ٧٧ ، ٢٩٠ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ .

غزنة ٣٨٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٧١ ، ٤٧٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ .

غسانة ٢٥٧ .

غور الشام ٣٩٠ .

غوطة كاه عارفان ٦١٠ .

ف

فارس ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٨١ ،

٢٨٦ ، ٣٣٥ ، ٣٤٦ ، ٤١٢ ، ٤٦٣ ،

٤٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ .

فارسكور ٥٣ ، ٦٦٦ .

فاس ٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٩ ، ٣٩٥ ، ٦٧٠ ،

٦٧٦ ، ٦٨٦ ، ٧١٣ ، ٧١٥ .

فاكنور ٢٦٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٨٢ ،

٦٢٠ .

فتن ٥٧٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ .

فربير ١٢٤ .

فرغان ٢٤٠ .

فرغاني ٤٨٩ .

الفسطاط ٥٤ ، ٦٠ .

- قراقرم ٦٥٨، ٦٥٧، ٣٨٣ .
- القرم ١٧٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣ .
- قوقة ٥٦٤ .
- قوص ٧٠، ٧٢، ٢٨٩ .
- قونية ٣٠٠، ٣٠١ .
- قيس (سیراف) ٢٨٦ .
- قيسارية ٣٠٢ .
- قريه بني رياح ٦٨٥ .
- القریات ٢٨٠ .
- قري منسا ٧٠٦ .
- القسنطينية ٣٥، ٧٩، ١٠٤، ٣١١ .
- ك
- كابرة ٦٩٣ .
- كابل ٣٩٨ .
- كارزي ٦٦١ .
- كارسخو ٦٩٣، ٦٩٤ .
- كازرون ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨ .
- كاشغر ٣٧٣ .
- كاهر ٧١٢ .
- كاوي ٥٦٣ .
- كاوية ٣١٧، ٣١٨ .
- كبان ٦١٧ .
- كبيج ٢٤٠، ٣٨٢ .
- كبنوك ٣١٨ .
- كرا ٤٤٠ .
- كراومانكبور ٤٤٠ .
- كربلاء ٢٣٠، ٣٧٠ .
- كردي بولي ٣٢١، ٣٢٢ .
- كرّله ٣١٦ .
- كرمان ٢١٥، ٢٤٠، ٣٠٤، ٤٣٠ .
- كُرمه ٦١١ .
- الكسوة ١٢٥ .
- قراقرم ٦٥٨، ٦٥٧، ٣٨٣ .
- القرم ١٧٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣ .
- ٣٣٨، ٣٣٦ .
- القریات ٢٨٠ .
- قري منسا ٧٠٦ .
- قريه بني رياح ٦٨٥ .
- القسنطينية ٣٥، ٧٩، ١٠٤، ٣١١ .
- ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٥٠ .
- ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٥٨ - ٣٥٤ .
- قصطمونية ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥ .
- القطيف ٢٤٠، ٢٨٦، ٥٨١ .
- القطائع ٥٤ .
- قفجق ٥٩، ٦١، ١٧٠، ٣٢٨، ٣٤١ .
- ٣٥١ .
- قل حصار ٢٩٥، ٢٩٦ .
- قلهات ٢٤٠، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩ .
- ٢٨٣، ٥٦٢، ٦٦١ .
- القليعة ٢١٤ .
- قم ١٩٨، ٢٤٠ .
- قهاره ٦٣٣ .
- قنا ٧٠، ٢٨٩ .
- قنجنفو ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥٩، ٦٨٦ .
- قندهار ٣٩٨، ٥٦٣ .
- قندوس ٣٩٥، ٣٩٦ .
- قنسرین ٩٠، ٩١ .
- قنوة ٥٥٠ .
- قنوج ٥٠٢، ٥٠٣ .

- كشك زر ٦٦٢ .
الكعبة الشريفة (البيت العتيق) ١٣٣ ،
١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ -
٢٤٩ ، ١٨٤ .
الكفّا ٣٢٨ .
الكيفار ٣٣٨ .
كلبا ٢٨٠ .
كلنبو ٦١٣ .
كلنوس ٦٢١ .
كلوّا ٢٦٦ ، ٢٦٥ .
كليل ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٦٦٢ .
كُمّيش ٣٠٤ .
كُنبايت (كُنباية) ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٦٠ ،
٤٦٣ - ٤٦٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٥٠٨ - ٥١١ ، ٥٦١ - ٥٦٣ .
كُنبييل ٥٠٢ .
كُنْجِي كَرِي ٥٧٩ .
كندكل ٥٨٤ .
كنكار ٦٠٨ .
كهف آدم ١١٨ .
كوبر ٦٥٨ ، ٧١١ .
كوتاهية ٢٩٦ .
كوراستان ٦٦١ ، ٢٨٤ .
الكوفة ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ،
٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٥٧٢ ، ٦٦٢ .
كوكن تانه ٤٩٨ .
كوكو ٧٠٥ ، ٧٠٩ .
كول ٤٨٨ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ .
كولم ٣٩ ، ٢٦٠ ، ٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٨ -
٥٨١ ، ٥٩٨ ، ٦٢٠ ، ٦٤٠ ، ٦٦٠ .
٦٦١ .
كيالير ٥٥٢ .
كيش ٢٤٠ .
كيلوكري ٦٣٧ ، ٦٣٨ .
ل
لاذقي (دون غزله) ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
اللاذقية ٧٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٩٠ .
اللار ٢١٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ .
اللارندة ٣٠١ .
لاهري ٤١١ ، ٤١٢ .
لاهور ٤٣٣ ، ٤٩٧ .
اللجون ١٢٦ .
اللكنوتي ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٦٢٣ .
اللور ٢٩٥ ، ٦٦٣ .
ليبيا ٢٨٠ .
ليبيريا ٦٩٣ .
م
ماين ٢١٣ .
الماجر ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
ماجول ٢٠٢ .
ماردين ٢٤٧ .
مازونة ٦٦٩ .

المالقة	٣٨٣، ٣٨٠، ٣٧٣، ٣٧١
مالقة	٦٨٥، ٦٨٣، ٦٨٢، ٦٨١
المالوه	٥٥٧، ٤٧٦، ٤٤٠
مالي	٧٠١، ٦٩٩، ٦٩٥ - ٦٩١، ٢٩١
	٧١٠، ٧٠٩، ٧٠٧، ٧٠٤
ماوراء النهر	٤٦٩، ٣٧٦، ٣٣٨
ماين	٦٦٢
مترة	٦١٩، ٦١٨، ٦١٧، ٦١٥
المحلة الكبرى (الكبيرة)	٥٤، ٥٠، ٤٩
	٦٦٦
مدرومة	٦٦٩
المدينة البيضاء	٦٧٧، ٦٧٦
المدينة المنورة، مدينة الرسول (طيبة)	٤٢، ١١١، ١١٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤ -
	١٤١، ١٤٥، ١٨٥، ١٩٠، ٢٣٩
	٦٦٧، ٣٧٨
مر الظهران (بطن مر)	١٨٤، ١٤٣
	١٨٥
مراغة	٩٤
مراكش	٦٨٦، ٦٨٥
مربلة	٦٨٢، ٦٨١
مره	٥٥١
المرهنة	٥٥١
المرهنة	٤٤٠
مرو	٣٨٨
المروة	١٧٢، ١٥٥، ١٥٤، ١٤٤، ١٣٣
	٢٤٩، ١٧٦
المرية	٦٨٤
المزة	١١٩
المزدلفة	١٨٣، ١٨١، ١٤٥
مستغاثم	٦٦٩
المسجد الحرام	١٥٤، ١٥٣، ١٤٦
مسراتة	٣٨
مسعود آباد	٤٢٦، ٤٢٥
مسقط	٦٦١
مسلاتة	٣٨
مسوفة	٧٠١، ٦٩١، ٦٨٩، ٦٨٨، ٦٨٧
مشهد الرضا	٣٩٤
مصر (الديار المصرية)	٤٧، ٤٣، ٤١
	٤٩، ٥١، ٥٣ - ٦١، ٦٥ - ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٤ -
	٨٦، ٩٤، ٩٨، ١٠١، ١١٠ - ١١٦، ١١٧، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٣
	١٤٥، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٢، ١٨١، ١٩١، ٢٠٣، ٢١٤
	٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٩
	٢٦١، ٢٦٤، ٢٩٠ - ٢٩٢، ٢٩٤
	٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٧
	٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٥٦
	٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٨، ٣٩٤، ٣٩٦
	٤٢٦، ٤٦٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٣
	٥٣٠، ٥٣٣، ٥٤٩، ٥٥٩، ٦٢٧
	٦٣٩، ٦٤١، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٨
	٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٧، ٧٠٧، ٧٠٨

- ٦٦٧، ٥٧٢، ٥٣٠ .
- مكجًا ٣١٧ .
- مكران ٣٨٢، ٢٤٠ .
- مكناسة ٧٠٩، ٦٨٦، ٦٦٣ .
- الملاحين ٢٤٨ .
- ملتان ١٩٢، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٧ ،
- ٤٠٥، ٤١١، ٤١٤ - ٤١٨، ٤٣٧ ،
- ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٨٦، ٤٩٣، ٤٩٤ ،
- ٥٣٧، ٥٠٨ .
- ملطين (بلطيم) ٥٠ .
- ملك بور ٥٢٢ .
- مليانة ٣٤ .
- المليبار ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٠، ٥٧١ ،
- ٥٧٣، ٥٧٨، ٥٩٥، ٥٧٩، ٥٩٨ ،
- ٦٩٠ .
- منى ١٤٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٨١، ١٨٣ ،
- ٢٤٩ .
- منار مندي ٦٠٦ .
- منبج ٩٠ .
- منبسي (مُنْبَسَا) ٢٦٥ .
- منجور ٢٦٠، ٥٧١، ٥٨٢ .
- منف ٦٠ .
- منفلوط ٢٨٩ .
- منكبور ٤٧٤ .
- منلوي (ملّوي) ٢٨٩، ٦٨ .
- منوف ٥٠ .
- المنية، المنيا (منية ابن الخصيب) ٥٣، ٦٦ ،
- ٧١٣، ٧١٠ .
- مصيف ٩٣ .
- مطري ٣١٨، ٣١٩ .
- المطرية ١٣٥ .
- معان ١٢٦ .
- المعبر ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٦، ٤٩٥، ٤٩٦ ،
- ٤٩٨، ٤٩٩، ٥١٢، ٥٣٢، ٥٣٨ ،
- ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٨، ٥٩٣ ،
- ٥٩٥، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦١٣، ٦١٤ ،
- ٦١٧ .
- المعرة (معرة النعمان) ٨٤، ٦٦٤ .
- مغارة الأصفهاني ٦١٠ .
- مغامس ٢٠٠ .
- المغرب ٣٩، ٤١، ٨٢، ١٤٣، ١٧٢ ،
- ١٩٤، ٢٠٠، ٢١٤، ٣١٥، ٣٥٧ ،
- ٣٧٢، ٣٩٤، ٤١٠، ٤٢٠، ٥٢٠ ،
- ٥٧٢، ٦٤٠، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٩ ،
- ٧١٣، ٦٨١ .
- مغنيسية ٣١٢ .
- مقدشو ٢٦١ - ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦ ،
- ٥٧٢، ٥٩٥ .
- مكة ٤٥، ٦٨، ١١٨، ١٣٣، ١٣٦ ،
- ١٣٧، ١٤١، ١٤٣ - ١٤٥، ١٥٢ ،
- ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠ - ١٦٥ ،
- ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥ - ،
- ١٨٠، ١٨٦، ١٨٧، ٢٤٩ - ٢٥٥ ،
- ٢٨٨، ٣٧٤، ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٤ ،

نهر والة ٤٦٤، ٤٧٧، ٥٠٨ .
نيسابور ٣١١، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٤ ،
٣٩٥ .
نينوى ٢٤٤ .

هـ

هجر (الحسا) ٢٨٧ .
هراة ١٩١، ٢٢١، ٢٣٨، ٣٧٥، ٣٨٢ ،
٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١ - ٣٩٣ ،
٤١١، ٤٩٠ .
هرمز (موغ أستان) ١٧٠، ٢١٧، ٢٤٠ ،
٢٦٩، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٣ ،
٤٦٤، ٤٦٥، ٥٨١، ٦٦١ .

هزار أسطون ٥٢٢ .
هزار أمروها ١٩٥، ٥٣٦ .
هكار ٧١٣ .
هليلي ٦٢١ .
همذان ٢٤٠ .
هنج ٢١٧ .
هند ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ١٢٢ ،
١٤١، ١٦٨ - ١٧١، ١٩٠، ١٩٢ ،
١٩٣، ١٩٥، ٢٠٠، ٢١٧، ٢٢٠ -
٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٤، ٢٥٩ ،
٢٦٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٦ ،
٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٩٠، ٣٠٢ ،
٣٣٥، ٣٣٨، ٣٥٦، ٣٦٨ - ٣٧٢ ،
٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤ -

- ٢٨٩، ٦٨ .
منية بني مرشد ٤٦ .
منية القائد ٦٥، ٢٩٠ .
المنيحة ١١٥ .
مؤري ٥٥١ .
الموصل ١٨٤، ٢٤٠، ٢٤٢ - ٢٤٥ ،
٢٤٨، ٣٩٦ .
مولي ٦٩٣ .
المويلحة ٢٤٥ .
ميلاس ٢٩٩ .
ميمية ٧٠٤، ٧٠٦ .
ميمن ٢١٦، ٦٦١ .

ن

نابلس ٧٨ .
نبلان ٢١٠ .
نذر بار ٥٦٠ .
نجد ١٨٥، ١٨٦ .
النجف ١٨٨ .
نجلة ٥٠٨ .
النحرارية ٤٨، ٤٩، ٦٦٦ .
نخشب ٣٧٥ .
نزوا (نزوى) ٢٧٩ .
نسترو ٥٠ .
نسف ٣٨٥ .
نصيبين ٢٤٦ .
نكدة ٣٠٢ .

وادي محسر ١٨١، ١٨٣، ٣٨٦، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣،
 وادي المنصورة ١٩٩، ٣٩٤، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٦ - ٤٠٨،
 وادي نخلة ١٤٦، ١٦٠، ٤١٠، ٤١٤، ٤١٦، ٤١٨ - ٤٢٢،
 واسط ١١٤، ١٩٤ - ١٩٦، ٤٢٤ - ٤٢٦، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٦،
 وبكنة ٣٧٢، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٢،
 وجدة ١٤٥، ٤٥٥، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٧٣، ٤٧٤،
 ورقو ٢٤٠، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٩٥، ٥٠١، ٥٠٩،
 ورناء ٣٨٤، ٣٩٠، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٨، ٥٣٤،

ي

الياميان (الباميان) ٣٧٤، ٥٣٥، ٥٤١، ٥٤٤، ٥٥٢، ٥٥٤،
 - ٥٧١، ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٦٢، ٥٦٠،
 ينجت ٢٢١، ٥٧٤، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٧، ٦٠٢،
 يزد ٢٤٠، ٦٠٣، ٦١٤، ٦٢٤، ٦٣٩، ٦٤٤ -
 يزدخاص ٢١٣، ٦٦٢، ٦٤٦، ٦٥٠، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٨،
 يزميز (إزمير) ٣١١، ٦٦٣، ٦٧٢، ٦٧٠، ٦٦٩، ٦٦٣

هند خير ٣٩٥

هِنور ٢٦٠، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٨١ - ٥٨٣،
 ٦٢٠

هو ٢٨٩، ٦٩

هيت ٦٦٣

هيلي ٥٨٢، ٥٧٢

و

وادي سلا ٢٠٠، ٣٥٧

وادي السمك ١٨٥

وادي العروس ١٨٥

وادي كرة ١٩٣

اليمن ٤٨، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٩،

٢٥٠ - ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٩،

٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٨، ٣٠٧، ٣٣٥،

٤١٢، ٤٦٣، ٤٦٥، ٥٣٠، ٥٧١،

٥٧٣، ٥٧٥، ٥٨٤، ٥٨٧، ٥٨٨،

٦٠٥، ٦٢٠، ٦٤٦، ٦٧٠،

ينجا ٣١٧، ٣١٨،

يوفي ٢٦٦

فهرس

الأنهار والبحار والجبال والجزر والحصون والصحارى

السبر، السرو ٦٣٩ .
السرو ٥٩، ٥٠٥، ٥٣٦، ٥٣٩ .
السرو ١٩٦ .
سيحون ٥٨، ٥٩ .
شنيل ٦٨٣ .
العاصي ٨٤، ٨٧، ٩١ .
الفرات ٥٨، ٥٩، ٨٦، ١٨٨، ١٩٤ ،
٢٠٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٣ .
قويق ٨٧ .
الكنك (نهر الغانج) ٥٩، ٤٠٦، ٤٢٤ ،
٤٣٨، ٤٨٣، ٥٠١، ٥٠٤، ٥٣٩ ،
٦٢٣ .
اللجون ٥٥٢ .
النيجر ٦٩٣ .
النيل ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٦٥ ،
٦٩، ٧١، ٧٢، ٢٨٩، ٤٠٥، ٤٣١ ،
٦٢٧، ٦٣٩، ٦٩٣، ٦٩٤، ٧٠٥ ،
٧٠٧، ٧٠٨ .

الأنهار

آب حياة ٦٣٩، ٦٤٦ .
أبسمي ٣٥٧ .
أتل ٣٦٣، ٣٦٦ .
الأزرق ٢٠٢، ٦٢٧ .
الأسود ٣٠٢ .
اصطفيي ٣٥٣ .
ألوصو ٣٦٤ .
بلخشان ٢٠٣ .
بنج آب ١٩١، ٣٩٨، ٤٠٥، ٤٠٨ .
تورة ١١٨ .
الجون ٥٩، ٤٣٥، ٤٨٣، ٥٥٤، ٦٢٣ .
جيحون ٥٨، ٥٩، ٣٦٦، ٣٧٣، ٣٧٤ ،
٣٨٠، ٣٨٦ .
دجلة ٥٩، ٢٠٠، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٣ ،
٢٤٤ .
دجيل ٢٤٣ .
ركن آباد ٢١٣ .

قراجيل ١٩٦، ٤٩٤، ٥٣٧، ٥٤١.

قعيقان ١٤٥، ١٥٨.

قوة استان (قهستان) ٣٨٨.

كامرو ٦٢٤، ٦٢٧.

كوه بوزنه ٦٣٩.

كوه سليمان ٣٩٨.

لمعان ٢٧٤.

هندوكوش ٣٩٦، ٣٩٧.

الجزر

أوال ٢٨٧.

بالبور ٥٨٣.

برويدو ٥٨٤.

بيرم ٥٦٤.

تلاديب ٥٨٣.

تلممتي ٥٨٤.

التم ٥٨٤.

جاوة (الجاوه) ٦٢٧، ٥٨٣، ٥٧٥ -

٦٢٤، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٥٩،

٦٧٠، ٦٧٣.

جربة ٤١، ٦٦٨.

الجزيرة الخضراء ١٩٣.

ذبية المهل ٢٢٨، ٢٧١، ٢٧٢، ٤٢٠،

٥٥١، ٥٥٧، ٥٦٨، ٥٧٥، ٥٨٣،

٥٩٠، ٦٠٠، ٦٠٤، ٦١٥، ٦٢١،

٦٢٨.

سردانية ٦٦٩.

البحار

بجر فارس ١٧٠، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٨٦.

قزوين ٥٧٩.

البحر الميت (بحيرة لوط) ٧٤.

البحر الهندي (بجر الهند) ٢٦٧، ٢٨٦.

بجر اليمن ٢٨٦.

الجبال

أبو قبيس ١٤٥، ١٥٧، ١٨٠.

أحد ١٤٠، ١٥٨.

الأحر ١٤٥، ١٥٨.

الأقرع ٩٩.

بدخشان ٣٨٧، ٣٩٧، ٥٢٠.

بشاي ٣٩٧.

ثبير ١٥٨.

ثور ١٥٨.

جاناته ٦٧٦.

الجودي ٢٤٥.

حراء ١٣٧، ١٥٨.

الزان ٣٤.

السبيكة ٦٨٥.

جبل طارق ١٩٣.

الطبول ١٤٢.

عرفة ١١٤، ١٢٢، ١٤٥، ١٥٦، ١٨١.

الفتح، الفتحين ٦٧٧، ٦٧٩، ٦٨٠،

٦٨٥، ٦٨١.

قاسيون ١١٧، ١١٨، ١٢٤.

جعب ١٢٥ .	سرنديب ٣٢٣ ، ٣١٥ ، ٥٩٣ ، ٦٠٤ ،
ذكوان ٦٨٥ .	٦١٠ ، ٦١٣ .
الرباط ٦٨٢ .	سقطرة ١٦٨ .
شُغر بكاس ٩٢ .	سُمطرة ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٥٩ .
طواس ٢٩٨ .	سندابور ٢٦٠ ، ٢٩٠ ، ٥٥٨ ، ٥٦٤ ،
العليقة ٦٣ .	٥٦٦ ، ٥٨١ - ٥٨٣ .
قدموس ٩٣ .	السويد ٥٨٤ ، ٥٩١ .
القُصير ٢٨٩ ، ٩٢ ، ٧٩	سيلان ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٥١١ ، ٥٦٨ ،
كاليور ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٩٧ ،	٥٧٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٤ ،
٥٥٣ ، ٥٤٣	٦٠٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢١ .
الكرك ١٣٥ ، ١٢٦ ، ٩٩	الطير ٢٧٥ .
المرقب ٩٩ .	قيس ٢٨٣ ، ٦٠٦ .
المنيقة ٩٣ .	كارايدو ٥٨٤ .
هركاتو ٦١٤ .	كش ٦٠٦ .
الصحاري	كنلوس ٥٨٣ ، ٥٩٣ .
أبوهر ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٩٣ .	مصيرة ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
أبوشنج ٣٩٠ ، ١٢٤ .	مايك ٥٨٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ .
برغيس (بدغيس) ٣٩٠ ، ٣٩١ .	هلدمتي ٥٨٤ .
	الحصون
	حصن الأكراد ٨٣ .
	بُغراس ٩١ ، ٩٢ .

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	بين يدي الكتاب
١٣	ابن بطوطة
٢٣	ابن جزى
٢٥	تعليق ابن خلدون على الرحلة
٢٩	مقدمة الرحلة
٣٣	بدء الرحلة والخروج من طنجة
٣٦	ذكر سلطان تونس
٣٩	ذكر أبواب الإسكندرية ومرساها
٣٩	ذكر المنار
٤٠	ذكر عمود السواري
٤١	ذكر بعض علماء الإسكندرية
٤١	حكاية الفأل الحسن
٤٣	كرامة لأبي الحسن الشاذلي
٤٣	ذكر حزب البحر المنسوب إليه
٤٥	حكاية المشاجرة بين المسلمين والنصارى
٥٢	حكاية لحية الشيخ جمال الدين
٥٦	ذكر مسجد عمرو بن العاص

٥٧ ذكر قرافة مصر ومزاراتها
٥٨ ذكر نيل مصر
٥٩ ذكر الأهرام والبرابي
٦١ ذكر سلطان مصر
٦١ ذكر بعض أمراء مصر
٦٣ ذكر القضاة بمصر
٦٣ حكاية الملك الناصر ونظره في المظالم
٦٤ ذكر بعض علماء مصر وأعيانها
٦٥ ذكر يوم المحمل
٦٦ حكاية خصيب
٦٨ حكاية منبر الملك الناصر
٧٦ ذكر المسجد المقدس
٧٦ ذكر قبة الصخرة
٧٧ ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس
٧٧ ذكر بعض فضلاء القدس
٨١ حكاية أبي يعقوب يوسف
٩٢ حكاية الملك الناصر والأمير حسام الدين
٩٣ حكاية تتبع الملك الناصر لقتلة أخيه
٩٥ حكاية أدهم الزاهد
٩٦ حكاية المهدي الكاذب
٩٨ حكاية ابن المؤيد الهجاء
٩٩ حكاية الصالحين اللبنانيين وحمار الوحش
١٠٤ ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية
١٠٩ ذكر الائمة بهذا المسجد

١٠٩ ذكر المدرسين والمعلمين به
١١٠ ذكر قضاة دمشق
١١١ حكاية الفقيه ابن تيمية
١١٢ ذكر مدارس دمشق
١١٢ حكاية الشيخ الصالح ظهير الدين
١١٣ ذكر أبواب دمشق
١١٤ ذكر بعض المشاهد والمزارات بها
١١٤ حكاية في سبب تسميته بذلك
١١٦ حكاية الطاعون الأعظم بدمشق
١١٦ ذكر أرباض دمشق
١١٧ ذكر قاسيون ومشاهدة المباركة
١١٨ ذكر الربوة والقرى التي تواليها
١١٩ ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها
١٢٠ حكاية المملوك الصغير والصحفة
١٢٣ ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها
١٢٨ طيبة مدينة الرسول ﷺ
١٢٩ ذكر مسجد رسول الله وروضته الشريفة
١٣٠ ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم
١٣٣ ذكر المنبر الكريم
١٣٤ ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله
١٣٤ حكاية سراج الدين قاضي المدينة وخطيبها
١٣٥ ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به
١٣٥ حكاية الشيخ الذي جبّ نفسه
١٣٦ ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

١٣٧	حكاية الشيخ الذي ضاع في الجبال
١٣٧	حكاية أبي العباس الفاسي الذي عثر به لسانه
١٣٨	ذكر أمير المدينة الشريفة
١٣٨	ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة
١٤١	حكاية رؤيا علي بن حجر
١٤٥	ذكر مدينة مكة المعظمة
١٤٦	ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه
١٤٧	ذكر الكعبة المعظمة الشريفة
١٤٨	ذكر الميزاب المبارك
١٤٩	ذكر الحجر الأسود
١٥٠	ذكر المقام الكريم
١٥٠	ذكر الحجر والمطاف
١٥١	ذكر زمزم
١٥٢	ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة
١٥٤	ذكر الصفا والمروة
١٥٥	ذكر الجبانة المباركة
١٥٦	ذكر بعض المشاهد خارج مكة
١٥٧	ذكر الجبال المطيفة بمكة
١٦٠	حكاية الفقيهين اللذين ضلّا طريقهما
١٦١	ذكر أميري مكة
١٦١	ذكر أهل مكة وفضائلهم
١٦٢	ذكر قاضي مكة وخطيبها
١٦٣	حكاية مباركة
١٦٤	حكاية قطع يد الارق

الصفحة	الموضوع
١٦٥	ذكر المجاورين بمكة
١٦٧	حكاية في فضيلة
١٦٨	حكاية الشيخ سعيد الهندي
١٧١	حكاية حسن المجنون
١٧٢	ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم
١٧٣	ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة
١٧٤	ذكر عاداتهم في استهلال الشهور
١٧٥	ذكر عاداتهم في شهر رجب
١٧٦	ذكر عمرة رجب
١٧٨	ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان
١٧٨	ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم
١٨٠	ذكر عاداتهم في شوال
١٨٠	ذكر إحرام الكعبة
١٨١	ذكر شعائر الحج وأعماله
١٨٣	ذكر كسوة الكعبة
١٨٤	ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى
١٨٨	ذكر الروضة والقبور التي بها
١٩٠	ذكر نقيب الأشراف
١٩٠	حكاية الشريف أبي غرة
١٩٤	مدينة واسط
١٩٥	حكاية الرقص على النار
١٩٦	مدينة البصرة
١٩٨	حكاية اعتبار

١٩٩ ذكر المشاهدة لمباركة بالبصرة
٢٠٤ حكاية الشيخ الكريم
٢٠٥ ذكر ملك إيذج وتستر
٢٠٦ حكاية عادات أهل إيذج
٢٠٧ حكاية جنازة ابن السلطان
٢١١ كرامة لهذا الشيخ
٢١٥ حكاية هي نسب في تعظيم هذا الشيخ
٢١٧ ذكر سلطان شيراز
٢٢١ حكاية ملك الهند مع الخراسانيين
٢٢١ حكاية تناسبها
٢٢٢ ذكر بعض المشاهد بشيراز
٢٢٣ كرامة لهذا الشيخ
٢٢٥ حكاية الشيخ في شيراز
٢٢٧ كرامة لبعضهم
٢٢٨ مدينة الكوفة
٢٣١ مدينة بغداد
٢٣٣ ذكر الجانب الغربي من بغداد
٢٣٤ ذكر الجانب الشرقي منها
٢٣٥ ذكر قبور الخلفاء ببغداد
٢٣٦ ذكر سلطان العراقين وخراسان
٢٤٠ ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد
٢٤٤ مدينة الموصل
٢٤٧ ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها
٢٤٨ حكاية القاضي الذي أنصف المرأة

٢٥٢	حكاية الأعمى والخاتم
٢٥٢	حكاية العذيلة التي فيها عشرة آلاف درهم
٢٥٤	ذكر سلطانها
٢٥٥	ذكر سلطان حلي
٢٥٧	كرامة الشيخ أحمد بن العجيل
٢٥٨	ذكر سلطان اليمن
٢٦٠	حكاية الكبش الذي اعتق عبداً
٢٦٢	ذكر سلطان مقدشو
٢٦٦	ذكر سلطان كُلوًا
٢٦٦	حكاية من مكارمة
٢٧٠	ذكر التنبول
٢٧١	ذكر التارجيل
٢٧٣	ذكر سلطان ظفار
٢٧٤	ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل
٢٧٦	كرامة للحاج خضر الهندي
٢٨٠	ذكر سلطان عُمان
٢٨٠	حكاية السلطان مع المرأة التي أغواها الشيطان
٢٨٢	حكاية سلطان هرمز
٢٨٤	حكاية الفقراء في مدينة لار
٢٨٥	ذكر سلطان لار
٢٨٦	ذكر مغاص الجواهر
٢٨٨	حكاية الجارية التي وهبها الملك الناصر لبكتومور
٢٩١	ذكر سلطان العلايا
٢٩٢	ذكر الأخية الفتيان

٢٩٤ ذكر سلطان أنطاليا
٢٩٥ ذكر سلطان أكريدور
٢٩٦ ذكر سلطان قُل حصار
٢٩٨ ذكر سلطان لاذق
٢٩٩ ذكر سلطان ميلاس
٣٠١ حكاية مولانا جلال الدين الرومي
٣٠١ ذكر سلطان النزندة
٣٠٦ ذكر سلطان بركي
٣٠٩ حكاية الطبيب اليهودي
٣٠٩ حكاية أخرى: الحجر الذي نزل من السماء
٣١٢ ذكر سلطان مغنيسية
٣١٣ ذكر سلطان برغمة
٣١٤ ذكر سلطان بلي كسري
٣١٥ حكاية الفقير الذي مات ليلة عاشوراء
٣١٥ ذكر سلطان برصا
٣٢٠ حكاية الحاج السارق
٣٢٢ ذكر سلطانها
٣٢٤ ذكر سلطان قصطمونية
٣٢٧ حكاية الروافض الذين لا يأكلون الأرناب
٣٢٩ حكاية الراهب الذي يفطر على حبة فول
٣٣٠ ذكر العجالات التي يسافر عليها بهذه البلاد
٣٣٨ ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان
٣٤٠ ذكر الخواتين وترتيبهن
٣٤١ ذكر الخاتون الكبرى

٣٤٢ ذكر الخاتون التي تلي الملكة
٣٤٢ ذكر الخاتون الثالثة
٣٤٣ ذكر الخاتون الرابعة
٣٤٣ ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك
٣٤٤ ذكر ولدي السلطان
٣٤٥ ذكر سفرى إلى مدينة بلغار
٣٤٥ ذكر أرض الظلمة
٣٤٦ ذكر ترتيبهم في العيد
٣٥٠ ذكر سفرى إلى القسطنطينية
٣٥٥ ذكر سلطان القسطنطينية
٣٥٧ ذكر المدينة
٣٥٨ ذكر الكنيسة العظمى
٣٥٩ ذكر المانستارات بقسطنطينية
٣٦١ ذكر الملك المترهب جرجيس
٣٦١ ذكر قاضي القسطنطينية
٣٦٢ ذكر الانصراف عن القسطنطينية
٣٦٤ كرامة له
٣٦٧ أمير خوارزم
٣٦٩ حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير
٣٦٩ حكاية الخاتون ترابك
٣٧٠ ذكر بطيخ خوارزم
٣٧٠ حكاية الشريف من أهل كربلاء
٣٧٣ ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها
٣٧٦ ذكر سلطان ماوراء النهر

٣٧٦	حكاية الملك كبك والواعظ بدر الدين
٣٧٧	حكاية عن أحكان كبك
٣٧٨	حكاية فضائل الملك طرمشيين
٣٨٥	حكاية عن ملك الهند
٣٨٧	حكاية الأميرة التي بنت مسجداً
٣٨٨	ذكر سلطان هراة
٣٨٩	حكاية الرافضة
٣٩١	حكاية الملك الذي اقترب منكراً
٣٩١	حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين
٣٩٣	حكاية الشيخ شهاب الدين
٣٩٥	كرامة له
٤٠٥	ذكر البريد
٤٠٨	ذكر الكركدن
٤١٠	حكاية صلب العساكر وسلخ جلودها
٤١١	ذكر السفر في نهر السند
٤١٣	ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة
٤١٤	مكرمة لهذا الملك
٤١٥	ذكر أمير ملتان وترتيب حاله
٤١٦	ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة
٤١٨	ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها
٤٢٠	ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند
٤٢١	ذكر غزوة لنا بهذا الطريق
٤٢٢	ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار
٤٢٦	ذكر وصفها

٤٢٧ ذكر سور دهلي وأبوابها
٤٢٨ ذكر جامع دهلي
٤٢٩ ذكر الحوضين العظيمين بخارجها
٤٣٠ ذكر بعض مزاراتها
٤٣٠ ذكر بعض علمائها وصلحائها
٤٣١ حكاية صوت الفقير خوفاً من العذاب
٤٣٢ كرامة له
٤٣٢ ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك
٤٣٣ ذكر السلطان شمس الدين للْمِش
٤٣٤ ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين
٤٣٥ ذكر السلطانة رضية
٤٣٥ ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين
٤٣٦ ذكر السلطان غياث الدين بَلْبَن
٤٣٦ حكاية الفقير مع بَلْبَن
٤٣٨ ذكر السلطان معز الدين بن ناصر
٤٣٩ ذكر السلطان جلال الدين
٤٤١ ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي
٤٤٣ ذكر ابنه السلطان شهاب الدين
٤٤٣ ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين
٤٤٥ ذكر السلطان، خسروخان ناصر الدين
٤٤٧ ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه
٤٥٠ ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك
٤٥٠ ذكر مسير تغلق إلى بلاد الكنوتي وماتصل بذلك إلى وفاته
٤٥٢ ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه

الموضوع

- ذكر وصفه
- ذكر أبوابه ومشورة وترتيب ذلك
- ذكر ترتيب جلوسه
- ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه
- ذكر خروجه للعديد ومايتصل بذلك
- ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخر العظمى
- ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره
- ذكر ترتيب الطعام الخاص
- ذكر ترتيب الطعام العام
- ذكر بعض أخباره في الجود والكرم
- ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني وحكايته
- ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين
- ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين
- ذكر عطائه لعبد العزيز الأردوي
- ذكر عطائه لشمس الدين الأندكافي
- ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري
- ذكر عطائه للقاضي مجد الدين
- ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغري
- ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته
- ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره
- حكاية من تعظيمه إياه
- حكاية نحوها عن كرم السلطان ملطفه
- حكاية عن بخل ابن الخليفة
- حكاية بخله على ابنه

- ٤٧٣ ذكر ما أعطاه السلطان للأمير سيف الدين غدا
- ٤٧٤ ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان
- ٤٧٧ ذكر سجن الأمير غدا
- ٤٧٨ ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوند زاده
- ٤٧٩ حكاية في تواضع السلطان وإنصافه
- ٤٧٩ حكاية مثلها
- ٤٧٩ حكاية مثلها
- ٤٨٠ ذكر اشتداده في إقامة الصلاة
- ٤٨٠ ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع
- ٤٨٠ ذكر رفته للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين
- ٤٨١ ذكر إطعامه في الغلاء
- ٤٨١ ذكر فتكات هذا السلطان وماتم من أفعاله
- ٤٨٢ ذكر قتله لأخيه
- ٤٨٢ ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة
- ٤٨٢ ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله
- ٤٨٤ ذكر قتله للفقير المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقهين معه
- ٤٨٥ ذكر قتله أيضاً لفقيرين من أهل السند كانا في خدمته
- ٤٨٦ ذكر قتله للشيخ هود
- ٤٨٨ ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده
- ٤٨٨ ذكر قتله للشيخ الحيدري
- ٤٨٩ ذكر قتله لطوغان وأخيه
- ٤٨٩ ذكر قتله لابن ملك التجار
- ٤٩٠ ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات
- ٤٩٠ ذكر تحريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل الأعمى والمقعد

- ٤٩١ ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته منه على بهادور بوره
- ٤٩٢ ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك
- ٤٩٣ ذكر ثورة كشلوخان وقتله
- ٤٩٤ ذكر الواقعة بمجبل قراجيل على جيش السلطان
- ٤٩٥ ذكر ثورة الشريد جلال الدين ببلاد المعبر
- ٤٩٧ ذكر ثورة هلاجون
- ٤٩٨ ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان
- ٤٩٨ ذكر الإزجاف بموته وقرار الملك هوشنج
- ٤٩٩ ذكر ماهم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله
- ٥٠٠ ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك
- ٥٠١ ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك
- ٥٠٦ ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر
- ٥٠٧ ذكر فرار أمير بخت وأخذه
- ٥٠٨ ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند
- ٥٠٨ ذكر خلاف القاضي جلال
- ٥٠٩ ذكر خلاف ابن الملك مل
- ٥١٠ ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية
- ٥١١ ذكر قتال مقبل وابن الكولمي
- ٥١٢ ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند
- ٥١٣ ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب
- ٥١٣ ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها
- ٥١٥ ذكر الضيافة
- ٥١٦ ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك
- ٥١٨ ذكر إحسان السلطان والوزير في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

٥١٩ ذكر العيد الذي شهدته أيام خيبة السلطان
٥١٩ ذكر قدوم السلطان ولقائنا له
٥٢١ ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب
٥٢١ ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية
٥٢٥ ذكر عطاء ثانٍ أمر لي به وتوقفه مدة
٥٢٦ ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلي ومدحي للسلطان وأمره بخلاص ديني
٥٢٨ ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجه معي
٥٣٠ ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان
٥٣١ ذكر الجملين اللذين أهديتهما إليه والخلواء وأمره بخلاص ديني
٥٣٢ ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة
٥٣٤ ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة
٥٣٥ ذكر عاداتهم في إطعام الناس في الولايم
٥٣٦ ذكر خروجي إلى هزار أمرها
٥٣٨ ذكر مكرمة لبعض الاصحاب
٥٣٨ ذكر خروجي من محلة السلطان
٥٣٩ ذكر ما همم به السلطان من عقابي وماتداركني من لطف الله تعالى
٥٣٩ ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا
٥٤٠ ذكر بعث السلطان عني وإبائتي الرجوع إلى الخدمة
٥٤١ ذكر ما أمرني به من التوجه إلى الصين في الرسالة
٥٤١ ذكر سبب بعث الهدية للصين
٥٤٣ ذكر غزوة شهدناها بكول
٥٤٤ ذكر محنتي بالأسر وخلصي منه
٥٤٩ حكاية هذا الشيخ
٥٥٠ حكاية القاضي

٥٥٢	حكاية أمير مدينة رابري
٥٥٢	ذكر أمير علابور واستشهاده
٥٥٤	ذكر السحرة الجوكية
٥٥٤	حكاية المرأة التي أكلت قلب الصبي
٥٥٥	حكاية عن سحر الجوكية
٥٥٧	حكاية الشيخ إبراهيم الذي أحيا الأرض الموات
٥٥٨	حكاية ابن اخت الوزير وجاريتته
٥٥٨	حكاية الفيران التي تأكل الرجال
٥٦٠	ذكر سوق المغنين
٥٦١	حكاية الثلاثة الذين اتفقوا على قتل أنفسهم
٥٦٢	حكاية الأعورين
٥٦٣	ذكر سلطان قندهار
٥٦٣	ذكر ركوبنا البحر
٥٦٤	ذكر سلطان قوقة
٥٦٥	حكاية هذا الجوكي
٥٦٧	ذكر سلطان هنور
٥٦٧	ذكر ترتيب طعامه
٥٧٠	ذكر الفلفل
٥٧١	ذكر سلطان فاكفور
٥٧٣	ذكر سلطانها
٥٧٣	ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي يازاء الجامع
٥٧٤	حكاية المسجد الذي خربه أحد البراهمة
٥٧٥	ذكر سلطان قالقوط
٥٧٦	ذكر مراكب الصين

٥٧٧ ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك
٥٧٩ ذكر القرقة والبقم
٥٧٩ ذكر سلطان كولم
٥٨٠ حكاية المقتول الذي لم يدفن حتى يسلم قاتله
٥٨٠ حكاية السلطان الذي قتل صهره بحجة عنبة
٥٨٠ حكاية السلطان الذي قتل ابن أخيه لأنه اغتصب سيفاً
٥٨١ ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور
٥٨٤ ذكر أشجارها
٥٨٥ ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم ومساكنهم
٥٨٨ ذكر نساؤها
٥٨٩ ذكر السبب في إسلام هذه الجزائر وذكر العفاريت التي تضر بها
٥٩١ ذكر سلطنة هذه الجزائر
٥٩٢ ذكر أسباب الخطط وسيرهم
٥٩٣ ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل حالي بها
٥٩٥ ذكر بعض إحسان الوزير إلى
٥٩٦ ذكر تغيره وماأردته من الخروج ومقامي بعد ذلك
٥٩٨ ذكر العيد الذي شاهده معهم
٥٩٩ ذكر تزوجي وولايتي القضاء
٦٠٠ ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الذي نفاه السلطان وماوقع بيني وبينه
٦٠١ ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك
٦٠٣ ذكر النساء ذوات الثدي الواحد
٦٠٥ ذكر سلطان سيلان
٦٠٧ ذكر سلطان كنكار
٦٠٨ ذكر الياقوت

٦٠٩	ذكر القروود
٦٠٩	ذكر العلق الطيار
٦١٠	ذكر جبل سرنديب
٦١١	ذكر القدم
٦١٤	ذكر سلطان بلاد المعير
٦١٤	ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين
٦١٥	ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان
٦١٦	ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام
٦١٩	ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافي عنه
٦٢٠	ذكر سلب الكفار لنا
٦٢٣	ذكر سلطان بنجاله
٦٢٤	حكاية حب السلطان للفقير شيدا
٦٢٤	ذكر الشيخ جلال الدين
٦٢٥	كرامة له
٦٢٥	كرامة له أيضاً
٦٢٦	حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له
٦٢٨	ذكر سلطانهم
٦٢٩	حكاية عقاب الزناة
٦٣٠	ذكر سلطان الحجارة
٦٣٠	ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا
٦٣٢	ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه
٦٣٣	ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك
٦٣٤	ذكر اللبان
٦٣٤	ذكر الكافور

٦٣٤ ذكر العود الهندي
٦٣٥ ذكر القرنفل
٦٣٦ ذكر سلطان مل جاوه
٦٣٦ ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه
٦٣٨ ذكر هذه الملكة
٦٤٠ ذكر الفخار الصيني
٦٤٠ ذكر دجاج الصين
٦٤١ ذكر بعض من أحوال أهالي الصين
٦٤١ ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون
٦٤٢ ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم
٦٤٢ ذكر ماخصوا به من إحكام الصناعات
٦٤٣ ذكر عاداتهم في تقييد ما في المراكب
٦٤٤ ذكر عاداتهم في منع التجار عن الفساد
٦٤٤ ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق
٦٤٧ حكاية عجيبة
٦٤٩ حكاية مولانا قوام الدين السبتي
٦٥٢ ذكر الأمير الكبير قرطبي
٦٥٣ حكاية المشعوذ
٦٥٥ ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان
٦٥٦ ذكر قصره
٦٥٧ ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله
٦٥٨ ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند
٦٥٩ ذكر الرخ
٦٦٠ ذكر إعراس ولد الملك الظاهر

٦٦١ ذكر سلطان ظفار
٦٦٢ ذكر سلطان العراق
٦٦٤ حكاية مختطفي الخبز وقتلهم
٦٦٤ حكاية شيخ مدينة عنتاب
٦٦٥ حكاية نذر الخطيب عز الدين
٦٦٦ حكاية الفقير الذي قضى ليلته في الصلاة ثم أصبح ميتاً
٦٦٦ ذكر سلطان مصر
٦٦٨ ذكر سلطان تونس
٦٧١ ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله
٦٨٤ ذكر سلطان غرناطة
٦٨٨ ذكر التكشيف
٦٨٩ حكاية التاجر التلمساني الذي يعبث بالحيات
٦٩٠ ذكر مسوفة الساكنين بأيوالاتن
٦٩١ حكاية القاضي وصاحبه
٦٩١ حكاية نحوها
٦٩٥ ذكر سلطان مالي
٦٩٥ ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها
٦٩٦ ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلي
٦٩٦ ذكر جلوسه بقبته
٦٩٧ ذكر جلوسه بالمشور
٦٩٨ ذكر تذلل السودان للمكهم وترتيبهم له
٦٩٩ ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه
٧٠٠ ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء للسلطان
٧٠١ حكاية الجراد في بلاد الظالمين

٧٠١	حكاية عن عدل السلطان
٧٠١	حكاية السلطان الذي غضب على زوجته
٧٠٣	حكاية من وضع معروفاً مع السلطان
٧٠٣	ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها
٧٠٤	ذكر سفري عن مالي
٧٠٥	ذكر الخيل التي تكون بالنيل
٧٠٥	حكاية القاضي أبي العباس
٧٠٦	حكاية السودان الذين أكلوا الخادمة
٧٠٧	حكايتي مع اللحم
٧٠٧	حكاية موت سراج الدين
٧١٠	حكاية شراطي خادمة
٧١١	ذكر معدن النحاس
٧١١	ذكر سلطان تكداً
٧١٢	ذكر وصول الأمر الكريم إليّ
٧١٥	قال ابن جزي
٧١٩	فهرس الأعلام
٧٥٧	فهرس المدن والقرى
٧٧٤	فهرس الأنهار والبحار والجزر والحصون والصحارى
٧٧٧	فهرس المحتويات

مطابع العيتاني ص.ب. ٥٧٥١ بيروت - لبنان



الجميلة العلمية السعوية للغة العربية
الجميلة العلمية السعوية للغة العربية

مجلة

الجميلة العلمية السعوية للغة العربية

مجلة علمية محكمة

الرابع والثلاثون - ذو الحجة ١٤٤٥هـ

- توظيف اللغات السامية في النحو العربي: عرض ونقد.
- مظاهر التوسع في كتب إعراب القرآن الكريم: كتاب مشكل إعراب القرآن لمكي القيسي نموذجاً.
- رحلة ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ): دراسة بيئية.



مجلة

الجمعية العلمية للبحوث العربية

مجلة - علمية - محكمة

رقم الإيداع: (٣٣٠٢/١٤٢٩هـ بتاريخ ٧/٦/١٤٢٩هـ

الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤١٥٥ - ١٦٥٨

كل بحث نشر في المجلة

يعبر عن رأي صاحبه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هيئة تحرير المجلة

المشرف العام على المجلة، رئيس مجلس إدارة الجمعية:

• د. بدر بن محمد الراشد

رئيس التحرير:

• أ. د. عبد المجيد بن صالح الجار الله

مدير التحرير:

• د. سليمان بن صالح الزميع

أعضاء هيئة التحرير:

• أ. د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد

• أ. د. أماني بنت عبد العزيز الداود

• أ. د. صالح بن عبد العزيز المحمود

• أ. د. عبد الرحمن بن رجا الله السلمي

• أ. د. عبد العزيز بن صالح العمري

• أ. د. فريد بن عبد العزيز الزامل

طبيعة المجلة وضوابط النشر

طبيعة المجلة:

- ١- مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.
- ٢- مجلة علمية محكمة.
- ٣- تُعنى بعلوم اللغة العربية وآدابها.
- ٤- تنشر البحوث والدراسات العلمية المحكمة.
- ٥- دورية نصف سنوية، تصدر منتصف السنة الهجرية ونهايتها.

ضوابط النشر:

أولاً: الضوابط العامة لقبول البحث:

- ١- أن يكون البحث في علوم اللغة العربية وآدابها.
- ٢- أن يتسم بالجِدَّة والأصالة وسلامة الاتجاه.
- ٣- أن يلتزم البحث بالسلامة اللغوية، والدقة في التوثيق والتخريج.
- ٤- ألا يكون البحث منشوراً أو مقدماً للنشر في مجلة أخرى.
- ٥- ألا يكون مستلماً من عمل علمي سابق للباحث.

ثانياً: ما يشترط في كتابة البحث وتوثيقه:

- ١- أن يُكتب البحث على ورق من مقاس (A4).
- ٢- أن يُكتب بخط (Traditional Arabic) بحجم (١٧) للمتن، وبحجم (١٤) للحاشية، وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرداً).
- ٣- أن تُكتب الهوامش أسفل كل صفحة على حدة.
- ٤- أن يُذيل البحث بثبت المصادر والمراجع.

٥- أن يكتب الباحث ملخصاً لبحثه باللغتين العربية والإنجليزية لا تزيد كلماته على مائتي كلمة، ويتضمن الملخص موضوع البحث وأهدافه، ومنهجه، وأهم التوصيات، والكلمات المفتاحية.

٦- رومنة المصادر والمراجع.

ثالثاً: ما يشترط عند تقديم البحث:

- ١- يقدم الباحث طلباً بنشره، وإقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كله، والتزاماً بعدم نشر بحثه المقدم إلا بعد موافقة هيئة التحرير.
- ٢- يقدم الباحثُ نسختين من بحثه على النحو التالي:
 - نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (WORD).
 - نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (PDF)
- ٣- يرفق الباحث ترجمة الملخص باللغة الإنجليزية.
- ٤- يرسل الباحث بحثه مع الملخصات إلى منصة مجلة الجمعية:
(<https://imamjournals.org/index.php/josaa/index>)

رحلة ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ):

دراسة بيئية

د. محمد بن عبدالله المشهوري

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية اللغة العربية - قسم الأدب

والبلاغة والنقد

الملخص:

رحلة ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ): دراسة بيئية

دخل مؤخراً النقد البيئي حقل الدراسات الأدبية، ويهتم بالبيئة ومكوناتها في النتاج الأدبي، وبما يحدث فيها من تأثيرات التطور الإيجابي أو انتكاسات الأذى السلبي. وقد نشأ الوعي البيئي مع تطور الصناعة الذي اشتد ساعدها بالآلة فنشأ الخوف من قوتها التدميرية.

وقد تماسك المتلقي العربي، وحاول الخروج من حالة قلق المصطلح إلى الاستقرار، بتثبيت الأطر العامة للنقد البيئي، والإفادة من الخلافات الاصطلاحية والتخالفات التطبيقية، لينشئ مساراً واضحاً يمكن الباحثين من العمل على ضوءه بأكبر قدر ممكن من الاتزان العلمي والبحث المنهجي.

وتتناول الدراسة رحلة ابن بطوطة من وجهة نظر النقد البيئي، وما أفرزه من أدوات، فتبين مقدار ما في الرحلة من وجود بيئي؛ فالإنسان والمكان والزمان لهم فاعليتهم وأثرهم الممتد، فظهر الحديث عن: التلوث، والأمراض، والعمارة، والقوانين، فتحوّلت في بعض منعطفاتها إلى وثيقة علمية وفق ما يتعاطى معه الموقف. فالتوثيق من أبرز وظائف سردية الرحلة التي تأخذك إلى عمق أغور من مجرد قولٍ واصفٍ؛ لتبني فضاء ثقافياً خاصاً بها ينطلق من طبيعة جنسها الأدبي.

الكلمات المفتاحية:

ابن بطوطة، النقد البيئي، الرحلة، الاستدامة، القانون البيئي، الدراسات الخضراء.

Abstract:

Ibn Battuta's Journey (703-779 AH): An Ecocritical Study

Recently, eco-criticism has entered the field of literary studies, Environmental awareness arose with industrialization, which intensified with technological advancements, leading to fears of its destructive power.

The Arab recipient has solidified and attempted to move from a state of terminological anxiety to stability by establishing the general frameworks of eco-criticism, benefiting from terminological differences and practical divergences, to create a clear path that enables researchers to work with the utmost scientific balance and methodological research.

The study examines Ibn Battuta's journey from the perspective of eco-criticism and the tools it has produced. It reveals the extent of the environmental presence in the journey: humans, places, and times have their effectiveness and extended impact. Discussions emerged about pollution, diseases, architecture, and laws, some of which have turned into scientific documents according to the context. Documentation is one of the prominent narrative functions of the journey, taking you deep into more than mere descriptive statements, to build a cultural space rooted in its literary nature.

Key Words:

Ibn Battuta, Ecocriticism, The journey, Sustainability, Environmental law, Green studies

مقدمة:

من دلائل حياة النقد الأدبي ودراساته البحثية تجدد انبعاثه من منهج إلى آخر، وتحولاته العلمية المتغيرة، فيغدو كائناً حياً يتشكل في كل طور زمني وفق معطيات مرحلته ومكونات عصره. وهذا يجعل الدراسات النقدية تمر بمراحل تصنف ذاتها بما تمتلكه من صفات وخصائص، تمكن الراصد لها من معرفة ملامحها العامة وتفاصيلها الخاصة.

والدراسة البيئية للأدب مما دخل مؤخراً إلى حقل الدراسات النقدية، وتهتم بالبيئة وعناصرها، وبما أوجده التفاعل البشري مع محيطه بالإيجاب أو السلب، فتهدف إلى تنميتها والحفاظ عليها من اعتداء الإنسان غير المبالي الذي يفوق أخذه منها ما يعطيه لها، محدثاً عدداً من المشكلات التي تحجب نفعية الاستدامة.

وتتناول الدراسة برؤية بيئية رحلة ابن بطوطة التي تعد من أشهر الرحلات في النثر العربي القديم، بل تتجاوز شهرتها حدود وعاء الثقافة العربية إلى أبعد منها، بأن أضحت من الأدب العالمي الذي اخترق الآفاق بالترجمة، فبات اسم ابن بطوطة من الأسماء العربية اللامعة خارج إطار ثقافتها، فهو يجاور برحلته امتداد حكايات ألف ليلة وليلة في ميزان ما يعرفه الآخر عن العرب من غيرهم.

ومن الأهداف الكبرى لدراسة الرحلة بالطرح البيئي: الكشف عن مكونات البيئة، وعن التفاعل الإنساني معها من خلال مشاهدات ابن بطوطة ووصفه وتعليقاته؛ فما كتبه ليس مجرد وصف أصم، إنه يمتلك عقلية بصيرة تبدي رأياً وحكمة ونقداً، بعقد المقارنات وإصدار الأحكام. بالإضافة إلى مقارنة الأدب العربي القديم وتقريبه من التفاعل مع طرح النقد الجديد، ثم ملاحظة مقدار التفاعل معه وصلاحيته، وأخيراً الخروج بعدد من نتائج الطرح الذي له أدواته الخاصة به، ولا سيما مع شح الدراسات البيئية للسرد العربي عموماً.

أما منهج الدراسة: فالنقد البيئي وأدواته، بما يحمل من انفتاح على عدد من المعارف والعلوم؛ لتقاطعه مع تخصصات أخرى تبني رؤاه، وتعزز أدواته، وتعمق أطروحته، فيروح شكلاً من أشكال النقد الثقافى للنصوص الأدبية التي يتعاطى معها الناقد.

وقامت الدراسة على مقدمة وتمهيد ومباحث ثلاثة: البيئة والمكون، فالبيئة والحيث، ثم البيئة والقانون، فخاتمة، ومسرد بقائمة المصادر والمراجع.

تمهيد:

أولاً: ابن بطوطة ورحلته:

ابن بطوطة شخصية غير منكرة في ثقافتنا، التصقت بالأدب، فلا يكاد الاسم يُنطق حتى تستدعي الذهنية العربية للتراث مفردة "رحلة"، فأضحت الرحلة من لوازم التعريف به. وبالمقابل في علاقة تبادلية، غاب عنوان الكتاب الأساس، فاقترن المكتوب باسم صاحبه. فانعقد في التلقي حينئذ مكونان: يتكئ الأول على نوع الجنس الأدبي المحرر، والثاني دال على فاعله. فيعيد الذهن نسج عنوان الكتاب ليكون "رحلة ابن بطوطة".

وهو: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي -نسبة إلى لواته إحدى قبائل البربر- الطنجي، رحالة ومؤرخ، وُلد بطنجة في السابع عشر من رجب عام ٧٠٣هـ في عائلة اشتهرت بالقضاء، وقد كان مهياً لذلك حتى قرر الخروج إلى الحج في الثاني من رجب عام ٧٢٥هـ، فتاقت روحه إلى الأسفار في رحلته الطويلة حتى وصله أمر العودة إلى فاس من السلطان أبي عنان فارس المريني عام ٧٥٤هـ، الذي أوكل لاحقاً تدوين الرحلة وتوثيقها لكاتبه الأديب الفقيه: محمد بن محمد بن جزي الكلي، ثم تلاشى ذكره عقب إتمام رحلته وتوليه القضاء في نواحي المغرب إلى أن توفى سنة ٧٧٩هـ.^(١)

أما الرحلة الموسومة بـ (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، فهي توثيق لمشاهداته منذ خروجه من بلاده في المغرب الأقصى إلى المشرق العربي تجاه مكة المكرمة، ثم تقلبه في البلاد بعدها. وهي في مسار فردي مرة، وأخرى بمسارات متعددة؛ فما كان يُفضل العودة من الطريق الذي ذهب منه إلا ما اضطر إليه مثل تعذر عبور البحر الأحمر؛ لاضطراب المنطقة حينها بحروب المماليك، وذا مكن من توسيع رقعة مشاهداته.

ولنفاسة الرحلة تاريخياً تُسمى جمعية كمبردج (Cambridge) في كتبها وأطالسها ابن بطوطة بأمير الرحالين المسلمين (Prince of moslems travellers). ومن صور الأهمية -مثلاً- في الأدب المقارن أن رحلته تتقاطع مع رحلة الإيطالي ماركو بولو (Marco Polo) على نحو دفع الباحثين لعقد الصلات بينهما دراسةً وموازنة.^(٢) وعلى كل، فهي آخر رحلة وافية وصلتنا قام بها رحالة

(١) انظر:

- أسماء أبو بكر، ابن بطوطة، الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٤٧.
- إغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوف فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان بن هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٦٣م، ٤٢١/١.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) انظر:

- أسماء أبو بكر، ابن بطوطة، الرجل والرحلة، ص٥٤.
- إغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوف فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٤٢١-٤٢٥.
- عبد الجبار السامرائي، رحلة ابن بطوطة، المورد، مج١٨، العدد٤، ١٩٨٦، ص٨٢-٩٦.
- عبد الرحيم العماري، خطاب الرحلة بين ابن بطوطة وماركو بولو: مقارنة إثوسيميائية مقارنة، ندوة ملتقيات ابن بطوطة للتواصل بين الثقافات، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة-جامعة عبدالمالك السعدي، طنجة، ١٩٩٣م، ص١٥١-٢٨٥.

مسلم، اجتهد في الوصف والتوثيق وذكر المشاهدات والأخبار، منذ فراقه لطنجة، فاخترقه المشرق العربي، ووصولاً إلى بلاد الهند والصين، ثم عودته مجدداً عقب سنوات طوال.

ثانياً: النقد البيئي والرحلة:

تستمر نظريات ما بعد الحداثة في النمو والتطور واستحداث ما لم يكن موجوداً من قبل، من ذلك بزوغ النقد البيئي أواخر القرن العشرين. ويهتم بالبيئة وقضاياها، والعلاقة بين الإنسان والبيئة، ومن ثم تتبّع مقدار التأثير والتأثير بينهما سلباً وإيجاباً. وأول من استعمل النقد البيئي بهذا الفهم هو ويليام روكيرت (William Rueckert) في مقالته "الأدب والبيئة: تجربة في النقد البيئي" سنة ١٩٧٨م.^(١)

وفي لجة نقاش تعريب مصطلح (Ecocriticism) بالنقد البيئي، يأتي بقوة ما يُسمى النقد الإيكولوجي (Environmental) الذي يُعرَّب في أحيان كثيرة بالنقد البيئي. وهكذا، لدينا تعريبان متوافقان لمصطلح واحد، ثم تعريب ينفرد بأحدهما! وهذا الاختلاف النابع من المصدر انتقل إلى اللغة العربية بوصفها اللغة المضيفة، فلم تسلم هي أيضاً من تداخلاتهما؛ وسبب الاختلاف بين المصطلحين: افتراق رؤية باحثها المتبني لها ومنهجيته عن غيره، بما يتواءم مع نظريته العلمية وأسسها البحثية التي ينطلق منها. فاخترت غلوتفلي (Glottfelty) مصطلح (Ecocriticism) واصطفى بويل (Buell) مصطلح (Environmental)؛ لاعتبارات علمية تخصهما^(٢). وليس عند هذا الحد فقط يقف الاختلاف؛ فهناك مصطلحات أخرى نازعت؛ للتعبير عن مسار النقد البيئي عاملةً بأدواته، حتى باتت علامة له خارج حدود المصطلح المتعارف عليه، من مثل: الدراسات الخضراء (Green studies)، والدراسات الثقافية الخضراء (Green cultural studies)، وعلم البيئة^(٣) (Ecopoetics)، والنقد البيئي الأدبي (Environmental literary criticism).

وبمطالعة الدراسات العربية النقدية في هذا الحقل الجديد عليها نسبياً، تبين أنها تستعمل عبارتي النقد البيئي والنقد الإيكولوجي بوصفهما مرادفين عربيين لمصطلح: (Ecocriticism)، وذا ليس موقفاً قلقاً من النقد العربي في التلقي؛ فحتى غلوتفلي وبويل لم يكونا صارمين في الانحياز لاختيار أحدهما.^(٤)

وعليه، يمكن إيجاد تعريف شامل يجمع الآراء حول النقد البيئي/الإيكولوجي بأنه: "دراسة الطبيعة أو الأشياء الطبيعية في الأدب؛ إنه أيّ نظرية ملتزمة بإحداث التغيير، عن طريق تحليل الوظيفة الموضوعية أو الفنية أو الاجتماعية أو التاريخية أو الأيديولوجية أو النظرية، أو غير

(١) أبو المعاطي الرمادي، معجب العدواني، النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، وحدة السرديات - جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ٢٠٢٢م، ص١٣.

(٢) انظر: السابق، ص٦٢.

(٣) هناك من عربها بالشعرية/البوطيقا البيئية. انظر: جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، دار النايفة، القاهرة، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص٢٧٠.

(٤) انظر: أبو المعاطي الرمادي، معجب العدواني، النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، ص٦٦-٦٨.

ذلك للبيئة الطبيعية، أو ملامح منها في الوثائق الأدبية أو غيرها، ويكون ذلك بالكشف عن الممارسات المادية في عوالم البيئة".^(١)

وامتداداً للحديث عن البيئة والأدب، فإن الأدب العربي شعراً، ولا سيما القديم منه، لا ينفك عن الطبيعة، فتمثّل محيطه ومثله على نحو واضح ملموس، حتى بات من بارد النقد قول: "إن الشاعر ابن بيئته". أما النتاج السردي، ففي ظني: إن الرحلة من أهم الأجناس الأدبية التي اعتنت بالبيئة في تضاعيفها؛ فهي جنس يجذب فيه الرحالة نحو الواقع أكثر من التخيل؛ لمشقة الارتحال التي تدركه، وتقلبه النظر في البلاد، وإرهافه السمع للأصوات، ثم تغذيه في الطريق على ما يقوي به عزمه، فيعطي حينئذ انطباعاً لصيقاً بالبيئة ينبع من ذهنيته، فتستوي تجربته قولاً مكتوباً، فيحدث التمازج بين الإنسان والرحلة والبيئة والطبيعة، فالتأم النقد البيئي الأدبي بالرحلة في الطرح - على الأقل في هذه الدراسة - من خلال شبكة رحلية متقاطعة من علاقات ابن بطوطة وتعليقاته.

المبحث الأول: البيئة والمكون:

إن البيئة وعاء يجمع عدداً من المكونات في إطار واحد، فيمكن ملاحظتها وتعبّر ما فيها من فاعلين مؤثرين في محيطها أو متأثرين. ويذهب التفكير أحياناً إلى أن البيئة هي الأرض وحدها منغزلة عن السماء أو العكس، إلا أنها تتخطى هذا الفهم المحدود لموروثات ثقافية اجتماعية أو منقوصات الفهم العلمي لدلالة كلمة "بيئة"؛ فالإنسان الذي يصنّف الأشياء ويقسم الأنواع ينسى اللحظة أنه منها أيضاً!

ولا غرو، فمتى انشغل العقل بالأعمال المغرقة في العلمية، مع منح نفسه الامتيازات العالية على بقية الأجناس الطبيعية من المخلوقات، يفوته أنه مجرد جزء من هذه المنظومة الضخمة، ولذا فالحاجة ملحة "إلى إعادة تقييم مفهوم الإنسان، ومعنى الثقافة الأدبية في علاقتها بما يُطلق عليه العالم الطبيعي، ذلك العالم الذي تُعد الثقافة الأدبية جزءاً منه"^(٢).

والنظر في البيئة يحتاج إلى الاقتراب منها، والتدقيق فيها، وفرز مكوناتها؛ حتى تمكّننا من فحصها على نحو عادل ينحّي قليلاً عن الجنس البشري صفة الامتياز، بل نُظّمه مع بقية مكونات محيطه في سلك واحد مع توصيف دوره في دورتها، وذلك كما يلي:

أولاً: البيئة والإنسان:

الإنسان طرفٌ في معادلة البيئة، وغالباً ما يكون مداراً لشبهة تخريبها كما تحكّم بتعجّل منظمات حماية البيئة؛ فالإنسان يمر بمراحل عمرية متفاوتة، وأذكر هو أم أنثى؟ فهل الجميع يُتهم؟! ومما يلفت في التراث الأدبي بنظر النقد البيئي الاحتفاء بمرحلة الإنسان العمرية وجنسه البيولوجي (Biological Sex)، ولا سيما عند الحديث عن أثر فعله في محيطه؛ فمجال

(١) أبو المعاطي الرمادي، معجب العدوان، النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، ص ١٤.

(٢) لويس ويسلنج، الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان، ترجمة: عبدالرحمن طعمة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، شتاء ٢٠١٨م، ص ٢٦٨.

"الإيكولوجيا البشرية (Human Ecology) [...] تهتم بالتفاعل بين الإنسان وبيئته بجوانبها المتعددة الثابتة والمتغيرة".^(١) ورحلة ابن بطوطة تضمنت مادة بيئية ملحوظة احتفت بتراتبية واضحة للإنسان:

١- الإنسان الرجل:

الرجل بين الأثر في البيئة؛ فهو المسؤول منذ عهد قديم عن الصيد، ونحت الكهوف، وبدخول فكرة الزراعة على العقل البشري تولى الرجل زمام أمورهما مع مهمة تدجين الحيوانات. ويستمر التسلسل الزمني والحضاري، ومعهما تستجد وسائل وتخبو أخرى، والرجل يكافح للتكيف؛ تأميناً لنفسه القوت مع أسرته وفق ما يتاح له في بيئته.

والحديث عنه يأتي في رأس الهرم لا لأفضلية جندرية؛ إنما لأفضلية بيولوجية ميزته بالقوة الجسدية، والصلابة النفسية؛ فشق الجبل سكناً، وقلع الحجارة بناءً، وحرث الأرض زراعةً، وقتل الحيوان صيداً، مما لا يقوى عليه إلا الرجل، وخصوصاً في الزمن القديم الذي يخلو من الآلات والأدوات، وهذا يفسر بأن صورة الرجل اقترنت على نحو شديد بالثقافة اللامادية والعقلانية المجردة^(٢).

ومن مشاهد بأس الرجال التي يحتفي بوصفها ابن بطوطة، فمن مثل: "وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو، [...] وهو لا يأتين أهل شيراز على نفسه، ولا يستخدمهم ولا يقربهم، ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح؛ لأنهم أهل نجدة وبأس شديد وجرأة على الملوك، [...] فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز، وتقضيل الأصفهانين عليهم؛ لأنه يخافهم على نفسه"^(٣). ووجه اتصال الشاهد هنا بالبيئة، فمن حيث حدوث الأثر الذي يلحق بالبيئة وقت اشتعال الحروب، وتطاحن الصراعات، وما تخلّفه من دمار؛ فالحروب من أبرز أدوات هدم البيئة، حيث إنها تُدخلها مرحلة سيئة تحتاج فيه إلى وقت طويل لاستعادة ما فقدته.

إن تعاطي الرجل مع البيئة في الرحلة يبرز في صورة تسخيرها للخدمة، وكلما زادت مكانته وازدادت إمكانياته ظهرت قوة التسخير على نحو أكبر، فهنا أحد السلاطين يستعين بالرجال لترويض حيوان ضخم/الفيل حتى يكون في خدمته، ويخضع لأمره وزجره، في صورة لا تخلو من طرافة، ففكرة تدجين الحيوانات وتطويعها مؤتمرة بأمر البشر مما فيه تفاوت بين الشعوب والأعراق. وقد تنبه له ابن بطوطة في رحلته، فوقفه على الغرائب تفقّد للقدرات المتناوبة بين البيئة وساكنيها، يقول عن مثله: "على ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة

(١) فاروق عبدالجواد شويشة، الجغرافيا الأنثروبولوجية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط.)، (د.ت.)، ص ٩.

(٢) انظر:

- بسمه عروس، النقد الإيكولوجي ومستقبل الدرس الأدبي، مجلة حوارات فكرية، اتحاد الكتاب التونسيين، العدد ٣، أبريل ٢٠٢٢م، ص ١٩٥.

- جرج جرارد، النقد البيئي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، مراجعة: أحمد خريس، دار كلمة، أبو ظبي، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٢٧.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (سلسلة تراث)، الرباط، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٤١/٢-٤٢.

وأكثر من ذلك ودونه، على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه، ويكون في أركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة، وتلك الفيلة مُعلّمة أن تخدم السلطان وتحط رؤوسها، فإذا خدمت، قال الحجاب: بسم الله، بأصوات عالية، ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتي الناس المعيّنين للوقوف في الميمنة والميسرة يخدم عند موقف الحجاب، ويقول الحجاب، بسم الله، ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم، فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه أبداً".^(١)

ويمتد حضور التلاحم بين البيئة والرجل ما يُعطي انطباعاً عن مكان سكناه المختار، فسفح الجبل -مثلاً- من الأماكن التي ترتبط عند الرحالة باللصوص والخوف منهم، فهو صاد عن التمدن أو الحياة الطبيعية، وقريب من فكرة التشكك التي تستدعي الحذر. وفي الجبل مظاهر القوة والمنعة التي توحى بالصلابة، فالبيئة يختلف الشعور تجاهها والانطباع عنها وفق المخيال الجمعي لثقافة ما وزمنها، وإذ وافقت تأويلات الجبل السالفة ذهنية ابن بطوطة، فقد حثته على التنبه والحذر والشك، بناءً على ما يجده في بيئة كل مرحلة يقطعها من رحلته، يقول: "وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك، فخفت أن يكونوا لصوصاً وقلتُ التستّر أولى، وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك، فخرجتُ عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أمّ غيلان، وقد أعيبت وأدركني الجهد، لكنني أظهرت قوةً وتجلداً خوف الدليل، وأما صاحبي فمريض لا قوة له، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي، وأمستُ الرمح بيدي، وردد صاحبي، وردد الدليل، وبقيت ساهراً، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أنني مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح".^(٢)

وإن عرك الرجل الجبال وسكن سفوحها وتغرب فيها إذا دعت الحاجة، فإن الصحراء لا تقل عن ذلك، وهي تلك المفاوز التي تُخشى منذ زمن العربي الأول، فالمخاطر محدقة بها من فقدان للطريق، أو نفاذ للماء، أو انقضاء للزاد، وإن نجى سالكها من شرستها، فإنه قد لا يسلم من لصوصها وقطاع طرقها. وهذا من مفارقات الصحراء في السردية العربية، إذ مجتازها طالب للعيش، وقاطع الطريق في كنفاتها من الرجل الآخر يفسد تلك الغاية طلباً للعيش أيضاً، فالآخر/اللص يخلق من الصحراء فخاً يصطاد به العابرين والقوافل، وحق لابن بطوطة التحوط، فأنت تراه بين حدس وجودهم إن لم يرههم كما في سفح الجبل، والتعرف على أماكن وجودهم والإشارة إليهم في صحاريهم إذا تيقن، يقول: "ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال، فلما عدنا البحر أكثرنا دواب من التركمان، وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق، وفيها صحراء مسيرة أربع ويقطع بها لصوص الأعراب".^(٣)

انشد التحليل فيما مضى أكثر إلى المظاهر السلبية للإنسان الرجل، إلا أنه في المقابل يحضر في جانب إيجابي بمشاركته في إحياء طقوس الموت بوصفه فاعلاً للمراسم، فيقتطع من البيئة ما يجعله مندمجاً بها حتى يغيب فيها. والاقطاع من الأشجار يتطلب القوة المنجزة للعمل، فالرجل

(١) السابق، ١٥٥/٣.

(٢) السابق، ١٣٥/٢.

(٣) السابق، ١٤٤/٢.

في النموذج التالي قام بأمرين: الأول: فعل القطع والقطف، والثاني: فعل الحمل والرفع. وكلاهما يعبران عن الشدة وإقامة الحدث، فالميت يحمله الرجال، ويحيط بهم آخرون يحملون أجزاء من البيئة. والمشهد يدفع إلى التأمل: "وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت إلى الناس، وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة، وأشار إليّ أحد القضاة أن أنحط إلى جانبه، فلم أفعل، وحينئذ استشعرت أنه السلطان! [...] ثم جيء بالجنائز وهي بين أشجار الأترج والليمون والنانج، وقد ملؤوا أغصانها بثمارها والأشجار بأيدي الرجال، فكأن الجنائز تمشي في بستان، والمشاعل في رماح طوال بين يديها، والشمع كذلك، فصلى عليها، وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك"^(١).

إذن، يحتفي ابن بطوطة بالرجل في البيئة من جهتين الأولى: المظاهر الغريبة من طقوس وعادات، والثانية: من أثر اللصوص والخوف منهم. ويبدو هذا الملمح مقبولاً إلى حد كبير؛ فالرحلة رواها بعد عودته إلى بلاده وألصق ما يبقى في الذهن بعد الإياب الحوادث الغريبة والمخاوف المؤرقة، لذلك نراه يعرض قصة مزارع بوصفه قاتلاً لا فلاحاً: "وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدا الإعياء، فقصدت حرثاً رأته يحرق الأرض، فطلبت منه ما تأكله فأعطاهم كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم، وكانت في زي الرجال، فلما نامت نظر إليها الحرث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً، فعلم أنها امرأة فقتلها، وسلبها وطردها ودفنها في فدانه"^(٢).

٢- الإنسان المرأة:

تأتي المرأة في الرحلة بوصفها جنساً بيولوجياً^(٣)، وارتباطها أقل سلبية من الرجل إذا ما قيست عموماً ببنفيتها للبيئة، والحفاظ عليها. وعمل المرأة يجاوز حدود المنزل، وفق ظروف عيشها التي تدفعها إلى ذلك، فتضطر معها -مثلاً- إلى مزاوله مهنة بيع أشياء من البيئة تناسب طبيعتها، وينسجم مع محيطها، فتكون علامة للسالكين ومحطة للتزود، إنها تبعث على اطمئنان المسافرين في القوافل؛ لانتفاء شبهة اللصوصية عنها وقطع الطرق، وبعيدة عن الشك النابع من الأرض التي تسكنها؛ فهي بجوار القرى والمساكن، وهذا من التناظر بين الرجل والمرأة عند ابن بطوطة في رحلته: "والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً، إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت، وهو بخورهم، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق، والأرز والفوني، وهو كحب الخردل، يصنع منه الكسكسو، والعصيدة، ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك"^(٤).

وفي جانب نقل مهارات التربية إلى البيئة للإنتاج منها، فإن من لوازم تربية المرأة لبناتها في ذلك العصر -على الأقل- جدل شعر فتياتها، وضمه تجميلاً لهن وتهذيباً، فتستطيل بذلك

(١) السابق، ٢/٢٧.

(٢) السابق، ٣/١٢٣.

(٣) أما جندياً فله موضعه من الدراسة.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٤/٢٤٨-٢٤٩.

مهارتها اليدوية لإنتاج بضاعة يمكن الإفادة منها والانتفاع بها، فكأنما الجدل للشعر ينتقل بفضل البيئة من الجمالية إلى النفعية؛ للعيش والاقتيات. ومنه غزل الليف الذي يتحول بحبكه إلى حبال: "وهو ليف جوز النَّارجيل، وهم يدبغونه في حفر على الساحل، ثم يضربونه بالمرابز، ثم يغزله النساء، وتصنع منه الحبال لخيطة المراكب، وتحمل إلى الصين والهند واليمن، وهو خير من القنب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن".^(١)

وهنا يُبدي السياق أن المرأة فاعلة بالعمل منتجة للأدوات والمواد، واستطاعت أن تبني بإتقانها سمعة رائجة تشبه كثيراً اليوم العلامة التجارية إلى الحد الذي يدفع للمقارنة بين منتج وآخر في صناعة الحبال. وتطويع المرأة للبيئة بنقل سلوكها الاجتماعي، المتوضع في التريبة/(جدل الشعر) إلى السلوك الاقتصادي المتشكّل في غزل الليف/(حياكة الحبال)-يعطي فكرة عامة عن مراعاة المرأة للتفاصيل، ودقتها في العمل مع لمسة جمالية فيه؛ فالمقايسة بين ضفيرة الشعر والحبال أن كليهما لا يقبلان الارتخاء في الشد والنفش في البرم، فيتحقق الاستحكام والحسن.

إن المرأة تعمل وتنتج، ولا تتس نفسها بأن يكون ما بين يديها من البيئة نافعاً لجمالها، ففي الحديث عن ثمرة الجوز واستخراج ما فيها ثم الإفادة منها حديث يشير إلى هذا، وما ذاك إلا أن المرأة أكثر دراية من غيرها بما تعرفه من حاجات لتغذية ما يتطلبه الاهتمام بجسدها أو شعرها، فمع إنجاز أعمالها تهتم بما يتمم الحفاظ على حسناتها: "وأما كيفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شبه الكرسيّ تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصا في أحد طرفيها حديدة مشرفة، فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة، ويجرشون ما في باطن الجوزة، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحيفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء، ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضاً ويكون طعمه كطعم الحليب، ويأتمم به الناس، وأما كيفية صنع الزيت فإنهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره، فيزيلون قشره ويقطعون قطعاً ويجعل في الشمس، فإذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيتاً وبه يستصبحون ويأتممون به، ويجعله النساء في شعورهنّ وهو عظيم النفع".^(٢)

وتحرص المرأة في بعض البيئات على التطيب من أدهان الطبيعة كالصندل بوصفه استعداداً طقوسياً للإقدام على الانتحار حرقاً؛ لكيلا تقع جارية في يد الأعداء، وفي هذا الملمح يظهر مقدار التمازج بين النار والجسد وعطر الصندل، إنها ترى في احتراقها منقبةً حسنة تشعلها النار، فتفوح رائحة الفضيلة في المكان، فلا يقدر عليها العدو، إنها رؤية عميقة لمزج الطبيعة بمبدأ حريتها ولا أن تكون مملوكة لآخرين، ولا سيما إذا كانت من طبقة عالية تأنف من البقاء بعد زوجها وبيت كرامتها متحوّلةً إلى منزلة تنزع عنها ذلك: "فكانت المرأة منهنّ تغتسل وتدّهنّ بالصندل المقاصريّ، وتقبل الأرض بين يديه وترمي بنفسها في النار حتى هلكن جميعاً، وفعل مثل ذلك نساء أمراءه ووزرائه وأرباب دولته، ومن أراد من سائر النساء".^(٣)

(١) السابق، ٤/٦٠.

(٢) السابق، ٢/١٢٩.

(٣) السابق، ٣/٢٠١.

وفي الرحلة ما يعبر عن تغني المرأة بالبيئة، وتعداد محاسنها، ففيها أبياتٌ شعرية تضمنت ذا المبدأ، فهي أكثر تعلقاً من الرجل بالطبيعة وأعمق تجذراً؛ لطبيعتها التي تأنس بالأرض والأهل خلاف الرجل الذي يمارس التنقل والسفر والغربة؛ طلباً للقامة العيش أو التجارة، وعلى سبيل الذكرى والتذكّر لبعض "نساء بغداد في ذكرها"^(١):

آهاً على بغدادها وعراقها	وظبائها والسحرفي أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه	تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنماً	خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسى الفداء لها، فأى محاسن	في الدهر تشرق من سنا إشراقها" ^(٢)

وقد يصل الحال بالمرأة أن ترفض الزواج المشروط بالارتحال، أو الطلاق ممن له رغبة في ترك البلاد، وهذا السلوك المتشبه بالبيئة المعاشة هو إيثار للبيئة على النفس ونفقة الولد أحياناً، وربما هذا التعلق من قبيل الخوف من خوض تجربة جديدة، أو قلق من انعدام محيط أفضل وتركه لما هو دون ذلك، وهنا نوع من اختلاف الإدراك البيئي والخيالي للبيئة بين الرجل والمرأة^(٣)، وهذا من أبرز مظاهر المرأة مع البيئة وأكثرها طلباً للتأمل، ففي طرف من الرحلة: أن النساء "للغريب عندهن مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها، وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ولو أُعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج عن بلدها لم تفعل"^(٤).

٣- الإنسان الطفل:

الطفل في بيئة الرحلة غلب عليه البؤس، لكونه فريسة للسباع واللصوص والمرضى، أو الأسر أحياناً. فأعطى انطباعاً مخالفاً عما يمكن أن يكون عليه؛ فمرحلة الصبا مرتبطة باللهو واللعب، ولذا تحيل دراسات البيئة على الوصف بالطفولة لكل من شأنه الاهتمام بالطبيعة والبيئة أياً كان عمره بقولها: "الافتتان الطفولي"^(٥) ولا يعني هذا غياب النمط الإيجابي غير أنه قليل أو على الأقل عكس المتوقع من الرحلة؛ فالبيئة إذا دخلت مع الطفل في معادلة التلقي؛ فإن فرضية مطاردة الحيوانات والطيور واللعب بالماء أو القفز تحت المطر تكون موجودة. ويمكن وصف علاقة الطفل بما حوله بأنها علاقة عاطفية صرفة بريئة من الشر غالباً "فالعاطفة المتبادلة بين الإنسان والحيوان حقيقية بالتأكيد"^(٦).

(١) نسبها المقري صاحب النفع إلى قمر البغدادية، من النساء الداخلات إلى الأندلس، جارية لإبراهيم بن حجاج اللخمي. انظر: المقري، نفع الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ١٤٠/٣-١٤١.

(٢) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٦٠/٢.

(٣) انظر: لورنس بويل، وآخرون، النقد البيئي بين التطوير والتطبيق، ترجمة: معتز سلامة، دار الناغبة، القاهرة، ط١، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، ص١٣٠.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٠٥/٢.

(٥) نجاح الجبيلي (إعداد وترجمة)، النقد البيئي: مقدمات مقاربات تطبيقات، دار شهرير، العراق، ط١، ٢٠٢١م، ص٣٠٢.

(٦) فردريك كابلن، جورج شابوتيه، الإنسان والحيوان والآلة: إعادة تعريف مستمرة للطبيعة الإنسانية، ترجمة: ميشيل نشأت شفيق حنا، هنداوي للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م، ص٧٦.

ومما تبدى من أمارات بؤس الطفل في الرحلة عول نفسه، من ذلك: "أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبيرى وصغرى، وهم يسمون القفة مَكْتَلًا، فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك للصبي، فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يُذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجره معلومة من فلوس".^(١)

إن البراءة المرتبطة بالطفل ولا سيما اليتيم الذي تحفه مشاعر الشفقة، بدت متساوقة في العمل الموكل إليهم من طبخ اللحم والخضار لزوار الحرم المكي، فهم جزء من مشهد كبير للأمان المعهود عن المكان، أو على الأقل ما يغلب الظن عليه بعدم انتهاك ما عُرف عنه، فلا شيء يمنع الصغير من الهرب بكومة الخضار وقطعة اللحم، وخصوصاً أنه يتيم، فلا أب له أو مسؤول عنه يعاقبه على فعلته، ومن جهة أخرى التزام الطفل ذكاً منه؛ لضمان ديمومة كسب الرزق.

والعيش والكسب ليسا كافيين دائماً للبقاء على قيد الحياة، فمخاطر البيئة على الطفل أشد من غيره؛ لصغر بدنه، وقلة مناعته. وفي ديار تكدأ ببلاد السودان للخوف على الصغار شهرة واسعة، حتى بات القلق يؤرقهم؛ فهي "كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبياً لم يبلغ، وأما الرجال فقلماً تقتلهم، ولقد لدغت يوماً [...]"، ولداً للشيخ سعيد ابن علي عند الصبح فمات لحينه".^(٢)

وإذا كانت العقارب تدس السم في الجسد فيموت الصغير منه، فإنه أيضاً يكون فريسة للسباع، فتغذى عليه. والافتراس لا يكون إلا بتخطيط واعتياد لفعله. والطفل الآن في ميزان السباع طريدة تعادل أي حيوان يمكن قتله، والفكرة مخيفة؛ فالتوحش الجريء من الحيوانات لقتل الإنسان بدخول المنازل مؤذ بمجرد التفكير فيه، وخاصةً إذا كان المخشي عليه طفلاً صغيراً: "ثم رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برّون [...]"، مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار، أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة، [...] وأخبرني محمد التوفيري من أهلها، وكان جاراً لي بها أنه دخل [السبع] داره ليلاً وافترس صبياً من فوق السرير".^(٣)

وتسلل الحيوان لافتراس الطفل غيلةً بين البشر يفهم منه في حد الأدنى أنه من وجوه صراع البقاء، غير أن الغيلة الأخطر من البشر أنفسهم متى أمكنهم ذلك عندما يرونه غنيمه، فبتحسر يروي ابن بطوطة خبر صبي رآه في الصحراء: "رأيتُ بهذه الفلاة صبياً من العرب كلمني باللسان العربي، وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً، إنما يقتات بلبن الإبل".^(٤)

وشتان بين هذا الفعل وأن يكون للصغير المملوك وقفاً يحجب عنه بطش سيده إذا ما أخطأ أو زل: "مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيتُ به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٨٧/١.

(٢) السابق، ٢٧٤/٤.

(٣) السابق، ١٩/٤.

(٤) السابق، ١٥٩/٢.

الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفق له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال؛ فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا" (١).

والحلقة الأضعف في البيئة الطفل؛ فلا هو يعمرها ولا يُنتج منها؛ فمرحلته العمرية تميل به إلى العبث والمرح. وعلى نحو لافت نرى ابن بطوطة لم يهتم لتدوين مشاهد الطفل في رحلته؛ فالأطفال ممن لا يُنظر إليهم بأهمية في الأحداث، أو القلق من خطرهم. ويُلاحظ أنهم في الرحلة من الهامش الاجتماعي الذي لا يُذكر إلا ضمن جزء من السياق أو طرف منه، لا الأصل المتحدّث عنه، وأفترض أن طبقة الهامش الاجتماعية في الرحلة جديدة بالدراسة، وتتبع ذلك اجتماعياً وثقافياً سيفرد بحثاً جيداً.

ثانياً: البيئة والإنسان:

١- الحيوان والطير:

إطلاق الحديث عن البيئة يستدعي كل المخلوقات إلى الذهن عدا الإنسان، فينفرق الحضور البشري عن مضمونها ويتقهقر، كأنه لا علاقة له بالأمر بينما هو جزء منها. وربما هذا التبادر الأولي الذي ينتهي بتجريد الإنسان من الوجود البيئي، وتخصيصه لكل شيء حوله إلا هو، جاء من فكرة أنشأها عن نفسه بأنه الجنس الأسمى على الكرة الأرضية، وأن له من الصفات ما يؤهله أن يكون مستقلاً عنها، أو ربما لأنه يرى بقية مكونات البيئة تحت طوعه، فيسخرها لخدمته، ويكيّفها لمآربه بممارسته الوكالة الإنسانية (Human Agency)، وهي "قابلية البشر على الاختيار وفرضها في العالم" (٢).

إن معادلة البيئة في ذهنية الإنسان تنقلب موازينها إذا رأت ما يربك منطقتها، فتعيد الكثير من الحسابات التي خرجت معطياتها الأساس في التعامل إلى جادة الصواب؛ فما عاد الإنسان هو المتحكّم الأول أو المسيطر الوحيد، مع التيقظ إلى أن الاقتران بين العلم المادي البشري وغير البشري موضوعه نتاج ما بينهما من ترابطات (٣).

إن السردية العربية القديمة تُرسخ مكانة مقتني الأثر ومعه الخريت المتمرس الذي يقود نجاة القافلة قاطعاً المفازل لبلوغ الغايات، وإذا كانت الناقة الكريمة في هذا السياق لها النصيب الأكبر؛ للإعانة على مشروع قطع المفاوز، فإن الكلاب تُذكر بالتحقير في صورة النباح كما في قولهم: "القافلة تسير والكلاب تتبح". أما الكلب في رحلة ابن بطوطة فله شأن آخر، فقد بلغ رتبة

(١) السابق، ٢٣١/١.

(٢) نجاح الجبيلي (إعداد وترجمة)، النقد البيئي: مقدمات مقاربات تطبيقات، ص ٢٢٧.

(٣) انظر:

- جرج جرارد، النقد البيئي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، ص ١٧.

- مايكل برانش، النقد الإيكولوجي، ترجمة معين رومية، مجلة نوافذ، النادي الأدبي بجدة، العدد ٢٦، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٤٤.

أعلى، وبات الدليل والقائد، وصاحب الأمر، والإنسان لا يجرواً على الأكل قبله، أو إزعاجه بطرد وشتم، فأضحى السيد مسوداً.

وذا النوع من التواصل مع المخلوقات المرافقة للبشر يظهر "بصورة واضحة في أنماط معقدة من المحادثات المتبادلة، فنحن نعيش معها، وتشاركنا التعاون من أجل الطعام والعمل"^(١). ومن مثله ما في أرض الظلمة فالدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت. وهذا الكلب لا يضره صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف"^(٢).

وها هو الكلب الذي بُني له صورة نمطية جامدة في السردية العربية القديمة؛ رماً له بالتفاهة والتبعية والإزعاج، بينما غيره منشغل بالمسير النافع، يعود من نافذة الرحلة في سردية عربية متأخرة نوعاً ما؛ مقوضاً تلك الصورة، مستعيداً قيمته المسلوقة بسبب البيئة الصحراوية التي لا تعول عليه كثيراً للنجاة بالحياة كما في البيئة الضد/(الثلجية) التي أعادت له أهميته واحترامه والخوف من غضبه، فأوقفت البشرية على فكرة محك السيادة، فالارتحال المتناوب بين البيئات رضخ الإنسان المتعالي "غير الواعي" بأنه ضعيف محتاج إلى مخلوق يحترقه في بيئة مغايرة حتى ينجو، وهل يجرواً على شتم الكلب في الرحلة القطبية؟! فقبل أن يفعل ستراه يعيد التفكير في تراتبية أنواع الترابط نازعاً عنه العجرفة التي اكتسبها في بيئة ما تجاه مخلوقاتنا. وفي ظني: إن الانتصار للبيئة والانحياز لها في النقد البيئي لا ينحصر في تتبع مظاهر البيئة ومدى التفاعل فيها، إن من مهامه أيضاً تقصي السمعة الثقافية للأحكام المطلقة تجاه المحيط، واختبار ما يثبت منها أو يتغير إذا تحوّلت البيئات وتقلت.

ويتطور دور الحيوان في انتزاع أحييته بالحياة إذا دخل صراعاً مع الإنسان، فينحاز إلى الجانب الأقوى من المصلحة، ويهجم حتى يتمكن، وقد يصل إلى تحويل الإنسان لفريسة وإن كان ذاك الحيوان مما يستهان به في الظروف الطبيعية؛ لأن الغريزة تدفعه إلى البقاء حياً، فيخبر ابن بطوطة عن مثل هذا في قلعة الدوبقر التي "بها فيران ضخام أعظم من القطوط، والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها؛ لأنها تغلبها. ولا تصاد إلا بحيل تدار عليها، وقد رأيتها هنالك فعجبت منها. أخبرني الملك خطاب الأفغاني أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفييران، قال: فكانت تجتمع عليّ ليلاً لتأكلني فأقاتلها، وألقى من ذلك جهداً، ثم إنني رأيت في النوم قائلاً يقول لي: اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة، ويفرج الله عنك، قال: فقرأتها فلما أتممتها أخرجت"^(٣). في الخبر الرحلي الأنف يظهر أن القلعة المنعزلة محل للعقوبة، وتؤدي باقتدار الغرض منها، وتسميتها "جب الفييران" يذيع ذكرها بين الناس ويُسهر خبرها، ومن تحدّثه نفسه منهم بارتكاب جرم ما يعلم أن حتفه على يد هذه المخلوقات المثيرة للاشمئزاز، فلا مفر له منها وهي كذلك؛ إذ لا طعام لها إلا المسجون؛ لتناوبها عليه بالقرض حياً حتى يهلك.

(١) أ.فالسبي، وآخرون، في الثقافة والعرفان والتداول: مقارنة بينية، ترجمة: ثروت مرسي، عبد الرحمن طعمة، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م، ص ١٤٠.
(٢) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢/٢٣٦.
(٣) السابق، ٤/٢٤.

وفي الرحلة ذكر لحيوانات خطيرة يُتحوط منها، ومن ذلك عن موضع حُمَيْثراً: "وأرضها كثيرة الضباع، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع، ولقد قصدت رَحَلِي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به، فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه".^(١) والضبوع هنا ليس في مواجهة حتمية كالحال مع الفئران؛ لاختلاف محيط بيئة كل واحد منهما عن الآخر. فالحتمية نسبية، ومنها أن الحيوان يجد نفسه أحياناً في مواجهة مع عابث يود التسلية، دون تحسب يردعه أو فطنة ترشده أو ناصح يحذّره: "كان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيّان، ومن عاداته أن يقبض على الحيات ويعبث بها، وكنت أنهاء عن ذلك فلا ينتهي، فلما كان ذات يوم أدخل يده في جحر ضب ليخرجه، فوجد مكانه حية فأخذها بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فكُويت يده وزاد ألمه عشي النهار فنحرج جماً وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل، وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته".^(٢)

هنا تتزاحم الحيوانات، فالمتلاعب بالأفاعي في وقت مضى لاستعداد مسبق لم يسعفه الظن هذه المرة؛ فطلب الضب في الجحر وهو الحيوان الثاني في تسلسل الخبر أوقعه في متاعب كبيرة؛ لوجود حية في الشق، فاقتصت فصيلة الأفاعي من المزعج العابث لعدم تأهبه لها، ونقد الضب المتوهم وجوده من الصيد. وهذا كله في مسار طبيعي نتيجة للبداية العابثة، لكن الدائرة تتسع منداحةً لضم حيوان/(الجمل) لا علاقة له بما حدث، فأصابه القتل طلباً للتداوي، وهو بعيد جداً عن هذا الاحتمال، وخصوصاً أنه يعول عليه في طريق السفر. ومما مضى يمكن استقصاء تسلسل الروابط البيئية بين الحيوانات، وخصوصاً إذا ما اهتز خط مسيرها الذي يتفق وطبيعة الكون في حركية متوازنة (Dynamic)، فجوهر علم البيئة "يعلمنا أنه علينا فهم تفاعل جميع الأشياء الحية في البيئة التي نعيش فيها".^(٣)

أما الطيور فتمتلئ الرحلة بذكر أنواعها وأصنافها، وفيها كثير من المؤلف، فيتشكل الانطباع عن مدى الاهتمام بالتوثيق للمشاهدات اليومية، ومن أبرز ما يميز ذكر الطير عند ابن بطوطة عقد المقارنات بينها، فتتبين نتيجة التوثيق لمناطق مجهولة، بالإضافة إلى أن الطير عنده يرتبط بدخول مرحلة والخروج منها، إنها علامات يقيس بها مواقع رحلته: "وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير، وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا إليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق، إلا أنها أعظم منها، وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها، واصطادوا جملة من تلك الطيور، فطبخوها دون ذكاة وأكلوها".^(٤)

والمقارنة تقوم على المقاربة بقوله "تشبه الشقاشق إلا أنها أعظم"، فيقارن بيقين مقياس الطيور التي يعرفها، ويذكر تفاصيل دقيقة للتفاوت، فيشرح بوضوح مقدار الاختلاف والتباين بين مخلوقات أرض وأرض من الفصيلة نفسها. والتدوين البيئي في الرحلة يعطي وثيقة تاريخية للمتلقي اليوم لا مجرد عمل أدبي وصلنا، والحديث عن دجاج الصين مما يدخل في هذه الرؤية

(١) السابق، ١/٢٣٠.

(٢) السابق، ٤/٢٤٣.

(٣) بول وورد، وآخرون، البيئة: تاريخ الفكرة، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، ص ٢٠.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٢٢/٢.

بقوله: "ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً أضخم من الإوز عندنا، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا، وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها، ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناه في برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتنف ريشه فيبقى بضعة حمراء، وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه، فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك". (١).

إن الثنائية بين الحيوان والطير مستمدة من البيئة، فمن له الجو يمتاز بصفات لا تكون عند من يدب على الأرض، ومن هو على البسيطة ليس كمن في الماء، وهكذا. وهذا الملح ارتبط بالرحلة، فمن تلك الثنائيات خلق ابن بطوطة شيئاً من المقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء والماء، فعلى سبيل المثال يذكر أسد الغاب بقوله: "لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الأسود وهزائم الأعادي، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة حوز سلا وتحامته الأبطال ومرت أمامه الفرسان والرجال برز إليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيّب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خرّ بها صريعاً لليدين والفم" (٢). ثم يذكر المقابل له في الماء عندما صدفه في رحلته بقوله: "وكان طعامي في تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك، وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكاً يُسمّى بالفارسية شيرمأهي ومعناه أسد السمك؛ لأن، شير هو الأسد، وماهي: السمك" (٣). وقس على هذا من مثل خيل البحر، (٤) وكلب البحر (٥) الوارد ذكرهما.

والوعي البيئي من ابن بطوطة في رحلته يستدعي ما نراه الآن في القنوات الثقافية المهمة بالطبيعة والبيئة، وأزيد أننا لو قرأناها بعين ما نشاهد من تصاوير وثائقية علمية اليوم، لوجدناه راصداً بيئياً من الطراز الأول، وهي مرحلة متقدمة في ذلك الوقت، وأحسب أن مرحلة التأليف عن الحيوانات والنباتات والبيطرة كانت مؤثراً بطريقة مباشرة وغير مباشرة في تكوينه الثقافي، فهذا الرصد الواعي ليس محض الصدفة؛ إنما من صميم تأليف علوم الحضارة العربية ذلك الوقت.

٢-النبات والثمر:

النبات والثمر بما فيها من البساتين والزروع وردت كثيراً في الرحلة، وخصوصاً في مطلع البلدات والمراحل التي ينتهي إليها ابن بطوطة ومنها، فهي عنده بشرى لمكان رغيد ينتهي بها شيء من التعب، وتبعث على الطمأنينة بأنها ديار عامرة تعيش الاستقرار؛ فالزرع والإثمار لا يكونان في بقعة تشكي اختلالاً بيئياً ما. ومن ذلك مقدّمه على مدينة حماة: ثم سافرت إلى "مدينة حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق تحفها

(١) السابق، ١٢٥/٤.

(٢) السابق، ١٩٧/٤.

(٣) السابق، ١٣٢/٢-١٣٤.

(٤) انظر: السابق، ٢٦٦/٤.

(٥) انظر: السابق، ١٢٠/٢.

البساتين والجنات، [...] وبحماة الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش اللوزي إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة".^(١)

وهكذا عاداته في وصف النبات والثمر، يتحدث عنها إجمالاً إذا ما أقبل على مدينة أو بلدة، مشتهرة كانت أم مغمورة. وبعد أن يستقر فيها، ويخالط أهلها، تبدأ منهجية التجريب التي يمارسها نقداً بالتذوق والملاحظة، وهي هنا أوضح من "الحيوان والطير" ومن "الماء والحجر".

ففي بلدة خافطة الذُكر، تخالفت فيها الألسن وتدابير الإفهام، تقوم البساتين بالضيافة والترجمان: "وسافرنا إلى بلدة بُردُور [...] وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار، [...] فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم، وذهبوا بنا إليها، فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح. وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا، وأقمنا عندهم يوماً وانصرفنا"^(٢). وأما عن التفصيل بعد الإجمال، فتأتي مقارناته بالتذوق عندما وصل إلى الصين، فالصورة واضحة له، لأن مقياسه خضع للخبرة التي أنضجها التطواف الطويل حتى بلغ البلاد البعيدة، يقول: "وببلاد الصين السُّكَّر الكثير مما يضاهاى المصري بل يفضله! والأعناب والإجاص، وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الإجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جداً ولم أر قمحاً أطيب منه وكذلك العدس والحمص".^(٣)

ويتناهى التنقيب عن العلاقة بين الأسماء ومسمياتها بمحاولة معرفة سبب التسمية أو حقيقته، فمدينة مثل مدينة الزيتون تعطي انطباعاً أولياً -مخادعاً- بكثرة ما فيها من زيتون إلى حد التصاق اسم الثمر بها: "لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه اسم وُضع عليها".^(٤) لقد فشل التنبؤ الذي يمكن بدء التفكير به بحثاً عن الأسباب أو طرح الأسئلة، من مثل:

- لم سُميت بذا الاسم وهي تخلو من الزيتون؟
- هل كان الزيتون فيها يوماً ثم اضمحل؟
- هل هو من باب التفاؤل بشيء ما من أعراف تلك البلاد؟
- هل الاسم تورية لإخفاء ما هو أهم أو للخداع؟

كل هذه الأسئلة وغيرها يفتحها نص ابن بطوطة عن هذه المدينة؛ فهو لم يجب عنها. ومحاولة الإجابة عنها، فمن ينقب عن مثلها في الرحلة، وسيجد البيئة تحتاج إلى دراسة ثقافية مستقلة معمقة تكشف عن إجابات الأسئلة، وهذا يعطي إدراكاً عميقاً لأهمية دراسة البيئات ثقافياً؛ حيث إنها خليط متجانس من مكونات بشرية وغير بشرية، وإرث علمي حقيقي وآخر خرافي ظني،

(١) انظر: السابق، ٢٦٧/١.

(٢) انظر: السابق، ١٦٦/٢.

(٣) السابق، ١٢٥/٤.

(٤) السابق، ١٣٤/٤.

تُشكّل في النهاية صورةً بيئيةً متكاملة في إطار واضح المعالم لمن يراه من بعيد مع كثير من الجزئيات الدقيقة لمن يقترب بالنظر والتمحيص.

وللأشجار مادة مفرودة تعريفاً ووصفاً وبياناً حتى من حيث ملكيتها في البلاد: "وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق، وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له، وشجرته لا تعظم كل العظم، وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها، وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك، والمتملك منه ما كان بقاقله وهو أطيب العود، وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود [...] وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام، وليست بتملكة لكثرتها! والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان، والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره، وهو شبيه بزهر النارج، وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب، والزهر المتكون فيها هو البَسْبَاسة، رأيت ذلك كله وشاهدته"^(١).

هنا يمكن ملاحظة تقاطع الجغرافيا النباتية مع الأدب، فالحديث عن النباتات وثمارها ونموها وعقد القياس والمقارنة بينها هو من صميم عمل الجغرافيا النباتية، ووجودها في إطار أدبي داخل جنس الرحلة لا يحولها إلى مادة هامشية، ولعله بقليل من التأمل يظهر كم وافر من التقاطعات بين الرحلة وعدد من العلوم، وهذا يجعلها مادة صالحة للدراسات البيئية، فالنقد "الإيكولوجي بالضرورة نقد استفزازي في النقاش الأدبي والثقافي"^(٢)، ولديه القدرة على إثارة نقاط الالتقاء وسبر الغور بالرؤية والتحليل.

ويتجاوز النبات والثمر مرحلة العرض إلى مرحلة تعليم الطبخ، وهل هي متناسبة مع اللحم أم غيره؟ وهذا الملمح الحضاري يمكن رؤيته كثيراً في تراثنا الأدبي القديم ولا سيما السرديات، فقدرة استضافة الحديث عن الطعام وثقافته ترتحن إلى نوع الجنس الأدبي وتفاعله معها^(٣). والطعام وفنونه تجاوز الإعداد البدائي إلى التقنن في تركيب نوعه قبل كفه، وهذا شأن الثقافات المتحضرة، فمما تقاس به حضارتها جودة طعامها ونفاسته والإبداع في إعداده لا مجرد إحصاء أصنافه: "وسرنا من جُرفَتين إلى مدينة دَهّ فتن [...]، وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين، وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتبول، وبها القلقاص الكثير، ويطبخون به اللحم، وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمناً"^(٤).

(١) السابق، ١١٨/٤.

(٢) تيمودي كلارك، الأدب والبيئة: التحدي، ترجمة: سعيد منتاق، مجلة سرود (النقد البيئي)، مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك بالدار البيضاء، المغرب، العدد ٧، شتاء ٢٠٢٢م، ص ٢٦.

(٣) انظر: جون إم ويلكنزوشون هيل، الطعام في العالم القديم، ترجمة: إيمان جمال الدين الفرماوي، مراجعة: هبة عبدالمولى أحمد، مؤسسة هنداوي، ط ١، ٢٠١٧م، ص ٢٣١.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٤٢/٤.

٣- الماء والحجر:

من أبرز ملامح الماء في الرحلة إتيانه على نحو علمي بتوصيف خريطته من حيث الأسماء والمواقع، ونبع الاهتمام أولاً من كونه وسيلة تتقلل بالقوارب والمراكب، فما أن يحين ذكر نهر النيل مثلاً إلا ترى التدفق المعرفي بقول: "والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار: وهي النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون، وتمائلها أنهار خمسة أيضاً: نهر السند ويسمى بنج أب، ونهر الهند، ويسمى الكنك، وإليه تحج الهنود وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه، ويقولون هو من الجنة، ونهر الجون بالهند أيضاً، ونهر إتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السرا، ونهر السرو، وبأرض الخطا، وعلى ضفته مدينة خان بالقي، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا، ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين، وسيذكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله". (١)

إن مسارات الأنهار المذكورة ليست فقط من باب السرد العلمي للجغرافيا المائية، فهي أيضاً خطة منهجية واضحة ودقيقة لمسالك عبور الرحلة، تبين ذلك بقول: "وسيدكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله". وقد صار، فبذكره محطات تنقلاته التي تتخللها تلك الأنهار يقف عند كل واحد منها ذاكراً محيطه وبيئته وسلوك الناس فيه. وعلى حد وصف هاولي (Hawley) بأن "المجتمعات توجد في البيئات الطبيعية والاجتماعية البيولوجية التي يجب التكيف معها. وتقوم المجتمعات بعمل هذا من خلال تشكيل أنظمة للترابطات بين الأفراد وبين السكان والوحدات الاجتماعية التي تنظم أنشطتهم، وأن الديناميكيات الكامنة تعمل على تكامل أجزاء النظام، [...] وهي: الاتصالات، والمواصلات، والإنتاج". (٢) فالتجمعات المائية مكان لممارسة التجارة ومقابلة المسافرين، والبيع عليهم والابتياح منهم: "ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة، وجاءوا بالموز والتبوتل والفوفل والسّمك". (٣) إن موافاة القوارب الصغيرة للمركب بمن فيه، هو تلقى لركبان الماء -إذا جازت العبارة- وهي من ثقافة البيئة المائية، واليوم يمكن مشاهدة مثل هذا في بعض من الدول التي تسكن قراها الماء، فما أن يأتي إليهم الزائرون والسائحون حتى تتوافد عليهم القوارب الصغيرة من أهل القرية نفسها، ومعهم ما يبيعونه عليهم من تراث محلي أو بعض منتوجاتهم، والماء هنا ليس مكوناً بيئياً فحسب إنه أيضاً ينحت العادات ويبني السلوك.

والاهتمام بذكر مسارات الماء يتكرر وقت ذكر المدن ذات المنابع كما في الحديث عن ربوة بدمشق: "وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها. وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر أخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم، وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتورة، وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير، وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة، وهي مخاطرة عظيمة، وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد، ولها

(١) السابق، ٢٠٨/١.

(٢) جونانان أتش تيرنر، علم الاجتماع النظري: مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م، ص١٠٩.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٠٨/٤.

من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها، وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها، وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف".^(١) وهكذا، يتضح أن للماء في الرحلة إطاران: الأول: إطار خارجي يستعرض وجه الأرض وبسيطتها. والثاني: داخلي بالتغلغل إلى المدن والقرى وتقصي التفرعات من مركز بدئها إلى تشعب نهاياتها؛ فالماء محطة للتزود في الرحلة ومعرفة أحواله وخدماته المحيطة به يعين على تدبير أمر الارتحال.

ومن علامات التحضرّ البناء حول الماء بالرصف والتهيئة للشرب وغسل الملابس وخلافه للمسافرين والمقيمين، من ذلك: "ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي، وربما ألمع في كلامه بالعربي، وله زاوية كان قد عمّرها بذلك الموضع حسنة، بداخلها بستان مليح، وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد، وقد صنع الشيخ هنالك أحواضاً صفاراً من المرمر لغسل الثياب، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون، وكذلك فعلتُ عنده رحمه الله".^(٢) وحتى يُستشعر سياق طلب الأجر بصدقة الماء كما فعل الشيخ الصالح، فإن المسافر ذاك الزمن قد يهلك عطشاً، وتيسير تأمين الماء وإعداد مرافقه مما يعين على قطع المرحلة بحفظ الحياة، وحدوث خلافه ينبئ بالمتاعب وربما الموت، كما في الحديث عن قرية تغازي: "قرية تغازي على حقاتها يُعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر، وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق [...]"، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشر لا ماء فيها إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران أبقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديراً بين تليين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا".^(٣)

أما الماء الساقط من السماء على خلاف النابع من الأرض، فنوعان: أولهما: المطر وابن بطوطة ذكره إلى جانب نفعه العام بأنه مما يعين على الرحلة ليس للشرب وإنبات الأرض فذا هو الأصل، بل ليخمد حرارة الريح فيكون وقت الرحلة مناسباً ولا سيما في الصحاري المتوقدة من مثل البرية الكبرى، فلهيب ريحها يؤذي الجسد: "وهي مسيرة خمس عشرة، لا تُدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند وذلك في أوائل شهر يولييه، وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفنّ الجسوم حتى أن الرجل إذا مات تفسخ أعضاؤه، وقد ذكرنا أن هذه البرية تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز"^(٤). هذا الوعي ينمي التجربة ويجعل المسافرين يفرقون بين البراري، ففي برية أخرى من عادة المسافرين: "الإسراع لقلّة أعشابها، والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى بعد أن يسمن، والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة، وهو ماء المطر والحسيان"^(٥). وثانيهما: الثلج وهو على خلاف المطر من الحث على المسير والاطمئنان بما تركه من تجمع في البحيرات أو الصخور المنقورة، فإنه يعيق الحركة ويحتاط منه للأبدان والطرقات ويكون سبباً وجيهاً لوقف الارتحال: "وكان

(١) السابق، ٢٢٩/١.

(٢) السابق، ٥٠/٢.

(٣) السابق، ٢٤١/٤.

(٤) السابق، ٦٥/٣.

(٥) السابق، ٧/٣.

أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الثلج، فإن بأثناء الطريق جبلاً يقال له هَنْدُوكُوش ومعناه قاتل الهنود؛ لأن العبيد والجواري الذين يُؤْتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج، وهو مسيرة يوم كامل، وأقمنا حتى تمكّن دخول الحرّ، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب، وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال وتطأ عليها لتلا تُغرق في الثلج" (١).

ولتراكم الثلوج وطمس الطرقات يحتاج المسافر إلى خبرة بمسارات الثلج كما في الصحراء، ومن يجهل لا بد له من الذهب مع دليل؛ إذ إنه الوسيلة الآمنة مع شرط اتصافه بالأمانة والحكمة والصبر، لأنه قد يترك ركب القافلة للهلاك مع أنه قد اتفق معهم! كما يروي ابن بطوطة: "قال لنا ذلك الفارس: أعطوني شيئاً من الدراهم، فقلنا له: إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك، فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا، فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد، ثم رجع فردّ إلينا القوس، فأعطيته شيئاً من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد، ولا طريق يظهر لنا، فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج، ونسلكه إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة، فخفتُ الهلاك على نفسي ومن معي، وتوقعت نزول الثلج ليلاً، ولا عمارة هنالك، فإن نزلنا عن الدواب هلكنا وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه. وكان لي فرس من الجياد فعلمتُ على الخلاص، وقلت في نفسي: إذا سلمت لعلّي أحتال في سلامة أصحابي، فكان كذلك" (٢).

وهنا إشارة جديرة ألمح إليها الثلج والسير في طرقاته وظروفه الحافة، هي أن الصحراء سيطرت على تراث العرب الأدبي بوصفها الأرض المنبع لهم حتى غدا التلازم بين الصحراء والعرب من بدهيات علم الإناسة التي تؤرخ للأعراق البشرية. والحديث عن الثلج والنجاة من صقيعها في مدونة عربية تراثية يسترعي الانتباه، فهو خروج عن المؤلف التي بنت سرديته الثقافة العربية انطلاقاً من تكوين منبعها، ولعل من المهم طرح سؤال جدير بالتمعن: ما مقدار حضور البيئة الثلجية في الأدب العربي القديم؟ لا شك أنه سؤال كبير، ولا أبالغ إذا قلت: إنه مشروع جدير بأن يكون بحثاً علمياً عريضاً يتتبع حضورها ويفهم ظروفها وقيّم محيطها. وبإجابة مقتضبة من خلال مدونة دراسة هذا البحث، إن البيئة الثلجية كانت متوقعة في الرحلة ومنتظرة؛ لطبيعة الجنس الأدبي المرتبط بالتنقل الذي من ضرورياته التعرف على تقلبات بيئية متعددة وعدم ثباتها على حال واحد، وقد يكون هذا في رحلات لأدباء آخرين، وأيضاً أن حكم الخلافة العربية الإسلامية على امتداد حقبه وأطواره امتدّ إلى أراضٍ عُرِف عنها هطول الثلج، وتتبع أدبائها والتقيب في أدبهم قد يُظهر بعض الإجابات عن السؤال.

إن الحجر في الرحلة بوصفه مكوناً بيئياً يأتي على هئتين: هيئة الوجود الطبيعي له في البيئة، من حيث هو جبل أو واد، أو ما يصيبه من التطويع البشري. وهيئة أخرى له فيها نفاسة عالية وقيمة تُدخله في تصنيف الأموال والثروات. فعن الجبال المنحوتة للعبور واتخاذها طرقات للمرور الحديث عن ملك إيذج وتستر: "شاهدتُ من آثاره الصالحة ببلادها أن أكثرها في جبال شامخة،

(١) السابق، ٥٩/٣.

(٢) السابق، ٢٠٢/٢.

وقد نُحِتَت الطُّرُق في الصخور والحجارة وسُوِّيت ووسعت بحيث تصعدُها الدواب بأحمالها، وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض^(١). نُحِتُ الجبال من الأعمال الصالحة، لأنها تقدّم خدمة للناس، ويقاؤها ذكراً حسناً يرتبط باسم بانيتها، وذلك لما يتطلبه العمل من أموال حتى يُنجز، فتعييد طرق الجبال أصعب بكثير من الطريق على سهل الأرض، وربما هذا من فضلة القول، أو تسليم المنطق، ولكنه في هذا السياق يعطي دلالة على إخضاع البيئة الحجرية حتى تكون مناسبة لمتطلبات العيش فيها، أو العبور منها.

ويأتي التفاضل أحياناً بين الجبال على أساس بيئي، من حيث إصدار الحكم له بالجمال أو الخوف منه أو الوعورة إلى آخره، فعن جبل لبنان يقول: وسافرتُ إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا، به أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه^(٢). وعبارة "أخصب جبال الدنيا" تستوقف منطقيّة البحث العلمي؛ فهو حكم بالأفضلية المطلقة، ولا يمكن تجاهل سؤال العقل هل هذا صحيح؟ أم مبالغة؟ وهل رأى الرحّالة كل جبال الدنيا؟ أستطيع القول: إن ابن بطوطة أطلق حكماً انطباعياً لو قيس اليوم بقوانين العلوم التطبيقية لرسب، ولكن من مقايسة للرحلة، وتأمّل لها، يمكن قبوله؛ فقد اجتاز في رحلته كثيراً من الجبال، وسلك طرقاتها، فدفعته تجربته إلى قول هذا الحكم باطمئنان.

ولأن الجبال تُرى من بعيد، فإنها تحتضن أحياناً القرى وسطها وتحفها الوديان، كما في وصف المدينة المقدسة مكة المكرمة: "وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحفّ به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ، والأخشبان من جبالها: هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها، وجبل قعيقعان وهو في جهة الغرب منها وفي الشمال منها الجبل الأحمر، ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر، وأجياد الأصغر وهما شعبان والخندمة وهي جبل"^(٣).

والحجارة بالإضافة إلى كونها من مواد البناء فإنها أيضاً ترتفع إلى رتبة جمالية، فتجمع بين الوظيفيتين النفعية والجمالية كما في ذكر جامع دهلي: "وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام، وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافاً لحجارة سائر المسجد فإنها بيض، وحجارة الصومعة منقوشة، وهي سامية الارتفاع، وفحلها من الرخام الأبيض الناصع وتفايحها من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة. حدثني من أتق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها، وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن"^(٤). ومن مثل هذا التزيين ألواح الرخام وهي حجارة مصقولة تُقَمَّص بها الأعمدة، وتُكسَى بها الجدر، وتُفرش بها الأرض، فتهبها حلة جمالية تدهش ناظرها، فعن جامع دمشق: "في هذا الصحن ثلاث من القباب: إحداها في غربيّه وهي أكبرها، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين، وهي قائمة على ثمان سوارٍ من الرخام مزخرفة بالفصوص

(١) السابق، ٢٤/٢-٢٥.

(٢) السابق، ٢٩٤/١.

(٣) السابق، ٣٦٨/١.

(٤) السابق، ١٠٩/٣.

والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال إن مال الجامع كان يخترن بها^(١). والتعامل مع الرخام بفتية جمالية يعطي دلالة على مستوى الصنعة الحرفية التي تتعامل مع الحجارة فقد تجاوزت مجرد حضوره الطبيعي أو التعامل البدائي معها إلى مهمة توظيفه في البناء والمعمار.

إن الكتابة "البيئية" لا تتوقف عند وصف التاريخ الطبيعي لمنطقة ما، بل تناقش الطرق التي غيرت فيها أشكال التدخل الإنساني من الأرض والبيئة^(٢)، ولذلك نجد الأحجار الكريمة في الهيئة الثانية لغاية التزيين أو الاقتناء والإهداء، وهي من الأموال التي يُحتفظ بها، كالياقوت والزمرد والجوهر، ومن مثله القول عن ياقوت البهرمان: "الياقوت العجيب البهرمان إنما يكون بهذه البلدة، فمنه ما يخرج من الخور، وهو عزيز عندهم، ومنه ما يحضر عنه. وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها، وهي متملكة فيشتري الإنسان القطعة منها، ويحضر عن الياقوت فيجد أحجاراً بيضاء مشعبة، وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار"^(٣). وترتفع قيمة الحجارة إلى مكانة أعلى فتكون هدايا غالية تُقدم للسلطين والملوك، ومثله: "ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة آباد ولقيه بها في ظاهر مدينة بيّانة، [...] ورأيت في جملتها صينية مملوءة بأحجار الياقوت وصينية مملوءة بأحجار الزمرد وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر، وكان حاجي كاوان ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضراً عنده حين ذلك فأعطاه حظاً منها"^(٤).

المبحث الثاني: البيئة والحيز:

البيئة على إطلاقها تعطي إحياء بالاتساع والتمدد مستمداً من معجمها اللغوي، وتمنح انطباعاً نفسياً يدعو للاستغراق في مكوناتها. ومع هذا، فإنها من منظور بشري لا تبقى على إطلاق حالها إذا ما أراد أن يتعامل معها الإنسان بالتطويع، أو يتعاطى معها بالتفاعل؛ ومنها البحث العلمي - كهذه الدراسة - يعجز عن التعامل مع أشياء هلامية دون تأطير لها في حدود واضحة تمكّنه من رصد التفاعل سلباً وإيجاباً.

وبناءً على ذلك، فيمكن تتبع البيئة في حيزين كبيرين، هما: المكان والزمان. ويخضع التحيز لحدود قدرة الإنسان من حيث المعرفة والتجربة والخبرة، فتُلاحظ في ذات ابن بطوطة وعقله عبر الجغرافيا الثقافية التي يمكن تفصيلها في رحلته، فكل من "الجغرافيا والأدب على حد سواء يهتم بالكتابات حول الأماكن والأفضية. كلاهما عمليتان تعبيريتان، بمعنى أنهما عمليتان تجعلان الأماكن هادفة في وسيلة اجتماعية"^(٥)، وذلك على النحو التالي:

(١) السابق، ٣٠٨/١.

(٢) نجاح الجبيلي (إعداد وترجمة)، النقد البيئي: مقدمات مقاربات تطبيقات، ص ٢٨٤.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٨١/٤.

(٤) السابق، ١٥٧/٣.

(٥) مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية، ترجمة: سعيد منتاق، عالم المعرفة، الكويت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٥٥.

أولاً: تحييز البيئة المكان:

يقوم تحييز البيئة المكان عن طريق ما يدركه الإنسان. والمكان بوصفه شيئاً مادياً يخضع لمنافذ الدخول من بوابة الحواس الخمس، فنجد تحييزاً من منظور الحاسة نفسها، ومدى فاعليتها في الاشتغال مع البيئة.

وهذا الإدراك البشري للبيئة ليس بالضرورة منه أن تكون الفاعلية البيئية بواسطة الإنسان بما يُحدثه فيها أو يصفه منها، بمعنى أن ما يحيط به قد يكون بفعل غيره من مكونات البيئة. وعلى هذا النحو من التخصيص، فإن ما هو مدرك من الإنسان قد يكون خارج نسقه الإدراكي الفاعل حيناً أو مشاركاً له حيناً أخرى في حيز مكاني واحد. وبعبارة ثانية، إن الإنسان هو صانع المحيط المدرك من وجهة نظره، لكنه ليس مكونها الوحيد دائماً؛ فالأرض مثلاً ليست ملكه منفرداً؛ إذ يتشارك معه فيها غيره من المكونات، فيكون الإدراك بالتحيز من خلال أنه جزء غير واع منها تارة، وتارة يسيطر بعملية إدراكية واعية، فيستولي على الواحدية في تحييز البيئة المكان إذا تعلق الأمر به دون غيره. ويمكن تتبع التحيز انطلاقاً من الحواس الخمس كما يلي:

١- البيئة المنظورة:

البصر في أعلى مراتب الحواس عند الإنسان، ودونه يغيب إدراك رؤية المحيط مع تحييز البيئة المتعامل معها، فبناء على ما يملك من رؤية بصرية يكون تعاطيه مع محيطه وانطلاقه. ووجود العين المبصرة ليست وحدها الكافية لتحيز المكان؛ فالأمر أعمق من مجرد الأداء الوظيفي للعين، ففي السرديات الأدبية ننتظر منها فعلاً أعمق من قبيل كيف تنظر؟ وهذا ما يمكن ملاحظته في الرحلة؛ فبصر الفطن ليس كغيره من حيث الالتقاط الفريد، والتوثيق المثير، والتتبع الدقيق. وإن كانت هذه المهارة اليوم تلتصق أكثر بالمصور الفوتوغرافي الماهر، فهي أيضاً للأديب الحاذق، غير أن الأول أدواته الكاميرا وملحقاتها، والثاني اللغة ومهاراتها.

إن تحييز البيئة المنظورة من أبرز مظاهر سلوك ابن بطوطة التفاعلي إذا أقبل على بقعة جديدة، فهو لا يصبر حتى لحظة وصوله إليها ليبشر بتحييز ما يراه. وتلك خاصية البصر الرئيسة التي تمكّن الإنسان -باطمئنان- من استباق معرفة عوالم البيئة على مسيرة كذا من الوقت وفق ما يتاح له من قوة البصر أو أدوات الكشف، فباتت لازمة مُبتدأ وصوله في مرحلة تالية أن يعطي انطباعاً بتحييز منظور للبيئة المكان لما يشاهده قبل أن يصله، فيصّل بذلك إلى مرحلة أعلى من التقريب الذهني للمكان لمن لا يعرفه كأنه يراه. ومن الممكن القول "بأن الطريقة الوحيدة لفهم المدن هي فهمها كنصوص؛ لأنها أكثر تعقيداً من أن تحيط الأفهام إحاطة تامة بكيانها المادي كله، ومن ثم فالسبيل الوحيد إلى فهمها هو انتقاء تفسير معين لها، تماماً كما نفعّل حين نحاول فهم النصوص"^(١). ومثاله الحديث عن الرحلة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة: "وكان رحيلنا من المدينة، نريد مكة شرفهما الله، فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة،

(١) جو موران، العلم والمكان والطبيعة في النقد البيئي، ترجمة سمر طلبة، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨م، ص ٣٩٩.

وبالقرب منه وادي العقيق، [...] وأحرمت بالحج مُفرداً ولم أزل مليباً في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيتُ شعب علي عليه السلام، [...]، ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العَلَم، [...] ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو وادٍ معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة. ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأنجز وعده الكريم واستأصل صنائيد المشركين، وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة، وبها حصن منيع يُدخَل إليه من بطن وادٍ بين جبال، وببدر عين فوّارة يجري ماؤها، وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه، وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد، [...] وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جلّ وتعالى متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الوقعة أمامه، وعند نخل القليب مسجد يقال له مبارك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً، وبين بدر والصفراء نحو بريد في وادٍ بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل". (١)

في هذا المقطع الرحلي - وهو طويل جداً اكتفيت منه بجزء - يُلاحظ أن ابن بطوطة أثناء تحييزه المنظور للبيئة المكان يتخذ طريقتين: الأولى هي الإجمال العام بقوله: "وكان رحيلنا من المدينة، نريد مكة شرفهما الله"، فيحصر البقعة التي سيعرض له، ثم في الثانية: يأتي التفصيل وفق مراحل متقاربة صغيرة تخضع لأعراف السفر ذلك الوقت من التوقف عند الماء، فالمبيت، ثم الإكمال، وهكذا حتى يتم.

إن عملية التحييز المنظور للبيئة المكان تُعلم حدود الحرم، وتقيس المسافات، وتضع العلامات لوصف الوادي، وتعين حد الإحرام، وتضبط القبائل ومحل عمرانها، وتصنف الزرع والنبات، وتحدد الماء واختراق الوادي للجبال، كل هذا مع ربطها بأحداث تاريخية ارتبطت بالمكان، وتعارف عليها أهل الثقافة الواحدة، فيرتقي التحييز إلى رتبة أعلى بذكر المقدس الذي يختص بالرسول صلى الله عليه وسلم، فاتكأ التحييز على الثقافة المعنوية للمكان لا مجرد أنها بقعة يُنظر إليها.

والوعي الخرائطي في تحييز المنظور مُشاهد في تضاعيف الرحلة كثيراً، ونستطيع من خلاله رسم خريطة ذهنية بناءً على تلك الرؤية الفاحصة، ومثل هاته المهارة التي اكتسبها ابن بطوطة من رحلته ليست مجرد حديث عابر وقت إملائه الرحلة؛ فالنظر المقدم دليل على وعي ثاقب، يرتقي بالمنظور إلى مستوى "كُتِبَ دليل الإرشادات" بلغة اليوم، فالقارئ للرحلة في زمن ما بعد بطوطة المسترشد بها في الظروف نفسها سيجد عدداً من المحاذير والمستحبات والتتويها البيئية المعينة له على بلوغ مقصده، فأمست الرحلة مادة علمية ثقافية للمسافرين عبر المسالك الموصوفة في الرحلة. وحينئذ نقاد إلى طرح فرضية تحتاج إلى بحث في مشروعات مستقلة: هل ابن بطوطة عالم جغرافي؟ هل لهذه الملحوظات المنظورة بالتحيز أثر في كتابات من بعده على الصعيد العلمي؟ وأجيبُ حدساً: إن صدى الرحلة ماثوث هنا وهناك في المراجع التي تعبر عن ذلك صراحة أو

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١/٣٦٤-٣٦٥.

ضمناً على صعيد عدد من التخصصات العلمية الأخرى؛ فالرحلة نفسها مادة بحثية لغير واحد من التخصصات، وكل حقل يتعاطى معها من منطلقاته العلمية وأهدافه البحثية، وهذا في حد ذاته يدعم نوعاً ما حدس محاولة الإجابة.

وتحيز البيئة المنظورة يأتي أحياناً في رتبة أقل تفصيلاً قياساً بما في الرحلة إلى مكة المكرمة، لينحصر الاهتمام فقط بذكر المنظور الأميز الذي يفترق به عن غيره -على الأقل- في الأماكن المتجاورة، من مثل تحييز مدينة صور في المنعة والتحصن بقوله: "ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فُصلان كلها في ستائر محيطية بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبنائها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور، وترسو هنالك، وكان فيما تقدم، بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم". (١)

إذن، فالتحيز لمدينة صور ينحصر في الصورة الأمنية، بأنها أعلى تشدداً في الحراسة. والتحيز بالوصف اللغوي انتقل بالفعل المادي إلى المدينة نفسها؛ فهو حيز بحر لا يفتح على غيره دون شروط، فليست مثل الصحراء التي تتسع وتمتد على بعضها دون فواصل مادية أو مداخل مبنية، مع أنهما في التحيز المنظور نفسه؛ فالبحر المحيط بجهاتها الثلاث يحقق الحيطه بكشف القادم إليها ممن يقف مراقباً أعلى البرج، وهنا نقطة التفوق لجهة البحر على البر غالباً الذي لا جبال فيه، ولا معيقات تعرقل النظر، أو يستتر بها المتسلل. والتحيز المنظور للبحر أراه فريداً؛ لاتساعه الذي لا يحاط به، ولكن جاءت الإحاطة عن طريق وظيفته الأمنية التي يقدمها للمدينة، ثم إن إحاطة البحر بالمدينة من جهات ثلاث لم يعزلها؛ فالبر من جهتها الرابعة يُبقي وظيفة الاتصال البيئي بالأرض، فتتحقق لها الصلة ببقية اليابسة من رعي وتجارة وهجرة للحيوانات. وبناء على هذه المناصفة بين البحر والبر للمدينة حدث الأثر البيئي فيها بأن يكون لها بابان، وفق جهتها، وهذا يُعين الحراس على إحكام سيطرتهم على المدينة بالحراسة واليقظ وعدم التشتت بين أبواب كثيرة، وربما كانت جهة البحر أقل جهداً للمرابطين لليلة المذكورة.

وينتقل التحيز المنظور إلى صورة جانبية ليست البيئة المكان المقصود الأساس بذاته، ولكن لها تأثير واضح في خط الرحلة، كأن يأتي الوصف لإحدى الحيوانات التي تعترض الطريق فتشكل خطراً، كما في وصف حيوان الكركدن: "ولما أجزنا نهر السند المعروف بينج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق؛ لأنه في وسطها، فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون، عظيم الجرم رأسه كبير، متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل فيقال: الكركدن، رأس بلا بدن، وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثة أذرع، وعرضه نحو شبر، ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه، فضرب الفرسان

(١) السابق، ٢٥٨/١.

الذي كان تحته بقرنه فأنفذ فخذَه وصرعه، وعاد إلى الغيضة، فلم نقدر عليه".^(١) وباستمرار حيزت البيئة المنظورة في الرحلة الخطرَ الدائم من الإنسان للصحراء، أو المارق، أو قاطع الطريق إلى آخره، غير أن الخطر في الشاهد هذه المرة من الحيوان الذي يسكن بيئة محيطة ببلاد السند. وصحيح أنه ليس التهديد الوحيد من غير البشر إلا أنه الخطر الجديد الذي لا يعرف ابن بطوطة كيفية التعامل معه، فهو معتاد في أقصى التجارب على سم الأفاعي والعقارب، أما حيوان بهذا الحجم فلم يحدث له من قبل، فحاول التحامي بالمجموعة التي ترافقه؛ لما لها من خبرة في المواجهة. وهنا يظهر شيء من نمطية تحييز المنظور وفق التجربة السابقة المتعلقة ببيئة المكان ومكوناته، فهو استطاع تحييز المكان من خلال هذا الحيوان وصفاً، ولكنه لم يستطع تجنب خطره بنفسه، بل بواسطة الآخرين الذين معه؛ فأضحى مفعولاً به التحييز.

ونجد التحييز المنظور للبيئة المكان، بما فيها من مواد وأثاث وطقوس وتراتبية طبقية للناس، كما في القول عن سلطان مالي في العيدين: "ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البني، وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغمادها منه، ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج، ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي دوماً الترجمان بنسائه الأربع وجواريه، وهن نحو مائة، عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، فيها تفاعيح ذهب وفضة، ويُصب لدوماً كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي"^(٢). يُلاحظ هنا مقدار تحييز المنظور الذي يتناوب بين منظور المكانة والمكان، أما المكان فمحل الجلوس، وهيئته، وما يحويه من أسلحة ومعادن نفيسة، وأما المكانة فترتيب الواقفين، وأماكن جلوسهم، ووظائفهم، والأدوار المنوطة بهم. وهذا المنظور يتجلي فيه أيضاً التحييز عن طريق التظافر بين مكونات البيئة وتطويعها لمقام السلطان في الاحتفالية المقامة. وعادة ما يكون التناوب بين المكانة والمكان في البيئة التي لها عدد من الأنظمة والتقاليد التي اعتادتها طبقاتها الاجتماعية أو ظروفها التواصلية^(٣).

والتلوث مما يورق الإنسان في حيز ما، والنقد البيئي من قضاياها الرئيسية التلوث خصوصاً الماء، فهو يناهض المصانع التي تستوطن الأنهار الجارية، ويدافع أيضاً عن الأرض الجافة التي تبتلع المواد الكيميائية، فتفسد المياه الجوفية. ومصطلح التلوث من المصطلحات الأصيلة في الدراسات البيئية، وقد مر بتطورات دلالية كثيرة حتى استقر على دلالته المعاصرة المتعينة تاريخياً في الدمار البيئي^(٤). وقد وجد في رحلة ابن بطوطة حديث عن تلوث الماء؛ لأسباب طبيعية، أو بفعل الإنسان لأعمال التعدين، أو بهما معاً، وهذا أخطر؛ فالمرتحل لا يرى خطراً بيئياً حتى يتبته لسمية الماء، فالأمر وقتئذ يعتمد على خبرة العابر أو معرفته المسبقة بالبيئة المكان، كما في وصف نهر السرو: "ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر ولا

(١) السابق، ٧٥/٣-٧٧.

(٢) السابق، ٢٦٠/٤.

(٣) له حديث موسع سيأتيك.

(٤) جرج جرارد، النقد البيئي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، ص ٢١.

تُسقى منه دابةً، ولقد أقمنا عليه ثلاثاً فما غرف منه أحد غرفة ولا كدنا نقرب منه؛ لأنه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب، ويمرّ على الخشاش المسمومة فمن شرب منه مات". (١)

٢- البيئة المسموعة:

يهتم النقد البيئي اليوم بالبيئة المسموعة بما فيها من تلوث سمعي/(ضوضائي)، وتعكير للمزاج إلى الحد الذي يؤثر في الصحة النفسية، ومن شأنه أيضاً كل ما يعترى البيئة من تدخل صوتي لغايات مادية أو معنوية سلبية كانت أم إيجابية. وإذا كان هذا المطلب البيئي يلح بشدة على العالم الحديث من بعد عصر الثورة الصناعية، فإن الزمن المتقدم أقل رغبة في ذلك.

ومع هذا فإن الدراسة البيئية للرحلة هنا لا تقف على حدود المشكلات فحسب، بل تعرض لتحيز البيئة المسموعة فيها من باب الرصد لها، وربطها بالسلوك البشري والمظاهر الحضارية، في محاولة لإعادة تنصيب المظاهر الصوتية للبيئة في حقل الدرس الأدبي، لتوثيق جماليات البيئة من ذكر لأصوات تغريد البلابل وخرير الماء وغيرها، إلى جانب القبحيات المنفرة من طرق الحدادين في الأسواق وأصوات الباعة النشاز.

إن المسموع في البيئات التي اخترقها ابن بطوطة لا تعطي مؤشرات على وجود تلوث ضوضائي كما هو اليوم بفعل الآلة الصناعية خصوصاً، ولكن هناك تحيز للبيئة المسموعة وفق البقعة الجغرافية التي يسلكها، وإن لم يكن بتعبيره فاستدعاء لقول غيره، كما فعل في وصف دمشق شعراً:

"خَيْمٌ بَجَلَقَ بَيْنَ الكَأْسِ وَالوْتَرِ
وَمَتَّعَ الطَّرْفَ فِي مَرَأَى مَحَاسِنِهَا
وَانظَرَ إِلَى ذَهَبِيَّاتِ الأَصِيلِ بِهَا
وَقَلَّ لِمَنْ لَامَ فِي لِدَاتِهِ بِشَرَا
فِي جَنَّةٍ هِيَ مَلَأَ السَّمْعَ وَالبَصَرَ
وَرَوَّضَ الفُكْرَ بَيْنَ الرُّوضِ وَالنَّهْرِ
وَاسْمَعِ إِلَى نَغْمَاتِ الطَّيْرِ فِي الشَّجَرِ
دَعْنِي فَإِنَّكَ عِنْدِي سَوْقَةُ البَشْرِ!" (٢)

وبين فينة وأخرى يظهر الشعر في تضاعيف الرحلة لوظيفة وصفية كما في النموذج السابق عن البيئة المسموعة لدمشق، فيذكر الوتر كناية عن الموسيقى والغناء، حتى يصل إلى ذكر الأشجار التي تسكنها الطيور وتغرد من عليها. والإصغاء إلى البيئة من أوجه الاستمتاع، فبعد أن تلقى عصا الترحال؛ للإقامة بعد مشقة الطريق، يكون الاستماع من أوجه الترويح والدعة. وتستمر البيئة المسموعة في جانبها الإيجابي الذي يدخل السرور على القلب، وأحياناً تكون سمة لصيقة بالبيئة كما هم أهل مصر: "وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب براء الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أياماً". (٣)

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٤٥/٣-٢٤٦.

(٢) السابق، ٣٠٤/١. ينسب ابن بطوطة هذه الأبيات إلى: أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين. وتُنسب الأبيات في الإحاطة إلى: أبي العباس النباتي (ابن الرومية)، واسمه: أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل. انظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٨٧/١.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٠٣/١.

والبيئة المسموعة لا تبقى في حدود المكان المدخول إليه، فإنها أحياناً تكون متحركة محمولة، فمثلاً يرافقه المغني في الرحلة لكسر جمود الصمت، فينشطُ المسير: "فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي واستصحبتُ معي أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لي في الطريق! فوصلنا الى بلدة بجنور [...]، فوجدت بها أيضاً ثلاثة أخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لي نوبة والآخرا نوبة"^(١).

ويذكر هذا السلوك بفعل العربي القديم من استعانتته على السفر بالهداء، فيحث به نفسه ومن معه في القافلة على الاجتياز. وهو من رتب الغناء العربي وبدايات مراحلها،^(٢) وما تزال مظاهر هذا السلوك إلى اليوم لمن يسافر براً، ولا سيما المنفرد الذي يفتقد الرفيق، فتراه مردداً لأبيات يتلوها أو أنغام يحفظها.

ويتعالى شأن السماع إلى أن تتسمي مدينة بما هو مسيطر عليها، فنرى مدينة طرب أباد: "وبمدينة دولة أباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى طرب أباد، من أجمل الأسواق وأكبرها، فيه الدكاكين الكثيرة، [...] وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغني بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف وفي تلك السوق المساجد للصلاة، ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان، وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، ويغني المغنيات بين يديه، وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً"^(٣). والتسمية بالصوت حقيقة كما في "طرب أباد" أو توهماً كما في "جبل الطبول" سلوك إنساني لتفعيل مظاهر البيئة، فعن جبل الطبول: "وببدر عين فؤارة يجري ماؤها، [...]، وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد، ويزعم أهل تلك البلاد أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة"^(٤).

وإذا التلّفظ بالقول كلاماً أصلاً لتوجيه الأوامر، فإن الأصوات من غيره تنوب عنه أحياناً وفق العادات وما يراد منها في متعدد البيئات، من مثل ضرب النحاس أو قرع الطبول، فيتنبه القريب الغافل لتحذير أو ترغيب، ويعلم البعيد بحدوث أمر رشيد أو نهى ووعيد: "ولقد كنت لما أعطوني الفرَس فركبته يتبعني الناس رجالاً وصبياناً يعجبون مني حتى شكوتُ له [المرافق]، فضربت الدُّنْقَرَةَ، وبرح في الناس أن لا يتبعني أحد، والدُّنْقَرَةُ [...] شبه الطست من النحاس، تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد، فإذا ضربوها حينئذ يُبرح في الناس بما يراد"^(٥). وهكذا تأتي أصوات التنبيه في الرحلة، ومنها أيضاً ما هو علامة للاستعداد لنقل البريد في الهند: "فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، وخرج يشد بمنتهى جهده فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تهابوا له، فإذا وصلهم

(١) السابق، ٢٤٥/٣.

(٢) انظر: غطاس عبد الملك خشبة، المعجم الموسيقي الكبير، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ١/ ١٧٨.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٧-٢٥/٤.

(٤) السابق، ٣٦٥/١.

(٥) السابق، ٧٢/٤.

أخذ أحدهم الكتاب من يده ومرَّ بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الدّاوة الأخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه".^(١)

وتستأنف البيئية المسموعة حضورها بوصفها علامة إيديولوجية على الأديان، فكل دين له طريقة في إعلان أوقات عبادته، وله أصواته الخاصة به في تلاوة كتابه المقدس وفق معتقده، فدخل قرية يُسمع بها دق النواقيس هي مكان للنصارى، وإذا سُمع الأذان والقرآن عُرف بأنها ديار للمسلمين، والمرور بينهما ارتحالاً يوحي بشيء بالخوف لمن هو من غير الفريقين؛ لخطر الغيلة بينهما وخصوصاً في أوقات الاضطراب. وكثيراً ما يقول ابن بطوطة هذه أرض الكفار وتلك للمسلمين وهكذا، وربما هذا الحدس هو استدعاء لمواضع تلاقي الحدود وتقارب الثغور ومكامن الثارات، فهي ليست مجرد بيئة مسموعة دون دلالة دينية أو مرجعية خطافية. ومن ذلك: "ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم أكن سمعتها قط، فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤوا القرآن ويذكروا الله ويؤذّنوا، ففعلوا ذلك فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك، وقال: لما سمعتُ القراءة والأذان خفتُ عليكم فجئت كما ترون، ثم انصرف عنّا، وما رأينا إلا خيراً. ولما كان من الغد جاء إلينا الأخي وصنع طعاماً فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق، وكلّهم كفار، ونزلنا إلى مرساها فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربيّ وسفريّ صغير وكبير".^(٢)

واستمراراً للبيئة المسموعة ذات المرجعية الدينية، فابن بطوطة ينقل لنا ما يحدث في المسجد الحرام من تخالف أصوات الأئمة في صلواتهم، فقد كان لكل مذهب محرابٌ يصلي فيه إمامهم ومن معه من متّبعي مذهبه. والمحاريب أربعة: شافعي، وحنفي، ومالكي، وحنبلي، ولما كانت صلاة المغرب ضيقة الوقت كانوا يصلونها في الوقت نفسه، فيحدث الارتباك بين المصلين: "وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو".^(٣) وبقيت تلك المحاريب حتى العهد السعودي في العصر الحديث، فجمعهم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله خلف إمام واحد؛ فزالت مظاهر الفرقة من أهم شعيرة تجمع المسلمين في أقدس بقعة بعد أن دامت طويلاً.

٣- البيئة المشمومة:

الرائحة من مكونات البيئة في التحيز بالحواس، وهي من أكثر ما يعكّر المزاج في المحيط إذا كانت سيئة، وأقواها استدعاءً للذكريات من القاع. فروائح الطبخ المحلي، والعطور المخصوصة ببلد ما، وكذلك رائحة الأرض، كلها مما يمكن تحييزه ضمن البيئة المشمومة، وكلما تخصصت الرائحة بشيء ما وتعلقت به دون غيره بات لها خصوصية تحيلها إلى علامة إخبارية على

(١) السابق، ٧٢/٣.

(٢) السابق، ٢١٦/٢.

(٣) السابق، ٣٩٨/١.

محيطها، فهي من جوهر "العلاقات المتبادلة بين الكائن الحي وبيئته"^(١)؛ لذا سيطرت الطبيعة على البيئة المشمومة في الرحلة على نحو لافت؛ فالإنسان وقتئذ أكثر انغماساً فيها وتفاعلاً معها؛ لخلوها من الملوّثات التي تنزع عنها رائحتها البكر، من ذلك: "ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة، وهناك أرض سوداء فيها عيون تتبع بالقار، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً، وله رائحة طيبة"^(٢).

ومن التحييز للمشمومات ذكر مصادر استخراجها لا انتظار وجودها مصادفة، فابن بطوطة يخيّر البيئة المشمومة بتعيين مصادر استخراج العطريات من البيئة وفي مقدمتها الأشجار والنباتات، فهو يهتم بوصفها وبيان نوع رائحتها ومزاجه تجاهها، ويتعمق في الوصف حتى يذكر ما له رائحة وما يخلو من الرائحة، ولمن أطيب العود؟ للكفار أم للمسلمين؟ يقول عن العود الهندي: "وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له، وشجرته لا تعظم كلّ العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها، وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك، والمتملك منه ما كان بقاقله وهو أطيب العود، وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود"^(٣).

ومن مصادر استخراج العطريات الحيوانات إلى جانب النباتات، في مقدمتها غزلان المسك التي تعرف به وتُصطاد لأجله، حتى أصبح مكان رعيها علامة على الطريق، فعن سلسلة جبال بالصين: "وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضاً ببلاد التبت حيث غزلان المسك"^(٤).

ونتيجة منطقية لتحييز المشموم، فإنه يتحول إلى سلعة تُطلب، وتجارة تدار، فيتوسّع التحييز المنحصر في مصادر الرائحة وينتقل إلى جانب أرحب بقيام متاجرها المخصصة، وهذا في حد ذاته تحييز؛ فالعطارون من تجار السلع الفوّاحة التي تجذب المارة، ونية الانصراف عن الابتاع لا تحجب الأرج المنبعث من دكاكينهم، فيشتتها العابرون على اختلاف مقاصدهم من المجيء إلى الأسواق، فتُغري بالوصف: "وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى، [...] ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم"^(٥).

أما البيئة المشمومة بوصفها سلوكاً حضارياً، فالتطبيب للأمكنة مما اهتم بذكره ابن بطوطة، ومن أهم ما رواه عن ذلك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاوز مرحلة مس الطيب إلى التضميخ؛ لتعاقب السنين ولقداسة المكان: "ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلّط بالحجر المنحوتة، والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبليّة مما يلي الشرق

(١) مايكل برانش، النقد الأيكولوجي، ترجمة: معين رومية، ص ٢٨.

(٢) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٨٠/٢.

(٣) السابق، ١١٨/٤.

(٤) السابق، ١٠٤/٤.

(٥) السابق، ٧٦/٢.

من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت، الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان".^(١)

وللإنسان جانب حضاري من هذا السلوك، فالتطبيب عنده من طقوس الضيافة والترحيب عند القوم: "وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليّ وعلى القاضي، وقال: إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة، فأخذ القاضي بيدي، وجئنا إلى تلك الدار"^(٢). ومنه ما هو عادة لأهل البلد نفسه على نحو أعم، فهو من سمتهم وطباعهم: "وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، ويكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً! وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً".^(٣)

ويصل تحييز المشموم إلى جسد الإنسان وتكوين أعضائه، ومن أشهرها رائحة الفم؛ إذ لا يقتصر تغيير الرائحة على البدن من الخارج فحسب، فالاهتمام برائحة الفم معروف وخصوصاً من بعد عهد الإسلام الذي أوصى بالسواك، ثم يبلغ مرحلة أعلى من خلال مواد طبيعية مركبة، للتخلص من بخر الفم، منها: "واللتبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب، [...] ولا ثمر للتببول وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق، وأطيبه الأصفر، وتجتى أوراقه في كل يوم، وأهل الهند يعظمون التبول تعظيماً شديداً، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها! لا سيما إن كان أميراً أو كبيراً، وإعطاؤه عندهم أعظم شأنًا وأدل على كرامة من إعطاء الفضة والذهب! وكيفية استعماله أن يؤخذ [...] ورق التبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ويمضغها مع الفوفل، وخاصيته أنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم، [...] ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة، ولقد ذكر لي أن جواري السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره".^(٤)

وبعد التجوال في تحييز البيئة المشمومة، لا أكتف حداثاً بحثياً جاس في ذهني طويلاً حتى انتهيت من هذه الجزئية، لقد انتظرت من ابن بطوطة حديثاً عن الأعراق والبيئات في تجمعاتها البشرية بوصفها حيزاً مشموماً؛ فذلك مما يلفت نظر المخالط لأناس أكثر من أعراق متعددة في موضع واحد، أو مواضع متعددة لها صفة التتابع لأعراق مختلفة، غير أنني لم أجد ذكراً صريحاً لذلك.

(١) السابق، ٣٤٩/١.

(٢) السابق، ١١٦/٢.

(٣) السابق، ٢٨٧/١.

(٤) السابق، ١٢٧/٢.

٤- البيئة المتذوقة:

للتذوق علاقة متجذرة مع الأدب، وهو من أساسيات النقد، فيقال تَذَوَّقُ النصَّ الأدبي. وبالاقتراب منه نجد مصطلحاً من حقل إعداد الطعام والحكم عليه. والناس فيه ليسوا سواءً، ولذا فإن بعض باحثي مهارات التفكير، يرون أن تذوق شيء ما والتعرف على مكوناته بعد تحليله ثم التخصص بذلك يعد من أبرع الوسائل التي تتمي في العقل التفكير النقدي الحاذق، والنضج المعرفي الواعي. ومن هذه الأراضية المعرفية قدم التذوق إلى الأدب والنقد، ويقدر الملكتين الأدبية والنقدية يكون الحكم بالتذوق شهادة لأحدهم أو ضده.

وعليه، فليس من الغريب تحييز المكان من حيث هو بيئة متذوقة حقيقة لا مجازاً؛ فالإنسان يحتفي بالتذوق ويبنى عليه أحكاماً؛ فبدا جلياً في الرحلة بوصفه جزءاً من تقييم الطبيعة، فوجد الحديث عن الماء العذب والزعاق، وتلك الثمرة في مكان ما أشد حلاوة من غيرها، وهكذا. والتذوق هنا له حضور تبادلي من حيث هو مهارة عملية مع الماديات وعملية حسية مع المعنويات، بمعنى أن ما هو في البيئة انتقل إلى نص الرحلة بالتجريب والحكم. ومن التحييز للمتذوقات المفاضلة بين أنواع النارج، فيقول عن أشجار الهند: إن "منها النارج الحلو، وهو عندهم كثير، وأما النارج الحامض فعزيز الوجود، ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جداً وكنت يعجبني أكله"^(١).

ويأتي تحييز البيئة المتذوقة في أمر له صلة وثيقة بالناس وقوام وجودهم إنه الماء، فالعذب منه مطلب للبقاء وعلى جنباته يكون سكنى الناس ومعاشهم خصوصاً الأنهار، ومن ذلك حديثه عن نهري دجلة والفرات، وهما نهران شهيران: "والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه، والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسقى أهل البصرة الماء لدورهم، ولذلك يقال: إن ماءهم زعاق"^(٢). وتلفت هذه الظاهرة الجغرافية نظر ابن بطوطة فقد أعاد مثله في مكان آخر من الرحلة عندما ذكر جزيرة سندا بور: "وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور وإذا كان الجزر فمأوها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج"^(٣).

وإذا كان التحييز للبيئة المتذوقة أشتاتاً في الرحلة بوصفه جزءاً مفرداً، فإنه يأتي أيضاً من باب التمييز والتفرد بلذة الحلاوة إلى الحد الذي تُخلع فيه صفة الطعم على الجماد إلى جانب المطعومات الأخرى، كما في الحديث عن سور دمياط: "ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر في المراكب، وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط: سورها حلوى، وكلابها غنم! [...]" والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن.

(١) السابق، ٩٤/٣.

(٢) السابق، ١٥/٢-١٦.

(٣) السابق، ٢١/٤.

وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق، وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر".^(١)

٥- البيئة المحسوسة:

مسارات الرحلة الطويلة تقتضي مناخات متعددة، والإحساس يختلف من بيئة إلى أخرى، وكذا العرق نفسه في بيئات متعددة؛ لارتباطه بألفة الطقس، وسنن قوانين^(٢) العيش في المكان. ولذلك فإن الإحساس المهم في المقام الأول يرتبط بمواجهة الموت وادخار الحياة في منعطفات الرحلة، ومنه الحديث عن موعد السفر المناسب لتفادي حرارة الرياح الممزقة للجسد: "دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند، وذلك في أوائل شهر يولييه، وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى أن الرجل إذا مات تفسخ أعضاؤه، وقد ذكرنا أن هذه الرياح تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز".^(٣)

هنا في تحييز البيئة المحسوسة بوصفها مكاناً نستدعي سؤالاً مهماً: هل قتل الرياح الحارة للمسافر كان مما تخشاه العرب القدامى في أسفارها؟ لماذا لم يذكر على مستوى أعلى اهتماماً كما هو الحال عندهم مع الموت عطشاً؟ من الإجابات القريبة أن العرب ليس في تاريخها رحلة طويلة مكتوبة موثقة كما فعل ابن بطوطة حتى نعرف فرضية حدوثه، أيضاً من الإجابات أن رياح السموم من لوازمها العطش، ثم الموت وقت فقدان الماء، فربما حدث تخصيص القول بالنتيجة لا السبب. حسناً، إذا كان كذلك فلم القول بتعفن الجسوم، وتفسخ الأعضاء؟! ويمكن الإجابة بأن الرياح الساخنة تقتل، فلم تترك عبارته التالية في موضع آخر من الرحلة فسحةً بشد تأويل الموت إلى العطش، قاطعاً ذلك بقوله: "ثم سافرنا من مدينة جروون برسماً لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدنا البحر اكرينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق، وفيها صحراء مسيرة أربع ويقطع بها لصوص الأعراب، وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران، فمن صادفته فيها قتلتها، ولقد ذكر لي أن الرجل إذا قتلتها تلك الرياح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء، وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الرياح وكنا نساfer فيها بالليل فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس"^(٤). إذن، الصيف ورياحه الساخنة لا تقتصر على العطش، فقد يكون الماء موجوداً، بدليل غسل الميت، والشرب ليلاً، ولكن التعب حاصل بفعل السموم ثم الموت، فتنشأ تقنيات التبريد عن الأجساد التي يمكن فعلها وفق مكونات البيئة وإمكانياتها المتهيئة لهم حينها، مثل التظلل بالأشجار، أو تبليل الملابس بالماء، يقول عن دهلي: "ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ، وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين، يجعل

(١) السابق، ١/١٩٨.

(٢) سيأتي له حديث موسع.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٣/٦٥.

(٤) السابق، ٢/١٤٤.

أحدهم فوطلة على وسطه، وفوطلة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطلة فيبها مرة أخرى، وهكذا أبداً".^(١)

وتحيز البيئة المحسوسة تعيينها يأتي أكثر دقة بتخصيص ذكر ما يسترعي الانتباه، بقوله: "ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان أن نصفه مما يلي شيراز، وذلك مسافة اثني عشر فرسخاً شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز، والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز، شديد الحر وفيه شجر النخيل"^(٢). إن الدقة المذكورة في تحييز المحسوس تنبئ عن الاختلاف البيئي لمكان واحد من جهتين، وأن مقدار ما بينهما من التضاد يستوجب تنويهاً لمن يهتم بشأن الارتحال، وتثقيفاً لمن يطلب المعارف.

ولا تبقى الموازنة منجسة في ظروف العيش وقطع المراحل، فتجيء على هيئة نزهة أو ترويح في التنقل بين بيئتين متضادتين، فتحدث عن الاصطياف بالانتقال من البيئة الحارة صعوداً عن الغور إلى أعالي الجبال الباردة: "وذكر لي بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة، وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه، والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لأجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته أن يصيف فيه"^(٣). لعل من المثير أن الاصطياف جاء بوصفه وجهاً من أوجه الترفيه الذي لا يستطيعه إلا الأثرياء، فتمثل في السلطان الذي عنده من العمال والمشغلين ما يقومون بالأعمال عنه، وأقول هذا من باب اختصاص السلطان بذكر التصييف. وهذا لا يعني انتفاء فعله عن العامة، لكنني أفترض الرفاهية في ذلك، فغالبا الظن أنه ليس متاحاً إلا للميسرين الذين لا يحتاجون إلى الخروج يومياً؛ لطلب الرزق كما في ظروف ذلك الزمن، وقد يعطي هذا إشارة بيئية على الطبقية الاجتماعية القائمة على التصنيف الاقتصادي بالمقام الأول، وخصوصاً أن ابن بطوطة ذكره مرة واحدة فقط في رحلته.

وبالضد من الحرارة والقيظ يحل الشتاء القارس: "وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها! وإذا غسلت وجهي يصل الماء إلى لحيتي فيجمد، فأحركها فيسقط منها شبه الثلج، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي! ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقت السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه، فسافرنا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثاً وهي جامدة، وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلنا في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به"^(٤). ويلفت نظري في تحييز المحسوس البارد أنه يُذكر بشيء من المبالغة، فهنا الماء ساخن يجمد بمجرد نزوله! وأظن هذه المبالغة من باب محاولة الإيغال في التوصيف بشدة الشتاء لا معناها المعجمي الذي نتظره وفق ظاهر القول.

ويصل الشتاء إلى حد الإماتة فتكون النجاة بانتظار الحر، وهنا تناظر بين الصيف والشتاء، فالصيف يقتل بسمومه وعطشه، والشتاء بالزمهرير وثلجه. فهل هذا تناقض في تحييز المحسوس؟

(١) السابق، ٧٩/٣.

(٢) السابق، ٣٩/٢.

(٣) السابق، ١٨٤/٢.

(٤) السابق، ٢٥٩/٢.

لأن القارئ قد يصل إلى مرحلة طرح سؤال عابر: هل يريد ابن بطوطة أجواء معتدلة طوال رحلته؟! هو في رحلة طويلة وعليه مواجهة تقلباتها! ولكن الأمر ليس بهذه السطحية، إن المسألة آنية وفق متغيرات البيئة، فقد يكون الثلج مميتاً لمن لم يعتده بخلاف الحرارة، والعكس، يقول: "وكان أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الثلج، فإن بأثناء الطريق جبلاً يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود، لأن العبيد والجواري الذين يؤتي بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم؛ لشدة البرد وكثرة الثلج، وهو مسيرة يوم كامل، وأقمنا حتى تمكّن دخول الحرّ وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب، وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال وتطأ عليها لئلا تفرق في الثلج!"^(١).

وما سبق، فمن حيث الجو والطقس، أما خلافه، فمثل الماء الذي يوصف بالسخونة، فيكون علاجاً، أو بارداً عذباً، فيتخذ شراباً، فعن العين الحارة: "ثم سافرت منها إلى مدينة بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلاً، وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب، وفيها العناب والفواكه والتين كمثّل ما بمالقة، ثم سافرنا منها إلى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على ضفة واديها، وبينها وبين البلد ميل أو نحوه، وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء"^(٢). والتحيز المحسوس للماء فذكراً للاستشفاء بدفئه، وهذه العادة العلاجية التي تزاوّل إلى اليوم لها جذور في الثقافة العربية القديمة، وربما هي من المشتركات الثقافية في العالم أجمع، غير أن وجودها في مدونة تراثية عربية ليس غايته السابق؛ إنما التوثيق بأن العرب شاهدوا هذا وفعلوه بوصفه ممارسة طبية. أما الماء البارد الذي لازم وصفه كلمة العذب فمنها قوله: "وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز، وهي في بساط من الأرض تحفّ بها البساتين من جميع الجهات وتشقّها خمسة أنهار: أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف"^(٣). ووصف الماء الزلال بالبارد من التحيز للمحسوسات الثانوية؛ فالماء مما يطلبه الإنسان للري، فإذا فارقت العذوبة لا يهتم به لذلك المطلب حاراً كان أو بارداً، فلا فرق؛ لأن الغاية من البرودة متعة إضافية للماء القراح.

والتحيز المحسوس يأتي مادياً خارجياً كما مضى، وقد يكون داخلياً لا يشعر به غير الفرد نفسه، ومن ذلك: الإحساس بالخوف من البحر الذي ركبه ابن بطوطة أول مرة: "ثم ركبنا من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل، وركب الشريف منصور بن أبي نمى في جلبة أخرى ورغب منّي أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفضت من ذلك، ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر"^(٤).

(١) السابق، ٥٩/٣.

(٢) السابق، ٢٢٠/٤.

(٣) السابق، ٣٤/٢.

(٤) السابق، ٩٨/٢.

ثانياً: تمييز البيئة الزمان:

التمييز للبيئة الزمان يستدعي القول عن بُعدين يفترضهما سياق التحليل وفق المنظور البيئي: أولهما له حضور سطحي المدى، قريب الأثر، يتمثل في البعد السردي الذي اقتضته ضرورة حكاية الرحلة حتى تصل إلى الخطاب، وله في بعض منعطفاته السردية مظاهر بيئية، فالارتحال في أوان نزول المطر مثلاً ليس من باب الموافقة لنزوله فقط؛ إنما لفاعليته في تأطير الحركة السردية للرحلة، فلو لم يكن مطراً لكان كذا وكذا، ومنها: "فلما كان وقت نزول المطر، غلب المرض على العسكر، وضعفوا، وماتت الخيل، وانحلت القسي، فكتب الأمراء إلى السلطان واستأذنوه في الخروج عن الجبل والنزول إلى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر، فيعودون فأذن لهم في ذلك"^(١). ومن الشاهد تبين تضرر الجند من الماء، فقد أضعفهم بالمرض، وأمات الخيل، وارتخت حبال الأقواس من الرطوبة، كل هذا تمييزه بأوان نزول المطر، فانخلقت عقدة تعيق حصول المراد من المعركة، فوافق السلطان على ترك الجيش لموقعه، وهنا معقد القول بالتحول عن المكان الممطور ثم العودة إليه وقت انقشاع الغيم.

وفي السياق ذاته، ورد تمييز الزمان بمظاهر الطبيعة البيئية؛ توظيفاً له في غايات عسكرية، ففصول السنة المتقلبة داعم جيد يمكن الإفادة منه ضمن منظومة الجيش إذا فهم القائد الحاذق سلبياته فيتجنبها، وإيجابياتها فيستثمرها. وتروي مراجع إستراتيجيات الحرب^(٢) أن فصلي الصيف والشتاء قادران على قلب نتائج المعركة؛ فقابلية التأقلم تتابن من طرف إلى آخر، ومنها: " فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم، خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه، فإذا كانت أيام الشتاء والوحد أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه، وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها أغار علي شاه على بنجالة في البر لقوته فيه"^(٣).

إذن، يبرز مقدار قوة تمييز الزمان في اتخاذ القرار وقلب نتيجة الموقعة، وهذا من الذكاء البيئي في قيادة المعارك. وأحياناً يُحيي زمان الغارة بالزمن الفلكي؛ لسرعة حسم الجولة وانعدام طول تناوبها كالذي يحدث بين الفصول التي تستلزم مضي الحول، فهي أقصر من ذلك بكثير: "ذكر لي بعض من حضر هذه الوقعة أن ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال، ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى. وأتى بالطعام، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق الأسرى، وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم، وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة. وكانت هذه الوقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين"^(٤).

ولتمييز الزمان حضوراً على مستوى ألقى بالرحلة نفسها، لا الحديث عن آخرين من مثل ترقب انصرام الشتاء أو انقضاء السموم -كما مر- فقد تتعالق الظواهر البيئية من فصول السنة مع التوقيت الفلكي بتوصيف رحلة شاققة ممزوجة بالتفاصيل الزمانية كقوله: "وكانت إقامتنا بهذه

(١) السابق، ٢٠٤/٣.

(٢) انظر: روبرت غرين، ثلاث وثلاثون إستراتيجية للحرب، ترجمة: سامر أبو هوش، دار كلمة، هيئة أبو ظبي للتراث والثقافة، ط٢، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٠٣/٤.

(٤) السابق، ٤٩/٣.

المدينة نحو أربعين يوماً ننتظر تيسير السفر في البحر إلى مدينة القرم، فاكترينا مركباً للروم، وأقمنا أحد عشر يوماً ننتظر مساعدة الريح، ثم ركبنا البحر، فلما توسطناه بعد ثلاث، هال علينا واشتد بنا الأمر، ورأينا الهلاك عياناً وكنت بالطارمة ومعني رجل من أهل المغرب يسمي أبا بكر، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر، ففعل ذلك، وأتاني بالطارمة، فقال لي: أستودعكم الله! ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله، ثم تغيرت الريح وردتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها، وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها فمكنت صاحب المركب من إنزاله^(١). فيلمس هنا مقدار تأثير الريح في مسار الرحلة التي أعادهم إلى بدايتها، ثم إن الحادثة معلومة بوقت، والتحيز للزمان يرتهن لسلوك الريح الذي أقلق المركب، فترى الزمان في حيز التزمين بالأيام، ثم يعود إلى التزمين بوقت عصف الريح، ثم يرجع مجدداً للأيام، فينقضي أخيراً بالعودة إلى نقطة الصفر الزماني التي انتهت بالعودة إلى نقطة البداية المكانية، فتولد الشعور بخسارة الوقت والجهد من تعب ركوب البحر قياساً بمعطيائه ونتيجته.

أما البعد الثاني للزمان، فهو أكثر جذراً في البيئة وأعمق غوراً؛ بسبب ما تركه من آثار في البيئة ونواتج، أو ما أحدثه بتخليق بعض التصرفات عند البشر حتى بلغوا بها معه صفة الاكتساب؛ فالزمان هو المحرك الرئيس لهذا العمق والمعلم بالتجربة، فتطلب مساحة كبيرة حتى تنشأ بفعله الآثار والسلوكيات.

وانطلاقاً من هذا الرأي، فتقسيم الزمان بعد تحييزه يتعالق مع الإنسان؛ لخلق أثر بيئي يمكن مشاهدته، خارجاً من معنويته المستترة إلى ماديته المعلنة، فتشكلت البيئة على هيئات ثلاث من التحيز، هي:

١- البيئة الماضي/(الندم):

تحييز البيئة الزمان في الماضي ارتبط على نحو لافت بالتحسّر، وبيان مقدار الخراب الذي لحق البيئة بما فيها من مدن أو مياه أو أحواض على طرق المسافرين، وكل ما هو من قبيل الانتكاسة والدمار، فابن بطوطة يحفل بتوثيق ما حدث من مصائب أفسدت البيئة وعاثت فيها، فكثيراً ما يصف بلفظة الخراب، ومنه: "وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه عاقه الموت عن إتمامه"^(٢). لقد ظهر أثر فعل الغياب عن الديار، وبدت ملامحه في مدارج العودة، من تلف لحق المنار القائم المعروف بالتمام، والبديل عنه لم يسعفه الوقت لسد النقصان.

إن التحسّر في البيئة الماضي يعطي انطباعاً عن مقدار الذكاء العاطفي الذي يلمس من ابن بطوطة في ثنايا رحلته، فهو يرتبط بالأرض ويراهها في صورة محزنة تدعو إلى التعاطف، وإدراكه شعور بالمسؤولية المجتمعية تجاه البيئة وتاريخ الأرض التي حادت بفعل سوء الإدارة البيئية^(٣) من

(١) السابق، ٢/٢١٥.

(٢) السابق، ١/١٨١.

(٣) أحمد السروي، الإدارة البيئية، الدولية للكتب العلمية، مصر، ط١، ٢٠١٩، ص٩٠.

العمار إلى الدمار، كما في قوله: "كانت تئيس بلداً عظيماً شهيراً وهي الآن خراب"^(١)، فيُستشعر الأسى في حديثه عن تئيس التي وصفها بالعظيمة، وهو وصف يعطي معنى ضمناً لحزنه على ما آلت إليه، والمساحة الزمنية المحيطة بين كلمتي "كانت" و"الآن" تحكيان فعل بناء وازدهار خُتمت نهايته بكلمة خراب.

ولا ينحصر ضرر الخراب على المقيمين في بلدة ما أو قرية، فهو ممتد الأثر حتى يصل إلى العابرين الغرباء الذين اعتادوا بأن مكاناً ما به كذا وكذا من الماء، أو أن لهم سلوكاً بيئياً في التعامل مع ماء السبيل خدمةً للمسافرين. فعندما يعتاد المسافرون في الرحلة مساراً معلوماً بناءً على معرفتهم السابقة التي اكتسبوها مع الوقت، ثم يحدث العكس، تضطرب المقاييس في موازينهم؛ لأن نتيجة التحيز الزمني بفعل العادة اختلفت نتيجه القارة. ومن ذلك ما يرويه عن أطلال قرية خلت من أحواض الماء، وبعد تفتيشه، وجد بئراً غير مبنية بالحجارة، ولا مجهزة للاستقاء؛ إذ نالها ما نال القرية من التدمير، فأدركه العطش والتعب: "ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش، وهدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضاً، وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضاً يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة، فاتبعت طريقاً فأفضت بي إلى بئر غير مطوية، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض، وليس فيه آنية يُستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل، وامتصت ما تعلق بها من الماء، فلم يروني، فربطت خفي واستقيت به، فلم يروني فاستقيت به ثانياً فانقطع الحبل، ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت، ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر، وبخرق وجدتها هنالك"^(٢). في هذا المقطع الرحلي يجنح الوصف إلى الدرامية، فيتجلى مقدار الدمار الذي أصاب القرية بما فيها من بئر. والعقبة الكؤود التي أعيت ابن بطوطة في أثناء محاولة شرب الماء ما هي إلا صورة مصغرة من تعب أكبر لحق القرية، فنزح عنها أهلها لاستحالة العيش فيها وقتئذ، وأتعبت لاحقاً العابرين بها، وربما لن يمروا بها مجدداً بعد تجربتهم المحدثّة؛ لانتهاء نفعية الوقوف بها.

لقد ارتبطت البيئة الماضي بالتحسر والندم على تدمير البيئة، وإفساد الذاكرة الزمانية بما يتعلق بالماء وأحواضه، وهذا شكل من أشكال اعتداء الإنسان على البيئة الذي يتدهور معه ازدهار الأرض.^(٣) إن الزمان السلبي بما يحمله من أحداث وأحوال له اليد الطولى في التوصيف بالنتيجة، وربما يلاحظ في اللغة الطبيعية بين عامة الناس وخاصتهم عندما يُذكر شيء من الماضي وقد اهترأ أو اندثر بأن يحيز السبب في نطاق الوقت بقول: "مر زمان طويل على كذا"، فالزمان يتشبه به التسويغ بحثاً عن متكى له في بنية العقل؛ إذ يخرج من نطاقه الفلكي إلى نطاق فلسفي يُحمل عليه أشكلة القضية، ويُفتش فيه عن نتائج المقدمات.

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٩٧/١.

(٢) السابق، ١٤/٤.

(٣) انظر: جيليكيا توشيتس، النقد البيئي: دراسة بينية في الأدب والبيئة، ترجمة: سناء عبدالعزيز، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨م، ص ٣٢٩.

٢- البيئة الحاضر/ (التمير):

للبيئة الحاضر طابعٌ مختلفٌ في الرحلة، فمن الندم والتحسر بفعل التدمير إلى فآل الازدهار والتمير/ التخضير، ثم محاولة الخروج بها من مرحلة الخراب إلى البناء. فبعد ما لحقها في زمن مضى جنى عليها، تسعى نحو الإثمار في مرحلة تالية. ومن ذلك مدينة دَارَا التي تخربت، فنشأ خارجها قريةٌ صغيرةٌ تهمُّ بإعادة الحياة إلى المكان بعد هجره، يقول: "ثم سافرنا إلى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا، ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين، وهي مدينة عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز، ولها قلعة شمّاء من مشاهير القلاع في قنّة جبلها".^(١) الآن القرية مكان أكثر ازدهاراً في صورتها الحالية، وفيها فآل لمحاولتها إعادة الإعمار، فهي حلقة وصل بين نقيضين. ومرتكز التتمير ومحوره الرئيس هو الإنسان؛ إذ إن المشتركين معه في الحياة على الأرض من طير وحيوان ونبات، ليس لهم مزيته في التفكير والتيقظ والتدبير؛ فالعلم الطبيعي منظومة عضوية واحدة تتأثر بما فيها وتتباين بمكوناتها وتخضع لتبعية الأقوى تأثيراً فيها.^(٢)

ومن مظاهر الإصرار على تميمير البيئة الحاضر، القول عن مدينة الترمذ التي تجددت على نحو أفضل مما جرى عليها: "وكانت مدينة الترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون فلما خربها تتركز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر"^(٣). ومن تتمير البيئة وتوسيع الرقعة الخضراء: "أقمتُ بهذه الجزيرة سبعين يوماً وتزوجت بها امرأتين، وهي من أحسن الجزائر، خضرة نضرة، رأيت من عجائبها أن الغصن يقطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة، ورأيت الرمان بها لا ينقطع، له ثمر بطول السنة"^(٤). في هذا النموذج يُلاحظ الحديث عن خصوبة الأرض التي تقبل فرعاً مقطوعاً فتحتويه حتى يصير شجرة مثمرة، فيتوالى الإثمار ويتتابع التتمير. وهذا التحييز الأنّي للبيئة الحاضر فيه شيء من الوعي البيئي، فلا يفرس أحدهم شجرة من فرع بعد قطعه إلا من وعي بأهمية هذا الفعل؛ لإحياء المزيد من الأشجار انتفاعاً بها.

وهذا لا يعني خلو البيئة الحاضر مما هو مؤذ لها، فهو موجود لكنه على نطاق ضيق في حدود معلومة، وربما هذا هو المؤلف في السياق المذكور، كالحديث عن قذارة سوق بمدينة ظفار: "ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها، والسوق خارج المدينة بريض يعرف بالحرّجاء وهي من أقدر الأسواق وأشدّها نتناً وأكثرها ذباباً؛ لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسّمك، وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين"^(٥). في وقفة بيئية مع هذا الشاهد يُلاحظ فيه مع الاستياء المصاحب من ابن بطوطة اعتذاره مؤولاً القذارة، بأن ما يباع فيها من أسماك هو الجالب للذباب ومصدر للرائحة النتنة. وفرضيات البحث تطرح أسئلة بيئية مهمة منها: هل هذه

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٨٦/٢.

(٢) انظر: مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية، ترجمة معين شفيق رومية، عالم المعرفة الكويت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ١١٩/١.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٤٠/٣.

(٤) السابق، ٧٧/٤.

(٥) السابق، ١٢٣/٢.

السوق الوحيدة للأسماك التي زارها ابن بطوطة؟ لا أظن، فكثيراً ما يذكر السمك وطريقة أكله، كما أنه ارتحل عبر النهر والبحر، وموانئ الوصول فيها من الأسماك المباعه الكثير شأنها شأن أي بضاعة أخرى! أليس دائم الذكر لوصف الأسواق بأنها حسنة وأهل المصلحة مرتبون كل وفق بضاعته والعكس من ذلك؟ نعم! إذن لم خص سوق ظفار، ثم حاول أن يعتذر لهم؟ في ظني أن تطواف ابن بطوطة في أماكن كثيرة حثته على عقد المقارنة والقياس معبراً بكلمة "أقدر"، وهي صيغة لا تنفي وجود القذارة في مكان آخر؛ إنما فاقت كل مكان رآه بدليل حديثه عن قذارة سوق في مدينة القسطنطينية وذكر الكنيسة العظمى فيها بقوله: "وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقدار غالبه عليها، ويشقها نهر صغير قدر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيه!" (١).

إن الفأل والتثمير يسيطران على البيئة الحاضر من تحييز الزمان، حتى مع وجود بعض المظاهر السلبيه في الزمان الراهن للبيئة، فكثيراً ما يقابل المطالع للرحلة مثل هذا النموذج الذي ينص على التخضير: "وصلنا إلى مدينة ترمذ [...] وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق، تخرقها الأنهار، وبها البساتين الكثيرة والعنب، والسفرجل بها كثير متناهي الطيب، واللحوم بها كثيرة، وكذلك الألبان، وأهلها يغسلون رؤوسهم في الحمام باللبن عوضاً من الطفل" (٢). ومن الآنية تبرز اللحظة المحيئة في البيئة ببلوغها الوفرة، تحول فيه معها اللبن من الشراب إلى الاستحمام، فيلمح هذا الفعل إلى ما في عصرنا من تقنيات العناية بالبشرة والجمال، خصوصاً عند النساء من استخدامهن اللبن لغايات جمالية وعلاجية، وهو من الترف إلا أن البيئة لا تمكّن من ذلك حتى يصل بها الإنسان من الاهتمام إلى رتبة عالية تنعكس على حياته ومعاشه، فيجاوز معها مجرد الانتفاع بالمأكل والمشرب، ثم تجتاز معه هي بدورها مرحلة الحد الأدنى من الكفاف إلى بلوغ الرخاء.

٣- البيئة المستقبل/ (الادخار):

بز مفهوم الادخار في البيئة المستقبل، فهو تخبئة من البيئة للبيئة، واقتصاد من الإنسان لها؛ فالوفرة في البيئة الحاضر بما نتج عنها من تثمير يجاوز الكفاية، تحتاج فيه إلى "إعادة الوفاق بين الإنسان والبيئة" (٣) من خلال إيجاد التوازن الذي يتطلب من ذوي الوعي خطة للإفادة وقت الشح إذا غاب أمد المعرفة بوقت الحاجة، أو بتخطيط مسبق نهاية كل دورة زمنية معلومة.

والادخار لعبور الزمان إلى البيئة المستقبل له عدد من الإشارات في الرحلة، تمثلت في الماء والطعام، فادخارهما يتعلقان بالبقاء، وبديمومة تعاقب الزمن بين ماضٍ وحاضر ومستقبل للفرد المتناسل (٤)، فهذا المفهوم يهتم بالتنمية والاستدامة (٥) (Sustainability) من جيل إلى جيل.

ومن الادخار للبيئة المستقبل ما هو قصير المدى لا يجاوز الأسبوع، ومنه الخبز مرة واحدة بكمية وافرة تكفي أسبوعاً: "ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة

(١) السابق، ٢/٢٥٤.

(٢) السابق، ٣/٢٨-٤٠.

(٣) عبدالمجيد حميد الكبيسي، الإنسان والبيئة، دار الأعصار العلمي، عمّان، ط١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ص ٣٧٠.

(٤) سناء محمد الجبور، الإعلام البيئي، دار أسامة، عمّان، ط١، ٢٠١١م، ص ٥٠.

(٥) انظر: نجاح الجبيلي (إعداد وترجمة)، النقد البيئي: مقدمات مقاربات تطبيقات، ص ٣٢٣.

يعدون فيه ما يقوتهم سائرهما، فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الإدام الطيب إطفافاً لنا بذلك، ويقولون لنا: إن النساء بعثن هذا إليكم وهن يطلبن منكم الدعاء".^(١) والادخار هنا نتيجة مجهولة الطريقة، فما طريقة حفظ الخبز كل هذا المدة؟ وهل يبقى طرياً أم يلحقه الجفاف؟ كل هذا لم يُصرح به كما في ادخار العنب بالتجفيف الذي يتعدى فكرة الادخار من أجل أكله إلى تصديره تجارةً: "وصلنا بعد ذلك إلى بلدة وبكنة [...] وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى، بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين، وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة، وعندهم فاكهة يسمونها العلو [...]، فيبيسونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين، ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه".^(٢) وعن التجفيف أيضاً ما قيل عن فاكهة المشمش التي تعطب سريعاً، فتتشف حتى تكون صالحة للأكل طوال العام: "ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها [...]، وبها الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش الذي لا نظير له، يسمونه بقمر الدين وهم يبيسونه ويدخرونه، ونواه ينكسر عن لوز حلو"^(٣). ومن التجفيف ما أسماه ابن بطوطة التجميد، وبوصفه الطريقة تبين أنه منبت الصلة عما نعرفه اليوم، إنما هو صناعة وعاء فخاري يُضمّن بما يراد حفظه وقت لينة فإذا جمد وتقسى صانه عن التلف: "ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، [...] وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرّب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة".^(٤)

وتخزين الحبوب مألوف منذ عرف الإنسان الزراعة، ومما يلفت النظر أن جماعة من الناس لا يزرعون بل يجمعون مدخرين ما يظهر في موسمه بفعل المطر من غير زراعة فيقتاتون عليه عامهم، فعن نوع من الدخن: "وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين، يخرجون فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة".^(٥)

ومع خزن الطعام يأتي الماء، وكثيراً ما يذكر ابن بطوطة أنه يُحفظ في صهاريج وأحواض ومصانع تجمعه، فإذا حوته من مطرة إلى أخرى أعانت الناس وعابري الطريق: "بخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين للمش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها، وماؤه يجتمع من ماء المطر، وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله، والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين بعضها أعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتزهين والمتفرجين، وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين، فإذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب، فإذا قل الماء دخل إليها الناس".^(٦) ولذلك فإن الماء إذا لم يدخر أو نقص ما في الصهاريج منه سيكون عليهم حمله وفي هذا مشقة

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٦١/٢.

(٢) السابق، ١٦/٣.

(٣) السابق، ٢٩/٢.

(٤) السابق، ٢٩٥/١. قلت: وهذه الطريقة ما تزال حتى اليوم ويمكن مشاهدتها في البرامج الوثائقية ومنصات العرض المرئي من مثل اليوتيوب (YouTube).

(٥) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٩٥-٩٦/٣.

(٦) السابق، ١١٢/٣.

كبيرة: "وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن وهي على نحو ستّة أميال من البرّ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب".^(١) وعليه فإن ما يدّخر الماء ولا يفسد فيه الطعام ميزة جلييلة كما تفعل قلعة حلب: "وقلعة حلب تسمى الشهباء، وبدخلها جبان ينبع من الماء، فلا تخاف الظمّ، ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج، وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان، وكلّ برج منها مسكون، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد".^(٢)

ويمكن استتباط ملامح الادخار من البيئة الماضي التي يلازمها التحسّر، فلو لم تكن خراباً كانت مثمرة في البيئة الحاضر، ومن ثمّ صالحة للادخار منها في المستقبل. ومن خلال هذا التحيز يتبدّى التداخل الواضح بين المكان والزمان بهيئاته الثلاث، إنما فصله إجرائي فحسب في التعاطي البحثي؛ لتحديد كل نقطة عن أختها في العرض والتحليل فلا تختلطان قدر المستطاع، وذا من معتركات البحث الذي يعرض للزمان والمكان، فمن المحال الفصل بحد قاطع؛ فالمكان له زمان يعبر من خلاله، والزمن دون مكان يعوم في العدم.

المبحث الثالث: البيئة والقانون:

نشأت العلاقة بين البيئة والقانون بوصفه علماً متأخرة قياساً بواقع وجودها، وفي ذا إشارة إلى أن الإنسان الأول أكثر انسجاماً مع محيطه البيئي، فلا يفسده، ولا يؤذيه، ويأخذ منه بقدر حاجته، تاركاً ما بقي تثميراً لها وادخاراً منها. والانضباط الذاتي الموجود فطرة لا يعني انمحاء التمرد من النفس البشرية، أو تخلصها من شرورها، إنما تقديراً وفق موازنته بالسلوك الإنساني اليوم الذي اشتد ساعده بالآلة، وتوسّعت مداركه بالذكاء الاصطناعي.

والقانون البيئي هو: "مجموعة القواعد القانونية التي تهدف إلى حماية البيئة والمحافظة عليها من خلال إدارة وتنظيم النشاط البشري، وتحديد السلوكيات التي تشكّل جرائم ومخالفات بيئية، والعقوبات المقررة لمرتكبيها"^(٣). ولأن الإنسان يعيش في جماعات، فإن التشريع القانوني وفق معطيات عديدة موجود منذ القديم، وإن لم يكن كصيغته الاحترافية اليوم. وهنا، فالقانون المتعاطى معه في الدراسة خال من التعقيد، وينحصر التعامل معه من حيث هي قوانين بهيئتها الأولية، يُدركها المتلقي دون تمجّل، أو سبر لغورها، أو القول بأنها معيبة انطلاقاً من قواعدها الصارمة.

لقد تقلّب ابن بطوطة بين بلدان عديدة، وأشار في سرديته بوعي حيناً ودونه أخرى إلى بعض من الملامح القانونية التي تحكم الإنسان انضباطاً ذاتياً ومجتمعياً، أو يُحكّم بها عليه توجيهاً خارجياً. ولننظر في ثنائية البيئة والقانون يقف القول على نقطتين مهمتين هما: النظام أولاً الذي يسري روحاً في القانون المتبع، ومدى الامتثال ثانياً تطبيقاً له، أو على الأقل تفاعلاً معه. فالقانون

(١) السابق، ١٠٠/٢.

(٢) السابق، ٢٧٤/١.

(٣) عبد الناصر زياد الهياجنة، القانون البيئي، دار الثقافة للنشر، عمّان، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٢٢.

حتى يحقق المراد منه لا بد أن ينتظم في عدد من القواعد والأنظمة التي تحفّ حدوده وترسم غاياته.

أولاً: البيئة والنظام:

لا يتأطر القانون إلا بوجود النظام الذي يغذيه ويسري فيه. والأنظمة متعددة متنوعة وفق مصادرها ومواطنها وهيئاتها، ففي الرحلة يمكن ملاحظة تفرعها إلى ثلاثة أنظمة كبرى سيطرت على مفاصل الرحلة، واضحة الأثر في التنقل عبوراً أو ذكراً، وهي النظام الديني والعرقى، والنظام السياسي، والنظام الاجتماعى.

١- النظام الديني والعرقى:

يستحوز على الرحلة ملمحان يتعلقان بالنظام الديني والعرقى في البيئة، فأما الأول هو النصّ على ذكر البقعة الجغرافية بأنها تحت حكم الكفار أو حكم المسلمين، فكثيراً ما يردف ابن بطوطة إلى جانب الاسم الجغرافى للبلاد الذي يرسم حدوده سياسياً ذكر الدين وما ينبى عليه من عقيدة معتقة، وهذا من المرجعيات الثقافية لاصطلاح "بيئة"، فهي كلمة تُستخدم لوصف سياق الموضوع الحقيقى للقصة أو خلفيته، سواء كان ذلك يتعلق بدراسة عن أحد الأنواع أو الكتاب أو المجتمعات أو الأعراق^(١). فيشرح ابن بطوطة النظام الديني للبلاد التي يزورها بطرح مواز لتسمية المكان، مُقدِّماً مادةً بليوغرافية للرحلة في التصنيف الديني للمسارات التي يعبرها، ولذلك يُعدّ توصيف الدين المعتق في الأرض المعبورة ذلك الزمن وثيقةً تاريخيةً لحركة الدين وتقله على خريطة العالم، إنها مادة لرسم أطلس ديني للعصور القديمة، يقول: "سافرنا من مدينة أبوهر في صحراء مسيرة يوم، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق، وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في إقطاعه. ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق"^(٢).

يلحظ في حديثه تقسيم داخل القسمة عينها بناءً على النظام الديني في الهند، فهو يُقسّمهم إلى قسمين كبيرين من مسلمين وكفار، وأن المسلمين لهم الذمة تحت حكم الهنود الكفار، ثم ينظر مجدداً في المسلمين أنفسهم، فيرى فيهم بعض الخصال التي تستوجب تسميتهم بالعصاة؛ لقطعهم الطريق، وذنب قطع الطريق من المسلمين أثقل عليه مما لو فعله الكفار الذين لا يؤمن جانبهم - على الأقل في مقاييس ابن بطوطة-؛ فالغيلة عنده أعنف ممن يُظن به خيراً. وانصاف ابن بطوطة يقوِّيه في دقة النقل والحكم أنه في موضع آخر ذكر المؤكلة، وأنها لا تتم بين الكفار والمسلمين، إلا أنهما لا يعترضان بعضهما، وكل منهما يأمن على نفسه وحياته على اختلاف دينهما، يقول عن بلاد سيلان قياساً بالهند: "وقد دخلت جزيرة سيلان هذه، وهم مقيمون على الكفر إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين، ويؤوونهم إلى دورهم، ويطعمونهم الطعام، ويكونون في بيوتهم بين أهليهم وأولادهم خلافاً لسائر كفار الهند، فإنهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم

(١) بول وورد، وآخرون، البيئة: تاريخ الفكرة، ص ٢١.

(٢) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٩٧/٣.

فيها، مع أنهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم، ولقد كنا نضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم، فيأتون بهفي قدورهم ويقعدون على بعد منا، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان، وهو الإدام، ويذهبون فنأكل منه، وما فضل علينا تأكله الكلاب والطيور، وإن أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربه وأطعموه روث البقر، وهو الذي يطهر ذلك في زعمهم".^(١) إن القياس القائم على اعتماد النظام الديني إبرة ميزان يدفع للاطمئنان بأن الدوافع الإيديولوجية عند ابن بطوطة هي لإتمام العملية السرديّة أكثر من كونها تعصباً، فهو يصف المسلمين ويسمي ما كانوا عليه، ثم يصنّف ما يثير خوفه ويخشاه من سلوكيات وفق ظروف البيئة البشرية التي يتعامل معها.

ويمتد النظام الديني إلى توصيف الأحكام النابعة من المعتقد، وإن بدا عليها أنها أحكام تصدر من النظام السياسي، فمصدر الإيمان الأول بها الدين عند طائفتها، ومن ذلك الحكم على قاتل البقرة عند كفار الهندو ببشاعة: "وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كُنْكَار [...] وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد، [...] وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش [...] . وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم، فلما قُطعت يده ورجله صار الأدلاء أولاده وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة! وحُكِّم كفار الهندو أنه من ذبح بقرة ذُبِح كمثلها أو جعل في جلدتها وحرق، وكان الشيخ عثمان معظماً عندهم، فقطعوا يده ورجله وأعطوه مجبى بعض الأسواق"^(٢). إذن، فالقدر العالي للشيخ عثمان حجه عن عقوبة أشد تتمثل في القتل والحرق، فخُففت إلى قطع اليد والرجل؛ حتى لا يتهاون في تنفيذ العقوبات وإيقاعها على من يمس مقدساتهم الدينية.

والتملكات القانونية للبيئة بيّنة في الرحلة استناداً على النظام الديني، فما هو في بلاد الكفار له حُكْمٌ وصفة وكذلك ما هو في بلاد المسلمين، والنسبة المنطقية للتملكات وفق التصور الأولي والمنطق العلمي إلى الحدود السياسية لا إلى النظام الديني، غير أن ابن بطوطة يريد أن يضع علامات دينية على توصيفه للبيئة، من مثل قوله: "وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له، وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها، وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك، والمتملك منه ما كان بقالقة وهو أطيب العود، وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب. [...] وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام، وليست بتملكة لكثرتها".^(٣)

أما الملمح الثاني فنشوء الفتن المتسببة بدمار البيئة بدافع الانتماء إلى دين أو طائفة أو عرق، وحينها يتحول الإنسان إلى آلة تدمير غير آبه لنتائج فعله مخالفاً بذلك حكمة خلقه القائمة على إعمار الأرض، ومنه: "ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَاق [...]، وهي من مدن

(١) السابق، ٤٨/٢-٤٩.

(٢) السابق، ٨١/٤.

(٣) السابق، ١١٨/٤.

دشت قفجق على ساحل البحر، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم، وهم أهل الصنائع، وأكثر بيوتها خشب، وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك، وكانت الغلبة للروم فانحصرت للترك أصحابهم وقتلوا الروم شرقتله ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن^(١). وإلى جانب ذلك يرد ما يحدث من صراع بين دينين من كفار ومسلمين، فتكون حرباً بدوافع دينية أكثر من كونها سياسية؛ لأنهما على أرض واحدة، من ذلك: "ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة، وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس، والأمطار بها كثيرة، وهم أهل جهاد؛ لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب"^(٢). ويمكن المقابلة وفق مرتبة ابن بطوطة بين كفار الزنوج وكفار الهنود، ومسلمي الزنج ومسلمي الهند، فمسلمو الزنج يغلب عليهم الصلاح والدين وأنهم مأمونو الجانب بخلاف مسلمي الهند، وفي هذا توكيد لقول سبق بأن المعيارية تكاد تكون عادلة ولا تأبه كثيراً للمحاباة.

وذكر خراب المدن والقرى وأحواض المياه شائع في الرحلة وله مسببات وفيرة، ومن أبرزها حدوث الفتنة بين طرفين أو أكثر بدافع الاتكاء على فكرة جعل الحرب مقدسة من منطلقات دينية، فدوافع الإنسان الذي يتغذى من مسلماته أدوم توقداً وأسرع شرارة، ولا سيما إذا كان بين جبهتين كبيرتين كما حصل بين التتار والعرب التي أتت جائحتها بالخراب على تدمير الإنسان المنتج للحضارة في ذلك الزمن، فقد دخل التتار "حضرة الإسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله! قال ابن جزي: أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول: لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث، فقال لي: هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه"^(٣). إن الفتك بالإنسان الذي ينتج علماً وحضارة ولا سيما غير المقاتل أشد من تخريب الحجارة المتراسة؛ فالأخيرة يمكن تعويضها سريعاً، واندثارها لا يترك غالباً أثراً ممتداً في البيئة مثل فقدان الإنسان الذي يحتاج إلى زمن طويل حتى يصل إلى مرحلة الإنتاج العلمي والحضاري، فما أن يصل مرحلة إنتاج المعرفة حتى تراه يبني ويطور ما سبقه إليه الآخرون، ثم يعد صفاً بعده يقوم بمهمته، ويستمر بوظيفته.

ولا تتطلب الفتنة شقاق طرفين من خلفيتين مفترقتين جذرياً، فقد يحدث مثلاً في عرق واحد اختلاف في بعض التفاصيل، كما حدث مع التركمان يقول: "وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها"^(٤). ولذلك فإن انعدام الفتنة بين الطوائف مع تفاوت عتادها وعددها يلفت نظر ابن بطوطة: "وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطاناً من الكفار منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم البتة، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف، وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ

(١) السابق، ٢/٢٤٤.

(٢) السابق، ٢/١٢١.

(٣) السابق، ٣/٢٤.

(٤) السابق، ٢/١٨٣.

عمالته، ويسمونه: باب أمان فلان، وإذا فرّ مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر أمن على نفسه، ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش".^(١)

٢- النظام السياسي:

تنظيم العلاقة بين الناس، وبسط النفوذ، والتعامل مع أطراف الجوار يخضع للنظام السياسي الذي يحكم بقعة ما. وارتباط الإنسان بالسياسة قديم، والذي يتغير عبر العصور البشرية تنظيماً، والارتقاء بأدواتها، ومهارات التفكير في استعمالها حسب ظروف البيئات المتعددة والأحوال المتنوعة^(٢). ويمكن أن يرى هذا التنوع في حفاوة ارتحال ابن بطوطة بالحديث عن مشتملات النظام السياسي وما فيه من دقائق الأمور وظواهرها اللافتة للنظر؛ لأن اجتياز الأراضي تنقلاً يقتضي تعدد السلاطين بها، كل وفق محيطه الجغرافي الخاص به، "فأدب الرحلات بيني بطبيعته؛ إذ هو نوع أدبي يجمع بين الأدب والسيرة الذاتية والتاريخ والتقرير العلمي والتاريخ الطبيعي".^(٣)

وفي مدينة دمياط يستدعي الانتباه أن نظامها السياسي أصدر قراراً ينص على حصر الداخلين والخارجين؛ لضبط حركة السير منها وإليها، لمعرفتهم والتعرف على وجهتهم، وهذه الإشارة يمكن أن تعيد الدارسين إلى إرجاع النظر في فكرة رائجة مفادها أن الارتحال قديماً سهل متاح ليس مثل اليوم الذي يخضع لعمليات دقيقة وضبط شديد لا يسمح بالتنقل دون صفة قانونية تمكن الإنسان من طواف الأرض كما يشاء، فتدعو إلى إعادة طرح السؤال: هل الفكرة القديمة بحرية التنقل تحتاج إلى إعادة مراجعة؟ أليس في الخبر الموثق ما يمكن أن يكون هناك مثله في العالم القديم؟ ثم إن كتب التاريخ تحكي عن حراسة الثغور ومراقبة العدو، فهل فعلت ما يشبه دور الجوازات في الدولة المدنية الحديثة؟ كل هذا فتقّ ذهن عنه حديث ابن بطوطة عن دمياط بقوله: "ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل، وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر في المراكب، [...] وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحرّاس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به".^(٤)

ومما يحقق للبيئة البعد عن الدمار العدل، فلا يفارق الشاء به الحاكم الجدير، فمتى ما حققه وجدت البيئة الصالحة للنماء، فعن أمير خوارزم: "ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره، فيجلس بمجلس معدّ له ومعه الفقهاء وكتّابه، ويجلس في مقابلته أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك، وشيوخهم يسمون الأرعجية ويتحاكم الناس إليهم، فما كان من القضايا الشرعية حكّم فيها القاضي، وما كان من سواها حكّم فيها أولئك الأمراء،

(١) السابق، ٢٨/٤.

(٢) انظر: عبد العباس فضيخ الغريبي، البيئة والجغرافيا السياسية، دار صفاء، عمّان، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٩ وما بعدها.

(٣) جو موران، العلم والمكان والطبيعة في النقد البيئي، ترجمة سمر طلبة، ص ٤٠١.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١/١٩٨.

وأحكامهم مضبوطة عادلة؛ لأنهم لا يُتَّهَمون بميل ولا يقبلون رشوة" (١) إن درء تهمة الميل والرشوة من أشد معززات الأحكام العادلة، فالميلُ لهوى عاملٌ داخلي والرشوة بالمال عامل خارجي، ومن خلالهما تقلب الموازين وينقلب الحق باطلاً، ولذا فالوعي بالنظام السياسي داخل البيئية يكون من طرف السلطان ورعيته، فمتى حدث اختلال بينهما مالت الرؤى القويمة، وبدأت مرحلة الخراب. ومن نماذج الوعي السياسي المتبادل داخل النظام بين السلطان والرعية: "لما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله [...] وذلك أن عامل الجبل، الخائن الذي ختم له بالشقاء، عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده المغلولة على الطاعة، وفارق عصمة الجماعة، [...] وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تتفق على إطفائها كرائم الأموال، ويستعد لاتقائها بالفرسان والرجال، فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم، وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذه الفتنة، فلم تكن إلا أيام يسيرة، وراجع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الثائر، وخالفوا الشقي المخالف، وأقاموا بالواجب من الطاعة، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق، وأتي بهما مصفدين إلى الحضرة العلية، فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين وأراح الله من شرهما. ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس ما لم يكن في حساب أهلها، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وأدر عليهم الأرزاق ووسع لهم الإقطاع، وحرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الإحسان" (٢).

والبيئية ببعض مكوناتها من أدوات النظام السياسي من مثل تفعيل دور الحمام لمواجهة المدعي بأنه المهدي، فأشهر تمرد "بالتجهيز لقتال المسلمين، وأن يبدؤوا بمدينة جبلة، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفاً عند القتال، فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم، وثار المسلمون من مسجدهم، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤوا، واتصل الخبر باللاذقية، فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره، وطيرت الحمام إلى طرابلس، فأتى أمير الأمراء بعساكره وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفاً، وتحصن الباقيون بالجبال وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه ديناراً عن كل رأس إن هو حاول إبقاءهم. وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر وصدر جوابه أن يحمل عليه السيف، فراجعته ملك الأمراء وألقى له أنهم عمال المسلمين في حراثة الأرض وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمون لذلك، فأمر بالإبقاء عليهم" (٣).

إن النظام السياسي يتخير الموقع الذي يتحوط فيه من الخونة ويحتاط منه للأعداء، فيظهر أثره في اختيار البيئية المكان للسلطة؛ لبناء سلوك بيئي حربي، ومنه: "ثم سافرنا إلى مدينة يزنيك [...]. وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كُره بزاوية فتى من الأخية، ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض، ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تثبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطيع دخولها إلا على طريق واحد مثل

(١) السابق، ١٢/٣.

(٢) السابق، ٢١٤/٤-٢١٥.

(٣) السابق، ٢٩٢/١.

الجسر لا يسلك عليها إلا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة. والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها إلا أناس قليلون^(١).

والمعتاد في إجراءات النظام السياسي ظهور السلطان للناس ومحدثتهم على مرمى النظر، غير أنه وُجد من يكلمهم من وراء حجاب، كما في الحديث عن بلاد برنو: "وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا، وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب"^(٢). فاستبان التفاوت الإجرائي من مكان إلى آخر وفق مرثيات النظام نفسه، وفي هذا السياق توثيق لما يُطلق عليه اليوم البروتوكول السياسي (Protocol)، وهي مجموعة من القواعد والتوجيهات التي تُتبع لأداء عمل ما.

وتلك القواعد تتباين من بيئة إلى أخرى، فتعطي دلالة على درجة الوعي الذي بلغه بلد ما أو عرق في تراتبية ضوابطه السياسية في بيئته، فيصل إلى مرحلة عالية من مثل تشكيل الوقوف وتنظيم الصفوف، فتنتقل التراتبية المعنوية في النظام السياسي بأن تتجسد في هيئة مادية بالجاه والمنصب، ومنه: "ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيلة ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم، إنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى، وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له، إما في الميمنة أو الميسرة، فإذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه، ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقبا، ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة، وتحتهم مراكب السلطان، وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات، فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم، فإذا قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا إلى أن تتم عشر نوبات، فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنفار والبوقات، ثم مماليك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة"^(٣).

٣- النظام الاجتماعي:

من أكبر المساحات التي حظيت بها الرحلة النظام الاجتماعي في البيئة، فهو يمس كل الطبقات، ويفرض نوعاً من السلوك الذي يعم بين أفرادها في المنظومة الاجتماعية. وذكرها أخيراً بعد نظامين؛ فلأنها تخضع لسلطتي الدين والسياسية اللتين تشكّلان نوع العلاقة بين الأفراد، ومن ثم نشوء عدد من المظاهر والعادات التي يحتكم إليها المجتمع في كثير من تعاملاته وفق بيئته الجغرافية.

(١) السابق، ١٩٨/٢.

(٢) السابق، ٢٧٥/٤.

(٣) السابق، ٧٤/٢-٧٥.

وفي هذا السياق، يُلاحظ عددٌ من القواعد الاجتماعية التي سكنتها البيئات المتنوعة، طبقاً لاختيارات حياتية أو مؤثرات دينية أو حوافز أخلاقية أو اتباعاً لعادات مُبتدعة في مناحي الحياة. فابن بطوطة مدونٌ موسوعي، وخصوصاً أن كثيراً مما قاله يدخل في باب التاريخ والحضارة، وما هذه إلا إحدى وظائف الكتب الأدبية في حقل الثقافة بعيداً عن فكرة التخصصية الصارمة التي قتلت العلوم بالفصل الشديد بينها في زماننا وإن عاد الالتحام -على استحياء- مجدداً من بوابة الدراسات البيئية.

ومما يبدأ به في النظام الاجتماعي الحديث عن أدب المائدة (Table Etiquette) فما تتحدث به الحضارة الغربية من وجود قواعد في المجتمعات النبيلة على موائد الطعام وحضور الاحتفالات ذكَّره قديم في التراث العربي على نحو واضح منذ العصر العباسي^(١) في المشرق العربي بما فيه من ظواهر بيئية^(٢)، وربما في الحضارة الشرقية عموماً قبل الحضارة الغربية؛ فالأولى أسبق في النهوض من الثانية.

وسلوك تناول الطعام وترتيبه بين يدي السلطان وضيوفه أشبه بالمائدة المفتوحة (Open Buffet) في النزل والمحافل التي لها نظامها من ترتيب بدء الأكل باختيار أنواع معينة حتى يصل الأكل إلى ختام التناول بقطعة الحلوى. ومن ذلك ما رواه ابن بطوطة عندما زار أحد سلاطين الهند: "هو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم، [...] وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإفطار وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطَّالم [...]، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة وتجعلها في الطَّالم وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنب، فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح، فإذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطَّالم غرفت غرفة أخرى من الأرز وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة فيؤكل بها الأرز أيضاً فإذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به، فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضاً، فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون إطعامهم فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده، ثم يشربون على ذلك الماء السخن لأن الماء البارد يضرُّ بهم في فصل نزول المطر"^(٣).

وقد يصل تأثير الطبقة الاجتماعية العالية في كيفية تناول الطعام على المائدة بأن يكون البدء في الطعام وفق التسلسل من الأعلى إلى الأسفل، ومن الشواهد على مثل هذا ما جاء عن السلطان محمد أوزبك الثاني وقت احتفالهم بالعيد: "ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك، وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة، وتوضع بين يدي كل أمير مائدة ويأتي الباورجي وهو مقطّع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفي

(١) انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط٨، (د.ت)، ص٤٤ وما بعدها.

(٢) انظر: إيمان مطر السلطاني، وآخرون، النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، العدد ٢٣، ٤٤٢هـ/٢٠٢١م، ص٢١.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٣٥-٣٤/٤.

حزامه جملة سكاكين في أعمادها، ويكون لكل أمير باورجي، فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباروجي اللحم قطعاً صغاراً. ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم. ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب، [...] فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدر بيدها، وخدمت برجلها، ثم ناولته القدر فشرب ثم تأخذ قدحاً آخر فتناولته للخاتون الكبرى، فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم يأخذ ولي العهد القدر ويخدم ويناوله أباه فيشرب ثم تناول الخواتين ثم أخته ويخدم لجميعهن، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدر ويسقي أخاه له ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد، ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك".^(١)

أما على مستوى الطبقة الاجتماعية الأقل مثل الفقراء في الزوايا، فإن لهم تنظيمًا يختص بهم، فعن مسجد عمرو بن العاص: "ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح، وهم أعزب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية"^(٢).

مما سبق يُلاحظ أن النظام الاجتماعي في البيئة له سننه المتميزة بين الطبقات غير أن المشترك بينها هو النظام الإجرائي الذي يُتبع داخل المحيط البيئي الواحد، وهذا في حد ذاته يُشعر بالوعي الإنساني تجاه غيره، وكذلك تجاه الذات بمقاييس تلك الأنظمة إلى مناطق أخرى تقترب أو تبتعد عن النظام الاجتماعي للآخر.

ومن النظام الاجتماعي في البيئة ما يحدث في الاحتفالات التي يلتقي فيها الخاصة بالعامّة، فيكون التعبير عن نظام الفرحة في حفل جماعي ببصمة اجتماعية يشارك فيها الصغير والكبير والرفيع والوضيع، فيتقاسمون مظاهر البهجة والسرور، وهذا مما حرص عليه ابن بطوطة كثيراً؛ فهي من الظواهر الاجتماعية المثيرة لديه، ومنها الاحتفالات بالعيد في الهند: "ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلي بكسوة وخرجنا إلى المصلى، وقد زُينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى وفُرشت الثياب فيها وجعلت كتاتي الودع يمناً ويسرة، وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز، ومد من شجرة إلى أخرى شرائط، وعلّق منها الجوز الأخضر، ويقف صاحب الدار عند بابها فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوباً من الحرير أو القطن فيأخذها عبده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضاً، والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز، وعمامة كبيرة وهو

(١) السابق، ٢/٢٣٩.

(٢) السابق، ١/٢٠٤.

متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور، وفي رجليه النعل وجميع الناس سواء حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه، والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلّى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم له الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة، ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك".^(١)

إن النظام الاجتماعي في البيئة تجاوز الاحتفال إلى ذكر الأزياء، فالنموذج سابق فيه ذكر لزيّ السلطان في المناسبات، وكيفية لباسه، ونوع خاماته النسيجية، وموطن صنعها، وضم إلى ذلك ذكر مراتب الناس الطبقية، فالسلطان ينتعل وغيره يسير حافياً، وعلى ما فيه هذه الصورة من تمايز طبقي شديد إلا أن الدهشة تقل عند تدرك عمق الثقافة الهندية وما فيها من طبقية موغلة ما تزال موجودة إلى اليوم. ويظهر أيضاً التفاعل بين مكونات البيئة من الإنسان والنبات في الاحتفال، فخروج السلطان والأمراء والناس هو المشهد الاجتماعي البشري في النص، وفي هذا السياق الاجتماعي توظف النباتات والأشجار للاحتفال بغرس الأشجار على الطرقات وتعليق الشرائط المبهجة عليها.

وفي مظهر ثانٍ في بيئة مغايرة تذوب الفوارق بين الطبقات في نظام الاجتماعي، فيشارك الغرباء السكان محفلهم الاجتماعي البهجة والسرور، كما في مدينة زبيد ببلاد اليمن: "وذلك أنهم يخرجون في أيام البُسْر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفاتت الاخلاق الحسنة والمكارم"^(٢).

وبالحديث عن النظام الاجتماعي، فإن الخرافة من المكونات الأساسية لأي مجتمع، فينسج عليها القصص، أو تُسند إليها التسميات، أو تُعلق عليها الأسباب، ومن مهام "النقد الإيكولوجي" أن يأخذ على عاتقه تحليل الدور الذي تؤديه البيئة في تشكيل مخيلة جماعية ثقافية ما في لحظة تاريخية محددة"^(٣). وفي ظني أن الخرافة والأساطير في الرحلة جديرة بالتأمل والتصنيف والدراسة، وما يعرض هنا هو ما له علاقة بالبيئة في النظام الاجتماعي، ومنها ما رواه عن كثرة الشياطين في صحراء السودان حين تغوي الدليل/الكشاف فيضل الطريق ثم يهلك، وحتى يحتاط الإنسان الذي نشأ على هذه الخرافة في نظامه الاجتماعي فإنه يجد النجاة بالتكشيف عن الطريق والسعي إلى معرفة ما فيه وتهيئة ظروفه لمن سيسافر، ومع هذا قد لا ينجو: "والتكشيف: اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيواتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع، [...] وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل إيواتن بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم. وتلك الصحراء كثيرة الشياطين، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تتسفها الريح فترى جبلاً من الرمل في مكان ثم تراها

(١) السابق، ٧٢/٤.

(٢) السابق، ١٠٥/٢.

(٣) معين رومية، من البيئة إلى الفلسفة، معابر للنشر، دمشق، ط١، ٢٠١١م، ص ٥٧.

قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك من كثر تردده، وكان له قلب ذكي، ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف الناس بالطريق، واكثرنا التّكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسوّفة، وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك".^(١)

ويبدو أن الحديث عن الجن من تقاليد القول الرحلية، وإشارة إلى طريقة العقل العربي في سرد رحلته، ويبدو أن المخيال العربي مفتون في سردياته بهذا النوع من الأحاديث منذ تعليقه لنبوغ الشعر بعبور وادي عبقر. وهذا السلوك في السرديات العربية التراثية لافت للنظر، وهو أقرب إلى الثقافة الشعبية منها إلى الثقافة العاملة، وربما لأن العقل إذا عجز عن إيجاد تعليل مادي ملموس يوعز ما غاب عنه إلى عالم الغيبيات، ثم تتطور هذه الحكاية حتى تتحول إلى حقيقة من خلال الإيهام بالواقع الذي لا يمكن إنساده: "حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليماني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً، وكان يظهر لهم في كل شهر عفرية من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم إذ رأوه أخذوا جارية بكرة فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة، وهي بيت الأصنام، وكان مبنياً على ضفة البحر، وله طاق ينظر إليه منها ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميّته".^(٢) وأحياناً تعلل الخرافة التسمية، فمثلاً جبال الطبول سُميت بهذا؛ لأن أهل المنطقة يسمعون قرع الطبول ليلاً يصدر من تلك الجبال: "ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأنجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين، [...] وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد، ويزعم أهل تلك البلاد أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة".^(٣) وفي ظني أن تفسير ذلك الصوت سببه ظاهرة طبيعية تصدرها الرياح وقت عبورها في تجاوير الجبل وتعليقها بيوم الجمعة هو سردية اجتماعية تزيينية للخرافة، ولا سيما أن اليوم هناك الكثير من الدراسات العلمية/الجغرافية التي تفسر هذه الظاهرة.

والحديث في النقد البيئي عن النظام الاجتماعي لا ينفك عن ذكر النسوية وربطها به من حيث منظور البيئة؛ فهناك دراسات تُخصّص فرعاً من النقد البيئي أطلقت عليه النسوية البيئية (Ecofeminism)، وطرحها يغوص في عمق الارتباط بين المرأة والبيئة والعلاقة التبادلية بينهما، وما يمكن أن ينشأ في طور هذا الاتصال من مظاهر سلبية كانت أم إيجابية، فقد "شكّلت صورة الأرض كعضوية حيّة وأم حاضنة قيّداً ثقافياً يحد من أفعال الكائنات البشرية. فالمرء لا يستطيع بسهولة أن يذبح أمه، أو ينقّب في أحشائها عن الذهب أو يشوه جسدها"^(٤). والطرح النسوي للبيئة لا يقف عند فكرتها الأساس المتمثلة في صفة المطالبة بالحقوق؛ إنها تقدم تفسيرات عميقة لسبب تعلق المرأة بالبيئة والانغماس فيها، وإبداء التعاطف تجاهها ولا سيما مع المخلوقات الضعيفة، بالاصطفاف معها في كفة واحدة تناظراً مع الكفة الأخرى التي فيها الرجل. وهنا

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٤٢/٤-٢٤٣.

(٢) السابق، ٦٢/٤.

(٣) السابق، ٣٦٤/١-٣٦٥.

(٤) مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية، ترجمة: معين شفيق رومية، ٣٦/٢.

نستدعي بداية القول في الدراسة عن الإنسان الرجل والإنسان المرأة وأن الخراب والتدمير ارتبط أكثر بالرجل الذي يقود الحروب، ويسعى لإخضاع البقعة الجغرافية، أو يتعصب لمنطق تفكيره تجاه منظومة ما، وكارن وارن (Karen Warren) له رأي في النقد الحديث بأن الطبيعة على حد وصفها شأن نسوي؛ إذ إن "سيطرة الرجال على السياسة والاقتصاد والإدارة هي سبب تدمير البيئة [...] في حين أن قيم الأمومة والتراحم والعطف التي تحملها النساء هي الكفيلة عند مشاركة النساء [...] بحماية البيئة ورعايتها والحفاظ عليها".^(١)

ورصد النسوية البيئية في النظام الاجتماعي واضح في مواضع متعددة، من مثل الحديث عن نساء الترك بقوله: "والنساء لدى الأتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم إذا كتبوا أمراً يقولون فيه: عن أمر السلطان والخواتين، ولكل خاتون البلاد والولايات والمجاي العظيمة، وإذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة"^(٢). فالمرأة تُذكر مع السلطان في مراسلاته وأوامره ولها نصيب وافر من الأموال؛ تقديراً لها كما ذكر ابن بطوطة الذي انشد لهذا؛ لشذوذه مثلاً عن بقية السلاطين الذين يعرفهم، مع أن عدم ذكرهن لا يشترط منه فهم الإهانة، وربما أيضاً جاء فهم التوقير من حيث إن المرأة شريكة للسلطان في الأمر على فرضية مجاورة الأسماء في الرقعة الصادرة، ومما يسوغ فرضيات التأويل الماضية الوصف بالعجب عندما ترتقي المجاورة صعوداً إلى مرتبة أعلى شأناً من الرجل نفسه كما في بلاد أوزبك خان: "ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأناً من الرجال".^(٣)

وقد لا نحتاج إلى تأويلات بعيدة تتضمن معنى الحق والمشاركة، ففي منعطفات الرحلة ذكر مواقع جغرافية تولت المرأة عليها السلطة بدهاء كالسلطان من الرجال: "ولما كان اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيوكوكري استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب، [...] لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة مني أن أحضر معه، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم، [...] فقالوا: أجب الملكة! فأتيته وهي بمجلسها الأعظم وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمة يعرض ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفرش بالحريز وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل، [...] ثم سألتني من أي البلاد قدمت؟ فقلت لها: من بلاد الهند، فقالت: بلاد الفلفل؟ فقلت: نعم! فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها، فأجبتها، فقالت: لا بد أن أغزوها وأخذها لنفسني، فإني يعجبني كثرة مالها وعساكرها! فقلت لها: افعلي! وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز [...] وأخبرني الناخودة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الأبطال، وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا يهزمون، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهمزت

(١) أماني حسن يوسف، وآخرون، اتجاهات النقد البيئي وتداخله مع المناهج الحداثية وما بعد الحداثية، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، مصر، العدد ٤٦، ٢٠٢٢م، ص ١٥.

(٢) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٧٢/٢.

(٣) السابق، ٢٢٥/٢.

عساكره، وجاءت برأسه على رمح فافتكّه أهله منها بمال كثير، فلما عادت إلى أبيها، ملّكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها. وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم".^(١)

إن النظام الاجتماعي الذي تحيا فيه الملكة وهالة الأبهة المحيطة بها، يثبت أن بين البيئات المرتحل منها وإليها تفاوت يخضع لحالة القوة والضعف. وهذا يكاد يكون مألوفاً، إلا أن الثقافة العربية على الأقل اعتادت أن السلطة للرجل، وإذا تقلدتها امرأة، فإن الأمر لافت للنظر ويدعو إلى التأمل، وخصوصاً أن الملكة جاوزت الحد في الدهشة؛ فهي لم تكتف بتولي السلطة، ثم الاستعانة بالوزراء والعسكر من الرجال، بل بنت فرقة نسائية؛ لتنفيذ ما تحتاج إليه في دولتها، مع المقايسة بأنهن كالرجل، فامتلكت من القوة ما يدعو إلى الكشف عن رغبتها بغزو الهند لما فيها من ثروات، فهي مقدامة واثقة، تُتجز المهمات بنفسها إذا أعوز الأمر. ومما حكاها ابن بطوطة عن تلك المرأة ومطامعها التوسعية يستدعي القول بأن "الموارد الطبيعية برهنت على أهميتها الحاسمة خلال الحرب ويمكن اعتبارها سبباً رئيساً في الصراع، إن الخوف الحقيقي أو المبالغ فيه من نقص الموارد وتراجع مستويات العيش قد ورط في الماضي بعض الدول في الحرب"^(٢). وبهذا الميزان فإن المرأة تفعل مثل الرجل وتتراجع عن فكرة المحافظة على البيئة واتهام الرجل بتدميرها، وهذا يطرح سؤالاً في غاية الإحراج: هل المرأة إذا قامت بأعمال الرجل تتسل من أفكار الطرح النسوي؟ وإن فعلت ذلك، وهي ستفعل: ما مدى جوهر تلك القضايا وأهميتها أم أنها مجرد مشاغبات للرجل؟! في الحقيقة هذه أسئلة كبرى تضع عدداً من الأطروحات الجندرية على المحك.

والحديث عن النسوية البيئية في هذا السياق لا تخلو من مبالغة، وربما نُسجت حولها الكثير من الأساطير التي تحاول تشكيل بروباغندا/دعاية (Propaganda) لخلق سمعة تحمي الملكة. وأقول هذا؛ لأن هناك ما يشير في الرحلة نفسها -ولو نسبياً- إلى أن المرأة ليست للقتال ولا أهلاً له، فترى نفسها ضعيفة فيه، وتلصقه بالرجل، وتغيره بجبنه إذا توانى عنه، ولا سيما إذا سلبت منه الإرادة، فتتمثل الجندرية على نحو سافر لا يمكن تجاوز ثنائيتها بين الرجل والمرأة، ومن ذلك أنه لما "وُلّي السلطان أبو سعيد، وهو صغير [...] استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان، وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم، ويذكر أنه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها، فلم يكن له سبيل إليه، فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يوماً زوجة أبيه دنيا خاتون، فقالت له: لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه، فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام، فقالت له: لقد انتهى أمر دمشق خووجه بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك، وأنه بات البارحة عند طفى خاتون! وقد بعث إلي وقال لي: الليلة أبيت عندك، وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر، فإذا صعد إلى القلعة مختفياً برسم المبيت أمكنك القبض عليه"^(٣). والبيئة النسوية لا تقف عند مطالعة الطبيعة ومطاردة حيواناتها والاحتفاء بنباتها كما تسوق كثير الدراسات؛ فهي تحرض هنا الرجل، وتتزع

(١) السابق، ١٢٢/٤-١٢٤.

(٢) بول وورد، وآخرون، البيئة: تاريخ الفكرة، ص ٥٠.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٧٠/٢.

منه الجنس البيولوجي مجازاً، وتزاحمه عليه؛ لحثه على اتخاذ قرار يليق بكلمة "رجل" مع تقديم حيلة تمكّن من تنفيذ الهدف المخطّط له.

ثانياً: البيئة والامتثال:

بعد أن تُشرع البيئة ميثاقها وفق معطياتها، فإن المرحلة الثانية للبيئة والقانون تأتي لقياس درجة فاعلية الامتثال ومستواه. والامتثال للقانون في البيئة هو: مقدار تنفيذ القواعد والقوانين التي رسّختها السُّلطة في نظامها السياسي، أو الجماعة في نظامها الديني والاجتماعي، أو غيرها من مناحي الحياة، ثم تتبّع مستوى التفاوت في التعاطي معها، وما يترتب عليها من ثواب أو عقاب.

إن الامتثال للقانون في البيئات يتأرجح بين دوافع داخلية وأخرى خارجية؛ لأن القانون يفرض سنناً قد لا توافق هوى بعضهم، أو على أقل تقدير، لا يمكن أن يفعلها الجميع على رتبة واحدة من الاتقان والتفاعل، أو الاحترام إذا احتجنا إلى قول ذلك. ولذا فإن التآرجح بين طرفي القبول والرفض يمكن قياسهما بالإجابة عن سؤال: من أين نبع الامتثال؟ ولتقضي الإجابة تبيّنت مظاهر جوهرية ثلاث:

١- الإلزام والالتزام:

لا يأتي الامتثال دون إلزام به أولاً حتى يتحول في مرحلة تالية إلى التزام نابع من الداخل؛ فالعلاقة بينهما تبادلية إلى حد كبير، والحاجة في ذلك إلى الزمن واضحة؛ فالترسيخ للقانون في البيئة يستوجب قوة التطبيق وترويض المتمردين عليه، وما أن يستقيم العمل به تطويعاً، تخف شدة المتابعة؛ لقلّة خارقيه والشاذين عنه.

إن العقوبات من أبرز أدوات الإلزام الحاتّة لاحقاً على الالتزام، فبدون العقوبة للمخالف تكون البيئة معرضة لحدوث ما يفسدها أو يتسبب في خلل نظامها. ويروي ابن بطوطة الكثير من العقوبات في بيئات متعددة، ففيها ما هو مبالغ فيه شديد القسوة، ومنها ما هو دون ذلك. ولعل ما كان قاسياً منها وفق نظرتنا اليوم، أو ما نراه يفوق العقوبة الشرعية في الدين الإسلامي، يمكن تسويغه بأنها عقوبات تناسب زمنهم، وخصوصاً مع اختلاف العقائد، وهذا ما ينبغي الوعي له في حدود الرحلة، بأن لا نقايس ما في ذلك الزمن بزمننا، أو نوازن بين ما عند غير المسلم بما هو عند المسلم، فشتان بينهما.

ومما يسترعي الانتباه عند ابن بطوطة حديثه بإعجاب عن الأمن الذي يقطعه لبعض الطرق، وبالتحديد التي فيها مظنة اللصوصية وقطع السبيل وفقدان الحياة قتلاً، يقول عن طريق بالهند: "ولم أر طريقاً آمن من هذا الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه! وأخبرت أن بعض الهنود مرّوا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة، وبلغ خبره إلى الحاكم فأمر بعود فركز في الأرض وبري طرفه الأعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه، ومدّ الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من

ظهره وترك عبرة للناظرين! ومن هذه العيdan على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعظوا، ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فإذا رأونا تتحوا عن الطريق حتى نجوز".^(١)

إن هذا النوع من العقوبات القاسية قادر على جعل البيئة في أمان ليس للإنسان فقط، حتى الغابة والأشجار، فلا يعيب بها أحد ولا يقترب منها إلا صاحبها الذي يراعيها فطرةً؛ فهي ملكه. والإذعان الشديد للامثال لا يتأتى بالتفرقة في تطبيقه، وحينئذ يمكن سد الفجوة الظنية التي تخطر ببال أحدهم، بأن العقوبة الصارمة جداً لا تطبق على الخاصة مثل العامة، إلا أن ابن بطوطة دحض الظنية بحديثه عن أحد أبناء الملوك: "أخبرت أن سلطان كولم ركب يوماً إلى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين، ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك، فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر إليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين"^(٢).

والامثال لشدة العقوبة ينعكس على الأرض والدواب في مراعاها، فتجدها ترعى دون حراسة؛ اطمئناناً إلى أن السارق لن يجرواً على اختلاسها أو الأكل منها، كما في طرف من بلاد الترك: "وخاصية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب، وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية، ولذلك كثرت الدواب بها، ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة، وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق كُلف أن يردّه إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك، فإن لم يكن له أولاد، ذبح كما تذبح الشاة"^(٣).

وبعض العقوبات لها طقوس احتفالية تشهيراً بالمعاقب، ومثله التخلف عن استقبال السلطان وتوديعه، فالمتقاعد عن المجيء يعاقب، ومنه: "ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في نزوله ورحيله وكيفية تنقله وسفره [...] وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته أن يؤخذ تماقه فيملاً رملاً ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل؛ فيؤتى به إلى الأمير فيبطح على الأرض ويضرب خمساً وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعاً ووضيعاً لا يحاشون من ذلك أحداً"^(٤).

ومن الالتزام النابع من الداخل اشتباه أهل القرية بأن مزارعاً قتل امرأة ثم الوشاية به للسلطان، وهو نتيجة للإلزام الذي احتاج وقتاً حتى يعمل في الطباع والصفات؛ فالمؤمن الحق تهذبته تعاليم الدين، فلا يقبل بوقوع الاعتداء ظلماً: "ولما خلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها الأصغر، واستقل بالملك مدة، ثم إن رضية وزوجها خالفاً عليه، وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهياً لقتاله، وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولّي الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدتها الإعياء،

(١) السابق، ٣٦/٤.

(٢) السابق، ٥٠/٤.

(٣) السابق، ٢٢٠/٢.

(٤) السابق، ٧٤/٢-٧٥.

فقصدت حرّاً رأته يحرث الأرض، فطلبت منه ما تأكله فأعطاهما كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم، وكانت في زي الرجال، فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً، فعلم أنها امرأة فقتلها، وسلبها وطردها فرسها ودفنها في فدّانه، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعهها، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة، وهو الحاكم، فضربه، فأقرّ بقتلها، ودلّهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفّنها، ودفنت هنالك^(١).

وقد تختار المرأة أن تحرق نفسها مع زوجها الميت تسليماً منها بهذه العادة الاجتماعية في بيئتها والتزاماً: "رأيتُ الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم: ما الخبر؟ فأخبروا أن كافراً من الهنود مات وأججت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه، وبعد ذلك كنتُ في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنا السلطان في إحراقها فيأذن لهم فيحرقونها"^(٢).

واستمراراً للحديث عن العادات التي يمثل لها في البيئة - وإن كان القادم عليها من خارجها- ما ذكره ابن بطوطة بأن أحدهم ما استطاع الزواج من فتاة يحبها حتى يستأذن السلطان؛ الذي يستأثر بها لنفسه إن راقته: "وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاه بعض البلاد، وكان الفتى يتعشق بنتاً لبعض الأمراء ويريد تزوجها، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس: أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر السلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها فإن أعجبه صفتها تزوجها وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤون. والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف، ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلاً إليها"^(٣).

إن الإلزام ومن ثم الالتزام بيني سمعة بيئية، فما قيل عن الأمن في الطرقات ورعي البهائم والدواب بأمان، يعمر الأرض ويجنبها الفوضى والدمار الذي يحيط بالعابرين والمقيمين، فيتم المنشود ويلمس الأثر.

(١) السابق، ١٢٣/٣.

(٢) السابق، ١٠٠/٣.

(٣) السابق، ١١٦/٤.

٢- التخلق والأخلاق:

في حقل الفلسفة نقاش عن العلاقة بين الأخلاق البيئية^(١) والقانون من جهة، ومقدار درجة الامتثال من جهة أخرى، وهل الإلزام بقوة القانون يُعد من الأخلاق أم أن الأخلاق هي التي تدفع نحو الالتزام بالقانون؟ وهذه المنطقة الفلسفية الشائكة يحث على تأملها في سياق الدراسة مقدار تخلق الإنسان بالأخلاق المفروضة عليه أو وجودها أصالة في تكوينه الذاتي تجاه الآخرين^(٢) بما فيها البيئة.

وهذا الطرح قديم الجذور في التراث العربي، فعند مطالعة الرسالة الثامنة من رسائل إخوان الصفا، نطالع شكوى الحيوان إلى ملك الجن من فساد الإنسان واعتدائه^(٣)، وهذا يعطي تساوقاً في الوعي بين المادة المطروحة من الأدب القديم وما جاء متأخراً فيما يسمى النقد البيئي في العصر الحديث، وأجد في هذا فرصة لقول: إن التراث العربي يحمل كثيراً مما قال به النقد الحديث على نحو يبعث للاطمئنان بأن تلك الإشارات المتقدمة من سلف أدبنا تعطي دلالة صريحة على وعيهم وإدراكهم لمحيطهم أو الاستشراف من خلال كتاباتهم؛ فالأدب وفلسفة البيئة كل منهما "يتساءل بعمق عن العلاقات بين البشر وبيئاتهم الطبيعية"^(٤).

إن الإنسان بوصفه جزءاً من البيئة عليه جانب أخلاقي رفيع تجاه البيئة^(٥)؛ لاستمرار الاستدامة. ووعي الإنسان بمنهجه الأخلاقي، وإدراك مقدار ما يلحقه من أذى، يتعاظم بقدر مسؤوليته، وما يملك من قوة، التي إن اتجهت إلى الجانب السلبي أحدثت أثراً عنيفاً، كما فعل تغلق شاه بمدينة دهلي، عندما أرتته أخلاقه السلبية على التدمير، فمن أعظم "ما كان ينقم على السلطان إجلالاً لأهل دهلي عنها، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه، [...] فعزم على تخريب دهلي، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد، فأبوا ذلك فنأدى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ثلاث، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور، فأمر بالبحث عن بقي بها فوجد عبيده بأزقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى، فأتى بهما، فأمر بالمقعد فرمى به في المنجنيق، وأمر أن يجر الأعمى من دهلي إلى دولة آباد مسيرة أربعين يوماً، فتمزق في الطريق ووصل منه رجله! ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعاً وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها، فحدثني من أثق به، قال: صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره فنظر إلى دهلي، وليس بها نار ولا دخان ولا سراج، فقال: الآن طاب قلبي، وتهدن خاطري! ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها وضخامتها، وهي من أعظم مدن الدنيا

(١) انظر:

- معين رومية، من البيئة إلى الفلسفة، ص ٣١.

- مها علي حسن، الأخلاق البيئية من منظور براجماتي، مجلة بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، مصر، السنة ٤٧، العدد ٦١، مارس ٢٠٢١م، ص ٣٠٠.

(٢) انظر: داليا عبد الله تونسي، التعليل الأخلاقي بين البنيويين والنسبويين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م، ص ١٦ وما بعدها.

(٣) انظر: إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مراجعة: خير الدين الزركلي، هنداوي للنشر، القاهرة، ط ١، ٢٠١٨م، ١٥٦/٢.

(٤) مايكل برانش، النقد الإيكولوجي، ترجمة: معين رومية، ص ٣٤.

(٥) انظر: أماني حسن يوسف، وآخرون، اتجاهات النقد البيئي وتداخله مع المناهج الحداثية وما بعد الحداثية، ص ١٢.

وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة^(١). إن العنوان المناسب للفعل السابق: (تدمير المدينة وفشل تنامي الاستدامة)، فالدك المتعمد لدهلي من جهة، أفسد بقية البلاد من جهة ثانية دون قصد، فهي كبيرة جداً لا يعمرها إلا أهلها بكثرتهم وخبرتهم وحرفتهم، فتخربت دهلي بفكرة دافعها عدم التسامح، وغياب الحكمة، وذهاب الرأي، فباتت علامات الموت من اختفاء النار والضوء ودخان المواقد سبباً للسعادة بالإعطاب، وهذا يخالف أخلاقيات البيئة التي تتطلب تحقيق مبدأ الإحساس بالمسؤولية.

وعلى النقيض يأتي نموذج يحث على مبدأ تحمّل المسؤولية، وتعميق الحس الأخلاقي تجاه المجتمعات البشرية، فمثلاً احتكار التجار وقت شح السماء وقحط الأرض وجفاف الزرع، تردعه السلطة وقتئذٍ للدفع نحو التخلّق بالأخلاق السوية في البيئة المنكوبة، بمنع السيطرة على الأسواق، والتحكّم في البضاعة، ومن ثم رفع الأسعار. ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي بأنه: "من خيار السلاطين، وأهل الهند يثنون عليه كثيراً، وكان يتفقّد أمور الرعيّة بنفسه ويسأل عن أسعارهم، ويحضر المحتسب، وهم يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك، ويذكر أنه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر في الرّتب، فأمر برفع ذلك، [...] وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر، ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه، فامتتع الناس من بيعه بذلك الثمن، فأمر أن لا يبيع أحد زرعاً غير زرع المخزن، وباع للناس ستّة أشهر، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس، فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع، فأذن لهم على أن باعوه بأقلّ من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها"^(٢).

ومن النموذجين السالفين تُعقد المقارنة بمقياس الأخلاق بين سلوكيّين بمعيّار بيئيّ، فالأول بقرار يخالف الحكمة تدمرت به مدينة كاملة/دهلي بعد ازدهارها، ثم لحق الكساد والخراب بقية المدن المحيطة؛ لإنقاذ المدينة المدمّرة. وعلى النقيض من ذلك سلطانٌ يعي أهمية وجود الإنسان الفاعل في البيئة، فينتج ويزرع ويحث على الاستقرار الاقتصادي؛ فهجرة الناس إلى مكان آخر أقل كلفة طلباً للعيش يعرّض المدينة للكساد ومن ثم الخراب، فتكشّف الوعي الفذ الذي يستحدث الحلول لضمان ديمومة التنمية. وربما يعرض للذهن أن هذا متصلٌ بالنظام السياسي أكثر من الأخلاق نفسها. وهذا يمكن قبوله في سياق محدود جداً إذا جردته من الأخلاقيات العامة وتعاملت معه بإجرائية شديدة؛ فالسياسي أيضاً لديه دوافعه الأخلاقية التي لا يمكن تجاهلها، فهو الأقدر على ذلك؛ لما يملك من سلطة.

ومن مظاهر الأخلاق في البيئة الاحتشام في الحمّامات التي تتطلب التعرّي والكشف عن الجسد، فالداخل إلى حمّامات بغداد يجد في كل خلوة حوضاً "من الرخام فيه أنبوبان، أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد، فيدخل الإنسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك، وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال، فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد، وكل داخل يعطى ثلاثاً من الفوط: إحداها يتّزر بها عند دخوله والأخرى يتّزر بها عند

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٩٣/٣.

(٢) السابق، ١٣٠/٣-١٣١.

خروجه، والأخرى ينشّف بها الماء عن جسده، ولم أر هذا الاتقان كلّ في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها في ذلك"^(١).

وفرق شاسع بين التمسك بالأخلاق وزوالها؛ فالحديث عن بيئة يتعرّى أهلها أمام بعضهم ولا تُستر فيه العورات يُحدث شيئاً من الاشمئزاز، ويصل التفكير بذلك إلى جعل البشر مع الحيوانات في طبقة واحدة؛ إذ يتنافى فعلهم مع مبادئ تحضّر الإنسان المتمدن وسماته، كما في بعض البيئات المغرقة في محليتها، فتجد عرقاً أو أقواماً يعيشون في بقعة محدودة خاصة بهم يمارسون فيها سلوكهم الأخلاقي، وعندما يذهب أحدهم إلى المدينة يرتدي ما يغطي جسده منقطعاً عن عاداته، وعرض هذا كثيراً في أفلام وثائقية عن البيئات ومجتمعاتها البشرية.

وبسطاً للقول، فإن العفة مما تُعرف به المروءة في البيئات والمجتمعات الإنسانية على نحو العادات الحائثة على ذلك، فيروى عن نساء السلطان: إن "العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة!"^(٢). وتبلغ المنافسة على الأخلاق حتى تصل مرحلة التصريح بها، ومن ثم مرحلة التفاضل في ذلك بين الرجل والمرأة، ومن ذلك: "أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أمير بلخ لبني العباس يسمّى داود بن علي، فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث إليهم من يغرّمهم مغرمًا فادحاً، فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد، وهي زوج أميرهم، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم، فبعثت إلى الأمير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه، فقالت له: اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقصّ عليه القصة فخجل الخليفة وقال: أتكون المرأة أكرم منا؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ، وبالعودة إليها ليردّ للمرأة ثوبها، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة"^(٣).

والآن، يدرك انتقال الإنسان من نقطة التخلّق إلى الأخلاق على نحو واضح، فخلق الخليفة استحوذ عليه الغضب مما فعله أهل بلخ، فأوقع عليهم العقوبة، وعندما جاء من يسدد مغرم العقوبة عنهم تحرّكت في نفسه النخوة، ولا سيما أنها امرأة فاقتة في الكرم وطيب النفس، فاتقد الموقف الجندري عنده بقول "أتكون المرأة أكرم منّا؟"، فانتقل من الخلق الغاضب إلى التخلّق في هذا الموقف بالكرم - وهذا لا ينفي صفة الكرم بالضرورة على الأقل في هذا الموقف - ويبدو أن الخليفة رأى فيها شيئاً من الإهانة له؛ لدلالات لغوية كثيرة، منها استخدامه نون الجمع لمقام الخلافة والمُلك في لفظة "منّا"، إضافةً إلى تراتبية القياس بأنه رجل وهي مجرد امرأة لأمير تحت سلطته. وهنا استدعاء لرأي بيبي (Beezy) بأن "الاهتمام بالبيئة أمر ضروري، ولكنه ينبغي أن نكون واقعيين في مقدار ما يمكننا تغييره من سلوكنا تجاه البيئة"^(٤)، فالواقعية تتحدد بما يملك الإنسان من قرار ومساحة تأثير، وهكذا تحقق الفعل البيئي بالتغيير المشترك بين الخليفة وامرأة الأمير وأهل بلخ، كل في جانبه الخاص من هذه المروية الرحلية.

(١) السابق، ٦١/٢.

(٢) السابق، ٢٣٠/٢.

(٣) السابق، ٤٢/٣-٤٣.

(٤) مها علي حسن، الأخلاق البيئية من منظور براجماتي، ص ٣٠١.

أما الأمانة في تعاملات البيع والشراء، فكثير ذكرها، ومن أبرزها ما في أرض الظلمة من تباع الناس وتفاوضهم في ذلك دون أن يروا بعضهم بناءً على ما بينهم من ثقة: "وكننت أردتُ الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار، وبينهما مسيرة أربعين يوماً، [...] فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بإزائه من السمور والسجاجب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذوه وإن لم يرضه تركه فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن أم من الإنس ولا يرون أحداً"^(١).

إن الدراسات الفلسفية تتحدث عن الرقيب في تنفيذ الأخلاق، وهذا النموذج من ألصق الشواهد بذلك؛ فالمتبايعون لا يرون بعضهم، وعقد الصفقات يتم عن طريق النظر إلى البضاعة، فإن حدث القبول بها تمت المقايضة، وإن بقيت مدة فهذا دليل على عدم الرضا، فيرتفع ثمن المقايضة، ولم يحدث أن خرق أحدهم قانون البيع المتعارف عليهم فيما بينهم، فهو يمثل بدافع أخلاقي أصيل، وتعبير ابن بطوطة بأنك لا تدري أنس من يتبايع أم جن؟! فلغة مجازية كناية عن شديد اختفاء طرفي المبايعة.

ومن غريب ما يتصل بالأخلاق تعيب أكل الحلوى، وإن كُوفئ أكلها من المملوكين بالعتق ومنح الحرية، فهي مكافأة هزيلة لا تستحق تلطيف السمعة!! "ولقد حضرت يوماً عند السلطان أوزبك في رمضان فأحضرت لحوم الخيل، وهي أكثر ما يأكلون من اللحم، [...] وأتيت تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك. وأخبرني الأمير تكتمور أن أحد الكبار من ممالك هذا السلطان، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولداً، قال له السلطان يوماً: كل الحلواء وأعتقكم جميعاً، فأبى! وقال: لو قتلنتي ما أكلتها!!"^(٢). ولمذمة أكل الحلوى في بيئتهم، فإن الخليفة لمسها فقط؛ إكراماً لابن بطوطة، ثم وضع إصبعه على فمه، واللمس غالباً لا يعلق بعده شيء خصوصاً الحلوى جافة. وهذا التخلُّق بشيء يخالف منطق البيئات الأخرى ليس على مستوى شخص أو طبقة اجتماعية محدودة فحسب؛ فالملك والمملوك فيه سواء، بدليل التحدي بينهما أن يُعتق الأول الثاني وكل بنيه، فامتنع الأخير. وهذه الحادثة تقرينا من فكرة "النسيبة" التي تشرح التفاوت في بعض تفاصيل الأخلاق بين البيئات، فما هو معيب عند قوم يكون حسناً عند آخرين أو على أقل تقدير شيئاً عادياً لا يُذم فاعله، والعكس.

وتختلف أحياناً موازين الأخلاق تبعاً للدين، فشهراً رمضان يردع أخلاقياً قطاع الطرق، فإذا ما انتهى عادوا، فهي أخلاق مؤقتة سرعان ما تعود إلى طبيعتها إذا زال العارض، يقول: "سرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبارهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها! وكان وصولنا إلى بلادهم في

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢/٢٣٦.

(٢) السابق، ٢/٢٢٠.

شهر رمضان، وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر^(١).

وفي السياق ذاته ما عند غير المسلمين من تحريم بدافع أخلاقي كما يفعل بعض البراهمة، فهم يغالون في الإحسان إلى الحيوان بترك ذبحه؛ فالذبح عندهم تعذيب له عليهم ألا يتصفوا به: "ثم سافرنا إلى مدينة نَدْرَبَار، [...] مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون، وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكثريون أيضاً، وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم، ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة"^(٢).

٣-التأثير والتأثير:

يستطيل الامتثال في علاقته المتأوبة حتى يصل إلى منطقة التأثير بالبيئة والتأثير فيها، فيعيد مَوْضعة عدد من المكونات البيئية داخل البقعة الجغرافية وفق الظروف المحيطة بها، والمساهمة في إحداث تغيير لطباعها وتطبعها. فيدعو إلى تأمل المحيط الإنساني في البيئة ومدى تأثيره في بقية المحيطات المجاورة له من مخلوقات أخرى، ومقدار ما بينهما من تناغم واتساق أو تنافر واستعداد.

إن الحيوانات في البيئة تؤثر في بعضها، وقد يرتقي التأثير إلى درجة عالية من المشابهة القائمة على بنية التجاور. وبعيداً عن مدى إمكانية وقوع ما رواه ابن بطوطة فيما سيأتي، إلا أن شواهد اليوم كثيرة؛ فالقطط والكلاب والطيور التي يربها الإنسان في بيته تجدها بعد مدة تقلد أصحابها، أو تلك القروء التي تختطف صغار الكلاب؛ لتربيتها من أجل الحراسة كما يفعل البشر، أو غسل طعامها قبل تناوله^(٣)، وهكذا.

وعليه، فإنه من المقبول منطقاً أن تتخذ القروء في نظامها ترتيباً متعارفاً عليه كما يفعل البشر، من ذلك الحديث عن قروء كنكار: "والقروء بتلك الجبال كثيرة جداً وهي سود الألوان لها أذنان طوال ولذكورها لحي كما هي للأدميين، وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القروء لها مقدم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصا من أوراق الأشجار ويتوكأ على عصا ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القروء لها عصي بأيديها وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القروء الأربعة على رأسه وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم، وتأتي القروء فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القروء الأربعة فتصرف القروء كلها، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقروء الأربعة"^(٤).

وهنا يعنُّ سؤال: هل البيئة بمكوناتها البشرية والحيوانية تعيش دون نظام يرتب فوضى العلاقات بينها؟ أزعم: لا، والسبب فكرة العيش في جماعات، ففي تكوينها الداخلي نظام متفق عليه بوعي أو دونه لا يمكن استظهاره إلا بالملاحظة، وغالباً سهل استخلاصه من المجتمعات

(١) السابق، ٢٧٧/٤.

(٢) السابق، ٢٧/٤.

(٣) انظر: فرديريك كابلن، جورج شابوتيه، الإنسان والحيوان والآلة: إعادة تعريف مستمرة للطبيعة الإنسانية، ترجمة: ميشيل نشأت شفيق حنا، هنداوي للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م، ص٦٠.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٨٥/٤.

البشرية؛ لإمكانية الخوض معها ومعرفة ما يدور فيها. وعلى هذا النحو يتعذر في جانب الحيوانات، فتتسأ زُمرٌ متخصصة من العلماء في كل نوع من الحيوان، فيقضي العالم البيئي عمره كله في مراقبة سلوكها وطبائعها، ثم تحديد مقدار ما يكون منها من مشابهة للبشر إذا كانت قريبة من تكوينه كالقرود. وهكذا، فإن العلاقة التأثيرية بين أطراف مكونات البيئة بشتى أنواعها واقعية الحدوث؛ فالمكان الذي يجتمع فيه عدد من المخلوقات يكون بينها بفعل الوقت والمعايشة بعض الطباع المشتركة أو التطبع بخلاف ما هي عليه في غريزتها الأولى.

وكما أن المخلوقات الحية تؤثر في بعضها، فإن النباتات أيضاً في البيئة البشرية لها تأثير بوصفها مادة لبناء بيئة أخرى ملائمة للعيش داخل بيئة أكبر، من مثل بناء المنزل الذي يؤمن الإنسان من ضواري الليل وبوائق النهار، وصهد الشمس وغمر المطر، وغيرها مما لا يقوى الإنسان على تحمله، فندخل طوراً مركباً من التأثير والتأثير في مرحلة التداخل البيئي التي يعيشها الإنسان، فمثلاً مدينة كَلَوَا يبني أهلها بيوتهم من الأعشاب المائية المتوفرة في بيئتهم: "وركبنا البحر إلى مدينة كَلَوَا [...]" وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزوج المستحكمو السواد، ولهم شرطات في وجوههم [...]" ومدينة كَلَوَا من أحسن المدن وأتقنها عمارة، وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس"^(١). ويزداد الطور المركب تعقيداً بأن حيوانات البر والبحر إلى جانب النباتات مما يبني به، من ذلك ما روي عن أهل عُمان بأنهم يبنون مساكنهم من عظام السمك ويسقفونها بجلود الجمال: "ركبنا البحر نريد عُمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن إدريس المصيري، من أهل جزيرة مصيرة، وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك، [...]" وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال"^(٢).

إن مظهر إنشاء المنزل من مكونات البيئة يُبرز فكرة بناء الإطار الصغير داخل الإطار الكبير؛ فالمنزل بيئة مصغرة يخلقها الإنسان بمواصفات معينة وفق واقع تكييفه البيئي الذي عاشه ويات عالمياً بمنعطفاته، فيساعده المأوى على الاستقرار ويحقق له الأمان. وهذا الإطار البيئي الصغير مرحلة عبر إليها الإنسان الأول من خلال السكنى في الخلاء، فالكهوف، ثم نقر الجبال بيوتاً. وشيئاً فشيئاً بتقدمه وتمدنه، تحول الإطار الصغير من وظيفة نفعية تنحصر في الحماية؛ ليضم إليها الوظيفة الجمالية؛ فافترق حينها الإنسان عن الحيوان في هيئة داره، فأضحى يزين الجدر، ويرخّم الممرات، وينقش الأعمدة، ويزخرف المداخل. وفي الرحلة كثير قول عن إتقان العمارة؛ فالإنسان الفطن يعيد تدوير مكونات البيئة التي يحيا فيها ويوظفها؛ لتكون مواد تعينه على الحياة في مرتبة أولى، ثم عناصر جمالية في مرحلة ثانية.

وبلغت العمارة من التأثير في تصاميمها، بأن يستلهم مهندسها وبانيها فكرة التصميم من طائر النسر، كما في جامع دمشق: "وعدد شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة، وقد قامت على أربع وخمسين سارية، وثمانية أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون، قد

(١) السابق، ١٢١/٢.

(٢) السابق، ١٢٠/٢.

صوّر فيها أشكال محاريب وسواها، وهي تقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرًا طائرًا والقبة رأسه، وهي من أعجب مباني الدنيا، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء منيفة على جميع مباني البلاد^(١).

وقد يتأثر البيئية في بقية المخلوقات من غير الإنسان أن يكون قوتها مما هو في بيئتها، وإن خالف فطرتها؛ لأنها ألفته واعتادت عليه، فمما يصل إلى حد الغرابة في ظفار: "ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها"^(٢). والعجيب هنا منطقي؛ فالدواب طعامها النبات لا اللحوم، وتلك العادة الغذائية تفسرها القريب تأثرها بمجاورة البحر، وربما لطبيعة فيها، حيث إن هناك بقاع كثيرة فيها حيوانات تجاور البحر ولا تفعل مثلها! ولذا علق ابن بطوطة بقوله: "ولم أر ذلك في سواها". ومن دلائل هذا أن تأثير البيئية يتفاوت في المخلوقات من مكان لآخر وفق الظروف الحافة، وربما لسلسلة المخلوقات نفسها، فانفردت بالصفة طوال الرحلة لعجائبيتها، "وسواء تعلق الأمر بالسياق اللغوي أو سياق المنظومة الإيكولوجية فليس ثمة عنصر فردي قد يفهم بمعزل عن السياق المؤلّد والمحدّد للكلية المنظومية"^(٣) إلا من خلال فهم الصورة العامة للإطار الكبير المتمثل في البيئية.

وتصل البيئية إلى تأثير أعلى بأن تكون الحيوانات انتقائية في تناول طعامها، فمثلاً لا تأكل العشب اليابس؛ لاعتيادها على الغض منه، كما في بلاد السلطان أوزبك خان: "والتبن هنالك لا تأكله الدواب، لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد"^(٤). وهنا ملمحان: الأول: بيئي طبيعي من اعتياد الدواب على العشب الطري لدوام اخضرار الأرض، والثاني: طبي بيئوي بأن ما هو طعام لدواب غيرها يسمّنها يكون مرضاً عليها يهلكها. ويمكن ملاحظة العلاقة بين تأثير الدابة وتأثير النبات بوصفها الطرف الأول للمعادلة، ثم تأثر الإنسان بوصفه طرفاً ثانياً؛ فمرض الدواب يضره موتها لاعتماده على نتاجها.

ويتسع تأثير خصب البيئية واخضرارها إلى التأثير إيجاباً في الحياة الاقتصادية للإنسان كما في الثمن والتسعير بالهند: "حدثني محمد المصمودي المغربي، وكان من الصالحين، وسكن هذا البلد قديماً، ومات عندي بداهلي، أنه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثهم في السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشتري الأرز في قشره، بحساب ثمانين رطلاً دهلية بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خمسون رطلاً صافية وهي عشرة قناطير، ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة، وبقره الجواميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم، ورأيت الكباش السمين يباع بدرهمين، ورطل السكر بأربعة دراهم، وهو رطل دهلي، ورطل الجلاب بثمانية دراهم، ورطل السمن بأربعة دراهم، ورطل السيرج بدرهمين، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي زرعه ثلاثون ذراعاً يباع بدينارين"^(٥).

(١) السابق، ٣٠٨/١.

(٢) السابق، ١٢٤/٢.

(٣) مايكل برانش، النقد الإيكولوجي، ترجمة: معين رومية، ص ٢٨.

(٤) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢/٢٤٠.

(٥) السابق، ١٠١/٤.

وبما أن الإنسان يأخذ من البيئة ما يعينه على الحياة، ويقوم صلبه، ويكفل لبني جنسه الاستمرار، فإنه أحياناً لا يلتزم معها بهذا التبادل الإيجابي من التأثير النافع فيؤثر فيها بالسلب الضار، فيحوّلها إلى مكان رديء، وإن بدا في ظاهر فعله المسالمة وممارسة الحياة؛ فالبشر متغايرون في طبقة الوعي، ومن ذلك التلوّث المتعمّد: "وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البربرة، [...] وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقدر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة. ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرهما، ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة، ووصلنا مقدشو"^(١). ويتبين مما سبق أن الإنسان قادر على تحويل مكان عيشه الطبيعي/(الأرض) إلى مكان طارد يلجئ إلى استيطان الماء للنوم. والتناظر بين التلوّث والاطمئنان للعيش قديم؛ إذ لا يمكن للإنسان السوي أن يحيا في القذارة؛ احتياطاً للراحة وتحوطاً من المشكلات التي يؤدّي به؛ فالأدب "لا يقف عند حدود الوصف البيئي، [...] بل أصبح ذا أفق أوسع من ذلك وأبعد، إذ صار الأدب البيئي وثيقة معالجة للضرر الذي حاق بالمنظومة الطبيعية"^(٢)، بما فيها ما ينتقل إلى الإنسان من جرائم بفعل جناية تلوّثه للبيئة.

ومن الملامح العكسية ما أسميه مقاومة التأثير، فالبحث عن خصلة ما في الطبيعة قد يكون لصد صفة بيئية مضادة، فمثلاً القاقم مطلوب في أرض الجليد وما جاورها؛ لعدم تأثره بالقمل: "والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرّفها من ذهبنا مائتان وخمسون، وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله، والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمئة دينار فما دونها. وخاصة هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل، وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق، وكذلك تجار فارس والعراقيين"^(٣). إن فشل التأثير ورفض الاستجابة مطلوب في ظروف معيَّنة؛ لأن التأثير لا يحقق مقصد الانتفاع من البيئة، فذلك الجلد لو استوطنه القمل لما صلح للاستعمال، ومن ثم لا قيمة يقدمها للإنسان لغرض الدفاء.

وتبلغ مقاومة التأثير أن تقلل مستوى الأثر ولا تلغيه تماماً إن عجزت، كأن يكون للمتأثر مكانة عالية، أو صفات مخصوصة، فلا تقع عليه الأحكام العامة في بيئته، من ذلك أن حكم قاتل البقر في الهند القتل أو الحرق في جلدها، ولكن ذلك لا يحدث للشيخ عثمان في الهند، إنما بعقوبة دونها؛ فسلطان "هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الأدياء أولاده وغلماؤه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة! وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلهما أو جعل في جلدها وحرق، وكان الشيخ عثمان معظماً عندهم فقطعوا يده ورجله وأعطوه مجبى بعض الأسواق"^(٤).

أما الصفات المخصوصة، فمثله الحجر الذي نزل من السماء ولم تعمل فيه الآلة والحديد: "وسألني السلطان في هذا المجلس، فقال لي: هل رأيت قطّ حجراً نزل من السماء؟ فقلت: ما

(١) السابق، ١١٤-١١٥.

(٢) إيمان مطر السلطاني، وآخرون، النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، ص ٢٠.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢/٢٣٧.

(٤) السابق، ٨١/٤.

رأيت ذلك ولا سمعت به. فقال لي: إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء، ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر، فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق، قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً وأمر السلطان بإحضار القطّاعين فحضر أربعة منهم، فأمرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرّات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئاً، فعجبت من أمره، وأمر برده إلى حيث كان^(١). والظن، أن الحجر من النيازك التي اخترقت الحجاب بين السماء والأرض/(الغلاف الجوي) واستطاع أن ينجو من الاحتراق الكامل، فتساقط الشهب ليس مجهولاً عند العرب والإنسان عموماً، وعن النيازك أحاديث متفرقة في التراث العربي^(٢)، وربما سبب الدهشة التي لحقت ابن بطوطة ومجلس السلطان أن الحجر صلد لم يطاوعهم بالتفتت خلاف ما ألفوه من الحجارة.

ومن المقاومة الامتناع عن أكل اللحم الطيب، فمن ذا الذي يعرض نفسه لخطر الموت عطشاً من أجل صيد؟! فعن صحراء السودان: "وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس، وهي آمنة من السرّاق، والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والتشّاب، لكن لحمها يولّد أكلة العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك"^(٣).

ومن التّأثر والتّأثير في البيئة الإصابة بالأمراض، وتهتم به اليوم الجغرافيا الطبية^(٤)، ومنظمة الصحة العالمية، وهي تخضع لعدد من العوامل البيئية البشرية والعوامل البيئية الطبيعية، فمنها ما هو بسبب تغيير الطعام وعدم الاعتياد عليه كفعل البطيخ بابن بطوطة: "والبطيخ العجيب الشّأن الذي ليس في الدنيا مثله إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم وقشره أخضر وداخله أحمر، ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة، ومن لم يكن ألف أكله فإنه في أول أمره يُسهله، وكذلك اتّفق لي لما أكلته بأصفهان"^(٥). وهذا يفسره ابن القيم منذ القديم في كتابه (الطب النبوي) بالحديث عن تعدد الطبايع^(٦). ويبدو أن المواظبة له دورها أيضاً، ولا يدرك الإنسان نفسه إلا إذا سافر وتعرّض لأطعمة غير معتادة؛ لظروف السفر ولتعدد إمكانيات توفر ما اعتاد عليه، ونلاحظ هذا في أسفارنا اليوم، وما قول ابن بطوطة إلا دليل على أن التجربة الإنسانية واحدة مهما بعدت المسافة أو تغير الزمن.

ومن الأمراض التي أصابته ما سببه الحر في بلاد بردامة: "وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء"^(٧). وللسبب نفسه لم ينج بعض مرافقيه في إحدى رحلاته يقول: "وفي يوم وصولي إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار علي بعض الإخوان بمرافقتهم فاستخرت الله عز وجل في ذلك، وأقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء ما ربي، وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة، وأدركتهما بها وذلك في إبان القيظ فلحق الفقيهين مرضاً أقمنا بسببه عشرًا، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة

(١) السابق، ١٨٨/٢.

(٢) انظر: علي عبدالله بركات، النيازك في التاريخ الإنساني، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط١، ٢٠٢١م، ص٤٧.

(٣) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٤٣/٤.

(٤) انظر: عبدالعزيز طريح شرف، البيئة وصحة الإنسان في الجغرافيا الطبية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ط.)، (د.ت)، ص٢٩.

(٥) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٣١/٢.

(٦) انظر: ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق: بشير محمد عيون، دار البيان، دمشق، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٧.

(٧) ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٧٤/٤.

أميال من مليانة ثلاثاً، وقضى القاضي نعبه ضحى اليوم الرابع"^(١). ولأجل هذه الأحوال الجوية يُوَطَّر الإنسان نفسه في نطاق داخلي محدود/(البيت) داخل إطار خارجي مفتوح/(البيئة) كما مر بنا .

ومن الحديث عن المرض من الفرد إلى الجماعات ما يحدث لأهل ظفار من انتفاخ القدمين والفتاق، يقول "والغالب على أهلها رجالاً ونساء المرض المعروف بداء الفيل، وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر والعياذ بالله"^(٢). ولذلك فإن الحمية مطلبٌ للحفاظ على الصحة، فالأرز مثلاً مرضٌ لمن ليس من أهل زرعته: "الأرز يضر أكله بالبيضان، والفوني خير منه"^(٣).

ولا يملك الإنسان لنفسه أحياناً حيلةً للاحتياط من المرض، ولكن هناك الأمراض عن قصد مثل التسميم كما حدث للأمير أحمد: "ذكر أن الملك الناصر وهب ليكتمور الساقية جارية، فلما أراد الدنو منها قالت له: إنني حامل من الملك الناصر، فاعتزلها، وولدت ولداً سمّاه بأمير أحمد ونشأ في حجره، فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر، فلما كان في هذه الحجّة تعاهداً على الفتك بالملك الناصر، وأن يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال فتمى الخبر إلى الملك الناصر فبعث عن أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحاً وناول أمير أحمد قدحاً ثانياً فيه السمّ فشربه، وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت، فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكثر بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب، وبلغ خبره إلى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحاً فيه سمّ فناوله إياه وقال له: بحياتي عليك ألا شربت فبردت نار قلبك! فشربه ومات من حينه، ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق ما نسب إليه من الفتك بالملك الناصر"^(٤). إذن في الأمراض من خلال السم صناعة مقصودة للمرض، وهذا أخطر من سابقه؛ فالأمراض المعروفة المتداولة أدويتها بين الناس يمكن كشفها ودفعها بالدواء أو التشافي به، خلاف الأمراض بالسم ونحوه الذي لا يعلم عنه أحد غالباً إلا صانعه، فيهلك المصاب به قبل أن يستدل على علته.

(١) السابق، ١/١٥٨.

(٢) السابق، ٢/١٢٤.

(٣) السابق، ٤/٢٤٩.

(٤) السابق، ٢/١٥٤.

خاتمة:

إن تناول المدونة الأدبية التراثية بمعطيات النقد الحديث فيه إثراء للطرح العلمي وتجديد لحيوية الدرس النقدي؛ إذ يربط الباحث العربي بين قديم تراثه وجديد عصره، وعلى قدر ما يظهر بينهما من تعاون يبرز ثراء المدونة ويتجلى المنهج. ومن أوجه الربط محاولة إحداث التفاعل بين رحلة ابن بطوطة والنقد البيئي.

فتبين أن الرحلة مدونة بيئية بامتياز؛ لشديد احتفاء ابن بطوطة بالوجود البيئي مشاهدةً ووصفاً وتعليقاً، فالإنسان والمكان والزمان لهم فاعليتهم البيئية وأثرهم الممتد. وفي السياق الرحلي حديثٌ عن المنظومة البيئية بمظهر إنساني ملوّن بالعاطفة، ومنه: التلوث، والأمراض، والعمارة، والقوانين، فالرحلة أيضاً توثيق جغرافي وطبي وعمراني ومجتمعي، يمكن من خلالها رسم خرائط ذهنية عديدة لموضوعات بيئية أو لها اتصال وثيق بها. وهذا يفضي بالقول إلى: إن الرحلة تحولت في بعض منعطفاتها إلى وثيقة علمية وفق ما يتعاطى معه الموقف، والتوثيق من أبرز وظائف سردية الرحلة التي تأخذك إلى عمق أغور من مجرد قولٍ واصفٍ؛ لتبني فضاء ثقافياً خاصاً بها ينطلق من طبيعة جنسها الأدبي.

ولا تسلم الدراسات النقدية العربية من دوامة تعريب الاصطلاحات، ويشتد الارتباك إذا كان على المصطلح خلاف واضح في مصدره العلمي الذي قدم منه، وفي هذا مخرج لثقافة الدراسات العربية إذا وقع التعارض بينها -إن حدث-، ومع هذا، فقد تماسك المتلقي العربي، وحاول الخروج من حالة قلق المصطلح إلى الاستقرار، بتثبيت الأطر العامة للنقد البيئي، والإفادة من الخلافات الاصطلاحية والتخالفات التطبيقية، لينشئ مساراً واضحاً يمكن الباحثين من العمل على ضوئه بأكبر قدر ممكن من الاتزان العلمي والبحث المنهجي.

ومن المهم الإشارة إلى أن مراجع النقد البيئي ما تزال شحيحة في المكتبة العربية، فالترجمات لمقالات رواد النقد البيئي هي المرجع الرئيس لمعظم الدارسين، وعلى باحث الأدب -الظن- في نطاق الدراسات البيئية أن يحسن الخروج من هذه الفجوة من باب القراءة في التخصصات المتقاطعة مع طرحه؛ لتبني أطره العلمية المنضبطة، وتزوده بالأفكار الرصينة المشرقة.

ومن أبرز التوصيات أن الإرث العربي القديم فيه مادة سردية ضخمة، يمكن تناولها من وجهة نظر الدرس البيئي، فما يزال الرف في المكتبة غير مزدهم بها، ويتلقف بلهفة شديدة أي نتاج معرفي في هذا الحقل.

مسرد المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

١. ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادى التازى، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (سلسلة تراث)، الرباط، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ثانياً: المراجع:

٢. أ. فالسي، وآخرون، في الثقافة والعرفان والتداول: مقارنة بينية، ترجمة: ثروت مرسي، عبدالرحمن طعمة، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.
٣. أحمد السروري، الإدارة البيئية، الدولية للكتب العلمية، مصر، ط١، ٢٠١٩م.
٤. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مراجعة: خير الدين الزركلي، هنداوي للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٨م.
٥. أسماء أبو بكر، ابن بطوطة، الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٦. إغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوف فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان بن هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٦٣م.
٧. بول وورد، وآخرون، البيئة: تاريخ الفكرة، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.
٨. جرج جرارد، النقد البيئوي، ترجمة: عزيز صبحي جابر، مراجعة: أحمد خريس، دار كلمة، أبو ظبي، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٩. جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، دار النايفة، القاهرة، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
١٠. جون إم ويلكنزوشون هيل، الطعام في العالم القديم، ترجمة: إيمان جمال الدين الفرماوي، مراجعة: هبة عبدالمولى أحمد، مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٧م.
١١. جوناثان أتش تيرنر، علم الاجتماع النظري: مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية، دار جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.
١٢. خير الدين الزركلي، الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
١٣. داليا عبد الله تونسى، التعليل الأخلاقي بين البنيويين والنسبويين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
١٤. روبرت غريبن، ثلاث وثلاثون إستراتيجية للحرب، ترجمة: سامر أبو هوش، دار كلمة، هيئة أبو ظبي للتراث والثقافة، ط٢، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
١٥. سناء محمد الجبور، الإعلام البيئي، دار أسامة، عمان، ط١، ٢٠١١م.
١٦. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط٨، (د.ت).
١٧. عبد العباس فضيخ الغريبي، البيئة والجغرافيا السياسية، دار صفاء، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

١٨. عبد الناصر زياد الهياجنة، القانون البيئي، دار الثقافة للنشر، عمّان، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
١٩. عبدالرحيم العماري، خطاب الرحلة بين ابن بطوطة وماركو بولو: مقارنة إثنو-سيمائية مقارنة، ندوة ملتقيات ابن بطوطة للتواصل بين الثقافات، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة-جامعة عبدالملك السعدي، طنجة، ١٩٩٣م.
٢٠. عبدالعزيز طريح شرف، البيئة وصحة الإنسان في الجغرافيا الطبيعية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ط.)، (د.ت).
٢١. عبدالمجيد حميد الكبيسي، الإنسان والبيئة، دار الأعصار العلمي، عمّان، ط١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
٢٢. علي عبدالله بركات، النيازك في التاريخ الإنساني، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط١، ٢٠٢١م.
٢٣. غطاس عبدالملك خشبة، المعجم الموسيقي الكبير، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
٢٤. فاروق عبدالجواد شويشة، الجغرافيا الأنثروبولوجية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط.)، (د.ت).
٢٥. فرديريك كابلن، جورج شابوتيه، الإنسان والحيوان والآلة: إعادة تعريف مستمرة للطبيعة الإنسانية، ترجمة: ميشيل نشأت شفيق حنا، هنداوي للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.
٢٦. ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق: بشير محمد عيون، دار البيان، دمشق، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٢٧. لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.
٢٨. لورنس بويل، وآخرون، النقد البيئي بين التنظير والتطبيق، ترجمة: معتز سلامة، دار النابعة، القاهرة، ط١، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.
٢٩. مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية، ترجمة: سعيد منتاق، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٣٠. مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية، ترجمة: معين شفيق رومية، عالم المعرفة الكويت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٣١. أبو المعاطي الرمادي، معجب العدواني، النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، وحدة السرديات - جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ٢٠٢٢م.
٣٢. معين رومية، من البيئة إلى الفلسفة، معابر للنشر، دمشق، ط١، ٢٠١١م.
٣٣. المقري، نفع الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٣٤. نجاح الجبيلي (إعداد وترجمة)، النقد البيئي: مقدمات مقاربات تطبيقات، دار شهریار، العراق، ط١، ٢٠٢١م.

ثالثاً: الدوريات:

١. أماني حسن يوسف، وآخرون، اتجاهات النقد البيئي وتداخله مع المناهج الحداثية وما بعد الحداثية، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، مصر، العدد ٤٦، ٢٠٢٢م.
٢. إيمان مطر السلطاني، وآخرون، النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، العدد ٣٣، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م.
٣. بسمة عروس، النقد الإيكولوجي ومستقبل الدرس الأدبي، مجلة حوارات فكرية، اتحاد الكتاب التونسيين، العدد ٣، أبريل ٢٠٢٢م.
٤. تيموذي كلارك، الأدب والبيئة: التحدي، ترجمة: سعيد منتاق، مجلة سرود (النقد البيئي)، مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء، المغرب، العدد ٧، شتاء ٢٠٢٣م.
٥. جو موران، العلم والمكان والطبيعة في النقد البيئي، ترجمة سمر طلبة، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨م.
٦. جيليك توشيتس، النقد البيئي: دراسة بينية في الأدب والبيئة، ترجمة: سناء عبدالعزيز، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨م.
٧. عبدالجبار السامرائي، رحلة ابن بطوطة، المورد، مج ١٨، العدد ٤، ١٩٨٦م.
٨. لويس ويسلنج، الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان، ترجمة: عبدالرحمن طعمة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، شتاء ٢٠١٨م.
٩. مايكل برانش، النقد الإيكولوجي، ترجمة معين رومية، مجلة نوافذ، النادي الأدبي بجدة، العدد ٣٦، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١٠. مها علي حسن، الأخلاق البيئية من منظور برامجاتي، مجلة بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، مصر، السنة ٤٧، العدد ٦١، مارس ٢٠٢١م.

List of References and Sources:

First: Sources:

1. Ibn Baṭṭūṭah, Tuḥfat al-anzār fī gharā'ib al-amṣār wa-'ajā'ib al-asfār, investigated by: Abdālhādy al-Tāzī, Moroccan Academy Publications (Silsilat Turāth), Rabat, Vol.1, 1417H / 1997.

Second: References:

1. A. Fālsy et al., fī al-Thaqāfah wa-al-'irfān wa-al-tadāwul: interdisciplinary approach, translated by: Tharwat Mursī, Abd-al-Raḥmān Ṭu'mah, Dār Kunūz al-Ma'rifah, Jordan, Vol.1, 1443H / 2022.
2. Aḥmad al-Sarawī, Environmental Administration, al-Dawlīyah for Scientific Books, Egypt, Vol.1, 2019.
3. Ikhwān al-Ṣafā, Rasā'il Ikhwān al-Ṣafā wa-Khullān al-Wafā, revised by: Khayr al-Dīn al-Ziriklī, Hindāwī Publishing House, Cairo, Vol. 1, 2018.
4. Asmā' Abū Bakr, Ibn Baṭṭūṭah, al-rajul wa-al-riḥlah, Dār al-Kutub al-'Ilmiyah Publishing House, Beirut, Vol.1, 1412 H/ 1992.
5. Ighnāṭiyūs ywlyā nwftsh krātshkwf fsky, Tārīkh al-adab al-jughrāfī al-'Arabī (History of Arabic Geographical Literature), translated by: Ṣalāḥ al-Dīn 'Uthmān ibn Hāshim, Dār al-Gharb al-Islāmī Publishing House, Vol.1, 1963.
6. Būl wurd et al., al-bī'ah :Tārīkh al-fikrah (Environment and History of Idea), 'Ālam al-Ma'rifah Publishing House, Kuwait, Vol.1, 1444H / 2023.
7. Jrj jrārd, al-naqd alby'wy (Environmental Criticism), translated by: Azīz Ṣubḥī Jābir, revised by: Aḥmad Khurays, Dār Kalimah Publishing House, Abu Dhabi, Vol.1, 1430H / 2009.
8. Jamīl Ḥamdāwī, naẓarīyāt al-naqd al-Adabī wa-al-balāghah fī marḥalat mā ba'da al-ḥadāthah, Dār al-Nābighah Publishing House, Cairo, Vol.1, 1437H / 2016.
9. John M wylknzshwn Hail, al-ṭa'ām fī al-'ālam al-qadīm, translated: Īmān Jamāl al-Dīn al-Faramāwī, revised by: Hibat Abdālmwlá Aḥmad, Mu'assasat Hindāwī Publishing House, Vol.1, 2017.
10. Jonathan H Turner, 'ilm al-ijtimā' al-naẓarī (Theoretical Sociology Science): muqaddimah mūjazah lāthnty 'ashrah Naẓarīyat ijtimā'iyah (Introduction to

- Twelve Social Theories), Dār Jāmi'at al-Malik Sa'ūd Publishing House, Riyadh, Vol.1, 1441H / 2019.
11. Khayr al-Dīn al-Ziriklī, al-A'lām, Dār al-'Ilm lil-Malāyīn Publishing House, Beirut, Vol.15, 2002.
 12. Dāliyā 'Abd Allāh Tūnisī, al-Ta'līl al-akhlāqī bayna albnywyyin wālnsbwyyin, al-Shabakah al-'Arabīyah lil-Abḥāth wa-al-Nashr Publishing House, Beirut, Vol.1, 2013.
 13. Robert Greben, thalāth wa-thalāthūn istirātījīyah lil-ḥarb (Thirty-Three War Strategies), translated by: Sāmīr Abū Hawwāsh, Dār Kalimah Publishing House, Hay'at Abū Ḍaby lil-Turāth wa-al-Thaqāfah (Abu Dhabi Department of Culture and Tourism), Vol.2, 1438H / 2017.
 14. Sanā' Muḥammad al-Jubūr, al-'Ilām al-bī'ī (Environmental Information), Dār Usāmah Publishing House, Amman, Vol.1, 2011.
 15. Shawqī Ḍayf, Tārīkh al-adab al-'Arabī (History of Arabic Literature), al-'aṣr al-'Abbāsī al-Awwal (the first Abbasid period), Dār al-Ma'ārif Publishing House, Cairo, Vol.8, (n.d.).
 16. 'Abd al-'Abbās Fuḍaykh al-Gharīrī, al-bī'ah wa-al-jughrāfiyā al-siyāsīyah, Dār Ṣafā' Publishing House, Amman, Vol.1, 1423H / 2003.
 17. 'Abd al-Nāṣir Ziyād al-Hayājīnah, al-qānūn al-bī'ī, Dār al-Thaqāfah Publishing House, Amman, Vol.1, 1433H / 2012.
 18. 'Bdālḥym al-'Ammārī, Khaṭṭāb al-Riḥlah bayna Ibn Baṭṭūṭah wa Marco Polo: muqārabah ithnw-symyā'yh muqāranah, Nadwat multaḡayāt Ibn Baṭṭūṭah lil-tawāṣul bayna al-thaqāfāt, Madrasat al-Malik Fahd al-'Ulyā Iltrjmt (King Fahd School for Translation), jām'h 'bdālmālk al-Sa'dī (Abdelmalek Essaādi University), Ṭangier, 1993.
 19. 'Abd-al-'Azīz ṭryḡ Sharaf, al-bī'ah wa-ṣiḥḡat al-insān fī al-jughrāfiyā al-ṭibbīyah, Dār al-jāmi'āt al-Miṣrīyah Publishing House, Alexandria, (n. e.) (n. d.).
 20. 'Abd-al-Majīd Ḥamīd al-Kubaysī, al-insān wa-al-bī'ah, Dār al-'ṣār al-'Ilmī Publishing House, Amman, Vol.1, 1440H / 2019.
 21. Alī Abdul-Allāh Barakāt, alnyāzk fī al-tārīkh al-insānī, Mu'assasat Hindāwī Publishing House, Cairo, Vol.1, 2021.
 22. Ghaṭṭās 'bdālmk Khashabah, al-Mu'jam al-mūsīqī al-kabīr, al-Majlis al-A'lā lil-Thaqāfah (Supreme Council of Culture), Cairo, Vol.1, 2004.

23. Fārūq Abdul-Jawad Shuwayshah, al-jughrāfiyā al-Anthrūbūlūjiyah (Anthropological Geography), Dār al-Fikr al-'Arabī Publishing House, Cairo, (n. e), (n., d.).
24. Fredereck Kablin, George Shabotaih, al-insān wa-al-ḥayawān wāl'ālh (Man, Animal, and Machine): i'ādat ta'rīf mustamirrah llṭby'h al-Insāniyah, translated by: Michael Nash'at Shafīq Ḥannā, Hindāwī lil-Nashr Publishing House, Cairo, Vol. 1, 2015.
25. Ibn Qayyim al-Jawzīyah, al-ṭibb al-Nabawī (Prophetic Medicine), investigated by: Bashīr Muḥammad 'Uyūn, Dār al-Bayān Publishing House, Damascus, Vol.5, 1419H / 1999.
26. Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb, al-iḥāṭah fī Akhbār Gharnāṭah, Dār al-Kutub al-'Ilmiyah Publishing House, Beirut, Vol.1, 1424H.
27. Lorence Bowel et al., al-naqd al-bī'ī bayna al-tanzīr wa-al-taṭbīq, translated by: Mu'tazz Salāmah, Dār al-Nābighah Publishing House, Cairo, Vol.1, 1444H/ 2023.
28. Mike Crang, al-jughrāfiyā al-Thaqāfiyah (Cultural Geography), translated by : Sa'īd mntāq, 'Ālam al-Ma'rifah Publishing House, Kuwait, Vol.1, 1426 H/2005.
29. Mickel Zimmerman, al-falsafah al-bī'iyah (Environmental Philosophy), translated by: Mu'īn Shafīq Rūmīyah, 'Ālam al-Ma'rifah Publishing House, Kuwait, Vol. 1, 1427H / 2006.
30. Abū al-Ma'āṭī al-ramādī, Mu'jab al-'Adwānī, al-naqd al-bī'ī :Mafāhīm wa-taṭbīqāt (Environmental Criticism: Concepts and Applications), Waḥdat al-Sardiyyāt – Jāmi'at al-Malik Sa'ūd (King Saud University), Riyadh, Vol.1, 2022.
31. Mu'īn Rūmīyah, min al-bī'ah ilā al-falsafah (From Environment to Philosophy), Ma'ābir lil-Nashr Publishing House, Damascus, Vol.1, 2011.
32. al-Muqrī, Nafḥ al-Ṭayyib min Ghuṣn al-Andalus al-raṭīb, investigated by: Iḥsān 'Abbās, Dār Ṣādir Publishing House, Beirut, Vol.1, 1997.
33. Najāḥ al-Jubaylī (preparation and translation), al-naqd al-bī'ī (Environmental Criticism): muqaddimāt muqārabāt taṭbīqāt, Dār Shahrayār Publishing House, Iraq, Vol.1, 2021.

Third: Periodicals

1. Amānī Ḥasan Yūsuf et al., Ittijāhāt al-naqd al-bī'ī wtdākhlh ma'a al-Manāhij al-ḥadāthiyah wa-mā ba'da al-ḥadāthiyah, al-Majallah al-'Ilmiyah bi-Kullīyat al-

- Ādāb (Scientific Journal in Faculty of Arts), Jāmi'at Ṭantā (Tanta University), Egypt, edition 46, 2022.
2. Īmān Maṭar al-Sulṭānī et al., al-naqd al-bī'ī ufuq Akhḍar fī al-Dirāsāt al-naqdīyah al-mu'āṣirah, Majallat al-lughah al-'Arabīyah wa-ādābihā (Journal of Arabic Language and Arabic Literature), Jāmi'at al-Kūfah (Kufa Univeristy), edition 33, 1442H / 2021.
 3. Basmah 'Arūs, al-naqd al'ykwlwjy wa-mustaqbal al-dars al-Adabī (Ecological Criticism and Future of Literary Lesson, Majallat ḥiwārāt fikrīyah Journal, Ittiḥād al-Kitāb al-Tūnisīyīn (Union of Tunisian Writers), edition 3, April 2022.
 4. Tymwdhy Clark, al-adab wa-al-bī'ah: al-taḥaddī (Literature and Environment: Challenge), translated: Sa'īd mntāq, Majallat srwd (al-naqd al-bī'ī) "Srwd Jouran (Literary Criticism), Mukhtabar al-Sardīyāt, Kullīyat al-Ādāb wa-al-'Ulūm al-Insānīyah bi-Namsīk bi-al-Dār al-Bayḍā' (Faculty of Arts and Humanities in Casablanca), Morocco, edition 7, Winter 2023.
 5. Joe Moran, al-'ilm wa-al-makān wa-al-ṭabī'ah fī al-naqd al-bī'ī (Science, Place and Nature in Literary Criticism), translated by: Samar Tolbah, Majallat fuṣūl Journal, al-Hay'ah al-Miṣrīyah lil-Kitāb (Egyptian General Book Organization), edition 102, Winter 2018.
 6. Jeleca Toshets, al-naqd al-bī'ī: dirāsah bynyh fī al-adab wa-al-bī'ah (Environmental Criticism: Interdisciplinary Study of Literature and Environment, translated by: Sanā' 'Abd-al-'Azīz, Majallat fuṣūl Journal, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-'Āmmah lil-Kitāb (Egyptian General Book Organization), edition 102, Winter 2018.
 7. 'Abdāljbar al-Sāmarrā'ī, Riḥlat Ibn Baṭṭūṭah, al-Mawrid, Vol.18, edition 4, 1986.
 8. Lewis Wesling, al-adab wa-al-bī'ah wa-mas'alat mā ba'da al-insān, translated by: 'Abd-al-Raḥmān Ṭu'mah, Majallat Fuṣūl Journal, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-'Āmmah lil-Kitāb (Egyptian General Book Organization), Winter 2018.
 9. Mickel Branch, al-naqd al'ykwlwjy (Ecological Criticism), translated by: Mu'īn Rūmīyah, Majallat Nawāfidh Journal, al-Nādī al-Adabī bi-Jiddah (Society of Culture and Arts in Jeddah), edition 36, 1428H / 2007.
 10. Mahā 'Alī Ḥasan, al-akhlāq al-bī'īyah min manzūr barājamātī (Environmental Ethics from a Pragmatic Perspective), Majallat Buḥūth al-Sharq al-Awsaṭ Journal, Ain Shams University, Egypt, year 47, edition 61, March 2021.

